وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة البليدة 2 – علي لونسي
كلية الآداب و اللّغات
مخبر اللّغة العربية وآدابها

الصوتيات

حولية أكاديمية محكّمة متخصصة تصدر
عن مخبر اللّغة العربية و آدابها
جامعة البليدة 2 – علي لونيسي – الجزائر

العدد السادس عشر – أفريل 2015
رقم الإيداع : 2762–2005
ISSN: 1112 - 6426

الصوتيـــات

حولية أكاديمية محكّمة متخصصة
تصدر عن مخبر اللّغة العربية وآدابها
جامعة البليدة 2– علي لونيسي

- الرئيس الشرفي: الأستاذ السعيد بومعيزة
رئيس جامعة لونيسي علي –البليدة 2

- مدير التحرير : أ. د / عمار ساسي.
مدير مخبر اللّغة العربية وآدابها-الصوتيات العربية الحديثة

- هيئة التحرير : د/ صادق خشاب د/ نورالدين بلاز
د/ محمد لالوق د/ عثمان مسوس
- التنسيق التقني و الإخراج : أ/ كـمال حسايني

الهيئة العلمية الوطنية :

- أ.د/ عبد الرحمان الحاج صالح – الجزائر.
- أ.د/ دليلة براكني – البليدة 2.
- أ.د/ محمد العيد رتيمة – الجزائر2 .
- أ.د/ نصرالدين بوحساين – البليدة 2.
- أ.د/ بوعبدالله لعبيدي – البليدة 2.
- أ.د/ عبد العزيز محي الدين – البليدة 2.
- أ.د/ عمر لحسن – عنابة.
- أ.د/ أحمد عزوز - وهران .
- أ.د/ ناصر الدين خليل – وهران .
- أ.د/ مكي دّرار – وهران .
- أ.د/ نادية صام - البليدة 2.
- أ.د/ جيلالي بن يشو – مستغانم.
- أ.د/ جمال معتوق – البليدة 2.
- أ.د/ عبدالقادر سلامي – تلمسان.
- أ.د/ محجوب بلمحجوب – البليدة 2.
- أ.د/ يحي بعيطيش – قسنطينة.
- د/ أمحمد العماري – البيدة 2.
- د/ علي حميداتو – البليدة 2.
- د/ سيد علي صحراوي – البليدة 2.
- د/ فوزية سرير عبدالله – البليدة2.
- د/ جويدة عباس – البليدة 2.

الهيئة العلمية الدولية:

- أ.د/ فهد مسعد اللهيبي – السعودية.
- أ.د/ أحمد نعيمي – الأدرن.
- أ.د/ هادي نهر – الأردن.
- أ.د/ أيمن ميدان – مصر .
- أ.د/ حسن محمد بشير – السودان .
- أ.د/ خلف الخريشة – الأردن .
- أ.د/ الطيب بوقرة – فرنسا .
- أ.د/ عبدالغاني أبوالعزم – المغرب.
- أ.د/ عبدالرزاق بن عمر – تونس.
- أ.د/ مصطفى بوعناني – المغرب .
- د/ عمر إسحاق أوغلو – تركيا.

عنوان المراسلة : أ . د. عمار ساسي مدير مخبر اللغة العربية و آدابها - الصوتيات العربية الحديثة- كلية الآداب و اللغات – جامعة البليدة 2 -علي يونسي – الجزائر dr.saciamar@yahoo.fr Tél : 213 7 72 93 06 59

فـــهرس العدد السادس عشر

الافتتاحية أ.د عمار ساسي 01

الأستاذ	عنوان المداخلة	الصفحة
د. قارة حدّاش	صفعات ساخنات و أخر باردات على وجوه البشرية ليعلموا أنّ القرآن كلام الرحمان و أنّ العربية لغة ربانية – وهران	04
د. محمد الأمين خلادي	مدخل إلى التكرار الصوتي في البيان العربي و نظرية التراداد الجديدة (قراءة في مهايا الحدود و جهاز المصطلح)-أدرار	30
د. فتيحة بوتمر	تصميم برنامج التدريب الصوتي في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها –البويرة	44
أ. فايزة حسناوي	البنية الصوتية في الموشح الأندلسي و أبعادها الدلالية – ابن زهر أنموذجا – دراسة وصفية إحصائية تحليلية – المدية	62
أ. محمَّد هتهوت	مَفاهيم اللَّهجيَّات: قِراءة في المنهجِ والأَداة- (جامِعة البُليدة 02)	70
أ.فايزة حريزي	القراءات الشاذة والاحتجاج بها في العربية – جامعة خميس مليانة	83
د. خالد موسى مصطفى العجارمة	تفسير العلامة الإعرابية في جملة النداء – جامعة تبوك -المملكة العربية السعودية	91
أ. محمد بشير باي	البنية الصّرفيّة بين العدول و الالتفات – جامعة الجزائر 1	105
أ. مراد العرابي	اسم الإشارة رابطاً في التعقيبات القرآنية – البليدة	117
أ. بن شرقي عتابي	القياس في النحو و الفقه بين المؤيدين و المعارضين – وصف و تحليل – البليدة 2	127
أ. د. أحمد فليح	الخطاب النحوي في الأندلس بين المتابعة والممانعة – جامعة جرش – الأردن	139
د.عبداللطيف مطيع عبدالقادر	الفعل الأجوف ومشتقاته بين اللهجات العربية "دراسة وتحليل" عمان – الأردن	149
د. عبد الحق بلعابد	اللّغة العربية والرهانات المستقبلية (من بلاغة الرسم إلى بلاغة الرقم) –جامعة الجزائر	176
د. نعيمة بوزيدي	اللّغة العربية و العولمة – البليدة	186
أ. مالك بوعمرة سونة	جهود ابن هشام الأنصاري (ت761) في تفسير القرآن من خلال كتابه مغني اللبيب–البليدة	198
أ.د. محمد صالح الشنطي	الاتجاهات الأسلوبية في نقد الشعر العربي الحديث صلاح فضل أنموذجا–جامعة جدارا–الأردن	214
د. محمد بسناسي	ترجمة البعد الاجتماعيّ/الثّقافيّ في رواية نجل الفقير – وهران	232
أ. ليلى قاسحي	البنية العاملية في رواية : البطاقة السحرية لـ "محمد ساري" –الجزائر 2	243
د. عماد عبدالوهاب الضمور د. حسن مطلب المجالي	شعريّة اللّغة الروائية رواية (تراب الغريب) لهزاع البراري أنموذجاً –جامعة البلقاء – الأردن.	251
د. فيصل حسين غوادرة	"الميزان النقدي في كتاب "فحولة الشعراء" للأصمعي" جامعة القدس المفتوحة – جنين – فلسطين	264
أ. مجاهد بوسكين	الهرمنيوطي(Herméneutique) ، من أحضان اللاهوت إلى فضاء التأويل **(قراءة في الماهية والخصوصية)**–معسكر	308
العلوم الإنسانية		
أ. عبد الله بن محمد نهاري	المنطلقات التربوية لتحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية من وجهة نظر مدراء المدارس الثانوية بمحافظات صبيا التعليمية إدارة التربية والتعليم بمحافظات صبيا–جازان– السعودية	320
د. فضيلة رباحي	استراتيجيات تعليم التربية البيئة في المدارس الابتدائية الجزائرية ودورها في نشر الوعي البيئي لدى التلاميذ –البليدة 2	349
د. صباح العشاوي	واقع المياه و السدود المقامة على النهار العربية و مشكلتها – البليدة 2	361
د. يونس معزازي	النزاع الجزائري الفرنسي حول أرشيف الحقبة الاستعمارية–البليدة 2	381
أ. علال قاشي	ممارسة التجارة بين الإطلاق والتقييد ضمن أحكام الشريعة الإسلامية و القانون الوضعي – البليدة 2	389
أ. هاجرة بومناد	مبدأ الاختصاص بالاختصاص في ظل اتفاقية واشنطن لتسوية منازعات الاستثمار الأجنبي- مستغانم	412
اللّغات الأجنبية		
Dr.Sid Ali Sahraoui	Comprendre l'implicite du discours pour le traduire-Blida	01

بسم الله الرحمن الرحيم

هاهو عدد الصوتيات المحكمة يطلع علينا بمعارفه و أسراره ليكون ثمرة يانعة في حقل البحث يقطفها الطالب لغذاء عقله و فكره و مواصلة شوطه بكل عزم و جد ، كما يطلع القمر ليلة بدر بأنواره ليكون زينة بارزة لسماء الدنيا ، و آية ظاهرة يهتدي بها الناس في الظلمات. فكما نتغذى بالأفكار ، نهتدي بالأنوار.

يطلع علينا العدد بين سنتين، سنة مضت قلّ الجهد فيها، و سنة أتت نعدّ لها العدّة وكلنا أمل أن يكون الذي أتى خيرا من الذي مضى.

لقد أقبلت السنة الجديدة و معها الجديد ، جديد العدد السادس عشر من الصوتيات المحكّمة ، إذ ليس سهلا أن يولد العدد و يخرج إلى القارئ الباحث. و لا يتصور عملية تتم بالبساطة التي تعلق في أذهان البسطاء القانعين. فلعمري إنها لأشبه بعملية ولادة المولود الجديد الذي يخرج من بطن أمه، و الذي لا يجد وصف أجمل و لا أدق و أشمل له من وصف القران الكريم.... قال تعالى: " حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي و لوالديك إلي المصير " لقمان 14

فكذالك ميلاد العدد الجديد. فكم كانت مسيرة التحكيم شاقة. لولا إسهام الأساتذة والدكاترة الأعزاء من أقسام اللّغة العربية و اللّغة الفرنسية و علم الاجتماع و الحقوق الذين بهم أختصر المسير و خفّت المشقة ليخرج العدد في ميقاته المحدد من دون تأخير أو تأجيل.

لقد طلع علينا العدد في سنة مليئة بالتقلبات الجوية، و الاقتصادية، و غيرها. أمّا الجوية فنأمل أن تكون سببا نافعا للعباد و البلاد ... قال تعالى: " و ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت و ربت و أنبتت من كل زوج بهيج ". و أمّا الاقتصادية فلا بد من تصحيح الرؤية الاستهلاكية، وترشيد المال العام، و نعم المال الصالح في يد الرجل الصالح مع الابتعاد

عن مجاري الفساد، أي كان نوعها لضمان عيش كريم و بلد أمين و قرار مكين. إذ لا يخلو المرء من صديق يمدح و عدو يقدح.

و من رحم هذه التقلبات و التحولات و المحدثات و المستجدات ينبجس عدد الصوتيات السادس عشر حاملا شعار الاستقرار قاعدة الاستمرار.

عدد ليس كسابق الأعداد، حيث جمع محتواه بين علوم شتى من صوتية و لغوية و نقدية و أجتماعية و نفسية و قانونية و فرنسية.

و بعد، و من ذا الذي يجرؤ بقطع علاقة الصوتيات بهذه العلوم و الفنون. و من ذا الذي يتجرأ جورا باحتكار الصوتيات إلى معرفته من دون المعارف الأخرى.

أليس الصوت هو الحياة كلها؟ أليس الصوت هو المعارف كلها؟

ألا يمكن إدراج الصوتيات في جميع الفنون و العلوم الإنسانية ، مادام الإنسان فيها هو محور الدراسة كوحدة مستقلة و مستقرة بمفرداتها و برنامجها، تدرس كباقي الوحدات و المقاييس في التخصص و لتكن للصوتيات اللّغوية و الأدبية و الاجتماعية و الاقتصادية و القانونية و التكنولوجية و الطبيعية ......و غيرها الخ.

بل حتى في قسم الآداب لماذا يدرس مقياس الصوتيات للتخصص اللّغوي، من حيث يحرم منه التخصص الأدبي و النقدي؟؟

لهذا الأمر جاء التنوع لتغطية المضمون و تصحيح المفهوم بعزم و عدل و حق.

و قد زيّنت لوحة الفهرس بحروف بحثية بهيجة أبدعتها أقلام جادة من جامعات الوطن ، من وهران و أدرار و البويرة و المدية و البليدة و مليانة و الجزائر و معسكر و مستغانم الخ .... و من خارج الوطن من الأردن و السعودية و فلسطين و قد زينت عناوينها في المنظومة التالية:

- صفعات ساخنات و أخر باردات على وجوه البشرية ليعلموا أنَّ القرآن كلام الرحمان و أنَّ العربية لغة ربانية
- مدخل إلى التكرار الصوتي في البيان العربي و نظرية الترداد الجديدة (قراءة في مهايا الحدود و جهاز المصطلح)
- تصميم برنامج التدريب الصوتي في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها
- البنية الصوتية في الموشح الأندلسي و أبعادها الدلالية - ابن زهر أنموذجا - دراسة وصفية إحصائية تحليلية
- مَفاهيم اللَّهجيَّات – قِراءة في المَنهجِ و الأَداة

- القراءات الشاذة والاحتجاج بها في العربية
- تفسير العلامة الإعرابية في جملة النداء
- البنية الصّرفيّة بين العدول و الالتفات
- اسم الإشارة رابطاً في التعقيبات القرآنية
- القياس في النحو و الفقه بين المؤيدين و المعارضين - وصف و تحليل
- الخطاب النحوي في الأندلس بين المتابعة والممانعة
- الفعل الأجوف ومشتقاته بين اللهجات العربية - دراسة و تحليل
- اللّغة العربية والرهانات المستقبلية (من بلاغة الرسم إلى بلاغة الرقم)
- اللّغة العربية و العولمة
- جهود ابن هشام الأنصاري (ت761) في تفسير القرآن من خلال كتابه مغني اللبيب
- الاتجاهات الأسلوبية في نقد الشعر العربي الحديث صلاح فضل أنموذجا
- ترجمة البعد الاجتماعيّ / الثّقافيّ في رواية نجل الفقير
- البنية العاملية في رواية البطاقة السحرية لـ "محمد ساري"
- شعريّة اللّغة الروائية رواية (تراب الغريب) لهزاع البراري أنموذجاً
- الميزان النقدي في كتاب "فحولة الشعراء" للأصمعي
- المنطلقات التربوية لتحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية من وجهة نظر مدراء المدارس الثانوية بمحافظات صبيا التعليمية إدارة التربية والتعليم بمحافظات صبيا
- الهرمنيوطي (Herméneutique) ، من أحضان اللاهوت إلى فضاء التأويل (قراءة في الماهية والخصوصية)
- استراتجيات تعليم التربية البيئة في المدارس الابتدائية الجزائرية ودورها في نشر الوعي البيئي لدى التلاميذ
- واقع المياه و السدود المقامة على النهار العربية و مشكلتها
- النزاع الجزائري الفرنسي حول أرشيف الحقبة الاستعمارية
- ممارسة التجارة بين الإطلاق والتقييد ضمن أحكام الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي
- مبدأ الاختصاص بالاختصاص في ظل اتفاقية واشنطن لتسوية منازعات الاستثمار الأجنبي
- Comprendre l’implicite du discours pour le traduire

و قد وسمت بشبه تناسق و توافق و تعانق ، جمعها ماء العقل و هواء الصوت.

و بقدر مانعتز بالعدد و محتواه ، فإننا نفتخر بالأقلام التي ساهمت بصفاء و إخلاص فكان بجهدها هذا المولود الجديد و نأمل أن تواصل لمنتوج لاحق مجيد.

و بالله التوفيق

صفعات ساخنات و أخر باردات على وجوه البشرية
ليعلموا أنَّ القرآن كلام الرحمان
و أنَّ العربية لغة ربانية

الأستاذ: د. قـارة حـداش
جامعة السانية – وهران

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد:

لابد من التعلم من القرآن، لتقديم الأفضل و الأحسن في كل مجالات دراسة اللغة العربية. و الذي يهمني هنا هو المجال الصوتي في القرآن الكريم .

الإعجاز الصوتي واقع في كتاب الله ، و إلى حدِّ الآن لا نعرف حقيقة هذا الإعجاز و ما هي تدابير تجذره في كلام الله؟ و كل محاولة لفهم أسرار هذا الإعجاز تبقى عملا ذاتيا يعتمد على الذوق، لا العلم.

الاهتمام بالجانب الصوتي في دراسة القرآن الكريم أمر جليل، ومهم، لأن القرآن الكريم نزل منجما و مفرقا و نزل صوتا مسموعاً و كلاما مرتلاً, و أمر اتباع قرءانه أمر مفروض فرضا، لا حِوَل عنه . قال تعالى:" لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾"سورة القيامة.

لقد أنزله الله، و هو يجمعه، و هو سبحانه يقرأه، و ما على الرسول الأمين إلاّ أن يتبع قرءانه. فالقراءة واحدة لا تصرف فيها، وهي نطق و تلاوة لكلام العزيز الحكيم، ثم البيان و بعدهما الفهم الأحسن والتدبر.

والعلاقة وطيدة بين القراءة و السمع و كلما كانت القراءة محكمة ليس فيها عوج أسَرَت السمع و أحكمت وثاقه و السمع مدخل رحب لأعماق نفوس البشر و قلوبهم. قال تعالى :"ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ سورة الكهف

و قال أيضا و هو أعزّ من قائل في محكم تنزيله " وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾" سورة الأعراف.

و قال في معارضة السمع و عدم الإنصات و المبالغة في ذلك باللغو على لسان الكافرين :" وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾" سورة فصلت.

رفض الاستماع و اللغو في القرآن غلبة و انفلات في تقدير أهل الكفر. أما الاستماع لكلام الله و الانصات إليه ارتباط بالله واقتراب منه سبحانه و تعالى.

اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي تمتلك خطاباً إلهياً نموذجيا و هو القرآن الكريم. و كل دراسة لا تعتمد على القرآن في اللغة العربية، فهي دراسة بتراء. فإن كان لغيرنا عذر في دراسة لغاتهم بنصوصهم فلأنهم فقراء إلى هذا النص النموذجي، فلا عذر لنا نحن العرب في ذلك. فلا بد أن نتعلم من القرآن و نحمّل بعلم ما تعلمنا منه لغتنا. و العربية فصاحة و بيان إلى مرتبة الإحسان وليست فقط للتواصل و الخطاب و لو كانت اللغة فقط كذلك لما جاء القرآن معجزا إلى منتهى غاية الإعجاز .

وهذا البحث مشروع عظيم و واسع عنوانه: " **صفعات ساخنات و أخر باردات على وجوه البشرية ليعلموا أنَّ القرآن كلام الرحمان و أنَّ العربية لغة ربانية** "

و الهدف من هذا المشروع هو فهم و ضبط هذه التدابير، و نقل هذا النظام أو الاستفادة منه لرفع مستوى الخطاب اللغوي العربي، لا أقول عند المبتدئين فحسب بل حتى عند المنتهين في التحصيل. و كذلك لرفع درجة احترام اللغة العربية، و إبراز أسرارها و تقديرها حق قدرها، و رفع الغبن عنها و تزيينها في أعين أهلها لتكون صرخة صاحة في وجه خصومها و أعدائها؛ متوا بغيضكم وحسدكم و كمدكم .

أحاول تحديد هذه التدابير عمليا من خلال تتبع كامل للقرآن الكريم من صوت **ب** في أول سورة الفاتحة إلى صوت **س** في نهاية سورة الناس.

أولا: الصفعات الساخنات: الكتابُ لا ريبَ فيه

1-) معاني الريب لغة:

الرَّيبُ لغةً صرف الدهر, والرّيب و الرَّيبَةُ الشّكُّ و الظّنَّةُ و الرّيْبُ التّهمَةُ و الريب الحاجة و الريب ما رابك من أمر . و في حديث فاطمة يريبني ما يريبها؛ أي يسوءني ما يسوءُها، و يزعجني ما يزعجها.[1]

و قد جاء لفظ الرَّيْبِ في القرآن في كثير من الآيات في سور مختلفة, و هذه مواقعه في القرآن.

2-) مواقع لفظ ريب في القرآن :

سورة: البقرة

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

[1]- المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية. إشراف عبد السلام هارون .المكتبة العلمية طهران .الجزء الأول مادة ريب.

وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا
ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

سورة: آل عمران

رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾
فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا
يُظۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾

سورة: النساء

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾

سورة: الأنعام

قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ
ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾

سورة: يونس

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ
ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾

سورة: الإسراء

أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا
لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٩٩﴾

سورة: الكهف

وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ
بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ
لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا (٢١)

سورة: الحج

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ
ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ
نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ
ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ
ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ
وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٦) وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ

سورة: السجدة

الٓمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٢) أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ
ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ (٣)

سورة: غافر

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ (٥٩)

سورة: الشورى

وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ
فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ (٧)

سورة: الجاثية

قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾

سورة: الطور

فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾

3-) المعاني الكامنة في جملة: " لَا رَيۡبَ فِيهِ "

جملة:" لَا رَيۡبَ فِيهِ " في القرآن لها كل معاني لفظ الريب التي ذكرناها في التعريف، عدا معنى الحاجة. فمعناها في بعض المواقع ظاهر لا لبس فيه و لا شكّ ، أنه لا شكّ فيه, من مثل ما جاء في سورة البقرة في الآية 23 و في سورة آل عمران في الآية 9 و 25, و النساء 87, و الأنعام 12, و الإسراء 99 و الكهف 21, و الحج 5 و 7, و غافر 59 و الشورى 7, والجاثية 26, و الآية 32 من سورة الجاثية تعرب إعرابا مبينا عن ذلك المعنى ألا و هو الظن و الشكّ و انعدام اليقين.

الآية: " وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾

أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ و هي من سورة الطور تعني صروف الدهر و حوادثه. وبقي من المواقع ما يستحق التدبّر و التمعّن لأن الشأن عظيم.

سورة: البقرة

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

سورة: يونس

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾

سورة: السجدة

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾

و قد جاء في أول سورة يونس عليه أفضل السلام :" الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

السور الثلاثة تتفق في تصدرها بالأحرف المقطعة " الٓمٓ و الٓر " و هذا الربط المتكرر بين الأحرف المقطعة و الكتاب و أنها آيات الكتاب المبين و أنها آيات الكتاب الحكيم لتوجيه ربانيّ يدعو دعوة صريحة إلى التفكّر و التدبّر في علاقة هذه الأصوات بالإعجاز الصوتي في القرآن الكريم .

فجملة " لا ريب فيه "في هذه المواقع الثلاثة قد تحتمل معنى لا شكّ فيه و أنه من عند الله.

و لكنّ هذا التفسير لا يرقى إلى أسمى و أفضل المراتب. و الأفضل من هذا الرأي أن تكون جملة " لا ريب فيه " بمعنى لا تُهمَة فيه. و التهم التي أبعدها الله في كتابه العزيز عن كتابه المحكم آياته العِوَجُ و الاختلاف, كما جاء في كتاب الله عزّ و جلّ.

أ) آيات العِوَج

سورة: الكهف

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾

سورة: الزمر

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾

ب) آيات الاختلاف

سورة: النساء

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾

ثانيا: صفعات باردات: نظام الأصوات العربية

اللغة العربية أصوات. و الأصوات العربية متنوعة و متميّزة و متناظرة وسر اللغة وقوتها في هذا التنوع و التميّز و التناظر, فكيف تنتظم أصوات العربية ؟!

تنتظم الأصوات اللغوية العربية في عائلات صوتية وفق تشابه كل صفاتها، أو توحّد مخارجها أو بهما جميعاً. و هذه العائلات لها دور عظيم في إحكام نظام النظم الصوتي في القرآن الكريم. فتشابك هذه العائلات فيما بينها بشكل منظم و محكم يتولد منه هذا الانسجام الرائع الذي يصل إلى مرتبة الإعجاز. و هي سبع عائلات تتألف من مجموعة أصوات، تتشابه في كل صفاتها وتتناظر في عددها.

1-) العائلات الصوتية وفق تشابه صفاتها:

تنوّع و تميّز و تناظر العائلات الصوتية .

الأصوات المجهورة

المخرج ↓ / الصفات ←	شديد		رخو		متوسط	لين
	مرقق	مطبق	مرقق	مطبق		
حلقي	الهمزة		الغين العين			
لساني	القاف الجيم الدال الباء	الضاد	الذال الزاي	الظاء	الميم الراء اللام النون	الياء الواو الألف

الأصوات المهموسة

المخرج ↓ / الصفات ←	شديد		رخو			
	مرقق	مطبق	مرقق	مطبق		
حلقي			الهاء الخاء الحاء			
لساني	الكاف التاء	الطاء	الشين الثاء الفاء السين	الصاد		

فصوت الطاء هنا لا بد أن يكون مهموسا حتى تكون هذه الأصوات المطبقة متناظرة و متميزة عن بعضها بعض. و هذا برهان على ذلك.

2-)العائلات الصوتية وفق توحّد ها في المخارج:[1]

الأصوات المتّحدة في المخرج:

المخرج	الأصوات
الجوفُ	الألف ، الواو ، الياء. المديتان
الحلق	فيه ثلاث مخارج
أقصاه	الهمزة ، الهاء
وسطه	العين ، الحاء
أدناه	الغين ، الخاء
اللَّهاةُ بين الفم و الحلق	القاف ، الكاف
الشَّجْرُ مخرج الفَمّ	الجيم ، الشين ، الياء ، الضاد
الذَلَق طرف اللسان مع الحنك الأعلى	النون ، اللام ، الراء
النِطعُ سقف الغار	التاء ، الطاء ، الدال
الأَسَلَةُ طرف اللسان مع الثنايا	الصاد ، الزاي ، السين
اللِّثَةُ اللحم المركب فيه الأسنان	الثاء ، الذال ، الظاء
الشَّفَةُ	الفاء ، الواو، الميم ، الباء

[1]- سر صناعة الإعراب. أبو الفتح عثمان بن جني .تحقيق حسن هنداوي الجزء الأول دار القلم ص : من 46 إلى 48. ط 1 عام 1985

3-) **العائلات الصوتية وفق تشابه الصفات و توحّد المخارج معا:**

الأصوات المتشابهة في الصفات و المتّحدة في المخرج:

المخرج	الأصوات
الخيشوم	النون ، الميم . الساكنتان
الذَلَقُ	النون ، اللام ، الراء المتحركة
الجوف	الألف ، الواو ، الياء. المدِّية
الشَّجْرُ	الواو ، الياء . شبه اللين

4-) **خُبرَةُ لوحة تنوّع و تميّز و تناظر الأصوات العربية.**

الجهر و الهمس لهما أهمية كبرى بين صفات الأصوات . الجهر قوة و الهمس ضعف. و الجهر و الهمس يحدثان في الحنجرة، بتذبذب الوترين الصوتيين في الجهر، و بعدم تذبذبهما في الهمس، و الحنجرة منطقة محصنة، و تحصينها دليل على شرف ما يحدث فيها من عمل في عملية النطق. و الجهر قوة كما ذكرنا و القوة تتنوّع وفق الصفات التي تشاركها في صناعة الصوت، أمّا الهمس فهو ضعف، و الضعف لا يتنوع كما تتنوع القوة. و لهذا نجد أن الصفات التي تآزر الجهر متنوعة من الشديدة و المتوسطة و اللينة و الرخوة و المطبقة. أمّا الصفة الغالبة مع الهمس في صناعة الأصوات المهموسة هي الرخاوة في أغلب الأصوات ، و تشاركها في صناعة التاء و الكاف الشدّة . فالجهر قوة ، و لهذا فهو بحاجة إلى صفة قوية تساعده على استحكام قوته، و هذه الصفة المناسبة هنا هي صفة الشدة، و هي تدخل معه لصناعة الهمزة في أصوات الحلق، و لا نجد مقابلا لها مع الهمس. و نجد الشدة تدخل مع الجهر في وسط الفم لصناعة القاف و الجيم و الدال و الباء، و نجد الشدة مع الهمس في وسط الفم تصنعان التاء و الكاف، وهما للخطاب، و تلاقي التاء و الكاف في تشابه الصفات أمارة مُطمئِنة على تلاؤم و انسجام الصفات فيما بينها انسجاما طبيعيا، وتشددهما انسجام مع قوة الخطاب و عددهما نصف عدد الأصوات المجهورة الشديدة. و تلتقي الرخاوة مع الهمس لصناعة أغلب الأصوات المهموسة و الرخاوة ضعف و هي أضعف من الشدة، و هي تكريس و تأكيد على ضعف الهمس، و ينتج منهما السين و الفاء و الثاء و الشين و الهاء و الخاء و الحاء، و لا نجد مع الرخاوة و الجهر في وسط الفم إلاّ الزاي و الذال، و هما نصف عدد الأصوات المجهورة الشديدة، ونصف عدد الأصوات المهموسة الرخوة في وسط الفم. و نجد العين و الغين في الحلق وهما من الأصوات المجهورة الرخوة و هذا من باب تنوّع الأصوات المجهورة، لأن القوة تنوّع، و من باب عدم تنوّع الهمس نجد الأصوات المهموسة أغلبها رخوة، و لا نجد فيها الأصوات المتوسطة و لا الأصوات اللينة و لا الشبيهة باللينة و لا الأصوات الحلقية الشديدة و هذا التناظر في العدد و القوة يعكس انسجام الصفات في تآزرها في صناعة الأصوات بهدي من الله خالق كلّ شيء. قال تعالى:"قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾"سورة طه. و نجد كذلك أربعة أصوات مطبقة و هي الصاد و الطاء و الظاء و الضاد؛ اثنان منهما مهموسان الصاد و الطاء و اثنان مجهوران الظاء و الضاد،

واحد منهما شديد و الآخر رخو، و هذا تناظر آخر يهدي من الله و التناظر توازن و جمال و له إشارة قرآنية في سورة فصلت كما ذكرنا ذلك في البرهان على همس الطاء.

و هذا الترتيب الربّاني القرآني إشارة إلى صفاتها المكونة لها من همس ورخاوة و من همس وشدة و من جهر كذلك و رخاوة و من جهر و شدة في الترتيب على التوالي من الصاد إلى الضاد. فالمهموس الضعيف أوّلا ثم يأتي الأقوى منه فالمجهور الضعيف أوّلا كذلك فالأقوى منه بعده. فهذا لا يحتاج إلاّ للتنبيه و وضع الأصبع عليه. أم نغض الطرف عليه و نحسبه جاء اعطباطا ؟؟؟

و الجهر و الهمس صفتان أساسيتان تدخلان في صناعة هيكل اللغة، فتحددان عدد صور الجذور اللغوية العربية، و هي صور محدودة جدا و عددها في الجذر الثلاثي أربع إذا بدأنا بالجهر، و أربع أخرى مناظرة لها إذا بدأنا بالهمس. و نراها تتضاعف مع الرباعي مرة ثانية، و تتضاعف مرة ثالثة مع الخماسي.

ثالثا : صفعات ساخنات أخر: صناعة اللغة

1-) الجذور الثلاثية

صورها في الجهر والهمس

أ -عندما تبدأ بالجهر.

ج ج ج	ج ج ه	ج ه ج	ج ه ه

ب- عندما تبدأ بالهمس

ه ه ه	ه ه ج	ه ج ه	ه ج ج

ملاحظة : ج : مجهور . ه : مهموس

و نجد هذه الصور تتضاعف مع الجذر الرباعي، فتصبح ثماني صور إذا بدأنا بالجهر، و ثماني أخرى إذا بدأنا بالهمس.

صور الجذور الرباعية :

2-)الجذور الرباعية

صورها في الجهر والهمس

أ -عندما تبدأ بالجهر

ج ج ج ج	ج ج ج ه	ج ج ه ه	ج ه ه ه
ج ج ه ج	ج ه ج ج	ج ه ه ج	ج ه ج ه

ب- عندما تبدأ بالهمس

ه ه ه ه	ه ه ه ج	ه ه ج ج	ه ج ج ج
ه ه ج ه	ه ج ه ه	ه ج ج ه	ه ج ه ج

و تتضاعف مرة أخرى مع الخماسي، فتصبح اثنتا عشر صورة إذا بدأنا بالجهر و مثلها إذا بدأنا بالهمس و لكن مع الخماسي لا نجد التناظر الحاضر والكامل كما هو الحال مع الثلاثي و الرباعي.

صور الجذور الخماسية :

3-الجذور الخماسية

صورها في الجهر والهمس

أ -عندما تبدأ بالجهر

ج ج ج ج ج	ج ج ج ج ه	ج ج ج ه ج	ج ج ج ه ه
ج ج ه ج ج	ج ج ه ج ه	ج ه ه ه ج	ج ه ه ج ج
ج ه ه ج ه	ج ه ج ج ج	ج ه ج ج ه	ج ه ج ه ج

ب عندما تبدأ بالهمس

ه ه ه ج ج	ه ه ه ج ه	ه ه ج ج ج	ه ه ج ه ه
ه ه ج ه ج	ه ج ج ج ج	ه ج ج ج ه	ه ج ج ه ه
ه ج ج ه ج	ه ج ه ه ج	ه ج ه ج ج	ه ج ه ج ه

و بعد تحديد صور الجذور اللغوية التي ترتكز على الجهر و الهمس، تأتي الصفات الأخرى؛ من شدة و رخاوة و توسط و لين وترقيق و إطباق لتكمّل و تتمّم صناعة الجذور اللغوية العربية.

4-الثلاثي : صور الجهر و الهمس مع مجموعات الجذور و عددها وفق الصفات الأخر:

أ-الهمزة في البداية :

الرقم	صور ج ج ج	عددها 101	صور ج ج ه	عددها 56	ثلاثصور ج ه ج	عددها 66	صور ج ه ه	عددها 25
01	د د م	13	د م ر	18	د ر م	20	د ر ر	13
02	د م د	13	د د ر	08	د ر د	15	د ر د	04
03	د م م	13	د م د	07	د د م	07	د د ر	03
04	د د د	09	د ل ر	05	د ر ل	07	د د د	02
05	د ل د	07	د ر ر	04	د ذ م	04	د ز ز	01
06	د ل م	07	د د د	03	د د د	03	د ز ر	01
07	د ر د	05	د د ذ	03	د ر ر	02	د ذ د	01
08	د ر م	05	د د ز	02	د د ل	02		

09	د د ر	03	د م ذ	02	د ز م	02		
10	د د ل	03	د ذ ر	01	د ر ز	01		
11	د ر ل	03	د م ز	01	د ز د	01		
12	د م ر	03	د ل ز	01	د ز ل	01		
13	د م ذ	03	د ل د	01	د ذ د	01		
14	د م ل	03						
15	د ذ م	02						
16	د ر ر	02						
17	د ذ ذ	01						
18	د ذ ل	01						
19	د ز ز	01						
20	د ز م	01						
21	د ل ر	01						
22	د ل ل	01						
23	د د ذ	01						
24								
25								

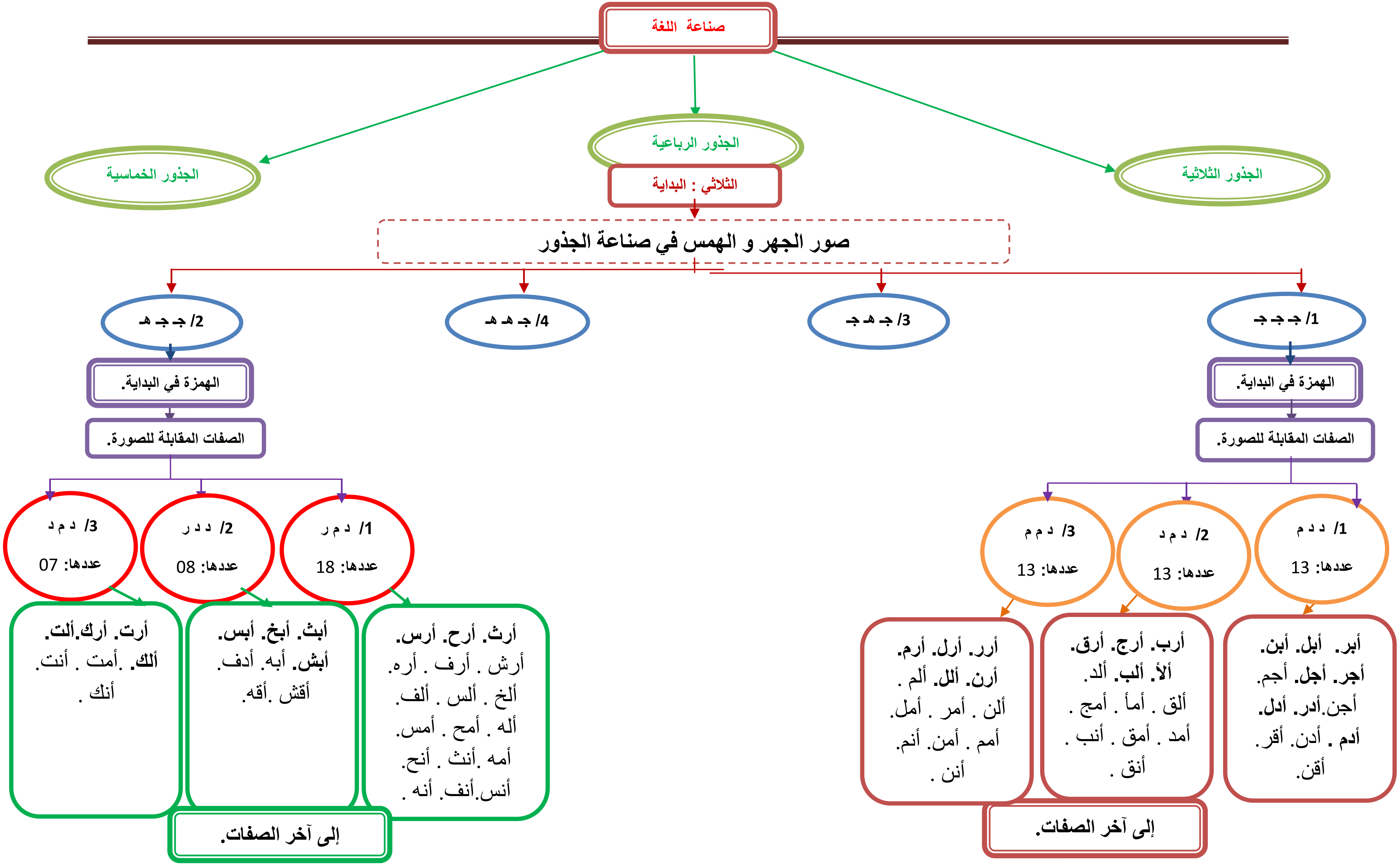
صناعة اللغة
الجذور الخماسية
الجذور الرباعية
الجذور الثلاثية
الثلاثي : البداية
صور الجهر و الهمس في صناعة الجذور
2/ جـ جـ هـ
4/ جـ هـ هـ
3/ جـ هـ جـ
1/ جـ جـ جـ
الهمزة في البداية.
الصفات المقابلة للصورة.
الهمزة في البداية.
الصفات المقابلة للصورة.
3/ د م د
عددها: 07
2/ د د ر
عددها: 08
1/ د م ر
عددها: 18
3/ م د م
عددها: 13
2/ د م د
عددها: 13
1/ د د م
عددها: 13
أرت. أرك.ألت.
ألك. .أمت . أنت.
أنك .
أبث. أبخ. أبس.
أبش. أبه. أدف.
أقش .أقه.
أرث. أرح. أرس.
أرش . أرف . أره.
ألخ . ألس . ألف.
أله . أمح . أمس.
أمه .أنث . أنح.
أنس.أنف. أنه .
إلى آخر الصفات.
أرر. أرل. أرم.
أرن. ألل. ألم .
ألن . أمر . أمل.
أمم . أمن. أنم.
أنن .
أرب. أرج. أرق.
ألأ. ألب. ألد.
ألق . أمأ . أمج .
أمد . أمق . أنب .
أنق .
أبر. أبل. أبن.
أجر. أجل. أجم.
أجن.أدر. أدل.
أدم . أدن. أقر.
أقن.
إلى آخر الصفات.

3/ جـ هـ جـ

الهمزة في البداية.

الصفات المقابلة للصورة.

أثر . أثل. أثم.
أثن. أحن . أخر.
أخن. أسر. أسل.
أسم. أسن. أشر.
أشل . أشن. أفر.
أفل. أفن. أهر.
أهل. أهن .

أثأ . أثب . أحد .
أخد. أسب. أسد .
أسق. أشأ . أشب.
أشج. أشق. أفد .
أفق. أهب . أهق .

3/ د د م
عددها: 07

أتر . أتل . أتم .
أتن. أكر . أكل .
أكم .

إلى آخر الصفات.

4/ جـ هـ هـ

الهمزة فى البداية.

الصفات المقابلة للصورة.

أثث. أثف. أحح.
أخخ . أسس. أسف.
أشح. أشش. أشف.
أفح. أفخ . أفف.
أهه.

أست. أسك. أفت.
أفك .

أته. أكح. أكف .

إلى آخر الصفات.

جـ : مجهور. د: شديد. ذ: شديد مطبق. م: متوسط.

هـ : مهموس. ر: رخو. ز: رخو مطبق. ل: لين.

5–) خُبْرَة الجدول الأعلى:

موقع الجهر و الهمس في الجذر اللغوي له أهمية كبرى من حيث عدد الجذور و عدد مجموعات هذه الجذور اللغوية . و لتوضيح هذه الأهمية أقيم مقارنة بسيطة بين الهمزة و التاء.

مع الهمزة عندما يكون الأصوات كلها مجهورة يكون عدد الجذوري أعلى مستواه، و يصل إلى واحد و مائة جذرا لغويا و تصل المجموعات إلى أقصاها و يكون عددها ثلاث و عشرين مجموعة . و يقابل هذا مع التاء في البداية تدنٍ في العدد إلى أقصى المستويات، و يصل العدد مع الجذور إلى اثني عشر جذرا، و يكون عدد المجموعات أربعا. كل مجموعة تناظرها مجموعة أخرى، فالمجموعة (د ر ر) تناظرها المجموعة (د م م) و هما متفوتتان في العدد. و المجموعة (د ر م) تناظرها المجموعة (د م ر) مع تفاوت في العدد كذلك و هذا راجع إلى قلة عدد الأصوات الشديدة مع المهموس و هما الكاف و التاء. و مع الهمزة تكثر المجموعات و تتنوع و تقترب في العدد و لا تتناظر كما حدث مع التاء فالمجموعة (د د م) ليس لها نظير. بينما المجموعة (د م ر) و عددها ثمانية عشر جذرا لها ما يناظرها و هي المجموعة (د ر م) و عددها عشرون جذرا و هذا تقارب في العدد .

فإذا نزعنا مجهورا و أدخلنا مهموسا نقص العدد في الجذور و المجموعات، و إذا نزعنا مهموسا و أدخلنا مجهورا زاد عدد الجذور والمجموعات وفق موقع الزيادة في النهاية أو الوسط مع التاء، بينما مع الهمزة يتساوى عدد المجموعات, مع الزيادة في عدد الجذور.

فإذا نزعنا مجهورين و أدخلنا مهموسين نقص العدد أكثر فأكثر في الجذور و المجموعات حتى يصل إلى الربع . و إذا نزعنا مهموسين وأدخلنا مجهورين زاد العدد أكثر فأكثر في الجذور و المجموعات حتى يصل إلى أربعة أضعاف كذلك. فهذا التناظر في العدد في الزيادة و النقصان حسب مواقع الجذور ليس عجيبا لأن عدد الأصوات في الأصل متناظر في العائلات الصوتية، فلو كان الخلل في الجهاز الصوتي في عدم تناسب أصواته لظهر ذلك على عدد الجذور و عدد مجموعاتها، و لكنه خلق بقدر، تبارك الله أحسن الخالقين. فالتنوع لا يتولد عنه إلا التنوع و الانحصار لا ينتج إلا انحصارا.

مع العلم أنني لم أتخير الأصوات و إنما أخذت الصوت الأول من المجهورات و الصوت الأول من المهموسات حسب الترتيب الأبجدي ، و هما الهمزة و التاء . هذا على سبيل التمثيل و لا أريد أن أخوض في هذا كله لأنه بحر زاخر, و هذا ليس موقع استفاضة واستطراد و إنما موضع إشارة و تنبيه.

رابعا: صفعات ساخنات باردات في آن:

الشواهد القرآنية في توارد أصوات العائلات في المواقع عينها في الكلمات مع تشابه الأوزان و الحركات و المدود.

بعد تحديد العائلات الصوتية التي تلتقي كما ذكرنا سلفا في تشابه الصفات و توحّد المخارج أو اجتماعهما معا في التشابه و التوحّد. نشرع الآن في إيراد الشواهد وفق النظام التالي و حسب تسلسل السور في القرآن و تسلسل الآيات في السور مع كل حالة من حالات التعامل بين أصوات العائلات مجتمعة أو منفردة أو متداخلة مع بعضها بعض متكئة على الصوت المشترك بين العائلات الذي يقوم بدور التنسيق و التنقل بين العائلات و التعدية بينها. كعائلة: التاء و الكاف و عائلة الكاف و القاف و عائلة التاء و الدال و الطاء و عائلة الجيم و الدال و الباء و القاف و الهمزة. أو كعائلة: السين و الصاد و الزاي و عائلة الذال و الزاي وعائلة السين و الثاء و الفاء و الشين و عائلة الذال والثاء والظاء و عائلة الفاء و الباء والميم و الواو و عائلة الميم واللام و الراء والنون. فالصوت المشترك يوسع شبكة التعاملات الصوتية و ينظمها و ينوّعها في مواقعها التي تدعو و تطلب ذلك إليها لإحكام

النسج الصوتي القرآني و تلوينه لتنشيط السمع و إراحته و إبعاد شبح الغموض فيه وإزالة تعب النفوس و طمأنة القلوب:
" ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ سورة الرعد. أي بتلاوة القرآن لتكون سببا لهذه النتيجة: "وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٧﴾ سورة القمر. فهل من مجوّد في التلاوة و الترتيل و هل من محسن في الدراسة عن فهم وعلم و تدبّر؟؟. وكلمة مدّكر هنا من الذكر و هي من حيث الصناعة تأتي على هذا المنوال صعودا في قوة المعاني: مذتكر ومذذكر و مذدكرو مدكر بالإدغام طبعا لأن الذكر واحد و المدّكر مستويات ودرجات، و الواجب في التدبر في القرآن أعلى و أحسن الدرجات.

۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ سورة الواقعة

فلتحديد مواقع النجوم على بعدها و شساعة الفضاء الكوني لها و كثرة عددها أهون على الإنسان من تحديد مواقع الأصوات في القرآن الكريم.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾ سورة النساء

و بادئ ذي بدء، و قبل إيراد الشواهد القرآنية حسب العائلات الصوتية أقدم للمتتبع لهذا البحث نماذج تطبيقية على سور قرآنية قصيرة ليعرف و يعلم طريقة العمل، لأن الوقوف المتكرر عند كل شاهد بالشرح و التفصيل لا ينتهي، و سوف يستغرق بنا زمنا طويلا لأن القرآن محمله بهذا النسج العجيب، و لا حول و لا قوة إلآ بالله.

1) سورة: الفلق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

سورة الفلق خمس آيات جاءت متنوعة الروي في فواصلها؛ فنجد القاف والباء والدال و هي كلها من عائلة صوتية واحدة, تتشابه في كل صفاتها الصوتية؛ في جهرها و شدتها و ترقيقها و قلقلتها مع تنوّع مخارجها. على عكس سورة الإخلاص، فإنها جاءت موحّدَةَ رويٍّ فواصلها الأربعة, فهي على رويّ واحد و هو الدال. و التفرد في الرويّ في هذه السورة انسجام وتطابق تامان مع ما تدعو إليه سورة الإخلاص من التوحيد و التفرّد في الألوهية التي لا ينبغي أن تكون إلاّ لله عزّ و جلّ وحده. والأصل فيما دون ذلك هو التنوّع و التميّز و الاختلاف.

قال تعالى:" أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

فهذا هو الله خالق كل شيء، و هذا خلقه المتنوّع و المتميّز، و هؤلاء علماء الله الذين يكتشفون هذا التنوع و يعلمون أسرار انسجامه و تعايشه.

سورة: الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

الكلمة العربية لها بداية و وسط و نهاية. فالكلمتان الفَلَق و خَلَق متشابهتان في عدد الأصوات ثلاثة أصوات ومتشابهتان في اللام و القاف و في حركتهما الفتحة, و يلتقي صوتهما الأول الفاء و الخاء في كل صفاتهما؛ في همسهما ورخاوتهما وترقيقهما فهما من عائلة واحدة, و إن اختلفا في حركة الإعراب فإن كلام العربيّ لا ينتهي إلاّ بساكن .

و نجد كذلك كلمتي العقد و حسد بالتعريف في العقد كما في الفلق و من دونها في حسد كما في خلق .و العين أخت الحاء في المخرج و الحاء أخت الخاء في الصفات و الغين أخت الخاء في المخرج و العين أخت الغين في الصفات, و العين و الغين و الحاء والخاء من حيّز واحد و هو الحلق. والكلمات ثلاثية الأصوات و متحركة البدايات و الأوساط . و من شرّ غَاسِقٍ تساوي و من شرّ حَاسِدٍ, و الحركات متشابهة و المدّ واحد في غاسق و حاسد و القاف أخت الدال في النهاية و الغين أخت الحاء في المخرج والسين فيهما في الوسط. و الفاء و الشين و الخاء و السين و الثاء و الحاء في النفاثات و شرّ و حسد من عائلة واحدة تتشابه في كل الصفات. و العين و الغين و الذال في أعوذ و إذا كذلك من عائلة واحدة تتشابه في كل الصفات. والقاف في قل و الهزة في أعوذ وإذا و الباء في بربّ كلها في البداية و كلها من عائلة واحدة. و كلها تدفع و تدعّم الانسجام الصوتي في السورة و تُحْكِم نسجها و تقوّم استقامتها و تنفي عنها عِوَجَها .

فإذا لم يكن الإعجاز الصوتي في القرآن في تشابه الأصوات في الصفات أو التوحّد في المخارج و التساوي في عدد الأصوات والتناظر في مواقع الأصوات و التطابق في الحركات و المدود و التماثل في البدايات و الأوساط و النهايات، فبأي الكيفيات يكون و بأي السبل يتجسد الإعجاز لدى القارئ و السامع ؟؟! فهل رأيت ما أرانى الله أم أنا أعمى ؟ غفرانك ربي لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

2) سورة: الماعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ

الآية الأولى تنتهي بالدّين و الآية الثانية تنتهي باليتيم. فالنون الساكنة أخت الميم الساكنة و فيهما غنّة، و النون والميم الساكنتان مخرج هوائهما من الأنف، و المد بالياء فيهما يخرج الهواء من وسط الفم. خروج الهواء من هذين المخرجين يسدّ الطريق أمام دخول هواء جديد إلى الرئتين، فيضطر القارئ إلى التوقف عن التلاوة لنفاد الهواء عند كل نهاية آية للتزود بالهواء ليبدأ القراءة من جديد فهما ينظمان التنفس ليستقم به الكلام. و النون و الميم من أخف الأصوات و نهاية الآية تؤول إلى التوقف، و يكون هذا التوقف من أجود التوقفات على الساكن و على أخف الأصوات النون و الميم الساكنتين. والعربية لا تقف إلاّ على ساكن.

كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ فصلت

صيغة كلمة الدين جاءت على صيغة جمع المذكر السالم عندما يكون منصوبا أو مجرورا.
الدال أخت التاء في المخرج، و تختلف عنها في صفة الجهر، لأن التاء مهموسة. و الآية الثالثة تنتهي بالمسكين، و الكاف أخت التاء في تشابه كل الصفات، فتجتمع الدال و التاء و الكاف بالتعدية بربط التاء بين الكاف و الدال. صيغة المسكين تشبه صيغة الدين ، و هي تتفق مع صيغة المصلّين، أي صيغة جمع المذكر السالم. و تلتقي الميم و السين في المسكين مع الميم و الصاد في المصلين لأن السين أخت الصاد في المخرج. و تأتي الفواصل الثلاثة الباقية :" سَاهُون و يرَاءُون و الماعُون في صيغة جمع المذكر السالم المرفوع بالواو و النون في اسم الفاعل و الفعل الخامس و الاسم العادي و هي مفتوحة السين و الراء و الميم بفتحة قصيرة بعدها مدّ بالألف و بعد المد ضمة فوق الهاء و الهمزة و العين و كلها من حيّز الحلق فهذا تناظر عجيب و توازن في الحركات والأصوات. و نجد التاء و الكاف و الذال و الدال في وسط الآية الأولى في أرءيت و يكذب و الدين تدعيما لهذه الأصوات في فواصلها. و كذلك في وسط الآية الثانية في ذلك و يدعّ و اليتيم. و الضاء و الطاء و الكاف في الآية الثالثة كذلك في يحضّ و طعام و المسكين و الضاد و الطاء من الأصوات المطبقة. الطاء أخت التاء في المخرج و التاء أخت الكاف في الصفات وبالتعدي تصبح الطاء منسجمة مع الكاف. وصلاتهم و ساهون و المصلين و المسكين فيها من التوافق ما فيها و فيها من الأنسجام ما فيها. و الهاء و السين من عائلة واحدة تتشابه في الصفات، و السين و الصاد من مخرج واحد، فهذا تنوع صوتي في السورة الكريمة محكم النظام في تناسق تام في الصفات والمخارج و ما الأصوات إلاّ صفات و مخارج. أ ليس هذا ما يسمى بالإعجاز الصوتي أم الإعجاز شيئ آخر؟؟!

3) سورة: الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ
تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦
فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨

سورة الزلزلة ثماني آيات جاءت متنوعة روي الفواصل؛ نجد الهاء الدالة على التأنيث و هاء المذكر و ضمير الجمع هم. نجد في السورة كلمتي أثقالها و أخبارها، و هما متساويتان في عدد الأصوات و في حركاتها و سكناتها و مدودها ، و هما على وزن واحد، وصيغة واحدة، و هما جمعا تكسير. الهمزة أخت الهمزة و الثاء أخت الخاء في كل الصفات، والقاف أخت الباء في كل الصفات كذلك، والمدّ أخو المدّ و اللام أخت الراء في كل الصفات، و الهاء واحدة فيهما. و مَا لَها في الآية الثالثة تقابل جزءً من كلمة أخبارها – بَارَها– فالميم أخت الباء في المخرج و اللام أخت الراء في الصفات، و الهاء واحدة، و فيهما الحركات والمدود نفسها. و خيرا يره تساوي شرّا يره في عدد الأصوات و الحركات و السكنات. الخاء أخت الشين في الصفات، و الياء أخت الراء في خيرا و شرا، الشين أخت الياء في المخرج – يره – . الذال أخت الزاي في كل الصفات في بداية السورة، و الضاد أخت الذال عن طريق الظاء بالتعدي.و الجيم أخت الضاد في المخرج و القاف في قال من أخت الجيم في أخرجت و القاف و الباء. و كذلك الذال أخت الثاء في المخرج في أثقالها و يومئذ و تحدث و مثقال و ذرة.و جاءت الفاء قبل من في فمن يعمل تقابلها الواو في و من يعمل لتتساوا الآيتان في عدد الأصوات و تتناظران في كل الحركات، و يكون التوازن الصوتي. هذا النسج الصوتي الرائع الناتج عن تعانق هذه الأصوات المتاشبهة في الصفات و المتوحّدة في المخارج و المتقاربة من بعضها بالتعدية فيما بينها هي عماد الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم.

أولا: العائلة المجهورة و الشديدة :

1 أصوات الباء و الدال و الجيم و القاف و الهمزة مجتمعة:

جاء في لسان العرب، فعيل أبلغ من فاعل. و القرآن المجيد أي الرفيع و الكريم و الرفيع العالي. و المجيد هو الكريم المفضال. والماجد الشريف الخيّر. و المجد الكرم و الشرف. و جاء في المثل: " لكل شجر نارٌ واستمجد المرخُ والعفارُ؛يضرب في تفضيل بعض الشيئ على بعض، وهما يسرعان الوَرْيَ. واستمجداستفضل.

القاف صوت مجهور و شديد و مرقق، يكون أصلا لا بدلا و لا زائدا. فهو أمجد الأصوات و أفضلها و أحسنها و قد استمد ذلك من صفة القرآن المجيد من بين كل الأصوات المقطعة التي ذكرت في أوائل السور نهيك عمّا لم يذكرمنها. و القاف هو أول صوت بدأ به لفظ القرآن لشرفه و فضله على سائر الأصوات و انتهى بأخفها و هو صوت النون مدعوما بأخف المدود ألا وهو الألف. والقاف هو أشرف و أكرمُ أصواتِ عائلته المجهورة و الشديدة و هو زعيمها و ممثلها. متقدما و منفصلا قد جاء في سورة قٓ .

وقد ذكر بعده قسم شريف بالقرآن مع صفة من صفاته، و لم يذكر قط في فواصل هذه السورة كما ذكرت أصوات عائلته وهي على

التوالي: الباء و الدال و الجيم. و ذكر القاف مرتين اثنتين لا غير في بداية فاصلتين هما: " إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ و " وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ فالقسَم بالقرآن و صفة المجيد بعد صوت القاف عكس و كشف و وقف على خصائص هذا الصوت المتمثلة في فضله ومجده على سائر إخوته. كما وقف وكشف و عكس قسم آخر في سورة شريفة أخرى خصائص صوت شريف آخر ألا و هو صوت النون في سورة: القلم نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ فخصائص النون من وراء هذا القسَم تَبْرُز بكل جلاء، و هي تتمركز فيما يقدمه هذا الصوت من خدمات جليلة إلى اللغة العربية . فإن صوت النون يدخل في كثير من القضايا اللغوية فهو أساسي في الخطاب و الكتابة؛ فهو مادة التنوين والتنغيم و التوكيد و الوقاية و الجمع و صناعة الحروف و الضمائر وغير ذلك من خدمات، كما جاء في بحث موسوم ب: " من أسرار النون في القرآن الكريم ". و هذه إشارات دالة على أن ما يأتي بعد الصوت المقطع في سور القرآن إشعاعات تضيئ موقع الصوت بين إخوته أو تبيّن ما يسديه هذا من خدمة عظيمة لهذه اللغة الشريفة أو كونه آيات الكتاب الحكيم.

سورة: ق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ
عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا
كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ
فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا
فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا
فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ
وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾
وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾
أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا

تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ
وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ
بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ
مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ
حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ
لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ
قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ
ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ
أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ
ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم
بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى
ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن
لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾
وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ
يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ
تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ
عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

المَجِيد و عَجِيب: ماذا نجد من أصوات؟ نجد كل أصوات عائلة القاف الجيم و الدال و الباء و هي مرتبة وفق دراجات قوتها في مرونة تعاملاتها في معاشرتها و ائتلافها مع الأصوات العربية و توليد المعاني. عدد الأصوات عدا الألف و اللام متساو في الكلمتين والحركات واحدة و في المواقع نفسها، و نجد الميم و العين في البداية و هما يلتقيان في خصائصهما حسب تصنيف علمائنا لهما حيث وضعا في عائلة :" لم يرو عني".

بَعِيد: لها اتصال بالمجيد عن طريق تناظر الباء مع الميم من مخرج واحد و الدال مع الدال و العين تقابل الجيم و الجامع بينهما مبهم لم نحط به بعد و لم نعلم له رابطا قويا اللهم إلا الجهر و قرب المخرج. أو يكون عن طريق العين تناظر الميم و الميم أخت الباء، والباء والدال تناظر الجيم و الدال بالتقديم و التأخير. و لها اتصال بعَجِيب؛ فالعين أخت العين و الباء أخت الباء بتبادل المواقع والدال أخت الجيم. هذا التداخل بين الأصوات عجيب، فهناك ستة أصوات و ثلاث عائلات؛ عائلة الأصوات المجهورة الباء والدال والجيم، و عائلة الأصوات المتوسطة الميم و العين و عائلة متحدة في المخرج الميم و الباء. فهذا تنوع مركب في العائلات وفي الأصوات و في تبادل المواقع. و تشابه الحركات يبقي التنغيم و الإيقاع على وتيرة واحدة دون خلل.، و من هنا تتجلى عظمة الرحمان في تنوع الخلق في الكون و في إعجاز نسج القرآن.

حَفِيظ: فاصلة جاءت بعد بعيد بأصوات ذات صلات قوية فيما بينها؛ فالحاء أخت العين و الفاء أخت الباء و الظاء أخت الدال في تشابه بعض الصفات و التعويض في أخرى للتوازن؛ فالظاء رخو و مطبق و الدال شديد و مرقق، مع التبادل في المواقع والتساوي في عدد الأصوات و تشابه الحركات.

مَرِيج و فُرُوج و بَهِيج: ثلاث فواصل تنتهي بصوت الجيم الذي ينتمي إلى عائلة القاف. و تبدأ بعائلة واحدة تتوحّد في المخارج وهي الميم و الفاء و الباء. و الهاء تخالف الراء في الصفات و المخرج. و الله يعلم سر توافقهما.

وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ الحج، **وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧** ق .

كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧ الشعراء، **فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝١٠** لقمان

كما مر معنا في مثل عجل سمين و عجل حنيذ، نجد هنا زوج بهيج و زوج كريم تتكرر في سورتين؛ الحج و ق و الشعراء و لقمان. البهيج الحسن و النضير و الكريم صفة لكل ما يرضى و يحمد في بابه و هو الجيد. فهما بمعنى واحد.فورود بهيج في سورتي الحج وق ليتوافق مع أصوات عائلته لأن الانسجام بين الأصوات يكمن في تشابه الصفات و توحد المخارج، وهذه حجته في الوقوع والاستعمال. و كذلك ورود كريم في سورتي الشعراء و لقمان مع أصوات عائلته النون و الميم التي يجتمع فيها تشابه الصفات وتوحد المخرج و هذا برهان مستقل و تدعيم للبرهان السابق،و الاستعمال في القرآن سلطان الأدلة. وتكفي عودة إلى المصحف لتطمئنة نفسك. و ورود لفظ بهيج في الآية السابعة في سورة ق و مجيئ كذلك لفظ كريم في الآية نفسها في سورة الشعراء ليدعو إلى الدهشة؛ " و قل ربي زدني علما ". و لا نغفل عن تساوي اللفظين في عدد الأصوات و تشابه الحركات و المدود، و الباء أخت الكاف عن طريق القاف.

و عودة تناظر صوت الهاء مع صوت الراء في بهيج و كريم يذكرنا بما تقدم مع مريج و فروج و بهيج .

مُنِيب: تلحق بما تقدم من الفواصل في بدايتها بالميم و نهايتها بالباء.

الحَصِيد و نَضِيد و الخُرُوج و ثَمُود و لُوط: الصاد و الضاد من عائلة الأصوات المطبقة. و كذلك الحاء و الخاء و الثاء في أول الألفاظ من عائلة واحدة و كذلك الراء و الميم و اللام من عائلة واحدة و عليها حركة واحدة و هي الضمة. و الدال و الطاء في نهاية الفاصلة من عائلة و احدة تتوحد في المخرج.

وعيد و جديد و الوريد و قعيد و عتيد و تحيد و الوعيد و شهيد و حديد وعتيد: كل الفواصل تنتهي بروي واحد و هو الدال، و هناك مجموعة كبيرة من الأصوات تلتقي في تشابه الصفات و توحد المخرج و بالتعدي. الجيم أخت القاف و الجيم أخت الشين والشين أخت الحاء و التاء أخت القاف بالتعدي و الواو أخت العين و الراء و العين أخت الحاء و الهاء. الحركات في كل الفواصل متشابهة تبدأ بالفتحة و تليها الكسرة مع المد.

مزيد و بعيد و حفيظ و منيب و الخلود و مزيد و محيص و شهيد: التقديم و التأخير لهما دور عظيم في تنويع مواقع التناظر بين أصوات العائلة الواحدة أو العائلات المختلفة. الميم أخت الباء في المخرج و الزاي أخت العين في تشابه الصفات و الحركات واحدة والعدد متساو. الباء أخت الفاء في المخرج و العين أخت الحاء في المخرج و الدال تعادل الظاء كما مر معنا، و الحركات واحدة والعدد متساو كذلك و المد بالياء. و منيب قريبة من بعيد، الميم أخت الباء و النون أخت العين و الباء أخت الدال، والنون أخت اللام والزاي أخت الصاد و الظاء أخت الصاد كذلك و الحاء أخت الهاء. فهذا تشابك عظيم و منظم بين الأصوات و تعاون العائلات فيما بينها ظاهر للعيان لمن يريد أن يرى.

لكل أواب حفيظ: الهمزة أخت الحاء و الواو أخت الفاء و الظاء قريبة من الباء.

و إلينا المصير و علينا يسير: الهمزة أخت العين في المخرج و الميم أخت الياء و الصاد أخت السين و الراء واحدة والحركات واحدة و عدد الأصوات متساو.

فهذه سورة صوت القاف المقطع جمعت كل أفراد عائلتها و لم يدخل القاف في روي أي فاصلة من فواصلها لأنه شرف بالذكر في أول آية ، و جاءت أصوات معها ترتبط بصوت من أصواتها حتى يتسنى لهذه الأصوات أن تخرج من عائلة لتدخل في عائلة أخرى دون أن تفقد الصلة بين الأصوات؛ فمثلا الباء تتفرع إلى الميم و الفاء و الواو، و الميم تتصل بالياء و الواو و الفاء بالهاء و الشين و الحاء والشين بالجيم و الضاد و الياء و كل ذلك في أحسن مواقعه التي تدفع النفس لعشق الاستماع و الإنصات إليه دون ملل أو ثقل أو أدنى نغص. هذا ما يستطيع أن يمسك به المتأمل و المتدبر لأنه محصور في زاوية ضيقة و هي زاوية الفواصل و ما يحاذيها من كلمات عن قرب. و الله المستعان و هو الغفور الرحيم و هو أعلم بعلمه ؛ و القرآن علم : " **و قل ربي زدني علما**". صدق الله العظيم.

سورة: الأنفال

وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ
ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ

فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

ماذا نرى في هذه الآيات الثلاث؟ هناك أصوات القاف و الدال و الباء كروي في نهاية الفواصل، و هي مكسورات الحركة، و قبلها مد بالياء و الألف و هناك كذلك الباء و القاف في للعبيد و العقاب و كل هذه الأصوات من عائلة واحدة متشابهة في الصفات و هناك الحاء و العين و هما من مخرج واحد، و عدد الأصوات متساوٍ في الثلاثة.

سورة: ص

صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ
فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ
كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟
وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا
ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾
هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا
يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَـٰذَا مَا
تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ
مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن
شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾

العائلة كلها هنا، الباء و الدال و الجيم و القاف كروي، مسبوق بالمد الألف، و هناك عائلات أخرى تشارك هذه العائلة في الموقع نفسه و هي عائلة الأصوات المهموسة الرخوة؛ السين و الفاء و الهاء، و قبل الهاء في المهاد نجد الهمزة في **مَـَٔاب** و السين بعدها في غساق و تلتقي الهمزة مع القاف و الجيم في الموقع نفسه في شقاق و عجاب و مآب و هناك عائلة ثالثة اللام و الراء في يراد واختلاق و شراب في الموقع نفسه. هذه إشارات لفهم هذا النظام الصوتي القرآني نتوقف عندها و لا نقف لأن المجال مفتوح لكشف الأسرار.

سورة: الطور

فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦

منشور و المسجور الشين أخت الجيم في المخرج و أخت السين في الصفات و قد تجاورا في كلمة المسجور،و النون من أخف الأصوات المجهورة و السين من أخفها في المهموسة و عليهما سكون و باقي الحركات متشابهة و المد واحد و هو الواو الطويلة وصوت الراء روي فيهما جميعا.

أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ۝٤١ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ۝٤٢ أَمۡ لَهُمۡ
إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٤٣ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ
مَّرۡكُومٞ ۝٤٤ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ۝٤٥ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا
وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٧ وَٱصۡبِرۡ
لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ
۝٤٩

الباء و الدال و القاف و الجيم موجودة في هذه الآيات قبل صوت واو المد مثل يكتبون، و نجد الكاف تتعاون معها في يشركون ومركوم لأنها أخت القاف في المخرج، فهذه العلاقة تنتشر إلى كافة الأصوات الأخرى. و في بداية سورة الطور نجد الشين تلتقي مع الجيم في منشور و مسجور و مع الفاء في مرفوع عائلة واحدة، و تلتقي معها الميم من مخرج واحد. الوزن واحد و الصيغة نفسها والحركات و المدود كذلك نفسها.

ملاحظة :

لقد أوردت شواهد عائلة واحدة و ما تفرع عنها من بين سبع عائلات صوتية و اكتفيت ببعض الشواهد القليلة جدا لأن القرآن كله يمكن أن يكون شواهد لهذا البحث. و يمكن من خلال هذه العائلات و من خلال جعل لكل عائلة رمز من الأصوات، على سبيل التمثيل؛ ق لعائلة الأصوات المجهورة الشديدة، و ك للمهموسة الشديدة و ا للأصوات اللينة و ي للأصوات الشبيهة باللينة و س للأصوات المهموسة الرخوة و ط للأصوات المطبقة و ن لمر للأصوات المتوسطة, نكون قد علمنا ما الحكمة من ذكر الأحرف المقطعة في أوائل السور و أنها جاءت لتقول للمتأملين في كتاب الله أنها هي أساس الإعجاز الصوتي في القرآن. و إذا كانت العائلة المتشابهة في الصفات كالصوت الواحد، فإن الفكرة ترحل مباشرة لمسألة الأحرف السبعة في القرآن الكريم. سبعة أحرف تعني سبع عائلات.

فهل من لغة أخرى تمتلك من المقومات و الخصائص هذه حتى تستوعب و تكون وعاء واسعا و لائقا بكلام الله العظيم وقرآنه المجيد. لا إله إلا إنت سبحانك إني كنت من الظالمين .

قال تعالى:

قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ
﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ
وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ صدق الله العظيم و بلغ رسوله الأمين .

المصادر و المراجع

❖ 1 القرآن الكريم.
http://ia600500.us.archive.org/32/items/Othmany_Quran/Othmany_Quran.zip

❖ 2 أنيس، د. إبراهيم، الأصوات اللغوية. الطبعة الرابعة 1961 م.

❖3 ابن جني، أبو الفتح عثمان. سر صناعة الإعراب. د و تح: حسن هنداوي دار القلم. دمشق. الطبعة الأولى. 1985.

❖ 4 الجبوري، د. محمد يحي سالم، مفهوم القوة و الضعف في أصوات العربية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2006م.

❖ 5 سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. الكتاب. تح عبد السلام محمد هارون. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة 2. 1982. مكتبة الخانجي القاهرة.

❖ 6 عبد الله، د. إبراهيم محمد . مباحث في علم الصرف. دار سعد الدين . دمشق. الطبعة الأولى.

❖ 7 العاني، د. سلمان حسن، التشكيل الصوتي في اللغة العربية فونولوجيا العربية ترجمة د. ياسر الملاح، مراجعة د. محمد محمود غالي، النادي الأدبي الثقافي جدة الطبعة الأولى 1983.

❖ 8 القيسي، مكي بن أبي طالب . الرعاية لتجويد القراءة و تحقيق لفظ التلاوة تح: أسامة هيثم عطايا .دار الفارابي للمعارف. ط1 2005 .

❖ 9 المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية. إشراف عبد السلام هارون .المكتبة العلمية طهران .الجزء الأول مادة ريب.

مدخل إلى التكرار الصوتي في البيان العربي و نظرية الترداد الجديدة (قراءة في مهايا الحدود و جهاز المصطلح)

الأستاذ: د.محمد الأمين خلادي
قسم اللّغة و الأدب العربي
جامعــــة أدرار

مقدمة في منظومة المصطلح ومدونة المفهوم :(الترداد أكبر من التكرار)

أ _ الحد اللغوي:

الترداد بين المعجم و المصطلح : إن الولوج في هذا المصطلح و في حيثياته، يتطلب منا سوق جملة من شروح المعجميين و الدراسين اللغويين لمادة : رد ، حتى يتسنّى لنا الإحاطة بهاته المادة وتحولاتها المستوياتية، و كيف صيغت، و ممّا اشتُقّت و فيما وُظِّفت و إلام قصدت .

ورد في القاموس المحيط « ردّ ردّاً و مردّاً و مردوداً و ردّيدي ، صرفه... و الترداد الترديد... و الارتداد الرجوع »[1] .

و جاء في اللسان « ردّد ، الردّ : صرف الشيء و رجْعُه و الرّد مصدر رددت الشيء ، وردّهُ عن وجهه ، يردّه ردّاً ومردّاً و ترداداً : صرفه ، و هو بناء للتكثير ... قال شمّر : الردّة العطفة عليهم والرغبة فيهم ، و ردّدهُ ترديداً و ترداداً فتردّد »[2]

و في معجم الألفاظ و الأعلام القرآنية « ردّه عن كذا صرفه و أرجعه ... و رادّهُ الشيء أرجعه إليه ... (ثم رددناه أسفل سافلين) التين ، الآية 5 »[3] .

و تعرفه إنعام فوال عكاوي، صاحبة المعجم المفصل في علوم البلاغة بقولها: «الترديد من الردّ، مصدر رددت الشيء: صرفته، و الترديد إعادة الشيء »[4] .

و قد أوردت المعاجم الاصطلاحية العلمية و اللغوية و اللسانية هذه المادة ، كورودها في قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية : « الترديد : Répétition , Repetition »[5] ، و في المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات : « ترديد :

---

[1] محيي الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، القاموس المحيط، ص :304
[2] أبو الفضل جمال الدين بن منظور، لسان العرب، دار بيروت للطباعة و النشر، ص: 172 ، 173
[3] محمد إسماعيل ابراهيم، معجم الألفاظ و الأعلام القرآنية، ص:199
[4] د.إنعام فوال عكاوي، المعجم المفصل في علوم البلاغة، ص: :303
[5] د.إميل يعقوب و آخرون ، قاموس المصطلحات اللغوية و الأدبية ،عربي إنجليزي فرنسي، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط:1 ،1987 م، ص :118

tanaclasis »[1] ، و أما في معجم عبد النور الحديث فقد ورد لفظ التراداد كما يلي : « ترداد : Répulsion réitérée , Répétition , Réitération ، ترداد : ردّد الكلام : Serépéter »[2].

ذاك عن الشرح المعجمي اللغوي للترداد، أما عن المعاني و المفاهيم و التعريفات الاصطلاحية، فقد تشابهت وتقاربت تارة و اختلفت و تخالفت تارات أخرى ، و لعل مردّ ذلك يكمن في إشكالات المصطلح التي تطال كل بحث أدبي أو لغوي ، إلا أنها ظاهرة طبيعية لا تخلّ بغاية هذا البحث أو ذاك .

و من العوامل التي نحسبها سببا لهذا عاملا الزمان و المكان، فكثيرا ما يتفق عالمان حول مضمون ظاهرة أدبية ما ولكنهما يختلفان في تحديد المصطلح الخاص بها لعدم اجتماعهما في بقعة واحدة أو في حقبة واحدة. أضف إلى ذلك أثر البيئة الاجتماعية والثقافية في تركيب الدالّ و حمله على المدلول.

كما أن المادة اللغوية لأي نص أدبي قد تملي على الدارس وضع مصطلح محدد بعينه ؛ دون غيره، فدارس التكرار في الجانب البلاغي مثلا قد يختلف مع دارس التكرار في جانبه اللغوي من حيث تحديد المصطلح .

ثم إن طبيعة الطرح الموسوعي التي شاعت عند علماء العربية قديما كانت تفرض على العالم بسط دقائق الظاهرة اللغوية والاجتهاد و الاستطراد فيها مما قد يتولد عنه وضع مصطلح يختلف عن غيره.

و كما هو الحال أيضا عند الدارسين المحدثين؛ فما من بحث أو دراسة إلا و أُثيرت مشكلة المصطلح و وجد الباحث نفسه في توزّع بين الأخذ من موروثه الأدبي، و بين تحصيله المعرفي عند الغرب و بين اجتهاده الشخصي الصرف، لأجل هذا وحتى لا يضيع معنا القارئ في حمأة هذا المعترك الاصطلاحي، ارتأينا أن ننير له طريقا نراها أجدر و أقرب إلى دركْ المبتغى؛ فسنعرض جملة ممّا تهيأ لدينا من تعريفات و مفاهيم قديمة و حديثة لمفهوم الترداد معنىً لا اصطلاحاً، مفصّلين القول في بعضٍ منها، وموجزين في البعض الآخر. كما تجدر الإشارة هنا إلى أننا اعتمدنا –بقوة– في تفصيل هاته الأجناس البيانية و الفنون البلاغية المعجمَ المفصّل في علوم البلاغة للدكتورة إنعام فوّال عكّاوي ، لجمعه مختلف الآراء والتفاسير و أحسنها و أدقها .

ب _الحد الاصطلاحي :

يقول العلامة سيبويه في معرض حديثه عن عمّا لحقته الزوائد من بنات الثلاثة من غير الفعل:« وليس في الكلام مفعال و لا فعلال و لا تفعال إلا مصدرا، و ذلك نحو: الترداد و التقتال »[3]

أما الإمام السيوطي فقد بسط القول في هذا؛ عند تفصيله لصيغ المزيد من الثلاثي المضعّف ، حينما أورد صيغة تفعال، و ضرب لها مثالا بقوله: « و تفعالٌ:ترادٌ »[4]

---

[1] المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، مكتب تنسيق التعريب، المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات (إنجليزي، فرنسي، عربي)، تونس، 1989، ص: 12

[2] جبور عبد النور، معجم عبد النور الحديث، عربي، فرنسي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط:11، 2001، ص:12

[3] أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب (كتاب سيبويه)، تحقيق و شرح: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط:3/ 1403 هـ،1983 م ،ج:4 ، ص:257

[4] عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة و أنواعها، شرح و ضبط و تصحيح: محمد أحمد جاد المولى بك ، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 1408 هـ، 1987 م ، ج:2 ، ص :8

و يقول في كتابه الإتقان في علوم القرآن : « التكرير و هو أبلغ من التأكيد و هو من محاسن الفصاحة خلافاً لبعض من غلط، و له فوائد منها التقرير، و قد قيل الكلام إذا تكرّر تقرّر ، و قد نبّه تعالى على السبب الذي لأجله كرّر الأقاصيص والإنذار في القرآن بقوله : و صرّفنا فيه من الوعيد لعلّهم يتّقون أو يحدث لهم ذكراً ، و منها التأكيد، و منها زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقّي الكلام بالقبول... ومنه ما كان لتعدد المتعلّق بأن يكون المكرّر ثانياً متعلّقاً بغير ما تعلّق به الأول، و هذا القسم يسمّى بالترديد، كقوله : الله نور السموات و الأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّي ، و قع فيها الترديد أربع مرّات و جعل منه قوله : فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان ، فإنها و إن تكرّرت نيفاً و ثلاثين مرة فكل واحدة تتعلّق بما قبلها و لذلك زادت على ثلاثين و لو كان الجميع عائداً إلى شيء واحد لما زاد على ثلاثة لأن التأكيد لا يزيد عليها ، قاله ابن عبد السلام و غيره ، و إن كان بعضها ليس بنعمة فذكرُ النقمة للتحذير نعمة، (و قد سئل) أي نعمة في قوله : كل من عليها فان، (فأجيب) بأجوبة أحسنها النقل من دار الهموم إلى دار السرور و إراحة المؤمن و البار من الفاجر وكذا قوله : و يل يومئذٍ للمكذّبين ، في سورة المرسلات، لأنه تعالى ذكر قصصاً مختلفة و أتبع كل قصة بهذا القول فكأنه قال عقب كل قصة ويل يومئذ للمكذّبين بهذه القصة ، و كذا قوله في سورة الشعراء: (إن في ذلك لآية و ما كان أكثرهم مؤمنين و إن ربك لهو العزيز الرحيم)، كرّرت ثماني مرات ، كل مرة عقب كل قصة فالإشارة في كل واحدة بذلك إلى قصة النبي المذكور قبلها و ما اشتملت عليه من الآيات والعبر ، و قوله و ما كان أكثرهم مؤمنين إلى قومه خاصة و لما كان مفهومه أن الأقل من قومه آمنوا أتى بوصفَيْ العزيز الرحيم، للإشارة إلى أن العزة على من لم يؤمن منهم و الرحمة لمن آمن ، و كذا قوله في سورة القمر: و لقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر، و قال الزمخشري كرّر ليجدوا عن سماع كل نبأ منها اتّعاظاً و تنبيهاً ، و أن كلا من تلك الأنباء يستحق لاعتبار يختصّ به و أن ينتبهوا كي لا يغلبهم السرور و الغفلة !! »[1]

و يزيد التفصيل بقوله : « التكرير؛ و هو أبلغ من التأكيد .. و له فوائد : منها إذا طال الكلام وخُشيَ تناسي الأول أُعيدَ ثانيا تطريةً له و تجديداً لعهده ؛ و منه : ثم إن ربّك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك و أصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ، النحل،119 ، ... إني رأيت أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر رأيتهم لي ساجدين، يوسف،4 و منها التعظيم و التهويل نحو : الحاقّة ما الحاقّة، القارعة ما القارعة . و أصحاب اليمين ما أصحاب اليمين... و من أمثلة ما يُظنُّ أنه تكرار وليس منه : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، الكافرون،2 ... و منه تكرير حرف الإضراب في قوله : قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ، الأنبياء،5 ، ... و من ذلك تكرير الأمثال كقوله : و ما يستوي الأعمى و البصير ولا الظلمات ولا النور و لا الظلّ و لا الحرور و ما يستوي الأحياء و لا الأموات ، فاطر،19، 20 ... ومن ذلك تكرير القصص كقصة آدم و موسى و نوح و غيره من الأنبياء. قال بعضهم : ذكر الله موسى في كتابه في مائة و عشرين موضعا ... وقد ألّف البدر بن جماعة كتاباً أسماه المقتنص في فوائد تكرير القصص ، و ذكر في فوائده :

أن في كل موضع زيادة شيء لم يُذكر في الذي قبله ، أو إبدال كلمة بأخرى لنكتة؛ و هذه عادة البلغاء ... و منها: أن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة و أساليب مختلفة ما لا يخفى من الفصاحة »[2]

---

[1] عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت، لبنان، ج:2 ، ص :66 ، 67

[2] عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن ، ضبط و تصحيح : أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:1 /1408 هـ ،1988 م ، مج:1 ، ص : 258 ،259 ،262 ،263

أما عن الترديد فهو عنده من جهة كونه لقباً من ألقاب البديع : « أن يورد أوصاف الموصوف على ترتيبها في الحلقة الطبيعية و لا يدخل فيها وصفا زائدا؛ و مثله عبد الباقي اليمني بقوله تعالى : هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ، غافر،67 ، إلى قوله : ثم لتكونوا شيوخا ، غافر،67 ، وبقوله : فكذبوه فعقروها ، الشمس،14 الآية »[1]

لا نظن أن أحدا يتأمل هذه الأقوال فيجرؤ على ادّعاء الإحاطة الكاملة، و التمييز الدقيق لما احتوته من خيوط رفيعة حيكت بها جملة من المفاهيم و المعاني المتشابهة و المتداخلة؛ كالتكرير و التقرير و التأكيد و التنبيه و الترديد.. فهذه الدقائق الفنية وسواؤها كثير، هي مما نعتقده أنواعا لظاهرة بيانية فنية كلية؛ هي الترداد.. و حتى لا نستبق الحكم و التقرير فيما نعتقده ، و كي لا يُظنُّ بنا العبث و الاختلاف أو التحذلق ، فسنضيف أقوالا أخرى لما أوردناه ، حتى يتبين القصد.

يسوق الجاحظ لفظ الترداد في حديثه عن ذكر طائفة من البلغاء و الخطباء بقوله « و جملة القول في الترداد، أنه ليس فيه حدّ ينتهى إليه، و لا يؤتى على وصفه ، و إنما ذلك على قدر المستمعين ومن يحضره من العوام و الخواص. و قد رأينا الله عز وجل ردّد ذكر قصة موسى و هود و هارون وشعيب وإبراهيم و لوط و عاد و ثمود، و كذلك ذكر الجنة و النار و أمور كثيرة ؛ لأنه خاطب جميع الأمم من العرب و أصناف العجم، و أكثرهم غبيّ غافل، أو معاند مشغول الفكر، ساهي القلب.

و أما أحاديث القصص و الرقّة فإني لم أر أحداً يعيب ذلك، و ما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ و ترداد المعاني عيّاً»[2]

و بهذا المعنى يكون الترداد ظاهرة بيانية مفتوحة الأطراف؛ لا تدركُ حوافها و لا أوصافها إلا بقدر ما تتناهى إليه أسماع الحاضرين من العوام و الخواص.

و كذلك ينحو الإمام شمس الدين بن القيم الجوزية نحو ابن قتيبة معتمدا التكرار كمصطلح فني لهذه الظاهرة البديعة، إلا أنه أكثر تفصيلا و تدقيقا، فحقيقة التكرار عنده هي: « أن يأتي المتكلم بلفظ ثم يعيده بعينه سواء كان اللفظ متفق المعنى أو مختلفاً، أو يأتي بمعنى ثم يعيده و هذا من شرطه اتفاق المعنى الأول والثاني، فإن كان متّحد الألفاظ و المعاني، فالفائدة في إثباته تأكيد ذلك الأمر، و تقريره في النفس وكذلك إذا كان المعنى متحداً. و إن كان اللفظان متفقين و المعنى مختلفاً فالفائدة في الإتيان به الدلالة على المعنيين المختلفين... فأقسامه ثلاثة. الأول ما يتكرر لفظه و معناه متحد. الثاني ما يتكرّر لفظه و معناه مختلف. الثالث ما يتكرر لفظه معنىً لا لفظاً: أما ما يتكرر لفظه و معناه متّحد فمنه قوله تعالى: فقُتِل كيف قدّر ثم قُتِل كيف قدّر ... وأما ما تكرّر لفظه و معناه مختلف فمنه قوله تعالى : و يريد الله أن يحقّ الحقّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحقّ الحقّ و يبطل الباطل... و أما تكرار المعنى دون اللفظ فهو إما أن يكون بين المعنيين مخالفة ما أو لا يكون كذلك، فأما ما يكون أحدهما أعم فكقوله تعالى : ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر . فإن الدعوى إلى الخير أعم من الأمر بالمعروف... و أما الذي لا يكون أحد المعنيين أعمّ فكقول حاطب بن أبي بلتعة : و الله يا رسول الله ما فعلت ذلك كفراً و لا ارتداداً عن ديني و لا رضاً بالكفر بعد الإسلام ... و أما الذي لا يكون بين المعنيين مخالفة فكقوله تعالى :وإن تعفوا و تصفحوا و تغفروا فإن الله غفور رحيم »[3]

---

[1] نفسه ، مج:1 ، ص :302

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، البيان و التبيين ، تحقيق: عبد لسلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ج:1 ، ص :105

[3] الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر (ابن القيم الجوزية) ، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن و علم البيان ، مكتبة الهلال، بيروت ، لبنان، ص:159، 160، 161، 162 .

و لقد أورد أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين عدّة معان و مفاهيم فقال « ... و القول القصد أن الإيجاز والاطناب يُحتاجُ إليهما في جميع الكلام و كل نوع منه : و لكل واحد منهما موضع.. فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه... المجاورة : تردّد لفظتين في البيت ووقوع كل واحدة منهما بجنب الأخرى أو قريبا منها من غير أن تكون إحداهما لغواً لا يُحتاجُ إليها.. وذلك كقول علقمة:

و مطعم الغلم يوم الغلم مطعمه   أنّ توجّه المحروم محروم »[1]

فمن خلال هذا القول تنبجس أنواع أخرى و معان جديدة للترداد، كالإطناب و المجاورة؛ فكما أن للإيجاز حاجة إذا كان في موضعه، فللإطناب حاجة أيضا إذا ورد في مكانه، فإذا كان الوصول إلى الغاية المبتغاة لا يتم إلا بالإطناب؛ فلا يعني ولا يمكن أن يفهم من هذا أبدا أن الإطناب عي أو عيب أونقيصة ... و لعل بيت علقمة الذي تمثله أبو هلال العسكري، لخير مثال يُحتجّ به في هذا المقام.

و لقد تطرقت إنعام فوّال عكاوي إلى مفهوم الإطناب و أنواعه كالإطناب بالتكرير و الإطناب بالتكميل و الإطناب بالتوشيع و الإطناب بذكر الخاص بعد العام و الإطناب بالزيادة ، مستعرضةً بعض أقوال المنظّرين القدامى بقولها: « قال الفرّاء: والكلمة قد تكررها العرب على التغليظ و التخويف »[2]

أما عن الترديد فلقد استجْمَعَتْ بعضاً من أقوال المنظّرين بقولها : « عرّفه الحاتمي في حلية المحاضرة فقال: الترديد هو تعليق الشاعر لفظة في البيت متعلّقة بمعنىً ثم يردّدها فيه بعينها و يعلّقها بمعنىً آخر في البيت نفسه... و سماه التبريزي والبغدادي التعطّف و عرّفاه بتعرف أقرب إلى تعريف ابن رشيق القيرواني و أمثلته . أما أسامة بن منقذ فقد سماه التصدير و عرفه بقوله: باب الترديد، و يُسمى التصدير ، والترديد هو ردّ أعجاز البيوت على صدورها، أو ترد كلمة من النصف الأول في النصف الثاني... وذكر ابن أبي الأصبع أن من الترديد نوعاً آخر و هو ترديد الحبك و يُسمّى البيت المحبوك وعرّفه فقال : أن تبني البيت من جمل ترد فيه كلمة من الجملة الأولى في الجملة الثانية و كلمة من الثالثة في الرابعة، بحيث تكون كل جملتين في قسم و الجملتان الأخيرتان غير الجملتين الأوليين في الصورة والجمل كلها سواء في المعنى... و قد جاء تعريف كل من العلوي و ابن مالك والنويري و الحلبي ، وابن الأثير الحلبي ، والمظفّر العلوي و السبكي و السيوطي و الزركشي و المدني و ابن معصوم كالتعريف المتقدّم الذكر»[3]

و أما عن التكرار فهو « ما يقوّي الوحدة و التمركز و يظهر في تناوب الحركة و السكون أو تكرّر الشيء على أبعاد متساوية. و في ترديد لفظ واحد أو معنى واحد و هو الترجيع ، ترجيع البداية في النهاية، ترجيع القرار في الغناء، رد العجز على الصدر في الشعر، ترجيع النوتة الواحدة في الموسيقى، و العود المتواتر إلى شيء بعينه . و التكرار كثير الشيوع في الفن و قلّ ما نجد أثراً فنّياً لا تتكرّر فيه أجزاء متقاربة أو متباعدة. و منه الترجيع المتّسق أو الإيقاع (ريتم Rythme) »[4]

و قد خصّص الدكتور عبد العال سالم مكرم فصلاً للترادف و التكرار فذكر أن « التأكيد بالتكرار لفظاً و معنىً وهو ما يُطلقُ عليه مصطلح التكرار، فهو توكيد لأنه إعادة الكلمة أو الجملة باللفظ و المعنى معاً، فهو من صميم التوكيد، و هذا التكرار يشبه

---

[1] أبو هلال الحسن ابن عبد الله بن سهل العسكري ، كتاب الصناعتين ،الكتابة و الشعر، تحقيق: د.مفيد قمحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ط:2/ 1409 هـ،1989 م ، ص : 209، 466 .

[2] د.إنعام فوال عكّاوي، المعجم المفصل في علوم البلاغة، ص : 169 .

[3] د.إنعام فوال عكّاوي، المعجم المفصل في علوم البلاغة، ص : 303، 304 .

[4] روز غريب، النقد الجمالي و أثره في النقد العربي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط:1993 ، ص : 26، 27 .

الترادف من حيث إن الترادف اتفاق المعنى واختلاف اللفظ بمعنى أن اللفظ المكرر مكرّرٌ في المعنى، و ليس مكرراً في صورة اللفظ الأول، لأن اللفظ الثاني ليس هو اللفظ الأول مع وجود المعنى الواحد في كلا اللفظين. أما التكرار فهو تكرير المعنى و اللفظ معاً، بحيث تكون الكلمة الثانية المكررة هي الكلمة الأولى نفسها، أو الجملة الثانية المكررة هي الجملة الأولى بذاتها. فهناك علاقة بين التكرار و الترادف بحيث إن كلا منهما تكرار، كما أن هناك اختلافاً بينهما من حيث إن التكرار هو تكرار اللفظ نفسه أو الجملة ذاتها »[1]

و عن تكرار اللفظ و المعنى في القرآن الكريم، يضيف الدكتور عبد العال سالم مكرم: « في حديث ابن رشيق عن التكرار في اللفظ و المعنى نصَّ على أن : من المعجز من هذا النوع قوله تعالى: فبأي آلاء ربكما تكذبان ، كلما عدّد منّة أو ذكر بنعمة كرر هذا. و بيان إعجاز هذا التكرار سطّره العلوي في كتابه الطراز مبيّناً أن هذا التكرار له أسرارٌ لا يدركها إلا ذوو الأبصار، فالقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، و اللسان العربي قد يجنح إلى التكرار لما يحتويه من فائدة، و يضمّه من معان، وهو في عرضه لفوائد هذا التكرار في القرآن الكريم يوجّه نقده اللاّذع لهؤلاء اللذين ينكرون التكرار في القرآن... يقول العلوي: ومن أجل ورود التأكيد من جهة اللفظ و المعنى و التكرير في كتاب الله تعالى ظنّ بعض من ضاقت حوصلته و ضعفت بصيرته عن إدراك الحقائق، أنه خال من الفائدة و ألاّ معنى تحته إلا مجرد التكرير لا غير. و هذا خطأ و زلل، فإن كتاب الله تعالى لم يبلغ حدّ الإعجاز في البلاغة و الفصاحة سواه من بين سائر الكلمات. و لو كان فيه ما هو خال عن الفائدة بالتكرير لم يكن بالغا هذه الدرجة، و لا كان مختصّاً بهذه المزية، و أيضاً فإن سائر الكلمات التي هي دونه من الرتبة قد يوجد فيها التكرير مع اشتمالها على الفائدة فكيف هو؟ و نحن الآن نعلو ذروة لا يُنال حضيضها في بيان معاني الألفاظ المكررة في لفظها ومعناها في كتاب الله تعالى . و تُظهر أنها مع التكرير أن تكريرها إنما كان لمعانٍ جزلةٍ، ومقاصد سنية. بمعونة الله تعالى »[2]

و كذلك خصّ الدكتور صبحي إبراهيم الفقي فصلاً؛ عن التكرار يقول فيه أنه « من الظواهر التي تتّسم بها اللغات عامّة، و اللغة العربية خاصة. و لا يتحقّق التكرار على مستوى واحد؛ بل على مستويات متعددة، مثل تكرار الحروف، والكلمات، والعبارات، و الجمل، و الفقرات، و القصص أو المواقف كما هو واقع في القرآن الكريم... فمن معانيه الرجوع. ويُلاحظ أن علاقة التكرار تشمل الإحالة القبلية أو السابقة بالرجوع لما سبق ذكره في النص بتكراره مرة أخرى و من معانيه كذلك : البعث و تجديد الخلق بعد الفناء... و يذكر الرضي كذلك معنى التكرار قائلاً : (التكرير ضمّ الشيء) إلى مثله في اللفظ مع كونه إياه في المعنى للتأكيد و التقرير... و قد جعله ديفد كريستال واحداً من عوامل التماسك النصّي، و جعل له مصطلح Repeated و ذكر أنه (التعبير الذي يُكرر في الكل و الجزء) وأضاف غيره مصطلحاً آخر هو Recurrence ... ونستطيع أن نذكر تعريفاً للتكرار يضمن وظيفته النصّية بالقول بأن التكرار هو إعادة ذكر لفظ أو عبارة أو جملة أو فقرة، و ذلك باللفظ نفسه أو بالترادف و ذلك لتحقيق أغراض كثيرة أهمها تحقيق التماسك النصّي بين عناصر النص المتباعدة »[3]

---

[1] د.عبد العال سالم مكرم، الترادف في الحقل القرآني، مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط:1/ 1422 هـ،2001 م، ص : 207 .

[2] د.عبد العال سالم مكرم، الترادف في الحقل القرآني، ص : 208، 209 .

[3] د.صبحي ابراهيم الفقي، علم اللغة النصي، ج:2 ، ص : 17، 18، 19، 20 .

يفرّق الدكتور البدراوي زهران بين نوعين من التكرار؛ التكرار الوارد في كلامنا نحن البشر ، والتكرار المعجز القرآن الكريم؛ إذ أن « ظاهرة التكرار في القرآن الكريم ظاهرة لافتة للنظر ، ففي كلامنا نحن البشر عندما يفرض علينا موقف لغوي وحدات لغوية بذاتها، أو موقعية بعينها: قد لا تُسعفنا القريحة بغيرها، سواء حدث لنا ذلك في مواقف الحياة العامة عندما تتفاعل اللغة بالمجتمع في خضم الواقع اليومي أو حتى إن حدث لنا ذلك في مواقف الإبداع الفني التي يعايش فيها الأديب الكلمة.. و قد تستغرقه حالماً متأمّلاً.. فإن ما يُفرض علينا من حالات تكرار لكلمات أو عبارات أو جمل.. قد نجد فيها ما يُعدّ نقيصة تتناوله الألسنة و الأقلام.. أو ما قد يكون مثار سخرية.. بل إن تكرارنا لبعض القصص في مواقف التسلية قد يكون مدعاة ملالة و سأم أو رفض.. و لكن الشيء الذي يلفت النظر أن التكرار في القرآن الكريم تستريح له النفس و يقبله الطبع و يحسّ المستمع له باستجابة يدرك عمقها كما يدرك بقية المظاهر المحبّبة من ملاحة و جمال و طيب نغم و استقامة وزن و سلامة طبع و غير ذلك»[1]

و في دراسة للأستاذ عبد القادر بوزيدة عن التكرار يقول: « و من بين الظواهر الأسلوبية التي يبدو أنها تميز النص الشعري ظاهرة التكرار، التي يرى البعض أنها المبدأ الذي ينبني البيت الشعري على أساسه...فقد ظهرت دراسات سابقة على قدر كبير من الأهمية حول ظاهرة التكرار لعل من أهمها، فيما أعلم، دراسة يوري لوتمان Youri Lotman المتضمنة في كتابه (بنية النص الفني) و سأستعين ببعض الأفكار و المبادئ التي صاغها هذا العالم الفذ: إن كل نص يتكون باعتباره تأليفا تركيبيا لعدد محدود من العناصر (الحروف مثلا). لهذا فإن التكرار يصبح أمرا لا مفر منه. عندما نعتبر النص نصا فنيا، فإن كل العناصر المكونة له و طريقة انتظامها داخله تصبح دالة، و يجب افتراض المعنوية فيها، تأسيسا على هذا، فإن التكرار، أي تكرار، لا يمكن أن يكون شيئا زائدا أو عارضا بالنسبة للبنية، و لذا، فإن تصنيف مختلف أنواع التكرار و انتظامها داخل النص يصبح أمرا ضروريا لإدراك الخصائص الأساسية التي تميز بنية ذلك النص.

و التكرار مستويات و أنواع: فهناك التكرار الصوتي و اللفظي و الوزني و الإيقاعي والاستبدال وشبه التكرار ...الخ»[2]

و يعدّ الدكتور نور الدين السدّ التكرار بأنه : « من الظواهر الأسلوبية المحدثة لفاعلية الأثر الشعري، و تتحقق عبر التكرار جملة من الوظائف أهمها إثارة انتباه المتلقي و تكثيف الإيقاع الموسيقي في النص الشعري و توكيد الظاهرة المكررة و التعبير عن مدى أهميتها بالنسبة للسارد الشعري ... فالتكرار البسيط هو تردد الكلمة في سياقات متعددة سواء كانت اسما أو فعلا أو حرفا.

إن ما يلفت انتباهنا بعد قراءتنا لهذه التعريفات، هو اقتصارها –في الغالب– على تعريف الترداد ضمن تمظهرين اثنين للبيان العربي، هما النص المكتوب و البيان الصوتي، و على نمطين بيانيين هما القرآن الكريم و الشعر، و لعلّ السبب في ذلك هو أن منشأ الترداد يعود إلى كونه ظاهرة بيانية تجلّت أول ما تجلّت في الفضاء الصوتي، أي إن أولى بدايات تشكلها قد برزت في تركيبات صوتية لفظية تمثلت في قول الشعر و نظمه؛ ثم في تلاوة القرآن و تلقينه.

و رغم أن البيان العربي قد وُسم بلغة الإيجاز إلا أن غايات عدّة كانت تحوج الشاعر إلى تبليغ رسالته اضطرّته إلى اعتماد الترداد كوسيلة لا غنى عنها، و لأجل ذلك لجأ الدارسون قديمهم و حديثهم إلى تأسيس و تحليل هذه الظاهرة في ضوء المناهج

---

[1] د.البدراوي زهران، ظواهر قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية بين القدماء و المحدثين، دار المعارف، مصر، ط:1993/2 ، ص: 37 .

[2] عبد القادر بوزيدة، مقال: دراسة ظاهرة أسلوبية التكرار في قصيدة السياب (رحل النهار)، مجلة اللغة و الأدب، جامعة الجزائر،العدد14 ، شعبان 1420 ه،ديسمبر 1999 م ، ص: 50 ،51.

البلاغية التي كان سائدة وقتئذ، و التي دأب عليها بعض المتأخرين في رؤاهم و قراءاتهم الجديدة؛ و ينبغي الإشارة هنا بعد تمحيصنا لجلّ المصطلحات التي وردت في التعريفات السابقة لهذه الظاهرة البيانية إلى أن الترداد بوجهه الاصطلاحي الذي نحن بصدد تأسيسه ومحاولة تحديد معالمه الآن، كان مقصورا على مصطلح التكرار الذي درج على ألسنة الدارسين القدامى، وإن ما انضوت تحته من مصطلحات فرعية شتّى كالترديد و التصدير و التعطف و التكرير ورد العجز على الصدر... ما هي إلا أنواع نعدّها تبعاً للترداد ؛ حينما يتمظهر البيان في نص مكتوب أوصوت مسموع. ولعلّ مقاييس ثلاثة كانت تحكم قراءة النص حينذاك هي التي تولدت عنها تلك التفريعات الاصطلاحية؛ مقياس المبنى دون المعنى، و مقياس المعنى دون المبنى، ثم مقياس المبنى والمعنى معا.

كما أن انمياز البيان العربي بثروته اللغوية الفذّة و غزارة أبنيته اللغوية و غنى صوتياته كالاشتقاق مثلا، كان لها كبير الأثر في حرية وضع المصطلح.

و لعلّ من أسباب ذلك أيضا؛ تنافس علماء العربية و دارسيها في صناعة المصطلح إظهارا للحقيقة و تحرّيا للدقّة وتحاشيا للّبس.

و لا يغيبنّ عن لبّ القارئ أن إعجاز البيان القرآني هو الذي ازدادت به قرائح الفطاحلة البلغاء تفتّقا و تدفّقا، فبه ازدانت العربية جمالا و بيانا، و منه استمدّت قوتها فامتدّت طويلا و دامت أسمى لغة وأفصح لسان.

و المتأمل في تعريفات المحدثين يلفيها استقت مادّتها من دراسات الغرب و نظرياتهم النقدية الحديثة كاهتمامهم بالدرس الألسني و علم النص و الخطاب، و التناص...، مما أضفى على هذا المصطلح رؤى و قراءات جديدة أسهمت في تعميق تلك الطروح القديمة، و هذا ما أفرد هذه الظاهرة البيانية بالتميّز والاستقلالية؛ بدليل أن ما أنجزته الدراسات الحديثة من تأصيلات وتنظيرات في الظاهرة اللغوية، قد دعّم ما ذهب إليه الأقدمون في أن الترداد هو مزية لغوية، بها ينتظم الخطاب و تتماسك أجزاؤه وتتأكد معانيه، وليس عيبا أو عيا، كما وسمه بعض الدارسين خطأ.

إن هؤلاء الدارسين لم يجنحوا إلى خلاف ما أثله الأوائل، فكلاهما يتفق على أن للترداد وظائف عديدة و فوائد جمة أعظمها استحضار المتلقي و إشراكه كفاعل ثان في هذه الظاهرة البيانية.

إن ما يلفت انتباهنا بعد قراءتنا لهذه التعريفات، هو اقتصارها -في الغالب- على تعريف الترداد ضمن تمظهرين اثنين للبيان العربي، هما النص المكتوب و البيان الصوتي، و على نمطين بيانيين هما القرآن الكريم و الشعر، و لعلّ السبب في ذلك هو أن منشأ الترداد يعود إلى كونه ظاهرة بيانية تجلّت أول ما تجلّت في الفضاء الصوتي، أي إن أولى بدايات تشكلها قد برزت في تركيبات صوتية لفظية تمثلت في قول الشعر و نظمه؛ ثم في تلاوة القرآن و تلقينه.

و رغم أن البيان العربي قد وُسم بلغة الإيجاز إلا أن غايات عدّة كانت تحوج الشاعر إلى تبليغ رسالته اضطرّته إلى اعتماد الترداد كوسيلة لا غنى عنها، و لأجل ذلك لجأ الدارسون قديمهم و حديثهم إلى تأسيس و تحليل هذه الظاهرة في ضوء المناهج البلاغية التي كان سائدة وقتئذ، و التي دأب عليها بعض المتأخرين في رؤاهم و قراءاتهم الجديدة؛ و ينبغي الإشارة هنا بعد تمحيصنا لجلّ المصطلحات التي وردت في التعريفات السابقة لهذه الظاهرة البيانية إلى أن الترداد بوجهه الاصطلاحي الذي نحن بصدد تأسيسه ومحاولة تحديد معالمه الآن، كان مقصورا على مصطلح التكرار الذي درج على ألسنة الدارسين القدامى، وإن ما انضوت تحته من

مصطلحات فرعية شتّى كالترديد و التصدير و التعطف و التكرير ورد العجز على الصدر... ما هي إلا أنواع نعدّها تبعاً للترداد ؛ حينما يتمظهر البيان في نص مكتوب أوصوت مسموع. ولعلّ مقاييس ثلاثة كانت تحكم قراءة النص حينذاك هي التي تولدت عنها تلك التفريعات الاصطلاحية؛ مقياس المبنى دون المعنى، و مقياس المعنى دون المبنى، ثم مقياس المبنى والمعنى معا.

كما أن امتياز البيان العربي بثروته اللغوية الفذّة و غزارة أبنيته اللغوية و غنى صوتياته كالاشتقاق مثلا، كان لها كبير الأثر في حرية وضع المصطلح.

و لعلّ من أسباب ذلك أيضا؛ تنافس علماء العربية و دارسيها في صناعة المصطلح إظهارا للحقيقة و تحرّيا للدقّة وتحاشيا للّبس.

و لا يغيبنّ عن لبّ القارئ أن إعجاز البيان القرآني هو الذي ازدادت به قرائح الفطاحلة البلغاء تفتّقا و تدفّقا، فبه ازدانت العربية جمالا و بيانا، و منه استمدّت قوتها فامتدّت طويلا و دامت أسمى لغة وأفصح لسان.

و المتأمل في تعريفات المحدثين يلفيها استقت مادّتها من دراسات الغرب و نظرياتهم النقدية الحديثة كاهتمامهم بالدرس الألسني و علم النص و الخطاب، و التناص...، مما أضفى على هذا المصطلح رؤى و قراءات جديدة أسهمت في تعميق تلك الطروح القديمة، و هذا ما أفرد هذه الظاهرة البيانية بالتميّز والاستقلالية؛ بدليل أن ما أنجزته الدراسات الحديثة من تأصيلات وتنظيرات في الظاهرة اللغوية، قد دعّم ما ذهب إليه الأقدمون في أن الترداد هو مزية لغوية، بها ينتظم الخطاب و تتماسك أجزاؤه وتتأكد معانيه، وليس عيبا أو عيا، كما وسمه بعض الدارسين خطأ.

إن هؤلاء الدارسين لم يجنحوا إلى خلاف ما أثله الأوائل، فكلاهما يتفق على أن للترداد وظائف عديدة و فوائد جمة أعظمها استحضار المتلقي و إشراكه كفاعل ثان في هذه الظاهرة البيانية.

التعريف الاصطلاحي المعتمد: لئن كانت تلك هي جهود من سبقني من دارسين و منظرين واصطلاحيين، فإنه لا بدّ لي من محاولة إرساء مفهوم جديد أراه شاملا و جامعا لما تفرّق و تشتّت، على أنني لا أزعم الكمال أو الإتيان بما لم يأت به الأولون، ثم إن عدم الإجماع على وضع مصطلح واحد، وضبط تعريف محدد و دقيق، انجرّ عنه – و ما انفك كذلك- تذبذب أقوال البحثة الجدد و تضاربها، بل وتعدّى هذا إلى ضياع المتلقي و عدم ثبوته و قراره على إجماع موحد و مفهوم واضح و جليّ.

و على أساس ذلك، فالمصطلح الجامع الذي ارتأينا اقتراحه هو: الترداد؛ حيث إن جميع ما يتكلم به المرء على أربعة أقسام؛ ما فيه إعادة للمعنى و المبنى معاً و هذا هو الترداد الجلي، و ما فيه إعادةٌ للمبنى دون المعنى و هو الترداد الخفي، و ما فيه إعادة للمعنى دون المبنى و هذا هو الترداد البيْنيْ، و ما ليس فيه إعادة من هذا القبيل، فهذا هو الكلام العادي، أي الكلام الخلو من أي إعادة مهما كانت؛ سواء في المعنى دون المبنى أو في المبنى دون المعنى أو فيهما معا، و هذا نادر الحدوث؛ لأنه لا يكاد يخلو كلامُ أحدٍ من ورود إحدى تلك الثلاثة متفرقة أو مجتمعة.

و عليه فالترداد هو إعادة مكوّن بياني أكثر من مرّة، و المقصود بالمكون البياني كل وحدة بيانية تدخل في تشكيل البيان العربي، و هي كما يلي:

الوحدة البيانية الأساس؛ و هي أصغر وحدة بيانية مشكّلة للبيان، و تكون حرفا في الشكل المكتوب أو فونيما في البيان الصوتي أو وحدةً في الصورة.

الوحدة البيانية البسيطة؛ و هي تجاور وحدات بيانية أساس تتراوح بين وحدتين على الأقل إلى عشر وحدات على الأكثر، و هي الكلمة في الشكل المكتوب أو المونيم في البيان الصوتي أو الثنائية في بيان الصورة.

الوحدة البيانية المركبة؛ و هي سلسلة وحدات بيانية بسيطة تؤدي معنىً مفيدا كالجملة و العبارة في الشكل المكتوب، أو العبارة في البيان الصوتي، أو الكلية في بيان الصورة .

الوحدة البيانية العامة؛ و هي المجموعة المؤلفة من جميع الوحدات البيانية المركبة؛ و تكون نصا أو خطابا في الشكل المكتوب أو حزمة في البيان الصوتي أو صورة في البيان الصوري ، أما بيان الصمت، فليست هناك وحدات بيانية خاصة به، بسبب اختلاف و تعدد تجلياته و تمظهراته؛ فقد يتجلّى الصمت في شكل مكتوب؛ كبداية الفقرة مثلا، و الفراغات الفاصلة بين الكلمات والجمل في النص؛ و به تكون وحدات الصمت البيانية هي نفسها وحدات النص المكتوب، أو المصوت أو المصور، لكن بشكل خفي غير ظاهر ولا مسموع.

فقد يتجلى في البيان الصوتي مثلا؛ كالوقف في تلاوة القرآن الكريم ، و السكتة و الوقف في نظم الشعر ، والسكوت بين جملة و أخرى في النثر؛ و قريب من هذا ما يندرج على الألسنة كقولنا: قراءة صامتة، صوت أخرس، و لهذا تكون وحدات بيان الصمت هي عينها وحدات البيان الصمتي.

و قد يتجلى في بيان الصورة أيضا؛ فكل رسم يتخلل الصورة هو بيان صامت، و إن كان رسما ناطقا من حيث دلالته، فكثيرا ما يقال: لوحة فنية ناطقة، طبيعة صامتة، صورة غامضة... و بذلك تضحى وحدات بيان الصورة هي ذاتها وحدات بيان الصمت.

و جملة القول أن تجلّي الصمت في أي بيان عربي من البيانات الثلاثة السابقة (الشكل المكتوب، الصوت، الصورة) ، إنما تحكمه وحدات ذلك البيان ذاتها.

أوجهه : للترداد ثلاثة أوجه تختلف باختلاف تمظهرات البيان العربي و تعدّد أنمطه، و هي كما أسلفنا:

أ- الترداد الجلي: إعادة المبنى و المعنى معا.

ب- الترداد البيني: إعادة المعنى دون المبنى.

ج- الترداد الخفي: إعادة المبنى دون المعنى.

و قد يرد كل واحد من هذه الأوجه الثلاثة مستقلا بذاته، و قد يرد اثنان منها مجتمعين أو أكثر .

أنواعه: للترداد أنواع عديدة و متناوعة لا يسهل حصرها؛ و لهذا نقتصر على جملة منها لنحددها ضمن الجدول التالي:

أوجهه / أنواعه	ترداد خفي إعادة المبنى دون المعنى	ترداد بيْني إعادة المعنى دون المبنى	ترداد جلي إعادة المبنى و المعنى معا
التكرير	×		
التأكيد		×	×
التكرار	×	×	×
الإطناب	×	×	×

المجاورة	×		
الترديد	×		
التعطف	×		
التصدير	×		
الترادف		×	
التوازي	×		
المشاكلة	×		
المزاوجة	×		
المقابلة	×	×	×
التوارد			×
التأويل		×	
التشبيه		×	
الاستعارة		×	
الكناية		×	
المجاز		×	
التفصيل		×	
التفسير		×	
التوسع		×	
الازدواج	×		
الإرداف		×	
السجع	×		
الطباق		×	
التمثيل		×	
التشابه		×	
تشابه الأطراف		×	×
الاقتباس		×	×
الترجمة		×	
الإلحاح		×	×
الاتساع		×	

الجناس التام	×		
جناس التحريف		×	
جناس التصحيف المسلسل			×
جناس التركيب	×		
جناس الإشارة		×	
جناس الخط			×
جناس التغاير	×		
جناس رد العجز على الصدر			×
جناس الطرد و العكس			×
جناس عكس الجمل			×
المماثلة		×	
المطابقة		×	
التورية	×		
التكافؤ			×
المبالغة		×	
الاستبدال		×	
الإفراط		×	
الإغراق		×	
التصريع	×		
التطويل		×	
التصريف		×	
التصرف		×	
الاستشهاد		×	
ضرب المثل		×	
التصحيف	×		
التشعيب			×
التصريح بعد الإبهام		×	
البدل		×	
التنسيق		×	

الاعتراض		×	
تكرار الرؤيا	×	×	×
الاستطراد		×	
التعديد		×	
التناص	×	×	

خاتمة :

يمكن لمتأمل ظاهرة التكرار وأضرب الترداد فيما سبق بيانه ــ ههنا أو في دراسات أخرى ــ أن يتبين عبقرية البيان العربي في جمعه بين المجاز و الترداد ، عليه :

1ــ يجب أن تشرع الدراسات المعاصرة في بيان الترداد و جديده في صناعة البيان العربي .

2ــ غريب التركيب العربي وأسلوبه أن يجتمع في النسق الواحد شاهد الإيجاز وشاهد الترداد ؛ وهذا من آيات التفرد في العربية وضادها .

3ــ فخامة الظاهرة الصوتية في العربية وأضرب بيانها بينة الوجود تستولي على القلوب.

4ــ تقع تحت الترداد الكلي بكل كيفياته مجموعة لا حصر لها من المصطلحات الصوتية والبيانية والبديعية في صناعة التشكل اللغوي وجمالياته ؛ وما التكرار إلا واحد من تلك المصطلحات.

5ــ الترداد الجلي والترداد البيني والترداد الخفي ، كلها منتشرة في أنواع البيان العربي من إعجاز قرآني وخطاب نبوي وشعر ونثر فني ...

المصادر والمراجع

ابراهيم محمد إسماعيل ، معجم الألفاظ و الأعلام القرآنية

إميل يعقوب و آخرون ، قاموس المصطلحات اللغوية و الأدبية ،عربي إنجليزي فرنسي، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط:1، 1987 م

إنعام فوال عكاوي، المعجم المفصل في علوم البلاغة

تأليف مشترك ،المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، مكتب تنسيق التعريب، المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات (إنجليزي، فرنسي، عربي)، تونس، 1989

أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، البيان و التبيين ، تحقيق: عبد لسلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ج:1

جبور عبد النور، معجم عبد النور الحديث، عربي، فرنسي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط:11، 2001

أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب (كتاب سيبويه)، تحقيق و شرح: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط:3/ 1403 هـ،1983 م ،ج:4

عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت، لبنان، ج:2

عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة و أنواعها، شرح و ضبط و تصحيح: محمد أحمد جاد المولى بك ، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 1408 هـ، 1987 م ، ج:2

عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن ، ضبط و تصحيح : أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:1 /1408 هـ ،1988 م ، مج:1

محيي الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، القاموس المحيط

أبو الفضل جمال الدين بن منظور، لسان العرب، دار بيروت للطباعة و النشر

تصميم برنامج التدريب الصوتي في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها

الأستاذة: فتيحة بوتمر
كلية الآداب و اللّغات
جامعة أكلي محند أولحاج -البويرة

يهدف التدريب الصوتي إلى اكتساب القدرة على إخراج الأصوات من مخارجها الصحيحة وبالصفات المحددة التي يتميز بها النظام الصوتي للغة العربية.

ومما لا شك فيه أن هذا التدريب يساهم بشكل كبير في عملية التعلم وهو جزء أساسي من الكتاب التعليمي ونظرا لأهميته العظمى في مجال تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها وخاصة تعليم الأصوات حاولنا أن نضع بعض النماذج للتدريب الصوتي في اللغة العربية والتي يحتاجها المتعلم في المرحلة الابتدائية أي مرحلة التمييز والتعرف على الأصوات الجديدة وأيضا مرحلة الأداء والإنتاج حتى يتمكن المتعلم من امتلاك ناصية اللغة.

يركز التدريب الصوتي على التقابل بين اللغة العربية ولغة المتعلم وعلى الصعوبات النطقية التي تواجهه.

لكل لغة بنيتها وقواعدها التركيبية الخاصة، والهدف من الدراسة الصوتية للنظام الصوتي للغة العربية والأنظمة الصوتية للغات الأوربية هو إبراز الخصائص المشتركة وغير المشتركة على مستوى الصوامت والصوائت وأنصاف الصوامت ومدى تأثيرها على تعلم اللغة العربية بالنسبة للأوروبيين والصعوبات الناجمة عن هذا التأثير.

إن صعوبة تعلم اللغة العربية بالنسبة للمتعلم الأوربي (الفرنسي بصفة خاصة) لا تتوقف عند عملية النطق بصوت لغوي معين و إنما يتعلق الأمر بكيفية استعمال نظام صوتي مختلف عن النظام الصوتي للغته الأولى.

وإن إتقان نطق اللغة المتعلمة يفرض تحليل النظام الصوتي السائد في محيطه والنظام الصوتي للغة المتعلمة إلى جانب المعرفة الجيدة لبنيتها الوظيفية والاستعانة بما تقدمه الصوتيات التقابلية من التوضيحات يساهم في تحديد الأسباب التي تؤدي بالمتعلم إلى ارتكاب الأخطاء النطقية وما ينجم عنها من غموض في العملية التبليغية وبهذا يساهم في تسهيل العملية التعليمية التعلمية واقتراح الطرق والتمارين والوسائل المناسبة لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

يقول الباحثون:«أن الجانب الصوتي في اللغة من أهم ما ينبغي أن نعالجه في سياق حديثنا عن تعليم اللغة وتعلمها لشدة اتصاله بمهارتي الاستماع والكلام، ولأن الجانب الصوتي لا يمكن اعتباره مهارة لغوية لأنه جانب مشترك بين الكلام والاستماع باعتباره المدخل الطبيعي لتعلم اللغة الشفهية التي تقوم أساسا على تعلم الجانب الصوتي من اللغة».[1] وعلى هذا الأساس يجب التركيز في البداية على تعليم الأصوات ثم بعدها تعليم الاستماع، والجانب الأول يقتضي **التدريب الصوتي**. وتحقيقا لهذا الغرض قمنا بهذه

[1]- محمود كامل الناقة، رشدي أحمد طعيمة، طرائق تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة أسيسكو، 2003، ص 95.

الدراسة التي تركز على الدراسة التقابلية بين النظامين الصوتيين للغة العربية واللغة الفرنسية باعتبار اللغة الفرنسية لغة أولى للمتعلم والعربية لغة ثانية وفق الخطوات التالية:

1 - دراسة تقابلية بين النظام الصوتي للغة العربية ولغة المتعلم (الفرنسية).

2 - معرفة أهم الصعوبات التي يواجهها متعلم اللغة العربية من الفرنسيين.

3 - رصد أهم الأخطاء الصوتية التي يقع فيها وتحديد أسبابها وكيفية علاجها.

4 - اقتراح تمارين للتدريب الصوتي.

I. دراسة تقابلية بين النظام الصوتي للغة العربية و النظام الصوتي للغة الفرنسية:

يعتمد تصنيف الأصوات اللغوية من الناحية الفسيولوجية أو النطقية على المعرفة الدقيقة بأعضاء النطق وعلى الفهم العلمي لعملية الكلام.

1 -**الدراسة الفيزيولوجية للأعضاء الصوتية**: يتطلب نطق اللغة أكثر من نصف الجسد الإنساني من الرأس حتى البطن، فهناك مجموعات من الأعضاء الجسدية تتعاون من أجل هذا الغرض، تقع مجموعة منها في الجذع ومجموعة في الحلق وثالثة في الرأس وهي: الرئتين، والحجاب الحاجز، والقفص الصدري والقصبة الهوائية والحنجرة بما فيها الوترين الصوتيين والحلق واللهاة، والتجويف الأنفي والتجويف الفمي و الحنك الأعلى، ولسان المزمار، واللثة والأسنان واللسان والشفتين.

وباشتراك هذه الأعضاء يصدر الصوت اللغوي فلكل عضو وتجويف من تجاويف الجهاز الصوتي دورا معينا في عملية النطق.[1]

✓ **القصبة الهوائية**: فراغ رنان مؤلف من حلقات غضروفية يقف بعضها فوق بعض بشكل عمودي وفيها يتخذ النفس مجراه قبل إندفاعه إلى الحنجرة.

✓ **الحنجرة**: هي تجويف عضروفي يقع في نهاية القصبة الهوائية يتكون من عضاريف الأول أو العلوي منها ناقص الاستدارة من خلف و عريض بارز من الأمام ليكوّن تفاحة آدم.

✓ **الوتران الصوتيان**: هما رباطان مرنان يشبهان الشفتين يمتدان أفقيا بالحنجرة من الأمام إلى الخلف يلتقيان عند تفاحة آدم. فهما متصلان من الأمام لكن مع إمكان تحريكهما بحيث يكون من المستطاع اتصال بعضهما ببعض، أو تباعدهما كلية ليتخذا شكلا يشبه صورة الحرف (V) مفتوحا من القصبة إلى الحلق أو البلعوم، وتسمى الفتحة الواقعة بين الوترين الصوتيين باسم المزمار، ويمكن أن يؤدي الحدث الذي يقوم به الوتران الصوتيان إلى عدد متنوع من الأشكال التي يأخذها المزمار. ولهذه الأشكال أو حالات المزمار أهمية كبرى في أية لحظة من لحظات الكلام.[2]

للمزمار غطاء يسمى لسان المزمار وظيفته الأصلية أنه بمثابة صمام يحمي طريق التنفس أثناء عملية البلع.

✓ **الحلق**: هو تجويف واقع بين الحنجرة وأقصى الحنك، ويقوم بتضخيم الأصوات عند صدورها، ويعتبر مخرجا لبعض الأصوات.

---

(1)- أنظر :- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1987. ص 16.
- عبد الرحمان أيوب، أصوات اللغة، مكتبة الشباب، القاهرة، ص 45.
- روعة محمد ناجي، علم الأصوات و أصوات اللغة العربية، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ط1، 2012، ص 34.

(2)- كمال بشر، علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص 137.

✓ **اللسان:** عضو هام في عملية النطق لمرونته وكثرة حركته داخل الفم، وقد قسمه علماء أغلب الأصوات إلى ثلاثة أقسام.

– طرف اللسان (ذلق اللسان) وهو الجزء الذي يقابل اللثة.

– وسط اللسان: وهو الجزء الذي يقابل وسط الحنك.

– أقصى اللسان: (مؤخرة اللسان) وهو الجزء الذي يقابل أقصى الحنك.

وهناك من العلماء من قسمه إلى خمسة أقسام بإضافة جذر اللسان أو أصله وذولق اللسان أو حده وهو رأسه الأمامي.(1)

✓ **الحنك:** وهو سقف الفم و ينقسم إلى أقسام هي:

✓ **الغار:** أو وسط الحنك أو الحنك الصلب و هو الجزء الذي يلي مقدم الحنك حيث ينتهي التحدب و يبدأ التقعر وهو ثابت لا يتحرك.

✓ **الطبق:** وهو الجزء الذي يلي الحنك الصلب إلى الداخل، (أقصى الحنك أو الحنك اللين) وهذا الجزء قابل للحركة يرتفع وينخفض فإذا رفع إلى النهاية فإنه يلتقي بالجدار الخلفي للتجويف الحلقي، ويمنع مرور الهواء، ونجد كثيرا من الأصوات العربية تتكون عندما يكون الحنك الليّن في هذا الوضع مثل صوت: السين، الصاد، التاء، الثاء.

✓ **اللهاة:** وهي تمثل نهاية الحنك وهي التي تشكل نطق صوت (القاف).

✓ **اللثة:** ومقدم الحنك وهو الجزء الواقع خلف أصول الأسنان العليا وهو محدب ومحزز الشكل.

✓ **الأسنان:** وهي أعضاء النطق الثابتة و تنقسم أيضا إلى الأسنان العليا والأسنان السفلى، ونجد الأسنان تشترك مع اللسان في نطق بعض الأصوات مثل: التاء، الذال، الظاء.

✓ **الشفتان:** وهما من أعضاء النطق المتحركة وتتكونان من الشفة العليا والشفة السفلى ونجدهما يتخذان أوضاعا مختلفة في نطق بعض الأصوات الصائتة أو المتحركة.

✓ **التجويف الأنفي:** وهو العضو الذي يندفع خلاله النفس مع بعض الأصوات كالميم والنون هذا إلى أنه يستغل كفراغ رنان يضخم بعض الأصوات حين النطق بها.

✓ **التجويف الفمي:** يساهم في إصدار الأصوات الصائتة (الفتحة، الضمة، الكسرة، الألف، الواو، الياء).

2 -تصنيف الأصوات العربية:

- **الصوامت العربية هي:** همزة القطع [ء](*)،[ب]،[ت]،[ث]،[ج]،[ح]،[خ]،[د]،[ذ]،[ر]،[ز]،[س]،[ش]، [ص]،[ض]،[ط]،[ظ]،[ع]،[غ]،[ف]،[ق]،[ك]،[ل]،[م]،[ن]،[ه]،[و] في مثل كلمة ولد [ي] في مثل يعد. يصنف الصوت اللغوي على أساس اعتبارين اعتبار عضوي (فسيولوجي) يتمثل في مكان أو مخرج الصوت،(**) واعتبار صوتي يتمثل في طبيعة الصوت أو الصفة التي يظهر بها في طريقة النطق وتقسيم أو تضيف أصوات اللغة العربية طبقا لموضع النطق كمايلي:(1)

---

(1)- روعة محمد ناجي، علم الأصوات و أصوات اللغة العربية، ص 39.

(*)- [ ] هذا الرمز من الرموز العلمية في علم الأصوات للدلالة على الصوت اللغوي المجرد بعيدا عن البنية.

(**)- استخدمت اللغة العربية 10 عشرة مخارج أو مواضع من جهاز النطق و هي كمايلي: الحنجرة (حنجريا)، الحلق (حلقيا)، اللهاة (لهويا)، أقصى الحنك (الطبق) طبقيا، وسط الحنك (الغار) غاريا، اللثة (لثويا)، الأسنان (أسنانيا)، الأسنان مع اللثة (أسنانيا لثويا)، الشفة (شفويا)، الشفة مع الأسنان (شفويا أسنانيا).

- [ء] + [هـ] حنجرية
- [ع] + [ح] حلقية
- [ق] لهوية
- [ك] + [غ] + [خ] طبقية
- [ش]+[ج]+[ي] كما في يجد غارية
- [ل]+[ر]+[ن] لثوية
- [د]+[ض]+[ت]+[ط]+[ز]+[س]+[ص] أسنانية لثوية
- [ذ]+[ظ]+[ث] أسنانية (بين أسنانية)
- [ف] شفوية أسنانية
- [ب]+[م]+[و] شفوية في مثل كلمة وعد

- **مميزات الصوامت العربية**: تتميز الصوامت في اللغة العربية بمميزات حددها العلماء كمايلي:[2]

[ء] صامت حنجري إنفجاري مجهور

[ب] صامت شفوي إنفجاري مجهور

[ت] صامت أسناني لثوي مهموس مرقف انفجاري

[ث] صامت أسناني احتكاكي مهموس مرقف

[ج] صامت غاري (انفجاري عند القدماء) (احتكاكي انفجاري (بيني) عند المحدثين) مجهور

[ح] صامت حلقي احتكاكي مهموس

[خ] صامت طبقي احتكاكي مهموس

[د] صامت أسناني لثوي إنفجاري مجهور

[ذ] صامت أسناني احتكاكي مجهور

[ر] صامت لثوي مكرر مجهور

[ز] صامت لثوي أسناني احتكاكي (صفيري) مجهور

[س] صامت لثوي أسناني احتكاكي (صفيري) مهموس

[ش] صامت غاري احتكاكي مهموس

[ص] صامت لثوي أسناني احتكاكي (صفيري) مهموس مطبق

[ض] صامت لثوي أسناني انفجاري مجهور مطبق

---

(1)- أنظر:- مناف مهدي محمد، علم الأصوات اللغوية، عالم الكتب للطباعة و النشر و التوزيع، لبنان، ط1، 1998، ص 42.

- حلمي خليل، مقدمة لدراسة علم اللغة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2003، ص 59.

- عصام نور الدين، علم الأصوات اللغوية، الفونتيكا، دار المكر اللبناني، ط1، 1996، ص 206.

(2)- حسام البهنساوي، علم الأصوات، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2004، ص 62.

[ط] صامت أسناني لثوي انفجاري مهموس مطبق

[ظ] صامت أسناني مجهور مطبق

[ع] صامت حلقي احتكاكي مجهور

[غ] صامت طبقي احتكاكي مجهور

[ف] صامت شفوي أسناني احتكاكي مهموس

[ق] صامت لهوي انفجاري مهموس

[ك] صامت طبقي انفجاري مهموس

[ل] صامت لثوي جانبي (انحرافي)

[م] صامت شفوي مجهور أغن

[ن] صامت لثوي مجهور أغن

[ه] صامت حنجري احتكاكي مهموس

[و] (وَجد) نصف صامت (شبه صائت) شفوي مجهور

[ي] (يعد) نصف صامت (شبه صائت) غاري مجهور[1]

- **المصوتات في النظام الصوتي العربي الفصيح (الصوائت العربية)**: الصوائت بهذا المفهوم فيما سماه النحاة واللغويون بحروف المد مثل الألف في كان والواو في يكون والياء في حرف الجر (في) أو الحركات القصيرة في مقابل الحركات الطويلة السابقة وهي الفتحة (a) والضمة (u) والكسرة (I) والصفة الأساسية المميزة لنطق الصوائت تقوم على شكل الممر الهوائي المفتوح فيما فوق الحنجرة وهذا الممر يكون صندوقا رنانا يغير من الطبيعة السمعية للصوت الناتج عن ذبذبة الوترين الصوتيين، فالأشكال المختلفة التي يتخذها هذا الممر تغير من وقع الصوت في الأذن ومن ثم تسمع أصواتا متمايزة.[2] واللسان والشفتان هما العضوان الأساسيان اللذان لهما دخل كبير في تغيير شكل الممر الهوائي.

وعليه تصنف الصوائت بالنظر إلى الجزء الذي يرفع من اللسان كمايلي:

- صوائت أمامية ← عند ارتفاع طرف اللسان.
- صوائت وسطى ← عند ارتفاع وسطه.
- صوائت خلفية ← عند ارتفاع مؤخرته.

كما تصنّف حسب درجة انفتاح الفم إلى:

- منغلقة (ضيقة) لأن ممر الهواء يكون منغلقا.
- منفتحة لأن ممر الهواء يكون منفتحا.
- نصف منغلقة (نصف ضيقة).
- نصف منفتحة (نصف مفتوحة).

---

(1)- انظر: سمير شريف أستيته، الأصوات اللغوية رؤية عضوية و نطقية و فيزيائية، دار وائل للنشر، عما، الأردن، ط1، 2003، ص 143.

(2)- حلمي خليل، مقدمة لدراسة علم اللغة، ص 63.

ففي اللغة العربية توجد ستة صوائت هي:

الصائت	رمزه الكتابي		مميزاته
الفتحة	a	كَتب	صائت وسطي قصير مفتوح
الضمة	u	كُتب	صائت خلفي قصير مستدير
الكسرة	i	كِتاب	صائت أمامي قصير ضيق
الألف	$\bar{a}$	(قال)	صائت وسطي طويل مفتوح
الواو	$\bar{u}$	(يقول)	صائت خلفي طويل مستدير
الياء	$\bar{\imath}$	(قِيل)	صائت طويل أمامي ضيق

أ -**النطق بالفتحة**: أثناء النطق بالفتحة يكون:[1] الجزء الأمامي من اللسان يكون أبعد ما يمكن من الحنك الصلب.

- الفم مفتوح بشكل واسع.
- الشفتان منفرجتان دون تدوير.
- أعلى نقطة في اللسان تكون وسطه.

ب -**النطق بالضمة**: أثناء النطق بالضمة يكون وضع الجهاز النطقي كمايلي:[2]

- الشفتان مقدمتان نحو الأمام بشكل مدور مفتوح قليلا.
- فتحة الفم ضيقة.
- الجزء الخلفي من اللسان يكون أقرب ما يمكن من الحنك الليّن.

ج -**النطق بالكسرة**: فيما يخص نطق الكسرة فإن وضع الجهاز النطقي (الشفتان واللسان) يتميز بمايلي:[3]

- الشفتان مشدودتان (كسر الشفتين).
- فتحة الفم صغيرة (حجرة الرنين الضمية تكون في أصغر حجم لها في نطق الصوائت).
- الجزء الأمامي من اللسان أقرب ما يمكن من الجزء الأمامي من الحنك الصلب (مقدمة الحنك).

د -**نطق الألف**: الألف هي فتحة ممدودة فوضع الجهاز النطق يكون، نفسه مع نطق الفتحة والفرق بينهما في الكمية أي الفترة الزمنية أي إطالة الفتحة يشكل الألف.

هـ - **نطق الواو**: هو كالنطق بالضمة والفرق في الفترة الزمنية حيث تمطل الضمة زمنيا فينشأ عنها الواو.

و -**نطق الياء**: نطق الكسرة و الياء يتمان بنفس الكيفية والفرق بينهما هو في المدة الزمنية فقط.[4]

نستنتج مما سبق أن الحركات الثلاث في اللغة العربية هي أبعاض حروف المدّ.

---

[1]- روعة محمد ناجي، علم الأصوات و أصوات اللغة العربية، ص 83.

[2]- المرجع نفسه، ص 84.

[3]- المرجع نفسه، ص 85.

[4]-المرجع نفسه، ص 87.

3 –دراسة النظام الصوتي الفرنسي: لم تستغل القناة الصوتية في اللغة الفرنسية من الناحية الفيزيولوجية استغلالا كاملا وهذا ما يفسر اختلاف عدد صوامتها عن اللغة العربية.

- **مخارج الصوامت في اللغة الفرنسية:** توجد في اللغة الفرنسية سبعة مخارج للصوامت تبدأ من اللهاة حتى الشفتين وهي:[1] المخرج الشفوي، الشفوي الأسناني، اللثوي الأسناني، اللثوي، الغاري، الطبقي، اللهوي.

تصنف هذه الصوامت على النحو التالي:[2]

الشفوية	p.b.m
الشفوية الأسنانية	f.v
اللثوية، الأسنانية	t.d.n
اللثوية	s.z.l
الشجرية (غارية)	ʒ ʃ ɲ j
الصفافية (طبقية)	k.g
اللهوية	ʁ

- **مخارج أنصاف المصوتات وهي:** y-w-j

(غارية) الشجرية y-j

(طبقية) الصفافية w

توصف y و w بالشفوية لاشتراك الشفتين في إحداثهما.

- **الصفات الذاتية للصوامت:**

صوامت شديدة (الحبسية).

– شديدة مجهورة: b-d-g-m-n-

– شديدة مهموسة: p-t-k

صوامت رخوة (تسريبية)

– الرخوة المجهورة: v-z-

– الرخوة المهموسة: f-s-ʃ

– الصامت المنحرف: ʃ

– الصامت المكرر: ʁ

– الصامت الأغن: ɲ -m-n-

[1]- Monique léon, pierre léon, la prononciation du Français, Armond colin, Paris, 2000, p 24.

[2]– باية بدوي، تسهيل إتقان النظام الصوتي في الفرنسية للتلاميذ الجزائريين المبتدئين، دراسة تقابلية بين أنظمة العربية الفصحى، العامية، الأمازيغية (القبائلية) والنظام الصوتي للغة الفرنسية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1996، ص 84.

➢ **مميزات أنصاف الصوائت:** تتميز أنصاف الصوائت بنوع من الرخاوة و هي تحتوي أيضا على صفات المصوتات لكنها أكثر انغلاقا.

جدول الصوامت الفرنسية

الرخوة (التسريبية)	اللهاة		[ʁ] r– rare	
	الشجرية (الغارية)	[ʃ] chou– ch	g–j [ʒ] gens– jeu	
	منحرف		l [l] long	
	الأسنانية	s c [s] sous centre	z [z] zone	
	الشفوية الأسنانية	f [f] fou	v [v] vous	
الشديدة (الحبسية)	صفاقية (طبقية)	k q c [k] Karate, que, café	g [g] gout	
	الشجرية(الغارية)			gn [ɲ] ligne
	الأسنانية	t [t] ton	d [d] Date	n [n] non
	الشفوية	p [p] pont	b [b] Bon	m [m] mon
		المهموسة الفموية	المجهورة الفموية	الغنة

– ملاحظة: s → يلفظ في بعض الأحيان s, sc, cc, ss, tion, c
K → يلفظ في بعض الأحيان k, c,q

➢ **المصوتات في النظام الصوتي الفرنسي**: "يتراوح عدد المصوتات في النظام الصوتي الفرنسي بين خمسة عشر وستة عشر مصوتا، وهذا الاختلاف ناتج عن اعتبار المصوت [∂] مصوتا يساعد على التلفظ عند اجتماع الصوامت في سياق صوتي معين. وتقسم المصوتات الفرنسية إلى قسمين: القسم الأول خاص بالمصوتات الفموية وعددها 12 عشر وهي:[1]

tirer
[u] coup [y] lu [i] i

aller
[o] sot- seau – sout [∂] fenêtre [Ø] feu [e] e

[ɔ] porte- mort [oe] fleur [ε] ai- e
faire- père

[a] pâte- tas [a] patte- papa

أما القسم الثاني فهو خاص بالمصوتات الخيشومية أو مصوتات الغنة و هي أربعة: [ɛ̃]،[ã]، [œ̃]، [õ]

- [õ] – bon, ton
- [œ̃]– brun, un
- [ã]– avant, rang
- [ɛ̃] rien, pain

جدول يوضح المصوتات في اللغة الفرنسية مع تقديم أمثلة:(2)

i	gris	si
e	pré	clef
ε	craie	mere
a	bal	malle
a	bas	âme
Ɔ	bol	doré
o	beau	gros
u	doux	mou
y	cru	plume
oe	seul	jeune
∂	me	monsieur
Ø	deux	oefs

[1]– أنظر : – باية بدوي، تسهيل إتقان النظام الصوتي في الفرنسية للتلاميذ الجزائريين المبتدئين، ص 87.
-E. EMERIT, cours de phonétique acoustique, SNED, Alger, 1977, p19.
[2]– باية بدوي، تسهيل إتقان النظام الصوتي في الفرنسية للتلاميذ الجزائريين المبتدئين، ص 90.

ã	banc	grand
ɛ̃	pain	soin
õ	pont	bon
õe	brun	parfum

من خلال الدراسة التقابلية بين النظامين الصوتيين اللغة العربية واللغة الفرنسية نستنتج بعض الصعوبات وأيضا الأخطاء النطقية التي يقع فيها المتعلم الفرنسي للغة العربية كمايلي:

- يلاحظ الخلط في نطق الثنائيات التالية:

ع-هـ ك-ق	د-ض د-ت ذ-ر ذ-ظ ر-غ (في اللغة الفرنسية هو نفسه غ) ز-س س-ص ض-ظ ع-غ	أ-ع أ-هـ ت-ط ث-ذ ث-س ح-خ ح-ع ح-هـ خ-غ

هذه الأخطاء النطقية ناتجة عن تقارب مخارج الأصوات مثلا: (ء) و (هـ) أيضا (س) و (ص) فالمتعلم المبتدئ عادة يتلفظ (الصاد) (سينا).

- هناك أخطاء صوتية ناتجة عن العادات الصوتية لجهازه النطقي التي تعود عليها في لغته الأولى.

نستعرض فيمايلي هذه الصعوبات:

Kalamun كلم ← قلم ← (k) ك تلفظ ق

(a) أ ← ع

(a) أ ← ح

(a) أ ← هـ

(k) ك ← خ

(r) غ ← ر

(d) د ← ض، ظ

و يجد المتعلم صعوبة كبيرة في حالة وجود صوتين مما سبق ذكرها في نفس الكلمة مثلا:

عقلٌ تلفظ akloun.

- صعوبة نطق الحركات (القصيرة) الفتحة، الضمة والكسرة وأيضا حروف المد (الألف والواو، والياء) وخاصة في حالات التفخيم والترقيق.

بعد الدراسة التقابلية للنظامين الصوتيين للغة العربية واللغة الفرنسية وتبيان الصعوبات النطقية والاستعانة بما قدمه المختصون في تعليم اللغات الأجنبية وتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، والمعلومات المقدمة في المجال الصوتي خلصنا إلى بعض التوجيهات في تعليم الأصوات وفي التدريب الصوتي.

I. توجيهات واقتراحات في تعليم الأصوات وفي التدريب الصوتي:

1 –**توجيهات فيما يخص البرنامج الصوتي**: قدم الباحثون بعض التوجيهات فيما يخص البرنامج الصوتي وهي كمايلي:[1]

- أن يكون المدخل للمادة التعليمية في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها مدخلا صوتيا يراعى فيه التدرج من السهل إلى الصعب في تقديم الأصوات.
- الأصوات الصعبة والمشكلات الصوتية المتصلة بها يمكن معالجتها من خلال معرفة العلاقة بين النظامين الصوتيين إذ ينبغي أن تختلف طريقة تدريس الأصوات العربية باختلاف العلاقة بينها وبين الأصوات في لغة الدارسين الأولى، ومن الممكن تمييز ثلاثة أشكال من العلاقة بين الأصوات في كل من اللغتين:

أ –هناك أصوات تشترك فيها اللغتان أي يتماثل نطقهما في كل من اللغتين.

ب –هناك أصوات متشابهة بين اللغتين، أي يتقارب نطقهما في كل من اللغتين.

ج –هناك أصوات عربية غير موجودة تماما في لغة الدارس ولكل نوع من هذه الأنواع مشكلاته في التدريس.

- التركيز على التقابل الصوتي والثنائيات الصغرى فيما يتصل بأصوات (س، ص،ث)، (س،ز)، (ق،ك)، (ض،د)، (هـ،ح،خ)، (ذ،ظ،ز)، (ش،ج)، (ح،ع).
- تقدم الأصوات في مواقع مختلفة من الكلمة (أولها، وسطها، نهايتها) حتى تبرز ظواهر الأدغام والمماثلة والمخالفة وهذا بعد الفراغ من تقديم الأصوات في صيغتها الصوتية الأصل (منعزلة عن التركيب).
- يعاد تقديم الأصوات من خلال النصوص المكتوبة وبشكل وظيفي بحيث يستمع الدارسون إلى هذه النصوص مسجلة أو مقروءة على أن تختار معظم كلمات النصوص من الكلمات السابق تقديمها في المدخل الصوتي.

2 –**توجيهات في تدريبات التمييز الصوتي**: تعتبر التدريبات جزءا مهما في تعليم الأصوات وتنمية مهارة الاستماع وقد خلص الباحثون إلى بعض التوجيهات فيما يخص تدريبات التمييز الصوتي وهي كمايلي:[2]

- ينبغي الاستعانة بالشرائط والتسجيلات والأفلام إذ تنوع التسجيلات الصوتية بتنوع أغراضها فمنها ما يعالج الأصوات ومنها ما يعالج التركيب اللغوي ومن ثم الاستماع مع الفهم ومنها ما يعالج الاستماع بسماع اللغة والترديد (الأناشيد) ومنها ما يهدف إلى التدريب على الحوار على أن تؤخذ مادة التسجيلات من مادة الكتاب التعليمي.

---

(1)– محمود كامل الناقة، فتحي علي يونس، المنهج التوجيهي لتعليم أبناء الجاليات الإسلامية التربية الإسلامية و اللغة العربية، (6–12 سنة)، منشورات المنظمة الإسلامية لتربية و العلوم و الثقافة أسيسكو، 1999، ص 21.

(2)– محمود كامل الناقة، رشدي أحمد طعيمة، طرائق تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها، ص 118.

- إن التدريب على النطق المناسب للأصوات والتدريب على سماعها أمر مهم جدا فالدارس ينبغي أن يسمع الصوت بوضوح قبل أن يبدأ نطقه، فالصورة الصوتية تسمع عقليا قبل أن تأخذ طريقها إلى الفهم، فإذا كانت هذه الصورة العقلية للصوت غير مضبوطة فسوف لا تكون عملية إخراج الصوت دقيقة.
- يحتاج الدارس لتكوين عادة الاستماع التلقائي إلى تطبيقات على تمييز الأصوات من خلال وضوح المخارج ودرجة الصوت والتنغيم.
- الاهتمام أكثر بالأصوات الصائتة لأسباب لخصها مناف مهدي محمد في النقاط التالية:[1]

✓ أصوات العلة أكثر شيوعا في اللغة، وأي انحراف في طريقة أدائها، يبعد المتكلم عن الطريقة المألوفة في نطقها عند أهل اللغة المتحدث بها، فمثلا في اللغة الإنجليزية إذا لم يتمكن المتحدث من نطق حركاتها الرئيسة نطقا سليما اتضح الانحراف في نطق ألفاظها، فتنفر منها الأذن الإنجليزية لغرابة ذلك النطق عما اعتادت سماعه، مما يسبب سوء الفهم بمعنى تلك الألفاظ وشبيه بذلك يحصل مع اللغة العربية، فعندما يتحدث بها شخص غير عربي يظهر الانحراف واضحا في نطقه، والسبب الرئيسي في ذلك الاختلاف هو عدم معرفتهم نطق أصوات العلة و تأثرهم بما اعتادوا عليه عند نطقهم لها في لغتهم.

✓ الخطأ في نطق أصوات العلة يكون أكثر وضوحا في السمع من الخطأ في الأصوات الصامتة لأن أصوات العلة أكثر وضوحا سمعيا من الأصوات الصامتة، فأي خلل في نطقها يظهر بصورة أوضح مما في الأصوات الأخرى.

✓ الحركات أصعب في النطق من الأصوات الصامتة.

- هناك بعض الصعوبات النطقية في اللغة العربية الناتجة عن الصعوبات الإملائية، تذكر باية بدوى أسباب هذه الصعوبات التي لها علاقة بالصوامت وأنصاف المصوتات والمصوتات هي:(2)

✓ تعدد صور الحروف و تنوعها فلكل حرف صورة خاصة في أول الكلمة ووسطها وآخرها أو منعزل (حرف الغين) (غ، ـغـ، ـغ، غ).

✓ تشابه كثير من الحروف في الرسم الخطي (ب،ت،ث،ن،ر،ز).

✓ تشابه وتقارب الأداء الصوتي بين مجموعة من الحروف (ت، ط، س، ص، ك ،ق).

✓ بعض الحروف تلفظ في كلمات ولا تلفظ في أخرى كالواو في سوق، عود فهي صائتة أما في الثوب، القوم، فهي صامتة أيضا الياء.

✓ الفتحة الطويلة والمشار إليها كتابة بالألف الممدودة أو المقصورة (عصا- عصى).

✓ لا ترسم الحركات عامة والحركات الإعرابية خاصة على الحروف في الكتابة العادية مما يجعل التلفظ بالكلمات أمرا صعبا، خاصة لمن يشكو صعوبات في القراءة.

✓ التنوين صوت ينطق ولا يرسم على الكلمة (بيْتٌ: ضمة و نون).

---

[1]- أنظر: مناف مهدي محمد، علم الأصوات اللغوية، عالم الكتب للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط1، 1998، ص 91.

[2]- باية بدوي، تسهيل إتقان النظام الصوتي في الفرنسية للتلاميذ الجزائريين المبتدئين، ص 160، عن خولة طالب الإبراهيمي، صعوبة تعلم اللغة عند الطفل، مجلة أرطفونيا، ص 179.

- ✓ الحروف التي تكتب و لا تلفظ (الألف بعد واو الجماعة ذهبوا "أل" الشمسية "الثلج".
- ✓ الحروف التي تلفظ ولا تكتب كما هو الحال في الادغام والتنوين وحذف اللام في "الذين".
- ✓ الوقف وفيه يسكن الحرف المتحرك، وبقلب تنوين الفتح ألفا، أو لفظ التاء المربوطة هاء.
- ✓ اتصال لام الجر بكلمات مبدوءة بأداة التعريف أل "الشمسية والقمرية" تحذف همزة الوصل مثل: لله.
- ✓ المدّة وهي همزة تليها ألف ممدوة "آ" وغالبا ما يغفل التلفظ بها لجهلها.
- ✓ إلتقاء أنواع من الحروف بأخرى وإلغاء أحدها أثناء النطق بها.

ط ت = تّ: فرّطت: فرّتَ

ت ط= ظّ: ابعث ظالما: ابعظالما

س ز= عزّز سهمك: عزّ سهمك

من خلال هذه الدراسة التقابلية بين النظامين للغة العربية واللغة الفرنسية حاولنا تقديم اقتراحات فيما يخص التدريب الصوتي.

3 -اقتراح تمارين للتدريب الصوتي:

لقد حدد الباحثون بعض الطرائق للتدريب الصوتي والتغلب على المشكلات الصوتية التي يعانيها المتعلمون للغة العربية أهمها مايلي:

- ❖ **طريقة التدريب السمعي**: يسمع المتعلم بعض الأصوات[1] مثل:

أطْ – أطْ – أَتْ – أَتْ

طَ طَ تَ تَ

طَ طَ طَ طَ تَ تَ تَ تَ

طَ تَ طَ تَ تَ طَ تَ طَ

ثم يطلب من المتعلم أن يقارن بين الصوتين.

- ❖ **طريقة وصف المخرج**: على المعلم التأكيد على مخرج الأصوات الجديدة بالنسبة للمتعلم[2] مثلا:

الصاد: صوت لثوي أسناني صفيري مطبق (مفخم).

السين: صوت لثوي أسناني صفيري مرقق.

الذال

الثاء } أصوات بين أسنانية (أسنانية) لابد من استخدام طرف اللسان فيها ومده بين الفكين

الظاء } بالقرب من الشفتين

(1)– أنظر: درويں بن زين الدين، الأخطاء الصوتية لبعض دارسي اللغة العربية من الاندونيسيين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، جهاز التعاون الدولي لتنمية الثقافة العربية الإسلامية،1994، تونس، ص 104.

(2)– أنظر:- عبد العزيز بن إبراهيم العصيلي، أساسيات تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى مطابع جامعة أم القرى، ط1، 1422هـ، ص 194.
-خير الله عصار، محاضرات و تطبيقات في علم النفس اللغوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 42.

(الذال، الثاء) مرققين

(الظاء) صوت مطبق أي يرتفع مؤخر اللسان إلى الطبق.

الذال مجهورين

الظاء

(الثاء) مهموس

(التاء) صوت شديدة مرقق مهموس.

(الطاء) صوت شديد مفخم مهموس

فمثلا: التاء في كلمة telephone تاب

طاب

التاء في كلمة tokyo

* ربط نطق الأصوات بحركات يؤديها الدارس:

- ارتباط صوت الحاء بتنظيف عدسات النظارة عند النفخ فيها.
- ارتباط صوت الخاء بالشخير.
- ارتباط صوت الغين بكلمة باريس (paris) كما ينطقها الفرنسيون.

* الاستعانة بالصور أو بصورة واحدة وتحريك أجزائها غد إخراج صوت معين.

❖ **طريقة الأزواج المتقاربة:**

استخدام الأزواج المتقاربة (تمارين إتقان الثنائيات (هاء، حاء)، (الهمزة والعين) (minimal pairs) (minimal pairs) من الكلمات التي تشترك في جميع الأصوات إلا صوتا واحدا هو الصوت الذي نريد للدارس أن يميّزه.

- ويتم التدريس على هذه الأصوات من خلال استماع الدارس إلى المعلم وهو ينطق كل زوج (ثنائية) ثم على المتعلم أن يذكر هل الكلمة التي يسمعها هي الأولى أم الثانية لتدريب أذنه على التقاط الصوت الصحيح.[1]
- تسجيل الكلمات في شرائط وإعادة سماعها عدة مرات من قبل المتعلم.
- الإشارة إلى الفرق الموجود بين الكلمتين في المعنى يدرك المتعلم خطورة الخطأ الصوتي.

وفيمايلي ندرج بعض الأمثلة للتدريب الصوتي:

الهمزة (ء)	العين
داء أرق	داع عرق
الهاء	**الحاء**
هرم	حرم (مكان مقدس)

[1]- خير الله عصار، محاضرات وتطبيقات في علم النفس اللغوي، ص 41، 43.

مهموس	محموس
هوى (سقط)	حوى
همّ (من اهتم أو من شرع)	حمّ (من الحمى أو صوت الحمام)
الهلال	الحلال
هجر (ترك)	حجر
همزة	حمزة (اسم)

الحاء	الخاء
حاتم (اسم)	خاتم
حرج (أثم)	خرج
حرق	خرق
حزّن (سبب له الحزن)	خزّن
حار (من الحيرة)	خار (من الخوار أو الاستخارة)
حال (اللون)	خال (أخو الأم أو من الخيلاء)
حسّ (من الحس)	خسّ (ضعفت بنيته)

الدال	الضاد
درب (طريق)	ضرب
دلّ (من الدليل أو الدلال)	ضلّ
وديع	وضيع
دار	ضار
التاء	**الطاء**
تابع	طابع (بريد)
ترف	طرف
تين	طين
تاب (من التوبة)	طاب (زكا)
تباشير (الصباح)	طباشير
بتل	بطل
السين	**الصاد**

سورة (من القرآن)	صورة
سار	صار
سفر	صفر (شهر عربي)
سد	صد (منع)

القاف	الكاف
قدر	كدر (سوء)
المقدّس	المكدّس (الممتلئ)
قسا	كسا
قفل	كفل
قافية	كافية
قلب	كلب
قال	كال

الزاي	الظاء
زفر (أطلق زفيرا)	ظفر (نجح)
زهر (بتسكين الهاء أي النرد)	ظهر

العين	الغين
العابر	الغابر
تعرّب (صار عربيا)	تغرَّبَ (صار غريبا أو غربيا)
عرض	غرض
عرق	غرق
عصب	غصب
علا	غلا

الغين	الخاء
غير	خير
غاض (قل ماءه)	خاض
غلا	خلا

غرق	خرق
تغلغل	تخلخل
غالي	خالي
غاب	خاب

الفتحة	ألف المد
هَبَطَ	هابط
فتح	فاتح
كشف	كاشف

الكسرة	ياء المد
جن	جين (من الجينات)
سن	سين

الضمة	واو المد
كن	كوني
صُم	صومي
صُن	صوني
ذُق	ذوقي

قائمة المراجع

أولا: باللغة العربية

1 - إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1987.
2 - باية بدوي، تسهيل إتقان النظام الصوتي في الفرنسية للتلاميذ الجزائريين المبتدئين، دراسة تقابلية بين أنظمة العربية الفصحى، العامية، الأمازيغية (القبائلية) والنظام الصوتي للغة الفرنسية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1996.
3 - حسام البهنساوي، علم الأصوات، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2004.
4 - حلمي خليل، مقدمة لدراسة علم اللغة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2003.
5 - خير الله عصار، محاضرات وتطبيقات في علم النفس اللغوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر .
6 - دروين بن زين الدين، الأخطاء الصوتية لبعض دارسي اللغة العربية من الاندونيسيين، تونس، 1994، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، جهاز التعاون الدولي لتنمية الثقافة العربية الإسلامية.
7 - روعة محمد ناجي، علم الأصوات وأصوات اللغة العربية، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ط1، 2012.
8 - سمير شريف أستيته، الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، ط1، 2003.
9 - عبد الرحمان أيوب، أصوات اللغة، مكتبة الشباب، القاهرة.
10 - عبد العزيز بن إبراهيم العصيلي، أساسيات تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى مطابع جامعة أم القرى، ط1، 1422هـ.
11 - عصام نور الدين، علم الأصوات اللغوية، الفونتيكا، دار الفكر اللبناني، ط1، 1996.
12 - كمال بشر، علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000.
13 - محمود كامل الناقة، رشيد أحمد طعيمة، طرائق تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها، منشورات المنظمة الإسلامية.
14 - محمود كامل الناقة، فتحي علي يونس، المنهج التوجيهي لتعليم أبناء الجاليات الإسلامية التربية الإسلامية واللغة العربية، (6-12 سنة)، منشورات المنظمة الإسلامية لتربية والعلوم والثقافة أسيسكو، 1999
15 - مناف مهدي محمد، علم الأصوات اللغوية، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 1998.

ثانيا: باللغة الفرنسية

1- E. EMERIT, cours de phonétique acoustique, SNED, Alger, 1977.
2- Monique léon, pierre léon, la prononciation du Français, Armond colin, Paris, 2000.

البنية الصوتية في الموشح الأندلسي و أبعادها الدلالية
ابن زهر أنموذجا - دراسة وصفية إحصائية تحليلية

الأستاذة : فايزة حسناوي
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة د. يحي فارس - المدية

مقدمة :

ليس مخطئا من قال إن الصوت هو مادة ، بل هو اللغة عينها وذاتها ، وأن المستوى الصوتي هو أساس بنية اللغة. إذ منه يتشكّل كل من المستويين الإفرادي والتركيبي بشقيه النحوي الثابت والبلاغي المتغير حسب حال السامع، باعتبار أن الصوت هو الوحدة الصغرى التي تتكون منها وحدات اللغة، أي الكلمات والجمل. وفي هذا الصدد يقول الدكتور جعفر دك الباب : يؤلف النظام اللغوي كلا واحدا ، توجد المستويات المتدرجة للبنية اللغوية فيه ، في علاقة تأثير متبادل فيما بينها، ويحتل مستوى البنية الصوتية مرتبة المستوى الأساسي والموجه بالنسبة لبقية المستويات .. لذا تنعكس خصائصه في المستويات اللغوية الأعلى ، ولا يمكن تفسير خصائص المستوى الصوتي بحقائق من المستويات الأعلى في حين أن العكس ممكن [1].

من خلال هذا المقول تتضح أهمية الصوت في بنية اللغة . والحديث عن الصوت هو بالضرورة الحديث عن الإيقاع، إذ أنّ في الإيقاع حاجة فيزيولوجية في كينونة الإنسان، لأنه يضبط حركة النفس، فإذا كانت سريعة جاء مثلها، وإذا كانت هادئة كان كذلك. لذا عدّ من أهم العناصر التي شغلت اهتمام الباحثين ولا تزال تشغلهم إلى هذا اليوم . ولأهمية الفعل التطبيقي الذي غدا مطلوبا في البحث العلمي عامة واللغوي خاصة ، فقد اخترنا في دراستنا هذه موشحة (سلم الأمر للقضاء) لابن زهر الأندلسي ، كنموذج تطبيقي صرف ننطلق منه لدراسة البنية الصوتية وعلاقتها بالدلالة. وعليه فقد اشتملت خطة البحث على العناصر التحليلية التالية: الموسيقى الخارجية - أوزان الموشحات - الموسيقى الداخلية - الأصوات وارتباطها بالدلالات - الخاتمة والنتائج .

أولا: الموسيقى الخارجية

أوزان الموشحات :

لما كانت أوزان الشعر، هي موسيقاه، فإن هناك إذن صلة تجمع بين موسيقى الشعر والموسيقى عامة. وكما تطورت الموسيقى العربية خلال العصور، وكانت موسيقى العصر العباسي غير موسيقى العصر الأموي، وهما معا غير موسيقى الجاهلية، كان المأمول أن يُحدِث الشعراء تطورا مماثلا في موسيقى الشعر وألا يقفوا عند الحد الذي رسمه الجاهليون، غير أن هذا شيء لم يحدث.

لقد ظل الشعر مقيدا بأوزان الشعر الجاهلي وقوافيه، حتى اخترعت الموشحات الأندلسية فكانت أول محاولة (جزئية) جريئة للتجديد في أوزان الشعر العربي وقوافيه والخروج بها على ما ألفه الشعراء السابقون.[2]

---

(1) جعفر دك الباب - مقدمة الكتاب والقرآن قراءة معاصرة - محمد شحرور - ص23- مكتبة الأهالي، دمشق، سوريا، ط 1- 1990.
(2)

وتمثل الموشحات ثورة عارمة ،وخروجا لم يسبق له مثيل على الشكل الموروث للنمط العروضي للقصيدة العربية ،وقد تمثل هذا الخروج في الوزن والقافية بالتحديد(1).

ولعل خير من تعرض لأوزان الموشحات بالدرس والاستقصاء هو "هبة الله بن سناء الملك " في كتابه " دار الكتاب في عمل الموشحات "، إذ وجدناه يقسم الموشحات من حيث أوزانها إلى قسمين : الأول منها، ما جاء على أوزان أشعار العرب .والثاني مالا وزن له فيها ، ولا إلمام له بها(2).

أما القسم الأول فيعده ابن سناء الملك :" بأنه من النسج المرذول المخذول ، وهو بالمخمسات أشبه منه بالموشحات، ولا يفعله إلا الضعفاء من الشعراء . والقسم الثاني من الموشحات ، وهو مالا دخل لشيء من أوزان العرب ، وهذا القسم منها هو الكثير والجم الغفير والعدد الذي لا ينضبط ، غير أن ابن سناء الملك نجده قد قسم القسم الأول بدوره إلى قسمين:

أحدهما مالا يتخلل أقفاله وأبياته كلمة تخرج بالفقرة التي جاءت فيها عن الوزن الشعري ،والذي يريد أن يتشبه بما لا يعرف، ويتشبع بما لا يملك ، اللهمّ إلا إن كانت قوافي قفله مختلفة،فإنه يخرج باختلاف قوافي الأقفال عن المخمسات،كقول بعضهم:

يا شقيق الروح من جسدي أهوًى بي منك أم لمم؟

والآخر مما جاء على أوزان الشعر المعروفة، هو ما تخللت أقفاله وأبياته كلمة أو حركة ملتزمة .كسرة كانت ، أو ضمة أو فتحة ، تخرجه عن أن يكون شعراً صرفا وقريضاً ، فمثل الكلمة قول ابن بقيّ:

صبرت والصبر شيمة العاني ولم أقل للمطبل هجراني معذّبي كفاني

هذا البيت من البحر المنسرح(3)

النموذج التطبيقي .

الموشحة: سلم الأمر للقضا"

سَلِّمَ الأَمرَ لِلقَضا فَهوَ لِلنَّفسِ أَنفَع

وَاِغتَنِم حينَ أَقبَلا

وَجهَ بَدرٍ تَهَلَّلا

لا تَقُل بِالهُمومِ لا

كُلُّ ما فاتَ وَاِنقَضى لَيسَ بِالحُزنِ يَرجِع

وَاِصطَبِح بِاِبنَةِ الكُروم

مِن يَدَي شادِنٍ رَخيم

حينَ يفتَرُّ عَن نَظيم

فيهِ بَرقٌ قَد أَومَضا وَرَحيقٌ مُشَعشَع

(1) علي الغريب محمد الشناوي، الصور الشعرية عند الأعمى التطيلي –ص297 –مكتبة الأدب، مصر.

(2) المرجع نفسه – ص 297.

(3) عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص360.---- (4)- المرجع نفسه –ص 361.

أنا أَفديهِ مِن رَشا
أهيَفَ القَدِّ وَالحَشا
سَقى الحُسن فَانتَشا
مُذ تَوَلّى وَأَعرَضا فَفُؤادي يقطَع
مِن لِصبٍّ غَدا مُشَوَّق
ظَلَّ في دَمعِهِ غَريق ح
ينَ أموا حِمى العَقيق
وَاِستَقَلّوا بِذي الغَضا أَسَفي يَومَ وَدَّعوا
ما تَرى حينَ أَظعنا
وَسَرى الرَكبُ موهنا
وَاِكتَسى اللَيلُ بِالسَنا
نورُهُم ذا الذَّي أَضا أَم مَعَ الرَكبِ يوشَعُ

التحليل:

		أقسام الموشحة	النمط العروضي
الموشحة	المطلع	سلّم الأمر للقضا فهو للنفس أنفع	من بحر مجزوء الخفيف فاعلاتن متفع لن فاعلاتن متفع لن
	الدور	وأغتنم حين أقبلا وجه بدر تهللا لا تقل بالهموم ، لا	فاعلاتن متفع لن فاعلاتن متفع لن فاعلاتن متفع لن
	القفل	كل ما فات وانقضى ليس بالحزن يرجع	فعلاتن متفعلن فعلاتن متفع لن
"سلم الأمر للقضا "	البيت يتكون من الدور والقفل	وأغتنم حين أقبلا وجه بدر تهللا لا تقل بالهموم ، لا كل ما فات وانقضى ليس بالحزن يرجع	فعلاتن متفع لن فعلاتن متفع لن فعلاتن متفع لن فعلاتن متفعلن فعلاتن متفع لن
	الخرجة	نورهم ذا الذي أضا أم مع الركب يوشع	فاعلاتن متفع لن فاعلاتن متفع لن

موشحة " سلم الأمر للقضا " جاءت على وزن مجزوء الخفيف ، وهذا يظهر لنا من خلال تقطيعنا للمطلع:

سلم الأمر للقضا فهو للنفس أنفع
سللم لأمر للقضا فهو للنفس أنفعو

0 101 1 0 1	01 1 01 1	0 1011 0 1	0 1 1011
فاعلاتن	متفعلن	فاعلاتن	متفع لن

التفعيلة الأصلية	التغيرات التي حدثت	نوع العلة	التفعيلة المتحصل عليها
مستفع لن	حذف السين" الساكن الثاني"	خبن	متفع لن

لقد لجأ الشاعر إلى الزحافات والعلل ليكسر ما فيه من فروة التطريب، وتدافع الغناء ، وبذلك استطاع أن يستولد من هذه البحور " الرمل" و" مجزوء الخفيف" إيقاعاً أهدأ وأكثر عمقاً ، يتجانس مع هذه الرؤيا الشعرية المتوترة وينبثق عنها. وبما أن رؤيا الموشحات تتفجر بالألم والحزن والأسى ، لذا كان على هذه الرؤيا أن تنتج إيقاعها الخاص.

ثانيا: الموسيقى الداخلية

1/ التكرار:

إن بنية الصوت أولى البنيات التركيبية في الموشحة، باعتبارها أصغر وحدة صوتية يمكن عن طريقها التفريق بين الكلمات وتمييز أشكالها . وهنا سنتناول مختلف الظواهر الصوتية، من جهر وهمس، وشدة، ورخاوة، وإطباق وانفتاح ،واستعلاء واستفال معتمدين في ذلك نظام الجداول والإحصاء في دراسة مختلف الظواهر .

الجهر و الهمس :

1 الجهر :

إن الصوت المجهور " هو الذي يهتز عند النطق به الوتران الصوتيان في النتوء الحنجري بحيث يسمع تنشره الذبذبات الحنجرية في تجاويف الرأس "[(1)]. الصوتي ، وإمعانا وتوضيحا لخصائص الحروف المجهورة يرى " إبراهيم أنيس " الأصوات اللغوية التي تصدر بطريقة ذبذبية الوترين الصوتيين في الحنجرة تسمى أصواتا مجهورة ، فالصوت المجهور هو الذي يهتز معه الوتران الصوتيان "[(2)].

فمصدر الصوت المجهور يشترك فيه الصدر والفم وهي تسعة عشرة صوتا تجمعت في قولهم " عضقم وزن مارغظ جد طلب ."

2 الهمس :

الصوت المهموس :" هو الصوت الذي لا يهتز عند النطق به الوتران الصوتيان في النتوء الصوتي الحنجري "[(3)].

أما سيبويه فقد عرف الحرف المهموس بقوله :" حرف أضعف موضعه حتى جرى النفس معه [(4)].

يتصف الصوت المهموس برهافة ،وهي صفة تبعث على التأمل والتقصي العميق بجوانب اللغة ،وفي حالة طغيان أصوات الهمس يزداد تأثير الصوت على حاسة السمع .

ومن خلال عملية فحص إحصائي لأصوات الجهر والهمس الواردة في الموشحة توصلنا إلى مايلي :

عدد الحروف	المجهورة	النسبة المئوية	المهموسة	النسبة المئوية

(1) صبري متولي، دراسات في علم الأصوات، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص 59.
(2) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، المكتبة الإنجلو مصرية، القاهرة، ط1، 1981، ص 20.
(3) صبري متولي، دراسات في علم الأصوات، ص 59.
(4) سيبوية، الكتاب، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، ط3، 1990، ج2، ص 489.

362	253	69.88	69	19.06

نلاحظ من خلال الجدول أن الأصوات المجهورة في الموشحة هي أكثر من المهموسة ، فكانت نسبة المجهورة هي 69.88% ، والمهموسة تقدر ب 19.06% .

وكما هو معروف فإن الصوت المجهور هو صوت يقرع الأذان لشدته ويوقظ الأعصاب، فكثرة الأصوات المجهورة جاءت وفق مقاصد الشاعر.

وقد توزع الصوت المهموس في الموشحة حيث أحدث نوعا من التوازن تقريبا في النسبة المئوية بين الجهر والهمس.

الشدة و الرخاوة :

معيار الشدة والرخاوة يرجع أساسا إلى درجة التحكم في تيار النفس المنطلق من الرئتين .

1 الشدة :

هو أن يحبس الهواء الخارج من الرئتين حبسا تاما في موضع من المواضع ،وينجم عن هذا الحبس أو الوقف أن يضغط الهواء ، ثم يطلق سراح المجرى الهوائي فجأة فيندفع محدثا صوتا انفجاريا(1).

والأصوات الشديدة هي : ثمانية أحرف يجمعها هجاء قولك " أجد قط بكت"(2) والشدة من علامات قوة الحرف .

2 الرخاوة :

"الصوت الرخو هو صوت يحدث معه اعتراض ناقص ، وهو عكس الصوت الشديد ، ومن الأصوات الرخوة : الهاء الحاء، الغين ، الخاء ، الشين، الصاد، والضاد، والزاي ، والسين ،والظاء والثاء ،والذال ،والفاء "(3) . وهي ثلاثة عشر حرفا ، يجمعنا قولك:" تخذ ظغش زخف صه خس "(4).

ومن خلال عملية فحص إحصائي لصوتي الشدة والرخاوة توصلنا إلى مايلي :

عدد الحروف	الشديدة	النسبة المئوية	الرخوة	النسبة المئوية
362	125	%34.53	80	%22.09

ما يمكن ملاحظته على الجدول هو أن الشاعر قد وظف الأصوات الرخوة بنسبة أقل من الأصوات الشديدة ،حيث أن نسبة الأصوات الرخوة 22.09%والشديدة 34.53% .

(1) كمال بشر على اللغة العام، دار المعارف، مصر، ط7، 1980 ، ص 100.
(2) أحمد بوزيد، التناسب البياني في القرآن، ص 290.
(3) المرجع نفسه، ص 291.
(4) حسام البهنساوي، دراسات صوتية عند علماء العرب، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص 44.

فالصوت الرخو يحدث معه إعراض ناقص ،وهو صوت حزين .وكان تواتره بقلة عكس الشديد، فالشاعر استعمل الأصوات الرخوة ، وهي أصوات تحمل دلالات الألم العميق والحزن الشديد ، و أن تواتره في القصيدة ينم عن حالة الشاعر وما يحس به ، غير أن الأصوات الشديدة فجرت ذلك الحزن والألم بطغيانها على الأصوات الرخوة.

الإطباق والانفتاح:

1 الإطباق :

الصوت المطبق هو الذي ينطبق عند النطق به طرف اللسان ووسطه على من يحاذيه من سقف الحنك على تفاوت في درجة الانطباق فهو تام في /ط/ ومتوسط في /ص/ض وناقص نسبيا في /ظ/ (1).

والحروف المطبقة هي أربعة : الطاء والصاد والظاء والضاد وإنما سميت بهذا ،لأن طائفة من اللسان تنطبق مع الريح إلى الحنك الأعلى عند النطق بها مع استعلائها (2).

2: الانفتاح:

الأصوات المنفتحة هي خمسة وعشرون، أي ما عدا الأصوات المطبقة المذكورة ، وسميت بالمنفتحة ، لأن اللسان لا ينطبق مع الريح إلى الحنك عند النطق بها (3).

والأصوات المنفتحة هي: الثاء، الحاء، الخاء، الذال، الزاي ، السين، الشين، العين، الغين، الفاء، الهاء، الواو، الياء ، الألف، اللام، النون، الميم، الراء، الهمزة ، الدال، القاف، والباء والكاف والتاء والجيم.

ومن خلال عملية فحص إحصائي للأصوات المنفتحة والمطبقة يتضح لنا الآتي :

عدد الحروف	الأطباق	النسبة المئوية	المنفتحة	النسبة المئوية
362	14	% 3.86	336	% 93.37

تواترت الأصوات المنفتحة في الموشحة بشكل كبير، حيث بلغت نسبتها 93.37% والأصوات المطبقة بنسبة 3.86% . وبالتالي فإن الأصوات المنفتحة قد شكلت وزنا كبيرًا في الموشحة، وأنّ الأصوات المطبقة رغم قلتها إلا أنها أدت دوراً مهماً في إثراء الدلالة.

الاستفال والاستعلاء

(1) صبري متولي، دراسات في علم الأصوات، ص 60.
(2) أحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن، ص 291.
(3) المرجع نفسه، ص 291.

1 الاستفال :

الصوت المستفل لا يرتفع اللسان بجزئه الخلفي إلى ما يحاذيه من الطبق أو الحنك(1).

والأصوات المستفلة هي اثنا وعشرون صوتاً ، أي ما عدا المستعلية ، ووصفت بهذا الوصف لأن اللسان والصوت لا يستعلي عند النطق بها إلى الحنك بل يستفل اللسان إلى قاع الفم(2).

2 الاستعلاء :

الأصوات المستعلية وهي سبعة منها المطبقة المذكورة قبل ، و" الحاء، والغين، والقاف" ،وإنما سميت بالمستعلية لأن الصوت يعلو عند النطق بها إلى الحنك فينطبق الصوت مستعلياً(3).

وهذا الجدول سيبين لنا نسبة استعمال الشاعر الأصوات المستعلية والأصوات المستفلة في الموشحة التالية:

عدد الحروف	الحروف المستعلية	النسبة المئوية	الحروف المستفلة	النسبة المئوية
362	32	% 8.83	330	% 91.16

مما يلاحظ من هذا الجدول أن توظيف الأصوات المستفلة كان بشكل كبير، فقد كانت نسبة الأصوات المستفلة تقدر بـ: 91.16% ، ونسبة الأصوات المستعلية تقدر بـ: 8.83 % .

إن الصوت المستفل الذي غلب على الموشحة يتلاءم مع المواضيع التي اختارها الشاعر من لوم وعتاب للمحبوبة، وهو صوت لا يرتفع فيه اللسان أثناء النطق به، وأما الصوت المستعلي فهو يرتفع فيه اللسان إلى الحنك الأعلى وهو ما يعطي الكلمات نوعًا من الفخامة ،لذا كانت نسبة تواتره قليلة.

(1) صبري متولي، دراسات في علم الأصوات، ص 64.
(2) أحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن، ص 291.
(3) المرجع نفسه، ص 291.

- الخاتمة:

من دراستنا وتحليلينا للبنية الصوتية في هذه الموشحة خلصنا إلى أبرز النتائج وهي كالتالي :

للبنية الإيقاعية في الموشحة أهمية جليلية في بلورة الأبعاد الدلالية فيها .

كما بلورت الدراسة أن الأصوات على اختلاف مواصفتها في خطاب الموشحة استطاعت أن تكشف عن مجموعة دلالات وأنواع حالات ، منها أن صفة الشدة هي للقوة ، وأن صفة الهمس هي للحزن المنبعث من الألم العميق الذي يغلب عليه لباس الصمت الطويل ، ولا شك أن الشاعر كان مقهورا بحزن عميق ، وما يؤكد هذا هو غلبة نسبة الأصوات المستفلة على الأصوات المستعلية من خلال الجزء الإحصائي لهما ، ولا نتوقع أن الشاعر نظم الموشحة وضبط ألوان أصواتها بشكل عفوي بعيد عن التأمل و التوافق ، كما يستنتج أيضا فكرة دلالة الحزن باستسلام الشاعر للقضاء و القدر.

مصادر و مراجع البحث:

--- الأصوات اللغوية – إبراهيم أنيس – المكتبة الأنجلو المصرية – ط1- القاهرة – 1981.
--- التناسب البياني في القرآن – أحمد بوزيد – منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الرباط المغرب – 1992.
--- الكتاب والقرآن قراءة معاصرة – مقدمة للدكتور جعفر دك الباب –مكتبة الأهالي دمشق سوريا --ط1 – 1990
--- دراسات صوتية عند علماء العرب – حسام البهنساوي – دار الثقافة للنشرو التوزيع .
--- الكتاب – سيبويه - مؤسسة الأعلى للمطبوعات – ج 2 –ط3 – بيروت 1990.
--- دراسات في علم الأصوات - صبري متولي – دار الثقافة للنشر والتوزيع – القاهرة .
--- الأدب العربي في الأندلس - عبد العزيز عتيق - دار النهضة العربية للطباعة والنشر- بيروت 1976.
--- الصور الشعرية عند الأعمى التطيلي – مكتبة الأدب مصر .
--- علم اللغة العام - كمال بشر – دار المعارف – ط7 – مصر 1980.

مَفاهيم اللّهجيّات: قِراءة في المَنهجِ والأَداة

الأستاذ: محمّد هتهوت
قسم اللّغة العربية وآدابها
جامِعة البُليدة 2

ملخّص:

تَروم هذِه المحاولة الإشارَة إلى جانبٍ مِن الدِّراسة اللِّسانيَّة، لا تقرُّ بِه الدِّراسات العربيَّة مثلَ مَولودٍ شرعيّ إلاَّ على استِحياء، رغمَ أنَّ الغَربيين قَطعوا أشواطًا كَبيرَة، ولَم يَعد النَّظر إلى التَّنوعات اللُّغويَّة المتناثِرة هُنا وهُناك، أَو المتراتِبة في ثَنايا المجتمع، في مَنأى عَن تَطوُّرات اللُّغة وهُمومِها؛ ذلك إنَّ كَثيرًا مِن مَظاهِرها يُمكن ردُّه وتَعليلُه على أَساسٍ هذِه التَّنوعات الَّتي قَد تَضرِب بجذورِها إلى أَقدم مِن اللُّغة نَفسِها؛ وبِإمكانِ هذِه المعطيات أَن تُتيح لَنا بِناءَ ملامحِها والقَبض على القَوانِين الَّتي تَقف وَراء التَّغيُّرات الوَاقِعة فِيها. وقَد أَضحى أَيضًا، تَفسير الظَّواهِر الاجتِماعيَّة وخُصوصيَّتِها يتّم في ضَوءِ المعطيات اللّهجيَّة.

لَقَد استَوت اللَّهجيَّات –حديثًا– على سُوقِها، وتمكَّنت مِن أَن تَقطِف ثِمار جُهودِ سِنين قَد خَلت مِن البَحث والتَّنقيب وتَوخي الموضوعيَّة والتَّخلص مِن الأَحكامِ القَيميَّة الَّتي لازالَت تُعمي جَوانِب عَديدة مِن الدَّرس اللَّهجيّ العربيّ؛ واتَّضح مَنهجها في الدِّراسة وتشكَّلت أَبعادُها، التَّاريخيَّة، والجُغرافيَّة، والاجتِماعيَّة. فَلا مَندوحة لَنا اليَوم أَمام تراكُم مُشكِلات تعليميَّة ومُجتمعيَّة، مِن بَحثِ المادَّة اللَّهجيَّة، إذ لَيس القَصد مِن دِراسة اللَّهجات، المفاضلَة بينَ العربيَّة الفُصحى ولَهجاتِها، أَو أَن يُتاح لِلهجةٍ ما فَضل الارتِقاء ويُمكَّن لَها في الأَرض، وإنَّما لِنفهَم طَبيعَة هذِه الظَّواهِر وأَثرَها على العربيَّة والتَّحكم فيها.

الكلمات المِفتاحيَّة:

اللَّهجيَّات– اللَّهجة– اللُّغة– أطلَس اللَّهجات– العاميَّة– اللَّهجات الجُغرافيَّة– اللَّهجات الاجتماعيَّة.

توطِئة:

البحثُ في اللَّهجات، قَديمٌ جَديد، فَقد تناثرت في كتُب العربِ المتقدمين وآثارِهم، إشاراتٌ إلى لُغاتِ العَربِ وكَيفيَّات نُطقِها مَعزوَّةً إلى قبائِل ذلك الزَّمان، ولَم تكن إذ ذاكَ نظرةٌ تُقيم لِمثلِ هذِه الأَشكال اللُّغويَّة وزنًا إلاَّ بِما يخدم كِتاب الله ويَشرح مَكنونه، دون أَن تظفرَ –على ذَلك– العربيَّة بِمؤلفٍ مُستقلٍّ يَجمع شتاتَها، ويبدِّد الغموضَ مِن حولِ الكثير مِن غريبِ طُفولتِها.

لَقد تمكَّن الدَّرسُ اللَّهجيّ –هذا المولود الشَّرعيّ– اليَوم، بِفضلِ تطوُّر أَدوات البَحث وتِقنيَّات التَّحري، وكذا النَّظر الموضوعيّ، مِن إماطةِ اللِّثام عَن كثيرٍ مِن قَضايا اللَّهجات الَّتي شابَتها التَّساؤلات؛ وصار مِن ثمَّة –أَقصِد العِلم– مجالاً ومنهجًا داخِل مَنظومَة اللِّسانيَّات المتعاظِمة، يتفاعَل مَع علومٍ أُخرى، نحو الجُغرافيا وعِلم الاجتِماع وغيرِهما.

1– اللَّهجيَّات و محلُّها مِن اللِّسانيَّات:

اللَّهجيَّات، أحدُ فروعِ اللِّسانيَّات التَّطبيقيَّة، نَشأت ملامِحُها مِن بُحوثِ النُّحاة الجُدد حينَ أَسَّسوا "القوانين الصَّوتيَّة" خلال القرنينِ التَّاسع عشر والعِشرين؛ وهو عِلمٌ يُعنى بِدراسة " الظَّواهِر والعَوامِل المختلفة المتعلِّقة بِحدوثِ صورٍ مِن الكلامِ في لغةٍ مِن اللُّغات أَو عِلمٌ يَدرسُ اللَّهجات بِاعتبارِها أنظِمة لغويَّة تَنشأ أَو تتفرَّع عَن لغةٍ أَو لُغات "(1)؛ وقَد تَعلَّق مَفهوم هذا العِلم إلى حدٍّ بَعيد بِالجُغرافيا، فِمن ذلك ما تذكرُه أَحد المعجمات الأوروبيَّة، فيما نصُّه:" يحتمِل مُصطلح اللَّهجيَّات أحيانًا، مَعنى مرادِفًا للجغرافيا اللِّسانيَّة، والقَصد مِنه، المجال الَّذي يُعنى بالوَصفِ المقارِن لِمختلفِ الأنظِمَة أو اللَّهجات، حيثُ تتشعَّب اللُّغة في رقعةٍ جغرافيَّة "(2)

واللَّهجة أَو "dialecte" مادَّة الدِّراسة، الَّتي تَعكِف اللَّهجيَّات على تناولِها، وهي في اصطِلاحِها الغربيّ، مِن " الإغريقيَّة dialektos ، دلَّت على الأنظِمة المختلفة المستخدمَة في جميعِ اليونان، وكلُّ نِظامٍ يُستخدَم لِجنسٍ أدبيّ مُعيَّن " (3)

ولا نجِد اختِلافًا وبونًا واسِعًا بين الوحدات المصطلحيَّة لِلَّهجيَّات كالَّذي وَجدناه مَع اللِّسانيَّات"(4)؛ والَّذي يُمكِن إيضاحُه في هذِه العيِّنة مِن المعجمات العربيَّة في هذا الجَدول:

الوِحدة المُصطلحيَّة الأعجميَّة (الفرنسيَّة/الانجليزيَّة)	الوِحدة المُصطلحيَّة العربيَّة	المُعجمات العربيَّة
dialectologie/ dialectology	عِلم اللَّهجات (ص: 93)	**مجلَّة مجمع اللّغة العربيَّة بالقاهرة (1962م)**
	دِراسة اللَّهجات (ص: 120)	**معجَم علوم اللُّغة، عبد الرسول شاني، (1977م)**
	عِلم اللَّهجات (ص: 66)	**مُعجم عِلم اللُّغة الحديث، نخبة مِن اللُّغويين، (1983م)**
	لَهجيَّات (ص: 157)	**قاموس اللِّسانيَّات، عبد السلام المسدي،**

		(1984م)
	عِلم اللّهجات (ص: 136)	المُصطلحات اللُّغويَّة الحديثة في اللُّغة العربيَّة،محمَّد رشاد الحمزاوي، (1987م)
	عِلم اللّهجات (ص: 279)	قاموس المُصطلحات اللُّغويَّة و الأدبيَّة،إميل يعقوب وآخرون، (1987م)
	لَهجيَّات (ص: 227)	المُصطلح اللِّساني، عبد القادر الفاسي الفهري، (1987م)
	عِلم اللّهجات (ص: 82)	مُعجم المُصطلحات الألسنيَّة، مبارك مبارك، (1995م)
	عِلم دِراسة اللّهجات (ص: 38)	مُعجم اللِّسانيَّات الحديثة،سامي عياد حنا و آخرون، (1997م)
	عِلم اللّهجات (ص: 37)	مُعجم مُصطلحات العلوم اللُّغويَّة، صبري إبراهيم السيِّد، (2000م)
	عِلم اللّهجات (ص: 45)	المُعجم الموحَّد لِمصطلحات اللِّسانيَّات، (2002م)

2- اللَّهجة و اللُّغة و مَعايير التَّمييز بَينهما:

2-1- في النَّظر التُّراثيّ:

الظَّاهِر مِن كُتبِ التُّراث، أنَّ العربَ المتقدِّمين لَم يَستعمِلوا "اللَّهجةَ"[5] مُصطلحًا لَهم للتَّعبير عمَّا يَجري عَليه عُرف المحدثين، مِن ذلك الشَّكل اللُّغويّ المتفرِّع مِن أصلٍ، يسمَّى "لغةً"، وإنَّما عبَّروا عَن مَفهوم الفرعِ أو الجُزء، بلفظ "اللُّغة"، فَقد ذكر سيبويه (ت 180هـ)، قوله في بابٍ سمَّاه: هذا باب ما أُجري مجرى لَيس في بعضِ المواضعِ بِلغةِ أَهل الحجاز ثمَّ يصيرُ إلى أَهله :" مِثل ذلك قوله عزّ وجلّ:(مَا هَذَا بَشَرًا) في لُغةِ أَهلِ الحِجاز. وبنو تَميم يَرفعونها إلاَّ مِن درى كَيف هي في المِصحف."[...] وتقول: ما زيدٌ إلاَّ منطلقٌ، تَستوي فيه اللُّغتان "[6]، وفي مَوضعٍ آخر، يذكر:" كما أنَّ ما كَليسَ في لُغة أَهل الحجاز ما دامت في معناها، وإذا تغيَّرت عن ذلك أَو قدِّم الخَبَر رَجعت إلى القِياس، وصارَت اللُّغات فيها كَلغةِ تميم "[7]؛ ويرد مِثل ذلك عند ابن جني (ت 392هـ) في الخصائص مِن باب: باب اختِلاف اللُّغات وكلُّها حُجَّة، يقول:" ألا ترى أنَّ لُغة التَّميميين في تركِ إعمالِ ما يُقابلها القِياس، ولُغة الحِجازيين في إعمالِها كذلِك؛ لأنَّ لكلِّ واحدٍ مِن القومين ضربًا مِن القِياسِ يُؤخذ بِه، ويُخلدُ إلى مثلِه. وليس لَك أن تردَّ إحدَى اللُّغتين بِصاحبتِها"[8].

كَما يحدث أن يُشيروا إلى ذلك المفهوم -أقصد اللَّهجة- باللَّحن حينًا آخر. " وقَد يُروى لنا أنَّ أعرابيًّا يقول في مَعرضِ الحديث عَن مَسألةٍ نحويَّة:" لَيس هذا لَحني ولا لَحن قَومي "[9]

وقَد شَملَت اللَّهجة لَديهِم، تلك الكيفيَّات وطرائِق النُّطق الَّتي بدَت على ألسنةِ القبائِل، نحو كَشكشة أسد، وكَسكَسَة ربيعَة، وعَنعَنَة تَميم، وعجرفيَّة قَيس، وغير ذلك ممَّا ترفَّع عَنه الذَّوق العربيّ القرشيّ على حدِّ تعبير ابن فارس (ت 395هـ):" وكانت قُريش معَ فصاحتِها وحُسنِ لُغاتِها ورِقَّةِ أَلسنتِها، إذا أَتَتهم الوُفود مِن العَرب تخيَّروا مِن كَلامِهم وأشعارِهم أَحسنَ لُغاتِهم وأَصفى كَلامِهم. فاجتمَع ما تخيَّروا مِن تلك اللُّغات إلى نَحائِزِهم وسلائِقهم الَّتي طُبِعوا عليها. فَصاروا بِذلك أفصحَ العَرب "[10]

ومِن جهةٍ أُخرى، لَم تجِد لَفظة (اللُّغة) سبيلها " إلى الظُّهور بينَ مُفردات العربيَّة إلاَّ بَعد انتِهاءِ القرنِ الثَّاني الهِجري وقَد أُطلِقت آنذاك على ما جمعهُ الرُّواة مِن البادية عَن العَرب الفصحاء بَعد فشوِّ اللَّحن...ولَم يُطلق على الرُّواة و هم القائِمون بِفنونِ اللُّغة لفظُ (اللُّغويّ) إلاَّ في القرنِ الرَّابع بعد أن استفاضَ التَّصنيفُ في اللُّغة و تميَّزت العلومُ العربيَّة "[11]

وكان مِن دأبِ المتقدِّمين العرب في خِطاباتِهم ومآدِبهم إلاَّ بِما أطلقوا عليه بِاللِّسان، وهو اصطلاحٌ جَرت عليه نصوصُ القرآن الكريم [12]، يقول إبراهيم أنيس:" يظهرُ أنَّ العربَ القُدماء في العُصورِ الجاهليَّة وصَدرِ الإسلام لَم يكونوا يُعبِّرون عمَّا نُسميه نحنُ باللُّغة إلاَّ بِكلمةِ اللِّسان تلكَ الكلمَة المشتركة اللَّفظ والمعنى في مُعظمِ اللُّغات السَّامية شَقيقات اللُّغة العربيَّة "[13]؛ والسَّبب الرَّئيس وراءَ عُزوفِهم عَن هذا الجانِب مِن الدِّراسة -أعني اللَّهجات- هو أنَّهم " كانوا يرمونَ إلى غَرضٍ آخرَ مُختلف، فلقَد كانَ الشَّيء الوَحيد المستأثِر بجهودِ اللُّغويين العربِ دائمًا هو العربيَّة الفُصحى "[14] لُغة القُرآن الكريم، ومدارُ التَّفقُّهِ في الدِّين.

2-2- في النَّظر الحديث:

أخذَ النَّظر الحَديث مسارًا آخر أكثرَ موضوعيَّةً وعلميَّةً بإزاءِ اللُّغات ولَهجاتِها وما ظلَّ يحومُ حولَها مِن الأحكامِ القيميَّة كالصواب والخطأ أو الرداءَة والجودَة في مُختلفِ الحضارات[15]على مرِّ السِّنين، حتَّى طلَع عَلينا اللِّسانيّ سوسير (F de. SAUSSURE) بِمحاضراتِهِ الَّتي أسَّس بِها مبادِئ اللِّسانيَّات القائِمة على العلميَّة و الاستِقلاليَّة والموضوعيَّة، البعيدَة عَن كلِّ حكمٍ ذاتيّ.

واللِّسانيّ -وهو يدرسُ لهجةً معيَّنة- يتوخى الموضوعيَّة ما استطاع، فيصفُها كما هي في الواقِع ، ويَطرح الفرضيَّات ويَبحث الأَسباب والعِلل الدَّاعيةِ إلى الاختِلاف والتَّطور في بنياتِها، الصَّوتيَّة أو الصَّرفيَّة أو التَّركيبيَّة أو الدَّلاليَّة؛ قَصد استِخلاص القَوانين المطَّرِدَة الحاكِمة لَها، ويتمَّ فيما بَعد تَطبيقها على اللَّهجات واللُّغات في صيغةِ قانونٍ أو نظريَّة.

ومِن ناحيةٍ أُخرى، فَإنَّ كلَّ لغةٍ -مِعياريَّة مُشتركَة رَسميَّة- اليوم، كانت بِالأَمسِ لهجةً، تَدعوها مجموعةٌ مِن الأَسباب -الأدبيَّة أَو الدينيَّة أَو السِّياسيَّة أو الاقتِصاديَّة ونحوه- طَوعًا أَو كَرهًا، فتَكتسِب على ذلك، شَرعيَّة الاستِعمال واعتِراف الجَماعَة اللُّغويَّة بِها. وفي الآنِ ذاتِه فكلُّ لُغةٍ أُتيح لَها الانبِساط والانتِشار، لا تَفتأ تنشعِب إلى لهجاتٍ. والأمثلةُ لِذلك كثيرَة، فَالعربيَّة الفصحى، ما هي إلاَّ إِحدى لهجات القبائِل العربيَّة، قَد توفَّر لَها " فرصٌ كثيرة للاحتِكاك، بِسببِ التِّجارة تارةً وتجاوُر القبائِل تارةً أُخرى، وتنقُّلها في طلب

الكلأ والمرعى، أو تجمُّعها في مواسِمِ الحجّ والمعاملات التِّجاريَّة في الأسواق واللِّقاء في الحروبِ الأهليَّة، والغزوات وأيامِ العربِ وما إليها...فأصبَحت لغةَ الأدبِ بِشعرِهِ ونثرِهِ ولُغةَ الدِّين ولُغةَ السِّياسة والاقتِصاد "(16)

والفرنسيَّة –وهي لهجةِ باريس– تغلَّبت " على مُعظمِ أخواتِها إلى أن أَصبحت «لُغة الدَّولة» بِفرنسا وعليها وحدها يُطلقُ الآن اسم اللُّغة الفرنسيَّة. وهذا هو ما حدثَ عقِب تغلُّب لهجَة لندن بِانجلترا. ومدريد بِاسبانيا و اللَّهجة السَّكسونيَّة بِألمانيا والتوسكانيَّة بِايطاليا، فَقد أَصبحت هذِه اللَّهجات هي اللُّغة الرَّسميَّة "(17)

إنَّ مَعايير التَّفرقة بين اللَّهجة واللُّغة، عسيرةٌ ومعقَّدة؛ فَالخطُّ " الفاصِلَ بينَ اللُّغة واللَّهجة، يَصعبُ في غالِبِ الأحيان تتبُّعه ورسْمُه. والتَّفاهم المشترك، لا يَعرِض إلاَّ جُزءًا مِن الإجابَة؛ إذ إنَّه مِن المشاهد أنَّ الاتِّصالَ بينَ أبناءِ مجموعتين، يتكلَّمون بلغتينِ مُشتركتين رسميتين، ذواتي أَصلٍ واحد؛ مثل: الايطاليَّة والاسبانيَّة، قد يكون أَسهلَ منه، بين أبناءِ لهجتين تَنتسبانِ إلى لُغةٍ رسميَّةٍ واحِدة "(18)

وإن نَحنُ وَلينا نَظرنا شَطر الجانِب اللِّسانيّ، اتَّضحَ لَنا وَجه الاتِّفاق بينَ اللَّهجة واللُّغة، فَكِلتاهما تَقومانِ على المستويات، الصَّوتيَّة والصَّرفيَّة والتَّركيبيَّة والدلاليَّة، فالمِعيار اللِّسانيّ، تَستوي عنده اللَّهجة واللُّغة. ولا يَقع الاختِلاف بينهما سِوى خارجَ البِنية، وهو مِعيارٌ يَقوم على أُسسٍ سوسيولِسانيَّة ، قَد ذكرها اللِّسانيّ الأمريكيّ "بيل" (Bell) ، في سبعَة، وهي: التَّوحيد اللُّغويّ، الحيويَّة، التَّاريخيَّة، الاستِقلاليَّة، الاختِصار، الامتِزاج، المعايير الواقِعيَّة (19)؛ أو مَعايير أُخرى، يُمكِن إيجازُها في الجدول التَّاليّ:

مقاييس التَّفرقة \ مُستوى الاستِعمال اللِّسانيّ	اللَّهجة	اللُّغة المِعياريَّة
البُعد	خاصّ	عامّ
الأسلوب	حميميّ	رَسميّ
الوسط الاجتِماعيّ	وَسط شعبيّ	نُخبويّ
الرُّقعة	محليّ، جِهويّ	وطنيّ
دائِرة التَّواصل	ضيِّقة	واسِعة

–جدول الاختِلاف المُتداول بين اللَّهجة و اللُّغة المِعياريَّة–

3– الأَطلس اللَّهجيّ: (atlas dialectal)

لَم يتمّ ظهور مَلامِح اللَّهجيَّات وبلوغِها حالةَ النُّضج " إلاَّ مع بزوغِ فجرِ القرنِ العِشرين، على الرَّغمِ مِن أنَّ جذورَها امتدَّت إلى القَرنِ التَّاسِع عَشر. لَقد وضَعت أُصول الجُغرافيا اللُّغويَّة تقريبًا عامَ 1870، عندما اهتمَّ النُّحاة المحدثون باللَّهجات؛ لاقتِناعِهم بِأنَّ الظَّواهِر اللَّهجيَّة يُمكِن أَن تُقدِّم أَفضل بُرهان على صِدق نظريَّاتهم المتعلِّقة بِاطِّرادِ القوانِين اللِّسانيَّة "(20)؛ ولأجلِ ضبطِ هذِه المعطيات،

انبعثَت فِكرة إعداد الأطالِس كثمرةِ اتّصال الجُغرافيا بالدَّرس اللَّهجيّ. بدأَ عَمل الأطالِس اللَّهجيَّة على أَيدي الألمان، فَقد أخرَج جورج وينكر (Georg Wenker)، أَطلسه إلى النَّاس، سنة 1881م، شَمل تحرِّيه وَسط أَلمانيا وشمَالها، وذلك بِأن وَضع "وينكر" أَربعين جُملةً مَكتوبةً بِالألمانيَّة المِعياريَّة ثمَّ وزَّعها على مناطق ونِقاطٍ مختلِفةٍ مِن ألمانيا، وتمَّ ترجمتُها بلَهجات تلك المناطِق؛ تَلاه فيما بَعد أَطلس الفرنسيّ "جول جيليرون" (Jules Gilliéron) سنة 1902م، ومسَّ بحثُه -الَّذي اعتمدَ المسألة اللُّغويَّة- مِنطقة فرنسا ووَلُونيا وسويسرا الرومانيَّة، واتَّخذت جُهوده الدِراسة المعجميَّة والصَّوتيَّة والصَّرفيَّة لِـ: 1500 جُملة ولَفظ مُستعمل؛ وحظِيت اللَّهجات العربيَّة بِمنطقةِ سوريا وفِلسطين، باهتِمام المستشرِق الألمانيّ، برجشتراسر (G. Bergsträsser)، الَّذي أعدَّ أَطلسه عام 1915م، وبِه ما يَقرب مِن ثمانين خريطَة.

ويقوم موضوعُ الأَطلس اللَّهجيّ على " تَوزيع الظَّواهِر اللَّهجيَّة لِلُغةٍ معيَّنة في منطقةٍ معيَّنة "[21] على خرائِط لهجيَّة. ومِن بينِ ما يتضمَّنه بحثُ الأطالِس مِن بيانات مرحلتين الأمور التَّالية: "-مَيدان البَحث –عدد النقط الَّتي يجري فيها البحث –أساس جَمع المادَّة اللُّغويَّة –طبيعَة المادَّة المجموعة –طَريقة تَدوينِها –الرَّواة و طَبيعتِهم مِن النَّاحية الإحصائيَّة –الباحِثون الميدانيّون"[22]؛ أمَّا المرحلة الثَّانية فتتضمَّن الأمور التَّالية: "أ-الخَرائِط وأنواعُها ب-الوسائِل التَّوزيعيَّة ج-تَحديد الكيانات اللَّهجيَّة وأنواعِها "[23].

4- الأَطلَس اللُّغويّ: (atlas linguistique)

يتَّجه العَمل في الأَطلس اللُّغويّ إلى اللُّغات الفصحى المِعياريَّة، و " مَوضوعُه تَوزيع اللُّغات والفصائِل اللُّغويَّة تَوزيعًا جُغرافيًّا على منطقةٍ أَو أَكثر مِن الكُرة الأَرضيَّة "[24]

وهناك فَرقٌ، يجب عَدم تجَاهله بِإزاءِ مَفهومي، أَطلَس اللَّهجيّ والأَطلَس اللُّغويّ، وهو كامِنٌ في أنَّ الأوَّل، يَدعو إعدادُه إلى المعايِنَة الميدانيَّة للظَّواهِر اللَّهجيَّة، ويتطلَّب وقتًا كبيرًا وصبرًا وجلدًا مِن الباحِث، لأنَّ هذِه الظَّواهِر، سريعَة الحَركة والتَّبدُّل، تتحكَّم فيها عوامِل عديدَة، الجُغرافيَّة مِنها والاجتِماعيَّة والإناسيَّة والسِّياسيَّة وغيرِها. وأمَّا الثَّاني، فَلا يَشترطُ إعدادُه بحثًا ميدانيًّا ولا يستلزِم مَنهجًا خاصًّا، اللَّهم إلاَّ تِلك الحالات مِن الاحتِكاك اللُّغويّ الَّتي يحدثُ أن تتداخلَ فيها اللُّغات.

5- أبعاد اللَّهجيَّات:

5-1- الجُغرافيّ:

كان العامِل الجُغرافيّ، أوَّل أسباب الَّتي تعلَّقت بِاللَّهجيَّات، فلا أحد يُنكِر ذلك التَّعدد الحاصِل في كَيفيَّات النُّطق وتَطور اللُّغة وتبايُنِ مَظاهِرها مِن منطقَة إلى أُخرى؛ يذكر أحد الدَّارسين " أنَّ تضاريس الإمارات الجُغرافيَّة، ما هي إلاَّ ترجمةٌ صادِقة لِتكوينِها الجيولوجي، فَيوجد بِها الجِبال الشاهِقة في خورفكان والفَجيرَة ورأس الخيمَة، وهذِه الجُزر الطَويلة على طُولِ الساحِل وهذِه الكُثبان الرَّمليَّة، وهذِه السَّواحِل الممتدَّة في أبو ظبي ودُبي، والشارِقة والفجيرة وأمّ القوين، كلُّ ذلِك لهُ أثرُه في تعدُّد اللَّهجات في دَولةِ الإمارات "[25]؛ وقَد أطلَقوا على هذِه التَّنوعات مُصطلح، اللَّهجات المحلِّية أو الجِهويَّة (les dialectes locaux).

ومِن ذا مِثالٌ يُترجِم هذا المعنى في الشَّكل التَّالي:

رموز المخطَّط:

[?] = [ء] = وَسط المدينة

[q] = [ق] = مِنطقة محيطة بالمَدينة

[g] = [ڨ] = جِيم قاهريَّة = الضَواحي

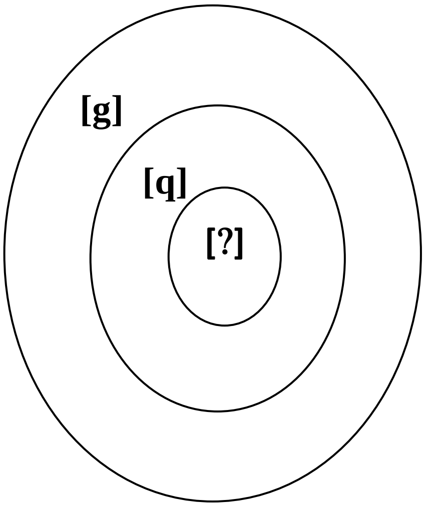

– التَّنوع الصَّوتيّ الجُغرافيّ لِلوحدة الصَّوتيَّة [ق]–

(مِنطقة تِلمسان)

5–2–الإجتِماعيّ:

انتقل الدَّرس اللَّهجيّ حديثًا مِن بَحثِ اللَّهجات أُفقيًّا (جُغرافيًّا)، إذ مَظاهِر التَّفرُّع والانشِعاب لَيست في عُزلة شَكلٍ لغويّ عَن آخر بِفعل تضاريس مُعيَّنة؛ وإنما مظاهِر العُزلة صارت اجتِماعيَّة أيضًا، ومن ثَمَّة أخذَ البحثُ مسارًا شاقوليًّا، فَانمازَت اللَّهجات الاجتماعيَّة (les dialectes sociaux) بِحسبِ العناصِر الاجتِماعيَّة، نَحو: الطَّبقة، النَّوع، المستوى التَّعليميّ، العِرق؛ فهناك لَهجة الطَّبقة العليا، ولهجَة الذُّكور وأُخرى لِلإناث، ولهجَة الأُميين وأُخرى لِلمثقَّفين، ولَهجَة الحِرفيِّين، ولهجة اللُّصوص، ولَهجة أَصحاب المخدِّرات، وهلمّ جرا.

كَما أَصبحت مِثل هذِه التَّنوعات اللُّغويَّة (les variations linguistiques) مُؤشِراتٍ اجتِماعيَّة على طَبيعة المجتمع، فهي –مثلما يذكر ديكرو Ducrot– " إشارةٌ حساسةٌ لِلعديدِ مِن السَّيروراتِ الاجتِماعيَّة، إنَّها مادَّةٌ سَهلة نوعًا ما للدِّراسة والَّتي تَسمحُ باستِخلاصِ نتائِجَ عَن البُنية الاجتِماعيَّة structure sociale "[26].

وفي هذا الصَّدد أورِد مِثالاً في صيغةِ معادَلة عَن أحدِ التَّنوعات اللُّغويَّة بِمنطقة تِلمسان في هذا النَّحو:

قاعِدة التَّنوع: عامِل لِسانيّ + جُغرافيَّة + سنّ + طَبقة اجتِماعيَّة + مُستوى ثقافيّ + نوع (ذكر/أنثى) = شَكل لُغويّ.

تَطبِيقًا على الوِحدة الصَّوتيَّة [ق] في لَهجة تِلمسان، نحصّل على:

[ق] + لَهجة تِلمسان + وَسط المدينة + 50 سنَة + مُتوسطَة + مُتوسِّط + أنثى = [?] 70%

6- المفاهِيم المُجاورة لِلَّهجة: العاميَّة، الهَجين، الكريول، سابير:

6-1- العاميَّة:

القَصد مِن مُصطلح "العاميّة"[27] -الَّذي يَغلب استِعمالُه مرادِفًا للَّهجة- ذلك الشَّكل اللُّغويّ الشبيه بِاللَّهجة، غير أنَّه يَختلِف معه مِن حيث مُستواه الاستِعمالِيّ، الَّذي تَستخدِمه فئةٌ أو فِئاتٌ اجتِماعيَّة واسِعة لِلمعامَلات اليوميَّة والحميميَّة، وممَّن يقلُّ تكوينُها الثَّقافيّ، وأحيانًا تنزِل إلى الدركِ الأسفلِ مِن المجتمع، فتكثُر فيها التَّعابير السُّوقيَّة المبتذلَة غير المهذَّبة؛ ومِن ميزاتِها البِنويَّة، إسقاط المقاطِع، تَقديم أو تَأخير أَصوات الكلمَة، تداخُل الأصوات، الاقتِراض عناصِر أجنبيَّة، إكساب المفردات مَعاني جَديدة، كَالانحرافِ الدَّلالِيّ، الانحطاط الدَّلاليّ، التَّقلُّص الدَّلاليّ...؛ ويَبدو لي في خصوصِ هذا المصطلح أنَّ مَفهومَه يقترِبُ مِمَّا يُعبَّر عنه في الفرنسيَّة بـ: l'argot[28]

وهذا تصوُّرٌ يوضِّح عِلاقات: العاميَّة باللَّهجة وبِاللُّغة في التَّالي:

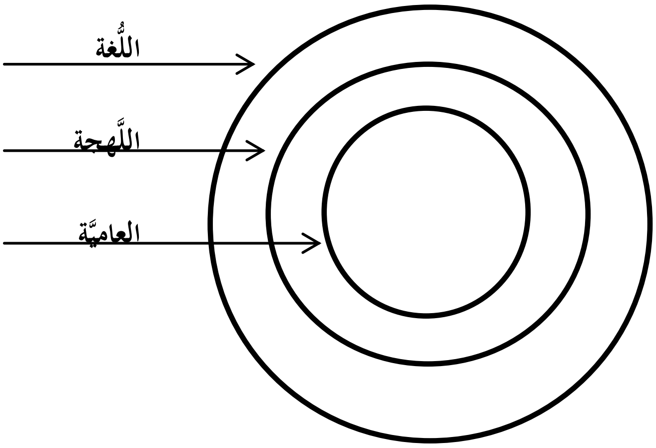

-مخطَّط لِعلاقةِ العاميَّة باللَّهجة و باللُّغة-

6-2- الهجين: (pidgin)

الهَجين أَو اللُّغة الهَجين "pidgin language"، مَفهومٌ يَجري إطلاقُه على حَالات الاحتِكاك اللُّغويّ و التَّعاملات التِّجاريَّة العاجِلة، ويُراد بِه:" اللُّغة المستعملَة مِن طرفِ أَفرادٍ ينتمون إلى مجموعتينِ لُغويَّتين مُختلِفتين و يَرغبون في التَّواصل فِيما بَينهُم بِغرضِ التِّجارَة والعَمل أو لِأيِّ غَرضٍ آخر. و يَرى البَعضُ أنَّ المصطلحَ مُشتقٌ بِشيءٍ مِن التَّحريف مِن اللَّفظِ الانجليزيّ Business بِمعنى العَمل أَو التِّجارَة وقَد ظَهر هذا المصطلح على أَلسِنةِ الصِّينيّين هكذا pidgin بَدلاً مِن Business "[29]، ولعلَّ هذا الشَّكل اللُّغويّ يُميِّز بَعضًا مِن تواصُلات بُلدان الخَليج العربيّ، حيثُ تَفِدُ العَمالةُ والخَدم مِن مُختلفِ بُلدان العالَم، مِن الهِند وباكِستان وبنغلاديش والفِلبين.

6-3- الكرِيُول: (créole)

يُستعمل هذا المصطلحُ مُعرَّبًا مِن اللَّفظ الاسبانيّ criollo في أَصلِه [30]، ويَعني " اللُّغة الَّتي تتكوَّن بينَ طائِفةٍ مِن النَّاس، وتَنتقلُ مِن الأجداد إلى الأولاد، وهي لغةٌ مبسَّطة، وتتألَّف عناصِرها مِن لغاتٍ مُختلِفة وقَد سَقط الإعراب مِنها، كاللُّغة الَّتي انتشرَت بينَ سكانِ المدن أثناء الفَتح العربيّ والأعاجِم الَّذين اعتنَقوا الإسلام. فتألَّفت لغةٌ لا هي بِالعربيَّة ولا هي بالفارسيَّة "[31]؛ والكريول –في الغالِب- هي خليطٌ مِن لُغات المحتلّ، الانجليزيّ أَو الفرنسيّ أَو البرتغاليّ، وهي أَيضًا، لُغاتٌ لِطائفةِ الرِّق المستجلبِين مِن بلدانِهم الأصليَّة، قَد صارَت هذِه الكريولات لُغات أُمومَة لَهم.

6-4- السابير: (sabir)

ويُطلق على هذا المفهوم بـ: "langua franca" ، و هو القَصد مِنه ذلك النِّظام اللُّغويّ الَّذي " يَقتصِر على بَعضِ القواعِد التَّأليفيَّة و مُفرداتٍ محدودَة ؛ و هي لُغاتٌ مُختلِفة العناصِر ، تنشَأ مِن أَثرِ اتِّصالات لجِماعتَين لُغويتين مُختلِفتَين ، لَيست لَهما وَسيلةٌ أُخرى للتَّفاهُم ، و يَكون ذلك على الخُصوص في المبادلات التِّجاريَّة "[32] ؛ و قَد وُجِد هذا الشَّكل مِن التَّواصل أوَّل مرَّة بِالحوض المتوسِّط، تمتزج فيهِ، الفرنسيَّة والاسبانيَّة و الإغريقيَّة والعربيَّة، ولا يُمثِّل لغةَ أُمومة للمَتواصلين بِه.

خاتِمة:

ما يُجتنى مِن الدِّراسة اللَّهجيَّة:

1 -تُعين اللِّسانيّ على تصوُّر وفَهم التَّطور اللُّغويّ للعربيَّة وتأصيلِ موادِها.

2- تُفيد الأبحاث على اللَّهجات العربيَّة القديمَة في مَعرفةِ مصادرِ القِراءات القُرآنيَّة المختلِفة الَّتي رُويَت لَنا غَير مَنسوبة إلى لهجةٍ مُعيَّنة.

3- دِراسة اللَّهجات العربيَّة في الوَطن العربيّ، يدلُّنا على مصادرِ تلك اللَّهجات، وأنَّ كثيرًا مِنها يَعود إلى لَهجات القبائِل العربيَّة القديمَة في شِبه الجزيرة العربيَّة.

4- تُعيننا على إثراءِ المعجمات العربيَّة بالمادَّة اللُّغويَّة.

5- إنجاز المعجم التَّاريخيّ للعربيَّة.

6- إعداد الأطالِس و الخرائِط اللَّهجيَّة لِبلدان الوطن العربيّ.

7- تُفيدُنا في صِياغة السِّياسات اللِّسانيَّة.

8- وَصف المجتمع لُغويًّا، والوُقوف على حقيقةِ الاستِعمالات اللُّغويَّة وميولات الجماعات اللُّغويَّة نحو استعمالٍ ما.

الإحالات:

1- ينظر: هلال، عبد الغفار حامد، اللَّهجات العربيَّة نشأة و تطورًا، ص 388.

2-voir: Dubois, dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, p 144.
3- ibid., p143.

ولا تَسلم تَسمية "اللَّهجة" في الممارسات اللِّسانيَّة العربيَّة الحديثَة مِن التَّعدد و الغُموض، فَمن ذلك: اللُّغة العاميَّة، اللُّغة الدارِجة، الكَلام العاميّ، الكلام الدارِج، العربيَّة العاميَّة، اللُّغة المحكيَّة، اللَّهجة الدارِجة...

4- ذكر المسدي في قاموسِه، أكثر مِن عِشرين مرادِفًا مُصطلحيًّا لِلِّسانيَّات، نحو:" اللانغويستيك، فِقه اللُّغة، عِلم اللُّغة، عِلم اللُّغة الحديث، عِلم اللُّغة العامّ، عِلم اللُّغة العامّ الحديث، عِلم فِقه اللُّغة، عِلم اللُّغات..."، ينظر: المسدي، قاموس اللِّسانيَّات، ص 72. على أنَّ الملتقى الثالث للِّسانيات المنعقِد بتونس سنة 1978م، حول ندوة «اللِّسانيَّات واللُّغة العربيَّة»، قَد وصَّى " باستِخدام مصطلح «اللِّسانيَّات» اسمًا لِهذا العِلم "، ينظر: عمر، أحمد مختار، المصطلح الألسنيّ العربيّ وضبط المنهجيَّة، ، ص 07. لذلك أرى أن نحذوَ سمت هذا الصَّوغ، فنستعملَ "اللَّهجيَّات" مصطلحًا للدِّراسة، قياسًا على اللِّسانيَّات، الصَّوتيَّات، الرِّياضيَّات، الطبيعيَّات...

5- تذكُر المعجمات التُّراثيَّة، لِمعاني لفظ "لَهجة" ما يلي:

" لَهج بالأمرِ، ولهَوَجَ، كِلاهما: أُولِع بِه واعتاده وأَلهجته بِه. ويُقال فلانٌ مُلهجٌ بِهذا الأمر، أي مُولعٌ بِه. واللَّهجُ بِالشيء: الوُلوع بِه. — اللَّهجة واللَّهَجَة: طَرف اللِّسان. — اللَّهجَة واللَّهَجَة: جَرس الكَلام. — ويُقال: فلانٌ فصيح اللَّهجة واللَّهجة وهي لُغته الَّتي جُبِل عليها فاعتادها ونشأ عليها. — اللَّهجة: اللِّسان، وقَد يُحرك، والفصيلُ يَلهج أُمَّه إذا تناول ضَرعها يمتصُّه "، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مج 03، ص 359 (مادة: لهجَ). و ابن فارس ، مقاييس اللُّغة، ج05 ، ص 215 و الزمخشري ، أساس البلاغة، ج02، ص 186 و 187.

6- ينظر: سيبويه، الكتاب، ج01، ص 59.

7- نفسه، ص 122.

8- ينظر: ابن جني، الخصائص، ج02، ص 10. وكذا باب في الفصيح يجتمع في كَلامِه لُغتان فصاعدًا، وباب في تركُّب اللُّغات، ينظر: المرجع نفسه، ج01، ص 370 و ص 374.

والنُّصوص مثل ذلك كثيرة، نحو ما سئِل أبو عمرو مرَّةً مِن أحدِهم:" أخبِرني عمَّا وَضعتَ ممَّا سمَّيته عربيَّة، أيدخل فيهِ كلامُ العرب كلُّه ؟ فقال: لا فقُلت: كَيف تَصنع فيها ما خالفتك فيه العَرب، وهم حجَّة ؟ قال أعمَل على الأكثر، وأُسمي ما خلفنِي لُغات "، ينظر: الزبيدي، طبقات النَّحويين واللُّغويين، ص 39.

9- ينظر: أنيس، إبراهيم، في اللَّهجات العربيَّة، ص 15.

10- ينظر: ابن فارس، الصاحبي في فقه اللُّغة وسننُ العربِ في كلامِها، ص 23.

11- ينظر: حامد هلال، اللَّهجات العربيَّة نشأةً وتطوُّرًا، ص 24. وتجري التَّفرقة أيضًا ههنا بين اللُّغويّ و النَّحويّ ، يذكر السيوطي (ت 911هـ) ما نصُّه:" اعلم أنَّ اللُّغويّ شأنُه أن يَنقلَ ما نَطقت بهِ العَرب ولا يتعدَّاه؛ وأمَّا النَّحويّ فشأنُه أن يتصرَّفَ فيما يَنقله اللُّغويّ، ويقيسَ عليه "، ينظر: السيوطي، المزهر في علومِ اللُّغة وأنواعها، ج01، ص 59.

12- مِن الآي الَّتي تُورد ذلك، قوله عزَّ وجلَّ:﴿ ومَا أرسَلنَا مِن رَسولٍ إلاَّ بِلسانِ قَومِهِ لِيُبيِّنَ لَهُم ﴾ إبراهيم: 04. وقوله عزَّ وجلَّ:﴿ واجعَل لِي لِسانَ صِدقٍ فِي الآخِرين ﴾ الشعراء: 84. وقوله أيضًا:﴿ وهَذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِسانًا عَربيًّا ﴾ الأحقاف: 12.وقوله أيضًا:﴿ ومِن آياتِهِ خَلقُ السَّماواتِ و الأَرضِ واختِلافُ أَلسِنتِكُم وأَلوانِكُم ﴾ الروم: 22.

13- ينظر: أنيس، في اللَّهجات العربيَّة، ص 15.

14- ينظر: فك، العربيَّة دراسات في اللُّغة واللَّهجات والأساليب، ص 09 و 10.

15- وقد عدَّ اليونانيُّون ما كان مُحيطًا بِلُغتِهم، نَقيق ضفادِع ونَعيق غِربان، كذا يجيء في كتابِ سيبويه إذ يقول:" واعلَم أنَّ قومًا مِن ربيعة يقولون: مِنهِمْ، أتبعوها الكَسرة ولَم يكُن المسكَّن حاجزًا حصينًا عِندهم. وهذِه لُغةٌ رديئة "، ينظر: الكتاب، 196/04. وفي موضِعٍ آخر، يقول:" وقالَ ناسٌ مِن بَكر بن وائِل: من أحلامِكِم، وبِكِم [...]وهي رديئةٌ جدًّا "، الكتاب، 197/04. ويذكُر ابن جني في المنصف، قوله:" ويلزمُ أبا الحَسن أن يَبنيَ مثل «فِعُل» مِن «ضَرَب»:ضِرُبٌ». قال: وهذا أفحشُ مِن بِنائِه.."، ينظر: ابن جني، المنصف، ج01، ص 180. وقَد عَقدَ ابن فارس (ت 395هـ) في الصاحبي، تلك المظاهِر اللَّهجيَّة مِن كشكشة وكَسكسة وعنعَنة، في بابِ اللُّغات المذمومَة، ينظر: ابن فارس، الصاحبي، ص 23.

16- ينظر: عبد التواب، المدخل إلى عِلم اللُّغة ومناهِج البحث اللُّغويّ، ص 167.

17- ينظر: وافي، عِلم اللُّغة، ص 185.

18- ينظر: عبد التواب، فصول في فقه العربيَّة، ص 72 و 73.

19- لِضيق المجال ههنا، ذكرتُ المعايِر بالإشارة فقط، ولاستِزادة، يُرجع إلى: السيد، علم اللُّغة الاجتِماعيّ مَفهومه وقضاياه، دار المعرفة الجامعيَّة، القاهرة، 1995م، ص 44-47.

20- ينظر: افيتش، ميلكا، اتِّجاهات البحث اللِّسانيّ، ص 115و 116.

21- ينظر: مصلوح، عن مناهج العمل في الأطالس اللُّغويَّة، ص 107.

22- نفسه، ص 108.

23- نفسه، الصفحة نفسها.

24- نفسه، ص 107.

25- ينظر: حماد، الخصائص الصَّوتيَّة في لَهجة الإمارات العربيَّة —دِراسة ميدانية- ص 12 و 13.

26- Oswald Ducrot et autre, dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, p85.

27- وقد ألَّف العرب المتقدِّمون كُتبًا في لغةِ العوام ولَحنِهم وسَقطاتِهم، ومِن ذلك: "ما تَلحنُ فِيه العَوام للكِسائيّ (ت 189هـ)، البَهاء فيما تَلحن فِيه العامَّة لِلفرَّاء (ت 207هـ)، ما تَلحن فيهِ العامَّة لأبي عبيدة (ت 208هـ)، إصلاحُ المنطِق لابن السِّكِّيت (ت 244هـ)، التَّكمِلة فيما يَلحنُ فيهِ العامَّة لِلجواليقيّ (ت 539هـ)، الجُمانَة في إزالةِ الرِطانَة لابن الإمام (ت 827هـ)،...ومِن المحدثين: لُغة الجرائِد للشَّيخ إبراهيم اليازجي، أخطاؤُنا في الصُّحف والدَّواوين لِصلاح الدِّين الزعبلاوي، عَثرات اللِّسان في اللُّغة لِعبد القادر المغربي،...

28- يذكر ديبوا (Dubois) في مُعجمه، أنَّ مصطلح " l'argot" يُشير إلى:" لهجةٍ اجتماعيَّة ذات مُعجميَّة مُقتضبة، طفيليَّة في سِماتِها...."، ينظر: Dubois, op.cit, pp 48-49.

29- ينظر: حنا، مُعجَم اللِّسانيَّات الحديثَة، ص 107.

30- يَدلُّ هذا اللَّفظ على " الرَّجل الأبيض الَّذي وُلِد في المستعمرات الأوروبيَّة القَديمة "، ينظر:
le Robert, dictionnaire Français-Espagnol Espagnol-Français, p 12.

31- ينظر: مبارك، مُعجم المصطلحات الألسنيَّة، ص 69.

32-voir: Dubois, op.cit, p 415.

المصادر و المراجع:

1- بالعربيَّة:

1-1- الكُتب:

القُرآن الكريم برواية ورش لِقراءة نافِع.

1- ابن جني، أَبو الفَتح عثمان، الخَصائص، تحقيق محمد عليّ النجار، ط02، دار الكتاب العربيّ، بيروت-لبنان، 1952م.

2- ....، المنصف، ج01، تح إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، ط01، إحياء التُّراث القديم، القاهرة، 1954م.

3- ابن فارس، أحمد، مقاييس اللُّغة، ج05، تح عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، القاهرة، د.ت.

4- ....، الصاحبي في فقه اللُّغة وسننُ العربِ في كلامِها، صححه ونشره المكتبة السلفيَّة، القاهرة، 1328هـ/1910م.

5- ابن منظور، أبو الفضل، لسان العرب، مج 03، دار الصادر، بيروت-لبنان، 1997م.

6- افيتش، ميلكا، اتِّجاهات البحث اللِّسانيّ، ط02، ترجمة سعد مصلوح ووفاء فايد، المجلس الأعلى للثَّقافة، القاهرة، 2000م، ص 115و 116.

7- أنيس، إبراهيم، في اللَّهجات العربيَّة، ط03، مكتبة الأنجلو المصريَّة،القاهرة، 1965م.

08- باكلا، محمد حسن وآخرون، مُعجم مُصطلحات عِلم اللُّغة الحَديث، عربي-انكليزيّ، انكليزيّ-عربيّ، ط01، مكتبة لبنان، لبنان، 1983م.

09- حماد، أحمد عبد الرحمان، الخصائص الصَّوتيَّة في لَهجة الإمارات العربيَّة –دِراسة ميدانية-، دار المعرفة الجامعيَّة، الإمارات، 1985م.

10- الحمزاويّ، محمَّد رشاد، المصطلحات اللُّغويَّة الحَديثة في اللُّغة العربيَّة، معجم عربيّ-أعجميّ وأعجميّ-عربيّ، الدار التونسيَّة للنَّشر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987م.

11- حنا، سامي عياد وآخرون، مُعجم اللِّسانيَّات الحَديثة، انكليزيّ-عربيّ، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، 1997م.

12- الزمخشري، جار الله، أساس البلاغة، ج02، تح محمد باسل عيون السود، منشورات دار الكتب العلميّة، ط01، بيروت-لبنان، 1998م.

13- سيبويه، أبو بشر عمرو، الكِتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط03، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1408هـ/1988م.

14- السيِّد، صبري إبراهيم، علم اللُّغة الاجتِماعيّ مَفهومه وقضاياه، دار المعرفة الجامعيَّة، القاهرة، 1995م.

15- السيوطي، جلال الدِّين، المزهر في علومِ اللُّغة وأنواعها، ج01، تح محمَّد أحمد جاد المولى بك وآخرون، ط03، مكتبة دار التُّراث، القاهرة.

16- عبد التواب، رمضان، المدخل إلى عِلم اللُّغة ومناهجِ البحث اللُّغويّ، ط01، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1982م.

17- ....، فصول في فقه العربيَّة، ط06، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1420هـ/1999م.

18- عبد الغفَّار، حامد هلال، اللَّهجات العربيَّة نشأةً وتطوُّرًا، ط02، مكتبة وهبة، القاهرة، 1414هـ/1993م.

19- فك، يوهان، العربيَّة دراسات في اللُّغة واللَّهجات والأساليب، تر رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1400هـ/1980م.

20- مبارك، مبارك، مُعجم المصطلحات الألسنيَّة، فرنسيّ-انكليزيّ-عربيّ، ط01، دار الفكر اللبنانيّ، بيروت، 1995م.

21- المسديّ، عبد السلام، قاموس اللِّسانيَّات، عربيّ-فرنسيّ وفرنسيّ-عربيّ، مع مقدِّمة في علم المصطلح، الدار العربيّ للكتاب، تونس، 1984م.

22- المنظمة العربيَّة للتَّربيَّة والثَّقافة والعلوم، المعجم الموحَّد لِمصطلحات اللِّسانيَّات،انجليزيّ-فرنسيّ-عربيّ، ط02، مكتب تنسيق التَّعريب، الدار البيضاء، 2002م.

23- وافي، علي عبد الواحد، عِلم اللُّغة، ط09، دار النهضة، القاهرة، 2004م.

24- وهبة، مجدي والمهندس كامل، معجم المصطلحات العربيَّة في اللُّغة والأدب، ط02، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م.

25- يعقوب، إميل وآخرون، قاموس، المصطلحات اللُّغويَّة والأدبيَّة، عربي-انكليزيّ-فرنسيّ، ط01، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، 1987م.

1-2- المجلات والدَّوريات:

1- شاني، عبد الرسول، مُعجم علوم اللُّغة، انجليزي-عربيّ، المنظَّمة العربيَّة للتَّربيَّة والثَّقافة والعلوم، مكتب تنسيق التَّعريب، اللِّسان العربيّ، مج 15، ج 02، الرباط، 1977م.

2- عمر، أحمد مختار، المصطلح الألسنيّ العربيّ وضبط المنهجيَّة، عالم الفكر، المجلد العشرون، عدد 03، الكويت، 1989م.

3- الفاسي الفهري، عبد القادر، المصطلح اللِّسانيّ معجم انجليزيّ-عربيّ، المنظَّمة العربيَّة للتَّربيَّة والثَّقافة والعلوم، مكتب تنسيق التَّعريب، اللِّسان العربيّ، عدد28، الرباط، 1987م.

4- مجمع اللُّغة العربيَّة، مجموعة المصطلحات العلميَّة الفنيَّة، مج 04، الهيئة العامَّة لشؤون المطابع الأميريَّة، القاهرة، 1401هـ/ 1981م.

5- هليل، محمد حلمي، اللُّغويَّات التَّطبيقيَّة ومُعجمها، المنظَّمة العربيَّة للتَّربيَّة والثَّقافة والعلوم، مكتب تنسيق التَّعريب، اللِّسان العربيّ، عدد 22، الرباط، 1983م.

2- بالأعجميَّة:

1-Dubois. J et autres, dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, LAROUSSE, 1994.

2-Ducrot. O et autres, dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, édition du seuil, 1972.

3-Robert, dictionnaire Français-Espagnol, Espagnol-Français, Harper Colins Publishers, 1ère édition, 1994.

القراءات الشاذة و الاحتجاج بها في العربية

الأستاذة : فايزة حريزي
قسم اللّغة العربية وآدابها
جامعة خميس مليانة

المقدمة:

تعتبر القراءات القرآنية " كعلم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزوا لناقله "[1] ، و كما قيل " اختلاف ألفاظ الوحي في الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد و غيرها "[2] ، ذات الأهمية البالغة في الدراسات الشرعية والدراسات اللغوية ، إنّ القراءات مصدر مهم من مصادر جمع اللّغة والاستشهاد وللقراءات أركان ثلاثة تواتر، وموافقة الرسم، ووجه من وجوه العربية [3]. والقراءات منها ما هو صحيح متواتر وهي التي سبعها ابن مجاهد من خلال كتابه السبعة وهذه القراءات أئمتها سبعة و هناك الشاذ وهو عند العلماء ما اختل فيه ركن من الأركان الثلاثة ، وهذه الأخيرة اختلف في حجيتها في العربية من جهة اللغويين والنحاة و الإشكال الذي يطرح هنا، ما القراءات الشاذة لغة واصطلاحا و ما أقسامها المختلفة ولماذا ؟، وهل يجوز الاحتجاج بها في العربية ؟ ، و إذا كان جائز الاحتجاج بها في العربية ما هي مواقف المدارس النحوية منها ؟.

ويتبن كل هذا من خلال مايلي.

1-تعريف القراءات الشاذة :

لغة : تحمل المعاني التالية :التفرق والتفرد و الغربة و القلة و المخالفة .

أ-التفرق والتفرد : قال ابن فارس :" الشين والذال يدل على الانفراد و المفارقة"[4] .

*ويقول الجوهري : " شذّ ، يشذ ، شذًا ، وشذوذا ، انفرد عن الجمهور فهو شاذ" [5].

ب-الغربة والندرة : يقول السيوطي "معرفة الحواشي و الغرائب والشواذ و والنوادر ، وهذه الألفاظ متقاربة، وكلها بخلاف الفصيح"[6].

ج-القلة :" الشاذ الذي يكون وجوده قليلا ، لكن لا يجئ عن القياس "[7].

د-المخالفة: قال صاحب التعريفات " الشاذ ما يكون مخالفا للقياس من غير النظر إلى قلة وجوده و كثرته "[8].

وهذا المعنى اللغوي له علاقة بالمعنى الاصطلاحي لأنّ القراءة الشاذة تحمل هذا المعنى وهي"التي انفردت وخرجت عن الجماعة "[9].

والشاذ عند النحاة : هو "ما يكون مخالفا للقياس من غير نظر إلى قلة وجوده و كثرته"[10].

اصطلاحا :وهناك مجموعة من التعريفات تقترب أحيانا وتبتعد أحيانا أخرى إلا أنّ الاتصال والاشتراك في المعنى العام يبقى قائما ومن بين هذه التعريفات ومنها :

أ- ابن الجزري يعرفها بقوله: " هي ما اختل فيها ركن من هذه الأركان الثلاثة و أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء أكانت من السبعة أو عمن هو أكبر منهم هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف و الخلف ، صرح بذلك الإمام أبو عمرو والداني و صرح به في أكثر من موضع الإمام أبو محمد المكي بن أبي طالب وكذلك الإمام العباس أحمد بن عمار المهداوي و هو مذهب السلف الذي لا يعرف عن أحد منهم خلافه "[11].

ب-ويعرفها الحافظ أبو عمرو بن صلاح شيخ الشافعية : "ما نقل قرآنا من غير تواتر واستفاضة بالقبول من الأمة " [12].

جـ- ويعرفها السيوطي : "ما يصح سنده"[13]، و هو المرجح في أغلب المصنفات و يعتمد في أغلب المصنفات كمبدأ للحكم على شذوذ القراءة من عدمه ، فمعيار الرسم يؤخذ بعين الاعتبار في مقابل المعايير الأخرى للحكم على شذوذ القراءة من عدمه وأخذ بهذا الكثير من رواد هذا المجال [14] .

2- ضوابط القراءات الشاذة :تتجسد هذه الضوابط فيما يلي :

أ-الحكم على شذوذ القراءة لمخالفتها رسم المصحف ، والرسم كما هو معروف محصور في ستة قواعد: الحذف ، الزيادة ، التبديل ، الهمز ، الفصل ، والوصل[15].

وهو العنصر الأساسي من بين العناصر التي ينبغي توفرها في قبول القراءة أو رفضها و تشذيذها وتضعيفها .

و هذا ما يؤكده الدكتور أحمد عزوز بقوله : "أنّ موافقة القراءات لهجاء الكلمات في المصاحف العثمانية، صارت مقياسا لقبولها وصحة روايتها و نقلها و قد صارت موافقة خط المصحف أحد أركان القراءة فما وافق خط المصحف قرئ به وصح نقله و ما كان غير ذلك اعتبر من الشاذ"[16].

ب - الحكم على شذوذ القراءة لضعف السند :

وهناك الكثير من النصوص التي تدل على ضرورة السند و أنّ نقصه وهو حكم بالشذوذ على القراءة بحيث يعتبر السند ركن من أركان القراءة الصحيحة وتوفره ضروري لصحة القراءة من عدمها ، ومقصودها هو روايته الطريق الموصلة إلى القراءة [17]، ومن خلاله يمكن الحكم على القراءة بالشذوذ إذا حدث انقطاع أو جهل للراوي أو قلة الرواة [18].

جـ-الحكم بشذوذ لعدم موافقة العربية: ويقصد بها مجئ القراءة على الفصيح من لغة العرب وكل قراءة وجد لها وجه في العربية فهي صحيحة وكل قراءة عدم موافقتها وجه من وجوه العربية وبأية صفة فهي ترمى بالشذوذ والضعف[19] .

3-أقسام القراءات الشاذة :

تنقسم القراءات الشاذة إلى عدة أقسام وفقا لمواقف العلماء منها وتوجيها تهم ومذاهبهم و غيرها من وجوه التباين بينهم ومنها الأقسام التالية :

1-ثلاثة أقسام و صاحب هذا الرأي أحمد البيلي [20] :

أ-القسم الأول تمثل في القراءة المشهورة و هي الموافقة للعربية و صحيحة السند ، ولكن لم تبلغ درجة التواتر .

ب-القسم الثاني القراءة الأحاد: وهي قسمين أولها موافق للعربية ومخالف للرسم سواء صح سنده أو لم يصح .

جـ -القسم الثالث القراءة المدرجة وهذا نوع هو الذي زيد في الآية الكريمة من باب التفسير .

2-هناك من يرى أنّها أربعة أقسام وهو رأي أغلب العلماء[21]:

أ- قسمها الأول ما وافق الرسم و العربية ولم يصح في النقل بشكل يفيد القطع .

ب-القسم الثاني ما وافق الرسم وصح نقله وله وجه في العربية .

جـ-القسم الثالث ما صح نقله ووافق العربية ولكن مخالف للرسم.

د-القسم الرابع موافق الرسم ولم ينقل البتة .

3-رأي عبد الحليم قابة[22] بحيث أعطى تقسيما جديدا للقراءات الشاذة انطلاقا من دراستة للتقسيمات الأخرى و هي عنده كما يلي :

1- القسم الأول ضمنه أربعة أقسام وفقا لتقسيم تقضيه القسمة العقلية :

أ- ما صح سنده ووافق الرسم و العربية إلا أنّه لم يشتهر و لم يتلق القبول وعدّ من الشاذ أو الغلط .

ب- ما صح سنده وخالف الرسم .

ج- ما صح سنده و خالف العربية

د- ما صح سنده وخالف الرسم والعربية كليهما .

2-القسم الثاني إمكانية تقسيمه إلى أربعة مع إبدال الصحة بالضعف:

أ-ما ضعف سنده ووافق الرسم والعربية إلا أنّه لم يشتهر

ب-ما ضعف سنده وخالف العربية

ج- ما ضعف سنده وخالف الرسم

د- ما ضعف سنده وخالف الرسم والعربية كليهما.

4-ابن عطية وهو يجعلها قسمان[23] :

أ-القسم الأول:المقبول المعتمد روايته وهو المروي عن الصحابة والعلماء التابعين ، أي من الشاذ عن الصحابة رضوان الله عنهم.

ب-القسم الثاني المردود لا يوثق به وهو المأثور عن أبي السمال العدوي ومن قاربه وذكر ابن عطية أنّ هذا النوع لا يوثق به.

5- **الرأي الخامس** :وهو رأي ابن جنّي والذي يرى أنّها ضربان كما ورد في كتابه المحتسب في تبيين شواذ القراءات والإيضاح عنها[24] .

و قد اشتهرت هذه القراءات الشاذة مثل القراءات السبعة عن طريق أئمتها ومن بين هؤلاء الأئمة الحسن البصري الإمام الأعمش، ابن محيص، اليزيدي، ابن مسعود ، والأشعري[25]

ولكن هذه القراءات لها أهمية بالغة أقرها أهل التخصص من متقدم ومتأخر ، لأنّها في كثير من الأحيان يذكروها المفسرون إلى جانب القراءات المتواترة لأنّها تزيد من الإيضاح والكشف عن جوانب بعض القراءات الصحيحة ، إضافة إلى تبيين بعض الأحكام الواردة في الشرع وكذلك تثري اللغة وقواعدها من خلال التوجيهات والنحوية والصرفية والبلاغية والدلالية التي تمارس فيها ،وزيادة توضيح المعنى باعتبارها لا تبتعد كثيرا عن القراءات المتواترة[26].

الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية :

1-إجازة الاحتجاج بها :الاحتجاج بها في العربية أخذ عدة مواقف ما بين التأييد والرفض حتى وصلت في بعض الأحيان إلى حد الاضطراب ، وكان هذا انطلاقا من منظور خاص يستند إلى قاعدة معينة و القراءات الشاذة و إن لم يخصص لها كتاب في هذا الصدد من حيث علاقتها بالعربية من ناحية الاحتجاجية إلا أنّها مبثوثة في الكتب اللغوية منذ مطلع الدراسات النحوية واللغوية وكتاب سيبويه خير دليل على ذلك فهو يحمل الكثير من القراءات المتواترة والشاذة بحيث أخذت نصيب من هذا الكتاب من باب الحجة على ما ورد من قواعد نحوية مثل بقية المصادر الاستشهادية الأخرى ، وتوجيه المسائل النحوية الواردة في هذا الكتاب ، ولكن العزوف الذي يظهر من قبل الدارسين عن هذا و هو ملموس من خلال البحوث التي تتضمنها المكتبات فالتأليف قليل فيها إذا ما قورن

بالمجالات الأخرى أو القراءات المتواترة فقط ، يرى عبد الصبور شاهين أن هذا راجع " لصعوبة تأديته ، وعسر مواصلة البحث في دروبه ومتماته [27].

ما يلمس في الدراسات التي لها علاقة بالشاذ من القراءات القلة والتشعب باعتبار صعوبة هذا المجال من البحث ، ولذلك قل رائدوه و" القراءات الشاذة في منزلة المشهوره من حيث الفصاحة ، بل تكون أفصح منها ، ولكن هكذا شاء لها القدر ، أن تندرج في مستوى الشذوذ"[28].

و ما يمكن قوله عن علاقة هذه القراءات بالعربية بأنّها تمثلها أحسن تمثيل ، كما يقول عبد الصبور شاهين :"وخير ما يمثل اللغة العربية الفصحى و لهجاتها القديمة ، بجميع ظواهرها الشائعة المحدودة ، فليس من شاردة و واردة في لهجات العرب إلا ولها من الشواذ شاهدا أو أكثر "[29]، ولكن حتى كما يقول كريم حسن الناصح : "إذا راجعنا تراجم أكثر القارئين بالشاذ ، نجدهم أناسا فضلاء علماء ، لم تصانعهم الأقدار ، وقد من عليهم من هم دونهم بالمنزلة والملاحظ أنّ معظم القراءات ليست شاذة بالمعنى الحقيقي للشذوذ وإنّما رميت بالشذوذ ، لأنّها كانت خلاف معهود العامة ، وخلاف ما يعرفه شيوخ إقراء الأمصار "[30].

وهذا ما جعل بعض اللغويين أمثال سيبويه وابن جنّي والمبرد وغيرهم ، يحتجون بها في العربية ، والاهتمام بها لم يتوقف عند هؤلاء بل تجاوز ذلك إلى غيرهم من الدعاة والقراء بحيث اهتموا بإعرابها و توجيهها وإخراجها على ما يطمئن القلوب إليها .

وهدف حسب ما يقول بأنّه "استغلال النحاة والقراء يحتجون بها فوجهوها وكشفوا عن عللها وحججها على اختلاف الفريقين في النزعة والمنهج والتناول "[31]، والاحتجاج حسب بعضهم جائز في العربية ومن بينهم الدكتور المكي الذي يقول :" اتفق العلماء على جواز تدوين القراءة وتعليمها وتعلّمها والاحتجاج بها في ميادين الدراسات اللغوية والاستعانة بها متى صح سندها " [32].

والى جانب هذا "كان اللغويون يستشهدون بالقراءة ونحوها فيما يشرحون من لغوياتهم وكان الأدباء يغترفون من هؤلاء في أشعارهم ولشرح قصائدهم ، لم لا ؟،وقد أجمع الناس على أنّ اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن " [33]، وكذلك يقر السيوطي بهذا من خلال قوله : " كل ما ورد أنّه قرءِ جاز الاحتجاج به في العربية سواء أكان متواترا أم أحادا أم شاذا، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياسا معروفا ، ولو خالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه ، وما ذكرته من الاحتجاج بالقراءة الشاذة لا أعلم فيه خلافا بين النحاة "[34].

ويقول الدكتور ا أحمد عزوز :" الاحتجاج بالقراءة الشاذة لا أعلم له خلاف بين النحاة و إن اختلف في الاحتجاج بها في الفقه"[35]، و يرى الدكتور علّم الدين الجندي:" أنّ الاحتجاج بها في العربية يكون من دون شروط بحيث أنّ القراءة الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياسا معروفا ولو خالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه ، ومن جهة نظر أنّ القراءات ما هي إلا صورة نابضة بالحياة لكثير من لهجات القبائل ولكن هذه القبائل ، لم تنل نصيبا من المجد والجاه فحكموا بشذوذ قراءاتهم التي هي صورة حية للهجاتهم وان شذت فهي أقوى من رواية الشعر حين نقلوا إلينا إشارات لهجية وقع فيها التحريف تارة والتصحيف تارة أخرى ، يستدل في هذا بقول القراء:الكتاب أعرب و أقوى في الحجة" [36]. و لأنّ الاحتجاج بالقراءات الشاذة أمر لا يخالف حتى وإن كانت الأدّلة على درجة من حجية لأنّ كتب التراث المتصلة بالدراسات اللغوية تستشهد بالشاذ في المسائل اللغوية ، وموقف النحاة من بعض القراءات المخالفة لقواعدهم وهم يتعاملون مع القراءات الشاذة في هذا الجانب على حسب الأصول التعقيدية التي قعدها النحاة ، فلكل مدرسته منهجها فما وافق المنهج فهو حجة وما هو مخالف المنهج فيخرج على ضرب التأويل[37].

والغرض من إجازة الاستشهاد بهذه القراءات هو اغناء الدرس اللغوي مما يفتقر إليه وهذا ما يوضحه الشيخ المقرئ محمد فهد الخروف: "مما لاشك فيه أنّ القراءات منها والشاذ القرآنية متواترة قد أغنت الدرس النحوي غنى يكاد يفوق حدّ الوصف ، و أنّها جعلت اللغويين والنحاة يجدون في التنقيب عن تراثهم ، وعلى الأخص منه الشاذ ،كما لها ارتباط وثيق بعلم التفسير من حيث المعاني في القراءات الشاذة التي يعدها المفسرون موضحة ومفسرة لوجوه القراءات الصحيحة و محل ذلك كتب التفسير".[38]

2-موقف البصريين من الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية:

كان اهتمامهم بالغا بالقراءات القرآنية بصفة عامة وكانت تعتبر من مصادر الاحتجاج الأولى على كل ما يراد الاحتجاج له في بناء القراء وهذا الاهتمام نابع من شخصية الجيل الأول من النحاة الذين كان أغلبهم قراء بالدرجة الأولى ولذلك كان الاستشهاد بالرصيد المملوك أولى عندهم .

ولقد عرف البصريون بنظرتهم إلى الشاذ من القرآن بالتشدد في قبوله وكانوا يضعون شروطا وقواعد لقبوله فما وافق هذه الشروط فهو مقبول و ما خالف ذلك يرمى و يطعن فيه وهذا ما يؤكده مهدي المخزومي "من أنّ الاحتجاج بالقراءات الشاذة و القياس عليها ، واعتبارها أصلا من أصول الاستشهاد فهو ليس من منهج البصريين ،لأنّهم لم يكونوا يعتبرون من القراءات حجة إلاّ موافقا لقواعدهم و أقيستهم و أصولهم المقررة ، فإن خالفتها ردها " [39].

وكما يقول الدكتور التواتي بن تواتي على البصريين : " أنّهم لم يستقرئوا كل القراءات القرآنية التي أفصح اللغات العرب حتى و إن شذت وهذا رأي إذا أمكن الركون إليه إلا أنّه لا ينطبق على جميع النحاة القدماء" .[40]

3- موقف الكوفيين من الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية : وكان منهج الكوفيين يتميز باتساع والتساهل ، وأقل تشددا في الأخذ عن العرب واستشهاد بلغتهم ويمثل منهجهم في الاحتجاج بالقراءات متواترها وشاذها[41].

وكانت القراءات تعتبر مصدر هام من مصادر النحو الكوفي ، بعكس البصريين الذين كانوا قد وقفوا منها موقفهم من سائر النصوص اللغوية ، وأخضعوها لأصولهم و أقيستهم ، فما وافق منها أصولهم بالتأويل قبلوه و ما أباها رفضوا الاحتجاج به ووصفوه بالشواذ كما رفضوا الاحتجاج بكثير من الروايات اللغوية وعدوها شاذة تحفظ ولا يقاس عليها[42] .

ويقول إبراهيم السلطان :" إنّ الكوفيين اعتدوا بالقراءات التي وصلت إليهم سواء كانت من القراءات السبع أم غيرها ، فقبلوها واحتجوا بها ، و بنوا ما جاء فيها كثيرا من أصولهم و أحكامهم ، فلم يرفضوا ، أو يغلطوا فيها شيئا وان كانت لا تخضع لمقاييس البصريين أو لا تندرج في أصولهم واكتسبت هذه النصوص ، وبخاصة تلك النصوص ، وأعني بها القراءات الأهمية و الهيبة ، من الوحي الذي نزل بها على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبخاصة تلك النصوص التي لها أهمية دينية أو تاريخية أو تراثية ، مما جعلهم لا يرون شيئا يسمعونه عن العرب احتراما لذلك الموروث ، فينوب على البيت أو البيتين أو قراءات و إن كانت شاذة "[43].

وإن كان موقف الكوفيين من القراءات أقل تشددا ومتساهلا إذا ما قورن بالبصري في الاحتجاج بالقراءات الشاذة بحيث قبلوها إلى جانب المتواتر من القراءات وبنوا عليها قواعدهم و أصولهم ومن بين هؤلاء النحاة والذين كانوا كذلك قراء وبالدرجة الأولى الكسائي والفراء وثعلب .

4-موقف البغداديين من الاحتجاج بالقراءات الشاذة:

يظهر موقف البغداديين من خلال رواد المدرسة البغدادية والتي كان منهجها انتخابي وأهم شخصيات التي مثلت المدرسة البصرية أبو علي الفارسي وابن جنّي ومن خلالهما يظهر البغداديين من الاحتجاج بالقراءات الشاذة .

أبو علي الفارسي: كان الفارسي ممن أكثروا من الاستشهاد بالقراءات القرآنية وكان عازما على تأليف كتاب القراءات الشاذة بها ويدافع عنها ، إلاّ أنّ الأجل عاجله وتولى عنه ذلك ابن جنّي ، وعزمه هذا يدل على مكانة القراءات الشاذة عنده .

واعتداده بالشاذ راجع لإيمانه العميق كغيره من اللغويين بأنّها من لغة العرب، لا مانع من الاستشهاد بها وموقفه لا يمكن حصره في اتجاه واحد وإنّما حصره في اتجاه واحد و إنّما ترواح بين التضعيف والتوجيه والدفاع والتلحين والخطأ[45] .

ابن جنّي: مذهبه هو مذهب اختياري ،إلاّ أنّ هناك من يرى أنّ مذهبه بصري وممن أقروا ببصريته الدكتور فاضل السامرائي يقول:"ابن جنّي هو بصري المذهب وليس كوفي "[46] .

و موقفه كان تثمين الشاذ ،حيث انتصر للشاذ من القراءات انتصارا يشهده التاريخ من خلال كتابه الخالد المحتسب في تبيين شواذ القراءات والإيضاح عنها ، وهو احتج بها ودافع عنها وهذا الموقف كما يوضحه محمود أحمد الصغير:"صادر عن إيمانه العميق بقوة الشاذ "[47] .

ودعم موقفه هذا بكل ما يملكه من قوة ومقدرة علمية وثقافية و كان يحاول أن يوجهها وأن يعثر لها عن وجه في العربية وهذا ما جسده في كتابه المحتسب

رغم ما رميت به هذه القراءات من شذوذ و عدم صحة قرأ نيتها والقراءة بها إلا أنّها وجدت لها مكانة في العربية من ناحية الاحتجاج بها و استخراج القواعد منها ودعم بعض التفاسير الشرعية ولكن المكانة الأرقى التي أخذتها كانت عند البغداديين نتيجة التساهل الذي لوحظ على المذهب وكذلك الاختيار والانتخاب الذي كان السمة الأغلب وكذلك وجود ابن جنّي الذي كان من رواد هذا المذهب وليس هذا وفقط بل ألف في القراءات الشاذة وانتصر لها ودافع عنها بكل ما أتي من قوة.

المصادر والمراجع:

1-قدري بن محمد بن عبد الوهاب ، الآداب والمنح الربانية في أصول الشاطبية ودرة المضية، إدارة الدراسات الاسلامية الكويت ،ط2، 2007،ص:141
2- محمد بن عبد محمد الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ،تح : أبو الفضل ابراهيم ،دار احياء الكتب ، القاهرة ، ط3 1984، ج1،ص:31
3-عبد اللطيف الخطيب ، معجم القراءات ، دار السعد ، القاهرة ، د،ط/د،ت ،ج1،ص:120
4-معجم مقاييس اللغة، مادة شذ
5-اسماعيل بن حماد الجوهري ،الصحاح ،تح :اميل يعقوب ومحمد طريقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1/د،ت ،مادة شذ.
6-عبد الرحمان السيوطي ،المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، تح : محمد الوالي وعلي السخاوي ، ومحمد إبراهيم ، دار الجيل ، بيروت ، ج1، ص:.223
7-أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي ، الكليات، تح :عدنان دروس ومحمد المصري،دار الرسالة ،بيروت، ط1، 1412، 1992، ص: 528
8-علي بن محمد الشريف الجرجاني ، التعريفات ، لبنان ،د،ط، 1985،ص:121
9-سامي عبد الفتاح هلال ، القراءات الشاذة نشأتها ومعاييرها ، ص:86
10-ابراهيم أنيس ، معجم الوسيط ن دار المعارف ،ط3،مادة شذ.
11-محمد بن محمد الجزري، النشر في القراءات العشر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان : د،ط/ د،ت ، ج1، ص : 09
12-محمدبن محمد الجزري،منجد المقرئين و مرشد الطالبين ،المطبعة الوطنية الاسلامية ،القاهرة، 1350، ص:20
13-المرجع نفسه ، ص: 20
14-مكي بن أبي طالب القيسي ، الابانة في معاني القراءات ، تح : عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، القاهرة ،د،ط/ د،ت ص:18
15-عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، رسم المصحف العثماني و أوهام المستشرقين في القراءات القرآنية وروافدها ودوافعها، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط4/1412، ص:5
16-محمد السيد أحمد عزوز ، موقف اللغويين من القراءات القرآنية الشاذة ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، ط1/1412، ص :27
17-شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد ، لطائف الإشارات لفنون القراءات ، تح:عامر السيد والدكتور عبد الصبور شاهين ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية للتراث ،القاهرة ، د،ط/1392 ، 1972 ،ص:68 .
18-عبد الصبور شاهين ، تاريخ القرآن ، المرجع السابق ، ص:201
19-عبد الصبور شاهين ،القراءات القرآنية في ضوء علم الحديث،ص:07
20-أحمد البيلي ، الاختلاف في القراءات ، دار الجيل ، بيروت، السودانية ، الخرطوم ، ط1، 1988،ص:110
21-عبد الحليم قابة ، القراءات القرآنية ن تاريخها ، ثبوتها ، معانيها و حجيتها ، دار الغرب الإسلامي ،الجزائر ،ط1،ص:202
22-عبد الحليم قابة ،القراءات القرآنية و التواتر ،رسالة دكتوراه ،جامعة الجزائر ،ض:289
23-حمدي سلطان حسن أحمد العدوي، القراءات الشاذة دراسة صوتية ودلالية ، دار الصحافة للتراث ،مصر ط1، 1427، 2006 ،ج1،ص:49
24-أبو الفتح بن جنّي، المحتسب في تبيين شواذ والقراءات والإيضاح عنها ، تح :محمد عبد عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ،ط1، 1429 ، 1998، ج1،ص:102
25-سامي عبد الفتاح جلال ، القراءات سيراتها ومعاييرها ، ط1، 2001 ،ص: 78
26-تاريخ القرآن ، المرجع السابق ، ص:10
27-علي ناصر غالب ، المبرد و القراءات ، مجلة المورد ، 2001 ، مج :29
28-عبد الصبور شاهين ، القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ص:80
29-المرجع نفسه ، ن ص
30-كريم حسين الناصح ، نظرية المعنى في الدراسات النحوية ، المرجع السابق ، ص: 130
31- موقف اللغويين والنحويين من القراءات الشاذة، المرجع السابق، ص: .31

32- أبو محمد المكي بن أبي طالب القيسي، وجوه القراءات السبع وعللها وحججها: تح: محي الدين رمضان، مؤسسة الرياء، الرسالة، بيروت، ط2، 1997، ص: .112
33- النحو والقراءات، المرجع السابق، ص: .53
34- السيوطي، الاقتراح، المرجع نفسه، ص: .85
35- احمد عزوز، موقف اللغويين والنحويين من القراءات القرآنية الشاذة، ص:.36
36- علم الدين الجندي ، (مجلة المجتمع (مقال الصراع بين القراءة و النحاة)، القاهرة، ج1، ص: .143
37- احمد محمد أبو عريش الفامسي، اثر القراءات الشاذة في الدراسات النحوية والصرفية، مج: 1409، .1989
38- كتاب الميسر في القراءات الأربعة عشر، فهد خروف، مقدمة الكتاب (ص د).
39- مهدي المخزومي، المدرسة الكوفية ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ص: .314
40- المرجع نفسه.ن ص.
41- خديجة الحديثي، المدارس النحوية، دار الأمل، الأردن، ط3، 2001، ص: .138
42- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ص: .384
43- إبراهيم سلطان عواد، المساعدة ، الاستدلال بالقراءات القرآنية، (في كتاب سيبويه)، جامعة آل الين، بحث أكاديمي ، د ت، د ط، ص: .23
44- المحتسب، المرجع السابق، ج1، ص: .34
45- أبو علي الفارسي، الحجة في القراءات السبعة، تح: بدر الدين القهوجي، دار المأمون، دمشق، د،ط، 1984، ص: .259
46- عبد الفتاح شبلي، أبو علي الفارسين دار المطبوعات الحديثة، محددة، ط1، 1409ن 1984، ص: .242
47- محمد احمد الصغير، القراءات الشاذة وتوجهها النحوي، المرجع السابق، ص: .235

تفسير العلامة الإعرابية في جملة النداء

الدكتور: خالد موسى مصطفى العجارمة
المملكة العربية السعودية – جامعة تبوك

ملخص

جاءت هذه الدراسة محاولة لتفسير العلامة الإعرابية في جملة النداء، إذ تتناول هذه الدراسة جملة النداء بين القدماء والمحدثين، وتحاول تعليل العلامة الإعرابية، فتدرس بنية جملة النداء عند القدماء وآراءهم فيها، ومطابقة ذلك مع ما قاله التحويليون من وجود بنيتين للكلام، فجاءت هذه الدراسة محاولة لتفسير الحركة الإعرابية في آخر المنادى.

والذي تراه الدّراسة أن المنادى منصوب بالتحوّل الأسلوبي؛ لأن العربي عندما يغيّر في أسلوبه يغير في التركيب الأسلوبي للنمط اللغوي. ويظهر أثر التّحويلات الأسلوبيّة ماثلا بين الخبر والإنشاء في النحو العربي من خلال النظر في حركة إعراب المنادى أو بنائه.

Abstract

The aim of this study is to explain the syntactic mark of the vocative, as it tackles the structure of the vocative as viewed by the old and modern grammarians in an attempt to find a reason behind this syntactic mark. In doing so, the study discusses the old grammarians' views of the vocative statement structure, comparing these views with the transformational views which argue about the existence of two structures of speech: the Deep Structure and the Surface Structure. Seeking the explanation of the syntactic mark on the last letter of the vocative, the study shows that the vocative is in the accusative as a result of the stylistic change. When an Arab makes a stylistic change, a change in the syntactic style takes place. The impact of these stylistic changes can be noticed in the indicative and the structural in Arabic syntax through considering the syntactic mark of the vocative in addition to its structure.

تفسير العلامة الإعرابية في جملة النداء

يعرف سيبويه المنادى تعريفاً وظيفياً تركيبياً بأنه "كل اسم مضاف فيه فهو نصب على إضمار الفعل المتروك إظهارُه. والمفرد رفعٌ وهو في موضع اسم منصوب"[1]، يلاحظ من خلال هذا التعريف أن هناك إضماراً، وهذا الإضمار يكون واقعاً على فعل محذوف. يقول المبرد[2]: "اعلم أنك إذا دعوت مضافاً نصبته، وانتصابه على الفعل المتروك إظهاره".

فالأغلب في جملة النداء أن يسد حرف النداء مسد الفعل المتروك[*]. وقُدِّر هذا الفعل عند النحاة ب(أدعو)، أو(أنادي)، فجملة النداء جملة فعلية فعلها وفاعلها مقدّران، وبقي مفعولها. فالبنية العميقة (المقدرة) لجملة (يا زيد) هي (يا _أدعو أنا_ زيداً)، فحُذِف الفعل حذفاً لازماً؛ لدلالة حرف النداء عليه وإفادته فائدته.

واختلف النحويون حول ناصب المنادى في جملة النداء؛ فسيبويه على حذف الجملة الفعلية (الفعل والفاعل)، وإبقاء المفعول به، وعلى هذا التفسير يكون المنادى منصوباً أو في محل نصب، وبهذا يكون سيبويه قد استعمل قانون الحذف المعرف في علم اللغة الحديث، ليسوّغ غياب عناصر الإسناد في الجملة.

وذهب المبرد إلى أن حرف النداء سدَّ مسدَّ الفعل، والفاعل مقدّر، وعلى المذهبين يكون المفعول به (المنادى) واجب الذكر لفظاً أو تقديراً، إذ لا نداء دون المنادى،[3] وبهذا يكون المبرد قد استعمل قانون التعويض لتحويل الجملة.

يقول محمد حماسة عبد اللطيف: "وهنا نجد اختلاف سيبويه والمبرد في إجراء قوانين التّحويل، إذ يستعمل سيبويه قانون الحذف، ويستعمل المبرد قانون التعويض، ولكنهما متفقان على أن أسلوب النداء محوّل عن تركيب آخر هو (أدعو زيداً) وهذا تفسير للتركيب المنطوق"[4].

ولنحويي العربية في جملة النداء آراء[5]:

الأول: أن عامله فعل مضمر وجوباً، وهذا رأي الجمهور فهو مفعول به، ولإضماره أسباب، هي:

1. الاستغناء بظهور معناه.
2. أنهم قصدوا بعبارة النداء الإنشاء، ووجدوا أن إظهار الفعل يوهم الإخبار فتحاشوا إظهاره.
3. كثرة استعمالهم النداء.
4. أنهم عوضوا من هذا الفعل حرف النداء، والعرب لا تجمع في الكلام بين المعوض والمعوض منه.

الثاني: أن العامل في النداء هو القصد، وقد رده بعض النحويين لعدم وجود عامل نصب معنوي.

---

[1] سيبويه، **الكتاب**، 2/ 182.

[2] المبرد، **المقتضب**، 202/4.

[*] قضية خلافية، سيتم توضيحها، ينظر الخلاف في السيوطي، **الهمع**، 33/2. والأشموني، **شرح الأشموني**، 141/3.

[3] انظر: الأشموني، **شرح الأشموني**، 209/3.

[4] عبد اللطيف، **من الأنماط التحويلية في النحو العربي**، 36.

[5] انظر: هذه الآراء في ابن هشام، **أوضح المسالك**، 3/4.

الثالث: أن العامل في المنادى هو حرف النداء على سبيل النيابة عن الفعل والعوض عنه به، وإلى هذا ذهب أبو علي الفارسي، وجعل المنادى مشبها بالمفعول به، كما هو عند الجمهور، وردّوه بأن حرف النداء قد يحذف من الكلام، وحينئذ يكون العوض والمعوض منه محذوفين، والعرب لا تجمع بين حذف العوض والمعوض منه كما لا تجمع بينهما في الذكر.

الرابع: أن العامل في المنادى أداة النداء، لأن هذه الأداة اسم فعل مضارع بمعنى (أدعو)، كما أن (أفٍ) اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر، ووصف النحاة هذا المذهب بأنه مذهب ضعيف.

الخامس: أن العامل في المنادى هو أداة النداء، على أن هذه الأدوات أفعال لا أسماء أفعال، ولا حروف عوّض بها عن أفعال، وهذا مردود، ومن حجج ردّه أنه لو كانت هذه الأدوات أفعالاً لجاز اتصال الضمير بها كسائر الأفعال.

ويمكن إجراء التّحويلات في جملة النداء على النحو التالي:

مالت العرب إلى حذف عناصر التركيب المكررة أو التي يمكن فهمها من السياق، وبهذا يتم حذف أحد العناصر المكونة للبنية العميقة، لتكوين بنية سطحية، وتتم في النداء عن طريق حذف الفعل والفاعل.

وتعرضت جملة النداء إلى عدد من التّحويلات التي قام بها نحويو العربية، ولعل المراد منها تسويغ الحركات الإعرابية، وتحقيق الإسناد للجملة العربية. ومن هذه التّحويلات افتراض الفعل والفاعل في جملة النداء، وذلك بأن العرب قد قدروا بنية عميقة أو كما يقولون (مقدرة). ومثال ذلك جملة (يا زيد) المحولة عن (يا -أنادي أنا- زيداً)، فقد حذف الركن الفعلي، ويمكن تمثيله بالمشجر التالي:

جملة (أنادي زيداً)

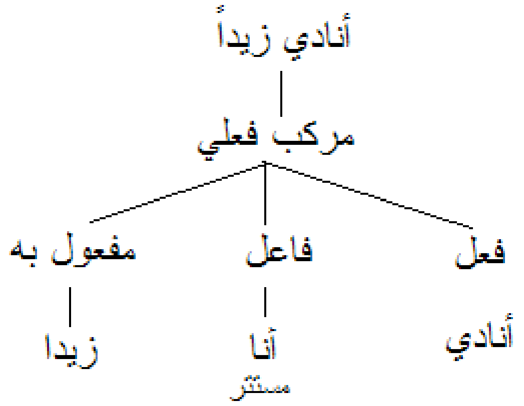

فتتكون البنية العميقة من المركب الفعلي المكون من الفعل والفاعل والمفعول به.

ووفقاً لقانون الحذف، يتم حذف الركنين الفعلي والاسمي اللذين يكونان الجملة الفعلية (الفعل والفاعل)، ويتم التعويض عن الجملة الفعلية بأداة نداء تدل على ما دلت علية جملة النداء. وقد أشار إلى هذا نحويو العربية من قبل، يقول السيوطي: "من المنصوب مفعولاً به بفعل لازم الإضمار باب المنادى، وللزوم الإضمار أسباب:

الاستغناء بظهور معناه، قصد الإنشاء – وإظهاره يوهم الإخبار – وكثرة الاستعمال، والتعويض منه بحرف النداء ويقدر بـ(أنادي) أو (أدعو) إنشاءً. وهذا مذهب الجمهور"[1].

[1] السيوطي، **الهمع**، 32/2.

فالسيوطي يعدُّ قصد الإنشاء سبباً وراء إضمار الفعل والفاعل (أدعو) أو (أنادي)، وإن إظهار هذه الأفعال سيوهم أن الجملة خبرية؛ لذا تم إضمار الجملة الفعلية.

ويمكن تمثيل الحذف ثم التعويض عنه بالمشجر الآتي:

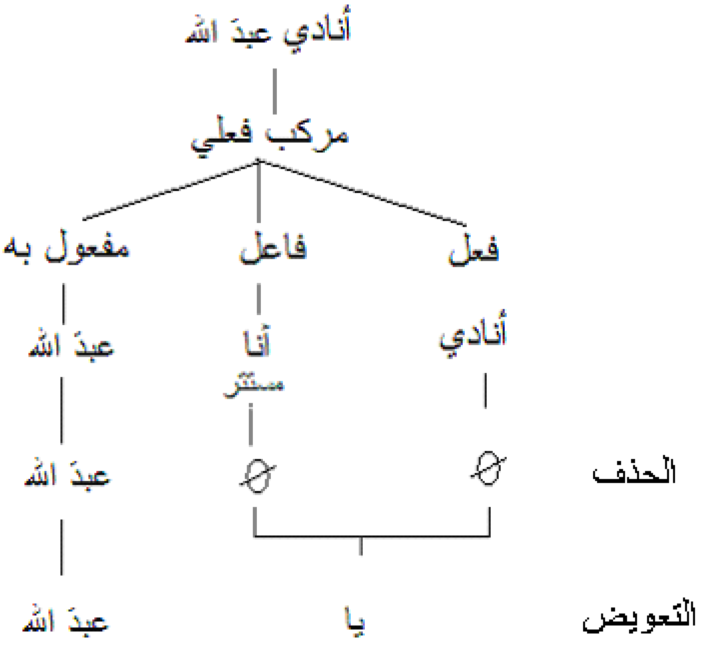

تم حذف الركنين الفعلي والاسمي اللذين يكونان الجملة الفعلية (الفعل والفاعل)، والتعويض عنهما بحرف النداء، فالبنية العميقة مكونة من مسند ومسند إليه وفضلة، ثم حذفت عناصر الإسناد وظلت الفضلة، لحلول عنصر النداء محل عناصر الإسناد.

وعلى رأي جمهور النحويين فإن عناصر الإسناد قد تحققت لجملة النداء في بنيتها العميقة (المقدرة). ويمكن تمثيل حذف جملة الإسناد بالمشجّر الآتي:

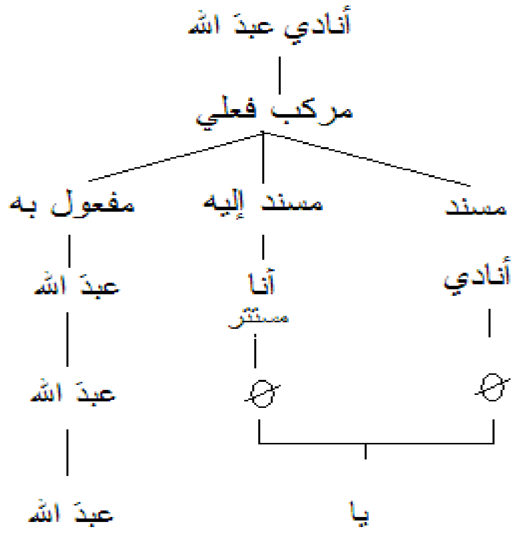

جاء في شرح الرضي على الكافية[1]: "والاسم مع الحرف لا يكون كلاما، إذ لو جعلت الاسم مسنداً فلا مسند إليه، ولو جعلته مسنداً إليه فلا مسند، وأما نحو (يا زيد) فلسدّ (يا) مسد (دعوت) الإنشائي، والفعل مع الفعل أو الحرف لا يكون كلاماً لعدم المسند إليه، أما الحرف مع الحرف فلا مسند فيهما ولا مسند إليه".

فحرف النداء مع المنادى لا يكفي لأن يكوّن جملة إسنادية، فلا بد للنحويين من البحث عن طريقة لتقدير المسند والمسند إليه في الجملة، وفي هذا تكريس لقضية تحقيق الإسناد في جملة النداء، لذا فهم يقدّرون جملة إسنادية ثم يحذفونها؛ وذلك لتحقيق الإسناد، ومن هذا التقدير جاء التحوّل من البنية العميقة التي تشمل المسند والمسند إليه، إلى الجملة التي تشمل حرف النداء والمنادى.

وقد تحذف أداة النداء التي جيء بها بعد حذف الجملة الفعلية، أو بدلاً من الجملة الفعلية، ومهما يكن من أمر اختلاف في التأويل، إلا أن النحويين اتفقوا على أن البنية العميقة هي وجود جملة فعلية، سدّ مسدها في البنية السطحية حرف النداء، وقد يحذف حرف النداء ويقدر بـ (يا) دون سائر أخواتها من حروف النداء، ويتم الحذف حسب المشجر الآتي:

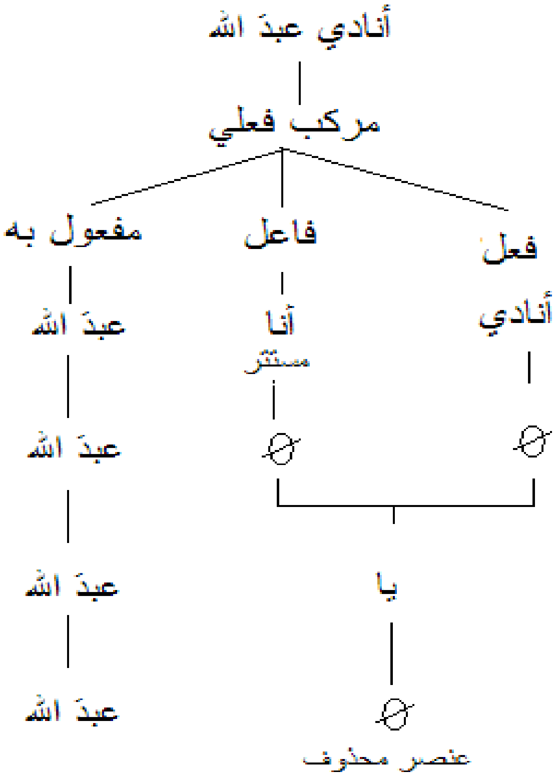

وهذا إجحاف بحق تركيب الجملة، حيث تقدَّر أداة النداء ثم يتم حذفها.

ومن أمثلته قوله تعالى: (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا)2 و (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ)[3].

[1] الرضي، **شرح الرضي على الكافية**، 34/1.
[2] سورة يوسف: 29.
[3] سورة الرحمن: 31.

وقول زهير[1]:

تَبَصَّرْ خَلِيلِيْ هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنٍ تَحَمَّلْنَ بِالعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْثُمِ

وهو كثير في لسان العرب، إلا أنه يكثر في الآيات التي يكون متمم النداء فيها جملاً دُعائية[2].

ومن المواضع التي لا يجوز فيها الحذف – على مذهب البصريين:

1. اسم الله، إذا لم تلحقه الميم نحو: اللهمَّ .
2. المشتقات، نحو: (يا لزيد).
3. المتعجب منه، نحو: (يا للسماء).
4. المندوب، نحو: (يا زيداه).
5. اسم الجنس.
6. اسم الإشارة.
7. النكرة غير المقصود لذاتها.

واختلفوا في حذف المنادى[3] وإبقاء حرف النداء، فذهب ابن مالك إلى جوازه قبل الأمر والدعاء، وخرّج عليه قوله تعالى: (ألا يسجدوا) من قوله تعالى: (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) فقد قرأها الكسائي[4] (ألا) خفيفة وقرأها الباقون بالتشديد، فمن خفف جعلها تنبيهاً، و(يا) نداء، والتقدير (ألا يا هؤلاء اسجدوا لله)" ويجوز أن يكون (يا) تنبيهاً ولا منادى هناك"[5]. واستشهدوا بقول الشاعر:

يا لَعْنَةُ اللّهِ والأَقْوامِ كُلِّهِم والصالِحِينَ على سَمْعانَ مِنْ جارِ[6]

أي (يا قوم) أو (يا هؤلاء).

يقول أبو حيان: والذي يقتضيه النظر أنه لا يجوز؛ لأن الجمع بين حذف فعل النداء وحذف المنادى إجحاف، ولم يرد بذلك سماع عن العرب. ويخرّج (يا) في الشاهدين السابقين ونحوهما على أنها للتنبيه.

ويرى ابن مالك أن حق المنادى أن يمنع حذفه؛ لأن عامله حذف لزوماً، إلا أن العرب أجازت حذفه والتزمت إبقاء (يا) دليلاً عليه، ويكون ما بعده أمراً أو دعاء، لأنهما داعيان إلى توكيد المأمور والمدعو. فاستعمل النداء قبلهما كثيراً حتى صار الموضع منبهاً على المنادى، إذ حذف وبقيت (يا) فحسن حذفه لذلك.

---

[1] زهير بن أبي سلمى، 1982، **ديوان زهير بن أبي سلمى**، شرح شعر زهير، 72.

[2] انظر: مصطفى، محمود، 1981، **الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية**، ص329.

[3] انظر الخلاف في السيوطي، **الهمع**، 2/43-44.

[4] ينظر قراءة الكسائي في ابن خلف المقرئ، 1985، **العنوان في القراءات السبع**، ص26.

[5] انظر: ابن يعيش، **شرح المفصل**، 1/310.

[6] البيت بلا نسبة في سيبويه، **الكتاب**، 2/219، والزمخشري، **المفصل في علم العربية**، بذيله كتاب المفصل في شرح أبيات المفصل، للسيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي، ص48 ، وابن هشام، **المغني**، 2/430.

وعلى الرغم من الخلاف الذي وقع بين نحويي العربية، إلا أن هناك شواهد واردة في كتب النحو على حذف المنادى منهما قول الشاعر[1]:

فخَيْرٌ نحنُ عندَ النّاسِ منكُمْ إذا الدّاعي المثوّب قالَ يالا

أراد (يا لبني فلان)

وقال السكاكي[2]: "حذف المنادى كنحو: (يا بؤس لزيد) و (ألا يا سلمى) جائز". ورد في شرح الرضي على الكافية "قال ابن الحاجب: وقد يحذف المنادى لقيام القرينة، نحو: (ألّا يسجدوا)، قال الرضي: المنادى مفعول به، فيجوز حذفه، إذا قامت قرينة دالة عليه، بخلاف سائر المفعول به فإنه قد يحذف نسياً منسيّاً"[3].

عند النظر في جملة النداء المكونة من البنية العميقة (الجملة الفعلية + الفضلة)، وقد تحولت إلى بنية سطحية (أداة نداء + فضلة "منادى")، فإن أداة النداء أصبحت جزءاً رئيساً من أجزاء الجملة، وكذلك المنادى، وعند حذف المنادى فإن المتبقي من عناصر الجملة الندائية هو أداة النداء، وهذا لا يكفي، إذ لا بد من قرينة مشيرة إلى أن هذه الجملة ندائية، فحددها بعض النحويين الذين قالوا بجواز حذف المنادى بحالات، كأن يكون متمم النداء دعاءً أو أمراً.

وعلى هذا، فيمكن تمثيل حذف حر النداء على النحو الآتي:

(يا بؤس لزيد) - (يا هؤلاء بؤس لزيد) -(أدعو هؤلاء بؤس لزيد)

فحذفت الجملة الفعلية وبقيت الفضلة، وبقي حرف النداء، وحذفت الفضلة.

فالبنية العميقة المفترضة (أدعو هؤلاء بؤس لزيد)، والبنية السطحية (يا بؤس لزيد).

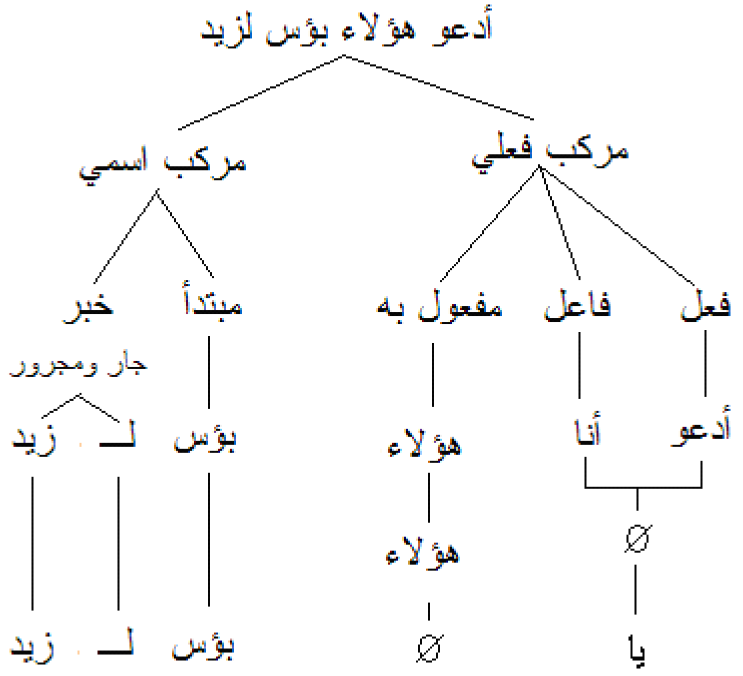

[1] البيت لزهير بن مسعود الضبي في السيوطي، **شرح شواهد المغني**، 595/2، وبلا نسبة في ابن جني، **الخصائص**، 153/2، وابن هشام، **المغني**، 245/1.

[2] السكاكي، **مفتاح العلوم**، 44/1.

[3] انظر: الرضي، **شرح الرضي على الكافية**، 389/1.

فجملة النداء تامة إلا أن أداة النداء التي تشير إلى أصل الجملة حذفت، مع وجود متمم النداء، وقد أشار ابن مالك إلى أن ما بعد النداء من أمر أو دعاء داع إلى توكيد المأمور والمدعو فاستعمل النداء قبلها كثيراً حتى صار الموضع منبهاً على المنادى إذا حذف، وبقيت (يا) فحسن حذفه.

وقد يتم التعويض بوضع عنصر محل عنصر آخر، حيث يتم إحلال عنصر النداء (أو حرف النداء) محل الجملة الفعلية (أدعو) أو (أنادي).

ويمكن تمثيل هذا بالمشجر الآتي:

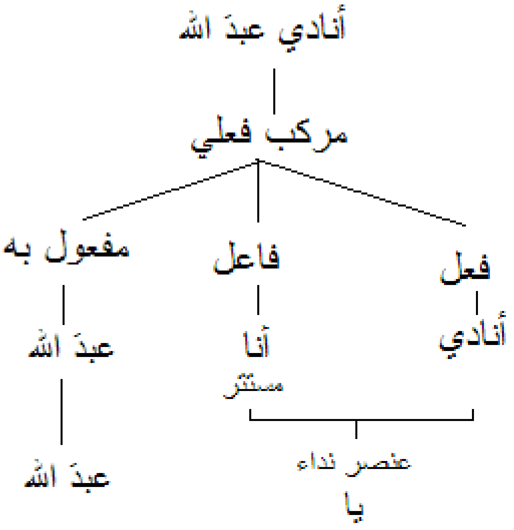

فيتحول الأسلوب الخبري إلى أسلوب إنشائي، وذلك بتعويض عنصر النداء محل الجملة الفعلية. ذلك أن حرف النداء قد سد مسدّ الفعل والفاعل، وبقي المفعول به ليصبح منادى بعد التحوّل الأسلوبي الذي طرأ على الجملة الخبرية.

وفي هذه الحالة يتم تعويض عنصر النداء محل المسند والمسند إليه، ولعل اختلاف آراء علماء العربية في جملة النداء ناجم عن تحكم نظرية العامل ونظرية الإسناد بتفكيرهم النحوي، إذ إنهم لم يتخلوا عن المسند والمسند إليه في كلامهم، فأرادوا ذكر عناصر الإسناد في جملة النداء؛ لأنهم يرون أن "الاسم مع الحرف لا يكون كلاماً، إذ لو جعلت الاسم مسنداً فلا مسند إليه، ولو جعلته مسنداً إليه فلا مسند، وأما نحو (يا زيد) فلسدّ (يا) مسد (دعوت) الإنشائي"[1].

[1] انظر: الرضي، **شرح الرضي على الكافية**، 23/1.

ويمكن تمثيل تعويض المسند والمسند إليه بما يأتي:

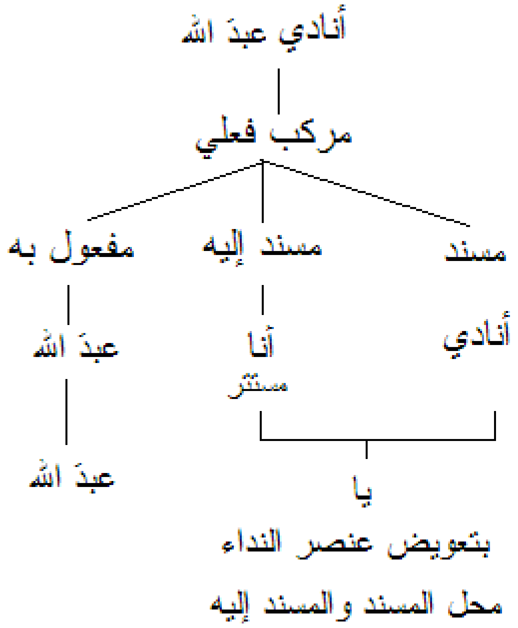

ويتبين مما ذُكر أن عنصر النداء (يا) قام مقام الجملة الفعلية في الجملة التّحويلية.

وقد يستعمل قانون التوسيع في جملة النداء، حيث يتم من خلال توسيع أحد أركان الجملة أكثر مما كان عليه قبل التّحويل، ويعرف سمير ستيتية التوسعة بأنها: "جعل عنصر من عناصر الجملة أكثر اتساعاً مما كان عليه قبل النداء"[1]. ومثال التوسعة في جملة النداء تعدد أدوات النداء، إذ إن هناك أكثر من أداة نداء للمنادى الواحد، ومنه (يا أيها الرجل)، وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)[2]، فهناك من يعد (أيُّ) أداة نداء.

يا أيها الرجل ـ أصلها ـ أنادي أنادي الرجل

ونتيجة تكرار الجملتين الفعليتين هي التأكيد، ولأهمية المنادى، وانتباهه إلى المنادي، وجعله ينبه ما يُسمع، فكثرت في القران الكريم، ومنها قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)[3]، و قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ)4، (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ)5، فهذا التوسع يقدم دلالة معنوية وتركيبية.

فقد أدرك نحويو العربية ما يمكن أن يتركه الانتقال من الخبر إلى الإنشاء من أثر على الجملة العربية والمراد بها، ولقد تنبه العرب إلى قضية المقدر والظاهر الذي يسمى في المنهج التّحويلي الحديث (البنية العميقة) و(البنية السطحية).

[1] استيتية، سمير، **الأنماط التحويلية في الجملة الاستفهامية العربية**، بحث منشور، 43.

[2] سورة البقرة: 278.

[3] سورة الكافرون: 1.

[4] سورة الحجرات: 11.

[5] سورة المدثر: 1.

وأدرك العرب أيضاً ما يتركه التحوّل من الخبر إلى الإنشاء من أثر في بنية الجملة السطحية، من أمثلة ذلك جملة النداء، فقد أدرك نحاة العربية أن للانتقال من الخبر إلى الإنشاء أثراً في البنية السطحية، فقد جاء في الهمع[1]: "من المنصوب مفعولاً به بفعل لازم الإضمار باب المنادى، وللزوم إضماره أسباب: الاستغناء بظهور معناه، وقصد الإنشاء، وإظهار الفعل يوهم الإخبار...".

فمن أسباب التّحويل من البنية العميقة التي تحتوي فعلاً لزم إضماره قصد الإنشاء؛ لأن الفعل إذا ظهر في جملة النداء يوهم الإخبار، والبلاغيون يقولون: إن النداء من باب الإنشاء.

وترك هذا التحوّل من الخبر إلى الإنشاء أثراً في بنية الكلام، وفي دلالته، فقد تحولت الجملة الخبرية (أنادي عبد الله) إلى جملة إنشائية (يا عبد الله)، وهذا التّحويل في البنية لابد من أن يكون تأثر بتحويل أسلوب المتكلم، فعندما لم يرد المتكلم الإخبار، استخدم عنصر التّحويل (أداة النداء)؛ ليشعر السامع بأن الأسلوب تحول من الخبرية إلى الإنشاء، زيادة على التطريزات أو البروسودات الأخرى، ومن أهمها تطريز أو بروسود التنغيم الذي عوّض قضية الإسناد.

وذكر الألوسي[2] أن أداة النداء دالة على ناديت اللازم الإضمار بظهور معناه مع قصد الإنشاء.

يقول ابن جني[3] في فعل النداء: "ألا ترى أنه لو تُجشِّم إظهاره فقيل: (أدعو زيداً) و(أنادي زيداً) لاستحال أمر النداء، فصار في لفظ الخبر المحتمل للصدق والكذب، والنداء مما لا يصح فيه تصديق وتكذيب".

ويجمع علماء العربية على أن الانتقال من الخبر إلى الإنشاء يؤثر في بنية الجملة إلا أنهم "لم يلتفتوا إلى أثر ظاهرة التّحويلات الأسلوبيّة في الإعراب؛ ويعود السبب في هذا إلى سيطرة نظرية العامل على التفكير النحوي"[4]. ولعل هذا ما جعلهم يقدرون البنية العميقة بجملة فعلية، حتى يتحقق لديهم الإسناد ويظهر العامل والمعمول.

وقد ذكر النحويون تقديرات كثيرة للبنية العميقة فقد قالوا بأن عامله فعل مضمر وجوبا، ومنهم من قال إن العامل في النداء هو القصد، ومنهم من قال بأن العامل فيه حرف النداء على سبيل النيابة في الفعل والعوض عنه، ومنهم من قال إن العامل في المنادى هو أداة النداء لأن هذه الأداة اسم فعل، ومنهم قال إن العامل في المنادى هو أداة النداء، إلا أن هذه الأدوات هي أفعال لا أسماء أفعال.

وهذا التعدد يشير إلى تعدد الافتراض في الجملة التي تعد أصلاً "وهذا الاختلاف في تحديد الجملة المحول عنها لا ترفضه النظرية الحديثة، بل تراه سائغاً مقبولاً، شريطة أن يبين المفسر كيف تحولت إلى البنية السطحية"[5].

فمن قالوا بأن عامله فعل مضمر وجوباً . وهذا رأي الجمهور. فهو مفعول به، ذكروا أسباباً لإضماره، يعللون من خلالها سبب الإضمار وإبقاء البنية السطحية التي هو عليها، وهذه الأسباب كثيرة تم ذكرها سابقا، فهؤلاء النحويون أدركوا أن البنية العميقة بنية خبرية، وأن النداء إنشاء، فذكروا من أسباب الإضمار قصد الإنشاء، فهم يضمرون الجملة الفعلية ويزيدون حرف النداء دالاً عليها، وفي هذه الحالة يستعملون قانون الحذف.

---

[1] السيوطي، **الهمع**، 2/32-33.

[2] الألوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، 1/203.

[3] ابن جني، **الخصائص**، 1/213.

[4] العبابنة، يحيى، **أثر التحويلات الأسلوبية في تغيير الإعراب في الآيات القرآنية والشواهد الشعرية**، بحث منشور، 16-17.

[5] محمد حماسة عبد اللطيف، **من الأنماط التحويلية في النحو العربي**، 30.

أما الفريق الثاني الذي يخص هذه الدّراسة، فهو فريق من قالوا بأن العامل في النداء هو حرف النداء على سبيل النيابة عن الفعل والعوض عنه به، وهؤلاء يرون أن البنية المقدّرة (العميقة)، هي أيضاً خبرية (جملة فعلية)، ناب حرف النداء عنها؛ لينتقل التعبير من الخبر إلى الإنشاء، وفي هذه الحالة يجري استعمال قانون تحويلي آخر وهو قانون التعويض.

ويرجع هذا الخلاف إلى أن العرب قد التزموا بنظرية العامل، الأمر الذي دعاهم إلى افتراض بنية عميقة لهذا النمط اللغوي، والذي تراه الدّراسة أن المنادى منصوب بالتحوّل الأسلوبي؛ لأن العربي عندما يغيّر في أسلوبه يغير في التركيب الأسلوبي للنمط اللغوي.

ويظهر أثر التّحويلات الأسلوبيّة ماثلا بين الخبر والإنشاء في النحو العربي من خلال النظر في حركة إعراب المنادى أو بنائه، فهناك أسماء محددة في النداء قال النحويون إنها منصوبة، وهي ثلاثة أنواع:

1. النكرة غير المقصودة، ويشهد عليها قول الشاعر:

فيا رَاكِبَاً إمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ نَدَامَايَ من نجرانَ ألا تَلاقِيَا[1]

2. المضاف، نحو: (ربنا اغفر لنا).

3. المنادى الذي يفتقر إلى ما يُتِمُّ معناه، وهو ما سماه بعضهم "الشبيه بالمضاف"، وهو ما اتصل به شيء من تمام معناه نحو: (يا طالعاً جبلاً).

ومنها ما هو مبني على ما يرفع به لو كان معرباً وهو العلم، نحو: (يا عليُّ)

النكرة المقصودة، نحو: (يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)[2].

ومنها ما يجوز ضمه وفتحه وهو نوعان:

الأول: أن يكون علما مفرداً موصوفاً بابن متصلاً به مضافاً إلى علم، نحو (يا خالدَُ بن الوليد).

والثاني: أن يتكرر، نحو (يا سعدَُ سعد).

وهذا الاختلاف في أصل جملة النداء جعل نفراً من علماء العربية المحدثين يعيدون النظر في جملة النداء بأكملها. فعبد الرحمن أيوب مثلاً يرى أن الجملة العربية تنقسم إلى قسمين:

جملة إسنادية وهي ما توجد فيها العناصر الإسنادية في الإفادة، وجملة غير إسنادية، وتشمل (جملة النداء، وجملة نعم وبئس، وجملة التعجب)، ويرى أن هذه الجمل لا يمكن أن تعتبر من الجمل الفعلية لمجرد تأويل النحاة لها بعبارة فعلية، ومنهم من أطلق عليها "جملة فعلية غير إسنادية"[3].

ويرى مهدي المخزومي[4] أن أسلوب النداء يتكون من أداة نداء ومنادى، وهذا هو أسلوب النداء ولا يؤدّى هذا الأسلوب بغير هذا اللفظ، وأن حذف الأداة وإقامة الفعل الذي قدّروه يذهب بالدلالة المقصودة من أسلوب النداء، ويتحول الكلام به من كونه إنشاء إلى كونه خبراً.

---

[1] ينظر البيت في المفضل الضبي، **المفضليات**، 156، وابن يعيش، **شرح المفصل**، 251/1، والأشموني، **شرح الأشموني**، 206/3.

[2] سورة الأنبياء: 69.

[3] انظر: أيوب، عبد الرحمن، **دراسات نقدية في النحو العربي**، 129، والسامرائي، إبراهيم، **الفعل زمانه وأبنيته**، 211.

[4] انظر: المخزومي، مهدي، **في النحو العربي نقد وتوجيه**، 38.

على أنه يمكن تفسير سبب نصب المنادى في حالاته السابقة، ولكن لا يمكن لهم أن يفسروا بناء المنادى العلم والشبيه بالمضاف على الضم، بينما يمكن تفسير ذلك بالتّحويل الأسلوبي، فالعربي عندما يغير في أسلوبه من الخبر إلى النداء فإن حركة المنادى تتغير تبعاً لذلك؛

يذهب النحويون إلى أن الأصل في محله هو النصب، إلا إنهم لم يعللوا هذه الظاهرة اللغوية تعليلاً كافياً، فقد ذكر ابن الأنباري مسألة خلافية بين البصريين والكوفيين حاول أن يبين فيها الخلاف في المنادى المفرد العلم معرب أو مبني[1]. وقد ترك النحويون ما يشير إلى الجملة الفعلية المحذوفة عندما قالوا بأن المبني على الضم في محل نصب.

وقد يخرج النداء عن معناه الأصلي وهو طلب استجابة المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة إلى معان أخرى، كالاستغاثة، نحو: (أولى القوة للضعفاء)، والتعجب، نحو: (يا لجمال الربيع!)، والندبة، نحو: (واكيدي، يا ولداه!)، والاختصاص، نحو: (بعلمكم أيها الشباب يعتز الوطن وينهض)[2].

الخلاصة:

أظهرت هذه الدراسة أنه يمكن أن نفسر الحركة الإعرابية في آخر المنادى بأنها نتيجة لتحول الأسلوب الخبري إلى أسلوب إنشائي كما نص عليه النحويون، وهذا واضح فيما ذكره السيوطي من تعليل لجملة النداء فهو يرى أن قصد الإنشاء سببا وراء إضمار الفعل والفاعل في فعل النداء، وإن إظهار هذه الأفعال سيوهم أن الجملة خبرية؛ لذا تم إضمار الجملة الفعلية.

ولو نظرنا إلى الجملة العميقة نجدها تحوي فعلا لزم إضماره قصد الإنشاء، لأن هذا الفعل إذا ظهر أصبحت الجملة خبرية، فحاولت هذه الدراسة تعليل النصب في جملة النداء، إذ ترى أن السبب في هذا هو تحويل أسلوب المخاطب من الأسلوب الخبري إلى الأسلوب الإنشائي.

---

[1] انظر: الأنباري، **الإنصاف**، 323/1.

[2] انظر: عتيق، **علم المعاني والبيان والبديع**، 111، وابن هشام، **أوضح المسالك**، 46/4.

المراجع:

القرآن الكريم.

- ابن أبي سلمى، زهير، 1982، **ديوان زهير بن أبي سلمى**، شرح شعر زهير، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- استيتية، سمير، 1989، الأنماط التّحويلية في الجملة الاستفهامية العربية، بحث منشور، **مجلة المورد**، بغداد، المجلد 18، ربيع 1989، العدد الأول، 43-45.
- الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود، 2001، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ضبطه وصححه علي عبد الباري عطيّة، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنّة الجديدة، دار الكتب العلمية، بيروت ط1.
- الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن، 1987، **الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين**، ومعه كتاب الانتصاف من الانصاف، محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.
- أيوب، عبد الرحمن، 1957، **دراسات نقدية في النحو العربي**، القاهرة.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، 2001، **الخصائص**، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط1.
- رضي الدين، محمد بن الحسن الإستراباذي، (د.ت)، **شرح كافية ابن الحاجب**، تحقيق أحمد السيد أحمد، المكتبة التوفيقية.
- الزمخشري، محمود بن عمر، (د.ت)، **المفصل في علم العربية**، بذيلة كتاب المفضل في شرح أبيات المفصل، للسيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي، ط2، دار الجليل، لبنان.
- السامرائي، إبراهيم، 1980، **الفعل زمانه وأبنيته**، مؤسسة الرسالة بيروت، ط2.
- السكاكي، سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، 1980، **مفتاح العلوم**، تحقيق أكرم عثمان يوسف، بغداد.
- سيبويه، عمرو بن عثمان، (د.ت)، **الكتاب**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط1.
- السيوطي، جلال الدين، (د.ت)، **شرح شواهد المغني**، المطبعة البهية، مصر.
- السيوطي، جلال الدين، (د.ت)، **همع الهوامع**، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر.
- الصبان، محمد بن علي، 1997، **حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك**، ضبطه وصححه وخرّج شواهده إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1.
- الضبي، المفضل، 1976، **المفضليات**، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، ط5.
- العبابنة، يحيى، 1993، **أثر التّحويلات الأسلوبيّة في تغيير الإعراب في الآيات القرآنية والشواهد الشعرية**، بحث منشورات، جامعة اليرموك، مجلد 11.
- عبد اللطيف، محمد حماسة، 2006، **من الأنماط التّحويلية في النحو العربي**، دار غريب، القاهرة.
- عتيق، عبد العزيز، (د.ت)، **علم المعاني والبيان البديع**، دار النهضة العربية، بيروت.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزد، 1999، **المقتضب**، تحقيق حسن محمد، مراجعة الدكتور إميل يعقوب، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.
- المخزومي، مهدي، 1980، **في النحو العربي نقد وتوجيه**، بيروت، ط2.
- مصطفى، محمود، 1981، **الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.
- المقرئ، إسماعيل بن ابن خلف، 1985، **العنوان في القراءات السبع**، تحقيق زهير زاهد خليل العطية، عالم الكتب، بيروت.

- ابن هشام، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف، (د.ت)، **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك**، ومعه كتاب عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك، محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف، 1992، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.
- ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي، (د.ت)، **شرح المفصل**، تحيقيق احمد السيد ومراجعة اسماعيل عبد الجواد، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

البنية الصّرفيّة بين العدول و الالتفات

الأستاذ: محمد بشير باي
كليّة العلوم الإسلاميّة
جامعة الجزائر 1

توطئة:

انتبه العلماء في القديم إلى أهمية الأبنية الصرفية في تشعّب المعاني، وكان تقليب اللفظة من وجه إلى وجه آخر صرفي يؤدي إلى تنوع المعاني الناتجة عن ذلك التقليب أو التغيير، ولذا كان التصريف علما قائما بذاته يضاهي أو يفوق علم النحو أهمية؛ لأنّ التصريف نظر في ذات الكلمة. وعليه: تمحورت **إشكالية** مذهبي في هذا الطرح المتواضع؛ حول أهميّة البنية الصّرفيّة، و قيمتها الدّلاليّة في كنف تعدّد المعاني؛ خاصّة إذا علمنا أنّ المستوى الصّرفي ركيزة حيويّة في فهم المعاني وتخريجها.

و قد أبنت في مستهل هذه المقالة عن العلاقة التي تربط الصيغة بالمعنى زيادة على دلالتها الإفرادية، ثم كشفت عن أهمية البناء الصرفي من خلال التغيير الحاصل في وزنه الذي تتغير معه الدلالة، بحيث دلالة الفعل الرباعي المزيد بحرف غير دلالة المزيد بحرفين و نحو ذلك. وكان العدول بالصيغ أهم محطّة تطبيقية، ففيه بعض السّمات الأسلوبية شأنه في ذلك شأن الالتفات.

وارتأيت أن أذكر ملخّصا مهمّا في قضية (العدول من و إلى الصّيغ)، لما في ذلك من أثر في المعنى، فمن العدول مثيرات أسلوبية، وختمت بالحديث عن أهمية الالتفات في الصيغ، سواء على مستوى الأفعال أو على مستوى الضمائر .

1- العلاقة بين الصيغة و المعنى:

يتحدّث جمع كبير من العلماء والدارسين قديما وحديثا عن أهمية العلاقة الوطيدة التي تربط المبنى بالمعنى ، أو الصيغة الصرفية بالمعنى الذي تحيل إليه، وفي هذا المقصد يشير المختصون إلى طبيعة تلك العلاقة؛ إذ أنه كلّما نُقل لفظ ما من صيغة لأخرى؛ كلما زاد في المعنى، و بالتالي كان العدول من صيغة إلى صيغة أخرى أكثر من الأولى حروفا، لابدّ أن يتضمن من المعنى أكثر مما تحويه الأولى[1] .

وأجد في هذا الصّدد؛ ما يدعّم تلك العلاقة القائمة بين الصيغة ومعناها، فهذا ابن الأثير يقول: « اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه فلا بدّ أن يتضمن من المعنى أكثر مما تتضمنه أولا؛ لأنّ الألفاظ أدلّة على المعاني، وأمثلة الإنابة عنها، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني، وهذا لا نزاع فيه لبيانه...»[2] .

و يضرب – مستشهدا – في مقام المبالغة مثالا على ما ذهب إليه، وهذا ما يشكل في نظري مثيرا أسلوبيا، فمعنى (اقتدر) أقوى من معنى (قدر) في قوله تعالى: ﴿**كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ**﴾ **سورة القمر/ 42**. فالعدول من اسم الفاعل

(قادر) إلى اسم الفاعل (مُقتدِر) شكّل قوّة في المعنى للدلالة على القدرة العظيمة التي لا مثيل لها، فكانت صيغة (مقتدر) أبلغ في الدلالة على عظمة القدرة من صيغة (قادر)،وعليه فإنّ صيغة (اِفتَعل) أبلغ و أشدّ تأثيرا من (فعل)[3] .

و في مثال آخر بخصوص هذه العلاقة يرى ابن الأثير في صيغة (رتّل) في قوله تعالى: ﴿ **أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً** ﴾ **سورة المزمل/ 04**. إنّ « لفظة (رتّل) على وزن (فعّل) ومع هذا ليست دالة على كثرة القراءة، وإنما المراد بها أن تكون القراءة على هيئة التأنّي و التدبر، وسبب ذلك أنّ هذه اللفظة لا ثلاثي لها حتى تنقل عنه إلى الرباعي، وإنما هي رباعية موضوعة لهذه الهيئة المخصوصة من القراءة، و على هذا فلا يستقيم معنى الكثرة والقوة في اللفظ والمعنى إلّا بالنّقل من وزن إلى وزن أعلى منه»[4]

إنّ بلاغة القرآن الكريم، وتنوّع دلالاته تستند أساسا على المبالغة والتوكيد، ويتم هذا الاستناد بشيء من العدول الأسلوبي القائم على التفضيل والتخيير بين أقرب المعاني الصحيحة للمعنى المتوخى، وعلى هذا الشكل من التخريج الدلالي كان تميز صيغة اللفظ (رتّل).

وقد نلفي علاقة أشدّ وثاقة بين مبنى الصيغة ومعناها من جهة، وبين البواعث النفسية المحركة لها من جهة أخرى، « فالكلمات يمكن أن تخضع للبواعث المحركة لها فتصبح شفافة أو معتمة، ويتم هذا في مستويات صوتية وصرفية ودلالية، ولكل منها نتائج أسلوبية بارزة»[5]،ففي قوله تعالى: ﴿ **...قَالَ أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ...** ﴾ **سورة البقرة/ 61**. تمثيل حقيقي لشفافية الصيغة أو عتمتها بحيث أنه اختلف في توجيه دلالة الصيغة (أدنى)، فقيل أنها من القرب المكاني أومن القرب الزماني، أومن الدناءة والخسّة، أو أنها تعبّر عن الأرذل تارة، وعن الأصغر تارة أخرى[6] .

ويذكر صلاح فضل عن قيمة المثير الأسلوبي في ناحية الصرف ودوره الرئيسي في تشكيل النسيج الأسلوبي ، واستحضار الدلالة ما يؤكّد نسبيا توجّه بحثي، حين يقول: « أمّا الباعث الصرفي فيتمثل في وجود صيغ ومشتقات صرفية شفافة ذات أثر أسلوبي ... تكتسب دلالة أسلوبية جديدة في سياق تعبيري يبرز شفافيتها ويخفف من عتمتها».[7]

2- دلالة الصيغة الإفرادية:

تُعدّ دلالات الصيغ الإفرادية- بعيدا عن نظمها - رافدا يغرف منه من أراد، فهي كالمادة التي يمكن التصرف فيها، وتشكيلها كيفما نشاء وفق قوالب معدة لذلك فالدلالة الإفرادية « بمثابة مادة أولية لا غنى للمتكلم عنها في التعبير عن معانيه ومقاصده، وأنه إذا كانت الكلمة المفردة تمثل الوحدة التحليلية الأولى للكلام، فإن المدلول الإفرادي لتلك الكلمة هو بمثابة الوحدة التحليلية الأولى للمعنى في هذا الكلام »[8].

وإذا ما تأملنا الصّيغة (أتى) في قوله تعالى: ﴿ **أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ **سورة النحل/01**. فنجد تباينا بين دلالتها الإفرادية في المعجم، وبين دلالتها المستشقّة من استعمالها في صيغة الماضي المراد به المستقبل أو غير ذلك، هذا ما يلفت الانتباه ويشكّل لافتة أسلوبية مثيرة تستوقف القارئ، قال الزمخشري في ذلك: «أتى أمر الله، الذي هو بمنزلة الآتي الواقع، وإن كان منتظرا لقرب وقوعه»[9].

و يستفيض عبد الحميد هنداوي في تعليقه على الزمخشري للآية السابقة بملاحظتين هامتين، أما الأولى فهي «... ولكن المراد هو توظيف الصيغة في معنى الاستقبال متضمنة معنى الماضي، وموظّفة له في الوقت نفسه، فكأنّ مقصود الآية أن تقول سيأتي أمر الله لا محالة مجيئا مقطوعا به بل هو في حكم ما وقع وأتى بالفعل»[10]، أما الأخرى « أتى أمر الله تعالى فعلا باعتبار تقديره أو وقوع مباديه وأماراته ، وحينئذ لا مجاز ولا تجاوز؛ لأنّ الصّيغة حينئذ موظّفة في معناها الذي وضعت له »[11].

وفي قوله تعالى: ﴿ **وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى** ﴾ **سورة طه/ 69**، فالتّعبير بالماضي على سبيل الحقيقة، ومنه لا فلاح لساحر مهما تفنّن في سحره، ويستشهد صاحب هذا الرأي[12] بقول القرطبي: « أي لا يفوز ولا ينجو حيث أتى من الأرض، وقيل حيث احتال»، وعليه (أتى) صيغة وضعت لتأكيد فشل السحرة وبطلان عملهم الذي صار حجّة عليهم.

وهكذا في قوله تعالى:﴿ **إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ **سورة الشعراء/ 89**، فإنّ للصّيغة الصّرفية الإفرادية (أتى) دلالة أخرى ذات معنيين مختلفين «إما في تحقيق القدوم على الله والمثول بين يديه...، وإما الإتيان بقلب سليم على وجه التحقيق والكمال»[13].

وبهذا تتفرّد الصيغة بدلالة إفرادية، يمكن توظيفها بحسب السياقات، و لكن تبقى دلالتها الجديدة ذات صلة بأصلها، «الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضّم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد»[14]، وليس المثير ههنا أن يتمّ خرق في القاعدة أو القانون، و لكن المثير أن يتعدد الاستعمال فتشكّل حينئذ ميزة أسلوبية.

3- أهميّة البناء الصّرفي في تحديد الدّلالة:

الدّلالة الصّرفية الناتجة عن دلالة مبنى الصيغة الصرفية ركن أساسي وهام في تخريج الدلالات وتحديدها، فهي مطية مشروعة لغويا في فهم النص اللغوي «ونحن نعدّها عنصرا من عناصر تحديد الدلالة، ومصدرا من مصادر بيانها، وطريقا للوصول إليها، وليس دلالة موصوفة بالصرفية»[15]، فليست الدلالة الصرفية أمرا اعتباطيا أو عفويا، بل هي حقيقة يجب الانتباه إلى قيمتها في معزل عن السياق ومقتضى الحال، فالعلماء، «أكدّوا أن طبيعة الصيغة الصرفية للكلمة المعينة وجرسها يُشعر بدلالتها»[16].

و من ذلك - قضيّة البناء- دلالة الفعل الرباعي المزيد بحرف واحد، والذي به نرفع اللّبس عن المعنى المراد من قوله تعالى: ﴿...**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً** ﴾ **سورة الكهف/ 28**، و بصرف النّظر عن التأويلات المختلفة لهذه الآية ،«فالدلالة في الفعل الذي جاء على صيغة (أفعلت) يدلّ على أنه وجد الشيء على صيغة معينة، مثل (أكرمت زيدا)، والمعنى المراد لديك أنك وجدته كريما ، وقد يكون معناه أنك جعلته كريما، فهذا الاشتراك في دلالة الصيغة الصرفية أدّى إلى الاختلاف في معنى النص القرآني»[17].

والملاحظ أن تعدّد دلالات الصيغة (أفعل)، فتح باب التأويل فمن دلالاتها الدخول في الزمان والمكان، ومشابهة المفعول للذّات، و جعل الذات في المفعول[18] هذا من جهة، و من جهة أخرى فإنه يكفي أن يتعدى الفعل بمجرد زيادة حرف و(غفل) غير (أغفل)، ولأسلوب القرآن الكريم مزية التّفرد كونه يفتح باب التفسير بحسب أهواء المفسرين، فالزيادة في وزن الكلمة وبنائها زيادة في معناها.

والجدير بالذكر في هذه القضية، ما يسميه العلماء دلالة العدول أو النيابة كاستعمال مبنى صيغة الجمع للدلالة على المفرد، و هو فيما أراه يطابق مفهوم أسلوب الالتفات، والأمر الملفت للانتباه في قوله تعالى:﴿ **مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ** ﴾ **سورة التوبة/17**؛ هو استعمال صيغة الجمع (مساجد) للدلالة على مسجد الله الحرام، فمخاطبة الله عز وجل للمشركين بصيغة الجمع، إنما لأن المراد هو ذلك، فالزمخشري يشير إلى ذلك بقوله: « وإنما قيل: مساجد لأنّه قبلة المساجد كلّها وإمامها»[19].

و نجد في قوله تعالى:﴿...**فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ**...﴾ **سورة البقرة/ 11**. تعبيرا أسلوبيا مثيرا فجعل مبنى الصيغة (إخوة) للدلالة على المثنى، يدفع القارئ لتحرّي قيمة ذلك في الميراث، فلِمَ المخاطبة بصيغة الجمع في الآية الكريمة ؟ و إذا علمنا أنّ أقلّ الجمع اثنان، فإنّ الزمخشري يقول: «فإن قلت : فكيف صحّ أن يتناول الأخوة (الأخوين)، والجمع خلاف التثنية؟ قلت: الأخوة تفيد معنى الجمعية المطلقة بغير كمية، والتثنية كالتثليث و التربيع في إفادة الكمية، وهذا موضع الدلالة على الجمع المطلق، فدلّ بالأخوة عليه»[20].

وأهمية البناء الصرفي في تحديد الدلالة لا تتجسّد فيما تحيل إليه الصيغة الصرفية، بل يبقى للسياق تأثير بالغ الأهمية في تحديد المعنى المراد بالصيغة على مستوى الإفراد أو على مستوى التركيب و لهذه المسألة حديث مستفيض في النّحو والسّياق.

4- العدول بالصيغ:

لقد كثر الحديث عن العدول (الانحراف) في الدراسات الأكاديمية وغيرها، وتم التوصل إلى استنتاج بعض التسميات الأسلوبية التي تجعل من بعض العدول مثيرا أسلوبيا، و هذا ما أستطيع أن أكشفه من خلال هذا العنصر.

4-1 العدول في المصادر:

عدل الحكيم عز وجل عن المصدر (تَبَتُّلا) إلى المصدر (تبتيلا)، أي من وزن (التفعّل) إلى (التفعيل) في قوله:﴿ **وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً** ﴾ **سورة المزمل/ 08**، و يُرجع الزمخشري هذا العدول إلى الفواصل «فإن قلت: كيف قيل (تبتيلا) مكان (تبتّلا) ، قلت لأن معنى تَبَتَّل: بَتِّل نفسك فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل »[21]،فالملاحظ من قول الزمخشري أنّ الفاصلة في القرآن الكريم تشكل مثيرا أسلوبيا، والحديث عن الفاصلة يحتاج إلى موضوع بحث علمي.

أمّا عبد الحميد هنداوي في دراسته الإعجاز الصرفي، عمّق البحث عن المعنى المقصود من العدول السابق الذكر، فهو يرى أن معنى المصدر (تبتيلا) يتضمن معنى المصدر (تبتّلا)[22] ويستدل في تخريجه هذا بتضمين فعل ما معنى فعل آخر حين استشهد بقوله تعالى:﴿ **وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ **سورة الأنبياء / 76**؛ فيقول: «أي نجيناه من القوم، حيث أراد أن يبين سبحانه أن هذا النصر لم يكن بالغلبة، وإنما كان بالتنجية من أذى قومه، فعداه بـ(من) وكان حقه أن يعدى بـ(على) وذلك ليضمنه معنى نجيناه أي ونجيناه وخلصناه منتصرا من القوم»[23].

واستطرد في شرحه «... وأتى في المصدر بـ(تبتيلا) ليدلّ على أن المراد هو الإكثار من هذا التبتّل و الانقطاع، وذلك لحاجة الداعي إليه في أول الطريق حتى ينال نصيبه من زكاة النفس، و مجاهدتها ... وبهذا يتضمن الأمر معنى المحاولة والمجاهدة مع الإكثار من (التبتّل) المطلوب للداعي ليكون زادا له في دعوته للناس»[24].

ولقد انطوى العدول في الصيغة السابقة على شرح آخر ، حُدّد في أن «السبب في إيثار (تبتَّل) على (بتِّل) أن (تبتّل) مطاوع (بتّل) حيث يقال (بتَّله فتبتّل) معنى (بتِّل)»[25]، وبهذا نجد الآية الكريمة جمعت بين عدوليين في آن واحد أي عدول في عدول، فـ(تبتيل) مصدر الفعل (بتّل)،(وتبتّل) مصدره (تبتّلا)،وبالتالي كان (التبتّل) بمعناه المشار إليه سابقا مرحلة مهمّة لأجل التبتيل الذي يناسب معناه ترويض النفس و المداومة على الانقطاع إلى عبادة الله.

2-4 العدول إلى اسم الفاعل :

ورد في قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ **سورة البقرة/144**، فالتعبير في هذه الآية الكريمة كان بصيغتي (الفعل) و(الاسم)،(تبعوا) و(تابع)، عن أهل الكتاب والنبي صلى الله عليه وسلم على التوالي.

ولعل سبب العدول المثير من صيغة الفعل إلى صيغة اسم الفاعل، يعود إلى أن «التعبير باسم الفاعل منفيا لينفي عن النبي صلى الله عليه وسلم أهليته لهذا الأمر من الأصل، ويؤيد ذلك أن اسم الفاعل يأتي للنسبة، ومن ثم كان التعبير باسم الفاعل منفيا لأدنى احتمال في انتساب النبي صلى الله عليه وسلم لمتابعة أهل الكتاب»[26]، وقياس هذا التحليل على قوله تعالى:﴿ **وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ**﴾ **سورة الكافرون/ 04**.

ويجزم الزمخشري في تفسيره للآية السابقة بأن التعبير بصيغة اسم الفاعل عن النبي صلى الله عليه وسلم قطع للشك باليقين، وأنّ هذا الأمر حسم، وفيصل لأطماع أهل الكتاب وانعدام رغبتهم في الإيمان[27]، وما زاد التعبير بصيغة اسم الفاعل (تابع) قيمة، هو ربطها بـ(الباء) للنفي المؤكد وبالتالي تخليص النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الأمر الذي يترجّاه أهل الكتاب، و هو أن يتّبع الرسول الأكرم أهواء أهل الكتاب وأطماعهم.

4-3 العدول إلى اسم المفعول:

يقول الله تعالى في محكم تنزيله:﴿**إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ، وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ**﴾ **سورة ص/19،18**.يرى صاحب الكشاف في خطاب الله تعالى عن نبيه داوود عليه السلام عدولا عن (يسبّحن) إلى (محشورة) أي من صيغة (الفعل) في الآية 18،إلى صيغة (اسم المفعول) في الآية التي تليها، و الشاهد هاهنا في قوله تعالى(محشورة) فيقول الزمخشري «وقوله (محشورة) في مقابلة (يسبحن) إلّا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئا بعد شيء، جيء به اسما لا فعلا»[28]،لأن التعبير ب(محشورة) أدلّ على القدرة.

وبحسب هذا التخريج الدلالي فإنّ «التسبيح يقع من المخلوقات شيئا فشيئا أما الحشر فيقع من الله تعالى جملة واحدة بأمر واحد ، إذ يقول للشيء كن فيكون، كما أن ذلك يدل على اجتماع الطير لداوود عليه السلام في وقت واحد ساعة تسبيحه، لا أنها تحضر في أوان تسبيحه شيئا فشيئا بل تحضر معه جملة واحدة من بداية التسبيح إلى منتهاه »[29]،وليس فعل العبد كفعل الخالق تعالى.

وفي سياق الحديث هذا، أجد أنّ صيغة الاسم تفيد الخصوصية والتمييز ، ذلك أن سرّ التعبير الأسلوبي في الآية الكريمة يظهر المنزلة الرفيعة التي أرادها الله تبارك وتعالى لنبيه داوود عليه السلام، ومن ثم «تبرز خصوصية النعمة التي أنعم الله بها على نبيه داوود إذ من شأن الطير الحركة و التنقل، ومن ثم فإن التعبير بصيغة الاسم تفيد أن الطير حين تسبح مع داود تفارق طباعها وتثبت في مكانها خاشعة»[30].

إذا فلو استعملت صيغة اسم المفعول (محشورة) بصيغة الفعل (يحشرن) وصار التعبير عندئذ (وسخرنا الطير يحشرن) ، لدلّ ذلك على حدوث فعل الحشر بالتدريج، أما التعبير بصيغة اسم المفعول فالمراد به أن الحاشر هو الله الواحد والقادر على ذلك.[31]

4-4 العدول إلى الصفة المشبهة:

من لطائف القرآن الكريم التي وسمت أسلوبه العدول إلى الصفة المشبهة، وأفضل دليل على ذلك ما استشهد به بعض العلماء وأهل الاختصاص فيما يخص قوله تعالى:﴿ **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ،أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ، يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ، أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً، قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ، فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ...**﴾ **النازعات/6-13**.

والشاهد في عدول الآية عن اسم الفاعل الذي جاءت عليه الفواصل إلى صيغة الصفة المشبهة في قوله تعالى ﴿**أَ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً**﴾، ومردّ ذلك إلى اختلاف بعض القرّاء، لكن المهمّ لماذا هذا العدول؟

يرجع هادي نهر، الاختلاف في الصيغتين إلى « تقادم العهد في العظام النخرة كونها قد آلت إلى التفتت والبلى، في حين تكون العظام الناخرة هيا كل جوفاء تمر الريح خلالها، والعظام المفتتة النخرة أظهر وادعى للتعجب من احياءها مرة أخرى من العظام

المجوفة»[32]، وحسبه—إذا– أن قدرة الله جلّ جلاله في بعث العباد تظهر في إرجاعهم إلى حالتهم التي كانوا عليها في الدنيا حتى وإن كانت عظامهم فتات وجزيئات.

ويرجح آخرون العدول نفسه في الآية السابقة إلى قضية تفاضل الصيغتين بلاغيا،«... فقد صرحوا بأن (فعِل) أبلغ من (فاعل) وإن كانت حروفه أكثر...»[33]،وهذه الأفضلية في التعبير بصيغة الصفة المشبهة أقرّها الزمخشري بذكره قيمة الصيغة (فعِل) بلاغيا في المعنى من صيغة (فاعل)،وفي المعنى نفسه «كان التعبير بنخرة وهي صفة مشبهة تدل على ثبات تلك الصفة في العظام لطول العهد مع ما فيها من معنى المبالغة، خاصة وأن (فعل) من صيغ المبالغة كذلك»[34]، وليس– بهذا المعنى – في مخالفة الإيقاع في الآية الكريمة من سبب إلّا تقديم أهمية المعنى على أهمية اللفظ.

4-5 العدول إلى المفرد:

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:﴿ **اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ **سورة البقرة/ 257**، فاللّافت في هذه الآية الكريمة هو ذكر النور بصيغة المفرد، وذكر الظلام أو الظلمة بصيغة الجمع ، فما السّر في ذلك؟

تحدّث ابن القيم بإسهاب في هذا الأمر الذي تكرّر في مواضع عدة من القرآن فيقول«... والمقصود أن طريق الحق واحد، إذ مردّه إلى الله الملك الحق، وطرق الباطل متشعبة متعددة فإنها لا ترجع إلى شيء موجود، ولا غاية لها توصل إليها...»[35].

وعليه، يرى أنّ السبيل إلى الله واحد والسبل إلى دونه كثيرة متفرقة، فالله تعالى يقول: ﴿ **وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ **سورة الأنعام/153**. ويختم ابن القيم حديثه بهذا التخريج الشيق «لما كانت الظلمة، بمنزلة طريق الباطل ، والنور بمنزلة طريق الحق ، أفرد النور وجمعت الظلمات»[36].

ولذا تجد المختصين يستطردون كلاما في إفراد النور وجمع الظلمات وجها لطيفا، «وهو الإيماء إلى قلة أتباع الحق، وكثرة أتباع الباطل أو أن الأول (أي النور) إيماء على القلة و الثاني (الظلمات) إلى الكثرة »[37]،وقد ورد مثل هذه اللّافتة في القرآن في مواضع عدّة، ويتجلى بخاصة في قوله تعالى:﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾ **سورة فاطر/ 19-22**.

4-6 العدول من(فعّل) إلى (أفعِل) :

عدل الله تعالى في ذكره الحكيم عن صيغة (فعّل) إلى صيغة (أفعل) في قوله تعالى:﴿ **إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً، وَأَكِيدُ كَيْداً، فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً**﴾ **سورة الطارق/ 17**، و السرّ في هذا العدول يتجاوز المخالفة بين اللفظين لمجرد المخالفة وهذا ردّا على من

يزعمون أنّ الأمر لا يعدو أن يكون سوى مخالفة بين الصيغتين، ويستفيض شرحا بقوله: « ومن ثمّ جاء الأمر بالتمهيل مطلقا جاء معه الفعل (مهّل) ... ولما كان هذا الفعل يشعر بطول مدة التمهيل مما قد يلقي الوهن واليأس في قلوب الدعاة، أعقبها القرآن بصيغة (أفعل) مقيّدة بما يفيد التقليل »[38].

والملاحظ من كلامه أن وعيد الله تعالى آت لا محالة، فهو قريب بالنظر إلى التمهيل برغم أن المدة الزمنية التي تفصل الكافرين عن يوم القيامة قد تطول إلى آلاف السنين ، واستدلّ على معنى كلامه هذا بقوله تعالى:﴿ **سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ، لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ، مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ، تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً ، إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ، وَنَرَاهُ قَرِيباً** ﴾ **سورة المعارج/الآيات 1-7**.

وأورد الرازي :«منهم من قال (أمهلهم رويدا) إلى يوم القيامة، وإنّما صُغّر ذلك من حيث علم أن كل ما هو آت قريب، ومنهم من قال (أمهلهم رويدا) إلى يوم بدر، والأولى أولى لأنّ الذي جرى يوم بدر، لا يعمّ الكل وإذا حمل على أمر الآخرة عم الكل ولا يمتنع من ذلك أن يدخل في جملته أمر الدنيا، مما نعلم يوم بدر وغيره، وكل ذلك زجر وتحذير للقوم»[39].

5- الالتفات في الصيغ:

للالتفات قيمة أسلوبية بالغة الأثر عدا قيمته البلاغية، و قد عدّ عند بعض العلماء من فنون البيان « هذا يسمى الالتفات في علم البيان قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، و من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم»[40]، وقيل فيه أيضا « و هذا النوع وما يليه هو خلاصة علم البيان وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله»[41].

وظاهرة الالتفات ارتبطت بالعدول اللّغوي، سواء في الضمائر أو الأسماء أو الأفعال، وسواء في العدول من زمن إلى زمن آخر، و على سبيل التمثيل للالتفات – باعتباره تقلّب من أسلوب إلى أسلوب- أورد بعض أشكاله لإيضاح الغرض منه.

5-1 الالتفات في الأفعال:

ومن ذلك الرجوع عن صيغة المضارع إلى الأمر، قال تعالى:﴿ **قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ،إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ**﴾ **سورة هود/ 53،54** و اللاّفت هنا الالتفات في قوله تعالى﴿ **وَاشْهَدُواْ**﴾ بصيغة الأمر وكان سياق ما قبلها يقتضي صيغة المضارع لتوافق قوله تعالى ﴿ **أُشْهِدُ** ﴾، فما سرّ هذا؟

يرجع تقدير هذا الالتفات «ليكون موازنا له وبمعناه لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك الصحيح ثابت، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بهم، و دلالة على قلة المبالاة بأمرهم، ولذلك عدل به عن لفظ الأولى لاختلاف ما بينهما، و جيء به على لفظ الأمر تهكما واستهانة»[42].

وعليه لما كان هو عليه السلام يقيم حجته على قومه ، ذكر براءته من الشرك على مر الزمن معبرا عنه بصيغة (المضارع)، فكان إشهاد الله تعالى على ذلك لأنه علاّم الغيوب، ويعلم الجهر وما يخفى ، ولما تعلق الأمر بقومه، خاطبهم بصيغة (الأمر)، حتى يتبرأ منهم ساخرا ومستهزئا لأنّهم يعلمون إيمانه.

وفي الإخبار بالمضارع عن الماضي؛ يبرّر فاضل السامرائي ذلك بقوله: « و المقصود بحكاية الحال الماضية أن تعبر عن الحدث الماضي بما يدل على الحاضر استحضارا لصورته في الذهن كأنه مشهد مرئي في وقت الإخبار»[43].

وتمثيلا له جاء في قوله تعالى:﴿ **وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ** ﴾ **سورة فاطر/ 09**؛ وموضع الالتفات في الآية الكريمة هو التعبير عن الماضي (أرسل) بالمضارع (تسير) والملفت للانتباه في هذا العدول هو أن زمن إرسال الرياح أسبق من زمن إثارة السحاب، والغرض منه «تبيين هيئة الفعل واستحضار صورته».[44]

5-2 الالتفات في الضمائر :

ومن ذلك العدول عن صيغة المتكلم إلى صيغة المخاطب، فقد جاء في قوله تعالى:﴿ **وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ **سورة يس/ 22**،والظاهر في كلامه تعالى التعبير بصيغة المخاطب ﴿ **تُرْجَعُونَ** ﴾ بعدما كان سياق الآية يتحرك في صيغة المتكلم.

والفائدة في ذلك هي «أنه أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه، وهو يريد مناصحتهم ليتلطّف بهم ويداريهم، حيث لا يريد إلا ما يريد لروحه»[45]، بحيث أن مخاطبة المشركين بلفظ الجمع، بعد تخصيص العبادة بصيغة المفرد إنّما لتأنيبهم وترهيبهم على اعتبار أنّهم سيرجعون يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة عز وجل فآثر نصحهم على أن يتركهم في غيّهم.

أمّا في الالتفات من صيغة (المخاطب) إلى صيغة (الغائب)، فنورد قوله تعالى:﴿ **وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ،وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ **سورة النحل/ 15،16**. والشاهد في الآية هو العدول عن المخاطب (تميد بكم) طلبا لصيغة الغائب (يهتدون).

ويذكر الزمخشري سبب ذلك بقوله: «فإن قلت : وبالنجم هم يهتدون مخرج عن سنن الخطاب مقدم فيه (النجم) مقحم فيه (هم) ، كأنه قيل : وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون فمن المراد ب(هم) ؟ قلت: كأنه أراد قريشا ، كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم، وكان لهم علم بذلك لم يكن مثله لغيرهم...»[46].

ولعل المقصود بالقول سابق الذكر هو تخصيص قبيلة (قريش) كونهم يتميزون بالفراسة، فقد جعلوا (النجوم) علامات على مسايرهم، و عليه فإن في هذا الالتفات تمييز قريش عن غيرهم من القبائل و العباد.

5-3 الالتفات في الأعداد:

ومن ذلك الالتفات من (المفرد) إلى (المثنى)،وفي قوله تعالى:﴿ **وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ،قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ **سورة يونس/ 88،89**، لطيفة أسلوبية في ردّ الله تعالى الخطاب لموسى بصيغة (المثنى) وهو وحده، و مردّ ذلك «كان موسى يدعو وهارون يؤمّن، و يجوز أن يكونا جميعا يدعوان»[47]، أي أنّ موسى عليه السلام لم يكن وحده في دعاء الله تعالى، بل كان إلى جانبه أخوه هارون ، كما علمنا في القصص القرآني، وإنما خصص موسى في الآية الكريمة لأنه هو المعني بالرسالة، وهو المبعوث إلى فرعون، ومعه بني إسرائيل.

خاتمة

وأخيرا تبقى هذه الدراسة مجرّد محاولة لإدراك ما خفي من ظواهر القرآن؛ إذ مبلغي كلّه أن أفتح قوسا في قراءة خصائص الأسلوب القرآني من حيث العدول والالتفات؛ والبحث في مستوى حيويٍّ من مستويات الدّلالة – المستوى الصّرفي –، وما يفرزه من أوزان نسقطها على دلالات النّص القرآني، و ما كان ذلك ليكون لولا استقراء ما وجدته في بعض المصادر القيّمة، وفي بعض المراجع الجادّة.

ولعلّ تقتضي الضرورة البحث في موروثنا اللغوي، وعقد صلته بكشوفات الحداثة لتبيان الثراء الفكري والمعرفي لعلمائنا الأجلّاء في ميدان الدراسات اللغوية عموما، وفي مقدمتها النحو والصّرف؛ لأنّ معالجة قيم النّص الدلالية تقوم على مراعاة جوانبه النحوية والصرفية والسياقية فقط، وقد ركّزت هاهنا على البنية الصّرفيّة ودلالاتها.

الهوامش:

1. الإعجاز الصرفي في القرآن، عبد الحميد أحمد هنداوي، ص: 35.
2. المثل السائر، ابن الأثير، ج2/ 241.
3. ينظر: المثل السائر، ج2/ 242.
4. المثل السائر، ج2/ 245، 246.
5. علم الأسلوب وصلته بعلم اللغة، صلاح فضل، مجلة فصول، أكتوبر 1984، ص:57.
6. ينظر: علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، هادي نهر، ص:57.
7. علم الأسلوب وصلته بعلم اللغة، صلاح فضل، ص:57 .
8. المعنى في البلاغة العربية، حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة- مصر- ط1، 1418هـ/1998م، ص:09.
9. الكشاف، الزمخشري، تح: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان- ط1،دت،ج2 /321.
10. الإعجاز الصرفي في القرآن، عبد الحميد أحمد هنداوي، ص: 49.
11. المرجع نفسه، ص:49.
12. ينظر: الإعجاز الصرفي: عبد الحميد هنداوي، ص:50.
13. المرجع نفسه، ص:50.
14. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: 415.
15. علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، هادي نهر، ص:61.
16. المرجع نفسه،ص:61.
17. الدلالة اللغوية و أثرها في تأويل النص القرآني لدى الأشاعرة، أحمد عرابي، مخطوط دكتوراه، جامعة وهران، 2004 ص:08.
18. ينظر: علم الدلالة التطبيقي، هادي نهر، ص:65.
19. الكشاف،الزمخشري،ج253/2.
20. الكشاف،الزمخشري،ج1/ 483.
21. الكشاف،الزمخشري،ج4/ 15.
22. ينظر : الإعجاز الصرفي، عبد الحميد هنداوي، ص: 170
23. الإعجاز الصرفي، عبد الحميد هنداوي،ص:171،170.
24. المرجع نفسه، ص: 172.
25. المرجع نفسه، ص: 172.
26. الإعجاز الصرفي، عبد الحميد هنداوي،ص:175.
27. ينظر: الكشاف، الزمخشري، ج2/ 268.
28. المصدر نفسه، ج3/ 32.
29. الإعجاز الصرفي، هنداوي، ص:181.
30. المرجع نفسه، ص: 181.
31. ينظر : الكشاف،الزمخشري،ج3/ 32 .
32. علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، هادي نهر، ص:60.
33. الإعجاز الصرفي في القرآن، هنداوي، ص:180.

34. المرجع نفسه، ص: 180.
35. بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية، تح: هشام عطا وزميلاه، مكتبة نزار مصطفى، مكة المكرمة، دط،1990/1416،ج1/ ص:119.
36. بدائع الفوائد، ابن القيم،ج1/ 119.
37. الإعجاز الصرفي، هنداوي، ص: 183، 184.
38. ينظر: المرجع نفسه ، ص: 187.
39. نقلا عن: الإعجاز الصرفي في القرآن، ص: 188.
40. الكشاف،الزمخشري،ج1/ 64،65.
41. المثل السائر، ابن الأثير، ج2/ 170.
42. البحث الأسلوبي معاصرة و تراث، رجاء عيد، ص: 250.
43. معاني النحو، فاضل السامرائي، بيت الحكمة، مطبعة التعليم العالي، الموصل-العراق- (د ط)، السنة:1985،ج3/ 319.
44. البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، رجاء عيد، ص: 251.
45. الكشاف،الزمخشري،ج3/ 318.
46. الكشاف، الزمخشري، ج2/ 404.
47. الكشاف، الزمخشري ،ج2/ 250.

اسم الإشارة رابطاً في التعقيبات القرآنية

دراسة وصفية تحليلية

الأستاذ: مراد العرابي
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة البليدة 2

Abstract:
This work represents an attempt to study the important role played by the Arab demonstrative pronouns in linking parts of speech in the language of the Arabs in general, and in the Koran, especially, where the activation of an integrated system of methods to achieve the highest form of cohesion script. It also seeks to describe the part of the regular employment of this type of connection methods in the Koran, which represents a stylistic phenomenon worthwhile in many ways, especially from synthetic side.

يمثّل هذا العمل القائم على التّوليف بين الوصف والتّحليل محاولةً لإلقاء الضوء على الدّور الهام الذي تقوم به أسماء الإشارة في الرّبط بين أجزاء الكلام في سائر كلام العرب، وفي كتاب الله تعالى بوجهٍ خاصّ، وفي أسلوب التّعقيب بوجهٍ أخصّ، حيث يتم تفعيل منظومة متكاملة من الأساليب لتحقيق نموذجٍ أعلى للتّماسك النّصي. كما يسعى أيضاً لوصف جانب من التّوظيف المطّرد لهذا الضّرب من وسائل الرّبط في تعقيبات القرآن الكريم، وهو ما يشكّل بحقّ ظاهرة أسلوبية جديرة بالعناية من جوانب عدّة، وبالأخصّ من الجانب التّركيبي.

وإذا كانت المصطلحات هي مفاتيح العلوم، فإن بلوغ هذا كلّه لا يستقيم إلا بالوقوف على مفاتيحه ممثّلةً في مصطلحي "اسم الإشارة" و" التّعقيبات القرآنية "، وذلك ضمن الإطار الذي يسمح به المقام في هذه العجالة.

أمّا **اسم الإشارة** فهو اسمٌ مبهمٌ موضوعٌ لمشارٍ إليه إشارةً حسّية بأحد الأعضاء [1]، أو هو اسمٌ يعيّن مدلوله تعيينًا مقرونًا بإشارة حسيّة إليه[2]. وتتعدّد أسماء الإشارة في كلام العرب، فمنها ما يدلّ على الإفراد أو التّثنية أو الجمع، مع مراعاة جوانب أخرى كالتّذكير والتأنيث والعقل. ومنها ما يدلّ على القرب أو البعد أو التّوسّط بينهما [1].

---

[1] – جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م، ج1، ص 67

[2] – للاستزادة ينظر: النحو الوافي: عباس حسن، دار المعارف، ط15 ، ج1، ص 321.

والأصل في استعمال سائر أسماء الإشارة أن يكون المشار إليه شيئًا محسوسًا مشاهداً، قريباً أو بعيداً، ولكنها تُستعمل أيضاً للإيماء لغير المحسوس قصد تصييره في منزلة المشاهَد [2]، وقد جاء ذلك في التّنزيل في مواضع كثيرة كما في الإشارة إلى الجنّة في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾ (مريم، 63). ومنه ما جاء في الإشارة إلى يوم القيامة في قوله جلّ من قائل: ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ (المعارج، 44). ومنه أيضاً ما جاء في الإشارة إلى الله تعالى في قوله : ﴿ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (الأنعام، 95). وكلّ ذلك مما لا سبيل إلى إدراكه بالمشاهدة أو بسائر الحواس.

وأمّا مصطلح **التّعْقيب** فهو في اللغة مصدر الفعل عقَّب، وهو فعل مُضعّف الوسط يدلّ في أصله على تأخير شيء وإتيانه بعد غيره [3]. وهو في الاصطلاح ذلك الجزء أو المقطع المستقل الذي يذيّل الآية الكريمة، زيادةً في البيان ومحافظة على وحدة الإيقاع [4]، وتحقيقاً لأغراض الخطاب من ثناءٍ على الله تعالى، وأمرٍ ونهي، ووعدٍ ووعيد، ومدحٍ وذمٍ... وغير ذلك من سائر المعاني، كقوله تعالى: ﴿وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تعقيباً على الآية الكريمة: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة، 74)، أو تعقيباً على قوله أيضاً: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة : 144).

والواقع أن وصف التّعقيب بكونه مقطعاً مستقلاً يقتضي الفصل بينه وبين ما يسبقه باعتبار أن القول إذا استكمل آلته، واستتمّ معناه فالفصل عنده [5]. وذلك ما يفسر طبيعة الوقف القائم بين جملة التعقيب وما قبلها من الآية الكريمة والذي لا يخرج عن التّمام في الأعمّ الأغلب، أو الكفاية في تعقيب بعض الآيات[6]. ولذلك يُبدِع الأسلوب القرآني في توظيف طرائق خاصّة لإقامة ضرب بديع من الفصل الموصول الذي يحرص على تماسك أجزاء النّصّ فتبدو للناظر كالآية الواحدة، بل وكالجملة الواحدة. وإذا تتبّعنا ما ترد عليه أغلب تعقيبات الكتاب العزيز فإنها لا تخرج عن جملة من الأحوال، ولعل أهمها أن يرد التّعقيب عارياً من كلّ ما يدلّ على العطف

---

[1] – نفسه، ص 321.

[2] – الكليات : أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، تح : عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 123.

[3] – ينظر : معجم مقاييس اللغة : أحمد بن فارس، تح : عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979م، ج 4، ص77.

[4] – ينظر: التناسب البياني في القرآن الكريم : أحمد أبو زيد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992م، ص91.

[5] – كتاب الصناعتين : أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1419 هـ، ص 440.

[6] – الوقف الكافي في عُرف علماء القراءات هو ما يحسُن القطْع عليه والابتداء بما بعده، لأنه لا تعلّق بينه وبين ما قبله من الآية الكريمة، كما في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ (الفرقان، 29)، فقد جاء المقطع الأول من الآية الكريمة حكايةً لكلام الظالم، وهو أُبَيّ بن خلف، ثم يلي ذلك التّعقيب ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً ﴾، وهو من كلامه ﷻ وبينهما تمام الانفصال، ولذلك فإن الواو في هذا الموضع للاستئناف، ولا يصحّ أن تكون للعطف وذلك لفساد المعنى، كما يكون الوقف تامّاً، يجوز عنده قطع التلاوة، لأنه لا تعلّق بينه وبين كلامه ﷻ. ومن هذا الضّرب أيضاً قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (النمل، 34)، فإن المقطع الأول من الآية الكريمة جاء حكاية لكلام بلقيس، وأما التعقيب ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فهو من كلامه ﷻ، ولا تعلُّق بينهما، ولذلك كان الوقف في هذا الموضع تامّاً. أما الكافي فهو الذي يحسُن الوقف عليه والابتداء بما بعده، غير أن الذي بعده متعلّقٌ به من جهة المعنى دون اللفظ، وكذلك كلّ كلامٍ قائمٍ بنفسه يفيد معنى يُكتفى به، فالقطع عليه كافٍ، وتفاضله في الكفاية كتفاضل التّـام سواء. للاستزادة ينظر :

– المكتفي في الوقف والابتداء : أبو عمرو الداني، تح : محيي الدين عبد الرحمن رمضان، دار عمار، ط 1، 2001م، ص 7 وما بعدها.

أو حتى الاستئناف، وذلك أكثر ما يكون عليه أسلوب التّعقيب، وفي هذه الحالة يوظّف الأسلوب القرآني " إنّ " المشبّهة بالفعل ويُسخّر دلالتها للربط بين جملة التّعقيب وما يسبقها من الآية الكريمة ربطاً عجيباً. وقد نبّه إلى ذلك الجرجاني، فقال : "اعلم أن من شأن " إنّ " إذا جاءت على هذا الوجه، أن تغني غناء " الفاء " العاطفة مثلا، وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمرا عجيباً. فأنت ترى الكلام بها مستأنفاً غير مستأنف، ومقطوعاً موصولاً معاً. أفلا ترى أنك لو أسقطت " إنّ " من قوله : " إنّ ذاك النجاح في التبكير "، لم تر الكلام يلتئم، ولرأيت الجملة الثانية لا تتصل بالأولى ولا تكون منها بسبيلٍ حتى تجيء بالفاء فتقول: " بكرا صاحبي قبل الهجير، فذاك النجاح في التبكير " [1].

كما قد يوظّف الأسلوب القرآني وسائل أخرى كالرّبط بواو الاستئناف ، وهي الواو التي يُراد بها استئناف كلامٍ جديد، غير مرتبط بالكلام السابق [2]، وذلك شائع جداً في موضع التّعقيب، قال تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (المائدة، 38). أو كالرّبط بفاء الاستئناف، وهي أقل الأساليب استعمالاً بالنّظر إلى الأساليب السّابقة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (القصص، 40)، ومنه أيضاً ما جاء مكرّراً في سورة الرحمن في قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

وقد يوظّف الأسلوب القرآني بعض الأدوات الأخرى في حالات معدودة ويُسَخّر دلالتها لوصل جملة التّعقيب بما قبلها من الآية الكريمة ربطاً في غاية الحسن، كاستعمال " بل "، وهي " حرف يفيد الإضراب عن المعنى الأول وإثبات الثاني ، فهو يقطع ويفصل، ولأن إثبات الثاني لم يجيء إلا بإبطال الأول ، فهو مرتبط به موصول بوجوده ، أي أنه فصل موصول ، أو قطع مربوط"[3]، من ذلك قوله تعالى : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (لقمان، 11)، ومنه أيضاً قوله : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ (الفتح، 11). كما يستعمل الأسلوب القرآني " بلى " في بعض المواضع القليلة ، وهي حرف جواب لا تقع إلا بعد نفيٍ فتكون ردّاً له، سواء اقترنت به أداة استفهام أو لا [4] ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الأحقاف، 33). وقد يستعمل " ألا " الاستفتاحية، ربطاً للاحق بالسابق، وتوجيهاً للذّهن وتنبيهاً له إلى طبيعة المضمون المهمّ [5] الذي يحتويه التّعقيب، كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (هود، 18).

وقد يجمع بين بعض الأساليب السّابقة كالجمع بين " إن " المشبّهة بالفعل وواو الاستئناف، إذ يحصل من اجتماعهما من التّوكيد وحسن النّسق ما لا يخفى، ويمكننا تأمّل ذلك بوضوح في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال، 42). ومن ذلك أيضاً: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ

---

[1] - دلائل الإعجاز في علم المعاني: عبد القاهر الجرجاني، تح : محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني، القاهرة، دار المدني، جدة ،ط 3 ، 1992، ص 273.

[2] - البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن الميداني، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1996م، ج1، ص 582.

[3] - الفصل والوصل في القرآن الكريم: منير سلطان، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط 2، ص 178 .

[4] - ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني: أبو محمد بدر الدين المرادي ،تح : فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط 1، 1992م، ص420، 421.

[5] - ينظر : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : جمال الدين بن هشام الأنصاري، تح : يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج 2، ص 25.

أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ (المائدة، 49). وقد يجمع بينها وبين " أَلَا " الاستفتاحية، كما في تعقيب قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الشورى، 5)، ومنه أيضاً : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ (الشورى،45).

الرّبط بأسماء الإشارة في التّعقيبات القرآنية :

إلى جانب ذلك كلّه يكتّف أسلوب التّعقيب من حضور بعض أسماء الإشارة وصلاً لآخر الكلام بأوّله، وتحقيقاً لبعض مقاصد البلاغة، يقول تعالى : ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ **ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** ﴾ (الشورى، 22)، فقد جيء باسم الإشارة في هذا الموضع تحقيقاً لأمرين أساسيين:

– أولهما إحكام الرّبط بين جملة التعقيب وسياق الآية قبلها، فكان في توظيف " ذلك " إشارة إلى مضمون قوله تعالى: ﴿ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾.

– أما الثاني، فهو الدلالة باسم الإشارة الخاص بالبعيد على كون المشار إليه بعيد المكانة بُعد ارتفاعٍ مجازي، وهو الشرف [1].

وتشتد الحاجة إلى هذا الضّرب من التوظيف قصد إحكام الربط بين قسمي الآية الكريمة حين يطول الكلام، وتلك عادة العرب في كلامها، إذ يُؤتى باسم الإشارة ربطاً للاحق بالسابق إذا طال الفصل بين الشيء وما ارتبط به من حكم أو علّة أو نحوهما [2]، من ذلك ما جاء في بعض شعر النابغة الذّبياني يعتذر من ملك الحيرة النّعمان بن المنذر، يقول [3]:

أتـاني أبيْت اللعنَ أنكَ لمتني ... وتلك التي تستك منها المسامعُ
مقـالـة أن قد قلت سوف أنالُهُ ... وذلك من تـلقـاءِ مثلـك رائـعُ

فإن الإشارة بـ " ذلك " في عجز البيت الثاني تعود على المقولة الواردة في صدر البيت الأول، وهي قوله: " أتاني أبيت اللعن أنك لمتني "، وبين الموضعين بُعدٌ ظاهرٌ، فلا يستقيم بينهما سَبْكٌ حَسنٌ إلا بتوظيف ما يقدّمه اسم الإشارة من قدرة على الربط بين أقسام الكلام المتباعدة. ولأجل ذلك جيء باسم الإشارة في تعقيب قوله تعالى : ﴿ لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (النساء، 162). كما جيء به أيضاً تحقيقاً للغاية نفسها في تعقيب قوله أيضاً : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝ لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (الأنفال، 36 – 37).

وإذا كان حضور بعض أسماء الإشارة آكد في تعقيب الآيات الكريمة حين تتباعد أجزاء الكلام فإن هذا الحضور يصبح ضرورة لا يستقيم سبكٌ إلا بها في تعقيبات القصص، ولذلك تشتدّ الحاجة إلى هذا الضّرب من الرّبط بعد عرضٍ مفصّلٍ لجانب من قصة خليل

[1] – ينظر : التحرير والتنوير : محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984 هـ، ج 25، ص 80
[2] – ينظر : نفسه، ج 2، ص 126.
[3] – ديوان النابغة الذبياني: عناية وشرح: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، ط2، 2005، ص 76.

الله إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه، وهو ما يفسّر الحضور الثلاثي لاسم الإشارة في تعقيب واحد، في قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ** هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۞ **أُوْلَئِكَ** الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ ۞ **أُوْلَئِكَ** الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام، 88 – 90). وقد ذهب أهل التّفسير إلى أن الهُدى المشار إليه في التّعقيب السّابق، والذي أضيف إلى لفظ الجلالة تكريماً وتشريفاً عائدٌ على أفعال الهداية الثلاثة التي جاء ذكرها في الآيات السّابقة في قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ **هَدَيْنَا** وَنُوحاً **هَدَيْنَا** مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأنعام : 84)، وقوله بعد ذلك : ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ **وَهَدَيْنَاهُمْ** إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الأنعام، 87)[1].

والواقع أن الهدى المشار إليه يمتدّ إلى مواضع أبعد من ذلك في السورة الكريمة، في قوله تعالى: ﴿ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ (الأنعام، 80)، وقوله بعد ذلك: ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام، 82)، ولا يُتوقّع أن يستقيم بعد ذلك ربطٌ بين كلّ هذه الأجزاء المتباعدة دون توظيف ذلك القدر من أسماء الإشارة.

ولذلك تشتد الحاجة أيضاً إلى هذا الربط الوثيق بتوظيف عدد أكبر من أسماء الإشارة في تعقيب واحد جاء بعد عرضٍ مفصّلٍ لمجموعة واسعة من قصص أنبياء الله تعالى ومعاناتهم مع أقوامهم ممثّلة في نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام. وقد كان من الحتمي بعد طول الكلام في تفاصيل القصّ أن يحتاج تعقيب ذلك كلّه إلى أكثر من رابط يربط اللاحق بالسابق، ولا يكون ذلك إلا بأسماء الإشارة، يقول تعالى:﴿ **ذَلِكَ** مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۞ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۞ **وَكَذَلِكَ** أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۞ إِنَّ فِي **ذَلِكَ** لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ **ذَلِكَ** يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ **وَذَلِكَ** يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۞ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۞ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ (هود ، 100-104).

ومما تجدر الإشارة إليه أن أسماء الإشارة تتفاوت في حضورها في موضع التّعقيب إذ أن بعضها لم يرِد سوى في مواضع معدودة جدّاً، كـ " تلك " التي ترد في العرف اللغوي للإشارة إلى المفرد المؤنث، وقد وردت في بعض التّعقيبات، منها قوله تعالى : ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ (الرعد، 35)، أو كـ " هذا " الذي يُشار به في العادة إلى الحاضر من المفرد المذكّر: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية، 20). وفي مقابل ذلك فإن أسلوب التّعقيب يكثّف من حضور بعض أسماء الإشارة، ويتعلّق الأمر باسمين اثنين، هما : أولئك وذلك.

– أولئك في التّعقيبات القرآنية :

1- " **أولئك** " اسم إشارة للجمع المذكّر والمؤنّث، ويُشار به غالباً للعاقل، ولكنه يُستعملُ لغير العاقل في كلام العرب، كقول الشاعر:

ذمّ المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام[2].

[1] – التحرير والتنوير، ج7، ص 350-351.

[2] – ينظر : جامع الدروس العربية : مصطفى بن محمد سليم الغلاييني، المكتبة العصرية، بيروت، ط 28، 1993م، ج 1، ص 127

وقد جاء في التّنزيل على هذا الوجه في موضع وحيد، في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (الإسراء، 36).

وقد وظّف الخطاب القرآني اسم الإشارة " أولئك " في تعقيبات كثيرة قصد إفادة الربط بين جملة التّعقيب وما قبلها من الآية الكريمـة، كما يُراد بتوظيفها الدلالة على البعد مجازاً، وتلك سنّة العرب في كلامها، كقول الحطيئة[1]:

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا   وإن عاهدوا أوفوا، وإن عقدوا شدّوا

وهي عادة القرآن في مقام التّعظيم أو خلافه، ولذلك وصف أهل الفلاح من المتقين في أوّل الكتاب بقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة، 5)، كما وصف أهل الضّلالة من الإنس والجن بالطّريقة نفسها، فقال: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف، 179). ويبلغ هذا التّكثيف الدّلالي الناتج عن تكرار اسم الإشارة ذروته في بعض الآيات الكريمة فيصف الأسلوب القرآني أحوال أهل النار وما هم عليه من العذاب المقيم بطريقة تجتمع فيها أسماء الإشارة وتتقارب في تعقيبٍ واحد بعد التّذكير بعدد من الآيات العظيمة التي لا ينكرها صاحب عقل، ولذلك جاء التّعقيب مُشبَعاً بمعاني الخزي والتقريع والذّم، في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ **أُوْلَئِكَ** الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ **وَأُوْلَئِكَ** الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ **وَأُوْلَئِكَ** أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ ﴾ (الرعد، 5).

ومن المثير للاهتمام أنّ أسلوب التّعقيب يوظّف اسم الإشارة " أولئك" بطريقةٍ نمطيّةٍ ثابتة في جملة التّعقيب، وهي لا تخرج في الأعمّ الأغلب عن صورتين:

– **الأولى** : أن يرد اسم الإشارة في مـوضع المبتدأ، ويُسند إليه خبرٌ يتمّم معنى الجملة، وتكون الجملة المكوّنة من المبتدإ والخبر تعقيباً مستقلاً في لفظه ومعناه، قائماً بذاته. ويتنوّع خبر " أولئك " فيكون مفرداً ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة، 257)، أو جملة اسمية ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (الجاثية، 9)، أو فعلية ﴿ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ (النساء، 18)، وقد يرد شبه جملة من جارٍّ ومجرورٍ ﴿ أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ﴾ (إبراهيم، 3). وقد يُفصل بين " أولئك " وبين خبرها بضمير الفصل قصد إفادة معنى الحصر، وذلك شائعٌ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (البقرة، 27)، ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف، 179)، ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (الحجرات، 15)، ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (الحشر، 19).

– **الثانية** : أن يرد اسم الإشارة في مـوضع المبتدأ، ويُسند إليه خبرٌ يتمّم معنى الجملة، وتكون الجملة التّامة المكونة من المبتدإ والخبر جزءاً من تعقيب شرطي، فلا يستقيم فيه معنىً إلا بوجود أداة الشّرط " من " وجملتي الشّرط والجواب.

من ذلك قوله : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا **وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ (البقرة، 229)، وقوله أيضاً:﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ **وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ (البقرة، 121).

ويمكن توضيح هذه البنية النّمطية من خلال المخطط البياني التّالي:

[1] – الكامل في اللغة والأدب: محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط3،1997م، ج2، ص 138.

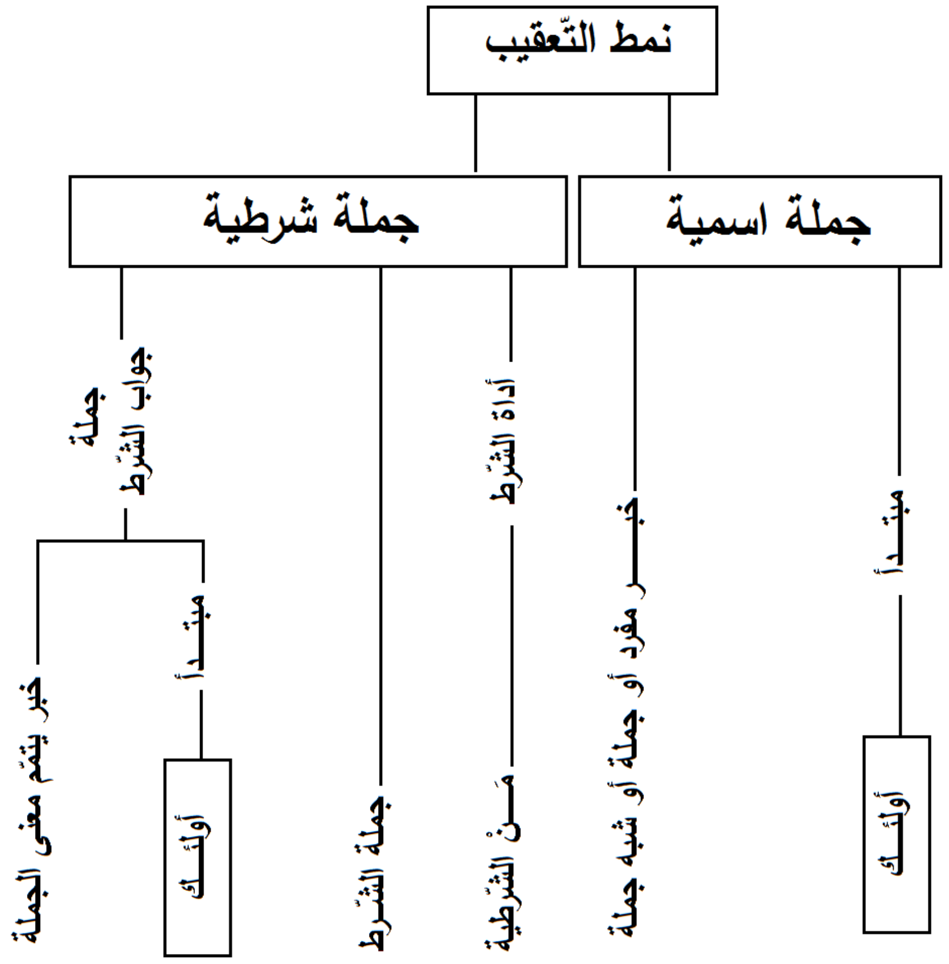

مخطّط توضيحي يبيّن

البنية النّمطية لتعقيبات اسم الإشارة (أولئك) في القرآن الكريم

ولا يخرج الأسلوب القرآني في توظيفه لاسم الإشارة " أولئك " في موضع التّعقيب عن هذا التّركيب النمطي إلاّ في موضعين، جاء في أولهما فاعلاً، وذلك في تعقيب قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ **أُولَئِكَ** رَفِيقاً ﴾ (النساء، 69). أما في الموضع الثاني فقد جاء اسماً للفعل الماضي "عسى"، وذلك في تعقيب قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (التوبة، 18).

2- **وأما " ذلك "** فهو اسم إشارة للبعيد[1]، ويتمّ توظيفه في أسلوب التّعقيب ربطاً لآخر الكلام بأوّله ودلالةً على البعد المجازي كما سبق الذّكر، وهي عادة القرآن في مقام التّعظيم، ولذلك أشار الأسلوب القرآني إلى الكتاب العزيز في أول القرآن بقوله : ﴿ألم ۞

[1] – للاستزادة ينظر : جامع الدروس العربية، ج 1، ص 128

ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة، 2) قصد الدّلالة على بعده درجةً، ولذلك أيضاً حكى ما قالته امرأة العزيز بإيراد اسم الإشارة الدّال على البعد:﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ (يوسف، 32)، ولم تقل " فهذا "، ويوسف حاضراً، رفعاً لمنزلته في الحسن، واستحقاقِ أن يُحَبَّ ويُفتتن به، واستبعادًا لمحله [1].

ويشيع استعمال اسم الإشارة " ذلك " في سياق الوعد والوعيد، ولذلك أورد الأسلوب القرآني قوله تعالى: ﴿ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ في مواضع متعدّدة جاءت كلُّها في سياق الحديث عن جنات النّعيم بأنهارها ومساكنها الطيبة [2]. وفي المقابل يوظّف الأسلوب القرآني اسم الإشارة "ذلك" بالطريقة نفسها قصد الإيغال في معاني الخِزْي في سياق الوعيد بعذاب جهنم، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة، 63)، فقد ذكر بعض المفسّرين أن الخطاب القرآني جاء باسم الإشارة " ذلك " في هذه الآية الكريمة قصد الإشارة إلى ما ذُكر من العذاب وإيذاناً ببُعد درجتِه في الهول والفظاعةِ[3].

ومما تجدُر الإشارة إليه أن الخطـاب القـرآني يبدي تنويعاً ملحوظاً في تعقيبات " ذلك " بالنّظر إلى تعقيبات " أولئك "، وهي في الغالب لا تخرج عن أربعة أشكالٍ:

– **أوّلها** أن يرد اسم الإشارة ربطاً للكلام في موضع المبتدأ، ويُسند إليه خبرٌ معرفة يتمّم معنى الجملة كما في الأمثلة السّابقة: ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (النّساء، 13)، ﴿ ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة، 63). وقد يكون الخبر معرّفاً بالإضافة ﴿ وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة، 85)، أو شبيهاً بالمضاف ﴿ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (هود، 114)، أو شبه جملة ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (الأعراف، 26)، وقد يمتدّ إلى أشكالٍ أخرى في بعض التّعقيبات.

ويكثر في التعقيبات التي يكون فيها خبر " ذلك " معرّفاً بـ " أل " التّعريف أن يُفصل بين اسم الإشارة وخبره بضمير الفصل[4] قصد إفادة معنى الحصر، ولذلك تكرّر التّعقيب بقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ في ستة مواضع[5] تؤكّد أن الفوز الحقيقي محصورٌ في الفوز برضوان الله تعالى، وأن كلّ فوزٍ دونه خسران. كما تكرّر التّعقيب باستخدام اسم الإشارة " ذلك " بالأسلوب نفسه في مواضع أخرى ، وهو ما توضّحه الأمثلة التالية :

﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ ﴾ (إبراهيم، 18)
﴿ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (الحج، 11)
﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ (الحج، 12)

---

[1] – ينظر: مفتاح العلوم : يوسف بن أبي بكر السكاكي، ضبط وتعليق : نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987.، ج 1، ص 184

[2] – النّساء، 13 – المائدة، 119 – التوبة، 89 – التوبة، 100 – الصّف، 12 – التغابن، 9.

[3] – ينظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : أبو السعود العمادي محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.، ج 4، ص 79.

[4] – هو الضمير الذي قد يتوسط بين المبتدأ والخبر، أو ما أصله مبتدأ وخبر، إيذاناً من أول الأمر بأن ما بعده خبر لا نعت. وهو يفيد تأكيد الحكم، لما فيه من زيادة الربط. وقد سُمّي بضمير الفصل لأنه يؤتى به للفصل بين ما هو خبر أو نعت، لأنك إن قلت "زهير المجتهد"، جاز أنك تريد الإخبار، وأنك تريد النعت. فان أردت أن تفصل بين الأمرين، وتبين أن مرادك الإخبار لا الصفة، أتيت بهذا الضمير للإعلام من أول الأمر بأن ما بعده خبر، لا نعت. للاستزادة ينظر :

– جامع الدروس العربية، ج 1، ص 126.

[5] – التوبة،72، 111– يونس، 64– غافر،9– الدخان، 57– الحديد، 12.

﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (فاطر، 32)
﴿ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (الزمر، 15)
﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (الشورى، 22)
﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ (الجاثية، 30)

وقد يُراد العناية والاهتمام بالمشار إليه وتمييزه في التّعقيب أكمل تمييز فتدخل " ألا " الاستفتاحية على اسم الإشارة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (الزمر، 15)، تعقيباً على قوله تعالى: ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [1].

– **الثاني** : أن يقع اسم الإشارة في موضع اسم " إن "، حيثُ يُراد توكيد مضمون التّعقيب في بعض السّياقات حين يكون الخطاب موجهاً للمنكرين من أهل العناد والكفر، وذلك مما يناسب سياق الجدل، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ **إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ (العنكبوت، 19). وقد يرمي الأسلوب القرآني إلى المبالغة والزيادة في التوكيد فتتّصل لام التوكيد بخبر " إنّ "، وهي اللام المعروفة عند النحاة باللام المزحلقة [2]، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ۞ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ۞ **إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ** ﴾ (ص، 62-64). وقد جاء اسم الإشارة في هذه الآيات الكريمة التي تصور مشهداً عجيباً من مشاهد أهل النار ربطاً للتّعقيب بما يسبقه من جدالٍ أو خصومة بين الرؤساء من أهل الضلال في الدّنيا وأتباعهم. وقد عبّر الأسلوب القرآني عن ذلك بالخصومة لأن قول الرؤساء " لا مرحبا بهم " وقول الأتباع " بل أنتم لا مرحبا بكم " يدخل في باب الخصومة بعد تجاوز مرتبة الجدال [3]. كما أنّ الأسلوب القرآني قد عبر عن هذا الموقف الرّهيب بلفظ الخصومة أيضاً في موضع آخر، مما يدلّ دلالة قاطعة على أنها خصومة على وجه الحقيقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ (الحج،19). وقد ذكر أهل التّفسير في هذا الموضع أن " توكيد الخبر بحرف التوكيد منظور فيه لما يلزم الخبر من التعريض بوعيد المشركين، وإثبات حشرهم وجزائهم بأنه حق " [4]، تصديقاً لوعده تعالى في مواضع كثيرة: ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ (الذاريات، 6) ، ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ (الطور، 7) ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ (المرسلات، 7).

– **الثالث** : أن يرد اسم الإشارة اسماً مجروراً ب " في "، وذلك كثيرٌ في موضع التّعقيب في سياق الحديث عن الآيات التي يتوجّب فيها الاعتبار والموعظة، ولذلك تتصل لام التّوكيد باسم " إن " المتأخّر، وهو في الأعمّ الأغلب لفظ آية مفرداً،كما في تعقيب قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ **إِنَّ فِي**

---

[1] – للاستزادة ينظر : التحرير والتنوير، ج 23، ص361.

[2] – اللام المزحلقة : من المؤكدات، فائدتها توكيد نسبة الخبر إلى المبتدأ، والأصل فيها أن تتصدر الكلام، غير أن اجتماعها مع " إن " في صدر الكلام كان سبب زحلقتها إلى الخبر، لأن اجتماع حرفين بمعنى واحد في مكان واحد لا نظير له، فسُمّيت اللام المزحلقة. للاستزادة ينظر :

– فتح رب البرية في شرح نظم الآجرومية : أحمد بن عمر بن مساعد الحازمي، مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، ط1، 2010م، ص 377.

[3] – للاستزادة ينظر:

– التحرير والتنوير، ج 23، ص 294.

– مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير : فخر الدين الرازي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط 3 ، 1420، ج26 ، ص 405.

[4] – التحرير والتنوير، ج 23، ص 293.

ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة، 248). وقد يرد في صيغة الجمع ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (العنكبوت، 24)، وقد يقوم مقامه في بعض التّعقيبات القليلة ألفاظ مثل :" رحمة " في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (العنكبوت، 51)، أو كلفظ " عبرة " في قوله ﷻ: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ (آل عمران، 13)، وجميعها مما يستدعي الموعظة والاعتبار والتّدبّر ، أو كلفظ "ذكرى" في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر، 21).

– **الرّابع** : أن يقع اسماً مجروراً بكاف التّشبيه، حيث يراد بتوظيف " كذلك " الدّلالة على تشبيه شيء بشيء، والمشبه به ظاهرٌ مشارٌ إليه، كقول الشاعر:

فألفيتُ الأمانة لم تخنها   كذلك كان نوحٌ لا يخونُ [1]

ويشيع هذا الوجه من استعمال اسم الإشارة " ذلك " في موضع التّعقيب، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (لأعراف، 57)، ففي التّعقيب بقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ إشارة إلى ما ذُكر من قبل من إرسال الرّياح، وإنزال الغيث، وإحياء البلد الميّت، وإخراج الثمرات. ولا يستقيم ربطٌ بين ذلك كلّه وبين التّعقيب إلا بتوظيف الطاقات التي يقدّمها اسم الإشارة لوصل أجزاء الآية الكريمة.

ولعل تفسير التّنوع الأسلوبي الذي يبديه النّص القرآني في توظيفه لاسم الإشارة " ذلك " عائد إلى سعة دلالته وقدرته على الإشارة إلى المضامين المتنوعة، في مقابل " أولئك " الذي تقتصر دلالته غالباً على ضربٍ واحدٍ مشارٍ إليه ممثّلاً في العاقل من الجمع المذكّر والمؤنث (أصحاب النّار، أصحاب الجنة، المهتدون، المتقون، الغافلون، الفاسقون، الخاسرون...)، وذلك قد يُفسّر البنية النّمطية لتعقيباته.

إن واقع التوظيف القرآني لهذا الضّرب من وسائل الربط في التّعقيبات القرآنية وبذلك التّواتر الكبير يكشف عن يقينٍ عميق بقدرتها على تحقيق التّماسك النّصي في أكمل صوره، وهو ما يجعل من كتاب الله تعالى كلّه كالسورة الواحدة، وكالآية الواحدة. ولعل في استعمالها النّمطي على ذلك النّحو المثير للاهتمام ما يكشف عن جانب خفيٍّ من بعض جوانب الإعجاز في كتاب الله تعالى، وفي لغته الشّريفة مما هو في حاجة إلى كثير من الجهد مما لم يبلغه هذا العمل المحدود زماناً ومكاناً.

[1] – ينسب هذا البيت للنابغة وهو مما أنكره الجاحظ، وجعله من منحول شعره، وذلك لان الناس يضربون المثل بالشيء النادر من فعل الرجال. وذلك مما لا يستقيم مع حال هذا البيت، لأن الخيانة ليست من خلق الأنبياء في سائر أحوالهم وأزمانهم. للاستزادة ينظر :
– أبو عثمان الجاحظ: الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1424هـ، ج2، ص 380.

القياس في النحو و الفقه بين المؤيدين و المعارضين - وصف و تحليل -

الأستاذ: عتابـــي بن شرقي
قسم اللّغة العربية و آدابها
جامعة لونيسي علي – البليدة 2

مستخلص البحث:

يتناول البحث قضية أثارت جدلاً كبيراً و نقاشاً حادّا قديما و حديثا في النحو ، كما في الفقـه ، هي قضية القياس كأصل يُستدل به على تعميم القاعدة النحوية ، و معرفة الأحكام الفقهية ، فالمتفحص لكتب النحو يدرك أن العلماء قد استخدموا القياس دليلاً على الأحـــكام النحوية ، و آلة منهجية لتقعيد القـواعد ، و كشف النظام الباطن للّغة ، كما استُعمل في استحداث ما لم يُسمع من الكلام قياساً على ما سُمع ، لكن القياس بهذا المعنى المذكور قد أُختلف في اعتباره و الأخذ به بين مؤيّدٍ و معارضٍ ، كما تباينت طريقة استخدامه

و كيفية توظيفه ، و لكلٍ تعليلاته و تبريراتُه .كما أنّ الناظر في كتب أصول الفقه المختلفة يتبين له أنّ المصادر الثلاثة الأولى (القرآن الكريم ، الحديث النبوي الشريف ، الإجماع) قد حصل في شأنها الاتفـاقُ و اختُلِفَ في القياس، أهو مصدرٌ و أصلٌ تستنبط بواسطته الأحكام أم لا ؟.

إن هذه البحث سيجيبنا عن الاشكالية التالي : ما أدلة المؤيدين للقياس في النحو و الفقه ؟ و ما حجج المعارضين له ؟ وكيف يمكن الرد عليها ؟ .

إذن ، ستتعرض هذه الورقة البحثية – بالاعتماد على منهج وصفي تحليلي - إلى نشأة القياس في هذين العلمين (الفقه والنحو و المراحل التي مرّا بهما ،كما ستتطرق إلى المؤيدين للقياس و حججهم في ذلك
و الرافضين له و شبههم و الردّ عليها .

الكلمات المفاتيح

النحو ، الفقه ، القياس ، المذهب الظاهري .

01 - نشأة القياس في أصول النّحو:

إنّ القياس في أصول النّحو هو ثاني مصدر (دليل) يُستدل به على الأحكام النّحوية ، فهو يأتي في الرّتبة بعد السماع (النّقل) بإجماع النّحاة ، و إذا كان العلمُ الذي يجمع أدلةَ الفقه هو أصول الفقه ، فإنّ الذي يجمعها في النّحو يسمى بأصول النحو، لذلك يقول ابن الأنباري :

« أصول النّحو أدلة النّحو التي تفرّعت منها فروعُه و فصوله»[1].

إنّ الحديث عن نشأة القياس في أصول النّحو مرتبط أساساً بنشأة النّحو ، لأن النحو مبني على القياس، بل النّحو «كلّه قياس»[2].

إذا تأملنا القياس في النّحو فسنجد أنّه مرّ بثلاث مراحل هي:

أ- مرحلة النّشأة:

إنّ أُولى الإشارات و التطبيقات للقياس ظهرت مع نحاة الطبقة الثالثة :

عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت118هـ)، و عيسى بنِ عمرَ (ت149هـ) ، و أبي عمرو بنِ العلاء(ت154هـ) ففي هذه المرحلة بدأ هؤلاء النّحاةُ يعتمدون في تقعيداتهم و دراساتهم على القياس على اختلاف بينهم في درجة الاستعمال ، فعبدُ الله بنُ أبي إسحاقَ الحضرمي « كان أشدّ تجريداً للقياس ، و كان أبو عمرو أوسعَ علماً بكلام اللغات و غريبها »[3].

لقد اعتُبر ابنُ أبي إسحاق أولَّ من بعج النّحو ومدّ القياس و العلل ، و قياسه يقوم على ملاحظة الظواهر اللغوية المطّردة ، فيضع لها الضوابط التي تحكمها ، و يظهر ذلك من خلال جوابه ليونس حين سأله «عمّ إذا سمع أحداً يقول (الصويق) يعني (السويق) ؟ فقال: نعم ، عمرو بن تميم تقولها ، و ما تريد من هذا ؟ عليك ببابٍ يطّرد و ينقاس»[4].

أي لا تلتفت إلى الشاذ و الضعيف ، و إنّما عليك باتباع الكثير المطّرد من كلام العرب ، لأنّه هو القياس.

و قد استعمل أبو عمرو بنُ العلاء القياس – أيضاً - و بنى على الكثير المطّرد من كلام العرب ، لكنّه اعتبر ما خرج عن القياس لغات، فخالف بذلك الحضرمي الذي عدّ ما خرج عن القياس خطأً ، و لعلّ هذا هو السبب الذي جعل بعضَهم يقول : إنّ الحضرمي أشدّ تجريداً للقياس.

و مهما يكن من أمرٍ فالقياس في هذه المرحلة كان لا يزال في بداياته الأولى الغاية منه اتباع الكثير المطّرد من كلام العرب و يتمّ ذلك بالتّتبع و الاستقراء.

ب- مرحلة المنهج:

يترأس هذه المرحلة الخليل بنُ أحمد الفراهيدي و تلميذه سيبويه ، أمّا الخليل فقد اعتُبر « الغاية في استخراج مسائل النّحو وتصحيح القياس فيه »[5]،و كان ابن جنّي يرى أنّه «سيد قومه و كاشف قناع القياس في علمه »[6]

و كان الخليل يقول لسيبويه إذا أتى إلى مجلسه: « مرحباً بزائرٍ لا يُملّ»[1]

---

[1] أبو البركات بن الأنباري، **الإغراب في جدل الإعراب و لمع الأدلة في أصول الفقه**. تحقيق: سعيد الأفغاني، المطبعة الجامعية السورية، د ط، 1957 ص: 08.

[2] المصدر نفسه، ص: **95**

[3] السيرافي، **أخبار النحويين البصريين**. تقديم و تحقيق و شرح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط:01، 2004، ص:76

[4] ابن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، دط ، 1952، ص: 13.

[5] السيرافي، **أخبار النحويين البصريين**. ص: 86.

[6] ابن جنّي ،**الخصائص**. تحقيق: محمد علي النّجار، عالم الكتب بيروت، د ط ، د ت، ج:01، ص: 361.

و قال بعضهم إذا «تأمّلت الأمثلة من كتاب سيبويه تبيّنت أنّه أعلم النّاس باللغة»[2]

لقد مثّل الخليلُ و تلميذُه سيبويه هذه المرحلةَ أحسن تمثيلٍ ، حيث أصبح القياس عندهما أصلاً ومنهجاً يُتّبع في الدراسة النّحوية فتوسّعا فيه كثيراً ، حيث إذا نظرنا إلى كتاب سيبويه فإنّنا نجده مليئاً بالأقيسة المختلفة و التحاليل العميقة ، بل لا تكاد تخلو صفحةٌ منه من هذه التحليلات الدّالة على بلوغ القياس مرتبة الاكتمال والنّضج .

إنّ القياس في هذه المرحلة تعدّى ما كان سائداً في المرحلة السابقة أين كان يعني اتّباع المطّرد ، فجاوز ذلك إلى محاولة الرّبط بين الظواهر اللغوية ، يقول سيبويه : « فمن كلامهم أن يشبّهوا الشيء بالشيء و إن كان ليس مثله في جميع الأشياء»[3] . استمرّ القياس بعد الخليلِ و سيبويه في التّطوّر تبعاً للتطور الحاصل في النّحو إلى أن بلغ في القرن الرابع أعلى مراتبه على يد _ أبي علي الفارسي _ ، و تلميذِه _ا بن جنّي _، فاعتنيا به أيّما اعتناءٍ ، فقد نقل ابنُ جنّي عن أستاذه قولَه :

« أخطئ في خمسين مسألة في اللغة و لا أخطئ في واحدةٍ من القياس»[4].

و يقول ابن جنّي : « مسألة واحدة من القياس أنبل و أنبه من كتاب لغةٍ عند عيون النّاس»[5]. و يظهر اهتمام ابنِ جني بالقياس من خلال كتابه "الخصائص" الذي حوى أبواباً كثيرة في الحديث عن القياس و التعليل ، لكنّه رُغم كل هذا فإنّه لم يحدَّه بحدٍّ، و لم يذكر أقسامَه ، و إنّما اعتنى بالتطبيق و التعمق في التعليل والإكثار من ضرب الأمثلة.

جـ- مرحلة التنظير:

إنّ أوّل منظّرٍ للقياس في النّحو هو _ أبو البركات بن الأنباري _ (ت877هـ) ، حيث ألّف رسالتين في أصول النّحو سماهما: "الإغراب في جدل الإعراب" و "لمع الأدلة في أصول النّحو" تطرّق فيهما إلى تعريف القياس، و ذكر أركانَه ، و بيّن أقسامه وكلّ ما يتعلق به مُقرًّا باتباعه منهجَ الفقهاء ، و قد اتبعه _حقًّا_ فأتى بعناصر القياس الفقهي و حاول أن يلبسها ثوب اللغة بتغييره الأمثلة فقط.

أتى بعد ابن الأنباري _ جلال الدين السيوطي _ (ت911هـ)، حيث سار على المنهج نفسِه الذي سار عليه ابنُ الأنباري ، فحاول _أيضاً_ أن ينظّر للقياس على وفق منهج الفقهاء ، فألّف كتاب "الاقتراح في علم أصول النّحو" و خصّص منه باباً كاملاً تحدّث فيه عن القياس بجمعه ما تفرّق من شتات هذا الأصل مستنداً إلى كتاب "الخصائص" لابن جنّي و رسالتي ابن الأنباري المذكورتين سابقاً .

و قد وُجد في العصر الحديث من أفرد القياس المستعمل في النّحو بالتأليف و نذكر على سبيل المثال:

- القياس في اللغة العربية لمحمد حسن عبد العزيز.
- القياس في النّحو العربي، نشأته و تطوره لجاسم الزبيدي.
- نشأة القياس في النّحو لمنى إلياس.

---

1 أبو بكر الزبيدي، **طبقات النحويين و اللغويين**. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط:02، د ت، ص: 67.

2 المصدر نفسه، ص: 72.

3 سيبويه، **الكتاب**. تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د ط، د ت، ج:03، ص: 302.

4 ابن جنّي، **الخصائص**. ج:02، ص: 88.

5 المصدر نفسه، ج:02، ص: 88.

02 _ المؤيدون و المعارضون للقياس في أصول النّحو :

لقد استُخدِم القياسُ دليلاً يُستدلّ به على الأحكام النحوية ، و آلة منهجية لتقعيد القواعد ، و كشف النظام الباطن للّغة ، كما استُعمل في استحداث ما لم يُسمع من الكلام قياساً على ما سُمع ، لكن القياس بهذا المعنى المذكور قد اختلف في اعتباره و الأخذ به من مؤيّدٍ إلى معارضٍ ، كما تباينت طريقة استخدامه و كيفية توظيفه ، و لكلٍ تعليلاته و تبريراتُه فيما ذهب إليه.

أ_ المؤيدون للقياس في أصول النّحو:

إنّ النحاة الأوائل استخدموا القياس ولم ينكره أحدٌ منهم ، و أدلة ذلك كثيرة و متعدّدة قد أشرنا إليها سابقاً ، يقول ابنُ جنّي : «لكن القوم بحكمتهم وزنوا كلام العرب فوجدوه على ضربين : أحدهما ما لابدّ من تقبُّله كهيئة لا بوصيّةٍ فيه و لا تنبيه عليه ، نحو : حجر و دار... و منه ما وجدوه يُتدارك بالقياس و تخِفُّ الكلفة في علمه على النّـــــاس فقنّنوه و فصلوه إذا قَدِروا على تداركه من هذا الوجه القريب المغنى عن المذهب الحَزِني البعيد ، و على ذلك قدّم النّاس في أول المقصور الممدود ما يتدارك بالقياس و الأمارات ثمّ أتلوه ما لابدّ له من السماع و الروايات »[1]

و يقول ابن الأنباري : « و لا نعلم أحداً من العلماء أنكره (القياس) »[2]

و إنّ هذه العناية البالغة بالقياس ترجع لأسباب منها:

1 -أنّ التعبير عن الأغراض الكثيرة و المتنوعة لا يتأتّى بالاعتماد على النقل فقط ، ذلك أنّه « إذا قال العربي: كتب زيدٌ، فإنّه يجوز أن يُسند هذا الفعل إلى كل اسمٍ مسمى تصح منه الكتابة ، سواءٌ كان عربياً أو أعجمياً نحو: زيد وعمرو أردشير ، إلى ما لا يدخل تحت الحصر ، و إثبات ما لا يدخل تحت الحصر بطريقة النّقل محال ».[3]

2 -إنّ القياس يُنمّي اللغة من جهةٍ ، و يحافظ على نظامها من جهة أخرى ، فالقياس إذا : « عملية إبداعية من حيث إنّه يضيف إلى اللغة صيغاً و تراكيب لم تعرفها من قبلُ ، كما أنّه عملية محافضة ؛ لأنّ هذه الصيغَ و التراكيب في الغالب على مثالٍ معروفٍ»[4]

3 -إنّ اللغة نظامٌ يحوي متشابهاتٍ و نظائر تحكمها قواعدُ معينةُ و تجمعها علاقاتٌ محدّدة لا يتمّ الكشف عنها إلا بواسطة القياسِ.

هذا و إن كانت الإشادة بالقياس من قبل النّحاة حاصلةٌ فإنّ كيفية توظيفه قد اضطربت « فيثبِتُه بعضهم أحياناً وينفيه آخرون ، و يرى بعضُهم الشاهدَ اللغوي الواحد قياساً، و يرى الآخرُ أنّه ليس كذلك... و مظاهر الاضطراب في القياس يمكن أن تصبَّ في محورين عامّين...أولهما وجودُ قياس واحدٍ لا تؤيده النصوص المسموعة و في هذه الحالة ينكره بعض النّحاة مستدلين بتلك النصوص ، و الثاني : تعارض الأقيسة بأن يكون للأمر الواحد قياسان أو أكثر فتختلف نظرة النّحاة لكل قياس منها و كلها صحيح في نظرهم »[5]

---

[1] ابن جنّي، **الخصائص**. ج:02، ص: 42.

[2] أبو البركات بن الأنباري، **الإغراب في جدل الإعراب و لمع الأدلة في أصول النّحو**. ص: 95.

[3] المصدر نفسُه، ص: 98.

[4] محمد حسن عبد العزيز، **القياس في اللّغة العربية**. ص: 23

[5] محمد عيد، **أصول النحو العربي في نظر النّحاة و رأي ابن مضاء و ضوء علم اللغة الحديث**. ص: 74

ب _ المعارضون للقياس في أصول النّحو و الردّ عليهم:

إنّ آثار المذهب الظاهري الذي أسّسه داود الظاهري ، و أعلا من شأنه ابنُ حزم الأندلسي قد امتدّت من علوم الشريعة إلى علوم اللغة ، حيث وُجد من النّحاة من اقتصر في دراسته النحوية على ما يتجلى من ظاهر النّص ، فأنكر بذلك القياس ؛ لأنّه عملٌ عقليٌّ و استنباط ذهنيّ.

عقد ابن الأنباري في كتابه " لمع الأدلة " فصلين سمّى الأول: "ا لرّد على من أنكر القياس " و الثاني: " في حلّ شُبه تُورد على القياس " و سنتحدث عن ذلك فيما يأتي:

لقد ردّ ابن الأنباري على من زَعَمَ بأنّ النّحو قد ورد بالاستعمال و النّقل، لا بالقياس و العقل قائلاً: « هذا باطلٌ لأنّا أجمعنا على أنّه إذا قال العربيُّ "كتب زيدٌ" فإنّه يجوز أن يُسنَد هذا الفعلُ إلى كل مُسمّى تصحُّ منه الكتابة سواءٌ كان عربياً أو أعجمياً، نحو زيدٌ وعمرٌ و أردشير إلى ما لا يدخل تحت الحصر ، و إثبات ما لا يدخل تحت الحصر بطريق النّقل محال... و إذا بطل أن يكون النّحو روايةً ونقلاً وَجَبَ أن يكون النّحو قياساً و عقلاً...فلو لم يَجُز القياس واقتُصر على ما وَرَد في النّقل من الاستعمال لأدّى ذلك إلى ألاّ يفي ما نخص بما لا نُحُص و بقي كثير من المعاني لا يمكن التعبير عنه لعدم النّقل و ذلك منافٍ لحكمة الوضع، فلذلك وَجَبَ أن يوضَع وضعاً قياسياً عقلياً لا نقلياً »[1]

ثمّ ذكر ابن الأنباري ثلاثةَ أوجه أُعترُض بها على القياس ، نلخصها في الآتي:

الوجه الأول : إذا كان القياس حملُ شيءٍ على شيءٍ بضرب من الشبه ، فلماذا يلزم أن يسير في اتجاه واحدٍ و لا ينعكس ؟ ومثال ذلك : أنّ نحمل الاسم على الحرف في البناء و لا نحمل الحرف على الاسم في الإعراب.

الوجه الثاني: إذا كان القياسُ قائما على المشابهة – كما سبق -، و المشابهة – كما هو معلوم – تقتضي الاتفاقَ في أشياء والاختلاف في أخرى ، فليس الأخذ بما يقتضيه الاتفاق بأولى ممّا يقتضيه الاختلاف ، و هو منع القياس.

الوجه الثالث: القياسُ يؤدي إلى التناقض في الأحكام ؛ لأنّه قد يشبه فرعُ أصلين ذوي حكمين مختلفين ، و مثال ذلك "أن" المصدرية الناصبة للفعل المضارع فإنّها تشبه أصلين هما "أنّ" المصدرية و "ما" المصدرية، و الأولى عاملة و الثانية ليست كذلك.

و لقد دَحض ابنُ الأنباري هذه الشبه أيما دحضٍ بردٍّ علميٍّ دقيقٍ ، فاعتبر الشبهة الأولى فاسدةً: « لأنّ الاعتبار في كون أحدهما محمولا على الآخر أن يكون المحمول خارجاً عن أصله إلى شبه المحمول عليه ، فالمحمول أضعف لخروجه .

عن أصله إلى شبه المحمول : فلمّا وجب حملُ أحدهما على الآخر كان حمل الأضعف على الأقوى أولى من حمل الأقوى على الأضعف ، و على هذا يخرج ما ذكرتموه من حمل الاسم على الحرف في البناء دون حمل الحرف على الاسم في الإعراب»[2]

و أمّا الشبهة الثانية فعدّها فاسدة : « لأنّه إنّما يجب القياس عند اجتماعهما في معنى خاص و هو معنى الحكم ، أو ما يوجبه غلبةُ الظنّ ، و الافتراق الذي ذكرتموه إنّما هو افتراقٌ لا في معنى الحكم و لا ما يوجب غلبة الظنّ لا يؤثّر في جواز الجمع »[3]

---

[1] أبو البركات بن الأنباري، الإغراب في جدل الإعراب و لمع الأدلة في أصول النّحو. ص: 74.

[2] أبو البركات بن الأنباري، الإغراب في جدل الإعراب و لمع الأدلة في أصول النّحو. ص:101.

[3] المصدر نفسه، ص: 103.

و أمّا الشبهة الثالثة فالردّ عليها يسيرٌ، و تفنيدها ظاهر ، ذلك أنّ حملَ فرع يشبه أصلين لا يكون دون قيد ، و بغير ضابط ، بل بقيد قوة المشابحة و كثرة الموافقة في الأوصاف ، و مثال ذلك أنّ حمل "أن" الناصبة للفعل المضارع على "أنّ" المصدرية المشدّدة دون "ما" المصدرية؛ لأنّ الأولى تشبهها لفظاً و معناً، و أمّا الثانية "ما" فتشبهها معنىً فقط.

و إذا نظرنا إلى النّحاة الذين عارضوا منهجَ القدماء في استعمالهم القياسَ فنجد من أبرزهم " ابن مضاء القرطبي" (ت:592هـ) في كتاب له صغيرِ الحجم خطيرِ الشأن سمّاه "الرّدُّ على النّحاة" دعا فيه «إلى إبطال القياس».[1]

لكن هذا الإطلاق بأنّ ابنَ مضاء أبطَلَ القياس يحتاج إلى تدقيق.

و لقد وضّح محمدُ عيد القولَ في رأي ابن مضاء في القياس ، و بيّن موقفَه منه ، حيث يرى أنّ _ابن مضاء_ لا يرفض ما اصطلَح عليه بالقياس النّحوي ، الذي هو تعدية حكم المسموع إلى غير المسموع إذا كان خاضعاً لضوابطَ معيّنةٍ .

إذ إنّ «فكرة ابن مضاء عن هذا النوع من القياس ترتبط ارتباطاً أساسياً بفكرته عن النّصوص اللغوية ، فهو يجيزه إن ورد له من النصوص ما يصحّحه ، و هو يرفضه إذا لم ترد له نصوص تأيّده »[2]

و أمّا عن القياس العقلي الذي هو القياس التعليلي فيقول _ابن مضاء_ في شأنه «و العرب أمّة حكيمة ، فكيف تشبه شيئاً بشيء و تحكم عليه بحكمه، و علة حكم الأصل غيرُ موجودة في الفرع ، و إذا فَعَلَ واحدٌ من النّحويين ذلك جُهّلَ ، و لم يُقبل قولُه ، فَلِمَ ينْسِبون إلى العرب ما يجهّل بعضهم بعضاً ، و ذلك أنّهم لا يقيسون الشيء على الشيء .

و يحكمون عليه بحكمه إلا إذا كانت علة حكم الأصل موجودةً في الفرع ، أو كذلك فعلوا في تشبيه الاسم بالفعل في العمل وتشبيههم "إنّ" و أخواتها بالأفعال المتعدية في العمل...»[3]

و من خلال هذا النّص يتبين أنّ: «ابن مضاء يرفض هذا النوعَ من القياس معتمداً على أساسين : أحدِهما عقلي مفاده أنّ المشابحة غيرُ كاملة بين المقيس و المقيس عليه .

و الآخر لغوي : و هو إنكار أنّ العرب أرادت ذلك ، أو بعبارة أخرى إنكار أن يكون هذا ممّا له صلةٌ بنطق العرب واستعمالاتهم»[4].

و يخلص محمد عيد إلى أن «ابن مضاء يقبلُ القياس النّحوي و يرفض القياس العقلي معتمداً في قَبوله و رفضه غالباً على احترام النّص اللغوي »[5].

يتبين لنا من خلال الآراء التي أوردناها حول تأييد القياس أو رفضه أنّ ثمّة تضارباً و تبايناً يمكن أن نرجعه إلى سببين رئيسين هما:

1- تأثّر من ردّ القياسَ بالمذهب الظاهري.

2- غلوّ بعض النّحاة في القياس ، و الخطأ في كيفية استخدامه أفضى إلى خروجه عن المغزى الحقيقي من استعماله، ففتح بذلك مجالاً واسعاً للطّعن في جدواه و فاعليته.

و الذي يظهر لنا أنّ القياس قد ورد استخدامه — حقًّا – من قِبَل النّحاة الأوائلِ ، و استمرّ ذلك بعدهم ، لكنّه مرّ بمراحلَ وأطوارٍ صُرِف فيها عن حقيقته ، و لعلّ هذا ما أدّى ببعض الباحثين المحدثين إلى إعادة النّظر فيه ، تبين وأنّه يختلف عن غيره من الأقيسة.

[1] منى إلياس، **القياس في النحو مع تحقيق باب الشاذ من مسائل العسكريات، لابي علي الفارسي**. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط:01، د ت ص: 152.
[2] محمد عيد، **أصول النحو العربي في نظر النّحاة و رأي ابن مضاء و ضوء علم اللغة الحديث**. ص: 84.
[3] ابن مضاء، **الردّ على النّحاة**. تحقيق:محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، ط01 ص:131
[4] محمد عيد، **أصول النحو العربي في نظر النّحاة و رأي ابن مضاء و ضوء علم اللغة الحديث**. ص: 85.
[5] المرجع نفسه، ص: 87.

يرى _ الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح _ أنّ القياس النّحوي يختلف عن القياس الفقهي ، و الأرسطي ، ذلك أنّ الأول هو «تكافؤ إجرائي في المجرى أو البنية بين العناصر لأكثرَ من مجموعة.... يختلف عن قياس الفقهاء لأنّه يخصّ اللغة ، و لأنّ الخليل تفطّن إلى الفوارق التي يفترق فيها ميدانُ اللغة و ميدانُ الفقه ، و يختلف أيضاً عن قياس آرسطو اختلافاً جذرياً فهذا يتمّ باندراج شيء في شيء. و يتمّ القياس النّحوي بحمل شيء على شيء بجامعٍ بينهما »[1].

01 - نشأة القياس في أصول الفقه:

إنّ القياس هو رابع مصدر (دليل) من مصادر التشريع الإسلامي ، فهو يلي القرآنَ و السنّة و الإجمــــــاعَ ، و هذه المصادرُ يجمعها علمٌ يسمّى بأصول الفقه يُعنى بدراستها ، و بيان كيفية الاستدلال بها ، و حالِ المستدّل ، و ذلك من خلال وضع قواعدَ كليّةٍ و يُتوصّل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية.

لقد مرّ القياس عند الفقهاء بثلاثِ مراحلَ هي:

أ- **مرحلة الوجود الواقعي:** و هذه المرحلة بدأت في عهد الرسول _ صلى الله عليه و سلم _، و كانت أولى الإشاراتِ إليه موجودة في القرآن الكريم ، حيث وُجد فيه ضَرْبُ الأمثال ، و الدعوة إلى الاعتبار و إعمال العقل و التّفكر... و هذه كلّها من معاني القياس ، ثمّ إنّ القياس مرتبط وجوده بوجود الفقه ، و الفقه قد وجد بوجود التشريع فكذلك القياس ، و إن لم يكن معروفاً باسم قواعدَ معيّنة ، و ضوابطَ مخصوصةٍ لعدم الحاجة إلى ذلك ، فالقرآن نزل بلغة العرب و بيّنه الرسول _صلى الله عليه و سلم_ بتلك اللغة و هو أعلم النّاس بها ، و كان المفتونَ من أصحاب رسول الله _صلى الله عليه و سلم_ على علم بتلك اللغة ودلالاتِها ، و كذا أسباب نزولِ الآيات، و ورود الأحاديث ،كلُّ هذا أكسبهم معرفةً بأسرارِ التشريع.

إنّ عدم وجود قواعدَ مدوّنةٍ تضبط القياسَ لا يعني أنّ الصحابة لم يكونوا يستخدمونها في أقيستهم (فتاويهم) ، بل كانت القواعد و الضوابط قارّةً في أذهانهم يستعملونها بدقّة ، و هذا ليس بغريب ، إذ هم أعلم النّاس بعد رسول الله _صلى الله عليه وسلم -بمراد الله و علّل أحكامه.

و من أمثلة القياس المستعمل من قبل النبي _صلى الله عليه و سلم_ أن امرأةً سألته عن الصيام عن أمّها بعد موتها فقال: «**أرأيتِ لو كان على أمّكِ دينٌ فقضيته، أكان يؤدّي ذلك عنها؟** » قالت : نعم ، فقـــــــال: « **فصومي عن أمّك**»[2]

و من الأمثلة الدّالة على استعمال الصحابة القياسَ ما جاء عن أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب في كتابه إلى أبي موسى الأشعري في القضاء قال: « ثمَّ الفهمَ الفهمَ فيما أدلى عليك ممّا ليس في قرآن و لا سنّة ، ثمّ قايس الأمور عندك و اعرف الأمثال ، ثمّ اعمد فيما ترى إلى أحبّها إلى الله و أشبهها بالحق »[3]. و لقد سار التابعون على وفق منهج الصحابة في القياس .

ب - مرحلة التأليف و التدوين:

في هذه المرحلة دوّنت مباحثُ القياس ، و حدّدت ضوابطُه و رسمت مناهجُه ، لكن لم يكن ذلك في كتاب مستقلّ بل تُطرّق إليه في كتب أصول الفقه ، فما من كتاب أُلّف فيه إلا و للقياس حظٌّ منه ، لأنّه أحدُ أدلته.

---

[1] عبد الرحمن الحاج صالح، **النّظرية الخليلية الحديثة**. ص: 06 .

[2] مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**. رقم:1149، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دت، كتاب الصيام، باب قضاء الصيام عن الميت.

[3] البيهقي، **السنن الكبرى**. رقم 21042، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبةدار الباز، مكة المكرمة، 1994م،كتاب آداب القاضي، باب ما يقضى به القاضي و يفتي به.

إنّ ما مرّ به القياسُ الفقهي من أطوارٍ خلال التدوين مرتبط أساساً بعلم أصول الفقه.

لقد بدأ علمُ أصول الفقه بالتدرج كعلم مستقلّ يُفرد بالتأليف و الكتابة في أواخر القرن الثاني الهجري ، حيث بدأت التآليف تظهر فيه و تكثر و تزيد وتتّسع حتى بلغت الذّروة تنسيقاً و تبويباً.

و إنّ أول من كتب في هذا العلم هو الإمام الشافعي (ت 204هـ) ، فكتب كتاباً سمّاه "الرسالة".

يقول العمريطي[1] ناظم الورقات:

و بعد فالعلم بأصلِ الفقهِ مكمّلٌ قارئَ علم الفقهِ
فذاكَ بالفضل الجليل أحرى و الله ذو النّيل الجزيل أجرى
على لسان الشافعي و هوّنا فهو الذي له ابتداءً دوّنا
و تابعته النّاس حتى صارَ كُتُبًا صغارَ الحجمِ أو كبارا

و هكذا كانت رسالة الشافعي حجرَ الأساس في علم أصول الفقه ، كما لفتت الرّسالةُ أنظارَ العلماءِ إلى مواصلة البحث في هذا العلم تأليفاً و تنسيقاً و ترتيباً ، فألّف العلماء قديماً و حديثاً كتباً كثيرة و هي كتب تختلف طولاً و قِصراً وإيجازاً وإطناباً ، و المؤلفات القديمة منها ما وصل إلينا و منها ما لم يصل ، و ما وصل منها ما هو مخطوط حبيس المكاتب لم يطبع ، ومنها ما هو مطبوع متداول.

و من المطبوع المتداول نذكر على سبيل المثال:

- المستصفى لأبي حامد الغزالي (ت505هـ).
- الإحكام في أصول الأحكام للآمدي (ت631 هـ).
- البرهان في أصول الفقه للإمام عبد المالك الجويني (ت 478 هـ) .

و من الكتب الحديثة نذكر على سبيل المثال:

- أصول الفقه لأبي زهرة.
- المذكرة في أصول الفقه للشنقيطي صاحب تفسير أضواء البيان.
- الأصول من علم الأصول، لمحمد بن صالح العثيمين.

02 _ المؤيدون و المعارضون للقياس الفقهي

إنّ مصادر التشريع الإسلامي أربعةٌ: القرآن، السنة، الإجماع و القياس، و يستدلُّ بها على الأحكام الشرعية.

إنّ الناظر في كتب أصول الفقه المختلفة يتبين له أنّ المصادر الثلاثة الأولى قد حصل في شأنها الاتفـــــاقُ و اختُلِفَ في القياس، أهو مصدرٌ و أصلٌ تستنبط بواسطته الأحكام أم لا؟.

---

[1] محمد بن صالح العثيمين، **شرح نظم الورقات في أصول الفقه**. اعتنى به و خرّج أحاديثه: صلاح الدين محمود، دار الطور الجديد، المنصورة – مصر–، ط:01، 2002م، ص:07.

و سنورد بشيء من التفصيل آراءَ وحججَ المؤيّدين، و شُبَهَ المعارضين و الردَّعليها.

أ _ المؤيدون للقياس و حُجَجهُم:

قال الشوكاني: « ذَهبَ الجمهور من الصحابة و التابعين و الفقهاء و المتكلمين إلى أن القياس الشرعي أصلٌ من أصول الشريعة يستدل به على الأحكام التي لم يرد بها السمعُ »[1].

و جاء المؤيدون للقياس بأدلة كثيرة منها ما هو نقليٌّ، و منها ما هو عقليٌّ:

1_الأدلة النقلية: استدلوا بنصوصٍ من القرآن و السنة و الأثر، أمّا من القرآن: فقوله تعالى: ﴿اللّه الَذي أنزَلَ الكِتَابَ بالحقِ والميزانِ﴾[2]

يقول محمد بن صالح العثيمين « و الميزان ما توزنُ به الأمور و يقايس به بينها ».[3]

و قوله تعالى: ﴿و الله الذي أَرسَلَ الرّيَاحَ فَتُثيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ ميّتٍ فأحْيَيْنَا بِهِ الأرْضَ بعْدَ موتِهَا كذلِكَ النّشور﴾[4].و في الآية إشارةٌ إلى القياس حيث « شَبَهَ الله تعالى إعادةَ الخلق بابتدائه، و شبه إحياءَ الأموات بإحياء الأرض، وهذا هو القياس »[5].

و ممّا استدلوا به أيضاً الآيات التي ورَدَ فيه ذكر الأمثال لكونها متضمنة التشبيهَ الذي ينبني عليه القياسُ، و هذه الآيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَ ضَربَ لنا مثلاً و نَسِيَ خَلْقَه قَالَ من يُحيِ العِظَامَ و هي رَميمٌ﴾[6]

و أمّا ما استدلوا به من السنة فقوله صلى الله عليه و سلم لمن سألته عن الصيام عن أمّهَا بعد موتها: [**أرأيت إن كان على أمّك دينٌ فقضيته، أكان يؤدّي ذلك عنها؟**] قالت نعم، قال: [**فصومي عن أمّكِ**]. [7]

و أمّا ما استدلوا به من الأثر، ما جاء عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في كتابه، في القضاء: « ثمّ الفهمَ، الفهمَ، فيما أدلى عليك ممّا ورد عليك، ممّا ليس في قرآن و لا سنة، ثمّ قَايسِ الأمور عندَك، و اعرف الأمثال ثمّ اعمَد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحقّ »[8].

2_الأدلة العقلية: إنّ من أقوى الأدلة العقلية و أظهَرِها التي استدلوا بها على اعتبارِ القياس أصلاً و مصدراً من مصادر التشريع قولَهم: إنّ الأمور المنصوصَ على حكمها محدودةٌ قليلةٌ، و من المعلوم بالعقل أنّ ثمّة حوادث و وقائعَ مستجدّةً لم يَرِدْ في شأنها النصُ فلا سبيل إلى معرفة أحكامها إلا باللجوء إلى القياس.

---

[1] محمد بن علي بن محمد الشوكاني، **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول**. ج:02، ص: 91.

[2] الشورى من الآية: 17.

[3] محمد بن صالح العثيمين، **شرح نظم الورقات**، ص: 68.

[4] فاطر، الآية: 09.

[5] محمد بن صالح العثيمين، **شرح نظم الورقات**. ص: 68.

[6] يس، الآية: 78.

[7] رواه مسلم:1149.كتاب الصيام، باب قضاء الصوم عن الميت

[8] رواه البيهقي:21042، **السنن الكبرى**، باب لايحيل حكم القاضي على المقضي له و المقضيي عليه.

جاء في المحصول: « و أرشقُ عبارةٍ تدل على المعنى ما أشار إليه بعضُ المتأخرين من العلماء حتى قال: النصوصُ معدودة والحوادث غيرُ محدودة، ومن المحالِ تضمُّنُ المعدودِ ما ليس بمحدود »[1].

ب _ شبه المعارضين للقياس و الردّ عليها:

يقول الشيرازي: « و ذهب داود و أهل الظاهر إلى أنّ القياسَ لا يجوز في الشرع و هو قول النظّامِ و الإمامية»[2].

لقد جاء المعارضون للقياس الفقهي بشبه نقليةٍ و عقلية :

1_الشّبه النقلية : قد جاءوا بشبه نقلية كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شيءٍ﴾[3]، و كذلك قوله تعالى: ﴿اليومَ أكْمَلْتُ لَكم دينُكم و أتْمَمْتُ عليكم نعمَتي وَ رَضيتُ لكم الإسلام دينًا﴾[4] و قولهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمنوا لا تُقدّموا بينَ يَدي الله و رسولِه﴾[5]

و وجه استدلالهم بهذه الآيات هو أنّ الدين كاملٌ و الأحكامَ واضحةٌ و ظاهرةٌ ليس للانسان حقٌّ أن يتدخَّلَ برأيه في الحكم على أمرٍ ما، بل مردُّ ذلك إلى الله و رسوله صلى الله عليه و سلم.

و من الآثار التي استدلوا بها ما روي عن أبي بكر – رضي الله عنه- قال :« أيُّ سماءٍ تُظلّني و أيُّ أرضٍ تُقلُّني إذا قُلتُ في كتاب الله ما لا أعلم»[6].

2_الشبه العقلية: لقد أوردوا شبها عقليةً كثيرةً منها:

قالوا: الأحكام مردّها إلى الله الذي خاطبنا بلغة العرب و العربُ لا تعقل من الخطاب إلا ما دلّ عليه صريح اللفظ وظاهره، والقياس يقتضي وجودَ العللِ التي لا تعقِلُها العربُ.

و قالوا أيضاً: إنّ الله قد جَمَع بين المختلفين و فرّق بين المتماثلين، و مثّلوا لذلك بأمثلةٍ منها:

إنّ المرء يجب عليه الغُسْلُ إذا احتَلَمَ و لا يلزَمُهُ إذا بال فَجُمِع بين متناقضين (طهارة المني و وجوب الغسل)، و فرّق بين متماثلين (نجاسة البول و عدمُ وجوب الغسل).

و لعلّ أقوى ما وقفنا عليه من الشبه التي أوردوها في إنكارهم القياسَ، ما قاله أحدُ أكبر الرّافضين للقياس و العلل، ألا و هو ابن حزم الظاهري: « إنّه ليس في العالَم شيئان إلا و بينهما شَبَه و افتراقٌ ما، ضرورةً لابدّ من ذلك، فإن كان الشبه يوجبُ استواءَ الحُكم، فلنحكُم لكل ما في العالَم بحكم واحدٍ في كل حالٍ من أجل اشتباهه في صفةٍ ما، و لَمّ كان الاجتماع في الشبه يوجب استواءَ الحُكم و لم يكن الافتراق في الشبه يوجبُ اختلافَ الحُكْمِ؟ فيجب على هذا ألا نحْكُمَ لشيئين أصلاً بحكمٍ واحدٍ لأجل اختلافهما في صفةٍ ما، و كل هذا خطأ و خيره، و مؤدٍّ إلى التناقض و الضّلال، و نعوذُ بالله من ذلك كلّه و لا حول و لا قوة إلا بالله »[7]

---

[1] أبو بكر بن العربي المعافري، **المحصول في أصوول الفقه**، ص: 125.

[2] إبراهيم بن علي الشيرازي، **التبصرة في أصول الفقه**. ص: 424.

[3] الأنعام من الآية: 38.

[4] المائدة، من الآية: 03.

[5] الحجرات، من الآية:01.

[6] ابن أبي شيبة، **المصنف في الحديث و الآثار**. 3103، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط:1، 1409هـ، ج:6، ص: 136.

[7] ابن حزم، **التقريب لحدّ المنطق و المدخل إليه بألفاظ العامية و الأمثلة الفقهية**. تحقيق: إحسان عباس، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط: 01، دت، ص: 73.

و نَفهَمُ من قول ابن حزم أنّه إذا كان القياس حملُ الفرع على الأصل بضربٍ من الشبه و الشبه يقتضي الاتفاق في بعض الصفات والاختلاف في أخرى، فليسَ الأخذُ بموجب الاتفاق بأولى من الأخذ بموجب الاختلاف.

لقد ردّ على المنكرين للقياس و المعارضين له، بما اعتبروه حججا عندهم سواء أكانت النقلية منها أم العقلية.

أما ما استدلوا به من الآيات، فقد بُيِّن فسادُ استدلالهم بها، إذ إنّها دالّةٌ على وجوب القياس لا بطلانه، و ذلك أن إكمال الدّين وعدَمُ وجود النّقص في الكتاب البتّة يقتضي حتْمًا عدم خلوّ أيّة حادثة من الحكم، لذا كان لزاماً الأخذ بالقياس، لأنّ ما ورد في شأنه السماع قليلٌ.

و أمّا ما استدلوا به من سماع دالٍ على ذمّ الرّأي فهو أيضاً حجةٌ عليهم، لأنّ المقصود بالرأي هو الرأي الفاسد المذموم المعارض لصريح النّصوص، إذ من المتقرَّرِ ألَّا اجتهاد مع النص، فالاجتهاد (القياس) لا يُلجأ إليه إلى في حالِ فَقْد النّص.و أمّا ما أتو به ممّا هو عقلي فهو في الحقيقة ممّا يتعارض مع العقل السليم.

فقولهم إنّ العرب لا تعقل من الخطاب إلا ما كان اللفظ فيه صريحاً فهذا غير صحيحٍ، إذ « لا نسلِّم أنّ العرب لا تعرف من اللفظ إلا ما دلّ عليه صريحه ، بل تعرف ما يدلّ عليه اللفظ مرّةً بالصريح و مرّة بالتنبيه، و كل ذلك تعرفه، و لهذا إذا قال لغيره إيّاك أن تُكلّم فلاناً عَقَلَ منه المنعَ من ضربه »[1]

و أمّا ما قاله ابن حزم في إبطال القياس ليس بصوابٍ ، كما بيّن ذلك الشّيرازي بقوله: « نَحْمل الفرع على الأصل إذا اتفقا على علّة الحُكم ، و متى حصلَ الاتفاق في العلة لم يؤثر افتراقُهما في غيرها، كما إذا اتفقا شيئان في العقليات في علة الحكم وجبَ الجمع بينهما و إن افترقا في كثير من الأشياء ».[2]

ممّا سبق ذكرُه يتبين لنا أن استعمال القياس في استنباط الأحكام الشرعية واردٌ و استخدامه حاصلٌ، و أمّا ما استدل به الرّافضون له فهو عليهم لا لهم، لأنّ ما ذهبوا إليه يُفضي إلى وقوعهم في تناقضات كبيرة و مآزقَ عويصةٍ، يرغمون فيها على استعمال القياس، كما هو الحال في النوازل التي لم يرد في شأنها النّص.

الخـاتمة :

بعد هذا العرض وصل االبحث إلى جملة من النتائج نلخصها في الآتي :

01 – لا يمكن البتة إنكار القياس في النحو لأن النحو هو معقول من منقول ، فالقياس هو الأداة المنهجية التي استعملها النحاة في استنباط قوانين اللغة العربية .

02- إن المنكرين للقيـــاس النحوي من المحدثين هم المتأثرون بالمذهب الوصفي الذي يرفض التقدير و التعليل و يكتف بوصف اللغة ظاهريا .

03 – أن المنكرين للقياس الفقهي هم المتأثرون بالمذهب الظاهري الذي أسسه ابن حزم الأندلسي الذي يقول بظاهر النص .

04 – إن الحجج التي أوردها المنكرون للقياس الفقهي هي شبه باطلة لا يتقبلها عاقل .

---

[1] إبراهيم بن علي الشيرازي، **التبصرة في أصول الفقه**. ص: 433.

[2] المصدرنفسه، ص: 433.

05 - إن النوازل تحتم على المشتغلين بالفقه الاعتماد على القياس في استنباط الأحكام و لذلك إنكار استعمال القياس هو غلق لدائرة الاجتهاد .

06 - لابد في أي علم من العلوم من إعمال العقل وإعمال العقل لا يكون إلاّ بحمل الأشياء المتشابهة بعضها على بعض .

مصادر و مراجع البحث :

القرآن الكريم ، برواية حفص عن عاصم .

إبراهيم بن علي الشيرازي، **التبصرة في أصول الفقه**.

أبو بكر الزبيدي، **طبقات النحويين و اللغويين**. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط:02، د ت .

ابن جنّي ،**الخصائص**. تحقيق: محمد علي النّجار، عالم الكتب بيروت، د ط ، د ت، ج:01 .

ابن حزم، **التقريب لحدّ المنطق و المدخل إليه بألفاظ العامية و الأمثلة الفقهية**. تحقيق: إحسان عباس، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط: 01، دت.

أبو الكات بن الأنباري، **الإغراب في جدل الإعراب و لمع الأدلة في أصول الفقه**. تحقيق: سعيد الأفغاني، المطبعة الجامعية السورية، د ط، 1957 .

ابن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، دط ، 1952.

سيبويه، **الكتاب**. تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د ط، د ت، ج:03.

السيرافي، **أخبار النحويين البصريين**. تقديم و تحقيق و شرح: محد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط:01، 2004 .

ابن أبو شيبة، **المصنف في الحديث و الآثار**. 3103، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط:1، 1409هـ، ج:.

عبد الرحمن الحاج صالح، **النّظرية الخليلية الحديثة** مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية ، بوزريعة ، الجزائر . العدد الرابع، 2007م.

محمد بن صالح العثيمين، **شرح نظم الورقات في أصول الفقه**. اعتنى به و خرّج أحاديثه: صلاح الدين محمود، دار الطور الجديد، المنصورة – مصر-، ط:01، 2002م .

محمد بن علي بن محمد الشوكاني، **إرشاد الفحول إلي تحقيق الحقّ من علم الأصول**. ج:02 .

محمد حسن عبد العزيز، **القياس في اللّغة العربية**. دار الفكر العربي، القاهرة، ط:01، 1995م.

محمد عيد، **أصول النحو العربي في نظر النّحاة و رأي ابن مضاء و ضوء علم اللغة الحديث**.

مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**. رقم:1149، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دت، بيهقي، **السنن الكبرى**. رقم 21042، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبةدار الباز، مكة المكرمة، 1994م

ابن مضاء، **الردّ على النّحاة**. تحقيق:محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، ط01

منى إلياس، **القياس في النحو مع تحقيق باب الشاذ من مسائل العسكريات، لابي علي الفارسي**. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط:01، دت.

الخطاب النحوي في الأندلس بين المتابعة والممانعة

الأستاذ: أ. د. أحمد فلــيح
قسم اللّغة العربية
جامعة جرش-الأردن

Grammatical Discourse in Andulisia Between Tradition and Refusal

Abstract

This paper has dealt with syntax in Andulisia. It shows that there have been no independent grammatical schools in Andalusia. Rather there existed a group of grammarians who followed suit Arab grammarians in the East. Amongst them, there appeared some, e.g. Ibn Mada who refused to adopt the general methodology of such schools and adopted a methodology of his own.

ملخص البحث

رصد البحث توجهات الدرس النحوي في الأندلس، فتبين أنه ليس في الأندلس مدرسة نحوية مستقلة، بل ثمة نحاة، جلهم كان متابعاً للمشارقة ، و نهض من بينهم صوت ممانع للمنهج العام و متئد، هو ابن مضاء القرطبي، حمل مشروعاً ممانعاً.

فتح العرب المسلمون الأندلس عام 92هـ الموافق 711 للميلاد، وهي شبه جزيرة مترامية الأطراف تبلغ مساحتها ستمئة ألفِ كيلو متر مربع، وذلك في عامين اثنين.
ساعد على سهولة الفتح القوة العقدية لدى المسلمين وحظوتهم بقادة عباقرة، نذكر منهم بإجلال وفخر، طارق بن زياد، وموسى بن نصير. واجتمعت عوامل سهلت الفتح منها قوة الروح المعنوية لدى المسلمين الفاتحين يتغيون نشر الإسلام، ومنها الانشقاق الروحي في البيت الحاكم من القوط وقتئذ، ثم الاستبداد والظلم المعيش آنذاك، فكان الناس يتطلعون إلى الخلاص، ويتوسمون في المسلمين أن

يكونوا منقذين، مخلصين للمواطنين من الظلم والقمع والفقر والاستغلال والتناحر الداخلي. فأضحى الناس يرغبون في التخلص من حكم القوط من أية جهة كانت.[1]

والداخلون إلى الأندلس عقب الفتح كانوا عرباً يحملون بين ظهرانيهم الإسلام ديناً، والعربية لغة وحضارة وفكراً. وكانوا يومها أمشاجاً من القبائل العربية الوافدة من المشرق العربي. يحتقبون هوياتهم ومشروعهم الحضاري.

قراءة في المشهد الجيوسياسي الأندلسي

الأندلس بيئة غاية في الجمال، وتدفق الحياة فيها، مما رغب العرب الفاتحين في الاستقرار والإبداع فيها.

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار[2]

والأندلس بلاد جميلة، خضرة، وماء، وبساتين وأنهار، وجبال وسهول، وفاكهة ورياحين، ثم أضفت الحضارة الجديدة الوافدة عليها من الرقي ما جعل سكانها يحافظون على روح الجمال الطبيعي في بلدهم، وينمونه ويزيدون فيه، فأصبحت الأندلس أغنية عذبة في فم الشاعر ينشدها وهو بين ظهرانيها، وأنشودة ساحرة على لسانه يرددها وهو مغترب عنها.[3]

وكان من أسوأ ما حمله معهم العرب إلى الأندلس العصبية القبلية والعشائرية التي تشربوها في منابتهم، وكانت أداة لإفراز ما سمي يومئذٍ بملوك الطوائف المتناحرة التي أثأت جذور الوجود العربي بالتناحر والتقاتل، والتواطؤ مع العدو، مما أفضى إلى سقوط الأندلس، وفقدان تلك الجوهرة الثمينة، وكان سقوطها من أعظم البلاء، الذي يعد أنكى من نكبة فلسطين واستلابها، إذ من المتعذر التفكير بإعادة الأندلس، على حين ما يزال الأمل معقوداً باستعادة فلسطين حين يلتئم شمل الأمة، وتستعيد مجدها، وتتبدل الظروف والموازين.

الجسم في الأندلس والروح في المشرق:

والعرب من أكثر الخلق التصاقاً بالماضي، وبالأصل الاجتماعي وذلك ملموح من الخطاب القرآني الكريم، إذ استنكروا دعوة القرآن الكريم إلى هجران ما يعبد الآباء من أصنام ونحوها، وللحفاظ على الهوية الجاهلية، والاستمساك بالمشروع القبلي الاجتماعي.

ومن المؤشرات على شدة تجذر الأندلسيين بأصولهم المشرقية، ومبلغ تعلقهم بتلك الأصول، أن جل فعاليات حياتهم كانت ترتبط بسبب أو بآخر بالأصول المشرقية، يقول ابن بسام في الذخيرة:

" (إن أهل هذا الأفق – الأندلس – أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنماً، وتلوا ذلك كتاباً محكماً) "..[4]

---

[1] - (تاريخ صدر الإسلام: عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ص 154)، (التاريخ العباسي الأندلسي، د. سعيد عاشور، بيروت، 974، ص259).

[2] - (ديوان ابن خفاجة 72)، (الأدب العربي في الأندلس: د. عبد العزيز عتيق، 292).

[3] - (الأدب الأندلسي: د. مصطفى الشكعة، طبعة خامسة، بيروت، ص32).

[4] - (الذخيرة لابن بسام، 210/1)، (الفن ومذاهبه لشوقي ضيف، 208)، (الأدب العربي في الأندلس: د. عبد العزيز عتيق، 159).

والأسماء مشرقية، وأسماء المدن والقطائع، ويلقبون نوابغهم بأسماء المشارقة.

فالرصافي ابن رومي الأندلس، ومروان بن عبد الرحمن ابن معتز الأندلس، وابن خفاجة صنوبري الأندلس، وابن زيدون بحتري الأندلس، وابن دراج القسطلي متنبي الأندلس، وحمدة بن زياد خنساء المغرب. تجسيداً لعمق انتمائهم، وشدة ولائهم لوطنهم، إذ جعلوا من جهود المشارقة النموذج الذي يحتذى، والمثال الذي يقتفى. حتى الشعر الأندلسي، في جل رؤاه وتجلياته "وأياما كان فشعراء الأندلس في نظرنا لم يفلحوا كثيراً في استقلالهم عن الشرق في ابتكارهم وتجديدهم، كما لم يفلح في ذلك اللغويون والنحويون".[1]

على أنه من الإنصاف أن تذكر أن لهم بدوات وتجليات إبداعية، لا يمكن غمطها أو إقصاؤها. ولكنهم في الجملة ظلوا متعبدين الموروث الشرقي، وعبارة "هذه بضاعتنا ردت إلينا" تبقى مؤشراً على تلك المتابعة والتقليد للحضارة العربية، التي عدوها الأصل الذي ظلوا ينسجون على منواله، ويجرون في مضماره، تجسيداً لتعالق الأرواح وتعانق الرؤى في الأصول والجذور، و برهاناً على وحدة الثقافة وتوحد الفكر، مع التنوع والتعدد، والأصالة والثراء.

فالخطاب الأندلسي، على الجملة، كان محافظاً، نزاعاً إلى تقليد المشارقة، واستبقاء العيون على نتاجاتهم والتأسي بها. ومن أظهر المؤشرات على التواصل مع أهل المشرق تلك الرحلات المتبادلة من الأندلس إلى المشرق، وبالعكس.[2]

وكان ممن رحل إلى المشرق في طلب النحو والصرف ابن مالك صاحب الألفية ومنهم ابن عبد ربه، صاحب العقد، والشريشي، ومحمد الزهري الإشبيلي.[3]

ومنها جمع الكتب والمصنفات لأهل المشرق لوضعها تحت أنظار الناس لظنهم أن جل الأفكار التي نسلت كانت خارجة من رحم الفكر العربي المشرقي، ولاستبقاء اللحمة مستديمة بين النبعين الكبيرين.

الخطاب النحوي الأندلسي:

أقام العرب في الأندلس زهاء ثمانية قرون منذ عام 92هـ الموافق 710 للميلاد، وخرجوا منها عام 898هـ الموافق 1492م، وأشادوا حضارة عريضة انطوت على إبداع متنوع انتظم جل الفاعليات العلمية والأدبية، واللغوية، والنحوية والفلسفية، وقد انتهت إلينا من تلك العهود الزاهية منظومات نحوية ولغوية جليلة، ومخرجات شعرية شكلت منظومة فكرية مشتهرة ورزمة من المصنفات المأهولة بالفكر والإبداع، والاستنباط، لا يمكن أن تغمط أو تجحد.

كانت جسور التواصل بين الأندلس والمشرق ممتدة، والمسالك بينهما سابلة بالرحلات العلمية، فالرحلات العلمية ناشطة فذكر ابن الزبيدي من العلماء الأندلسيين الراحلين إلى المشرق أبا موسى الهواري، والغازي بن قيس وجودي النحوي (ت189هـ) الذي لاقى الكسائي والفراء، وغيرهما، وهو أول من أدخل كتاب الكسائي إلى الأندلس، وجعل الزبيدي علماء النحو الأندلسيون في ست طبقات.[4]

---

[1] – (ظهر الإسلام: أحمد أمين، 104/3).

[2] – (نفح الطيب، 217/2).

[3] – (نفح الطيب، 316/2).

[4] – (طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي، ص 253 وما بعدها)، (وينظر المدارس النحوية: د. شوقي ضيف، 288).ت

وتطالعنا جمهرة عريضة من نحاة الأندلس الكبار منهم: الأعلم الشنتمري (ت476هـ) وابن السيد البطليوسي (ت521هـ) وابن الباذش (ت528هـ) وابن الطراوة من المرية (ن528هـ) وابن طاهر (ت580هـ)[1] والسهيلي (ت581هـ) وابن خروف القرطبي (ت609هـ) والشلوبين (ت645هـ) تلميذ السهيلي وابن هشام الخضراوي تلميذ ابن خروف، و توفي بتونس سنة (ت646هـ).

ومنهم ابن مضاء القرطبي (ت592هـ) صاحب كتاب الرد على النحاة. وكان حجة في الفقه الظاهري قرأ كتاب سيبويه على ابن الرمالك. ولنا معه وقفة طويلة. ومنهم ابن عصفور الإشبيلي (ت663هـ) تلميذ الشلوبين، ومن أظهر تآليفه المقرب، والممتع في التصريف ومنهم ابن مالك الجياني المتوفى سنة (672هـ) صاحب الألفية المشتهرة في النحو.

ومنهم ابن الحاج (ت651هـ) وابن الضائع (ت680هـ) وابن أبي الربيع الإشبيلي (ت688هـ) وأبو حيان الغرناطي الأندلسي (ت745هـ)[2] وهم عمالقة كبار في جهودهم، بيد أن جلها كانت متابعة لآراء علماء النحو في المشرق.

فالمشروع النحوي كان ضخماً، ولكن منهج الخطاب كان يقتفي علماء المشرق، وكان الهدف جلياً هو تخول العربية وحفظ الألسنة والأقلام من الانحراف والانجراف وراء اللحن أو العاميات.

على أن المشهد لم يكن ليخلو من أصوات مجددة ورؤى متفردة أغنت الحالة العلمية، أو صححت أو دعت إلى التصحيح كما فعل ابن مضاء الذي ضاق بمناهج النحو في المشرق، وفي الأندلس.

هل كان للأندلسيين مدرسة نحوية متميزة:

يذهب بعض الدارسين إلى أن لدى النحاة الأندلسيين مدرسة أصيلة، تستجمع آراء علماء النحو الأندلسيين الفذة. وإلى هذا ذهب شوقي ضيف وعدد جملة من النحاة الأندلسيين، وتكلف ذكر جل مصنفاتهم.[3]

ويذهب المرحوم الأستاذ سعيد الأفغاني مذهباً آخر مغايراً فيقول:

"لا يخطئ دارس مطولات النحو أن يقع على آراء الأندلسيين في جزئيات نحوية، فأسماء ابن خروف (ت609هـ) وابن عصفور (ت663هـ) والشلوبين (ت645هـ) وابن الضائع (ت680هـ) وغيرهم تذكر بين أسماء النحاة المشارقة حين عرض الآراء في الخلاف، إلا أن متصفحها لا يجد فيها ما يميزها من غيرها من التخريجات المختلفة المعروضة في القضية الواحدة أو بعبارة أخرى: ليس لآراء الأندلسيين هؤلاء سمات مدرسة خاصة".[4]

فإن جبهته بأسماء أندلسية، في النحو، لامعة من أمثال ابن مالك صاحب الألفية، وكذلك العالم المشتهر أبو حيان (ت745هـ) أجابك من فوره: هذا ظن يروج ابتداء لكنه لا يثبت عند النظرة الفاحصة: فابن مالك قرأ النحو بالشام بعد تلقيه على الشلوبين ثلاثة عشر يوماً، فهو إنما أخذ هذا العلم من خاصة نفسه.[5]

وإن اعتبرنا الجوهر وجدنا هذين الرجلين في تواليفهما شرقياً محضاً.

---

[1] - (المغرب في حلى المغرب، 253/1، الهمع للسيوفي، 158/1)

[2] - (المغرب في حلى المغرب، 253/1، الهمع للسيوفي، 158/1)

[3] - (المدارس النحوية: شوقي ضيف، 288).

[4] - (من تاريخ النحو: سعيد الأفغاني، دار الفكر، طبعة ثانية، 100).

[5] - (من تاريخ النحو، 101، وينظر بغية الوعاة للسيوطي، 53).

أما أن ابن مالك وابن خروف شرعا الاستشهاد بالحديث الشريف والاحتجاج به في قضايا اللغة والنحو مخالفاً بذلك –كما زعمو – سنة من قبلهم من النحاة. والصحيح أن الجوهري، وابن سيده، وابن فارس، وابن جني، وابن بري... كلهم احتجوا بالحديث، فنزعة الاحتجاج من قبلهما من الأئمة المتبوعين في المشرق.[1]

ونذهب إلى ما ذهب إليه الشيخ المرحوم سعيد الأفغاني، فإن أنت ألممت بأي مصنف نحوي لعالم نحوي أندلسي ألفيت المنهج المشرقي نفسه في العامل، وفي العلل، وفي الشواهد، وفي تجلية المسائل والأنظار. فلنذهب إلى أحد هؤلاء الأندلسيين وهو ابن عصفور في المقرب مثلاً، فنجده يتقبل العلماء المشارقة في المنهج، وفي المحتوى.

فيبدأ ابن عصفور في المقرب بالمسائل النحوية، ويرجئ المسائل الصرفية إلى آخر المصنف، وهو بذلك يقتفي مناهج القدماء من أمثال سيبويه، والمبرد وغيرهم. والمنهج نفسه في عرض المسائل على وفق نظرية العامل، والعلل النحوية، والشواهد النحوية، وكذلك الأنظار والرؤى والأوجه الإعرابية.[2]

ولما اختصر أبو حيان الأندلسي (ت745هـ) المقرب ليقربه في (تقريب المقرب) لم يفعل شيئاً بل حذف الشواهد، واستبقى باقي المحتوى.[3]

وإن أنت قايست صنيع علماء الأندلس في المسائل النحوية والمناهج لوجدتهم يسامتون سنن المشارقة من النحويين العرب، القذة حذو القذة إلا القليل، وذلك في الرؤى، والمقاربة التحليلية للنصوص.

وقد يكون البدء في بعض المظان بالكلمة والكلام، ثم يشرع المؤلف يشرح تلك الأقسام وخصائصها ووظائفها.[4]

فهذا المنهج الشرقي كانت أصداؤه رجعاً واضحاً لدى علماء الأندلس. فهذا الصوت هو صوت المتابعة.

الخطاب الممانع:

وهو صوت هادر رافض مصدره الأندلس ومن قرطبة حصراً، إنه ابن مضاء القرطبي (ت592هـ) في مصنفه الموسوم: الرد على النحاة. وسنجري مقاربة لهذه الدعوة التي أذن بها، وصداها في الدرس النحوي.

كان ابن مضاء برماً بالمناهج والأدبيات القارة في آليات الدرس النحوي، وظل متضايقاً من كثرة الأوجه والآراء، التي أفضت إلى تورم السفر النحوي، و أبهظت أذهان المتلقين، وجعلتهم يجفلون من الخطاب النحوي، وتداعيات القولان والأقوال في المسألة الواحدة، مما اقتضى تضايق الشداة بله العلماء من هذه الأوجه و التشعبات المخلة المؤرقة.

أجل تلقينا ذلكم الصوت المناوئ من لدن عالم جليل أذن بأطروحته من قرطبة، وكانت رجعاً لتداعيات مذهب ظاهري كان فاشياً بين ظهراني الناس يومئذٍ، صوت أبى متابعة ما عليه الدرس النحوي، فهاجم وانتقد بحصافة، كيما ينقي النحو مما علق به من أدران وعناصر مستجلبة من خارج جسم اللّغة.

[1] - (من تاريخ النحو: سيد الأفغاني، 102).
[2] – (المقرب لابن عصفور، 48/1).
[3] – (تقريب المقرب لأبي حيان الأندلسي، تحقيق محمد جاسم الدليمي، 142).
[4] - (المفصل للزمخشري، دار الجيل، ص6). (وشرح المفصل لابن يعيش، 21/1).

فحوى دعوة ابن مضاء:

لم تكن دعوة ابن مضاء سهلة المسلك، و إساغتها و إسلاكها إلى الناس عسر، من قبل أنها تقوض ما تواضع العلماء عليه دهراً، وتنقص ما حظي به العلم من التمكين والرسوخ، وكأن لسان ابن مضاء يصدع بنظريته غير آبه ولا وجل، وكأن حاله يقول:

الحر من خرق العادات منتهجاً نهج الصواب ولو ضد الجماعات

وهو ذكر ذلك أذ قال: أتزاحم بغير عود، وتكاثر برذاذك الجود.... وهل أنت إلا كما قال كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يغيرها وأوهى قرنه الوعل.[1]

وتتراءى لنا أطروحات ابن مضاء في المسائل الآتية:

الدعوة إلى إلغاء نظرية العامل

الاعتراض على تقدير العوامل المحذوفة

الاعتراض على تقدير تعلقات المجرورات

الاعتراض على تقدير الضمائر المستترة في المشتقات

الاعتراض على تقدير الضمائر المستترة في الأفعال

باب التنازع، وباب الاشتغال

الدعوة إلى إلغاء العلل الثواني والثوالث

الدعوة إلى إلغاء القياس

الدعوة إلى إلغاء التمارين غير العملية[2]

هذه أظهر الفضاءات التي سعى ابن مضاء بها، لتغيير إيقاع الدرس النحوي، باستشراف آفاق جديدة تخفف من غلواء استجلاب عناصر من خارج جسم اللغة.

هذه الدعوة التي عصف بها ابن مضاء الذهن العربي، نبعت من قرطبة بالأندلس، وكانت وليدة مذهب ديني (ظاهري) كان فاشياً في ذلك الزمان، وهي دعوة ألصق بالأسلوبية المعاصرة، وفيها رسيس من الوصفية المشتهرة في أيام الناس هذه.

ولا يخفى أن لهذه الدعوى أصولاً لدى بعض المفكرين النحاة في مناكفتهم، وليست دعوة قطرب (ت206هـ) ببعيدة عن الأذهان في أنه لا قيمة للعامل النحوي في الحركات الإعرابية يقول:

"إنما أعربت العرب كلامها لأن الاسم في حال الوقف يلزمه السكون للوقف، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضاً لكان يلزمه الإسكان في الوقف والوصل، وكانوا يبطئون عند الإدراج، فلما وصلوا وأمكنهم التحريك، جعلوا التحريك معاقباً للإسكان ليعتدل الكلام".[3]

ولكن نظرية العوامل النحوية ظلت مستحوذة على الفكر النحوي، لدرجة أنهاها عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) إلى مئة عامل.[1]

---

[1] - (كتاب الرد على النحاة لابن مضاء، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، 74).

[2] - (الرد على النحاة، 71).

[3] - (الإيضاح في علل النحو للزجاجي، ص70) (في التحليل اللغوي: د. خليل عمايرة، طبعة أولى، ص67).

تداعيات نظرية ابن مضاء:

كان للرؤى التي أذن بها ابن مضاء القرطبي، في آلية تعاطي الدارسين، كان لها صدى لدى جمهرة من الدارسين، فانبروا يهاجمون نظرية العامل، والعلل، والتمارين الافتراضية، بما ينم على أن ثمة وعياً على أبعاد تلك الرؤى، وأنها دخلت مفاصل البنية المنهجية في الدرس النحوي، وكلهم رموا الدرس النحوي ونظرية العامل عن قوس واحدة.

نجمت منظومة من الدارسين المحدثين شغبوا على النظريات القديمة، والمناهج النحوية السائدة، كان منهم إبراهيم مصطفى في مدونته اللغوية الموسومة بـ "إحياء النحو" "وإذا وجب أن ندرس علامات الإعراب على أنها دوال على معان.... فأحرى أن تكون مشيرة إلى معنى من تأليف الجملة وربط الكلم وهو ما نراه.[2]

فالضمة علم الإسناد، والكسرة علم الإضافة والارتباط فأما الفتحة فليست علامة إعراب ولا دالة على شيء، بل هي الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب... فهي بمثابة السكون في لغة العامة.[3]

وانتفع بهذه الأطروحة المضائية، تمام حسان ووظفها في رؤاه، وكذلك مهدي المخزومي، ومحمد عيد، وإبراهيم السامرائي، وعباس حسن في اللغة والنحو، الذي هاجم نظرية العامل، والتعليل بضراوة.[4]

بيد أنه في مصنفه الموسوم: النحو الوافي ظل يستحضر نظرية العامل ويوظفها في دراساته. ومنهم المرحوم خليل عمايرة وغيرهم كثر.

وهبت كوكبة من الحراس على اللغة، الغير على ديمومتها والارتقاء بها، وألظوا بدعوة: الإصلاح، أو التيسير، أو التجديد، أو التعريب، أو التطوير، وغيرها من مسميات، تستهدف الدرس النحوي بشيء من التغيير.[5]

وجل هذه الدعوات ظلت منقوصة قاصرة عن الإتيان بالبديل المقنع لنظرية العامل، وظلت صرخة في واد.

على أن لها تأثيرا أحياناً غير منكور، فهي شجعت على التخفف من الاعتماد على الشواهد المقيدة، وخففت من ظاهرة التعليل المؤرقة والممضة لدى القدماء، فتناهى إلينا: النحو المصفى لمحمد عيد، والنحو الوظيفي لعبد العليم إبراهيم، والنحو الشافي لمحمود حسني، بأسلوب شائق رائق وعبارة طلية وجيزة، وفي منأى عن أعباء النحو المبهظة لدى القدماء.[6]

فالدعوة الكريمة المباركة التي هبت نسائمها علينا، كانت من قرطبة من الأندلس، صادفت خالياً فشغلته، وآتت أكلاً طيباً، وثماراً مباركة. فخف الميل إلى العلل النحوية والغلو فيها، بل يمسها الدارس مساً رفيقاً، وصار التخفف من التمارين والأوجه الإعرابية، مسلكاً يتقصده الدارسون، ويتحامون الأوجه المتعددة، بيد أن نظرية العامل في النحو العربي ظلت متأصلة مكينة لم يزحزحها أحد، ولم يتأت لأحد أن يأتي ببديل مقنع عنها. إلا أن حياة جديدة دبت في عروق الدرس النحوي، وتحس رسيساً من التجديد بادياً يتعبس لمناهج القدماء في العلل، والحجاج، والأوجه، ولي ذراع اللغة، واجتلاب عناصر من خارج الجسم اللغوي لتستقيم نظرياتهم وتوجيهاتهم.

---

[1] - (العوامل المئة: عبد القاهر الجرجاني، 73).

[2] - (إحياء النحو: إبراهيم مصطفى، 1959، ص 49).

[3] - (إحياء النحو: إبراهيم مصطفى، 50).

[4] - (اللغة والنحو: عباس حسن، طبعة ثانية، ص 143).

[5] - (ينظر على سبيل التمثيل: تجديد النحو، وتيسير النحو لشوقي ضيف، والمفتاح في تعريب النحو للمحامي محمد الكسار، والنحو الجديد لعبد المتعال الصعيدي، ويوسف السودا في الأحرفية، وأنيس فريحة في: نحو عربية ميسرة، وفؤاد طرزي في سبيل تيسير العربية وتحديثها، وأحمد عبد الستار الجواري في كتابه: نحو الفعل"، ويوسف كركوش في مصنفه: رأي في الإعراب، ومناهج تجديد لمحمد الخولي وغيرها).

[6] - (دراسات في اللغة والنحو: د. أحمد فليح، المركز القومي للنشر، اربد، 420/2).

وهكذا استحال الخطاب النحوي العربي المعاصر إلى خطاب عقلاني مقنع يتجنب الخلافات المستحرة بين النحاة، وينحو منحى التوحد والائتلاف في المسألة الواحدة، كي تقدم للناشئة سائغة مطردة منسجمة، ولا سيما النحو التعليمي من خلال النحو التداولي، والوظيفي المثمر في الأنساق اللغوية المعيشة.

وبذلك نلحظ في الدرس النحوي الأندلسي أنه في المجمل كان تقليداً ومتابعة لجهود النحويين في المشرق، وظلوا أسرى لمناهج المشرقيين، ولا سيما الالتزام بنظرية العامل، والتعليل للتوجه العام وهو رؤية خاصة لابن مضاء القرطبي.

وثمة ملحظ أننا لا نحس أثراً من أي وجه بالمناهج أو بالتفكير الغربي الذي كان متاخماً للعرب في الأندلس من خلال التحاكك مع الآخر، لأن المستوى الفكري الغربي كان أدنى مستوى من التفكير العربي، بل كان العلماء العرب متفوقين على أقرانهم في تلك الساحة، وعلى ذلك الصعيد.

الخلاصة:

بعد قراءة المخرجات النحوية في الأندلس، والوقوف على جل الرؤى، تبين لنا الآتي:

- كان الخطاب النحوي الأندلسي، في جل مراحله، يحمل مشروعاً ثقافياً جليلاً، أسهم في الحراك العلمي المنجز يومئذٍ، وتطالعنا قامات ورموز ثقافية كانت لها يد لا تجحد في المقاربات النحوية.
- لم يكن في الأندلس مدرسة نحوية مستقلة كمدرسة البصرة أو الكوفة.
- جل علماء النحو الأندلسيين كانوا يمتحون من فكر النحويين المشرقيين ويتقبلونهم ويجعلونهم النموذج والقدوة، والمثال الذي يحتذى، سواءً من الكوفة أو البصرة أو غيرهما.
- برزت من الأندلس دعوة كريمة للرد على النحاة، وتنقية النحو من الأدواء التي كانت تتحيفه، وذلك على يد العالم الجليل ابن مضاء القرطبي، وذلك باستهداف نظرية العامل، وإلغاء العلل الثواني والثوالث، وإلغاء التمارين الافتراضية بقصد تهذيب الدرس النحوي في المحتوى، وفي المناهج.
- كانت ثورة ابن مضاء صرخة في المشهد العلمي النحوي وقتئذٍ وكانت لها تداعيات واسعة، في التعاطي مع النصوص، في الحالة المعيشة، وسرعان ما تقاطر جمهرة من العلماء إلى مهاجمة كثير من المناهج والرؤى التي كانت موظفة في المقاربات اللغوية والنحوية، فكانت أشبه بهزة حركت الأقلام الهاجعة، والهمم الفاترة للإصلاح وزعزعت القناعات القارة إلى حد التوثن والتنمط، فنتجت مصنفات ندية تحامت كثيراً من المناهج التقليدية، وعصفت بذهن الدارسين واستمطرت أفكاراً نحوية سلسلة نهرية يتقبلها المتلقي بأريحية.
- الدرس النحوي في الأندلس كان بين متابعة جارفة وممانعة ناشزة، ثائرة داعية إلى الإصلاح والتغيير من منظور المذهب الظاهري القريب من المنهج الوصفي، والمنهج الأسلوبي الذي يحيد العناصر غير اللغوية، أو المفترضة من خارج الجسم اللغوي، ويكرس الدرس في اللغة وحدها.
- لا تأثير للآخر من غير العرب، في الدرس النحوي، إجمالاً. مع التخالط والتحاكك بين الثقافتين.

قائمة المصادر و المراجع:

1 -إحياء النحو: إبراهيم مصطفى ، دار المعارف.
2 -الإيضاح في علل النحو: الزجاجي ، تحقيق مازن المبارك ، الرسالة.
3 -الأدب العربي في الأندلس: عبد العزيز عتيق ، ط5 ، بيروت 978م.
4 -بغية الوعاة: السيوطي / القاهرة.
5 -تاريخ صدر الإسلام : عمر فروخ ، دار العلم للملايين، بيروت 974م .
6 -التاريخ العباسي الأندلسي: سعيد عاشور ، بيروت 974م.
7 -تقريب المقرب: أبو حيّان الأندلسي ، تحقيق محمد جاسم الدليمي.
8 -الذخيرة في محاسن الجزيرة : ابن هشام.
9 -الرد على النحاة: لابن مضاء القرطبي، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف.
10 -شرح المفصل: ابن يعيش ، عالم الكتب، بيروت.
11 -طبقات النحويين و اللّغويين: الزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة أولى، القاهرة.
12 -ظهر الإسلام: أحمد أمين.
13 -العوامل المئة: عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق البدراوي زهران، طبعة ثانية.
14 -الفن و مذاهبه في الشعر: شوقي ضيف، دار المعارف بمصر 1978م.
15 -اللّغة و النّحو: عبّاس حسن، دار المعارف بمصر، القاهرة 1966م.
16 -المفصل: الزمخشري، الكتبة العصرية.
17 -المقرب: ابن عصفور ، تحقيق أحمد الجواري، بيروت.
18 -المدارس النّحوية: شوقي ضيف.
19 -من تاريخ النّحو: سعيد الأفغاني، دار الفكر ، طبعة ثانية.

الفعل الأجوف ومشتقاته بين اللهجات العربية
"دراسة وتحليل"

الأستاذ: د. عبد اللّطيف مطيع عبد القادر
جامعة العلوم الإسلامية العالمية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والتربوية
قسم اللّغة العربية – عمّان – الأردن

المقدمة :

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

وبعد: فمما لا شك فيه أنّ الاشتغال بدراسة اللغة العربية لهو من خير العلوم وأوفرها حظا في القبول , كيف لا وهي تتعلق بكتاب الله الخاتم الذي أنزله ربنا ﷻ بهذا اللسان المبارك (كتاب فُصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) (سورة فصلت 3), فكان لزاما تعلّم هذه اللّغة ودراستها , فهي المفتاح الذي نفهم من خلاله مراد الله ﷻ فيما أراد في كتابه , وكما قال علماء الأصول: ما لايتمّ الواجب إلا به فهو واجب , وكان مما منّ الله به علينا أن هدانا وحبّبنا لهذا العلم الجليل , وكان من حبّي لعلّم اللّغة أن تخصصت بعلم النحو , إذ إنه من أسمى العلوم قدرا , وأنفعها أثرا , به يثقف اللسان , ويسلس عنان البيان , ولا تستقيم العلوم إلّا به , ولا يتذوق الطالب فنا من الفنون ولا يسير فيه على هدى وبصيرة إلا إذا اخذ منه بطرف.

وكان موضوع البحث: (الفعل الأجوف بين اللهجات العربية) .

فاستعنت بالله عز وجل وجمعت المادة العلمية وقسمتها على تمهيد, وثلاثة مباحث, وهذا بيانها:

التمهيد: اللهجات وتعريفها وأقسامها, ومسائل أخرى.

المبحث الأول:الفعل الأجوف , قواعده وأحكامه.

المبحث الثاني: الفعل الماضي من الفعل الأجوف, وهو على مطالب.

المبحث الثالث: الفعل المبني للمجهول من الفعل الأجوف .

المبحث الرابع: اسم المفعول من الفعل الأجوف, وفيه مطلبان.

المبحث الخامس: المصدر من الفعل الأجوف.

الخاتمة.

هذا واسأل الله عز وجل أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم .

تمهيد:

لا يخفى على كلّ دارس ما للهجات العربية من أهمية كبيرة في الدراسات اللغوية , حيث أنها تمثل ثروة مهمة من تاريخ لغتنا العربيّة الزّاهرة, وأردنا في هذا التمهيد أن نقف على بعض المسائل المتعلقة بمفهوم اللهجات العربية , من ناحية تعريفها , وتقسيماتها, وأشهر اللهجات العربية , وذلك حتى تكون الدراسة واضحة المعالم, كونها ستسلّط الضوء على جزء من اختلاف اللهجات في مسألة من مسائل اللغة الكبيرة.

ونتعرّض أيضا إلى علاقة اللّهجات بالقرآن الكريم وقراءاته القرآنية , حيث حفظ القرآن الكريم صورا متعددة من اختلاف اللهجات , وهذا ما سنجده في بعض المسائل المتعلقة ببحثنا.

تعريف اللّهجة:

نبدأ بذكر التعريف اللغوي للفظ (اللهجة) كما ذكره ابن منظور في لسانه حين قال:((لَهِجَ بالأمرِ لَهَجاً, ولَهْوَجَ, وأَلْهَجَ كلاهما أُولِعَ به واعْتادَه ...., واللَّهْجَةُ واللَّهَجَةُ: طَرَفُ اللِّسان, واللَّهْجةُ واللَّهَجةُ جَرْسُ الكلامِ , والفتحُ أعلى. ويقال فلان فصيحُ اللَّهْجَةِ واللَّهَجةِ , وهي لغته التي جُبِلَ عليها فاعتادَها ونشأَ عليها))[1].

وأما اصطلاحا فنختار تعريف إبراهيم أنيس, بأنها ((مجموعة من الصّفات اللغوية, تنتمي إلى بيئة خاصّة , ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة , وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات , لكلّ منها خصائصها , ولكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسّر اتصال أفراد هذه البيئات بعضها ببعض, وفهم ما قد يدور بينهم من حديث فهمًا يتوقف على قدر الرابطة التي تربط بين هذه اللهجات))[2] .

واللّهجة هي صورة وجزء من اللّغة , لأنّ اللّغة حين عُرِّفت كأنها تتّسم بالعموميّة , ولا تخصّ لسانا دون لسان , أو قبيلة دون قبيلة , فمثلا عرّفها ابن جني بأنها: ((أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم))[3] , وهذا ما نجده عند ابن حزم حين عرّفها فقال: ((واللغة ألفاظ يُعبَّر بها عن المسمّيات وعن المعاني المراد إفهامها , ولكل قوم لغتهم))[4] , وعُرِّفت اللغة كذلك: بأنها ((مجموعة مجموعة من اللهجات تنتمي إلى بيئة معينة))[5].

وأما العلاقة بينهما فهي من باب العام والخاص ؛ لأن اللغة تشتمل على عدّة لهجات , ولكلّ منها ما يميّزها , وجميع هذه اللّهجات تشترك في مجموعة من الصّفات اللّغويّة والعادات الكلامية التي تؤلف لغة مستقلّة عن غيرها من اللغات [6].

الدراسات اللّهجية في كتب القدماء:

وفي هذا الموضوع يذكر عبده الراجحي أنّ مصطلح اللهجة لم يستعمله القدماء على النحو الذي يوجد في الدراسات الحديثة , وإنما سمّوها لغة أو لغية[7] , بدلالة أنّ المؤلفات كانت تحمل اسم اللّغة في دراستهم لما يسمى اليوم لهجات , وقد يكون من

---

[1]) لسان العرب لابن منظور , مادة: (لهج)340/12 .
[2]) في اللهجات العربية , إبراهيم أنيس 15 .
[3]) الخصائص لابن جني 87/1.
[4]) الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم 39/1 .
[5]) المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية , لمحمد سالم محيسن 7 .
[6]) ينظر: المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية 7-8 .
[7]) ينظر: فقه اللغة في كتب العربية لعبده الراجحي 110-111.

باب التغليب, أو أنهم لم يدرسوا لهجات أو لغات مقارنة حتى يفرّقوا بينهما , وإنما كان كلّ اهتمامهم هو دراسة اللغة العربية فقط , أو لعلّه من باب المجاز اللغوي من إرادة الجزء بإطلاق الكل.

أسباب ظهور اللّهجات:

قد يكون وراء انشطار اللّغات إلى لهجات عوامل كثيرة , اجتهد العلماء في تفسيراتها وذكر أسبابها [1], ولسنا بصدد هذا وإنما نشير إلى سنة لغوية تسري على جميع اللغات , وذلك أنّه حين ينقسم المتكلمون بلغة ما إلى قبائل وطوائف , وحين تنتشر اللغة في مساحة واسعة يظهر لنا هذا التنوع في اللّغة الواحدة , وذلك تبعا لظروف كلّ قبيلة مع بيئتها ومناخها , فمن الصعب في مثل هذا أن تحتفظ اللغة بوحدتها الأولى أمدا طويلا , وعلى هذا الأساس نرى أن كلّ قبيلة قد اختصت بمظاهر صوتية معينة مثل الصوت والدلالة والقواعد والمفردات [2], ويذكر إبراهيم أنيس عاملين أساسيين يُعزى إليهما تكوّن اللّهجات في العالم , وهما: "أ- الانعزال بين بيئات الشعب الواحد , ب- الصراع اللغوي نتيجة غزو أو هجرات" [3].

وهذا ما سنجده من اختلاف بعض القبائل في تعاملهم مع الفعل الأجوف , كنموذج يوضح لنا كيفية اختلاف القبائل العربية بعضها عن بعض .

أقسام اللّهجات:

وللهجات أقسام عدّة ذكرها الباحثون في دراساتهم , وأكثروا في توضيحها وبيانها , وهنا نكتفي بإشارة إلى ذلك بما قاله "تشين رابين": ((إنّ تقسيم اللهجات حجازية أو تميمية – الذي نجده في الأبحاث العربية – يتطابق مع انقسام اللّهجات الفعلي إلى مجموعتين , إحداهما عربية شرقية , والأخرى عربية غربية , ولم تكن هاتان المجموعتان وحيدتين , ولكننا لا نعرف سوى النزر اليسير عن غيرهما لأخذه بعين الاعتبار , وتمتاز مجموعة اللهجات الشرقية التي تضمّ لهجات تميم وربيعة وأسد وعقيل وغَنِيّ وبعض قبائل قيس الأخرى , بعدد كبير من الملامح المميِّزة , وعند إلقاء نظرة فاحصة على هذه اللهجات يتبين أنها تمثل تطورات لغوية حديثة في الغالب مقارنة بغيرها , وأنّ اللهجات الشرقية هي نفسها التي استخدمها شعراء العربية الأقدمون))[4].

وهذا ما سنلحظه في اختلافات الفعل الأجوف, فغالبا ما يكون الخلاف بين هاتين اللهجتين , إمّا اللهجة الحجازية , أو لهجة تميم .

علاقة القرآن الكريم باللّهجات:

ولما كان من صميم بحثنا ونحن نبحث في الفعل الأجوف بين اللهجات العربية , أن نعتني بما نقله القرّاء الكرام من تنوع الأداء في بعض الأفعال الجوفية على اختلاف تصريفاتها , وهذا يجرُّنا إلى الحديث عن علاقة القرآن باللهجات العربية, وهل كان القرآن الكريم بقراءاته حاوٍ للهجات العربية ؟ وبأيّ لسان من لهجات العرب نزل ؟ هذا ما سنقف عنده بيسر واختصار, عَلَّهُ ينفعنا في تحليل بعض ما سندرسه في موضوع بحثنا .

---

[1]) يراجع: اللهجات العربية في القراءات القرآنية 37 وما بعدها .

[2]) ينظر: فقه اللغة , علي عبد الواحد وافي 86-87 (بتصرف) .

[3]) في اللهجات العربية لإبراهيم أنيس 20 .

[4]) اللهجات العربية القديمة في غرب الجزيرة العربية (تشيم رابين) 35-36 .

فأول الأمر علينا معرفة أنّ القرآن نزل بلغة العرب , وراعى في ذلك الاختلاف اللهجي لتلك القبائل التي نزل القرآن الكريم بين ظهرانيهم , وتيسّرت قراءته لكلّ العرب على اختلاف ألسنتهم , والأصل في هذه المسألة هو ما روي عن النبي ﷺ أنَّه قَالَ: ((أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى حَرْفٍ، فَرَاجَعْتُهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ فَيَزِيدُنِي , حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ)) [1].

ويوضح المعنى من أنّ المقصود من الأحرف هو تنوّع اللهجات للتيسير والتسهيل , هو ما روي عمر بن الخطاب ﷺ إذ يقول:((سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ , فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول ﷺ , فكدت أساوره في الصلاة , فتصبّرت حتى سلّم , فلبّبته بردائه , فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ؟ قال أقرأنيها رسول الله ﷺ , فقلت: كذبت فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت , فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها , فقال رسول الله ﷺ: (أرسله, اقرأ يا هشام) . فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ فقال رسول الله ﷺ: (كذلك أنزلت) , ثم قال: (اقرأ يا عمر) , فقرأت القراءة التي أقرأني فقال رسول الله ﷺ: (كذلك أنزلت , إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف , فاقرؤوا ما تيسر منه)))[2].

فهذا الخبر الصحيح يدلّنا على اختلاف المنطوق تبعا لاختلاف لهجات القارئين , فهنا سيّدنا عمر ومعه هشام بن حكيم (رضي الله عنهما) اختلفا في نطق بعض آيات القرآن الكريم , وما هذا إلّا دلالة على أنّ القرآن نزل بلهجات العرب , وعلى نواميسها في الكلام .

وهنا أشار العلماء إلى أسماء اللهجات التي جاء التنزيل بها , فنقل السّيوطي عن أبي حاتم السجستاني قوله: ((نزل بلغة قريش وهذيل وتميم والأزد وربيعة وهوازن وسعد بن بكر))[3].

وفسّر أبو عبيد معنى النزول بهذه اللغات فقال: ((ليس المراد أنّ كل كلمة تقرأ على سبع لغات , بل اللّغات السبع مفرّقة فيه , فبعضه بلغة قريش , وبعضه بلغة هذيل , وبعضه بلغة هوازن , وبعضه بلغة اليمن وغيرهم , قال: وبعض اللغات أسعد به من بعض وأكثر نصيبا))[4].

ولكن الأصل الذي سار عليه القرآن هو لسان قريش ولهجتها , فروي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ أنه قال للرهط القرشيين الثلاثة: ((إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش , فإنه إنما نزل بلسانهم , ففعلوا))[5].

وعلّل النيسابوريّ ذلك بقوله: ((وذلك أنّ قريشاً تجاور البيت، وكانت أحياء العرب تأتي إليهم للحجّ ويستمعون لغاتهم ويختارون من كل لغة أحسنها، فصفا كلامهم , واجتمع لهم مع ذلك العلم بلغة غيرهم))[6], وقد يكون السبب وراء تميّز لغة قريش , , ونزول القرآن بها هو ما نقله السيوطي عن الفارابي أنه قال: ((كانت قريش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ , وأسهلها على اللسان عند النطق , وأحسنها مسموعا , وأبينها إبانة عما في النفس))[7], وكذلك نأت بنفسها عن ثقيل القول وفاسده , وهنا

---

1) صحيح مسلم (باب بيان أن القرآن نزل على سبعة أحرف) 354 .
2) صحيح البخاري 339/3 .
3) الاتقان للسيوطي 47/1 .
4) الاتقان للسيوطي 47/1 .
5) الاتقان للسيوطي 59/1 .
6) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري58/1 .
7) الاقتراح للسيوطي 59 .

وهنا يقول السيوطي معلّلا فضل قريش على ما سواها من اللغات واللهجات: ((ألا ترى أنك لا تجدُ في كلامهم عَنْعَنة تميم , ولا عَجْرفية قَيْس , ولا كشْكَشَة أسد , ولا كَسْكَسَة ربيعة , ولا كَسْر أسد وقيس))[1] .

وهذا لا يعني بأنه لا توجد هناك ظواهر للهجات أخرى , قد اختارها القرآن لتشكّل ذلك النظام البديع , وحُفِظَ بعض تلك اللهجات , ومن ذلك ما ذكره بعض العلماء من توجيهات وتعليلات حول ورود بعض اللهجات العربية في المصحف الشريف , ومن ذلك ما قاله ابن عبد البر في التمهيد: ((قول من قال أن القرآن نزل بلغة قريش معناه عندي في الأغلب والله أعلم ؛ لأن غير لغة قريش موجودة في صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها وقريش لا تهمز))[2].

الرسم القرآني واللهجات العربية:

للرسم القرآني أهمية كبيرة في الدراسات اللهجية , إذ أنّ الرسم القرآني هو صورة واضحة عن اللغة والكتابة في صدر الإسلام , والنقل المتواتر للقراءات ينقل لنا الصوت الذي كان بين لهجات العرب , وما فيها من تنوّع واختلاف بين الصورة النطقية لبعض الكلمات والألفاظ والأصوات , وسيقف البحث عند الفعل المبني للمجهول من الفعل الأجوف , وما هو اختلاف القراء في قراءته , وما هذا إلا نموذج لاختلاف اللهجات , لأنّ القرآن كما هو معلوم نزل بلهجات العرب , وسنجد أنّ الرسم قد احتفظ لنا ببعض الصور النطقية المتولّدة من اختلاف اللهجات , وخاصة في موضوع بحثنا عن الفعل الأجوف , ومن ذلك مسألة اختلاف النطق بالألف في بعض الأفعال الجوفية , وما فيها من اختلافات لهجية مثل الإمالة .

وقد رفض بعض الدارسين المستشرقين أن يكون رسم المصحف صورة حقيقية عن الواقع الأول, وذلك مثل (فولرز) حيث زعم أن النص القرآني هو تلفيق قام به النحاة , وبُحث عن ضبطه الأصلي في القراءات المختلفة الشاذة , وزعم كذلك بأن هذا النص الذي أعيد بناؤه هو الممثل للغة الشعبية مقابل اللغة العربية الفصحى, وذلك بسبب غياب الحالات الإعرابية وتوجيهاتها [3].

لكننا نجد في الوقت نفسه مستشرقا آخر ردّ عليه , وهو (تشيم رابين) حيث قال: ((ولكنني من جانبي أقبل بالنص العثماني تعبيرا صادقا عن اللغة التي استخدمها محمد ﷺ , ولكنني أومن كذلك بأن تعابيره الأدبية تنطوي على عناصر من اللغة المحكية في عصره , وأن هذا النص العثماني هو عيّنة للغة , التي لولاه لأصبحت لغة مفقودة))[4] .

---

[1]) المزهر للسيوطي 210/1 .
[2]) التمهيد لابن عبد البر 280/8 .
[3]) ينظر: اللهجات العربية القديمة في غرب الجزيرة 39 .
[4]) اللهجات العربية القديمة في غرب الجزيرة 39 .

المبحث الأول:

الفعل الأجوف, قواعده وأحكامه

الأفعال في العربية في بعض أقسامها إمّا أن تكون صحيحة أو تكون معتلّة, والفعل الأجوف هو من الأفعال المعتلّة, ونبدأ بتعريف كلا النوعين:

الصحيح: هو ما خلتْ أصوله من أحرف العلّة , وهي الألف , والواو والياء, نحو: كتب, وجلس .

المعتلّ: هو ما كان أحد أصوله حرف علّة , نحو: وجد , وقال , وسعى [1].

ولكلّ منهما أقسام , وبما أنّ بحثنا متعلّق بالنوع المعتلّ أعرضنا عن الأول , وسنعرّج عن الثاني بما يَصِلُنا بمادّة بحثنا .

فالفعل المعتلّ يقسم على أنواع [2]:

- **المثال**: وهو ما اعتلّت فاؤه , نحو: وعد , وبسر , وسمّي بذلك لأنه يماثل الصحيح في عدم إعلال ماضيه .
- **الأجوف**: وهو ما اعتلّت عينه, نحو: قال , وباع , وسمّي بذلك لخلوّ جوفه أي وسطه من الحرف الصحيح , ويسمى أيضا ذا الثلاثة ؛ لأنه عند إسناده لتاء الفاعل يصير معها على ثلاثة أحرف , ك: قُلْتُ , وبِعْتُ , في: قال , وباع , وهذا ما سنتناوله في موضوع بحثنا .
- **الناقص**: وهو ما اعتلّتْ لامه , نحو: غزى , ورمى , وسُمّي بذلك لنقصانه , وبحذف آخره في بعض التّصاريف , ك: غزت , ورمت , ويسمى أيضا ذا الأربعة ؛ لأنه عند إسناده يصير معها على أربعة أحرف , نحو: غزوت , ورميت .
- **اللّفيف**: وهو قسمان: مفروق: وهو ما اعتلّت فاؤه ولامه , نحو: وفى , ووقى , وسُمِّي بذلك لكون الحرف الصحيح فارقا بين حرفي العلّة . والثاني: لفيف مقرون: وهو ما اعتلّت عينه ولامه , نحو: طوى , وروى , وسُمِّي بذلك لاقتران حرفي العلّة بعضهما ببعض .

بعض أحكام الفعل الأجوف:

وللفعل الأجوف مسائل متعدّدة وكثيرة ذكَرَتْها كتب الصرف في أثناء بحوثها ومسائلها , وهنا نقف على بعض منها ليتوضّح عندنا الفعل الأجوف في بعض مسائله , ومن ذلك:

- التصحيح والإعلال: وهذه المسألة ستتكرّر كثيرا في البحث , ولعلاقتهما بالفعل الأجوف واختلاف اللهجات العربية في الأخذ بأحدهما كان لا بدّ من تعريفهما , والتصحيح والإعلال من المعاني المتضادة, ((ومعنى التصحيح: إبقاء حرف العلة على ما هو عليه دون تغييره أو تبديله , والإعلال: تغيير حرف العلّة بقلبه أو حذفه أو إسكانه)) [3].
- إذا كان الفعل الأجوف مبنيّا للفاعل , فهو إن كان من ذوات الواو يكون على "فَعَلَ" و "فَعِلَ" و"فَعُلَ" , بضم العين وفتحها وكسرها , ف(فَعَلَ):قام , و(فَعُلَ): طال , و(فَعِلَ): خاف . وأمّا ما كان من ذوات الياء فيجئ على " فَعَلَ" , و"فَعِلَ" , بفتح العين وكسرها, ولا يجوز في ذلك الضم استثقالا له في الياء , ف (فَعَلَ): باع , و(فَعِلَ): كاد [4].

---

[1]) ينظر: شذا العرف في فن الصرف 27 .

[2]) ينظر: شذا العرف 28 وما بعدها .

[3]) اللهجات العربية في التراث لأحمد علم الدين الجندي 527/2 .

[4]) ينظر: الممتع في التصريف 287 .

وأُعِلَّتْ هذه الأفعال إمّا استثقالا للضّمة في الواو, والكسرة في الواو والياء, وذلك في (فَعُلَ , فَعِلَ), فقلبت الواو والياء إلى أخفّ حروف العلة وهو الألف , ولتكون العينات من جنس حركة الفاء وتابعة لها. وأما (فَعَلَ) فقلبت الواو والياء فيها ألفا لاستثقال حرف العلة, مع استثقال اجتماع المثلين أي: فتحة الفاء وفتحة العين, فقالوا في قَوَمَ وبَيَعَ: قام وباع , فقلبوا الواو والياء ألفا لخفة الألف ولتكون العين حرفا من جنس حركة الفاء [(1)].

- " الفعل الأجوف إن كان بالألف في الماضي , وبالواو في المضارع فهو من باب نصر, كقال يقول , ما عدا طال يطول , فإنه من باب: شَرُف . وإن كان بالألف في الماضي وبالياء في المضارع , فهو من باب ضرب , ك: باع يبيع , وإن كان بالألف أو بالياء أو بالواو فيهما فهو من باب فَرِح , ك: خاف يخاف , وغَيِد يَغْيَد , وعَوِر يعوَر " [(2)].
- ومن مسائل الإعلال في الفعل المضارع, هو أنّ الأصل في يَقُوْم , ويَبِيْع, يَكاد , يخاف: يَقْوُم , ويَبْيِع , ويَكْيَد , ويَخْوَف , فهنا لما لم يمكنهم أن يُعِلّوا بقلب حرف العلّة ألفا مع إبقاء سكون ما قبل حرف العلة , فأعلّوا بالنقل , أي بنقل حركة العين إلى الفاء , فلما نقلوا في (يقْوُم) صارت: يَقُوْم , ولما نقلوا في (يَكْيَد , ويَخْوف) صارا: يَكَيد, ويَخَوْف , ثم قلبوا الواو والياء ألفا لتحركهما في الأصل قبل النقل , وانفتاح ما قبلهما في اللفظ , ولم يعتدوا بالسكون ؛ لأنه عارض بسبب النقل , والعارض الغالب فيه ألّا يعتدَّ به [(3)].
- ويجري هذا الحكم على فعل الأمر أيضا , ف ((قمْ , وبعْ , أصلهما اقْوُم وابْيِع , ثم نقلت حركة العين إلى ما قبلها , فتحرّك فذهبت همزة الوصل ؛ لأنها إنما أتي بها لأجل الساكن , فزالت بزواله , ثم سكنوا الآخر وحذفوا حرف العلة لالتقاء الساكنين)) [(4)].

---

(1) ينظر: الممتع في التصريف 287 (بتصرف) .
(2) شذا العرف 36.
(3) ينظر: الممتع في التصريف 293- 294 (بتصرف) .
(4) الممتع في التصريف 294.

المبحث الثاني:

الفعل الماضي من الفعل الأجوف

المطلب الأول: عين الأجوف بين التصحيح والإعلال:

وللفعل الماضي الأجوف حالتان للتعامل مع عينه , إحداها بتصحيح حرف العلّة , وذلك بنطقه واوا أو ياءً محركة , والأخرى بإعلاله وقلب الواو أو الياء ألفا , وقد مرّ معنا تعريف الإعلال والإبدال في المبحث الأول , وهذان الحالان تابعان لاختلاف اللهجات في التعامل معه , ومن ذلك[1]:

- **(حال, وحَوِل):**

جاء في كتاب العين: ((الحَوَلُ: إقبالُ الحَدَقةِ على الأنف حَوِلَتْ تَحْوَل ...., ولغةُ تميمٍ حالَتْ عينُه تَحالُ حَوَلاً)) [2].

- (هاف , وهِيفَ):

((والهَيَفُ دِقَّةُ الخَصْر , وصاحبُهُ أهيفُ وهيفاءُ , والفِعْلُ: هِيِفَ يَهْيَفُ , ولغةُ تَميمٍ: هاف يَهافُ هَيْفاً)) [3].

- **(صاد , وصَيِد):**

الفعل (صَيِد , يَصْيَد) وهو الذي يرفع رأْسه كِبْراً , وهذه لغة أهل الحجاز , يثبتون فيها الياء والواو من دون إعلال , ومثل "صَيِد": عَوِر , وغيرهم يقول "صادَ يَصادُ ", "وعار يعار" بالإعلال [4].

فهنا نجد بعضها منسوبة لأهل الحجاز , وبعضها لتميم , على اختلاف بينهما , منهم من يصحّح , ومنهم من أعلّ الفعل , ويرجّح ضاحي عبد الباقي على وجه اليقين أن تُنسب إلى تميم الصيغ: حال , وهاف , وصاد , وعار . وتُنسب الصيغ الأخرى إلى الحجاز وهي: حوِل , وهَيِف , وصَيِد , وعوِر , ويرجّح أيضا كل الصيغ المشابهة من كل فعل وردت له صورتان إحداهما صحيحة والأخرى معتلّة . وذكر أنّ المتوقع هو أن تكون الصيغة التميمية هي التي تصحح الواو والياء ؛ وذلك لكونها الصيغة القديمة , والقدم يتفق وطبيعة تميم البدوية المنعزلة[5].

المطلب الثاني: الإبدال والتسهيل والفعل الأجوف:

ونجد في بعض الكلمات أنها تُحوّل إلى صيغة الأجوف , مع أنّ أصل الكلمة بالهمزة , فقد تُقلب الهمزة حرفَ علّة فتصير من قبيل الأصل الأجوف , إذن فالمسألة عائدة إلى الهمزة تحقيقا وتسهيلا , وللعرب في نطقها نهجان: تحقيق الهمزة وتخفيفها , وقد

---

[1]) من الأمانة العلمية نقول: استفاد الباحث من استقصاء ذلك من كتاب (لغة تميم) لضاحي عبد الباقي , ولكنّه رجع إلى المصادر الأصلية في توثيقها , والتعامل مع النصوص .

[2]) العين للفراهيدي (باب الحاء واللام) 299/3 .

[3]) العين للفراهيدي (باب الهاء والفاء) 96/4 .

[4]) ينظر: لسان العرب مادة (صيد) 451/7.

[5]) ينظر: لغة تميم لضاحي عبد الباقي 442 .

نُسب الأول إلى بني تميم , في مقابل التخفيف الذي كان من سمة اللّغة الحجازية , ونقل ضاحي عبد الباقي عن اللسان أنّ أهل الحجاز وهذيل وأهل مكة لا ينبرون , وليس لتميم إلّا النبر , وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا [1], ومعنى النبر بالكلام هو همزه [2].

وقال ابن يعيش: أنه لما كان في إخراج الهمز من الثقل كالتهوّع ((ساغ فيها التخفيف , وهو لغة قريش وأكثر أهل الحجاز , وهو نوع استحسان ؛ لثقل الهمزة , والتحقيق لغة تميم وقيس , قالوا: لأن الهمزة حرف فوجب الإتيان به كغيره من الحروف))[3] .

وقد تكون هذه الهمزة في كلمة وقد تكون في كلمتين , وسنقف عند الهمزة التي تكون في كلمة واحدة , لأنها هي المعنيّة بإظهار صورة الفعل الأجوف , ولهذا التسهيل للهمزة صور عدّة , إمّا بالإبدال , أو الحذف , أو أن تُجعل بين بين[4], وما يهمنا من ذلك هو إبدالها , حتى يتولد عندنا فعلا أجوفا , وقد يكون للحذف علاقة بموضوعنا , أمّا جعلها بين بين فهي مسألة أخرى تسمى التسهيل , يتوقف عندها حدود بحثنا .

ونعني بالإبدال هو: ((أن تزيل نبرتها فتَلِين , فحينئذ تصير إلى الألف والواو والياء , على حسب حركتها وحركة ما قبلها)) [5].

وقال سيبويه: ((اعلم أنّ الهمزة تكون فيها ثلاثة أشياء: التحقيق والتخفيف والبدل , فالتحقيق قولك: قرأت ورأسٌ وسأل ولؤوم وبئس وأشباه ذلك ... , وإذا كانت الهمزة ساكنةٌ وقبلها فتحة فأردت أن تخفف أبدلت مكانها ألفاً , وذلك قولك في رأسٍ وبأسٍ وقرأت: راسٌ وباسٌ وقراتٌ , وإن كان ما قبلها مضموماً فأردت أن تخفف أبدلت مكانها واواً , وذلك قولك في الجؤنة والبؤس والمؤمن: الجونة والبوس والمومن , وإن كان ما قبلها مكسوراً أبدلت مكانها ياءً , كما أبدلت مكانها واواً إذا كان ما قبلها مضموماً , وألفاً إذا كان ما قبلها مفتوحاً , وذلك الذئب والمئرة: ذيبٌ وميرةٌ , فإنما تبدل مكان كل همزة ساكنةٍ الحرف الذي منه الحركة التي قبلها لأنه ليس شيء أقرب منه ولا أولى به منها)) [6].

فهنا الهمزة التي ذكرها سيبويه منها ما هي ساكنة ومنها المحرّكة , ولكن نجد عند ابن فارس بأنّ الإبدال خاص بما كانت ساكنة , فقال: ((وبنو تميم يهمزون أحرفاً مما كان على وزن "فَعْل" في موضع العين من الفعل ألف ساكنة نحو: الفأس والكأس والرأس والبأس والرأل))[7].

وما وجدناه عند سيبويه هو الأصح , وهذا ما سنجده في بعض الأفعال محركة العين وقد جرى فيها الإبدال , أمّا إذا كانت ساكنة فهذا أولى .

وهناك كلمات كثيرة وأفعال متنوعة جرى عليها الإبدال , وسنذكر ما هو متعلّق بالفعل الأجوف فقط . وهذا الإبدال جرى في الهمز الساكن , والهمز المتحرّك , وهناك ألفاظ ذكرها أصحاب المعاجم سارت على هذا النوع من النطق اللهجيّ , وهناك أيضا ألفاظ احتفظت بها بعض الروايات القرآنية , ومن ذلك:

---

1) ينظر: لغة تميم لضاحي عبد عبد الباقي 300 , وقد راجعت لسان العرب , وبحثت في مادة (النبر) فلم أجدها , ونسبها المؤلف إلى باب الهمزة في اللسان ولم أوفق كذلك لمعرفتها , وهذا من قصور همتي في معرفتها .

2) ينظر: لسان العرب مادة (نبر) 18/14.

3) شرح المفصل لابن يعيش 107/9 .

4) ينظر: شرح المفصل لابن يعيش 107/9 .

5) شرح المفصل لابن يعيش 107/9 .

6) الكتاب لسيبويه 541/3وما بعدها .

7) جمهرة اللغة لابن دريد (باب اللفيف في الهمز) 537/2 .

- (سأل):

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ المعارج: ١, ففي بعض القراءات وبفعل مسألة التسهيل أو الإبدال ظهر لنا هذا الفعل تحت ظاهرة الفعل الأجوف , فجاء في الكشاف بأنّ هذا الفعل قد ((قرىء: (سال سائل) , وهو على وجهين: إما أن يكون من السؤال وهي لغة قريش، يقولون: سلت تسال، وهما يتسايلان ؛ وأن يكون من السيلان . ويؤيده قراءة ابن عباس (سال سيل)، والسيل: مصدر في معنى السائل، كالغور بمعنى الغائر)) [1].

وجاء في بعض الدراسات الحديثة للهجات العربية بأن ذلك خاص في لهجة الحجاز عامة , وتستعمل في الشعر عند جميع القبائل , ومما جاء في ذلك: أن اللهجة الحجازية قد صاغت: "سلت" بدلا من "سألت" , من فعل الغيبة: سال في سأل , والمضارع يسيل المأخوذ مباشرة من يسأل , وذلك لأن الأمر منها "سل" , وليس "اسل" من "اسأل" , وهذه الصيغ تأتي في الشعر من جميع القبائل[2].

- (ذوى):

ذكر الأصمعي بأنّ أهل نجد – وتميم منهم – يقولون: ذوى البقل يذوي ذوِيًا , وفي لغة أهل الحجاز: ذأى البقل يذأى ذأْوا [3] .

.

ويرى بعض الدارسين أنّ الصيغة النجدية هي الأصل , والحجازية هي المتطوّرة عنها , وأنهم نطقوها مهموزة مبالغة في التفاصح والحذلقة في بادئ الأمر, معلّلا ذلك بأنّ الواو سقطت وبَقِيتْ حركتها , ولما كانت الحركة لا تقوم بمفردها حدث قفل مقطعيّ , وهو ما عُبِّر عنه بالهمزة [4] , واستدلّ لذلك بدلالات المعاني للفظين , وبما سارت عليه العرب في منهج التسهيل .

وهذا الأمر لا يُخرج المسألة من كونها أعطت المعجم أفعالا من الأجوف , إن كان الفعل أصلا أو ظهر بسبب تسهيل الهمز.

المطلب الثالث: القلب المكاني والفعل الأجوف:

ومن اختلاف اللهجات في الفعل الأجوف هو ما أظهره لنا القلب المكاني , حيث أنّ بعض اللهجات اختلفت في بعض الأفعال , إما على صورته الأصلية أو على صورة يصير بها أجوفا بسبب القلب المكاني , ويُعَرَّفُ القلب المكاني بأنه: ((تَقديمُ بَعضِ حُرُوفِ الكلمةِ على بَعض , وأكثرُ ما يَتَّفِقُ في المهمُوزِ والمعتَلّ , نحو: "أيِسَ" و "حادي" , وقد جاء في غيرهما قليلاً , نحو: "امضَحلَّ" في اضمَحلَّ، و "اكرهَفَّ" في اكفَهَرَّ))[5] .

وله مسائل متعدّدة , مثل صوره , وكيفية معرفته , وغير ذلك من المسائل التي اعتنى بإظهارها الدرس الصرفي , والتي آثر الباحث تركها مخافة الدخول في مسائل قد تُخرج البحث عن خطته .

---

1) الكشاف 596/4 .
2) ينظر: اللهجات العربية القديمة 274 .
3) الأمالي للقالي 666/1 .
4) لغة تميم لضاحي عبد الباقي 306 , وما بعدها .
5) معجم القواعد العربية لعبد الغني الدقر (باب القاف) 372 .

ويقول ابن فارس: ((ومن سنن العرب القلبُ , وذلك يكون في الكلمة، ويكون في القِصَّة , فأمّا الكلمة فقولهم: "جَذَبَ" و"جبَذَ" , و"بَكلَ" و"لَبَكَ" , وهو كثير وقد صنّفه علماء اللغة . وليس من هذا فيما أظن من كتاب الله جلّ ثناؤه شيءٌ))[1].

وهذا القلب قد ينشأ من صعوبة التتابع الصوتي لمجموعة من المقاطع , وله أسباب أخرى منها: عدم سماع الكلمة بوضوح , ولذلك هو يكثر في البيئات الصحراوية , ومن أسبابه أيضا أخطاء الأطفال فينشأ الجيل بعدُ على خطأ الأب , وهكذا [2], وقد ذكر العلماء لهذا النوع أسبابا وتفسيرات كثيرة لا تهمّ بحثنا فتركناه اختصارا .

وللفعل الأجوف نصيب من هذا التركيب اللهجي , ومن ذلك:

- (عاث): العَيْثُ مصدرُ عاثَ يَعِيثُ عَيْثاً وعُيوثاً وعَيَثاناً أي: أَفْسَدَ , وقال اللحياني "عَثَى" لغةُ أَهل الحجاز وهي الوجه , وعاثَ لغةُ بني تميم , قال وهم يقولون ولا تَعِيثُوا في الأَرض [3].

وقد وردت الصيغة الحجازية في القرآن الكريم في قوله تعالى:(ولا تعثوا في الارض مفسدين)،البقرة: ٦٠ , ومما جاء على وفق اللغة التميمية ما روي عن ابن مسعود ﷺ أنّه قرأ (وَلَا تَعْيَثُوا) [4].

ويرى بعض الباحثين "أنّ وجود الصيغتين هنا لم يحدث عن طريق القلب المكاني , وإنما مردّه إلى أنّهما تكوّنا بالتغاير , فالصيغتان ترجعان إلى (عثّ) , ومعناها الكلي (الإفساد) , ثم تحوّل أحد صوتي التضعيف الثاء إلى صوت ليّن طويل هو الألف , نطقه التميميون قبل الثاء , وكان عند الحجازيين بعد الثاء , واحتفظت الصيغتان الجديدتان بالدلالة القديمة ؛ بدلالة قراءة الآية الكريمة بهما"[5].

- **(ناء , وراء):**

ومما جاء في ذلك الفعل (نئا) , فمثلا في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ الإسراء: ٨٣ , قُرِئَ ((" وناء بجانبه" بتقديم اللام على العين، كقوله (راء) في (رأى) , ويجوز أن يكون من (ناء) بمعنى " نهض"))[6] , وممن قرأ بها ابن عامر الشاميّ [7], الذي وصفه بعض الدارسين بأنه غالبا ما يتمثل لغة الحجازيين [8], إذا فالفعل"ناء" هنا جاءت على قانون القلب في اللغة .

ومما يستشهد به لهذه اللغة بما قاله قيس بن الخَطِيم:

فَلَيْتَ سُوَيْداً رَاءَ مَنْ فَرَّ مِنْهُمُ ومَنْ خَرَّ إِذْ يَحْدُوهُمْ كالجَلائِبِ[9].

ونقل صاحب اللسان عن صاحب المحكم بأن راء لغة في رأى [10] .

[1]) الصاحبي في فقه اللغة 329 .
[2]) ينظر: لغة تميم لضاحي عبد االباقي 333 ,
[3]) لسان العرب (عيث) 491/9 .
[4]) ينظر: مختصر في شواذ القراءات 13.
[5]) لغة تميم لضاحي عبد الباقي 339 .
[6]) الكشاف 662/2-663 .
[7]) ينظر: النشر لابن الجزري 308/2 .
[8]) اللهجات العربية القديمة 276
[9]) ينظر: لسان العرب (جلب) 314/2 .
[10]) ينظر: لسان العرب (رأي) 93/5 , ولم أعثر على هذا القول في المحكم والمحيط الأعظم .

ويرى بعض الدارسين بأنه من المفترض أن يكون الماضي من (راء): رِيت , مثل (جيت) في (جئت) [1].

ومن الروايات القرآنية التي احتفظت بلغة القلب ما رُوي عن البزيّ أنه قرأ الفعل (يأس) عل أساس القلب المكاني , ومن ذلك قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ يوسف: ٨٠ , ومثله: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يوسف: ٨٧ , ومثله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ يوسف: ١١٠ , ومثله في سورة الرعد: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ الرعد: ٣١ , قرأ كلّ ذلك بقلب الهمزة إلى موضع الياء وتأخير الياء إلى موضع الهمزة فتصير ﴿تَأْيَسُوا﴾ [2].

والأصل في هذا الفعل (يأس), و"أيس "هو المقلوب عنه , وما يشهد بكونه كذلك هو أنه لو لم يكن مقلوبا لوجب إعلاله , وأن يقال: آس , فقولهم: "أيس" دليل على أنه مقلوب من يئس , ولا ينبغي أن يُجعل "أيس" أصلا ويُجعل تصحيحه شاذا ؛ لأنّ القلب أوسع من تصحيح المعتلّ وأكثر [3].

المطلب الرابع: اختلاف صورة الفعل الأجوف عند إسناده لاختلاف تصريفه:

وللفعل حين إسناده دور في توضيح اختلافا لهجيا متعلّقا بالفعل الأجوف , ومن ذلك الفعل (مات) عند إسناده إلى تاء الفاعل , حيث جاء على روايتين واستعمالين للعرب , ومردّ ذلك إلى أصل الفعل وكيفية اشتقاقه , وحُفظ هذا النوع من التغاير في القراءات القرآنية الصحيحة , فالفعل: (متّم): قرأه نافع وحمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر الميم , والباقون بضمها [4] , وهذا يَجُرُّنا إلى أنّ سبب هذا الاختلاف هو شكل الفعل الأجوف الأصلي للكلمة .

فالأولى أي بكسر الميم هي من (مات – يمات) نحو: خاف يخاف , من باب (فَهِمَ – يفهَم) , والأصل (مَوِت) بفتح الفاء وكسر العين , فإذا أُسند إلى التاء قيل: (مِتّ) بكسر الفاء , وذلك لأننا نقلنا حركة العين إلى الفاء بعد كسر حركة الفاء , ثم حذفنا الواو للساكنين , فأصبحت (مِتّ). وأما الثانية أي (مُتّ) بضم الميم , هي من (مات , يموت) , نحو: (قام , يقوم) من باب (نصر , ينصر) وأصل (مات): مَوَت, تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا , وأصل (يموت): (يَمْوُت) , بضم العين , ثم نقلت ضمتها إلى الساكن قبلها [5] , وهما لغتان ترجعان إلى أصل الاشتقاق [6] .

---

[1]) اللهجات العربية القديمة 276

[2]) ينظر: النشر لابن الجزري 405/1.

[3]) الممتع في التصريف 392 .

[4]) ينظر: البدور الزاهرة 131 .

[5]) ينظر: المهذب في القراءات العشر 140 وما بعدها (بتصرف) .

[6]) المقتبس في اللهجات العربية والقرآنية 71 .

وقال بعضهم: إنما هو مِتّ تموت , على وزن (فَعِلْتَ تَفْعُل) , ونظيره من الصحيح: فَضِلْتَ تَفْضُل [1]. ومثله من المعتل "دمت تدوم" و زاد ابن القطاع: "كدت تكود" و"جدت تجود" , و جاء فيهما: تكاد و تجاد , وهو من تداخل اللغات [2].

وخلاصة القول فيها أن الفعل المضارع من (مات) يأتي على وجهتين في اللسان العربي , إمّا (يموت) , وإمّا (يمات) على ما ذكرناه من تخريج للآية القرآنية السابقة , والله أعلم .

المطلب الخامس: الفعل الأجوف بين الفتح والإمالة:

ومن تنوّع اللهجات في نطق الفعل الأجوف في بعض حالاته ما يسمى بالإمالة , وهي ضد الفتح , وتعريفهما: ((والفتح هنا عبارة عن فتح القارئ لفيه بلفظ الحرف , وهو فيما بعده ألف أظهر , ويقال له أيضاً التفخيم , وربما قيل له النصب ... , ويقال له الترقيق , وقد يقال له أيضاً التفخيم بمعنى أنه ضد الإمالة. والإمالة أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة وبالألف نحو الياء (كثيراً) وهو المحض, ويقال له: الإضجاع، ويقال له: البطح، وربما قيل له الكسر أيضاً (وقليلاً) وهو بين اللفظين , ويقال له أيضاً التقليل والتلطيف وبين بين)) [3].

والإمالة تقسم على قسمين:

- **الشديدة:** وعُرِّفت بأنها تقريب الفتحة من الكسرة , والألف من الياء , من غير قلب خالص ولا إشباع مبالغ فيه[4] . وتسمّى أيضا الكبرى , وهي المقصودة عند الإطلاق[5].
- **المتوسطة:** وهي ما بين الفتح والإمالة الشديدة . وتسمّى التقليل والتلطيف , وبين بين , وبين اللفظين [6], والصغرى [7].

وهذه الإمالة هي من كلام العرب وسنة جارية على ألسنتهم , على اختلاف قبائلهم كثرة وقلة . وروي عن الإمام الداني قوله: "والإمالة والفتح لغتان مشهورتان فاشيتان على ألسنة الفصحاء من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم" [8].

والذي يهمنا من هذا الباب هو ما يتعلّق بالفعل الأجوف والاختلاف النطقيّ فيه , ومن المصادر الموثوقة والتي حفظت لنا النوع هو ما وجدناه في القراءات القرآنية , لأنها الوسيلة الوحيدة والتي نُقِلَتْ متواترةً هي التي تدلّنا على المنطوق في ذلك الزمن, وقبل الحديث في ذلك نذكر بعض المسائل في الإمالة , ونقتصر على ما يهمنا في بحثنا , ونشير إلى بعض القواعد المتعلّقة بالإمالة.

أسباب الإمالة:

والأصل في سبب الإمالة هو التخفيف الصوتي , وخاصة فيما يجاور ما يوجب الكسر , أو نظرا لأصل الكلمة اليائي أو المكسور , وأمّا ما يخص الإمالة في الفعل الأجوف والسبب الذي من ورائه أميلت ألف الفعل الأجوف هو ما ذكره سيبويه بأنّ من

---

1) دقائق التصريف 261 .
2) ينظر: المصباح المنير (كتاب الميم , الميم مع الواو وما يثلثهما) 251/2.
3) النشر 30/2 .
4) إبراز المعاني 204 .
5) إتحاف فضلاء البشر 247/1 .
6) النشر 30/2 .
7) إتحاف فضلاء البشر 247/1 .
8) النشر 30/2.

أنواع الألف التي تمال في كلام العرب , هو كلّ ما كان "من بنات الياء والواو مما هما فيه عينٌ , إذا كان أول "فَعِلت" مكسوراً نَحَوْا نحوَ الكسر كما نَحَوا نحوَ الياء فيما كانت ألفه في موضع الياء , وهي لغة لبعض أهل الحجاز , فأما العامّة فلا يميلون . ولا يميلون ما كانت الواو فيه عيناً إلا ما كان منكسر الأول , وذلك: خاف وطاب وهاب" [1].

وهذا ما سنجده في دراستنا لأشكال الإمالة في القراءات القرآنية , وتخريجاتها اللهجية , وسنقف على ما يتعلّق بالفعل الأجوف فقط , وإلّا فهناك مسائل كثيرة ومتشعبة في الإمالة , مما ليس من موضوع دراستنا .

موانع الإمالة:

1- يجب أن لا تسبق ببعض الحروف ؛ وذلك لأنها تمنع الإمالة , وهي: الصاد والضاد والطاء والظاء والغين والقاف والخاء إذا كان حرف منها قبل الألف والألف تليه وذلك قولك قاعدٌ وغائبٌ وخامدٌ وصاعدٌ وطائفٌ وضامنٌ وظالمٌ[2].

* ويعلّل سيبويه سبب منع هذه الحروف من الإمالة وذلك((لأنها حروف مستعليةٌ إلى الحنك الأعلى , والألف إذا خرجت من موضعها استعلت إلى الحنك الأعلى , فلما كانت مع هذه الحروف مستعلية غلبت عليها كما غلبتِ الكسرة عليها في مساجد ونحوها , فلما كانت الحروف مستعليةٌ وكانت الألف تستعلي وقربت من الألف كان العمل من وجه واحد أخف عليهم , كما أنّ الحرفين إذا تقارب موضعهما كان رفع اللسان من موضعٍ واحد أخف عليهم فيدغمونه))[3].

2- ولا يميلون بنات الواو إذا كانت الواو عيناً إلّا ما كان على فعلت مكسور الأول ليس غيره , ولا يميلون شيئاً من بنات المضموم الأول من "فعلت" لأنه لا كسرة ينحى نحوها [4].

الإمالة بين القراءات واللهجات:

ومن مواطن الإمالة ما جاء في بعض القراءات , وكذلك ما رُوي عن العرب في كلامهم , ففي القراءات مثلا نذكر بعض أنواع الإمالة المتعلّقة بالفعل الأجوف فقط , وإلّا فباب الإمالة واسع وكبير , ومن ذلك الأفعال: (زاد – شاء – ران – خاف – وجاء) أمال كلّ هذه الأفعال حمزة الكوفي , ووافقه الكسائي في بعضها[5].

وهذه الأفعال الممالة أغلبها من ذوات الياء , وأمّا ما كان واويّ الأصل مثل: (خاف) فالإمالة جاءت فيه لعلّتين: ((إحداهما أن يدلّ بالإمالة على أنه فعل , وأصله خَوِف فدلّت الإمالة على كسرة الواو في الأصل , والعلّة الأخرى أنه أمال لتدلّ الإمالة على كسر الخاء في الإخبار , إذا قلت: خِفْت)) [6].

ومما جاء في كلام العرب من ذلك إمالة الفعل (مات) , ومما جاء في ذلك في دقائق التصريف قوله: ((وأمال بعضهم: مات , وخاف , وإن كانت من الواو للكسرة في قولهم: مِتُّ , وخِفْتُ, ولا يجوز أن يقال: قِال ؛ لأن القاف في (قُلْتُ) مضمومة لا يجوز كسرها . وقد قال يونس: هذا مِال , وهو شاذ لا يقاس عليه , وأنشد يونس قول ذي الرمة [7]:

1) ينظر: الكتاب لسيبويه 4/120-121 .
2) ينظر: الكتاب لسيبويه 4/128.
3) الكتاب لسيبويه 4/129 .
4) ينظر: الكتاب لسيبويه 4/120 .
5) ينظر: اللهجات العربية في القراءات 138 .
6) الكشف لمكي القيسي 1/195 .
7) ينظر: ديوان ذي الرمة 46 .

إذا **مات** فوقَ الرحلِ أحييتُ نفسَهُ بذكراك والعِيسُ المراسيلُ جُنّحُ)) [1].

وهذه الإمالات بمجملها جاءت على لهجة بني تميم وبعض القبائل العربية , حيث أن أهل الحجاز كانوا لا يميلونها , وقال ابن يعيش: فالإمالة لغة بني تميم , والفتح لغة أهل الحجاز , ونَقَلَ عن الفرّاء قوله: بأن أهل الحجاز يفتحون ما كان من مثل: شاء , وخاف , وجاء , وكاد , وما كان من ذوات الياء والواو , وأهل نجد من تميم وأسد وقيس يسرون إلى الكسر من ذوات الياء في هذه الأشياء , ويفتحون في ذوات الواو , مثل: قال , وجال [2].

وجاء في النشر ((أنّ الفتح لغة أهل الحجاز , والإمالة لغة عامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس)) [3] .

ومما يستأنس به من أنَّ أهل الحجاز كانوا على غير صلة بالإمالة بما ذكره السيوطي من أن رسول الله ﷺ سُمِعَ يقرأ: ((يا يحيى)) فقيل له: يا رسول الله تميل وليس هي لغة قريش ؟ فقال: هي لغة الأخوال بني سعد [4].

وكذلك ما روي عن الكسائي أنه حجّ مع هارون الرشيد وقُدِّم لبعض الصلوات فأمال في قراءته , فأنكروا عليه [5].

وهذا لا يعني أن أهل الحجاز لا يميلون إطلاقا , فالأكثر عندهم هو الفتح , وقد يكون لأهل الحجاز ما هو ممال , وفي ذلك يقول سيبويه عن علاقة الإمالة بأهل الحجاز , فيقول: ((وهي لغة لبعض أهل الحجاز , فأما العامة فلا يميلون))[6] , وهذا ما يراه بعض الباحثين المستشرقين , مستندا فيه على ما ذكره سيبويه في الكتاب بقوله: وبلغنا عن ابن أبي إسحاق أنه سمع كثيّرعزّة يقول صار بمكان كذا وكذا [7] , وذكر هذا الباحث تفسيرا لذلك وهو أنه قال: صير (صار) , على أن بعض الحجازيين هم الذين استعملوا هذه الصيغ , وقال: وربما تتيح لنا حكاية كُثَيِّر أن نخمن أن كبار السنّ هم الذين تكلموا بالإمالة [8].

وأمّا من حيث تاريخها , وتعقّب وجودها فهناك خبر يشير إلى أنّ الإمالة جاءت أصولها من أرض العراق , حيثُ أنه قد سُئِل بعض النحويين: ((من أين أخذت العرب هذه الحروف (أي الإمالة) , فقال: قَدِمتِ العربُ العراق وهم لا يقرؤون كثيرا من القرآن ولا يكتبون , فكان الكتّاب بالحيرة وهم أنباط , وكانوا يُعَلِّمون العرب من القرآن ما لم يقرؤوه ولم يتعلّموه , وهي لغة الحيرة والأنباط فأخذوا من لفظهم ولغتهم . وكان بعض النحويين إذا سمع إنسانا يقرأ: (فزادهم) غضب وقال: أحيريّة أم نبطية؟))[9].

والواقع يشهد لذلك ويؤكّده ؛ وذلك أنه بعد استقراء القراءات ومذاهب القراء في الإمالة , نجد أنّ أكثرها كانت عند قراء العراق , وفي ذلك يقول عبده الراجحي: ((ومعنى ذلك أنّ الإمالة كانت شائعة في قراءات أهل البصرة والكوفة , أي في البيئة العراقية)) [10].

---

1) دقائق التصريف 533 .

2) ينظر: شرح المفصل لابن يعيش 54/9 .

3) النشر 30/2 .

4) ينظر: الإتقان للسيوطي 91/1 .

5) ينظر: معجم الأدباء لياقوت 1740/4-1741 .

6) الكتاب 120/4 .

7) الكتاب 121/4 .

8) ينظر: اللهجات العربية القديمة 223 .

9) دقائق التصريف 257 .

10) اللهجات العربية في القراءات القرآنية 139 .

ولكن الإمالة عند أهل البصرة أقل بكثير من قرّاء الكوفة , بل ليس هناك من مقارنة , ولعلّ السبب في ذلك هو ما ذكره إبراهيم من أنّ ((الصراع العلمي الذي كان بين الكوفة والبصرة هو الذي دعا إلى هذه المغايرة , وإلى أن تتخذ البصرة طريق الفتح في معظم المواضع , حتى لا تشبه الكوفة في إمالتها)) (1).

واستنتج عبده الراجحي بأنّ الإمالة منسوبة إلى القبائل البادية في وسط الجزيرة العربية وشرقيها , والفتح إلى غربيها , وأنّ ذلك راجع إلى أنّ أهل البادية يستعملونها في كلامهم إلى الاقتصاد في المجهود العضلي , والإمالة تحقق لهم ذلك بما فيها من انسجام بين الأصوات , ولكن وجود الإمالة في اليمن وعند الحجازيين في مواضع قليلة يجعل الدارس يقرر أنّها كانت منتشرة في شبه الجزيرة كلها , وهي ظاهرة تؤكد بأن اللغة العربية المشتركة لم تقم على لهجة قريش وحدها(2).

ولكنّ إبراهيم أنيس يشير إلى أنّ الإمالة ليست من العراق أصالة , وإنما جاءت من القبائل القريبة التي سكنت العراق , فيقول: ((فأئمة القراءة الذين اشتهرت عنهم الإمالة كوفيون , أي تأثروا بتلك القبائل التي أقامت بالعراق , أو تعوّدت النزوح إليه, وهي قبائل قريبة مساكنها من العراق , وعُرفتْ لهجاتها بالإمالة))(3).

وعلى قول إبراهيم أنيس يتبيّن لنا صحّة استنتاج الراجحي من أنّ الإمالة منسوبة إلى القبائل في وسط الجزيرة العربية , وانتقلت بعد ذلك إلى مدن العراق , وظهرت أكثر الظهور في قراءات الكوفة , إثر تأثرهم بتلك اللهجات , مع نقلها بسند متواتر صحيح عن النبي ﷺ.

ويرى ضاحي عبد الباقي أنه من العجيب أنّ التميميين الذين سمعنا كلامهم , أو حُكِيت لهجاتهم من المقيمين بالجزيرة العربية , نرى أنّ الإمالة تكاد تتلاشى من كلامهم , واعتمد في ذلك على تسجيل لصالح الحميدي وهو من وادي الدواسر , ووجده بأنه ينطق بعض الكلمات بدون إمالة , مثل: صالح , وريّال (رجل) , وينعاب (أي يعاب عليه) , وغير ذلك من الكلمات (4).

والذي أراه أنه لا عجب في المسألة ؛ وذلك أمر طبيعي في التطور اللهجيّ . وما ذكره العلماء من وصف لنطق التميميين كان في أزمنة بعيدة جاوزت مئات السنين , فليس من السهل المحافظة على الصورة النطقية الأولى كما هي دون تغيير أو تبديل , والله أعلم .

المطلب السادس: الرسم الإملائي في خط المصحف , ودلالته على الإمالة:

فهذه الإمالات مع أنها مروية بأسانيد القراء الكبار , نجد لها دلالات في الخط المصحفيّ , ولقد كان لرسم المصحف دور في الحفاظ على هذه اللهجة , فقد استند القراء على الإمالة أيضا بما حفظه لهم الرسم من إشارة لها , وهذا ما ذكره السجستاني بقوله: ((احتجّ الكوفيون في الإمالة بأنهم وجدوا في المصحف الياءات في موضع الألفات , فاتبعوا الخط وأمالوا ليقربوا من الياءات)) (5).

---

1) في اللهجات العربية 55 .
2) اللهجات العربية في القراءات القرآنية 141.
3) في اللهجات العربية 54 .
4) لغة تميم لضاحي عبد الباقي 289 .
5) الاتقان للسيوطي 91/1.

فرَسْمُ الكلمات التي أمالها القرّاء نجد أغلبها قد رسمت ألفها بالياء , وفي رسمها دلالة على إمالتها , وفي ذلك يقول الدّاني: ((اعلم أن المصاحف اتفقت على رسم ما كان من ذوات الياء من الأسماء والأفعال بالياء على مراد الإمالة , وتغليب الأصل ... وذلك نحو: الموتى , والسلوى , والمرضى , والأسرى , وشتى ...)) [1].

والذي يهمنا من رسم الإمالة ما كان من الفعل الأجوف , فنقل الإمام الداني عن عامر الجحدري أنه قال: رأيت في مصحف عثمان ﵁ ﴿ مَا طابَ﴾ : ﴿ مَا طيبَ﴾ . ونقل أيضا عن الإمام الكسائي أنه رأى في مصحف أبي بن كعب ﵁: ﴿ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ ﴾ : ﴿ جياتهم ﴾ و ﴿ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ : ﴿ جيا﴾ . وكذلك روي عن أبي حاتم أنه قال: في مصحف أهل مكة: ﴿ جَاءَ﴾ : ﴿جيا﴾ و ﴿جَاءَتْهُمْ ﴿:﴾ جياتهم﴾ كتبتا على الأصل[2].

ولكن هذا لا نجد له وجود في مصاحفنا اليوم , وهذا ما ذكره الداني بقوله: ((ولم نجد ذلك كله مرسوما في شئ من مصاحف الأمصار)) [3].

ومن الممكن أن يفسّر هذا الشئ بأنه وجد في مصاحف بعض الصحابة الخاصة , أو من المصاحف التي كانت قبل أن تتوحّد بالرسم العثماني , واحتُفِظَ ببعضها , وهذا ما رآه بعض العلماء الذين ذكرنا رأيهم سابقا , وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول بأنّ المصاحف قد احتفظت لنا ببعض الصور الصوتية , ومن ذلك الإمالة , والله أعلم .

ويتضح لنا بأنّ القراءات القرآنية لم تشتمل على لغة واحدة بعينها , ففي القراءة الواحدة نجد اجتماع أكثر من لهجة , فمثلا في رواية حفص لا يميل من الكلمات إلا قوله تعالى: چ ک ک ک ک گ گ گگچ هود:٤١[4], وهذا لا يمكن أن يكون لقبيلة من القبائل أن تميل كلمة واحدة في كلامها , فإمّا أن تميل أو لا , والسبب في ذلك هو أنّ منهج القراء يختلف عن منهج النّحويين , فالقرّاء محكومون بالنقل والسماع , ولا يمكن لأحد منهم الاجتهاد في ذلك , ولكن الملاحظ بأنّ معظم القراء رُويت عنهم هذه الطريقة العربية من الأداء الصوتي مع تفاوتهم في ذلك كثرة وقلّة , وقال ابن الجزري في منجد المقرئين: أنه ((ما أحد من القرّاء إلّا رويت عنه إمالة , قلّت أم كثرت))[5] , والله أعلم .

وختام القول في المسألة هو أنّ ما بأيدينا من القراءات يلاحظ بصورة عامة أنّ قراء العراق , خاصة في الكوفة , كانوا أكثر رواية للإمالة من قرّاء الحجاز , فأشهر من رُوِيَتْ عنهم الإمالة من القراء العشرة هم حمزة والكسائي وخلف , وهم أئمة القراءة في الكوفة , أما قرّاء الحجاز أمثال ابن كثير المكي , وأبي جعفر ونافع المدنيين , فلا تُعرَفُ الإمالة في قراءاتهم إلا نادرا , ومعنى ذلك أنّ اللغة السائدة في الحجاز والقراءة التي كان قراء مكة والمدينة يقرؤونها هي بصورة عامة الفتح دون الإمالة , أي أنّ الإمالة لم تكن لغة الذين وُلّوا نسخ المصاحف [6] , والله تعالى أعلى وأعلم .

---

1) المقنع للداني 436 .
2) ينظر: المقنع 450-451.
3) المقنع 451 .
4) ينظر: النشر لابن الجزري 41/2 .
5) منجد المقرئين 192 .
6) ينظر: رسم المصحف لغانم قدوري الحمد 321 .

المبحث الثالث:

الفعل المبني للمجهول من الفعل الأجوف

وللفعل المبني للمجهول نصيب من الاختلاف اللهجيّ في كيفية نطقه وتخريجه , وللعرب في معاملة هذا الشكل من الفعل الأجوف ثلاثة مذاهب كما ذكر ذلك علماء الصرف , فجاء في الممتع في التصريف: ((فإن كان الفعل مبنيا للمفعول صيَّرته على "فُعِل" , فتضم فاءه وتكسر عينه , فتقول: قُوِلَ , وبُيِع , فتستثقل الكسرة في الياء والواو , فمنهم من يحذفها فيُسكن الواو فتصير: قُوْل , ويُسكن الياء , فتصير ساكنة بعد ضمة فتُقلب واوا , فيقول: بُوْع .... , ومنهم من ينقل الكسرة من العين إلى الفاء , فيقول: بِيْعَ , وأمّا قُوْل فينقل الكسرة من العين إلى الفاء فتصير الواو ساكنة بعد كسرة فتنقلب ياءً , فيقول: قِيْل ... , ومن العرب من إذا نقل الكسرة من العين إلى الفاء أشمّ الفاء ضمّة , دليلا على أنّ الفاء مضمومة في الأصل)) [1].

وأمّا نسبة كل شكل من أشكاله إلى لغات العرب فأشار إلى ذلك أبو حيان في تفسيره إلى هذه المذاهب الثلاثة [2]:

1 -اخلاص كسر أوله وسكون عينه ياء , وذلك في لغة قريش ومجاوريهم من بني كنانة .

2 -إمالة لكسرة نحو الضم , وهي لهجة كثير من قيس وعقيل ومن جاورهم وعامة بني أسد .

3 -وفي ذلك لغة ثالثة، وهي إخلاص ضم فاء الكلمة وسكون عينه واواً، ولم يقرأ بها، وهي لغة لهذيل، وبني دبير .

فأما اللغة الأولى وهي لغة قريش , ووصفت بأنها الفصيحة[3] , فمثلا: الفعل (قال) حين بنائه للمجهول يصير (قِيْل) , ومثل ذلك: (غاض): نقول فيه: (غِيْض) .

وتخريج المسألة بناءً على أقوال الصرفيين , هو أنّ الفعل (قال) أصله: قَوَلَ , وحين بنائه للمجهول يصير (قُوِل) , مثل كُتِب , وقُرِأَ , وغيرها من الأفعال , ومثل ذلك الفعل (غاض) أصله: غَيَضَ , فحين البناء للمجهول يصير (غُيِضَ) , فاستثقلت الكسرة في الواو والياء , ففي (قُوِل) نُقِلَتْ الكسرة من العين إلى الفاء فأصبحت الواو ساكنة بعد كسرة فتنقلب ياءً , فيقال: قِيْل , وفي (غُيِضَ) نُقِلت الكسرة من العين إلى الفاء , فصارت: (غِيضَ) , والله أعلم.

وأما اللغة الثانية وهي ما تعرف بالإشمام , وهذا يُعدّ من اختلاف لهجات العرب في الفعل الأجوف المبني للمجهول , ويتميّز هذا النوع بأنه ما زال محفوظا مقروءا به في القراءات القرآنية المتواترة , ولأهميته وندرته سنقف عنده موضحين ما له من تنوّع واختلاف , وللقراء فيه مذاهب عديدة , وهذا الاختلاف بين القرّاء لا يهمّ بحثنا إلّا من ناحية التوثيق العلميّ , وإلّا سيكون التركيز على هذا الظاهرة دون تعليل لسبب اختلافهم .

وأما الكلمات القرآنية التي رُويتْ بالقراءات الصحيحة – مع اختلاف القرّاء في ذلك – وقُرِئتْ بهذه الطريقة العربية هي: (قيل , غيض , جئ , حيل , سيق , سئ , سيئت) , وجمعها الإمام الشاطبي في منظومته بقوله:

وقيل وغيض ثم جئ يشمها لدى كسرها ضمّا رجال لتنبلا
وحيل بإشمام وسيق كما رسا وسئ وسيئت كان راويه أنبلا[4]

---

[1]) الممتع في التصريف 294-295 .
[2]) ينظر: تفسير البحر المحيط 1/99-100 .
[3]) دقائق التصريف 260 .
[4]) حرز الأماني ووجه التهاني ص:450 , البيت 447 -448 .

ويوضّح لنا الإمام عبد الفتاح القاضي هذه الصورة النطقية بما نقله عن السفاقسي بما هو قوله: ((وكيفية ذلك أن تحرّك القاف بحركة مركّبة من حركتين ضمة وكسرة, وجزء الضّمّة مقدّم وهو الأقلّ , ويليه جزء الكسرة وهو الأكثر))[1].

وهذا الصوت لا يمكن قراءته إلا بالأخذ مشافهة من أفواه المشايخ القرّاء , لأنه نُقِل بالتواتر النطقي في تلقي القرآن الكريم .

وذَكَرَ هذا النوع ابن جنيّ بأنه من باب الإمالة , أي من باب إمالة الكسرة نحو الضمة , وقَيَّدُ ذلك هو ما يكون في الفعل الثلاثي الذي قُلِبَتْ عينه ألفا في الماضي , كـ (قال) إذا بني للمجهول , ومما قاله: ((وأما الكسرة المشوبة بالضمة فنحو: قُيِل وبُيِع وغُيِض وسُيِق , وكما أنّ الحركة قبل هذه الياء مشوبة بالضمة , فالياء بعدها مشوبة بروائح الواو)) [2].

وتعليل هذه الصورة النطقية هو أنّ أصل هذه الأفعال أن تكون مضمومة؛ لأنها أفعال لم يُسَمّ فاعلها , فأصل (قيل , وسيق) هو: (قُوِل , وسُوِق) , ثم ألقيت حركة الثاني منها على الأول , فانكسر , وحُذفت ضمته , وسكن الثاني منها , فإشمام أوائلها الضمّ هو لبيان أن أصل أوائلها الضمّ , وهذه سنة جارية في لسان العرب , إذ أنّ من شأنهم في كثير من كلامهم هو المحافظة على بقاء ما يدلّ على الأصول , وأيضا فهذه أفعال مبنية للمجهول , فالإشمام يُبقي في الفعل ما يدلّ على أنه مبني للمفعول لا للفاعل , وعلّة الكر الخالص هو أنها جئ بها على ما وجب لها من الإعلال [3].

وأمّا نسبة ذلك إلى القبائل العربية , فالإشمام في هذا كلّه جاء على لغة قيس وعقيل , وعدم الإشمام لغة عامة العرب [4].

وعلّل بعض الدارسين هذه الظاهرة وعلاقتها مع الإمالة الأم هو: ((أن إخلاص الكسر عند قريش ومجاوريهم من بني كنانة تناسب ما يذهبون إليه من الفتح , وهذه اللهجة نستطيع أن ننسبها إلى بيئة الحجاز ... , والقبائل التي تذهب إلى إمالة الكسرة نحو الضمة هي نفسها القبائل التي اشتهرت بالإمالة , وهي قبائل وسط شبه الجزيرة العربية وشرقيها)) [5].

وهذا يشير إلى أنّ القبائل البدوية بوجه عام تميل إلى مقياس اللين الخلفي المسمّى بالضمة ؛ لأنه مظهر من مظاهر الخشونة البدوية , فحيث كسرت القبائل المتحضرة وُجِدَت القبائل البدوية تضم , والكسر والضم من الناحية الصوتية متشابهان ؛ لأنهما من أصوات اللين الضيقة [6].

وأما اللغة الثالثة , وهي إخلاص الضمة وجعل العين تابعة لفاء الفعل , فيقال: بُوع , وخُوف , وقُول , قال الشاعر:

وهو إذا ما قُول هلْ من وافد
أو رجل عن حقّكم منافدِ
يكون للغائب مثلَ الشاهدِ

وقال الآخر:

ألم تر أن الملك قد شُون وجْهُهُ ونبعَ بلاد الله قد صار عوسجا [1].

---

[1]) البدور الزاهرة 71.
[2]) سر صناعة الإعراب 52/1-53 .
[3]) الكشف عن وجوه القراءات 230/1 .
[4]) المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية 99 .
[5]) اللهجات العربية في القراءات القرآنية 141-142 .
[6]) ينظر: في اللهجات العربية 81 .

وفي ذلك يقول أبو بركات الأنباري: ((ومن العرب أيضا من يحذف الكسرة ولا ينقلها , ويقر الواو لانضمام ما قبلها , وتُقلب الياء واوا لسكونها وانضمام ما قبلها كما قال الشاعر: "ليت وهل ينفع شيئا ليت ليت شبابا بوع فاشتريت " أراد بيع , فقُلب الياء واوا لسكونها وانضمام ما قبلها, كما قلبوها في نحو: موسر وموقن , والأصل ميسر وميقن ؛ لأنهما من اليسر واليقين , إلا أنه لما وقعت الياء ساكنة مضموما ما قبلها قلبوها واوا فكذلك ههنا)) [2].

وقال النحاس في إعرابه: ((وهي لغة كثير من قيس فما هذيل وبنو دبير من بني أسد وبنو فقعس)) [3], وَوُصفتْ بأنها أضعف اللغات[4].

وعلى نفس هذه القاعدة عُوملت بعض الأفعال الزائدة على الثلاثي , فمثلا الفعل (انقاد , واختار , واقتاد) إذا بُنيتْ للمفعول جرت عليها الأحكام السابقة للفعل المبني للمجهول في هذه اللهجات , ((فمن قال في قال وباع: قيل وبيع , قال: انقِيد , اختِير , واقْتِيد . ومن أشار إلى الضمة هنالك فأشمّ أشمّ هنا , ومن قال: قول , وبوع , قال: انْقُوْد , واخْتُوْر , واقْتُوْدَ))[5] .

---

[1]) ينظر: دقائق التصريف 260 , ووجدت الشاهد الأول في لسان العرب ولكن بنص: وهو إذا ما قيل ... مادة (نفد) , ولم يتيسر لي أن أجد تأكيدا للشاهد إلا من دقائق التصريف , وأما الشاهد الثاني فذكره كذلك النحاس في إعراب القرآن 535/3 .

[2]) أسرار العربية للأنباري 92-93 .

[3]) إعراب القرآن للنحاس 138/1 .

[4]) توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك 602/2 .

[5]) الممتع في التصريف 308 .

المبحث الرابع:

اسم المفعول من الفعل الأجوف

اسم المفعول من الفعل الثلاثي المعتلّ العين هو إمّا أن يكون يائيّ الأصل أو واويّه , وسنقف عند كليهما مستعرضين بعض مسائلهما:

المطلب الأول: اسم المفعول من الفعل الأجوف يائيّ الأصل:

وللعرب في معاملته مذهبان:

- **الإتمام**: وهو أن يجيئون به على وزن (مفْعُول) دون إعلال , فيقولون مثلا: مبْيُوع , ومدْيُون , ومخْيُوط , ومغْيُون , ومغْيُوم , ومطْيُوب [1], وتنسب هذه إلى بني تميم [20], وجاء على ذلك قول علقمة بن عبده:

حتّى تذكّر بَيْضاتٍ وهيّجَهُ   يومُ رَذَاذٍ عليهِ الرِّيحُ مغْيومُ [3].

وعلى ذلك أيضا ((أنشد أبو عمرو بن العلاء: وكأنها تفّاحة مطيوبة ...)) [4].

- (**النقص**): ((وذلك مثل: مبيع , ومخيط , ومَدين , بدلا من مبيوع , ومخيوط , ومديون , بحذف أحد حروف مفعول مع كسر فاء الكلمة , وهذا المحذوف إمّا عين الكلمة , وإمّا واو مفعول)) [5], وبعضهم يقول في "مكيل": (مكول) , ونُسِبتْ هذه اللهجة إلى بني أسد [6].

* **فائدة:**

ذكر النحاس في إعراب القرآن تعقيبا على قوله تعالى: ((وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا)) سورة المزمل 14 , فقال: ((الأصل مهيول , فأعلّ فألقيت حركة الياء على الهاء , فالتقى ساكنان , واختلف النحويون بعد هذا , فقال الخليل وسيبويه: حذفت الواو لالتقاء الساكنين ؛ لأنها زائدة وكسرت الهاء لمجاورتها الياء فقيل مهيل , وزعم الكسائي والفراء والأخفش: أنّ هذا خطأ , والحجّة لهم أنّ الواو جاءت لمعنى فلا تحذف ولكن حذفت الياء , فكان يلزمهم على هذا أن يقولوا "مهول" فاحتجوا بأن الهاء كسرت لمجاورتها الياء , فلما حذفت الياء انقلبت الواو ياء لمجاورتها الكسرة . قال أبو جعفر: وهذا باب التصريف وغامض النحو)) [7].

---

[1]) ينظر: لغة تميم لضاحي عبد الباقي 443 .

[2]) ينظر: الخصائص لابن جني 272/1 .

[3]) المفضليات 399 .

[4]) الخصائص لابن جني 272/1 .

[5]) لغة تميم لضاحي عبد الباقي 444 .

[6]) ينظر: في اللهجات العربية 83 .

[7]) إعراب القرآن للنحاس 534/3 .

المطلب الثاني: اسم المفعول من الفعل الأجوف واويّ الأصل:

وهذا النوع من الفعل الأجوف "يكاد يجمع العلماء أنه لا يأتي منه مفعول بالتمام , وإنّما يأتي بالنقص" , إلّا في ألفاظ معدودة وردت بالتمام والنقص , وفي ذلك يقول ابن جني في خصائصه: ((وربما تخطّوا الياء في هذه إلى الواو , وأخرجوا مفعولا منها على أصله , وإن كان أثقل منه من الياء , وذلك قول بعضهم: ثوب مَصْوُوْن , وفرس مقوود , ورجل معوود من مَرَضِهِ , وأنشدوا فيه: والمسك في عنبرِهِ مَدْووف)) [1].

واعتبر ابن عصفور الأشبيلي أنّ هذا الإتمام في هذا النوع شاذّ , وعلّل عدم الجواز بكون الواو أثقل من الياء [2].

وذكر ابن خالويه بأنه ليس من كلام العرب من ذوات الواو مفعول خرج على أصله إلّا في حرفين: يقال: مسك مدْووف , وثوب مصوون [3].

وقد حكم عليه الأشموني على هذا النوع بأنه نادر لا يقاس عليه فقال: (("وَنَدَرَ تَصْحِيْحُ ذِي الْوَاوِ" من ذلك في قول بعض العرب: ثوب مصوون، ومسك مدووف، وفرس مقوود، ولا يقاس على ذلك خلافاً للمبرّد))[4].

وعلى هذا الأساس من الممكن القول بأن الأصل فيه هو أن يأتي بالنقص , وما جاء منه بالتمام فهو شاذّ , ومحصور بألفاظ معدودة منها: " مدووف , ومصوون , ومقوود , ومعوود " , على اختلاف بين العلماء في ذلك[5] , وهذا لا يشكّل اختلاف لهجيّ حقيقي , لأنها مسألة تأصيلية لقاعدة صرفية , ولم يتعرّضوا لوقوعها في لهجة دون أخرى , إلّا ما ذكره الجندي من أنّ أهل الحجاز يُعلّونه وينقصونه , وغيرهم يقولونه بالتمام , ونسب ذلك إلى أمالي الشجري[6] , ورجّح أيضا بأنّ التمام منسوب لتميم , وقال في ذلك: ((ولما كانت العادة أن تقابل الصيغة الحجازية بالتميمية , فأرجح لهذا أن الصيغ التامة الواوية والتي جاءت مهملة العزو في كتب العربية هي لتميم)) [7]. واستند في ذلك على بعض الروايات التي جاءت في المعاجم العربية , ومن ذلك ما جاء في اللسان مثلا ((رجلٌ مَعُودٌ ومَعْوُود , الأَخيرة شاذة وهي تميمية)) [8].

ومما يؤيد الأخذ بما قاله الجندي هو ما قد بقي من هذا النوع في اللهجات المعاصرة ما يدلّ على اتصال اللغة ماضيها بحاضرها , ففي اليائيّ منه مثلا يقول سكان الحائل وما حولها – ومنهم تميميون -: فلان مديون , وثوب مخيوط , والتفاحة مطيوبة , ومن الواويّ نجد كذلك من اللهجات المعاصرة ما هو محتفظ بالأصل القديم , ومن أمثلة ذلك قولهم في الحجاز: معيوف (اسم شخص) , ومشيوف , ومطيوع , ومصيوع [9].

ويخلص ضاحي عبد الباقي بنتيجته وهي: ((أنّ الصيغة التميمية "يائية كانت أو واوية" هي التامة , والحجازية هي الناقصة, فهذا لا يعني سوى أمر واحد هو أنّ الصيغة التميمية تمثل مرحلة أقدم من الحجازية , وقد أشار القدماء إلى ذلك فسيبويه – وإن لم

---

1) الخصائص لابن جني 272/1 .

2) ينظر: الممتع في التصريف 300 .

3) ينظر: اللهجات العربية في التراث للجندي من غير أن ينسب القول إلى مرجع صراحة 528/2 .

4) شرح الأشموني 133/2 .

5) يراجع: لغة تميم لضاحي عبد الباقي 445 .

6) ينظر: اللهجات العربية في التراث 528/2 .

7) اللهجات العربية في التراث 529/2 .

8) لسان العرب , مادة (عود) .

9) ينظر: لغة تميم لضاحي عبد الباقي 446 (بتصرف).

يحدد الناطقين – يقول: "وبعض العرب يخرجه على الأصل فيقول مخيوط ..."[1] , وابن جني يقول في مبيع: " وأصله مبيوع"[2]))[3].

المبحث الخامس:

المصدر من الفعل الأجوف

وللعرب في مصدر الفعل الأجوف صور عّدة , ومن ذلك المصدر من: (قال , يقول): قَوْلٌ , وقيلٌ , وقالٌ , وإنما صار الواو في (القيلة) و (الحيلة) ياءً لسكونها وكسرة ما قبلها , وفي الحديث: (نهى عن قيل وقال)[4] , فالقالُ بمنزلة: القَول , وهو مصدر كأنه قال: عن قِيل وقوْل , ويروى أنه جاء في قراءة عبد الله بن مسعود ﵁:ﭽذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَالَ ٱلۡحَقِّ ﭼ مريم: ٣٤ , كأنه قال: (قولَ الحقِّ)[5].

وهناك صور أخرى لمصدر الفعل الأجوف , ولكن لمست أنها تحقيقية وتعليلية وليست ذات خلاف في النطق اللهجيّ , ولم تحفظها لنا القراءات , فآثرت عدم ذكرها , ومن ذلك: المصدر (فِعال) مثل: صيام , فأصلها: صوام[6], وطويت طيا , والأصل: طويا , وسيّد وأصلها: سيود [7], ونحو وزن: افعلّ , وافعالّ , نحو: ابيضّ وابياضّ , فإنّ العين تصحّ ولا تعتلّ خوفا من الالتباس بالفاعل [8], ومثل ذلك الكثير من المسائل , والله أعلم .

---

[1]) الكتاب لسيبويه 348/4 .
[2]) الخصائص لابن جني 272/1 .
[3]) لغة تميم لضاحي عبد الباقي 447 .
[4]) الحديث في صحيح البخاري 186/4 .
[5]) ينظر: دقائق التصريف 262 .
[6]) ينظر: دقائق التصريف 262 .
[7]) ينظر: الممتع في التصريف 222.
[8]) ينظر: الممتع في التصريف 312.

الخاتمة:

الحمد لله في البدء والختام، والصلاة والسلام على الهادي إلى سعادة الدنيا والآخرة الأنام، سيدنا محمد عليه من الله أفضل الصلاة وأتمّ السلام .

وبعد: فقد تمّت بحمد الله تعالى هذه الدراسة العلمية في هذا البحث الماتع، والتي قد اشتملت على جملة من النتائج، أهمّها القيمة العلمية لهذا النوع من الدراسات التي تؤرّخ للهجاتنا العربية , وبيان المستعمل منها من المهمل , وتتبّع الاختلاف النطقي في باب من أبواب الصرف العربي ألا وهو الفعل الأجوف , ومن النتائج المهمة في ذلك:

* ارتباط اللهجات بالقرآن الكريم ارتباطا وثيقا , كيف لا , وهو نزل بلغة العرب وعلى سننها في كلامها , وقد حافظ القرآن بقراءاته المتنوعة على بعض اللهجات العربية , وخاصة بعض الصور النطقية التي تخصّ الفعل الأجوف , من ذلك الفعل الثلاثي المبني للمجهول , حيث جاء على ثلاثة لهجات كما مرّ بنا في البحث , وقد احتفظ القرآن باثنين دون الثالث.

* ومن المسائل المهمة أيضا هو حفاظ الرسم على بعض اللهجات , مثل الفعل الأجوف الممال , ورسمه بالياء بدل الألف لدلالة أنها ممالة .

* واتضح من خلال البحث أنّ أبرز الخلاف الذي وقع بين اللهجات هو ما كان بين لغة الحجاز , ولغة تميم , وهذا يدلّ على أنهما كانا كفرسي رهان , حتى جاء القرآن بلغة قريش فأوثرت على تميم .

* ومن المسائل التي يظهر فيها الخلاف بين اللهجتين:

- صحّح الحجازيون عين بعض الأفعال وأعلّها التميميون, وصحّح التميميون عين اسم المفعول وأعلّه الحجازيون .
- ومن ذلك أيضا أنّ أهل الحجاز كانوا يميلون إلى التخفيف في الهمز, وكان التميميون يحققونها .
- كانت تميم تأخذ بالإمالة , وأمّا أهل الحجاز فكانوا يقرؤون بالفتح .

وغير ذلك من المسائل التي أخذ البحث باستقصائها , وتتبّع أحوالها, ولا أخفي بأنّ هذا البحث لا يزال بحاجة إلى كثير من الدراسة وعمق النظر ؛ ليصل إلى المستوى العلمي الرفيع , وسوف يبقى هذا البحث تحت ناظريّ أهذبه وأزيد فيه حتى يكون منه المأمول .

وفي الختام , فهذه عصارة جهدي واجتهادي، فأرجو أن تثمنوها، وبضاعتي وأرجو أن لا تزجوها، وبهذه الكلمة الخاتمة تمت هذه دراسة بعض مسائل الفعل الأجوف ووقوعه في لسان العرب، فما كان من صواب فمن الله، فهو الموفق إلى الصواب، وما كان من خطأ وزلل فمن نفسي ...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع:

1. **إبراز المعاني من حرز الأماني**: عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبي شامة الدمشقي (ت65هـ) – تحقيق: إبراهيم عطوة عوض – دار الكتب العلمية , بيروت –
2. **إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربع عشر**: أحمد بن محمد البنا – تحقيق: شعبان محمد إسماعيل – عالم الكتب , بيروت – ط1- 1987 .
3. **الإتقان في علوم القرآن**: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت911هـ) – المكتبة الثقافية , بيروت – 1973 .
4. **الأحكام في أصول الأحكام**: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم الظاهري (ت456هـ) – دار الفكر , بيروت – 2007 .
5. **أسرار العربية**: أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري (ت577هـ) – تحقيق: محمد بهجة البيطار – مطبوعات: المجمع العلمي العربي بدمشق , دون ذكر سنة الطبع .
6. **إعراب القرآن**: أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت338هـ) – تحقيق: زهير غازي زاهد – مطبعة العاني , بغداد – 1977.
7. **الاقتراح في علم أصول النحو وجدله**: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911هـ) – تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد – مكتبة الصفا , القاهرة – 1999- دون ذكر الطبعة .
8. **البحر المحيط في التفسير**: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (ت754هـ) – دار الفكر , بيروت- 1992 .
9. **البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة**: عبد الفتاح عبد الغني القاضي – دار السلام , القاهرة – ط1 – 2004 .
10. **بغية الوعاة في طبقات النحويين واللغاة**: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد السيوطي (ت 911هـ) – تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية , بيروت – دون ذكر الطبعة وسنة الطبع .
11. **تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (ت538هـ) – صححه: محمد عبد السلام شاهين- دار الكتب العلمية , بيروت – ط1-1995 .
12. **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البرّ النحوي القرطبي (ت465هـ) – تحقيق: محمد الفلاح – منشورات: وزارة الأوقاف , الرباط – 1980 .
13. **توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك**: ابن أمّ قاسم المرادي (ت749هـ) – تحقيق: عبد الرحمن علي سليمان – دار الفكر العربي , القاهرة – ط1 -2001 .
14. **الجامع الصحيح** (المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه , وأيامه): أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت256هـ) – المكتبة السلفية , القاهرة – ط1 -1400هـ .
15. **جمهرة اللغة**: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت321هـ) – علّق عليه: إبراهيم شمس الدين – دار الكتب العلمية , بيروت – ط1 – 2005 .
16. **الخصائص**: أبو الفتح عثمان بن جني (ت392هـ) – تحقيق: عبد الحميد هنداوي – دار الكتب العلمية , بيروت – ط1 – 2001 .
17. **دقائق التصريف**: القاسم بن محمد بن سعيد المؤدِّب (من علماء القرن الرابع الهجري) – تحقيق: أحمد ناجي القيسي , وحاتم صالح الضامن , وحسين تورال – مطبعة المجمع العلمي العراقي , بغداد – 1987 .
18. **ديوان ذي الرّمة** – تقديم وشرح: أحمد حسن بسج – دار الكتب العلمية , بيروت – ط1 – 1995 .
19. **رسم المصحف (دراسة لغوية تاريخية)**: غانم قدّوري الحمد – نشر: اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري , بغداد – ط1 – 1982 .
20. **سر صناعة الإعراب**: أبو الفتح عثمان بن جني – تحقيق: حسن هنداوي – دار القلم , دمشق – ط1 – 1985 .

21. **شذا العرف في فنِّ الصرف**: أحمد بن محمد بن أحمد الحملاوي (ت1315هـ) – اعتنى به: عبد الحميد هنداوي – دار الكتب العلمية , بيروت – ط4 – 2007 .
22. **شرح الأشموني على ألفية ابن مالك –** المكتبة الشاملة – الإصدار الثالث .
23. **شرح المفصل**: موفق الدين يعيش ابن علي بن يعيش النحوي (ت643هـ) – إدارة الطباعة المنيرية , القاهرة .
24. **الصاحبي**: أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت395هـ) – تحقيق: السيد أحمد سقر – دار إحياء الكتب العربية , القاهرة – دون ذكر الطبعة وسنة الطبع .
25. **صحيح مسلم**: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت261هـ) – دار إحياء التراث العربي , بيروت – ط1- 2000 .
26. **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**: نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمّي النيسابوري (ت728هـ) – تحقيق: حمزة المشرتي , وعبد الحفيظ فرغلي , وعبد الحميد مصطفى المكتبة القيّمة , القاهرة – دون ذكر الطبعة وسنة الطبع .
27. **فقه اللغة**: علي عبد الواحد وافي – نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع , القاهرة – ط6 – 2008 .
28. **فقه اللغة في الكتب العربية**: عبده الراجحي، دار النهضة , بيروت – دون ذكر الطبعة وسنة الطبع .
29. **في اللهجات العربية**: إبراهيم أنيس، مطبعة أولاد وهبه حسّان , نشر: مكتبة الأنجلو مصرية – 2003 .
30. **الكتاب** (**كتاب سيبويه**): أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر – تحقيق: عبد السلام محمد هارون – مكتبة الخانجي , القاهرة – ط2 – 1982 .
31. **كتاب الأمالي**: أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي – تحقيق: علي محمد زينو – مؤسسة الرسالة ناشرون , بيروت – ط1 – 2008 .
32. **كتاب العين**: لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ) – تحقيق: مهدي المخزومي , إبراهيم السامرائي – منشورات وزارة الثقافة والإعلام – دار الرشيد للنشر , بغداد – دون ذكر الطبعة– 1981م .
33. **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها**: أبو محمد مكيّ بن أبي طالب القيسي (ت437هـ) – تحقيق: محي الدين رمضان – مؤسسة الرسالة , بيروت – ط3 -1984 .
34. **لسان العرب**: للإمام العلّامة ابن منظور (ت 711هـ) – اعتنى بتصحيحها: أمين محمد عبد الوهاب , محمد الصادق العبيدي – دار إحياء التراث العربي , ومؤسسة التاريخ العربي , بيروت –ط3-1999 .
35. **لغة تميم (دراسة تاريخية وصفية)**: ضاحي عبد الباقي – مجمع اللغة العربية , القاهرة – الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية – 1985 .
36. **اللّهجات العربية القديمة في غرب الجزيرة العربية**: تشيم رابين – ترجمه وعلّق عليه: عبد الكريم مجاهد – المؤسسة العربية للدراسات والنشر , بيروت – ط1 -2002 .
37. **اللهجات العربية في التراث**: د. أحمد علم الدين الجندي – الدار العربية للكتاب – 1983 .
38. **اللهجات العربية في القراءات**: عبده الراجحي – دار المعرفة الجامعية , مصر – 1996 .
39. **مختصر في شواذّ القراءات من كتاب البديع**: ابن خالويه – مكتبة المتنبي , القاهرة – دون ذكر الطبعة وسنة الطبع .
40. **المزهر في علوم العربية وأنواعها**: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت 911هـ) – شرح وضبط وتصحيح: محمد أحمد جاد المولى , وعلى محمد البجاوي , محمد أبو الفضل إبراهيم – دار إحياء الكتب العربية – دون ذكر الطبعة وسنة الطبع .
41. **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي**: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (ت770هـ) – صححه: مصطفى السقا – دون ذكر الناشر والطبعة وسنة الطبع .
42. **معجم الأدباء** (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب): ياقوت الحموي الرومي – تحقيق: إحسان عباس – دار الغرب الإسلامي , بيروت – ط1 – 1993 .
43. **معجم القواعد العربية**: عبد الغني الدقر – دار القلم , دمشق – ط3 – 2001 .
44. **المفضليات –** تحقيق: أحمد محمد شاكر, وعبد السلام محمد هارون – دار المعارف , القاهرة – ط6 – دون ذكر سنة الطبع .

45. **المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية**: محمد سالم محيسن – المكتبة الأزهرية للتراث , القاهرة – ط1 – 1978 .
46. **المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار**: أبو عمر سعيد بن عثمان الداني (ت444هـ) – دراسة وتحقيق: نورة بنت حسن بن فهد الحميد – دار التدمرية , الرياض – ط1 – 2010 .
47. **الممتع الكبير في التصريف**: ابن عصفور الأشبيلي – تحقيق: فخر الدين قباوة – مكتبة لبنان ناشرون , بيروت – ط1- 1996 .
48. **منجد المقرئين , ومرشد الطالبين**: الإمام محمد بن محمد الجزري (ت833) – اعتنى به: علي بن محمد العمران .
49. **منظومة حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع**: أبو محمد القاسم بن فيرّه بن خلف بن أحمد الشاطبي الرعيني الأندلسي (ت590هـ) – تحقيق: د. أيمن رشدي سويد – دار نور المكتبات , جدة – ط1 – 2008 .
50. **المهذب في القراءات العشر وتوجيهها**: محمد محمد محمد سالم محيسن – المكتبة الأزهرية للتراث , القاهرة – 1997 .
51. **النشر في القراءات العشر**: أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري (ت833هـ) – أشرف على تصحيحه: علي محمد الضباع – دار الفكر – دون ذكر الطبعة وسنة الطبع .

اللّغة العربية و الرهانات المستقبلية (من بلاغة الرسم إلى بلاغة الرقم)

الدكتور عبد الحق عمور بلعابد
أستاذ نظرية الأدب و الأدب المقارن المشارك
قسم اللغة العربية وآدابها–كلية الآداب
جامعة الملك سعود–المملكة العربية السعودية

ملخص البحث :

تواجه اللغة العربية تحديات كبيرة على جميع الأصعدة والمجالات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية،في ظل هذا العالم المتعولم الذي أصبح قبيلة واحدة بألسن متعددة،فكيف يمكن للغة العربية أن تقف أمام هذه الرهانات التكنولوجية التي بدأت تزحف على المنظومة التعليمية العربية بكل أطوارها ؟،وكيف يكمن للغة العربية أيضا أن تنتقل من بلاغة الرسم البيانية إلى بلاغة الرقم الافتراضية ؟ متجاوزة ذلك الإنسان التواصلي الذي يسعى لطلب المعاش بعقله الكسبي النظري إلى ذلك الإنساني التداولي الوسائطي الذي يطلب الغنى بعقله العلمي التجريبي ؟

وهذه الأسئلة العديدة والمتعدد تحتاج تدبرا وتدبيرا من خبراء اللغة العربية وتضافر الجهود وتوحيدها،وهذا كله قصد تمكين اللغة العربية من خلال مستعمليها أن تنخرط في مجتمعات المعرفة المنتجة كائن لغوي يعي بهذه الرهانات المستقبلية التي تستشرفها اللغة العربية.

لهذا سنتعرض إلى ثلاث مسائل مهمة في البحث :

1 – اللغة العربية من بيان اللسان إلى تبيان الإنسان.
2 – العقل اللغوي العربي من الصنعة إلى الصناعة.
3 – اللغة العربية من معرفة اللغة إلى مجتمع المعرفة.

*** الكلمات المفاتيح :**

اللغة– العقل – التواصل – العولمة – مجتمع المعرفة.

ARABIC LANGUAGE AND THE FUTURE CHLLENGES

ABSTRACT:

Arabic language faces a big difficulties at several levels (social and economic and cultural…),with the appearance of the globalization, that makes the world a small village and the languages as one language.

How can the Arabic language stand in front of the technological challenges, which started to join the Arabic educational organization, with all it's levels ? and how it could face and challenge this difficulties. And how can we buit knowledge society for this language ?

And this questions and other questions we will try to analyse and discuss it in this research.

Key Words : - languge – minds – communication – Golobalization – knowledge society

عتبة منهجية :

تواجه اللغة العربية تحديات كبيرة على جميع الأصعدة والمجالات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، في ظل هذا العالم المتعولم الذي أصبح قبيلة واحدة بألسن متعددة، فكيف يمكن للغة العربية أن تقف أمام هذه الرهانات التكنولوجية التي بدأت تزحف على المنظومة التعليمية العربية بكل أطوارها ؟، وكيف يمكن للغة العربية أيضا أن تنتقل من بلاغة الرسم البيانية إلى بلاغة الرقم الافتراضية ؟ متجاوزة ذلك الإنسان التواصلي الذي يسعى لطلب المعاش بعقله النظري إلى ذلك الإنسان التداولي (الوسائطي)([1]) الذي يطلب الغنى بعقله العلمي التجريبي ؟

وهذه الأسئلة العديدة والمتعدد تحتاج تدبرا وتدبيرا من خبراء اللغة العربية وتضافر الجهود وتوحيدها، وهذا كله قصد تمكين اللغة العربية من خلال مستعمليها أن تنخرط في مجتمعات المعرفة المنتجة لكائن لغوي يعي بهذه الرهانات المستقبلية التي تستشرفها اللغة العربية.

لهذا سنتعرض إلى ثلاث مسائل مهمة في البحث، اكتفينا بإثارة النقاش فيها، لنتمكن في المستقبل من بحثها مستقلة لأهميتها البالغة:

4 – اللغة العربية من بيان اللسان إلى تبيان الإنسان.
5 – العقل اللغوي العربي من الصنعة إلى الصناعة.
6 – اللغة العربية من معرفة اللغة إلى مجتمع المعرفة.

1– اللغة العربية،بيان اللسان وتبيان الإنسان :

([1])– هذا المصطلح استخدمه علي حرب في كتاباته، غير أننا استعملنا ما يسميه بالإنسان التواصلي بمعناه اللغوي أي تحقيق فعل التواصل، إلا أننا استعرنا منه مفهومه للإنسان الوسائطي وهو عنده التواصلي أيضا الذي هو من جهة عامل من عوامل المعرفة، ومن جهة ثانية مواطن بيني، ومن جهة ثالثة أقرب إلى الوسيط منه إلى النخبة والطليعة، ينظر كتابه :
– حديث النهايات، فتوحات العولمة مآزق الهوية، المركز الثقافي العربي،ط2، سنة 2004، الدار البيضاء، المغرب،ص 203-204.

لما كان الإنسان كائنا لغويا لا يدرك المعارف إلا بعقله الكسبي،ولا يكتسب العلوم إلا بعقله التجريبي، لم يجد غير اللغة وسيلة لتواصله، وغير العلم المستعين بهذه اللغة مفتاحا لفهمه ومغلاقا لجهله.

فكانت اللغة ميزة إنسانية([1])، تحمل جملة رموز متواترة بين أفراد المجموعة البشرية التي تتحول بفعل الرابط اللغوي إلى مجموعة فكرية حضارية،وهذه الرموز سواء كانت ملهمة إلهاما أم منبثقة انبثاقا فإنها تمثل ضربا من التسليم الضمني بين مستعمليها، ثم إنها ترتبط فيما بينها بقوانين، وبفضل هذه القوانين تنصهر الرموز الجزئية في شبكة من القواعد المجسمة لبناء اللغة الكلي([2])، فهي في تنزيلاتها الاصطلاحية وسيلة تواصل لا يمكن للإنسان عمران العالم إلا بها،ولا اختطاط حياته المعاشية والرياشية – بتعبير ابن خلدون- إلا من خلال التخاطب بها مع غيره، لهذا قال أبو حامد الغرناطي في تحفته " زيادة لسان زيادة إنسان"([3])، أي أن من تعلم لغة غير لغته أحيي فيه إنسانا جديدا ليتواصل مع شعوب لا يستطيع بلوغها بلغة واحدة، فاللغة باعتبارها كائن حي([4]) نحيا بها وتحيا بنا،نحيا بها تواصلا وتداولا، وتحيا بنا تعاونا وتعاملا باعتبار ما طرأ عليها من تغيرات وتبدلات على المستوى التركيبي والدلالي.

وليست اللغة العربية ببعيد عن هذا الطرح، فالإنسان العربي لا يبين عن هويته إلا ببيان لغته فهو يحيا بها وتحيا به([5])، فقد اعتنى بها في جاهليته شعرا وخطابة ومثلا، وهذبها في إسلامه دينا وعلما وحضارة، تسارعت إلى تعلمها الشعوب والقبائل، وهذا إيمانا من الإنسان العربي بأن معرفة اللغة هي قنطرة الوصول إلى لغة المعرفة .

1-1- اللغة دين وإيمان :

فاللغة العربية حفظت بحفظ القرآن الكريم وهي رسالة إلى الناس أجمعين، فقد ارتبط الفتح الإسلامي بانتشار اللغة العربية من ناحية أولى بواسطة سكان الجزيرة العربية الذين حملوا معهم لغتهم من قلب جزيرتهم، واستوطنوا في البلاد المفتوحة، ومن ناحية ثانية، بواسطة مسلمي البلاد المفتوحة الذين تبنّوا اللغة العربية مع دخولهم في الإسلام، ومن ناحية ثالثة، بواسطة فرض اللغة العربية على علم وثقافة وأدب أكثر أنحاء العالم المعروف آنذاك([6]) لهذا صانها رجالاتها تعلما وتعليما،ففهموا فقهها،وضبطوا نحوها وصرفها، وكشفوا أسرارها، وأبانوا عن بلاغتها، ومن أراد أن يلتحق بأهلها في العربية فعليه تعلمها، والنطق بها في أعز الأماكن وأشرفها، وهو الوقوف بين يدي

([1])- René Descartes,Discoure de la Méthode,8ed.Classique Larousse,Paris,1934, pp.56-58

([2])- عبد السلام المسدي،اللسانيات وأسسها المعرفية،الدار التونسية للنشر،سنة 1986،تونس،ص25.

([3])- أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، حرره وقدم له قاسم وهب، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،ط1، سنة 2003.

([4])- جورجي زيدان، اللغة العربية كائن حي، دار الجيل، ط 2، سنة 1988، بيروت، لبنان، ص 9- 11.

([5])- نجد تعميقا لهذه الفكرة في كتاب: إبراهيم السامرائي، اللغة والحضارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، سنة 1977، بيروت، لبنان، ص 21- 26.

([6])- ريمون طحان، دنيز بيطار طحان، اللغة العربية وتحديات العصر، دار الكتاب اللبناني ومنشورات المدرسة، ط 2، سنة 1989، بيروت، لبنان، ص 21.

الله تعالى، لأداء العبودية، ولم يتقبل عبادتهم إلا بقراءة كلامه تعالى الذي كان برهانا ساطعا على شرف اللغة العربية التي اتسعت له([1])، وهي تدرس في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

1-2- اللغة علم وعمل :

وبهذا الحفظ الرباني، والخلافة الإنسانية لعلماء اللغة العربية استطاعوا الكشف عن كثير من المعارف والعلوم، لتصبح هذه الأخيرة تتكلم بلسان عربي مبين في عصرها الذهبي، إما بترجمة ونقل أمهات الكتب الفلسفية والمنطقية والطبية والفلكية، وإما أن تبدع فيها تصنيفا وتأليفا، وقد شهد لها التاريخ في وقتها بقدرتها على صناعات مصطلحات العلوم ومعرفة أدق حدودها في لغتها قبل نقلها، ليدرك أولوا العلم في تلك الفترة أن اللغة العربية هي الوسيلة الوحيدة لنقل العلوم والفنون والآداب، بل لقد اضطر رجال الكنيسة إلى تعريب مجموعاتهم القانونية لتسهيل قراءتها في الكنائس الإسبانية([2])، لنجد أنفسنا اليوم أمام تراجع علمي ومعرفي، كما نعيش فوضى مصطلحية في عديد من العلوم في البلد العربي الواحد.

1-3- اللغة حضارة :

فإذا كانت اللغة العربية لغة علم ومعرفة، على الرغم مما قيل عنها أنها لغة بداوة لنمط العيش الذي كان يعتاده العرب فبيئتهم قد فرضت عليهم نمطا من الحياة، فهم أبدا في تنقل ابتغاء أن يجدوا ما يعينهم على العيش والبقاء إن هذا النمط من الحياة قد أدى إلى أن يسلك العربي القديم سلوكا خاصا له مفاهيمه الخلقية المعروفة وهذا ما يجليه الأدب العربي القديم الدال على أن اللغة العربية وفت بهذه الحاجات الجديدة، وقد تفطن إلى هذا الباب الكبير اللغويون الأقدمون فصنفوا رسائلهم في طائفة من هذه الموضوعات ككتب النبات والشجر والإبل وخلق الإنسان([3])، و قد عرف هذا تطورا في عصور اللغة العربية خاصة في العصر العباسي الذي توسعت فيه جغرافيا اللغة العربية لتعلن على أنها لغة حضارية تشتمل على ألفاظ كثيرة شاملة لمدلولات كثيرة تعبر عن حاجات مختلفة عرضت للناس في مختلف العصور([4])، ولم تقتصر على الألفاظ الحاجية بل اصطنعت لنفسها ألفاظا علمية تتداول بين العلماء، ولأن حضارة الأمم والشعوب لا تقاس إلا بما تبدعه لغاتها وآدابها وفنونها،وقدرتها على التأثير في الأمم الأخرى، فلهذا كان من بين تعريفات الحضارة أنها لغة، وعن طريق هذه اللغة يتكون التفكير كله، ويكون التواصل كله،ويكون التفاعل بين العقول والأفكار...واللغة هي أضخم عملية

([1])- أحمد بن نعمان،"مستقبل اللغة العربية بين مراهنات الأعداء ومقومات البقاء"، عدد خاص حول العربية الراهن والمأمول،مجلة المجلس الأعلى للغة العربية، منشورات المجلس، سنة 2009، الجزائر، ص123-133.

([2])- عبد الكريم اليافي،دراسات فنية في الأدب العربي،دار الحياة،ط1،سنة 1972،دمشق،ص 19 وما بعدها.

ينظر أيضا :

- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، ط1، سنة 1956، القاهرة، ص439.

([3])- إبراهيم السامرائي، العربية بين أمسها وحاضرها، وزارة الثقافة والفنون، سنة 1978، العراق، ص59 -62.

([4])- إبراهيم السامرائي، اللغة والحضارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، سنة 1977، بيروت، ص 8-9.

حضارية تنشئ الحضارة، وتتمثلها وتعبر عنها،وهي ذات رصيد حضاري لا حدود له،..([1])، وهذا ما عرفته الحضارة العربية الإسلامية زمن قوتها لما كانت مركز تأثير في الأمم الأخرى فأخرجت علماء أناروا ظلام العالم الغربي في وقتهم أمثال جابر بن حيان في الكيمياء،وابن الهيثم في البصريات، والخوارزمي في الرياضيات، وابن نفيس في الطب،وابن رشد في الفلسفة، وابن خلدون في العمران، وابن ماجد والإدريسي في الملاحة والجغرافيا...لتتناقل وتتلقى الأمم الغربية علومهم تلقيا إيجابيا لتصنع مركزها العلمي والمعرفي الجديد، لتعيد إنتاجه لنا في غير لغتنا بعد النهضة ليتلقاه بل يستهلكه الإنسان العربي استهلاكا سلبيا لا يد له فيه وكم كانت له أياد بيضاء فيه قبل أن تسوّد بظلام الاستعمار،وهنا يطرح سؤال مهم وملح في الآن نفسه:

هل يمكن للإنسان العربي أن يعيد بناء عقله اللغوي، ليدبر عمرانه الدنيوي من جديد كما فعل أسلافه ؟ سؤال كبير لا يمكن الإجابة عنه في بحث بل يحتاج إلى تضافر الجهود وحسبنا طرحه والتعرض إلى جانب من قضاياه.

2- العقل اللغوي العربي (بين صنعة العلم وصناعة العولمة) :

إن الناظر إلى ما نسميه بالعقل اللغوي،سيجده مركب مصطلحي علمي يضم تحته معاني جليلة، إذا أحسن الإنسان العربي فهم بلاغته، واستخدام آلياته، سيخرج حتما من أزمته اللغوية بل وأزماته الاقتصادية والسياسية، لأن هذا العقل اللغوي معقود عليه رهان التنمية البشرية من جهة، والتخطيط الإستراتيجي من جهة ثانية، فلا يمكننا أن نشك بأن اللغة تخلق العقل، أو على الأقل تؤثر في التفكير تأثيرا عميقا، وتسدده، وتوجهه اتجاها خاصا([2])، فلهذا كانت اللغات بحسب ابن خلدون ملكات شبيهة بالصناعة تحقق عمران هذا الإنسان([3])، من خلال عقله اللغوي الذي لا بد أن تتضافر مكوناته، وتتناصر مركباته للكشف عن بنيته وبنائه.

فإذا أردنا أن نفكك هذا المركب المصطلحي،سنجد بأن العقل في أصل حده نظام (من المقولات) دافع للمفسدة جالب للمصلحة، ذو وظيفة تعاملية([4])، وهنا تماثل وتشابه مع اللغة من حيث هي نظام من العلامات([5])، الدافعة لمفاسد اللسان، والمصلحة لمنطقه، وهي ذات وظيفة تواصلية(اجتماعية).

([1])- شكري فيصل ،" قضايا اللغة العربية المعاصرة، بحث في الإطار العام للموضوع"، ضمن كتاب، من قضايا اللغة العربية المعاصرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، سنة 1990،تونس،ص 32.

([2])- محمد الينبعي،" اللغة العربية في أوطانها بين التحديات والآفاق"، عدد خاص حول العربية الراهن والمأمول، مجلة المجلس الأعلى للغة العربية، منشورات المجلس،سنة 2009، الجزائر،ص 92.

([3])- ابن خلدون عبد الرحمن (732-808هـ)، مقدمة ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة جديدة منقحة ومصححة،ط1، سنة 2004، بيروت،لبنان، ص 621-630.

([4])-ابن سينا، أبوعلي الحسين ، رسالة الحدود، تحقيق عبد الأمير الأعسم، ضمن كتاب المصطلح الفلسفي عند العرب(نصوص من التراث الفلسفي في حدود الأشياء ورسومها)، الدار التونسية للنشر،سنة 1991،تونس،ص 269.

وللتعمق أكثر ينظر : طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، سنة 1998، الدار البيضاء، المغرب، ص 237 وما بعدها.

([5])- F.De Saussure,cours de linguistique générale,ed.ENAG,Alger,1994.

لنجد أن الحدّين قد تشاجرا في كثير من مقوماتهما الدلالية،ليقوم الدليل على تعقل الإنسان لهذه اللغة،التي جعلها له الله عمارة وجعل اللسان —المتوسط بينهما- عبارة، لتتم على الإنسان نعمة عمران العالم، وبهذه المقاربة يمكننا حدّ العقل عامة([1]) والعقل اللغوي على وجه الخصوص بأنه نظام من العلامات والبنيات اللغوية والحضارية، التي تعمل على تدبير المملكة الإنسانية في تواصلها العلمي، وتداولها العملي في هذا العالم المتعولم، كما نجد أن هذا العقل اللغوي ينقسم على نفسه إلى عقلين أساسيين :

1- عقل لغوي تواصلي : وهو العقل الذي يكون في الإنسان ويحقق به حاجته من استخدامه للغته، وهو ذو وظيفة تواصلية تبليغية، وهذا ما أشار إليه ابن جني في تعريفة للغة كونها :" أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم..."([2])، والغرض هنا ينصرف إلى وجهه الأول أي الضروري من الحياة، وبهذا نحقق واقعا لغويا متفاعلا ومعافى من الصراع المجتمعي و اللغوي، وهذا حتما يمر عبر سنّ استراتيجيات تواصلية بشكل يحافظ على لحمة الكيان المجتمعي المجتمعي بتحقيق توازن وظيفي متواضع عليه([3]).

2- عقل لغوي تداولي : وهو العقل العلمي والعملي الذي نتجاوز به الحاجي الضروري من استخدامنا للغة إلى أن تصبح لغة تخصصية هي في الأساس لغة العلوم والمعارف تفتح للإنسان (العربي) آفاق للتدبر والتبصر،وهذا ما أشار إليه ابن حزم الأندلسي في قوله:" لا بد لأهل كل علم وأهل كل صناعة من ألفاظ يختصون بها للتعبير عن مراداتهم وليختصروا بها معاني كثيرة "([4]).

فإذا نظرنا إلى العقل اللغوي العربي من خلال هذا الطرح، سنصطدم بحقيقة قاسية وهو أن العقل اللغوي العربي قد تراجعت فعالياته الإنتاجية وطاقته الإبداعية، للأزمة التي يعيشها بسبب إهمال وعزوف الجيل الجديد عن الحفاظ على لغتهم العربية، وعدم قدرة المناهج التدريسية التي تقدم لهم من خلالها، وعجز المختصين على وضع طرائق تعليمية لأبناء الوطن العربي كفيلة بدفعهم إلى الرجوع إليها والتمكن منها([5])، وزيادة على ذلك ما يقوم به الإعلام بشتى وسائله في إضعاف الملكة اللغوية وإفشاء اللحن والأخطاء في وسط الطلبة وحتى المثقفين.

ليتوقف بذلك العقل اللغوي العربي عند حدود العقل اللغوي التواصلي الذي يضمن الحد الأدنى من التواصل قصد تلبية الحاجات اليومية، دون انصرافه للتفعيل الجيد لعقله اللغوي التداولي، الذي يعرف صعوبات في التنشيط لفقدانه للسياسات اللغوية أو لعدم تنفيذها من قبل الدول العربية،أو لعدم وجود تخطيط لغوي مستقبلي بها، يساعد على الحفاظ على اللغة العربية، خاصة والعالم اليوم

([1])- يمكن التوسع في حدود العقل وتعريفاته خاصة في هذا القرن والقرن الماضي من خلال كتاب مهم لـ : برتران سان- سرنان، العقل في القرن العشرين، ترجمة: فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة، سنة 2000، دمشق.

([2])- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، سنة 1957،القاهرة،ص 33.

([3])- رفيق لبوحسيني، الأبعاد الرابطة بين اللغة العربية والتواصل، ضمن كتاب: التواصل نظريات وتطبيقات، الكتاب الثالث، إشراف محمد عابد الجابري، منشورات الشبكة العربية للأبحاث والنشر،ط1، سنة 2010، بيروت، ص 71.

([4])- أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء،تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، سنة 1966،تونس.

([5])- نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي،م جلة عالم المعرفة، العدد 265،الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، يناير 2001، دولة الكويت، ص 230.

يعيش زمن العولمة التي تتجاوز فيها الهويات وتمحي فيها الخصوصيات، ليصبح اللسان غير اللسان، والإنسان غير الإنسان، وبهذا يتلبد مستقبل اللغات ومنها اللغة العربية، الذي نراه مرتبطا دون شك بتكوين وعي لغوي جديد لدى جمهور المثقفين، وهذا الوعي يكون مدركا لأهمية اللغة العربية بوصفها أهم سمات الانتماء، ولأنها الأداة الأولى للتعبير والتفكير، والسمة المحددة لإنسانية الإنسان([1])، غير أن هذا المستقبل الطموح سيصطدم بجدار صلب بناه عقل تداولي عولمي يعمل جاهدا على محو الهويات اللغوية، واغتيال العقول اللغوية وإحلال هويات لغوية مهيمنة([2])، وهذا ما لم يسهم الإنسان العربي في ردم هذه الفجوة الرقمية والمعرفية بينه وبين صناع اللغات الرقمية في الغرب، الذين جعلوا من العالم قرية صغيرة، ومن اللغات لغة متوحدة، فلا يمكننا إخراج العقل اللغوي العربي من أزمته إلا بمعرفة مكمن الداء لمعالجته.

3- اللغة العربية من معرفة المجتمع إلى مجتمع المعرفة([3]):

3-1- معرفة المجتمع :

لقد رأى اللسانيون من قبل بأن اللغة مؤسسة اجتماعية ذات طاقة تواصلية بين أفرادها لتلبية أغراضهم الحياتية،لهذا احتاجت هذه اللغة لعقل عملي يسير قطاعاتها ومشاريعها، ونشر المعرفة اللغوية عند فئات مختلفة من أبنائها، وهذا من خلال إنشاء مؤسسات تعتني بخدمة وتطوير وتمكين اللغة العربية في وجدان متكلميها ومنها :

- المدارس والجامعات، قصد تطوير مناهج تدريس اللغة العربية.
- مخابر البحث العلمي المتخصص في ترقية اللغة العربية كلغة عالمية.
- المجامع اللغوية ودورها في التمكين من اللغة، وتوطين الدخيل منها خاصة في مجال المصطلحات.
- فتح قنوات متخصصة في تعليمية اللغات ومنها اللغة العربية، وكيفية تعليمها للناطقين بغيرها.
- تكثيف نشاط الجمعيات والمنظمات المتخصصة في حماية اللغة العربية، وتحفيزها.

وبهذا لا يمكن تصور وجود اللغة إلا وهي مرتبطة بالمجتمع الذي يستخدمها أشد الارتباط، يكون من خصائصها ووظائفها بجانب كونها تسهم في صنع الفكر وتوجيهه وتحديد خصوصياته من مجتمع لآخر، إنها تعد أصدق مؤرخ لحياة هذا المجتمع وحياة ثقافته وحضارته وذاكرته التي تختزن عنه كل ما يتعلق بعاداته وتقاليده وسلوكه، وإيمانه وكفره، وغناه وفقره،وتعلمه وجهله، وأدبه ومهارته وفنه، بل إنها ذاكرة تحتفظ أيضا بأدق الصور والمعلومات عن حياته اليومية،وعن بيئته ومناخه وطبيعته الحية والميتة([4])، وباختصار كل ما يريد المرء أن يعرف عن هذا المجتمع من تفاصيل قد لا نجد أحيانا من الأدلة على وجودها في وثائق التاريخ ولكننا نجدها في تضاعيف كلمة

([1])- محمود فهمي حجازي، علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، سنة 1999، القاهرة، ص 94-95.

([2])- روبرت فليبسون، الهيمنة اللغوية، ترجمة:سعد بن هادي الحشاش، مركز الترجمة بجامعة الملك سعود، سنة 1428هـ، المملكة العربية السعودية، ص 130، وص 145.

([3])- وتعميق الفكرة ينظر الكتاب المهم في بابه لـ : نبيل علي، العقل العربي ومجتمع المعرفة مظاهر الأزمة واقتراحات الحلول، ج 1، سلسلة عالم المعرفة، العدد 369، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،نوفمبر 2009، دولة الكويت.

([4])- عبد العلي الودغيري، في الهوية والثقافة، دار البوكيلي،سنة 1995، المغرب، ص 11.

من كلمات القاموس اللغوي،فبمراجعة اللسان العربي في قواميسه ومعاجمه القديمة، سنتعرف من خلاله على أحوال العرب القدامى وعقائدهم الجاهلية وأوصاف حياتهم وتفكيرهم ومعيشتهم وبيئتهم وجفافها وقسوتها ما يغنينا عن قراءة كتب ابن خلدون وابن الأثير أو غيرها من كتب مؤرخي العرب الكبار.

وبالانتشار الواسع لاستخدام اللغة العربية من قبل الإنسان العربي في الحياة اليومية والمهنية والعلمية ستساعده على معرفة مجتمعه،لتصبح عنده تداولية وتنافسية مع لغات أخرى على جميع المستويات (الاجتماعية،والاقتصادية،والسياسية،والثقافية...)، وبهذا يبنى الإنسان العربي التواصلي والتداولي المؤهل لغويا لإشراكه في التنمية الحضارية لأمته، لنكون بذلك وضعنا أول لبنة لمجتمع لغوي عربي، يجعل من لغته هوية راسخة وذات أبعاد عالمية تواجه تحديات العا لم المتعولم.

3-2- مجتمع المعرفة :

فإذا كانت معرفة اللغة تتطلب أن تكون مؤسسة اجتماعية كما رأينا، فإن مجتمع المعرفة يطلب منها أن تكون مؤسسة اقتصادية صناعية بالدرجة الأولى، تعمل عل رفع الإنسان العملي إلى إنسان علمي ذو عقل تجريبي، لأن الإنسان المعاصر يقبل على لغة بعينها بقدر ما تقدم له من معرفة([1])، لهذا كان من أهداف مجتمع المعرفة رفع سقف التنمية اللغوية، والتخطيط اللغوي على حد سواء لأنهما رهانا مستقبل اللغة العربية.

إلا أن الباحث يقف في حيرة من أمره، على الرغم من جهوده الفردية، لما يرى بأن الإدارة الرشيدة للإصلاح اللغوي في الوطن العربي لم تعد من أولويات الدول العربية، وهذا ما يزيد من الفجوة اللغوية أمام العاميات واللهجات من جهة، والفجوة الرقمية أمام المعلوماتيات والبرمجيات من جهة أخرى، ليظهر العجز على كثير من القطاعات التي تبني مشاريعا لا تجد لها طريقا للتطبيق الفعلي ولا التسويق العملي، ويرجع ذلك إما لنقص الخبرة العلمية المحلية المؤهلة، وإما لنقص التخطيط الإستراتيجي كما نبين هنا([2]):

- تعثر الكثير من السياسات اللغوية في الوطن العربي، لتبقى قراراتها وتوصياتها حبرا على ورق.
- لا توجد سلطة قرار للمجامع اللغوية العربية، مما يبقي ما تقدمه غير ملزم للإنسان العربي، كذلك ما تعرفه من مشاكل في التموين لتحقيق مشاريعها الخادمة للغة العربية في عصر العولمة.
- قصور مناهج وطرائق تدريس اللغة العربية التي لم تمكنها من الخروج عن الأسلوب التلقيني إلى الأسلوب التفاعلي، أمام اللغات الأخرى، مما تسبب في العزوف عن تعلمها.
- عدم الاستمرار في سياسة التعريب في الوطن العربي وتحديث آلياته،وتطوير مناهجه وأساليبه، ليجابه المدّ العولمي.

([1])- محمود فهمي حجازي، علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة، ص 96.

([2])- نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، ص 236-237.

- تراجع الهوية اللغوية لدى المواطن العربي، نتيجة للأسباب السابقة وكثرة الفضائيات التي تساهم بالقسط الوفير في تدني مستوى اللغة العربية.

غير أن اللغة العربية تثبت يوما بعد يوم عن إمكانياتها الخلاقة في منافسة بلاغة الرقم،كما نافست بل وتصدرت من قبل بلاغات الرسم، فمن خصائصها العديدة التي تبيّن ذلك التزامها بالقاعدة الذهبية فيما يخص التوسط والتوازن اللغوي، فاللغة العربية تجمع بين كثير من خصائص اللغات الأخرى...إذ تتسم منظومة اللغة العربية بتوازن دقيق وتآخ محسوب بين فروع اللغة المختلفة([1]).

ومن منظور معالجة اللغات الإنسانية آليا بواسطة الكمبيوتر، أثبتت العربية جدارتها كلغة عالمية، إذ يسهل تطوير النماذج البرمجية المصممة للغة العربية،لتلبية مطالب اللغات الأخرى أولها الإنجليزية([2])، وبهذا تصبح اللغة العربية تتكلم لغة الحاسوب والرياضيات الحديثة لأنها تقع في الفئة العليا كحالة خاصة.

وبانتقال الإنسان العربي من معرفة لغته داخل المجتمع إلى بناء مجتمع معرفة لهذه اللغة جاعلا منه منهجا ومنهاجا في تدبيراته الحياتية والعلمية،مبرزا خصائصه التي تتوافق مع عالم المعلوماتية والرقمية الذي نعيشه([3]):

- إنتاج المعرفة وليس استهلاكها حيث يقوم هذا المجتمع بإنتاج المعرفة في المجالات المتعددة وبيعها، باعتبارها ركنا اقتصاديا مهما يقوم عليه الاقتصاد الوطني، فاستهلاك المعرفة لا يكفي وإنما لا بد من إنتاجها.
- توفر مستوى عالي من التعليم، والنمو المستمر في الوسائل التعليمية.
- توفر مراكز البحوث والتطوير، والعمل على تزويدها بالأفراد المؤهلين والمعدات اللازمة وتطويرها باستمرار، والاستفادة من الخبرات المتراكمة، والمساعدة في خلق وتوفير المناخ الثقافي الذي يمكنه من فهم مغزى التغييرات والتجديدات وتقبلها والتجاوب معها.
- القدرة على إنتاج البرمجيات(اللغوية)، وليس إنتاج المعدات الصلبة أو الأجهزة التي تستخدم في الحصول على المعرفة، فالمعرفة تحتاج إلى تجديد مستمر كي تتناسب مع المستجدات لذلك قد تحتاج إلى تقنية وبرمجيات جديدة تتناسب معها.

وعليه فاللغة العربية لا يمكن أن تبني مستقبلها إلا بتبني مجتمع المعرفة كأفق معرفي وعلمي جديد، وأن ننظر إليها نظرة شمولية وهي تنسج علاقاتها مع معارف مختلفة،بتركيزنا على جوانبها الخاصة التي تميزها عن باقي اللغات منها([4]):

- العلاقة بين نظام الصرف العربي وثرائه الاشتقاقي الذي لا نجده في لغة من لغات العالم.
- العلاقة بينها وبين فنون الخط العربي والفنون التشكيلية وهندسة الديكور.

([1])- المرجع نفسه، ص 237.
([2])- المرجع السابق.
([3])- إبراهيم الخلوف الملكاوي، إدارة المعرفة، الممارسات والمفاهيم، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، سنة 2006، عمان الأردن، ص18.
([4])- نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، ص 238.

وهذا لا يتحقق إلا بإعداد فريق من المتخصصين على درجة كبيرة من الكفاءة ومن مجالات علمية مختلفة، مع التركيز على الخلفية المشتركة في اللسانيات، وفقه اللغة، وفلسفة اللغة، وهندسة النظم، وتكنولوجيا المعلومات وكيفية استخدامها في المجال اللغوي.

الخاتمة :

بعد هذا الجهد العلمي الذي نرى أنها غايته لا تكتمل إلا بتضافر جهود العلماء في جميع التخصصات لأن اللغة العربية وإن كانت وسيلة للتعبير فهي أيضا موضوع للتفكير المعرفي، وآلية للتدبير العلمي.

وحسبنا أننا اجتهدنا لنقول أنه يمكننا أن نرى اليوم اللغة العربية برؤيا عالمية،تدخلها إلى التنافس في سوق التداول اللغوي العالمي، وهذا بعد انخراطها الجدّي في مجتمع المعرفة الذي يعد مجتمع للإستراتيجيات المستقبلية، باعتماده على السبل التكنولوجية المتطورة جاعلا من أولوياته التنمية اللغوية في المجتمع، والتخطيط المستقبلي لهذه اللغة،ليضمن بذلك استمراريتها أمام هذا المدّ العولمي القاتل للهويات اللغوية.

اللّغة العربية والعولمة

الأستاذة: د/ نعيمة بوزيدي
كلية الآداب واللّغات
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة البليدة 2

مقدمة:

تعدّ اللّغة العربية من أبرز ملامح ثقافتنا اللّغوية، وهي من أكثر اللغات الانسانية ارتباطا بالهوية، وهي اللغة الانسانية الوحيدة التي صمدت شاهدة على حضارة أمتها في ازدهارها وانتكاسها[1]

والعولمة لغة مشتقة من عالم التي يعرفها "مختار الصحاح" وتجمع عوالم والعالمون"أصناف الخلق والعالمين تشمل الكون أي عالمنا والعوالم الاخرى، ومصطلح العولمة هو ترجمة لكلمة Globalization الانجليزية

وقد اختلف المختصون والباحثون في تحديد تعريف معيّن لها فهي تعني عند "عبد الستار الراوي" إشاعة قيم ومبادىء ومعايير الثقافة الأمريكية والنموذج الامريكي وجعله نموذجا كونيا يتوجب تبنيه وتقليده، وقد استفاد من التّطور الهائل والسريع في وسائل وأجهزة الاعلام والتقنيات العلمية والمعرفية في نقل وتقديم هذا النموذج إلى المجتمعات الأخرى[2]

وهي عند "محمد عابد الجابري" نظام يقفز على الدولة والأمة والوطن وفي مقابل ذلك يعمل على التفتيت والتشتيت، وإنّ اضعاف سلطة الدولة والتخفيف من حضورها لفائدة العولمة يؤديان حتما الى استنهاض أطر الانتماء سابقة على الدولة ...والنتيجة تفتيت المجتمع وتشتيت شمله[3]

ويرى "حسين علوان" أن العولمة ظاهرة تنم عن الهيمنة الامريكية على الأصعدة المختلفة الاقتصادية والسياسية والثقافية عن طريق تعميم النموذج الامريكي على الامم والشعوب الاخرى وفرضه عليها وذلك تحقيقا لأهداف الاستراتيجية الكونية الامريكية بالسيطرة على العالم[4] إذاً عملية العولمة هي بداية نشوء ثقافة عالمية بغض النظر عن جذور تلك الثقافة يفرضها المشاركون في العملية على من لا يشارك، أو ليست لديه القدرة على المشاركة.

إنّ أول العولمات وأقدمها في تاريخ الحضارات هي عولمة اللغة؛ لكونها نقطة النهاية في طبيعة الحياة الانسانية القائمة على صراع الأفكار والمصالح وسيادة الأنا على حساب الآخرين، فتصادم الحضارات عبر التاريخ لم يكن دائما بدوافع اقتصادية أو دينية أو قومية، وإنّما كانت اللغة بوصفها كالدين روح الأمة الناطقة بها وهويتها ومكمن تاريخها وحضارتها وثقافتها

1- ينظر نبيل علي، ورقة عمل بعنوان اللغة العربية والعولمة، مقدمة لمجمع اللغة العربية الأردني في موسمه الثقافي 19، 2001، ص90

2- عبد الستار الراوي، في مفهوم العولمة، مجلة المستقبل العربي، 1998، عدد228، مجلد2، ص12

3- محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، العولمة، صراع الحضارات، العودة إلى الاخلاق والتسامح، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت1998، ص145

4- حسين علوان حسين، العولمة والثقافة العربية، العولمة والهوية، المؤتمر العلمي، عمان1999، ص127.

ومبادئها وقيمها حاسما في الصراع، والانتصار في صراع اللغات انّما يمثل بداية لتاريخ الغالب وانجازا لرحلته الحضارية كلّها، وتمكّنه من فرض نفسه سيّدا في العالم، وعلى الجميع الاعتراف به، وبتفوقه، ونهاية لتاريخ المغلوب وجودا وهوية وثقافة وحضارة وقيما ومعتقدا ممّن امتلكوا اللغة والوطن والتاريخ "فلكوننا مختلفين ألسنة كان همنا عبر التاريخ الانساني ما يمكن أن تسميه عولمة اللغة متخذة اشكالا متعددة، وأساليب متنوعة حاملة في أعماقها أهدافا بيّنة حينا، وخفية أحيانا تتجاوز اللغة نفسها إلى اللغة كلّها، ولكنّها على تعدّد أشكالها وتنوع أساليبها، وطبيعة أهدافها انحصرت في مسارب أربعة:

الاول يتمثل في حرص كلّ أمة من الامم منذ القديم على كسب النصر في أي صراع لغوي قد يحكم به التاريخ عليها أن تخوضه ضد غيرها

ويتمثل الثاني في حرص كلّ أمة على أن يكون لسانها سيدا على ساحة الصراع الثقافي والحضاري، فبذلت بعض الأمم جهودا ضخمة وصرفت أموالا طائلة لنشر لغاتها على اوسع رقعة جغرافية ممكنة مستخدمة أساليب شتى، وطرائق مستجدة، ومخابر لغوية، وأفلاما وكتبا وأشرطة ومسلسلات وتوجيهات للقائمين بالتعليم"[1]

كلّ ذلك من أجل مد الرقعة الجغرافية للغة المعنية بما يفيد في نشر الثقافة القومية لأصحابها والتعريف بحضارتهم، وانجازاتهم العلمية والمعرفية والادبية والفنية وبما يسهم بدوره في اطلاع العالم كلّه على الصروح الحضارية لأصحاب هذه اللغة، وقد برز في هذا الميدان علم يعرف بـ علم اللسانيات الانثروبولوجية الذي يعنى بدراسة ثقافة المجتمعات الأساسية، واللغة أحد فروع الانثروبولوجيا بل أكثرها أهمية؛ لأنّ اللغة أداة فعالة لفهم طباع المجتمعات الانسانية، وكذلك برز علم اللغة الاجتماعي الذي يعنى بدراسة العلاقة بين اللغة ومحيطها الاجتماعي والثّقافي وتعدد المستويات اللغوية في المجتمع الواحد[2]

والثالث ولقدسية اللغة أية لغة عند الناطقين بها ادّعت كلّ أمة أن لغتها هي اللغة الملهمة من الله على البشرجميعهم وهي لغة الخلود في العالم الآخر[3]

والرابع: ولأن اللغة قاسم مشترك بين الناس جميعهم تمكّنوا بفضلها من نقل المعلومات؛ ولأن العالم امتدت أطرافه وتعدّدت لغاته حتى ناهزت الخمسة ألاف لغة ظهرت دعوات كثيرة لايجاد لغة واحدة للبشركافة، فكانت الدعوة الى لغات (فولابوك) ومبتكرها "شلييار"الذي تمثلت فكرته في إقامة هذه اللغة على محاولته وضع أبجدية عالمية قادرة على ترجمة أصوات كلّ لغات العالم، ولكن خابت كلّ المساعي[4]

واللغة هي مخزون المعرفة ولكلّ أمة تستخدم تلك اللغة ثقافتها المرتبطة بها، وأنّ التفاعل بين الأمم من جانب واحد قد يفضي الى انحلال واضمحلال اللغة الاضعف، وطمس شخصية الآخر الثقافية وهويته وخصوصيته

---

[1]ـ سويسي رضا، مناهج استغلال المعطيات الالسنية في تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها، ص271 ، نقلا عن هادي نهر، اللغة العربية وتحديات العولمة عالم الكتب ، الأردن،2010، ص8

[2]- ينظر حنا سامي عياد وزميلاه، معجم اللسانيات الحديثة، مكتبة لبنان، ص131

[3]- ينظر ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحق مصطفى الشويمي، بيروت،1963، ص30

[4]ـ كنداروف، اصوات وارشادات، ص148، نقلا عن هادي نهر، اللغة العربية وتحديات العولمة،عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، 2009، اربد، ص9

فعولمة اللغة عملية تاريخية جارية ومستمرة منذ أن امتلك الانسان لغة ووطنا وتاريخا يختلف بها عن غيره

ولقد عاشت اللغة العربية منذ القدم صراعا مريرا مفروضا عليها من غيرها من اللّغات، وكان هذا الصراع أبرز وجوه الصراعات التي خاضها العرب ضد الغزاة، وقد كتب للغة العربية الانتصار في هذا الصراع بشهادة المؤرخ الفرنسي "غوستاف" الذي أكّد أنّ اللغة العربية تركت أثرا مهما في فرنسا نفسها، وعزز باحث آخرما قاله "غوستاف" بقوله: إنّ اللهجات السائدة لولاية"أوفرن"وولاية "ليموزان" الفرنسيتين محشوة بالكلمات العربية، ومن الطبيعي أن تقتبس فرنسا وايطاليا من العرب الذين كانوا سادة البحر المتوسط[1] وقد اعتمد علماء من شتى بقاع الأرض اللغة العربية وأبهرتهم، فعكفوا على طلب العلم العربي باللغة العربية التي أتقنوا تعلمها[2].

وتمثل عولمة اللغة الجانب المهم من عولمة الثقافة التي يحتدم اليوم فيها الصراع، وهذه العولمة تدعو إلى بناء ثقافة كونية ذات عناصر عالمية مشتركة تتضمن نسقا معينا من القيم والمعايير التي يراد فرضها على شعوب العالم ممّا قد يؤثر بالسلب على الخصوصية الثقافية لهذه الشعوب[3]

وتدعو عولمة الثقافة إلى ايجاد ثقافة واحدة في لغة واحدة تسيطر وتسود وتهيمن على الثقافات الأخرى؛ وذلك عن طريق نشر مضامينها، وأساليب تفكيرها، بل وأساليب التّعبير في محاولة منها للحلول محلّ الثقافات الاخرى، ومن ثمّ الحلول محلّ اللغات الأممية جميعا[4]

وتعدّ عولمة اللغة في المجتمعات العربية أشد من الاستعمار الذي ذاقوا مرارته؛ لأنّ عولمة لغة أجنبية على حساب اللغة العربية الأم من أخطر العولمات فتكا واستلابا للثقافة العربية، وللمستقبل العربي؛ لأنّ هذه العولمة ستؤدي إلى قطع صلة أبناء الأمة بكلّ شيء يمتلكونه من الإرث الحضاري والثقافي وقد خلقت العولمة نوعا من القلق والتوتر لدى دول العالم الثالث، وتدخّلت في مختلف نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية.

إن فكرة العولمة الثقافية في صراعها الحقيقي مع الثقافة العربية وهويتها القومية تعتمد للنيل من الشخصية القومية العربية كتعبير عن الوجود الحضاري للأمة العربية ومن هنا فإنّ الدفاع عن الشخصية القومية العربية يتطلب وضع الهوية القومية والخصوصية العربية للثقافة العربية في المقام الأول[5]

وأضحت العولمة الثقافية عبر وسائل الاعلام وشبكات المعلومات كالانترنت وسواها تمارس نوعا من التّحكم والضبط لسلوك الأفراد والمجتمعات وبطريقة قسرية [6] و تساهم كثيرا بمزيد من الفاعلية في التأثير في الثقافات الوطنية عبرأجهزة الاعلام، ما جعل الثقافة العربية تتعرض لخطر كبير بفعل ظاهرة العولمة، إذ تمثل العولمة الثقافية أخطر التحديات المعاصرة

---

[1]- بن عبد الله، التعريب ومستقبل اللغة العربية، معهد البحوث والدراسات، القاهرة، 1975، ص305

[2]- هادي نهر، اللغة العربية وتحديات العولمة، المرجع السابق، ص11

[3]— طيحة سعيد عبد الفتاح، العولمة وثقافتنا العربية"بحث"ندوة العولمة والخصوصية الثقافية، جامعة السلطان قابوس، مسقط،1999، ص82

[4]— بدوي عاطف، العولمة وتوجيهات الهوية الثقافية في محتوى مناهج التاريخ بالمرحلة الثانوية العامة في جمهورية مصر"بحث" مجلة القراءة والمعرفة، العدد4، 2001، ص70

[5]- وليد ابراهيم الحاج، اللغة العربية ووسائل الاتصال الحديثة، دار البداية، الاردن، ط1،2007، ص248

[6]- حسين علوان حسين، العولمة والثقافة العربية، العولمة والهوية، المرجع السابق، ص99

للثقافة العربية، وهذه الخطورة لا تأتي من الهيمنة الثقافية التي تنطوي عليها العولمة فحسب، وإنما من الآليات والأدوات التي تستخدم لغرضها

ونشير إلى أثر الانترنيت باعتباره ظاهرة من ظواهر العولمة وقد قال "علي نبيل" مشيرا إلى التّواصل اللغوي"تشير جميع الدلائل إلى أن التواصل عن بعد عبر الوسيط الالكتروني سيقلب مفهوم التواصل اللغوي الذي اعتدنا عليه رأسا على عقب سواء من حيث طبيعة العلاقة بين المرسل والمستقبل، أو من حيث تنوع أشكال التواصل[1]

وإن تعددت اشكال التعريفات للانترنت إلا أن جميعها لم تبتعد عن هذين التعريفين الأول يعتبرها شبكة مترابطة من ملايين الحواسيب حول العالم من خلال خطوط الهاتف أوالأقمار الصناعية، أو أي من نظم الاتصالات الأخرى[2]

والتعريف الثاني يرى الانترنت رابطة من شبكات الحاسب الآلي ذات المعايير المشتركة تمكّن من ارسال الرسائل من أي جهاز حاسوب آلي مركزي مرتبط بإحدى الشبكات إلى أي جهاز آخر مرتبط،[3] ويعود تاريخ الشبكة العالمية إلى ما يعرف باسم Arpanet وهي الشركة التي أسستها عام 1969 الوكالة الأمريكية لمشاريع البحوث المتقدمة، وجاء هذا الاختراع كرد فعل أمريكي على إطلاق الاتحاد السوفياتي السابق للقمر الصناعي"سبوتنيك" [4] فالانترنت وسيط الكتروني عالمي تفاعلي

ويترتب على كلّ من هذه الخصائص نتائج فيما يتعلق بنوع اللغة المستخدمة هناك، وينبع التأثير الأكثر أساسية من السمة الالكترونية للوسيط، وأوضح هذه السمات هي أن طبيعة الأجزاء الصلبة للحاسب الآلي الذي نحتاجه لكي يمكننا الاتصال بالانترنت تحدّ من الاختيارات الاتصالية للمستخدم، وعلى هذا الأساس فإنّ مجموعة من الحروف على لوحة المفاتيح تحدّد القدرة اللغوية الانتاجية كما يحدّد حجم الشاشة وتكونها القدرة اللغوية الاستقبالية، وتبعا لذلك فإنّه يمكن لهذا الوسيط أن يسهّل أنشطة لغوية تقليدية تسهيلا كبيرا [5] ومع التوسعات والتطورات التي شهدتها الشبكة على المستوى المستوى العالمي تطورت شبكة الانترنت على المستوى العربي فشهد عام 1997 ولادة أعداد كثيرة من المواقع العربية، فتضاعف عدد المواقع المستخدمة للغة العربية، ومع التّوسعات التي شهدتها الشبكة في العالم العربي توسعت أيضا الخدمات التي تقدمها للمشتركين فظهرت العديد من المراكز التعليمية العربية، وتعتبر جامعة العرب الالكترونية أول مركز تعليمي عربي عبر الانترنت[6]

---

[1]- نبيل علي، ورقة عمل بعنوان اللغة العربية والعولمة، المرجع السابق، ص92

[2]- نبيل علي، ورقة عمل بعنوان اللغة العربية والعولمة، المرجع السابق، ص92

[3]- ينظر ديفيد كريستال، اللغة والانترنت، ترج/ أحمد شفيق الخطيب، المجلس الأعلى للثقافة ،2005، ص13

[4] - ينظر عبد المجيد بن حمادو، ورقة عمل اللغة العربية والانترنت الموسم الثقافي للمجمع، ص143، نقلا عن وليد ابراهيم الحاج،اللغة العربية ووسائل الاتصال الحديثة، ص64

[5]- ديفد كريستال، اللغة والانترنت، المرجع السابق، ص39

[6]- وليد ابراهيم الحاج،اللغة العربية ووسائل الاتصال الحديثة، المرجع السابق، ص79

وتُعد اللغة ركيزة التّخاطب الأساسية مع الشبكة، وهي المادة الأولى التي تمثل بواسطتها المعلومات المتوافرة في صفحات الانترنت، والمتبادلة بين الأشخاص والمؤسسات، وانطلاقا من هذه الاعتبارات نرى أن اللغة المستخدمة بطريقة مكثفة في شبكة الانترنت هي الانجليزية لكن مع عولمة الانترنت، فإنّ وجود اللغات الاخرى أخذ يزداد باضطراد[1]

وقد ظهرت خدمة الانترنت في الوطن العربي متأخرة، حيث ظهرت في السنوات الأولى من التسعينات مجموعة من المواقع العربية التي لا تتعامل إلا باللغة الانجليزية، ويعتبر موقع الشبكة العربية Arabnet من المواقع الأولى التي دخلت عالم الانترنت، والذي تأسس من قبل الشبكة السعودية للأبحاث في لندن، وظهر هذا الموقع في بدايات 1995، ويقدّر عدد المواقع العربية باللغة العربية والانجليزية ما بين 7و8 ولكن وللأسف إنّ 80 % من هذه المواقع ما زالت تستخدم اللغة الانجليزية، والهوة الفاصلة بين اللغة الانجليزية واللغات الأخرى هوة ملحوظة، ونشير إلى أنّ اللغة العربية تقع في المرتبة الثامنة عشرة[2] ومع أنّ الشبكة في تطور مستمر في العالم العربي إلا أننا مازلنا نرى أن العالم العربي يحبو ببطء نحو هذه الطفرة المعلوملتية الهائلة؛"لأنّ45% يستخدمون اللغة العربية على الشبكة العنكبوتية سواء في مشاركتهم لمجموعات الدردشة، أو في المراسلة عبر البريد الالكتروني، أو في بحثهم عن موضوع ما عبر محركات البحث المعروفة "ياهو وجوجل" و26% يشعرون أنّ اللغة العربية تحقق حاجاتهم المطلوبة، وهي نسبة قليلة، إلا أننا معذورون في ذلك؛لأن المحركات باللغة العربية غائبة والمحتوى العربي قليل على تلك الشبكة 17% فقط يعرفون مواقع تعليم اللغة العربية

وما يعيب المواقع العربية أن أغلب صفحاتها تنتقل من اللغة العربية في الصفحتين الأوليتين إلى اللغة الانجليزية في باقي الصفحات، وأن غالبية المواقع العربية بحاجة لأن تشترك فيها لكي تستفيد منها وهذا ما ليس موجودا في المواقع الاخرى[3]

وخرقت الانترنت جميع الحواجز الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية بين دول العالم فهي توفّر المعلومات بأنواعها المختلفة لكلّ من يصل إليها بغض النظر عن جنسه أو لغته أو دينه أو عمره أومكانته الاجتماعية من هنا أرى أن الانترنت احدى الوسائل المهمة لايصال رسالة العولمة[4] وأهم سيئة تحدّ من فائدة اللغة الشبكية أنّها تفرغ اللغات من شحنتها الثقافية وتبسطها في قوالب أشبه ما تكون بالرموز، وفي ذلك ما فيه من السلخ والمسخ.

يعايش العربي المعاصر عالمين متناقضين حاملا في شخصيته ثقافتين متباعدتين يصعب التفريق بينهما ثقافتين غير متكافئتين، ثقافة تراثية مفعمة بالمواطنة الأصلية وأخرى عولمية تغريبية تسلبه الاولى، وتدفعه نحو عصرنة فردية، وبين العالم الأول والثاني يقف العربي عاجزا عن الوصل بين ماضيه وبين عصرنة الآخر المغتربة عنه[5] إذاً فإن العولمة واقع معيش، وقدر وقدر محتوم فالقضية في العولمة ليست قضية اختيار فكري أوثقافي أو سياسي في أن نقبلها أو نرفضها بقدر ماهي قضية سؤال عن كيفية التعامل معها، واستيعابها، وتحصين لغتنا وثقافتنا لمواجهتها[6]

---

[1]- المرجع نفسه، ص79

[2]- المرجع نفسه، ص73

[3]- المرجع السابق، ص72

[4]- المرجع نفسه، ص68

[5]— جان زيجلر، العولمة وتهميش الثقافة الوطنية، رؤية نقدية من العالم الثالث، عالم الفكر، الكويت، مج الثامن والعشرون، العدد2، 1999، ص123

[6]- هادي نهر، اللغة العربية وتحديات العولمة، المرجع السابق، ص17

فماذا اعددنا كي نصمد في وجه هذا التيار الجارف قبل ان يجرفنا ويقضي على كل شيء لنا بما فيه لغتنا؟ وفي الاجابة عن هذا السؤال نجد الناس فريقين مختلفين فريق تارك نفسه للموج مؤيد، والثاني رافض رفضا مطلقا لكل عولمة باسم حماية الخصوصية الثقافية العربية،

يرى أصحاب الرأي الأول: أن العولمة والعولمة الثقافية مقبولة إن لم تكن اضطهادا فكريا للآخرين، وأن تتغذّى من تنوع الثقافات والقيم وتعدد الطموحات المشروعة، واحترام الثقافات والهويات الأممية المختلفة وقبول الآخر، وهدم الـ أنا، والاعتراف بالتّعدد الثقافي واللغوي والحضاري والاقرار بأن الاختلاف بين الشعوب والثقافات واللغات أمر واقع[1] وأن لا تكون العولمة اللغوية والثقافية نقيضا لتوجهات الحضارة العربية الاسلامية، ويمكن لأجواء العولمة المنفتحة أن تعين على ايجاد وسائل وآليات تستخدم في صالح اللغة العربية كي تأخذ مكانتها المأمولة في حياة الانسان العربي فالتّقدم الهائل في وسائل الاتصال من شأنه أن يخدم اللغة العربية الفصحى، كما يمكن للعربية أن تستفيد من الثورة المعلوماتية من حيث انتاج البرامج التعليمية[2]

ويرى أصحاب الرأي الثاني:أنّ الشأن الثّقافي لكل أمة هو الذي يحدد بقوة ملامح هويتها، وعندما نتحدث عن الثقافة فإنما نتكلم عنها بمنظورها الواسع المستمد من عقيدة الأمة ولغتها وتراثها المشترك، وتعدّ اللغة من أهم الملامح التي تكوّن هوية الامة وتميزها عن غيرها من الأمم، فاللغة والدين هما العنصران المركزيان لأي ثقافة أو حضارة ومن هنا فإن أي تحد لثقافة ما ينطوي على تحد للغتها [3]

وإذا كانت اللغة . أية لغة . بأهلها لا بنفسها فإنا قد وجدنا اللغة العربية ترافق مسيرة الامة بقوتها وتضعف بضعفها فقد استطاعت في الماضي أن تحمل حضارة من أضخم ما عرفت الانسانية من حضارات...وفي مطلع هذا القرن بدت لغتنا بعيدة عن الحياة، لبعد أصحابها عن الحياة إنّها في محنة توازي محنة هذه الأمة.[4]

فاللغة العربية تعيش أزمة بكل ما تعنيه هذه العبارة المشحونة بالمعاني والدلالات أزمة في المدارس، وأزمة في الجامعات ووسائل الاعلام وغيرها

وتواجه اللغة العربية اليوم في عالم العولمة تحديات ومخاطر تستهدف الناطقين بها؛ لأن العولمة تهدف الى تنمية الاتجاه نحوايجاد لغة اصطلاحية واحدة تتحول بالتدريج الى لغة وحيدة للعالم، يتم استخدامها وتبادلها سواء للتخاطب بين البشر أو بين الحسابات الالكترونية، أو مابين مراكز البيانات وصناعة المعلومات

إنّ الانفتاح الحضاري غالبا ما يقود إلى انسداد ثقافي من نوع خاص يفضي إلى الجمود فالانحدار والتلاشي إذ أنّ الدخول في قصور الحضارة المشتركة يستوجب خروجا غير مأسوف عليه من مضارب الثقافة[5]

---

[1]- المرجع نفسه، ص18

[2]- أحمد محمد الضبيب ،اللغة العربية في عصر العولمة، مكتبة العبيكان، ط1،2001، 30

[3]- ينظراللغة العربية في عصر العولمة، المرجع السابق ص13

[4]- نبيل علي، ورقةعمل بعنوان اللغة العربية والعولمة، المرجع السابق، ص89

[5]- عبد الكريم خليفة، اللغة العربية أساس لنهضة أمتنا ووحدتها،عن مجلة المجمع الأردني،1984، ص10

وتعمل العولمة على سحق الهوية الوطنية المحلية وإعادة صهرها وتشكيلها في إطار هوية وشخصية عالمية أي الانتقال بها من الخصوصية إلى العمومية، سحق الثقافة والحضارة المحلية الوطنية، وايجاد حالة اغتراب مابين الانسان وتاريخه الوطني والموروثات الثقافية والحضارية التي انتجتها حضارة الآباء والأجداد

ويرى د/"عبد الله عبد الدايم" كما يرى كثير من المفكرين أن العولمة التي تنادي في ظاهرها بالربط والتوحيد بين البلدان والحضارات والتّغلب على العامل الجغرافي من العالم قرية واحدة غير أنها في باطنها عامل صراع ودعوة إلى سيطرة القوي على الضعيف، والغني على الفقير وسبيلا لهيمنة قوى علمية كبرى محدودة[1]

فإن نجاحنا في اللّحاق بركب الحضارة المعاصرة رهن بنجاحنا في أن نؤمن للغتنا شروط عضويتها في نادي اللغات العالمي الذي أخرجته إلى حيز الوجود النزعة المتنامية نحو العولمة التي نشهدها حاليا، ومن منظور هذه الدراسة تعني حركة العولمة اسقاط الحواجز اللغوية كشرط أساسي لدمج بلدان العالم وثقافتهم المختلفة في كيان لغوي واحد يتسم بالشفافية اللغوية[2]

ويؤكد د/هادي نهر أن اللغة العربية الآن في عصر العولمة تواجه تحديات كبيرة جدا تتمثل في تيار اللغة الأجنبية الجارف قائلا: تتمثل مظاهر العولمة اللغوية في العالم العربي في:

* التداول باللغة الأجنبية في الحياة اليومية، فالتحدي الذي يواجه اللغة العربية "في هذا العصر مرده إلى الشعور المبالغ فيه بأهمية اللغة الأجنبية الناتج غالبا عن الانبهار بكل ماهو أجنبي، والظن الزائف بأن التّقدم لا يتحقق إلا عن طريق اتقان الجميع للغة الاجنبية، بل والتحدث بها بين العرب أنفسهم، والغريب أن الولع باللفظ الأجنبي يؤدي بكثير من الناس إلى ترك اللفظ العربي المتيسر إلى اللفظ الغريب، وأصبح المواطن غريبا لغويا في كثير من المؤسسات، وممّا يجدر ذكره أن الاستعمال الرسمي هو الذي يكسب اللفظ العربي السيرورة، ويجعله راسخا في الاستعمال[3]

*والتراسل عبر الانترنت والهواتف الخلوية باللغة الأجنبية ساعد على انتشار لغات اجنبية في البلاد العربية على حساب اللغة العربية ومن غير ضوابط، بل ويتوقع البعض أن تحلّ لهجات انجليزية محل اللغة العربية بعد أن تحلّ اللهجات المصرية على وجه الخصوص محلّ اللغة العربية تمهيدا لإلغائها وانقراضها كما انقرضت اللغة اللاتينية في اوروبا، والأخطر من ذلك أن يتلقى الطرف الداعي لإشاعة لغة أجنبية على حساب اللغة العربية ترحيبا وحفاوة من أكثر من طرف عربي أو غير عربي

* اشتراط إتقان اللغة الاجنبية للتوظيف فعندما ننظر إلى وضع اللغة العربية في سوق العمل نجد أن المبالغة في أهمية اللغة الاجنبية واشتراط إجادتها كتابة وقراءة وتحدثا من قبل الشركات الأجنبية وغير الأجنبية أصبح ظاهرة تستحق الوقوف عندها وتأملها بل وتأمل انعكاساتها على مصلحة الوطن وملامح الهوية إذ من المتوقع أن تزداد مزاحمة اللغة الأجنبية للعربية شراسة في سوق العمل مع استفحال العولمة[4]

---

[1]- عبد الله عبد الدايم، التربية والقيم الانسانية في عهد العلم والثقافة والمال، مجلة المستقبل العربي، بيروت، 1998، العدد220،

[2]- محمد مقدادي، العولمة، دار الفارس للنشر، الاردن 2002، ص119

[3]- المرجع السابق، ص20

[4]- المرجع نفسه ، ص19

ويكفي أن نعرف أن اشتراط إجادة اللغة الاجنبية وقف حائلا أمام المواطن العربي دون الحصول على وظيفة، وحلوا الباب على مصراعيه لأعداد غفيرة من الأجانب

إذاً يبدو التّحدي سافرا للغة العربية في المجتمع بفعل العولمة، والشّبه الساذج بالأجنبي عندما تجاهر كثير من المحلات التجارية والمؤسسات الخاصة بكتابة لافتاتها بالأجنبية، وتسطر تقاريريها، وتصوغ عقودها وتصدر تعليماتها إلى العاملين فيها وإن كانوا عربا باللغة الاجنبية، الأمر الذي يمس الوضع السيادي للغة العربية بوصفها اللغة الرسمية، وفي هذه الحالة يرقى الفعل إلى درجة الاستهتار بهيبة الدولة[1]

وكان من آثار التّضخم الاعلامي لأهمية اللغة الأجنبية أن ارتفعت الاصوات تنادي بتعلم اللغة الاجنبية للاطفال.

* أما على المستوى الرسمي فقد كفلت كثير من التشريعات الحكومية في البلاد العربية موقعا متفوقا للغة الانجليزية أو الفرنسية من حيث عدّها اللغة الاجنبية الأولى في النظم التّعليمية.[2] بالإضافة إلى ظهور الرافضين للتّعريب والذين لا يخرجون عن ثلاث فئات: فئة حسنة النية تحب اللغة العربية ولكنها تتردد، وتشيرالى قضية المصطلح، وفئة تجهل اللغة العربية جهلا يكاد يكون تاما، وفئة مستغربة مسلبة، الحقت باللغة العربية العديد من الشبهات منها: أن اللغة العربية لغة بداوة، وأن اللغة العربية لا عهد لها بالمخترعات والمكتشفات الحديثة بالاضافة الى عدم دقة المصطلحات، وعدم جدواها، واظهار اللغة العربية في موقف العاجز عن مسايرة التطور العلمي والحضاري

ويضيف د/ "هادي نهر" مجموعة من الأثار نلخصها فيما يأتي

التأثير على أفكار الأجيال العربية لا سيما الشباب في الجامعات تأثيرا يسقه إيمانهم بلغتهم، ويبعدهم عنها تمهيدا للعبث بأفكارهم، وتحميل لغتهم كلّ تبعات الواقع المتردي الذي تعيشه أمتهم في عالم التقنيات والابتكارات، واقناع الأجيال العربية أنّ في اللغة العربية الكثير من التّعقيد، وفي استعمالها تخلفا، وأن في استعمال غيرها من اللغات تحضرا وتقدما، والتسليم بأنّ اللغة العربية لا يمكن لها ان تواكب مسيرة العصر المتسارعة علوما وتقنيات هذا على المستوى الداخلي، أما على الصعيد الخارجي فإن هناك حركة جموح لاقصاء اللغة العربية في أكثر من مكان، ومنها الغاء اللغة العربية لغة عالمية في المنظمة الدولية، عدم استعمال المندوبين العرب للغتهم، عدم وجود مترجمين عرب أكفاء من العربية إلى لغات أخرى أو العكس، عدم وفاء أكثر الدول العربية بالتزاماتها المتعلقة بدفع نفقات استعمال اللغة العربية في المحفل العالمي، وإلغاء أكثر الجامعات الأمريكية تدريس اللغة العربية مستعيضة عنها باللهجات العربية من أجل توسيع دوائر الفرقة بين أبناء اللغة الواحدة، وكان في امتحان البكالوريا الفرنسية يسمح للطالب باختيار لغة ثانية كالانجليزية والالمانية أو العربية وفي عام 1995 ألغيت اللغة العربية من بين اللغات التي يسمح باختيارها للامتحان لغة عالمية ثانية، وان ضغوط الدول الكبرى على اليونسكو جعلها تعلن مؤخرا أن الحقوق اللغوية تنحصر في ثلاثة أمور هي: الحق في لغة الأم وليس (اللغة الأم)، والحق في لغة التواصل في المجتمع أيا كانت لهجة أو عامية أو رطانة ما دفعه الى القول: نعتقد انه بعد جيلين

---

[1]- ينظرهادي نهر، اللغة العربية وتحديات العولمة، المرجع السابق، ص263 بتصرف

[2]- ينظر المرجع نفسه، ص24.22

أو ثلاثة أجيال في الأكثر ستنشأ طبقات اجتماعية عربية، ليست لها صلة أو انتماء للغة العربية، وليست للغة العربية صلة أو انتماء إليها[1]

فالعولمة تعمل على تغريب الثقافات الوطنية من خلال آليات أصبحت أكثر قوة مثل وسائل الاعلام والتقنيات الحديثة"وتوظف العلم للاختراق الثقافي، والهيمنة على الثقافات التقليدية بهدف طمس هوية الشعوب[2] فتتراجع العملية الثقافية والاجتماعية في المجتمعات التقليدية والنامية، ويعد تعميم ثقافة الاستهلاك واحدا من آليات الهيمنة المفروضة

والخطر الاكبر في عملية العولمة انّها تفرض من الخارج، فهي ليست نتاجا لتفاعلات بين الحضارات

والحقيقة ان الامر بعد هذا ليس في تجاهل هذا الفريق للعولمة أو الدعوة لمقاومتها، أو التكيّف معها عند فريق آخر وانما الأمر يكمن في الوعي بالعولمة، ومن ثم اعداد العدة لمواجهة السالب منها فماذا أعددنا لمواجهة العولمة اللغوية الثقافية، ونحن نجد لغتنا تواجه عدوانا خارجيا وداخليا؟

ومن الحلول المقترحة نذكر:

. رفض السيطرة الثقافية والكشف عن آليات التبعية وتشديد الصراع ضدها

و"لابد من وجود سمات للطالب العربي في ظل العولمة تجعله قادرا على مواجهة هذا التحدي بثبات، وبمحافظة على الهوية الثقافية ومن أهم هذه السمات

. الاعداد الوطني والقومي وتقوية اعتزازه بوطنه وقوميته

. اعداد الطالب العربي لدخول العولمة ولمواجهاتها وتحدياتها[3]

و توجيه المزيد من الجهود لانشاء مزيد من الصفحات المرجعية ذات الطابع العربي في فضاء الانترنت، "فقد أثبتت اللغة العربية جدارتها على مر العصور وحقها في أن تصبح لغة عالمية، وشهد تاريخ الفتح الاسلامي على سرعة انتشارها واندماجها في بيئات متباينة، لقد نجحت اللغة العربية في عصور الازدهارفي أن تكون آداة فعالة لنقل المعرفة"[4]

ـ العمل على نشر العرب للغتهم خارج حدودهم، وتطوير الوسائل العلمية الصالحة لتعليم هذه اللغة لغير الناطقين بها، وتكثيف الجهود لتحقيق وحدة ثقافية بين أقطارهم وهذه الوحدة لا تكون إلاّ بأداة العروبة الأولى . اللغة العربية . ألم يرفع "هوشي منه"شعارا يقول: لا انتصار لنا على العدو إلا بالعودة إلى لغتنا وثقافتنا القومية[5]

ـ دعوة مجامع اللغة العربية في الدول العربية كافة ومراكز البحوث والهيئات الجامعية والتعليمية العربية إلى الاستفادة من الامكانات التي يتيحها الانترنت لبث حصيلتهاالمعرفية، وتقديمها للعرب

. استحداث محرك بحث باللغة العربية يضاهي محركات البحث الأجنبية"ياهو وجوجل"

---

[1]- ينظر المرجع السابق ص267

[2]- أحمد مجدي حجازي، الثقافة العربية في زمن العولمة، دار قباء للطباعة والنشر،2001، ص32

[3]- وليد ابراهيم الحاج،اللغة العربية ووسائل الاتصال الحديثة، المرجع السابق، ص85

[4]- هادي نهر، اللغة العربية وتحديات العولمة، المرجع السابق،ص 106

[5]—ينظر ربابعة ن/ د غازي، سياسة البحث العلمي والتعليم العالي في اسرائيل، ص812، نقلا عن هادي نهر، اللغة العربية وتحديات العولمة، المرجع السابق، ص36

ـ تعميم الفصحى في كلّ مراحل التعليم، والعمل على تفصيح العامية، واتباع سياسة اعلامية في الوطن العربي تلتزم بمقتضاها وسائل الاعلام بالانتصارللغة العربية في أنشطتها كافة؛لأن في عالم البحث عن الهوية وتأصيلها تستند اليوم كلّ الشعوب الحية إلى اللغة للدفاع عن انتسابها الحضاري، وماضيها، ومصالحها وبناء مستقبلها

ـ إن الواقع المعيش في عصر صراع الحضارات أو حوار الحضارات، وفي ظل موجات العولمة وما اشتملت عليه من تكريس للاستكبار، ورفض الآخر والتعريض بالحضارات ومحاولة إزالتها يتحتم علينا نحن العرب أن نعود للغتنا؛ لأنّنا نتعامل مع اللغة العربية بعيدا عن كوننا أمة كان لها في لغتها وجه من أبرز وجوه حضارتها، مع غياب الوعي بأهمية اللغة الأم

ـ وأن نفكر بمستقبلنا في عالم لامكان للضعفاء فيه، فإنّ أي تراجع للغة العربية يعطي الدليل الكافي على ضعف وفائنا نحن العرب لهذه اللغة، وهو مؤشر واضح لقبولنا وتسليمنا للغزو الثقافي والمعرفي والعلمي واللغوي على حساب لغتنا

ـ أما فيما يخص وسائل الاعلام لابد من اعتماد اللغة العربية السليمة في برامج الأطفال، وتوجيه برامج إذاعية وتلفازية تعمل على تفعيل الحوار مع الاطفال العرب خارج الاقطار العربية وداخلها، والعمل على نشر اللغة العربية بين أبنائها وفي اوساط الأقليات والجاليات الناطقة بغير العربية، وتدخل القرار السياسي في تدبير الامن اللغوي، وصياغة القوانين الملزمة لاشاعة العربية السليمة، لغة للتعليم في كلّ مراحل الدراسة، وحمايتها وتعيين وظائفها بمقتضى محيط الاستعمال (لغة رسمية، لغة وطنية، أو لغة الانفتاح أولغة العمل.

. اهتمام الدولة بتكوين إطارات باللغة العربية

والاستفادة من تجارب الشعوب غير العربية في مواقفها من لغتها وكيف تمّ لبعض الأمم الانتصار للغاتها، وما أكثر القوانين التي سنتها الدولة الالمانية لتحصين لغتها واعتمادها لغة العلم والادب، ولنا في تجربة اليابان قدوة حيث ادركت منذ بداية النهضة العلمية والاقتصادية في بلدها أنّه لايمكن لأمة أن تبدع علما وتسجل نجاحا الا بلغتها الام ، وأن العالم لا يستمع إلى أمة لا تتحدث بلغتها، والتجربة الكورية مثال حي لاعتزاز الشعوب بلغاتها فالتعليم كلّه باللغة الكورية علما بأنّ اللغة الكورية كانت ممنوعة زمنا طويلا وقد حلت محلها اليابانية في اثناء الاحتلال الياباني،" أما الاسرائيليون فقد جعلوا من العبرية التي كانت لغةً تواصل محدود دائرته بعض اليهود حتى القرن التاسع عشر جعلوها لغة العلم والبحث وفي أكثر من سبعين مؤسسة علمية منها أربع جامعات علمية وستة عشر معهدا علميا، واثنتي عشر مختبرا، واربعة مفاعلات ذرية[1]

[1]ـ أحمد بن نعمان وآخرون، اللغة العربية أسئلة التطور الذاتي والمستقبل، سلسلة المستقبل العربي،"46"مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت2005، ص7

الخاتمة:

إن التّفكير في اللغة العربية لا ينصرف حصرا إلى بيان اتّصالها ببناء هوية الامة وشخصيتها الثقافية والحضارية، وإنّما ينصرف إلى بيان صلتها ببناء مشروع نهضوي في المستقبل[1] وإن المستقبل العربي مرتبط بإرادة تغيير، والتغيير يبدأ من طريقة النظر في الأمور[2] وأن حاضر اللغة العربية يفرض قراءة وضع هذه اللغة وسبره وتقييمه من أجل الانطلاق إلى الأمام[3]

ونؤكد أنّ للغة العربية مكتسبات مهمة لا تزال قائمة وفاعلة في عصر العولمة منها: مكتسبات دينية فاللغة العربية لغة القرآن "إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنا له لحافظون" الحجر 09

مكتسبات سياسية فهي لغة رسمية لـ 22دولة عربية، وإنّها لغة رسمية في جامعة الدول العربية، ومنظمة اليونسكو، والمؤتمر الاسلامي، والأمم المتحدة، وأن العربية إحدى أكثر اللغات انتشارا اليوم خارج وطنها، وهي خامس لغة من حيث عدد المتكلين بها بعد الصينية، والهندية والانجليزية والاسبانية، مكتسبات اعلامية اذ تبث بها أكثر من خمس مائة محطة فضائية عربية وأجنبية، وهناك اهتمام أجنبي كبير باللغة العربية ففي تقريرلمجلة science أشار إلى أنّ العربية ستحتل المركز الثالث عام 2050 بعد الصينية والهندية، وأن هناك مشروع (الايسيسكو) الداعي الى كتابة اللغات الافريقية بالحرف العربي، ووضع معجمات عربية لهذه اللغات[4]

ـ فالعولمة تطرح أعباء وتحديات أمام اللغة العربية كما تطرحها على غيرها من اللغات بما يستوجب على كلّ أمة من الامم تأهيل نفسها ضد هذا التحدي بغية بناء مستقبلها العلمي والمعرفي، فاللغة ليس لها ما تفعله للدفاع عن نفسها فهي رهينة أهلها

إذاً فخير وسيلة لمواجهة العولمة هي الحضور لا الغياب، فغيابنا عنها هو أسوأ شكل ممكن لحضورها فينا.[5]

قائمة المراجع:

. ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحق/ مصطفى الشويمي، بيروت،1963

. ابن عبد الله، التعريب ومستقبل اللغة العربية، معهد البحوث والدراسات، القاهرة، 1975

ـ أحمد بن نعمان وآخرون، اللغة العربية أسئلة التطور الذاتي والمستقبل، سلسلة المستقبل العربي،"46"مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت2005

---

[1]- محمد عابد الجابري، الموضوع النهضوي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2005، ص167

[2]- محمد غنايم، اللغة العربية وبناء المستقبل العربي، المستقبل العربي347، بيروت2008، ص46

[3]- اللغة العربية في عصر العولمة، المرجع السابق، ص16

[4]- ينظرهادي نهر، اللغة العربية وتحديات العولمة، المرجع السابق، ص27

[5]- جورج طاربيشي، من النهضة إلى الردة تمزقات الثقافة العربية في عصر العولمة، دار الساقي، لبنان 2002، ص88

. أحمد محمد الضبيب ، اللغة العربية في عصر العولمة، مكتبة العبيكان، ط1،2001

. أحمد مجدي حجازي، الثقافة العربية في زمن العولمة، دار قباء للطباعة والنشر،2001،

ـ بدوي عاطف، العولمة وتوجيهات الهوية الثقافية في محتوى مناهج التاريخ بالمرحلة الثانوية العامة في جمهورية مصر"بحث" مجلة القراءة والمعرفة، العدد4، 2001

ـ جان زيجلر، العولمة وتهميش الثقافة الوطنية، رؤية نقدية من العالم الثالث، عالم الفكر، الكويت، مج الثامن والعشرون، العدد2، 1999

. جورج طاربيشي، من النهضة إلى الردة تمزقات الثقافة العربية في عصر العولمة، دار الساقي، لبنان 2002،

. حسين علوان حسين، العولمة والثقافة العربية، العولمة والهوية، المؤتمر العلمي، عمان، 1999.

. حنا سامي عياد وزميلاه، معجم اللسانيات الحديثة، مكتبة لبنان

ـ خلدون طبازة وجهاد عبد الله، ورقة عمل بعنوان اللغة العربية في عصر الانترنت، مقدمة لمجمع اللغة العربية الأردني، الرابع عشر ، 1996

. ديفيد كريستال، اللغة والانترنت، ترج/ أحمد شفيق الخطيب، المجلس الأعلى للثقافة، 2005

ـ طيحة سعيد عبد الفتاح، العولمة وثقافتنا العربية"بحث"ندوة العولمة والخصوصية الثقافية، جامعة السلطان قابوس، مسقط،1999

. عبد الستار الراوي، في مفهوم العولمة، مجلة المستقبل العربي، 1998، عدد228، مجلد2

ـ عبد الله عبد الدايم، التربية والقيم الانسانية في عهد العلم والثقافة والمال، مجلة المستقبل العربي، بيروت، 1998، العدد220

. عبد الكريم خليفة، اللغة العربية أساس لنهضة أمتنا ووحدتها، عن مجلة المجمع الأردني،1984

ـ محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، العولمة، صراع الحضارات، العودة إلى الاخلاق والتسامح، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت1998

ـ محمد عابد الجابري، الموضوع النهضوي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2005 ـ محمد مقدادي، العولمة، دار الفارس للنشر، الاردن 2002

. محمد غنايم، اللغة العربية وبناء المستقبل العربي، المستقبل العربي347، بيروت، 2008

ـ نبيل علي، ورقة عمل بعنوان اللغة العربية والعولمة، مقدمة لمجمع اللغة العربية الأردني في موسمه الثقافي 19،2001

. هادي نهر، اللغة العربية وتحديات العولمة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، اربد، 2009

. وليد ابراهيم الحاج، اللغة العربية ووسائل الاتصال الحديثة، دار البداية، الاردن، ط1،2007

جهود ابن هشام (ت761) في تفسير القرآن من خلال كتابه مغني اللبيب

الأستاذ : مالك بوعمرة سونة
أستاذ في كلية الآدب و اللّغات
جامعة البليدة 2 – علي لونيسي

مدخل :

قد لا يتصور الباحث أنه سيعثر على كثير مما له ارتباط بالتفسير في مثل هذا كتاب "مغني اللبيب" المتعلق بعلم النحو تعلقا ظاهرا، لكن الأمر على العكس من ذلك تماما، وقد وجدت لابن هشام (ت761) في آخر كتاب الحذف تنبيها مهما يبين فيه أنه وضع الكتاب لأهل التفسير والعربية جميعا، مقدما لأهل التفسير على أهل العربية في الذكر، قال فيه:

"الحذف الذي يلزم النحوي النظر فيه، هو ما اقتضته الصناعة، وذلك بأن يجد خبرا بدون مبتدأ أو بالعكس، أو شرطا بدون جزاء أو بالعكس، أو معطوفا بدون معطوف عليه، أو معمولا بدون عامل؛ نحو« **لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**» **العنكبوت(61)** ونحو« **قَالُوا خَيْرًا** »**النحل(30)**، وأما قولهم في نحو« **سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ**» **النحل(81)**: إن التقدير: والبرد، ونحو« **وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**» **الشعراء (22)**: إن التقدير: لم تعبدني؛ ففضول في فن النحو، وإنما ذلك للمفسر ... ولم أذكر بعض ذلك في كتابي جريا على عادتهم وأُنْشِدُ متمثلا:

وما أنا إلا من غزية : إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد

بل لأني وضعت الكتاب؛ لإفادة **متعاطي التفسير، والعربية جميعا** [1].

ومن أجل ذلك لم يكن غريبا أن يعتمد على عدد معتبر من الشواهد القرآنية، بل ويقدمها على غيرها من الشواهد، لأنها كلام فصل، لا مجال للشك فيها، وقد سلك في ذلك ثلاثة اتجاهات كالآتي:

أولا: آيات استشهد بها على تثبيت قاعدة متفق عليها.

ثانيا: آيات اتخذ منها أدلة على قاعدة ارتآها، وأراد أن يدعمها بدليل قرآني.

ثالثا: آيات أوضح ما دار حولها من نقاش وجدل.

ولم يكتف بذلك في التعامل مع الآيات المتواترة فحسب، بل حاول دائما- إزاء القراءات التي في ظاهرها خروج عن القواعد العربية-؛ توجيهها وتخريجها على وجه ترتضيه اللغة، ويقبله النحو، ولا يتجرأ عليها، فيصفها بالشذوذ، كما كان يفعل بعض النحاة[2]، ومن هذا المنطلق يمكن إبراز التساؤلات الآتية:

---

[1] مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين بن هشام الأنصاري، تح: بركات يوسف هبود، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط1 ،1999، 330/2.

[2] مقدمة تحقيق مغني اللبيب، بركات هبود: 22/1. بل لقد ذكر ابن هشام في باب الجهات التي يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها عن الشلوبين أنه حُكِيَ له أن نحويا من كبار طلبة الجزولي سئل عن إعراب كلالة من قوله تعالى« **وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ**» **النساء(12)**، فقال: أخبروني ما الكلالة؟ فقالوا له: الورثة إن لم يكن فيهم أب فما علا، ولا ابن فما سفل، فقال: فهي إذن تمييز. فقد بين أن هذا النحوي لم يكن على اطلاع بتفسير معنى الكلالة، وأن ذلك كان متعينا عليه حتى يتمكن من إعرابها إعرابا صحيحا، ولقد علق عليه بقوله" **وقد أصاب هذا النحوي في سؤاله**،- أي عن الكلالة لما كان معرفة المعنى أولى من مراعاة ما يقتضيه ظاهر الصناعة- **وأخطأ في جوابه**". المرجع السابق، 181/2.

هل قدم ابن هشام في صدد الاستشهاد على القواعد النحوية والإعرابية نظرات تفسيرية مهمة، أم اكتفى بالبحث النحوي الصرف؟ وهل كان يأخذ أقوال المفسرين مسلمة بلا نقاش أم كان يخضعها لميزان النقد والتمحيص؟ وهل يمكن لقارىء كتاب في النحو أن يعثر على تفسير مميز لآية من كتاب الله؟

كل هذه الأسئلة وغيرها سيجيب عليها المقال من خلال النقاط الآتية:

النقطة الأولى : التفسير من جهة الخلاف والتوجيه والترجيح.

1= تفسير للمعنى دون ذكر للخلاف.

في حديثه عن معاني "لو" ذكر أنها تفيد الإباحة إلا إذا دخلت عليها "لا" الناهية فإنها تنهى عن فعل الجميع، ومثّل لذلك بقوله تعالى « **وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا** » **الإنسان** (**24**) وقال: إذ المعنى: لا تطع أحدهما، فأيهما فعله فهو أحدهما[1].

وفي حديثه عن حيث ومعانيها نقل أنها قد تقع مفعولا به كما قال الفارسي(ت377) وجعل من ذلك قوله تعالى« **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ**...» **الأنعام** (**124**) إذ المعنى: أنه تعالى، يعلم نفس المكان المستحق لوضع الرسالة فيه، لا شيئا في المكان[2].

وذكر معاني مختلفة لكلمة سواء في غير القرآن الكريم، وذكر أنها تأتي فيه بمعنى الوسط وبمعنى التام، فتُمَدُّ فيهما مع الفتح، نحو قوله تعالى« **فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ**» **الصافات** (**55**)[3].

وقال في قوله تعالى « **وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا** »**البقرة** (**235**) أي على سر، أي نكاح[4].

وفي معرض الكلام عن دخول اللام على قد في جواب القسم قال في قوله تعالى « **قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا**...» **يوسف** (**91**): لقد فضلك علينا بالصبر وسيرة المحسنين[5].

وفي حديثه عن "ما" الاسمية والحرفية ذكر أنها قد تأتي للمبالغة، وقال: والأمر بمنزلته في: «**خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ**...» **الأنبياء** (**37**)، أي جعل لكثرة عجلته كأنه خلق منها[6].

وقال في الكلام عن التغليب: ومثله « **جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ**» **الشورى**(**11**) إلى أن قال: ومعنى" يذرؤكم فيه " يبثكم ويكثركم في هذا التدبير، وهو أن جعل للناس وللأنعام أزواجا حتى حصل بينهم التوالد، فجعل هذا التدبير، كالمنبع والمعدن للبث والتكثير...[7].

2= ذكر الخلاف في المعاني بغير توجيه ولا ترجيح.

لم أجد هذا له كثيرا في الكتاب، ولعل سبب ذلك تعرضه للتفسير بمناسبة البحث في المسائل النحوية التي غالبا ما تتنازع فيها الآراء، ولذلك لا يتعرض لبيان معنى الآية دون أن يكون لها تعلق بمبحث نحوي ولو كان ضعيفا، وقد وجدت له في هذا السياق

---

[1] مغني اللبيب:121/1.

[2] مغني اللبيب:213/1، وذكرها بشيء من التوجيه والشرح في 184/2.

[3] مغني اللبيب:226/1، وكلا من المعنيين – الوسط والتام – صالح لأن يحمل عليه معنى كلمة سواء في الآية محل التمثيل.

[4] وبذلك فسرها ابن السكيت في إصلاح المنطق، تح:أحمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط4، 21/2، إلا أن الإمام ابن جرير الطبري فسرها بالزنا وقال "والعرب تسمي الجماع سرا لأن ذلك مما يكون بين الرجال والنساء في خفاء"، جامع البيان 278/4.

[5] مغني اللبيب، 273/1.

[6] مغني اللبيب: 429/1.

[7] مغني اللبيب: 375/2، وانظر أيضا: 267/1.

مواضع قليلة منها قوله تعالى على لسان نبي الله سليمان عليه السلام « **قَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي**» ص (**32**)، فقد ذكره في التمثيل لمجيء "عن" للاستعلاء، وقال بعده: أي قدمته عليه.

ثم ذكر فيها قولين آخرين:

الأول: أنها على بابها والمعنى منصرفا عن ذكر ربي.

الثاني: حكى الرماني(ت 384) عن أبي عبيدة(ت 210) أن أحببت من "أحب البعير إحبابا" إذا برك فلم يثر والمعنى: إني تثبطت عن ذكر ربي[1].

ونقل عن الكسائي(ت 189) أن أصل **ويك** من قول الشاعر:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس : ويك عنتر، أقدم[2]

هو ويلك، ثم عرج إلى قوله« **وَيْ كَأَنَّ اللَّهَ**» **القصص(82)** فقال: وأما« **وَيْ كَأَنَّ اللَّهَ**» فقال أبو الحسن: أعجب لأن الله، وقال الخليل(ت170) "**وي**" وحدها و"**كأن**" للتّحقيق[3].

ومن المواضع القليلة التي يذكر فيها الخلاف في معاني الآية بغير توجيه أو ترجيح ما مثل به في دوران الأمر بين كون المحذوف مبتدأ أو خبرا أيهما يقدم وهو قوله تعالى« **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** » **يوسف (18- 83)** قال: أي شأني صبر جميل، أو صبر جميل أمثل من غيره إلى أن قال-وهو الشاهد- ومثله « **قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ**» **النور(53)** وذكر له ثلاث معان :

1 . المطلوب منكم طاعة معلومة لا يرتاب فيها، لا إيمان باللسان لا يواطئه القلب.

2 . عُرِف أنَّ طاعتكم بالقول دون الفعل.

3 . طاعة معروفة أمثل بكم، من هذه الأيمان الكاذبة[4].

3= ذكر الخلاف في المعاني بغير توجيه و لكن بترجيح .

وهذا أيضا يقل منه أيضا للعلة السابقة، وكله مذكور في فصل عقده للتدريبات على "ما" ومن ذلك: قوله تعالى« **مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ**» **المسد (02)**، فإن "ما" الأولى تحتمل النفي أي لم يغن، وتحتمل الاستفهامية فتكون مفعولا مطلقا، والتقدير أيَّ إغناء أغنى عنه ماله إلى أن قال: وأما« **وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى**» **الليل(11)** و« **مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ**» **الحاقة(29)**، ف"ما " فيهما محتملة للاستفهامية وللنافية، ويرجحها- أي النافية- تَعَيُّنُهَا في « **فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ...**» **الأحقاف (26)**.

والأرجح في« **وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ**» **البقرة (102)**أنها موصولة عطف على السحر، وقيل نافية فالوقف على السحر.

والأرجح في« **لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ**» **يس (06)** أنها النافية بدليل« **وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ**» **سبأ (44)** وتحتمل الموصولة.

والأظهر في « **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ**» **الحجر (94)**، المصدرية، وقيل: موصولة.

---

[1] مغني اللبيب 237/1، وقد يمكن أن يقال إنه يختار القول الأول لأنه جاء به كدليل أولا، ولأنه ذكر الأقوال الأخرى بصيغة لا جزم فيها.

[2] البيت لعنترة بن شداد العبسي، وهو من معلقته، ديوان عنترة، مطبعة الآداب ، بيروت، ط 14، 1993، ص 55.

[3] مغني اللبيب، 512/1.

[4] مغني اللبيب: 288/2.

وأما قوله تعالى« **فَقَلِيلا مَا يُؤْمِنُونَ**»**البقرة** (**88**) فما محتملة لثلاثة أوجه:

1 .أنها زائدة لتقوية الكلام، وقيل بمعنى النفي وليس القلة[1]، أو أنها لإفادة التقليل، مثلها في " أكلت أكلاً ما " فيكون تقليل بعد تقليل.

2 .أنها نافية، وقليلا نعت لمصدر محذوف أو لظرف محذوف، والتقدير: إيمانا قليلا أو زمنا قليلا، ويرده أن "ما" النافية لها الصدر فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها، وهو في تقدير الظرف أسهل منه في تقدير المصدر لأنهم يتسعون في الأول ما لا يتسعون في الثاني.

3 .أنها مصدرية، والمعنى: لعنهم الله فأخروا قليلا إيمانهم، وقد أجازه ابن الحاجب ورجحه[2].

4= ذكر الخلاف في المعاني بتوجيه ولكن بغير ترجيح صريح [3].

في حديثه عن "لا" ومعانيها تعرض ل "لا" الزائدة لمجرد التوكيد و ل "لا" النافية، وذكر مجموعة شواهد اختلف فيها أزائدة هي أم نافية، وقال كما اختلف فيها في تلك الأبيات اختلف فيها في مواضع من التنزيل أحدها قوله تعالى:

« **لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**» **القيامة**(**01**)، فقد قيل هي نافية لمتقدمٍ وهو إنكارهم البعث، وصح ذلك لأن القرآن كله كالسورة الواحدة ولهذا يُذكر الكلام في سورة ويُجاب عنه في أخرى.

وقيل إنها نافية لفعل" أقسم "، والمعنى أنه شيء يستحق إعضاما فوق الإقسام كما في قوله تعالى« **فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ**» **الواقعة** (**75**).

وقيل بل هي زائدة تمهيدا وتوطئة لذكر الجواب والمعنى: لا أقسم بيوم القيامة لا يتركون سدى، ورُدَّ بقوله تعالى« **لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ** »**البلد** (**01**) فإن جوابه مثبت وهو قوله تعالى« **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ** » **البلد** (**4**).

وقيل إنها إنما زيدت لمجرد التوكيد وتقوية الكلام كقوله تعالى« **لِيَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ**» **الحديد** (**29**) ورُدَّ بأنها لا تزاد لذلك صدرا بل حشوا، لأن زيادة الشيء تفيد اطِّراحه، وكونه أول الكلام يفيد الاعتناء به[4]، ولهذا جوز هؤلاء كونها زائدة في نحو« **فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ**» **المعارج** (**40**)

و« **فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ**» **الواقعة**(**75**) لوقوعها بين الفاء و معطوفها بخلاف هذه[5].

وفي الباب نفسه تعرض إلى الخلاف في "ما" من قوله تعالى« **وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُومِنُونَ**» **الأنعام** (**109**)[6] وما وما ينبني عليه من خلاف في معاني الآية الكريمة فقال:

قال قوم ممن فتح الهمزة منهم الخليل(ت 170) والفارسي(ت 377): لا زائدة، وإلا لكان عذرا للكفار[7] ورده الزجاج(ت 310) بأنها نافية في قراءة الكسر فيجب ذلك في قراءة الفتح[1].

---

[1]قال ابن منظور: وفي الحديث: أنه كان يقل اللغو أي لا يلغو أصلاً؛ قال ابن الأثير: وهذا اللفظ يستعمل في نفي أصل الشيء كقوله تعالى: "**فقليلا ما يؤمنون**"، لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على، ابن منظور الإفريقى، دار صادر، بيروت، ط3، 2004.

[2] مغني اللبيب، 451/1.

[3] إذ ربما فُسِّرَ بعض صنيعه على أنه ترجيح ضمني، كما في ذكره الرد على القول بأن لا زائدة دون ذكر الرد على القول بأنها نافية في المثال الآتي« **لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**» **القيامة**(**01**).

[4]بغض النظر عن المذهب الصحيح في تفسير هذه الآية الكريمة فإن هذه القاعدة في معاني النحو سند قوي جدا في اطراح القول بأنها زائدة.

[5]مغني اللبيب: 368/1.

[6]ينظر أيضا كلامه عند قوله تعالى « **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**» **الأنعام**(**151**)، المغني:370/1.

[7]ولأنها لو كانت نافية لكان في الكلام تأنيب للمؤمنين، إذ يصير المعنى: ما يدريكم أنهم لا يؤمنون إذا رأو الآيات.

وقال النحاس(ت 338) بنفيها أيضا وأنَّ المعطوف محذوف والتقدير: **أو أنها إذا جاءت** ...

وممن قال بنفيها أيضا الخليل وقال إنها هنا بمعنى" لعل " ورجحه الزجاج وقال إنهم أجمعوا عليه، ورده الفارسي بسبب عدم استقامة الكلام بين "لعل" التي تفيد التوقع والحكم بعدم إيمانهم في قراءة الكسر[2].

وأيدوا قول الخليل بأن معنى يشعركم قريب من معنى يدريكم، وكثيرا ما تأتي" لعل" بعد فعل الدراية، مثل قوله تعالى « **وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى**» عبس(**3**).

وقيل بأن المعنى: أنتم- أي المؤمنون- معذورون، لأنكم لا تعلمون ما سبق لهم به القضاء من أنهم لا يؤمنون حينئذ.

وقيل تقدير الكلام: لأنها إذا جاءت لا يؤمنون، أي: لأنهم لا يؤمنون امتنعنا عن المجيء بها، ومثله قوله تعالى« **وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ» الإسراء (59).**

وعلى ضوء الخلاف في كون "لا" زائدة أو نافية تعددت المعاني أيضا في قوله تعالى: « **وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ » الأنبياء (95)** وأنتجت التفاسير الآتية:

على أنها زائدة:

1 . ممتنع على أهل قرية قدرنا إهلاكهم أنهم يرجعون عن الكفر إلى قيام الساعة.

على أنها نافية:

2 . ممتنع عليهم أنهم لا يرجعون إلى الآخرة.

3 . ممتنع عليهم قبول أعمالهم.

4 . والعمل الصالح حرام عليهم، وهذا على أن "حرام" خبر لمبتدأ محذوف[3].

وفي باب التدريبات على "ما" السابق الإشارة إليه قال:

وأما قوله تعالى« **مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ » الأنعام(06)** فما محتملة للموصوفة أي شيئا لم نمكنه لكم، وللمصدرية الظرفية، أي أن مدة تمكنهم أطول.

ووجه انتصابها في الاحتمال الأول على المصدر، وقيل على المفعول به على تضمين مكنا معنى أعطينا، و فيه تكلف[4].

وكأنه يختار القول الأول لأنه لم يعلق عليه بشيء.

5= ذكر الخلاف في المعاني بتوجيه و ترجيح .

في حديثه عن" لا " الناهية الجازمة، تعرض إلى الخلاف فيها من قوله تعالى « **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» الأنفال (25)** و قال إنه على قولين[5]:

---

(1) وهذا الرد لا يتجه، لأنه من المقرر في علوم القرآن أن القراءتين كالآيتين ولا تلازم بين معنى آية على قراءة ومعناها على قراءة أخرى، ينظر أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، تح: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي بيروت، 1985، 351/3.

(2) وقد سبق بيان ما في هذا التوجيه.

(3) مغني اللبيب: 372/1.

(4) مغني اللبيب: 451/1.

(5) مغني اللبيب: 365/1.

أحدهما: هي ناهية، والأصل لا تتعرضوا للفتنة فتصيبيكم، ثم عدل عن النهي عن التعرض إلى النهي عن الإصابة، لأنها مسببة عنه، والتوكيد بالنون واضح لاقترانه بحرف الطلب.

الثاني: هي نافية، ولها على هذا معنيان:

الجملة صفة لفتنة، والمعنى: اتقوا فتنة من صفاتها أنها لا تصيب الظالمين فقط، بل تصيب معهم غيرهم، فالتحذير للجميع، وقد ذكره الزمخشري(ت 538).

ومعنى آخر ذكره عن الزمخشري أيضا وهو أن الفعل جواب الأمر وحكم ابن هشام عليه بالفساد لأن المعنى يصبح حينئذ: فإنكم إن تتقوها لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة، لكن بالرجوع إلى الكشاف نجد أن الزمخشري يقول الآتي:"لا يخلو من أن يكون جواباً للأمر، أو نهياً بعد أمر، أو صفة لفتنة، فإذا كان جواباً، فالمعنى إن إصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم، وهذا كما يحكى أن علماء بني إسرائيل نُهوا عن المنكر تعذيراً فعمهم الله بالعذاب"[1]

النقطة الثانية = المناقشات والجدل و الردود

إذا كان الأمر في أكثر الأمثلة السابقة عبارة عن ذكر للأقوال دون عزوها لأصحابها في الغالب مع أن جل المعزو إليهم من علماء اللغة لا من علماء التفسير، وبتوجيهات وترجيحات لا ترقى في الأغلب الأعم إلى مستوى المناقشة والردود؛ فإن ثمة جملة من الآيات القرآنية أظهر فيها ابن هشام مواقفه بصراحة مستعينا بالدليل الذي يقوي به رأيه حينا ويوهن به رأي مخالفه حينا آخر، أو يختار قول إمام من الأئمة في توجيه من التوجيهات النحوية التي ينبني عليها أثر في المعاني أو ردا من ردوده ويتبناها في كثير من الأحيان، بل تعدى الأمر لذكر تفاسير أئمة بعينهم وتضعيف ما ذهبوا إليه إلى غاية التمثيل بهم في التنكيت والتندر **كما سيظهر في النقطة الثانية من هذا الفرع**، وبيان ذلك يكون كالآتي:

1 – ذكر الآيات مع ما فيها من المناقشات والجدل:

إذا كان ابن هشام لا يتجرأ على وصف بعض الآيات التي فقدت شرط التواتر بالشذوذ ويوجهها

بما هو سائغ في اللغة، مقبول عند محققي النحاة؛ فمن الطبيعي أن يكون في التعامل مع الآيات المتواترة أكثر حزما وحسما، ولذلك لما تعرض إلى الكلام عن أوجه "ما " الاسمية ذكر أن من أقسامها أن تكون نكرة مضمنة معنى الحرف، وهي نوعان استفهامية وشرطية وقال إنه يجب حذف ألف "ما" الاستفهامية إذا جُرَّت، وإبقاء الفتحة دليلا عليها، للفرق بين الاستفهام في نحو« **فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ» النمل(35)** و« **لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ» الصف(2)** والخبر في نحو«... **لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ»النور(14)** و« **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ» البقرة(4)**، وربما تبعت الفتحةُ الألفَ في الحذف، وهو مخصوص بالشعر، وكما لا تحذف الألف في الخبر، لا تثبت في الاستفهام إلا في النادر من القراءة أو الضروري من الشعر، ولا يجوز حمل القراءة المتواترة عليه لضعفه، ولذلك رد الكِسائي(ت189) قول المفسرين في قوله تعالى « **قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي» يس(26-27)** إنها استفهامية، وقال إنما هي مصدرية[2].

---

[1] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تح: عادل عبد الموجود، و علي معوض و آخرون، مكتبة العبيكان ، الرياض، ط1، 1998، 571/2، ففي هذا النقل عن الزمخشري نظر، والله أعلم.

[2] مغني اللبيب: 430/1- 431.

ثم حمل على الزمخشري-مع استحسانه لكثير من آرائه واستشهاده بكثير من أقواله[1]- مبينا أنه متناقض في كلامه فقال:

"والعجب من الزمخشري إذ جوز كونها استفهامية مع رده على من قال في« **بِمَا أَغْوَيْتَنِي» الحجر(39)**:

إن المعنى: بأي شيء أغويتني، بأن إثبات الألف قليل شاذ، وأجاز هو وغيره أن تكون بمعنى الذي، وهو بعيد، لأن الذي غفر له هو الذنوب، ويبعد إرادة الاطلاع عليها، وإن غفرت ".

كما رد على الرازي(ت 604) ومن معه قائلا :

وقال جماعة منهم الإمام فخر الدين في « **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ» آل عمران(159)**، إنها للاستفهام التعجبي، أي: فبأي رحمة، ويرده ثبوت الألف وعدم اتجاه خفض رحمة حينئذ[2].

_ وعند بحثه لمعان "من" ذكر أنها في قوله تعالى« **يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ» الكهف(31)**[3] لبيان الجنس وأنكر قوم أنها كذلك وقالوا إنها للتبعيض ووجهوها توجيها فيه تكلف ثم قال:

وفي كتاب المصاحف لابن الأنباري (ت328) أن بعض الزنادقة تمسك بقوله تعالى« **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا» الفتح(29)**، في الطعن على بعض الصحابة، والحق أن "من" فيها للتبيين لا للتبعيض، ومثله« **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ» آل عمران(172)**، وكلهم محسن ومتق، و« **وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» المائدة (73)** وكلهم كفار[4].

_ وعند حديثه عن معان "مهما" نقل تعليق الزمخشري وإنكاره الشديد على من ظن أنها في قوله تعالى «**وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا» الأعراف(132)** بمعنى متى وهو قوله" هذه الكلمة في عداد الكلمات التي يحرفها من لا يد له في العربية، فيضعها في غير موضعها، ويظنها بمعنى متى، ويقول: مهما جئتني أعطيتك. وهذا من وضعه، وليس من كلام واضع العربية، ثم يذهب فيفسر بها الآية فيلحد في آيات الله".

قال ابن هشام معقبا: والقول بذلك في الآية ممتنع، ولو صح ثبوته في غيرها، لتفسيرها بـ «**مِنْ آيَةٍ**»[5].

_ وعقد في فصل: "مزاعم حول الواو" مبحثا بين فيه أن الزمخشري قال إنها قد تخرج عن مطلق إفادة الجمع وتستعمل استعمال " أو" في إفادة الإباحة، وزعم أنه يقال" جالس الحسن وابن سيرين" أي أحدهما، وأنه لهذا قيل« **تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ» البقرة(196)** بعد ذكر ثلاثة وسبعة، لئلا يتوهم إرادة الإباحة[6]، ثم قال بعد ذلك" والمعروف من كلام النحويين أنه لو قيل " جالس الحسن وابن سيرين" كان أمرا بمجالسة كل منهما، وجعلوا ذلك فرقا بين العطف بالواو، والعطف بـ أو"[7].

---

[1]انظر على سبيل المثال لا الحصر: 138/2، 21/1، وقد قال ثمة" أما في مثل: "أما زيد فمنطلق" تفيد التوكيد، ثم قال: قلَّ من ذكره، ولم أر من أحكم شرحه غير الزمخشري". وقد رد عليه في مواطن كثيرة أيضا.

[2] مغني اللبيب: 431/1 ، وذكر في سبب عدم اتجاه ذلك تحريرات نحوية متعددة.

[3] محل الشاهد في غير الأولى فإنها للابتداء، وقيل زائدة. مغني اللبيب: 455/1 – 456.

[4] هذا المثال يظهر أن بعض القواعد النحوية التي قد تبدو قليلة النفع، قد يوصل سوء استعمالها إلى حد التحريف.

[5]مغني اللبيب: 469/1– 470.

[6]الكشاف: 405/1.

[7]مغني اللبيب: 498/1 – 499.

وقد أورد ابن هشام هذا المذهب- أعني نيابة الواو عن أو في إفادة الإباحة - في باب التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين، والصواب خلافها[1]، وكان رده فيه أشد إذ قال معلقا على من قال به في قوله تعالى« **فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ** »النساء (**03**) "ولا يعرف ذلك أهل اللغة، وإنما يقوله بعض ضعفاء المعربين والمفسرين"[2].

وفي الحديث عن "أنّ" المفتوحة المشددة قال إن الأصح أنها فرع عن إنّ المكسورة، ومن هنا صح للزمخشري أن "أنما" بالفتح تفيد الحصر مثل "إنما"، وقد اجتمعتا في قوله تعالى « **قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**»الأنبياء (**108**)، وذكر أن أبا حيان (ت745) قال إن الحصر لا يعرف إلا في إنما المكسورة وإنه شيء باطل انفرد به الزمخشري، ودليل بطلانه أنه في المثال المذكور يقتضي أنه لم يوح إليه غير التوحيد.

وأجاب ابن هشام على كلام أبي حيان بأن الحصر مقيد، إذ الخطاب مع المشركين، والمعنى: ما أوحي إلي في أمر الربوبية إلا التوحيد لا الإشراك، قال: وإلا ما يقول أبو حيان في نحو قوله تعالى « **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**» آل **عمران**(**144**)، فإن ما للنفي وإلا للحصر قطعا، وليست صفته صلى الله عليه وسلم منحصرة في الرسالة، ولكن لما استعظموا موته جُعِلوا كأنهم أثبتوا له البقاء الدائم، فجاء الحصر باعتبار ذلك[3].

2 - الردود على بعض المفسرين.

لم تَخْلُ عناية ابن هشام بتقرير القواعد النحوية وتوجيهها دون النظر بعين النقد إلى بعض التفاسير اللغوية لاسيما إذا كانت مخالفة للوجه التفسيري الذي اتخذه شاهدا مقويا لمذهبه النحوي، وفي أحايين قليلة حتى وإن لم تكن معارضة له فإنه يتعرض لها من باب الاستطراد للفائدة، وفيما يأتي نماذج لبعض مواقفه وردوده على بعض اللغويين و المفسرين:

_ في معرض ذكر ما ينبغي في شبه الجملة من متعلق رد على ابن عطية (ت542) زعمه أن "مستقرا" من قوله تعالى: «**فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ**» **النمل**(**40**) هو المتعلق الذي يقدر في أمثاله قد ظهر هنا، وقال إن الصواب مع من ذهب إلى أن معنى هذا الاستقرار لا يراد به الوجود والحصول فحسب، بل يقصد به استقرار من نوع خاص وهو الثبات وعدم التحرك[4].

_ وذكر في تقدير المتعلق أن الزمخشري قال في قوله تعالى« **أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ**» **الزمر**(**19**) إنهم جُعلوا في النار الآن، لتحقق الموعود به، قال: ولا يلزم ما ذكره، لأنه لا يمتنع تقدير المستقبل، ولكن ما ذكره أبلغ وأحسن[5].

وقد ذكر الدكتور عبد اللطيف محمد الخطيب في تحقيقه لمغني اللبيب، أنه لم يجد ما أورده ابن هشام عن الزمخشري في الكشاف ولا المفصل أيضا[6]. لكني وجدت الزمخشري يقول في الكشاف الآتي" **نزّل استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار، حتى نزّل اجتهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكده نفسه في دعائهم إلى الإيمان في منزلة إنقاذهم من النار**"[7] ، وحسب ما يفهم من هذا الكلام فإن ما ذكره ابن هشام عن الزمخشري في معنى هذه الآية ليس معدوما في تفسير

---

(1)مغني اللبيب: 335/2 - 336.

(2)وقد نقل توجيه ضعف ذلك عن أبي طاهر حمزة بن الحسين الأصفاني (360) في كتابه المسمى: " الرسالة المعربة عن شرف الإعراب " وهو توجيه جيد، والعجيب أنه نقل أيضا عن الزمخشري نفسه بيانا بديعا في بيان الفرق بين "الواو" و "أو" في هذا المثال، وهو يتعارض مع ما ذهب إليه في آية الصيام من سورة البقرة.

(3) مغني اللبيب: 90/2- 91.

(4)مغني اللبيب: 88/2، وقد رد على ابن عطية في موضع آخر ردا نحويا لا تنبني عليه فائدة في المعنى، وذلك في 152/2.

(5)مغني اللبيب: 91/2 .

(6)مغني اللبيب، تح: عبد اللطيف محمد الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآثار، الكويت ط1، 2000، ؟؟؟؟؟؟

(7)الكشاف: 298/5.

الكشاف فحسب، بل الموجود فيه ضده تماما إلا أن يكون الزمخشري قال هذا الكلام في غير الكشاف أو المفصل، فيبحث حينئذ عنه في مظانه، وينظر في أي وقت كان تأليفه له حتى يستأنس بأنه آخر ما استقر عليه قوله في الآية، إن كان له فيها رأيين متخالفين.

ـ وذكر في عطف الجملة الاسمية على الفعلية والعكس أقوالا ثلاثة، الجواز مطلقا والمنع مطلقا، والجواز في الواو خاصة، وقال إن القول الثاني أضعف الثلاثة وقد لهج به الرازي (ت 604) في تفسيره [1].

بل ذكر أن الرازي احتج عليه بعض الحنفية على ضعف قول الشافعي بحل أكل متروك التسمية بقوله تعالى« **وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ» الأنعام(121)** فقال الرازي بل هي دليل للشافعي لأنها ليست للعطف– على مذهبه لتخالفها بالاسمية والفعلية– ولا للاستئناف لأن أصل الواو أن تربط ما بعدها بما قبلها فتعين كونها للحال، والمعنى لا تأكلوا منه حالة كونه فسقا، والفسق فسره الله بقوله« **أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ» الأنعام (145)**، ومفهومه كلوا منه عند ترك التسمية لأنه لم يسم عليه غير الله، وقد وافقه ابن هشام على هذا المذهب لكنه خالفه في التوجيه فقال: ولو أبطل العطف لتخالف الجملتين بالإنشاء والخبر لكان صوابا.

ـ وفي الحديث عن حذف جملة جواب الشرط قال في قوله تعالى « **وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى» الرعد(31)** أي لما آمنوا به، بدليل« **وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ» الرعد(30)**، والنحويون يقدرون لكان هذا القرآن، وما قدرته أظهر[2].

وهو مناسب لما سيأتي من الكلام أيضا، فضلا عن أن التقدير الأول لا يفهم منه إلا مكانة القرآن وعظمته، وهي كذلك، لكن لا يبدو أنه المعنى المراد من بلاغة النظم القرآني المعجزة، إذ المراد الحديث عن كفر المشركين وعنادهم، وربما يسوغ أن يقدر التقديران معا فيصير المعنى: لكان هذا القرآن، ولما آمنوا به، والمعنى على ذلك أكثر وضوحا، لكن يبعده أن التقدير خروج عن الأصل، فيقتصر فيه على أقل ما يحقق الغرض.

ولم يمنع ابن هشام كون الطبري(ت310) إمام المفسرين وزعيمهم من أن يغلطه حيث قال في كلامه على حرف العطف "**ثم**": قال الطّبري في قوله تعالى: « **أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ» يونس(51)**، معناه أهنالك، وليست ثم التي تأتي للعطف، وهذا وهم، اشتبه عليه ثم المضمومة الثاء بالمفتوحتها[3].

ولم يتوقف به الأمر عند هذا الحد، بل عاود الحديث عنه في فصل" الأمور التي يحترز منها المعرب المبتدىء" ؟ وقد ذكر فيها مجموعة من الأخطاء على سبيل التنكيت والتندر.

منها على سبيل المثال قوله" قلت يوما: ترد الجملة الاسمية الحالية بغير واو في فصيح الكلام؛ خلافا للزمخشري؛ كقوله تعالى: «**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ» الزمر(60)**، فقال بعض من حضر: هذه الواو في أولها؟"[4]، ولو جاءت الجملة الحالية بالواو لكان قال "**ووجوههم مسودة**". وقد وقفت له على أمثلة أخرى– رد فيها على طائفة من اللغويين والمفسرين– غير التي ذكر ومن ذلك: رده على ابن عقيل في معنى قوله تعالى« **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا» البقرة (29)**[5]، ورده على

[1] مغني اللبيب: 133/2- 134.
[2] مغني اللبيب: 2/ 327.
[3] مغني اللبيب، 1/ 196.
[4] مغني اللبيب: 351/2.
[5] مغني اللبيب: 160/2.

على الزمخشري في معنى قوله تعالى« **وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**» الروم(23) [1]، ورده على بعضهم في معنى قوله تعالى « **بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلا مَا يُؤْمِنُونَ**» البقرة(88) [2]، و رده على الزمخشري أيضا في معنى قوله سبحانه: «**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ**» النساء(78) [3]، ورده على بعضهم في معنى قوله تعالى « **عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلا**» الإنسان(18) [4].

3= رد التفاسير المتبادرة إلى الذهن.

بالنظر في كتاب المغني وتتبع الآيات التي تعرض مصنفه لتفسيرها وجدته يفسر بعض التفاسير برد المعاني المتبادرة إلى الذهن أول وهلة، أو يفسرها بما ليس بمشهور عند أكثر المفسرين، وقد ذكر جلها في باب الرد على بعض المعربين، و أذكر منها الآتي:

_ قوله تعالى« **يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ**» البقرة(273)، المتبادر فيه تعلق "من" بـ "أغنياء" لمجاورته له، ويفسده أنهم متى ظنهم ظان قد استغنوا من تعففهم علم أنهم فقراء من المال، فلا يكون جاهلا بحالهم، وإنما هي متعلقة بيحسب، وهي للتعليل[5].

_ قوله تعالى « **فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إلا مَنِ اغْتَرَفَ غَرْفَةً بِيَدِهِ**» البقرة(249). المتبادر فيه تعلق الاستثناء بالجملة الثانية[6]، وذلك فاسد؛ لاقتضائه أن من اغترف غرفة بيده ليس منه، وليس كذلك، بل ذلك مباح لهم، وإنما هو مستثنى من الأولى[7]، ووهم من جوز عكسه، وسوغ الفصل بالجملة الثانية أنه إذا ذكر أن الشارب ليس منه؛ اقتضى مفهومه أن « **مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ**» البقرة (249) منه[8].

_ قوله تعالى« **فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ**» المائدة(06) .

المتبادر تعلق "إلى" بـ "اغسلوا"، وقد رده بعضهم بأن ما قبل الغاية لا بد أن يتكرر قبل الوصول إليها، تقول" ضربته إلى أن مات"، ويمتنع " قتلته إلى أن مات"، وغسل اليد لا يتكرر قبل الوصول إلى المرفق، لأن اليد شاملة لرؤوس الأنامل، والمناكب، وما بينهما، فالصواب تعلق إلى بأسقطوا محذوفا، ويستفاد من ذلك دخول المرافق في الغسل، لأن الإسقاط قام الإجماع على أنه ليس من الأنامل بل من المناكب، وقد انتهى إلى المرافق، والغالب أن ما بعد إلى يكون غير داخل بخلاف حتى، وإذا لم يدخل في الإسقاط بقي داخلا في المأمور بغسله[9].

_ قول بعضهم **في**" أحوى" من قوله تعالى« **فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى**» الأعلى(05)، إنه صفة لغثاء، وليس بصحيح إلا إذا فسر الحوى بالأسود من الجفاف واليبس، وأما إذا فسر بالأسود من شدة الخضرة لكثرة الري، كما فسر« **مُدْهَامَّتَانِ**» الرحمن(64)، فجعله صفة لغثاء كجعل "قيما" صفة لـ"عوجا" وإنما الواجب أن تكون حالا من المرعى، وأخر لتناسب الفواصل[10].

---

[1]مغني اللبيب: 198/2.

[2]مغني اللبيب: 198/2.

[3]مغني اللبيب: 199/2.

[4]مغني اللبيب: 211/2.

[5] مغني اللبيب: 186/2.

[6] وهي قوله « **وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي** ».

[7] وهي قوله « **فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي** ».

[8]مغني اللبيب: 186/2، وينظر البحر المحيط، 274/2.

[9] مغني اللبيب: 186/2 .

[10] مغني اللبيب: 188/2، وهو في هذه الفقرة القصيرة يتعرض لتفسير آية من القرآن وبيان وجه تفسيري مغفول عنه في آية أخرى والإشارة إلى تفسير خاطىء لآية ثالثة.

ـ وذكر أن بعضهم قال في "جناتٌ" بالرفع في قوله تعالى« **وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٌ**» **الأنعام(99)**، إنه عطف على قنوان، وهذا يقتضي أن جنات الأعناب تخرج من طلع النخل، وإنما هو مبتدأ بتقدير: وهناك جنات، أو ولهم جنات[1]. جنات[1].

ـ ورد على ابن السيد(ت 521) في قوله إن "من" في قوله تعالى« **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**» **آل عمران(97)**، فاعل بالمصدر، بقوله: ويرده أن المعنى يصير حينئذ ولله على الناس أن يحج المستطيع، فيلزم الإثم الجميع إذا ما تخلف مستطيع عن الحج ... والمشهور فيها أنها بدل بعض من الناس، أو شرطية ويكون التقدير من استطاع فليحج[2].

ورد على المبرد (ت 286) في قوله: إن اسم–الله تعالى– في قوله سبحانه–« **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**» **الأنبياء(22)**، بدل من – آلهة–، لأن المعنى يصير حينئذ: " لو كان فيهما آلهة مستثنى منهم الله لفسدتا"، وذلك يقتضي أنه لو كان فيهما آلهة فيهم الله لم تفسدا، وإنما المراد أن الفساد مترتب على تقدير التعدد مطلقا[3].

وقد ذكر في هذه الباب آيات كثيرة رادا تفاسيرها بالاعتماد على صحيح المعنى واللغة[4].

وأختم الكلام في هذا العنصر بشرط ذكره من شروط "أن" التفسيرية وهو أن يكون في الجملة التي تسبقها معنى القول، ومثَّل له بقوله تعالى « **وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا** » **ص (06)**، ثم وجَّه الاستدلال به توجيها يدل على أن فيه معنى متوهما يسبق إلى الذهن أول وهلة وهو غير مراد فقال: إذ ليس المراد بالانطلاق المشي، بل انطلاق ألسنتهم بهذا الكلام، كما أنه ليس المراد بالمشي المشي المتعارف عليه، بل الاستمرار على الشيء[5].

4 = رد معاني القراءات المختلفة

وذكر قراءات مختلفة في قوله تعالى« **وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ**» **يوسف(23)**، وذكر لكل قراءة معناها الموافق لها وذلك كالآتي[6]:

من قرأ بهاء مفتوحة، وياء ساكنة، وتاء مفتوحة أو مكسورة أو مضمومة فهو اسم فعل ماضي والمعنى: تهيأت لك، وقيل بل هو اسم فعل أمر بمعنى أقبل أو تعال فاللام للتبيين؛ أي إرادتي لك أو أقول لك.

---

[1] مغني اللبيب: 188/2.

[2] مغني اللبيب: 189/2.

[3] مغني اللبيب: 191/2.

[4] ومن ذلك قوله تعالى: « **وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي**» **مريم (5)**، 183/2.
وقوله سبحانه « **فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ**» **البقرة (260)**، 186/2.
وقوله عز وجل « **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا، قَيِّمًا**» **الكهف(1–2)**، 187/2.
وقوله « **فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً** » **الأحقاف (60)**، 190/2.
وقوله « **حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ**» **النساء (60)**، 2 /190.

[5] مغني اللبيب: 79/1، وقد ذكر الزمخشري أكثر من معنى في تفسير كلمة "انطلق" و كلمة "امشوا" ولكن ذكر المعنى الحقيقي كأصل، الكشاف 244/5، وظاهر كلام ابن عاشور أنه يميل إلى الحقيقة ووجهه مع ذلك توجيها جيدا يتماشى وتضمينه معنى القول كما يشترط في أن التفسيرية، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، التحرير والتنوير: 210/23، وليس الغرض بيان المراد من الكلمة بقدر ما هو بيان تعرض كتاب في النحو إلى الخلاف في معنى تفسير آية قرآنية.

[6] مغني اللبيب: 336/1.

وأما من قرأ «هِئْتَ»، بجعل التاء ضمير المخاطب فمعناه تيسر انفرادها به، لا أنه قصدها، بدليل "راودته" ثم قال: فلا وجه لإنكار الفارسي(ت377) هذه القراءة مع ثبوتها واتجاهها[1].

النقطة الثالثة = ذكر فائدة في الآية تلزم من المعنى ومن الاستعمال القرآني للغة.

القرآن الكريم كاتب واسع المعاني غزير الفوائد، يفسره المفسرون واللغويون منذ قرون عديدة ومع ذلك ترك الأول للآخر منهم شيئا كثيرا، لكن ذلك لا يتصور في نصوص تدل على معاني الآيات، لأن احتمال غياب نص من كتاب أو سنة أو أثر عن المتقدمين احتمال ضعيف جدا إن لم يكن معدوما– وإن كان التأمل في النص الواحد قد يقود إلى فوائد متنوعة والناس فيه متفاوتون–، إنما يتصور في أحد شيئين: إما لغة يقود التفنن في استعمالها والاستفادة منها إلى استخراج المعاني الخفية في الآية القرآنية، أو عقل سليم يعمله صاحبه لاسيما في العلاقة بين أكثر من آية قرآنية.

فمن كانت له الآلية اللغوية الجيدة وكانت له القدرة على استغلالها وتوظيفها، وأعمل عقله في التدبر العميق لمعاني الألفاظ القرآنية فإنه سيقف على كثير مما لم يسبق إليه، وقد ذكر ابن هشام مجموعة معاني تعتبر لازمة لمعنى الآية أو قواعد استعمالها اللغوي في القرآن، وبيان ذلك كالآتي:

1 : فوائد في الآية تلزم المعنى .

في حديثه عن "لو" وما تفيده من المعاني، ذكر أنه إذا امتنع جوابها مع وجود الشرط فامتناعه مع عدمه يكون من باب أولى، وخرَّج على ذلك فوائد في مجموعة من الآيات منها[2] :-

قوله تعالى: « **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ» لقمان(27)**، لأن العقل يجزم بأن الكلمات إذا لم تنفد مع كثرة هذه الأمور، فلأن لا تنفد مع قلتها وعدم بعضها أولى.

وقوله: « **وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ» فاطر(14)**، لأن عدم الاستجابة عند عدم السماع أولى.

وقوله: « **وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ» الأنفال(23)**، فإن التولي عند عدم الإسماع أولى.

وقوله: « **قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ» الإسراء(100)**، فإن الإمساك عند عدم ذلك أولى.

و قال في قوله تعالى: « **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ...» النساء(09)**[3] أي وليخش الذين إن شارفوا وقاربوا أن يتركوا ذرية ضعافا، لأن الخطاب للأوصياء وإنما يتوجه إليهم قبل الترك، لأنهم بعده أموات.

ومثله: «**لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» الشعراء(201)** أي حتى يشارفوا رؤيته ويقاربوها، لأن بعده «**فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ»الشعراء(202)**وإذا رأوه ثم جاءهم لم يكن مجيئه لهم بغتة وهم لا يشعرون.

و منه «**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ» البقرة (180)** أي إذا قارب حضوره.

وقوله تعالى: « **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ» البقرة(231)**، لأن بلوغ الأجل انقضاء العدة، وإنما الإمساك قبله.

---

[1] وقال في قوله تعالى« **وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا »البقرة(148)**، –بإضافة كل– إن المعنى أن الله مولٍّ كل ذي وجهة وجهته ، والضمير على هذا للتولية، مغني اللبيب: 331/1، وهذه القراءة لم أعثر عليها في النشر ولا في المحتسب.

[2] مغني اللبيب: 380/1.

[3] مغني اللبيب: 382/1– 383.

وفي كلامه عن أوجه "لما" وما تدخل عليه[1]، فرق بين منفيها ومنفي" لم" فقال إن منفي "لما" متوقع ثبوته، بخلاف منفي"لم"، ألا ترى أن معنى« **بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ**» ص(**08**)، أنهم لم يذوقوه إلى الآن وأن ذوقهم له متوقع، ولذلك قال الزمخشري في قوله تعالى« **وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**» **الحجرات** (**14**): "ما" في "لما" من معنى التوقع دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد.

وعند تعرضه لحذف الصفة مثّل بمجموعة آيات يؤدي تقدير الصفة المحذوفة فيها إلى معنى إضافي لا يوجد بدونها، وإن كان يفهم من خلالها، وهي أربعة آيات كالآتي[2]:

قوله تعالى« **يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**» **الكهف** (**79**) أي صالحة، لأن تعييبها لا يخرجها عن كونها سفينة، فلا فائدة في ذكره حينئذ[3].

وقوله تعالى أيضا عن ريح عاد « **تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا**»**الأحقاف**(**25**) أي سلطت عليه، بدليل قوله في آية أخرى« **مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ**»، **الذاريات**(**42**).

وقوله سبحانه: « **قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ**» **البقرة** (**71**) أي الواضح، وإلا كان مفهومه كفرا[4]

وقوله تعالى: « **وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا**» **الزخرف**(**48**) أي أختها السابقة[5].

2= معاني الآيات تبعا لاستعمال قواعد القرآن اللغوية في الكلام.

ختم صاحب المغني مصنفه بذكر أمور كلية يتخرج عليها ما لا ينحصر من الصور الجزئية وضمنها إحدى عشرة قاعدة و الذي يتعلق بالمقصود منها اثنتان:

الأولى: **الشيء يعطى حكم الشيء إذا جاوره**[6].

ومثل لها بأمثلة منها قوله تعالى« **وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**» **المائدة** (**06**) بكسر الأرجل، وذكر توجيها بديعا عن الزمخشري في سبب كسرها وهي مغسولة عطفا على الرؤوس وهي ممسوحة فقال: " قال الزمخشري: لما كانت الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة– مع الوجه واليد- تغسل بصب الماء عليها كانت مظنة الإسراف المذموم شرعا، فعطفت على الممسوح، لا لتمسح، ولكن لِيُنَبَّهَ على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها، وقيل" **إلى الكعبين**" فجيء بالغاية إماطة لظن من يظن أنها ممسوحة، لأن المسح لم تضرب له غاية في الشريعة".

الثانية: **أنهم يعبرون بالفعل على أمور**[7]

منها– فضلا على المشارفة التي ذكرها في باب لو وكرر أمثلتها هنا–:

---

(1) مغني اللبيب: 1/405– 406.

(2) مغني اللبيب: 2/299– 300.

(3) ولأنه لو كان الملك الظالم يأخذ السفينة الصالحة والمعيبة على حد سواء؛ ما كان في إعابة الخضر لتلك السفينة أي فائدة، ولكنه فعل ذلك لأن الملك لم يكن يأخذ المعيب من السفن.

(4) لأن مفهومه أن الذي جئت به من قبل ليس بحق بل هو باطل، والذي جاء به موسى من قبل ومن بعد هو الحق الصادق.

(5) دون أختها اللاحقة، لأنها إذا كانت أكبر من أختها السابقة واللاحقة، كانت اللاحقة أصغر منها وهذا يعارض معنى الآية.

(6) مغني اللبيب: 2/369.

(7) مغني اللبيب: 2/375.

1_ الإرادة، وأكثر ما يكون ذلك بعد أداة الشرط، وذكر لها أمثلة كثيرة[1]، ومنها ما يكون بغير شرط، ومن أمثلته قوله تعالى« **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ...» الأعراف(11)** قال: لأن "ثم" للترتيب، ولا يمكن-هنا- مع الحمل على الظاهر، فإذا حمل "خلقنا وصورنا" على إرادة الخلق والتصوير، لم يشكل.

2_ وفي كلامهم عكس هذا، وهو التعبير بإرادة الفعل عن إيجاده، نحو قوله سبحانه وتعالى« **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ...» النساء(150)** بدليل أنه قوبل بقوله سبحانه عز وجل« **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ نُؤتِيهِم أُجُورَهُم ...» النساء (152)**[2].

3_ و يطلقون الفعل على القدرة عليه، نحو« **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ» الأنبياء(104)**، أي قادرين على الإعادة.

---

[1] منها قوله تعالى « **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» النحل(98)**.
وقوله سبحانه « **إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا» المائدة(6)**، وقوله عز وجل « **إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» البقرة(47)**.
وقوله « **وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ» المائدة(42)**، وقوله « **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ» النحل(126)**.
وقوله « **إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ» المجادلة(9)**، وقوله « **إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً» المجادلة(12)**.
وقوله « **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ» الطلاق(1)**. ومن غير الشرط:
قوله تعالى « **فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» الذاريات(35- 36)**.
وقوله « **وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا» الأعراف(4)**.
وقوله « **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى» النجم(8)**.

[2] وبهذه القاعدة يندفع إشكال قد يثار في الآية وهو كيف يحاسبهم الله عن إرادتهم الفعل قبل إيقاعه، وليس من قبيل هذا المعنى قوله تعالى « **وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ» الحج(25)**، لأن إرادة الظلم في الحرم مؤاخذ عليها حتى قبل القيام بها، وقد قال السمين الحلبي "حكى الكسائي والفراء أنه قُرِىء « **يَرِدْ**» بفتح الياء. وقال الزمخشري: من الوُرُوْد ومعناه: مَنْ أتنفيه بإلحادٍ ظالماً"، وذكر أن العامة قرأته « **يُرِدْ**» بضم الياء من الإرادة، وأجاب على ذلك من أربعة أوجه أحسنها قوله " أن يُضَمَّنَ « **يُرِدْ** » معنى يتلبَّس، فلذلك تعدى بالباء أي : ومَنْ يتلَبَّسْ بإلحادٍ مُرِيْداً له". الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، 260/8.

الخلاصة:

لقد كان الهدف الأكبر الذي يرمي إليه هذا المقال هو التنبيه إلى أن أهل اللغة اعتمدوا اعتمادا كبيرا على آيات القرآن الكريم وهم بصدد تقرير مسائل العربية ومباحثها، الشيء الذي جعل كثيرا منهم يُضَمِّن تآليفه تفسير قدر كبير من الآيات القرآنية، وهو أمر إن تتبعه متتبع فسيحصل من وراءه على تفاسير لغوية مميزة لبعض آيات القرآن الكريم، بعضها قد لا يمكن العثور عليه في التفاسير المعروفة حتى التي جعلت اللغة ركيزة من ركائزها، وسأضرب على هذا مثالا مثيرا للانتباه.

قد لا يتصور متصور أنه سيعثر في كتب الجاحظ (ت 255) على ما يمكن أن يعد تفسيرا للقرآن الكريم، اللهم إلا ما كان من جهة البلاغة والأسلوب، لكن الجاحظ جاء في كتاب البيان والتبين- وهو كتاب لغة بامتياز- بمعنى تفسيري يعز وجود مثله في كتب التفاسير، فقد ذهب إلى أن موسى عليه السلام كان فصيح اللسان لما أرسل إلى فرعون مع أن كثيرين يرون العكس، وجاء على ذلك بدليل يصعب رده جدا فقال:

" ومن الدليل على أن الله عز و جلّ حلّ تلك العقدة وأطلق ذلك التعقيد والحبسة قوله« **قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي، وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**- إلى قوله - **قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى**» فلم تقع الاستجابة على شيء من دعائه دون شيء لعموم الخبر"[1].

وإذا ذهبنا نستقصي ذلك فسنجد الشيء الكثير، والمقصود بيان العلاقة الوثيقة بين علم تفسير القرآن الكريم وعلوم اللغة العربية الشريفة.

[1] البيان والتبين: 8./1

المراجع :

1- أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، تح: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي بيروت، 1985.
2-إصلاح المنطق، يعقوب بن إسحاق ابن السكيت، تح:أحمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط.4
3-البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، .2000
4- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الشهير بالجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2003.
5- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، .1984
6-جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1،2001 م.
7- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.
8-ديوان عنترة، مطبعة الآداب ، بيروت، ط 14، .1993
9-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تح: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض وآخرون، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1998.
10-لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على، ابن منظور الإفريقى، دار صادر، بيروت، ط3، 2004.
11-مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين بن هشام الأنصاري، تح: بركات يوسف هبود، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط 1 ،.1999
12-مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين بن هشام الأنصاري، تح: عبد اللطيف محمد الخطيب ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآثار، الكويت ط1، .2000
13- مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 2000.

الاتجاهات الأسلوبية في نقد الشعر العربي الحديث
صلاح فضل أنموذجا

الدكتور: محمد صالح الشنطي
جامعة جدارا – الأردن

سأحاول في هذه البحث أن أعرض لأهم الدراسات التي توسلت بالأسلوبية منهجا في الدرس النقدي للشعر العربي مبينا أهم المناهج التي توسلت بها بإيجاز يسمح بتقري المداخل الأسلوبية الرئيسة ، ثم أتناول منهج الدكتور صلاح فضل بوصفه واحدا من أهم النقاد الأسلوبيين العرب ، مقدما لدراسته باستعراض جهده النقدي ، ثم بيان المبادئ الأساسية التي تنهض عليها رؤيته النظرية، ثم محاولة التعرف على الأساليب الإجرائية التي طبقها في دراسته لعدد من الشعراء العرب ، وما تميز به عن النقاد الآخرين .

ثمة اتجاه واضح في نقد الشعر العربي الحديث يتوسل بالأسلوبية منهجا للدراسة،و يتفاوت اهتمام النقاد الأسلوبيين بالاتجاهات الجمالية للشعر الحديث ؛ فشكري عياد يولي جل اهتمامه للشعر الرومانسي ، فيختار ستة نماذج منه في كتابه "مدخل إلى علم الأسلوب" (1) ،وطه وادي يدرس نماذج من مختلف المدارس الشعرية في كتابه"جماليات القصيدة المعاصرة "(2)،وثمة نقاد آخرون اهتموا في دراساتهم بشاعر فحسب مثل محمد الهادي الطرابلسي في دراسته لخصائص الأسلوب في الشوقيات(3) ؛ أما عبد المطلب فيركز على شعراء أغلبهم من جيل السبعينيات والثمانينيات (4) ، وناصر علي في دراسته لدرويش(5) ؛ أما صلاح فضل فيهتم بدراسة مختلف اتجاهات القصيدة الحديثة ويختار قصائد لنزار قباني و للسياب ومحمود درويش وأدو نيس وسعدي يوسف وعفيفي مطر وغيرهم، ويدرس نماذج من قصيدة النثر(6) ، وهناك عدد كبير من هذه الدراسات يصعب تقصيها .

وقد عمل بعض النقاد على استحضار المرجعيات النفسية والاجتماعية كشكري عياد الذي مهد لدراسته التطبيقية بدراسة لنظرية الأسلوب متحدثا عن فكرة الأسلوب عند الأدباء ، وعن العلاقة بين علم الأسلوب وعلم اللغة والنقد الأدبي وتاريخ الأدب وعلم الأسلوب وعلم البلاغة وميادين الدراسة الأسلوبية ، ثم تحدث عن كيفية القراءة الأسلوبية ثم اختار لدراسته الأسلوبية جملة من القصائد لإبراهيم ناجي ولأبي القاسم الشابي ، ويقدم لدراسته الأسلوبية بالحديث عن أن خصوصية الشعور تأتي من خصوصية التعبير ، ويستشهد بما قاله شبتسر وريفاتير عن أن القراءة الحقة هي القراءة التي تحمل صاحبها على سحابة وراء الكلمات ، ويرى أنه يجب أن نتعامل مع حسنا اللغوي العادي لنكشف استعمالاته الخاصة للغة ، ومن ثم نعمل على تجميع شتى الاختيارات والانحرافات ، ويولي العنوان أهمية خاصة في دراسته لشعر إبراهيم ناجي والشابي ، ثم يتحدث عن البنية الإيقاعية ، ويتحدث عن معاني القصيدة الجزئية الظاهرة وعن تجليات معنى البحر، ثم يعرج على التحليل النفسي ، فالصفة التي تظهر في الصور تتصل بالفم مشيرا إلى المرحلة الفمية، ثم ينتقل من التحليل النفسي الذي استغرق جل جهده إلى التحليل الاجتماعي ، وذلك من خلال صياغة الجمل ، وفي دراسته للقصائد الأخرى يلمس ظواهر أسلوبية بعضها يتعلق بالحوار ثم بالسرد ، ويلحظ غلبة أسلوب الأمر، ثم يعمل على تحليل الصورة، ويتحدث عن الرموز في القصيدة ، وتبدو دراسات شكري عياد للقصائد التي اختارها أقرب إلى الدراسة الفنية منها إلى الدراسة الأسلوبية خصوصا في تركيزه على

الصورة ومعطياتها والرموز ومعانيها ، وتنزع الدراسة منزعا تكامليا في أحيان أخرى عبر الإشارات النفسية والاجتماعية، بينما اهتم فريق آخر بالبعد اللغوي في مختلف تجلياته النصية مثل ، محمد عبد المطلب الذي يعلن منذ البداية أنه ينتهج مسلك الرصد للظواهر الإفرادية والتركيبية بوصفها أدوات المبدع في إنتاج شعريته ، ويصرح بأن منطق قراءته للنصوص هو المتابعة المحايدة التي تتعامل بأدوات لا تتنافر مع طبيعته ، ويعني بها الأدوات البلاغية التي جددت نفسها كما يقول، والأشكال النحوية الجمالية التي تتجاوز الدور التقعيدي إلى الوظائف الدلالية، فهو يدرس ديوان (أشجار الإسمنت) في ضوء بنية تراثية هي الوقوف على الطلل ، ويدرس الأعمال الكاملة لفاروق جويدة عبر توظيفه لبنية التكرار ، ويدرس ديوان (رماد الأسئلة الخضراء) لمحمد إبراهيم أبوسنه في ضوء ظاهرة أسلوبية لا فتة هي (الألوان) و(بنية الضمائر) ، ويدرس محمد عفيفي مطر في ضوء القراءة الاسترجاعية ، ويمضي في دراسة بقية الشعراء الذين قارب أعمالهم من منظورات مختلفة ،مثل (النفي) ومن خلال الأركان الخمسة (الذات والموضوع والدلالة والاستدعاء والصياغة) ومن خلال السرد والحوار ...إلخ.

أما طه وادي فيمزج بين الدراسة الأسلوبية والدراسة على وفق المنهج الاجتماعي حينا، وعلى وفق الأسلوبية الخالصة تارة أخرى ، ففي دراسته ل (غريب على الخليج) يجعل مناط الجودة التفرد في أمرين : الأداء اللغوي للعبارة ،ثم إقامة العلاقات اللغوية في إطار الصورة، ولكنه في دراسته لقصيدة الخيول لأمل دنقل يعلن أن دراسته ستكون أسلوبية محضة ، ويستعرض في مقدمة دراسته النقاد الذين استثمروا الأسلوبية منهجا في دراساتهم ، فأومأ إلى كتاب أحمد الشايب عن (الأسلوب، وكتابي لطفي عبد البديع " الشعر و اللغة " و" التركيب اللغوي للأدب " وكتاب عبد السلام المسدي " الأسلوب والأسلوبية " وكتاب سعد مصلوح "الأسلوب" ...إلخ، وهناك من ركز على بعد أسلوبي واحد كالإيقاع أوالدلالة أو المعجم كخالد سليمان في كتابه الجذور والأنساغ وغيره..

وأما صلاح فضل فقد تميز عمن سبقه في تنوع اهتماماته النقدية نظريا وتطبيقيا ، فبدأ في التأصيل المعرفي للواقعية بشتى اتجاهاته ، وكان كتابه (منهج الواقعية في الإبداع الأدبي) عام 1978و(نظرية البنائية في النقد الأدبي) عام1978 و(علم الأسلوب) عام 1984 و(إنتاج الدلالة الأدبية) عام 1987 وشفرات النص (بحوث سيميولوجية) عام 1889 و(بلاغة الخطاب وعلم النص1993) و(أساليب السرد في الرواية العربية) 1993 و(مناهج النقد المعاصر)1996 و(نبرات الخطاب الشعري)1998 و(تحولات الشعرية العربية 2002) و(شعرية السرد)2002 ، وواضح من الاستعراض السابق أن الدراسات الأسلوبية النظرية والتطبيقية قد احتلت مساحة واسعة من إنتاجه، وقد آثرت أن أختار كتابه (أساليب الشعرية المعاصرة) الصادر عام 1995 الذي عني فيه بالأساليب الكلية، وعمل على التنميط الأسلوبي للشعر العربي الحديث ، فتحدث عن أسلوب الخطاب الحيوي ، وعن أسلوب الشعر الرؤيوي ، وعن أسلبة الدراما والأرابيسك الشعري، على أن أبسط رؤيته للأسلوبية من خلال كتاباته النظرية ممثلة في كتابه (علم الأسلوب – مبادئه وإجراءاته)(7) الذي يستعرض فيه صلاح فضل المبادئ والاتجاهات المبكرة للأسلوبية لدى أعلام المدرسة الفرنسية والمدرسة المثالية الألمانية، ثم لدى الأسلوبيين الألمان والإيطاليين ؛ فيعرض بإيجاز للتيار الأول في علم الأسلوب الذي ابتدعه(شارل بالي) طبقا لمقولات(دوس وسيور) حيث انطلق من أن البحث عن مكامن القوة التعبيرية في اللغة على جميع مستوياتها ، وتحليل علاقتها بالفكر وبالشخصية الجماعية ، وذلك بدراسة أهم العناصر التعبيرية ودورها في تشكيل النظام العام بعلاقاته الداخلية ومقارنته وعلاقته بالنظم الخارجية هو الأساس ، غير أنه أكد مبدءا مهما في الدراسات الأسلوبية خلاصته أن دراسة اللغة أسلوبيا يجب أن تنطلق من منظور خاص يتمثل في اختبار درجة القوة التعبيرية وارتباطها بالجانب العاطفي في اللغة ، من خلال الصوتيات والمعجم والنحو والدلالة وقضايا المجاز فأصّل ما عرف ب(علم

الأسلوب التعبيري الأدبي)(8) ، وخلص فضل إلى أننا بحاجة إلى إعادة النظر في جملة القيم التعبيرية للغة العربية مفيدين من التحليلات اللغوية والبلاغية القديمة .

ومن الواضح أن هذا المنطق التعبيري في الدراسة الأسلوبية كما طرحه بالي يحمل توجها مضادا للتاريخ ، إذ يرى "أن التاريخ لا وجود له بالنسبة للوعي اللغوي " (9) وأن الاعتبارات التاريخية مستحيلة إذا أريد دراسة العلاقات القائمة بين أشكال الفكر والعبارة عنها.(وكذلك فيما يتعلق بالبلاغة العربية التقليديه فهي لا تولى التاريخ أهمية بوصفها وصفية الطابع.

أما المدرسة المثالية الألمانية ، وخصوصا لدى (سبنسر) فترتكز على العمل الفني ذاته بوصفه وحدة كلية شاملة ، تقع في المركز منها روح مبدعها، مما يكفل لها تماسكها الداخلي التي تتسرب إلى أدق التفاصيل ، والطريق إلى النفاذ إلى لب العمل هو الحدس الخاضع للتحقيق بالملاحظات والاستنتاجات ، وينطلق سبنسر من الملمح اللغوي باعتباره انحرافا أسلوبيا فرديا ، مع إمكان الالتفات إلى إقامة جسر بين اللغة وتاريخ الأدب ، والتعاطف مع العمل ومع مبدعه ضرورة لالتقاطه من داخله ، ، ويرى أن أي معالجة للنص يجب أن تنطلق من جمالياته ، ويرى فضل أن سبنسر ورفاقه أعطوا دفعة قوية للدراسات الأسلوبية ، ولكن عقليتهم الحدسية ونزعتهم الإنسانية العريضة يصعب توفيقها مع الملاحظة الدقيقة المنظمة ، فلم يتمكنوا من عرض كامل منطقي لمشاكل علم الأسلوب ، غير أنه من الممكن العثور على حرارة نقدية مفتقدة في التحليلات البنيوية الباردة ، فثمة تقاطع بين العمل على كشف خواص العمل عبر اكتشاف مظهر مميز فيه ، ورصد انعكاس شخصية المؤلف على لغته عند المثاليين . وهو ما حاول بعض الباحثين الأسلوبيين العرب الإفادة منه وأيدهم فيه الكاتب.

ومن الواضح أن شبتسر يرى في البحث الأسلوبي مغامرة لاكتشاف الأسرار الكامنة وراء التركيبات اللغوية وصولا من المحسوس إلى المجرد ، ومن الجزئي إلى الكلي ، وأن إدراك الدلالة الخفية لاشتقاق كلمة لا يختلف عن إدراكنا لمعنى جملة أو قصيدة مما يقترب به من الحدس الصوفي(11)، فهذه النزعة المثالية التي تنطلق من ملاحظة لغوية تدفع إلى استقصاء مثيلاتها في النص وصولا إلى الجوهر أو الروح تتنافى مع منهج صلاح فضل الذي يربط الظواهر اللغوية بالخلفية الاجتماعية والتاريخية كما يتضح لنا عند مقاربة تحليلاته التطبيقية .

وعلم الأسلوب لدى الإيطاليين والأسبانيين ، مثل (ديفوتو) الإيطالي و(أمادو ألونسو) الأسباني يهدف إلى المعرفة الحميمة للعمل الأدبي ومبدعه عن طريق أسلوبه ، فكل خاصية في الأسلوب تقابلها خاصية نفسية ، وعلم الأسلوب عندهم يدرس النظم التعبيرية للعمل الأدبي ، أي ما يشمل بنية العقل والتصنيف النوعي للمادة المستخدمة في تكوينه، وإيحاء الكلمات الماثلة فيه ، ويعد الشكل الشعري مركبا من مجموعة من المركبات فهو يتضمن التمثيل الذهني لما فكرفيه الشاعر من ناحية ، ويحتوي على مركب من العناصر الصوتية التي تمثل علائق غير تقليدية بين الدال والشيء المدلول، من ناحية أخرى ، والمعرفة الشعرية عند هذه المدرسة كما يشرحها فضل تمر بثلاث مراحل : القراءة ، ثم النقد ، وكلتاهما – عند (داماسو ألونسو) – حدس غير علمي، أداته التذوق؛ أما المرحلة الثالثة فهي مهمة البحث الأسلوبي القائم على إمكانية المعرفة العلمية التي لابد أن يخالطها الحدس من وجهة نظر ألونسو(12) ، ومن الواضح أن صلاح فضل في هذا الجزء من الكتاب يهدف إلى التعريف بأعلام الأسلوبية ومناهجهم دون أن يقدم تقييما لآرائهم من وجهة نظره .

وفي مقاربته للإطار النظري لعلم الأسلوب يستعرض مختلف التعريفات المتعلقة بالأسلوب ، مشيرا إلى منحيين : الأول ينكر وجوده من حيث المبدأ ، والآخر يتحدث عن الخواص المرجعة في نسيجه الدال ، النسيج الصوتي والدلالي ملاحظا لمسألة مهمة، تتمثل في شرط التكرار والترجيع للوقائع الشاذة الفريدة لاعتداد الدراسات الأسلوبية بها كظواهر أسلوبية مميزة.

ويعرض فضل للاتجاهات البنيوية في تعريف الأسلوب كما هي عند بارت وريفاتير والاتجاه التوليدي ، ونجده في نهاية المطاف يجنح للأخذ بتعريف جيراو تلميذ بالي ممثلا في قوله : الأسلوب مظهر القول الذي ينجم عن اختيار وسائل التعبير التي تحددها طبيعة ومقاصد الشخص المتكلم أو الكاتب وطبيعته ومقاصده ، وإن كان يغفل المتلقي ودوره ، ويعمد – بعد ذلك – إلى تحديد علم الأسلوب وصلته بعلم اللغة وبعلم البلاغة ، ثم يتوقف عند مستويات البحث الأسلوبي وإجراءاته ، وهذا المبحث يشكل جوهر الموضوع، إذ يتوقف عند مقولات(بلومفيلد) زعيم المدرسة اللغوية الأمريكية حيث يقرر أن الدراسة الأسلوبية ينبغي أن تبدأ ببحث الصيغ لا ببحث الدلالات ،أي البدء بالشكل ممثلا في الجانب الصوتي ثم تدرس الدلالة الملازمة ، بعكس من يرى البدء بالدلالة للوصول إلى الصيغ والتعابير ، ويرى فضل أنه ينبغي أن نقف عند ضرورة أن يتوفر حد أدنى من القدرة على التذوق الشخصي لدى الدارس قبل أن يتذرع بالتكنيك العلمي في التحليل مستشهدا بما يقوله (كايسر) من أن البحث الأسلوبي ليس برهنة رياضية على مقولات مسبقة ، ويعقب فضل على مسألة التذوق الشخصي السابقة للتحليل بأن ذلك أدى إلى الخلط المنهجي المضلل ، لذا يرى ضرورة التوقف بحكمة أمام الاستخدامات اللغوية والتركيز على المجموع لالتقاط الرسالة ، غير أنه يرى أن صلابة الإجراءات وفرط استحكامها ربما يؤدي إلى تدمير روح المبادرة وفقدان القدرة الحدسية المرنة ، وهذا يذكر بما أشار إليه في مقدمة كتابه (أساليب الشعرية المعاصرة) حين شبه النص بالعصفور ، لكنه يشدد على ضرورة استحضار إجراء نموذجي ما ، مهما كانت التعديلات التي يحتاج الدارس لإدخالها خلال البحث ، وحينما يصل الحدس اللغوي الأدبي إلى درجة مما أسماه بالتماسك الصافي، يمكن التقاط بعض المفاتيح المؤشرة إلى بعض الملامح اللغوية ذات القيمة الجوهرية في تحديد أسلوب النص . ويشير إلى طائفة من النقاد الأسلوبيين الذين يعتدون بدلالة الأسلوب على الجانب النفسي للشخصية منهم (بوفون) و(سبتسر)، ويرى فضل أن الاتجاه النفسي في تحليل الأسلوب يجب أن يتم من خلال عملية التحليل اللغوي للصورة الأدبية ودلالتها النفسية والاجتماعية والتاريخية ، ولكن بحذر بالغ ومهارة تقنية ، ويضرب مثالا لذلك (ستيفن أولمان) الذي يستشهد بقول شوبنهور "الأسلوب سحنة العقل "، غير أن أولمان لا يعتد بقول من يقول إن الأسلوب كبصمات الأصابع ، لأن البصمات لا تتغير ، ولكن الأسلوب يتغير (13) ، وهو في ذلك لا يختلف كثيرا مع ما قاله شبتسر :" الذي يجب أن يطالب به الدارس أن يتقدم من السطح إلى مركز الحياة الباطني" (14)

ويعود للإشارة إلى أن المدرسة اللغوية التي تعنى بالتعرف على وسائل التعبير المختلفة وتحديدها وتصنيفها من جانب ، ثم إدراجها في أنماط مختلفة من جانب آخر . وينتهي فضل إلى أنه يفترض في علم الأسلوب الآن أن يشمل النص بكل ظواهره المميزة وعمليات الإنتاج والتلقي معا ، ويعتمد على مبادئ لغوية وأخرى غير لغوية ، ويشير إلى أهمية مبادئ علم الاتصال لانطلاق نظرية علم الأسلوب ، ولذلك فإن الأسلوب يتم تصوره على أنه نتيجة لاختيارات المؤلف من بين مجموعة إمكانات النظام اللغوي (15)

ويصنف الكاتب الانحرافات الأسلوبية طبقا لبعض الباحثين في خمسة نماذج أساسية من زاوية درجة انتشارها في النص ، ثم طبقا لعلاقتها بنظام القواعد اللغوية ، وقد تكون إيجابية أو سلبية ، كما أن ثمة انحرافا داخليا وآخر خارجيا ثم الانحرافات الخطية والصوتية والصرفية والمعجمية ، والنحوية والدلالية ، وهو ما عبر عنه في كتابه(أساليب الشعرية المعاصرة) بدرجة النحوية ودرجة الإيقاع ودرجة الكثافة والتشتت ودرجة التجريد ، ثم طبقا لمبدأي الاختيار والتركيب في الوحدات اللغوية (السياقية والاستبدالية)، غير أنه من غير

الممكن اعتبار أن جميع الظواهر اللغوية الخارجة على النظام اللغوي ذات أهمية أسلوبية وقيمة عالية ، وهو هنا يتفق مع (شبتسر)في انتقائيته ، وحديثه عن الجزئية اللغوية اللافتة التي تدفع بالباحث الأسلوبي إلى تتبع الظواهر المشابهة ، كما أنه يرى أنه لابد من الأخذ بعين الاعتبار الانحرافات التي يجريها المؤلف على التصورات النحوية والبلاغية السائدة في عصره ، وكلاهما يمكن تحديده اجتماعيا.

ويناقش الكاتب فكرة "التضاد البنيوي" لريفاتير وما يترتب عليها من إجراءات أسلوبية تعتمد على القارئ ، إذ يربط ريفاتير بين الإجراء الأسلوبي وعملية التلقي الذي يستخدم كمعيار لتحديد الوقائع الأسلوبية في القول الأدبي ، وتحويل ردود الفعل الذاتية كمعيار في التحليل ، ويتحدث عن السياق الأصغر وخصائصه الجوهرية ، والسياق الأكبر على أساس بنيوي ، ويرى فضل أن التمييز بين السياق الأصغر والسياق الأكبر، أو المباشر وغير المباشر يعطينا أساسا صالحا للتحليلات الأسلوبية، ولكنه يشدد على ضرورة اختيار أسلوب مؤلف معين عبر جميع مراحله أو مظهر من مظاهر أسلوبه وتتبع تطوره في المراحل المختلفة (16) ، وهذا ما ارتضاه في دراسته لأساليب الشعرية العربية المعاصرة، ويقرر أنه كلما وسعنا من رقعة البحث فقدنا بالضرورة العمق اللازم ، وابتعدنا عن الدقة العلمية التي لا نستطيع التأكد منها إلا من خلال منهج تحليل السياق الأصغر.

ويركز على موضوع السياقات النصية ، وذلك عبر التعرف على التعبيرات التي تستخدم في سياق معين من خلال دراسة المواقف التي يرد فيها هذا التعبير أو ذاك ، وأن نقطة الانطلاق الأساسية هي اختيار معدلات التكرار للعناصر اللغوية في سياقات مختلفة تربطها علاقة ما ، وأما سياق الموقف فإنه ينهض على أساس أن النص تعبير يشكل جزءا من عملية اجتماعية معقدة ، الأمر الذي يقتضي استحضار الملابسات الشخصية والاجتماعية واللغوية وا؟لأدبية والأيديولوجية التي كتب فيها النص ، فلا بد من التمييز بين الموقف الثقافي للقاريء المعاصر للنص والموقف الثقافي للناقد (17)، ويركز الناقد على ثلاثة أبعاد تؤخذ بعين الاعتبار في الدراسات الأسلوبية لإبراز فروق الاستعمال ، وهي المجال والكيفية والطابع (18) وينبه الناقد إلى أنه من غير الممكن اعتبار أن كل ملمح لغوي يمكن أن يكون ذا دلالة أسلوبية لأنه من المستحيل تقديم قائمة مفصلة بجميع الملامح اللغوية الشكلية للنص ، فالمؤشرات الأسلوبية مرتبطة بسياقات النصوص ، ويقرر أن المؤشرات الأسلوبية التي يلتقي فيها عدد كبير من النصوص في إطار شبكة من السياقات المتصلة ببعضها تكون جملة من المبادئ الأسلوبية الأولى ، وذلك في إطار حديثه عن النموذج الأسلوبي الذي يمكن الاحتكام إليه ، ويشير إلى أنه إذا كان هدف التحليل الأسلوبي هو وصف العناصر الأسلوبية فإنه لابد من تحليل سلوكي يهدف دراسة ردود الفعل المقبولة اتجاه المثيرات اللغوية .

وبعد أن عرض الناقد لأسس التحليل الأسلوبي الكبرى التي تعتمد على فكرتي التضاد والاختيار وما يتعلق بكل منها من أشكال إجرائية ، عمد إلى بيان بعض الإجراءات التنفيذية الأخرى كالحذف بتحديد العناصر غير الجوهرية ، وهي مسألة بالغة الصعوبة ، ويشير إلى طرق إجرائية أخرى كالتعرف على بنية الأساليب بالرسم والتمثيل البصري للوحدات النحوية في الجمل ومجموعاتها، لبيان حالات التناسب والتضاد بتجسيد اتجاهات التوازي واختلافها وتمثيل أطوال الجمل ، ولكنه – على الرغم من اهتمامه بذلك – لا يعول كثيرا على مثل هذه الرسوم وعلى رصد استجابات القراء ، إذ لم تسفر عن نتائج ذات بال لدى بعض الباحثين الأسلوبيين من الألمان ، ومع ذلك يعود فيؤكد على فائدته (19)

ويشير إلى منهج تجريبي آخر يتمثل في درسه مؤلف من خلال كلمات ذات أهمية خاصة تسمى بالكلمات المفاتيح ، ويمكن تحديد الكلمة المفتاح عبر الإحصاء بحيث تكون هي التي تحصل على أعلى نسبة تكرارية بين الكلمات الأخرى ، ويمكن اختبارها بالملاحظة المباشرة ، وهي كلمات تقوم بدور مهم في علم الدلالة البنيوي، مما يجعل استخدامها في الدراسات الأسلوبية خصبا مثمرا

. ومن الإجراءات التجريبية الأخرى دراسة النسبة القائمة بين الجمل الفعلية والجمل الاسمية مستعرضا الكثير من الآراء والتفاصيل حول هذه المسألة.

ويعلق الناقد على الإجراء التجريبي الذي قام به سعد مصلوح اعتمادا على معادلة بويزمان في كتابه (الأسلوب – دراسة لغوية إحصائية)(20) متكئا على نسبة الفعل إلى الصفة بأنها تتضمن مصادرة على المطلوب، وأنه يختلف نسبيا باختلاف اللغات، وأنه ينتهي إلى تحديد النسب التي قد تتشابه مع آلاف النسب الأخرى دون أن يعني ذلك أي توافق حقيقي غي الأسلوب ، فضلا عن عدم الدقة في حساب النسب الرياضية.

ويتحدث عن مناهج إجرائية أخرى تعتمد على الاختبارات والاستبيانات لتقويم النتائج الأسلوبية المستخلصة من النصوص الأدبية، ولكنه ينتهي إلى اعتبار هذه الاستبيانات عصية على الضبط المنهجي ، لأنها تتداخل مع قياس جوانب أخرى قد تتعلق بالمضمون ، وفيما يتعلق بالأجناس الأدبية يشير إلى أن فكرتها ملازمة لفكرة الأسلوب ، فلكل جنس أشكال تعبيره الضرورية المحددة التي لا تقتصر على تكوينه فحسب ، بل تشمل أيضا مفرداته ونحوه وأشكاله البلاغية وأدواته الفنية التصويرية ، ويعمل على تتبع فكرة المستويات الأسلوبية عند الإغريق واللاتين، ويرى أنه من الضروري التريث في قبول أهمية أية ظاهرة أسلوبية تطمس هذه الحدود المميزة.(21)

بعد صدور كتابه السابق عن علم الأسلوب عام 1988صدر كتاب (بلاغة الخطاب وعلم النص)(22) عام 1992أشار فيه إلى سعي الخطاب البلاغي إلى أن يكتسب طبيعة كلية شاملة، تتجاوز الصيغة الجزئية التي غلبت عليه،إذ يتجه ليصبح طريقة في التناول الفني ومنهجا للتحليل العلمي ، فالتقدم الذي أحرزته علوم اللغة والنفس ونظريات الجمال والشعرية والألسنية والتقنيات الأسلوبية يصب في بؤرة الخطاب البلاغي الجديد، وعلم النص يتكيء بصفة خاصة على مجال اللسانيات بدراسة الملفوظات اللغوية بكليتها والأشكال والأبنية المختلفة ، واندماج الخطاب البلاغي الجديد في علم النص يتيح له تشكيل منظومة من الإجراءات المنهجية القابلة للتطبيق على مستوى التداول .

وفي كتابه الرئيس الذي التزم فيه بالدراسة الأسلوبية التطبيقية للشعر(أساليب الشعرية المعاصرة) يقرر الدكتور صلاح فضل أن التصور الذي يختاره ويقوم بتركيبه لمفهوم الشعر الحديث يتأسس على قطبي التعبير والتوصيل، مما يسمح باستيعاب الأفق اللغوي للظاهرة ويتجاوزه إلى العوامل المدركة لأنماط القراءة والفهم ، بما يدخل في قلب نظرية النص ويستوعب جماليات التلقي .(23)

ويسعى الناقد إلى الارتكاز على عدد من المقولات المرنة التي ترتبط بقياس الشعرية ، من خلال سلم نقدي أسلوبي يقوم على مجموعة من التحالفات –على حد تعبيره – تربط درجة الإيقاع بدرجة النحوية ، وتصل مستوى الكثافة في النص بدرجة التشتت فيه وتماسكه أو تجريديته ، يرى أن ذلك يمكن الناقد من تصنيف أغلب التجارب الشعرية دون الانتقاص من شرعية التجارب الأخرى.

وقد ترتب على ذلك توزيع الأساليب الشعرية على ثلاثة مدارات :أحدهما يشمل الأسليب التعبيرية من حسية وحيوية ودرامية ورؤيوية وما بينها من من مستويات ، والثاني يشمل الأساليب التجريدية التي تتراوح بين الإشراقية والكونية ، والثالث يقوم على المزج بين التعبيري والتجريدي ، ويشير إلى أن الإشكالية التي واجهته تتمثل في قلة النماذج التي تمثل الأسلوب التجريدي حيث لم يعثر الكاتب إلا على نموذج واحد هو شعر أدونيس .

والحقيقة أن نماذج الأسلوب التجريدي متعددة ، وقد سبق لمحمود أمين العالم أن قام بتصنيف مشابه لما قام به فضل وأدرج محمد عفيفي مطر في إطار الأساليب التجريدية ، ؛ غير أن اللافت في منهج الناقد مرونته في استثمار المقولات النظرية في التطبيق ، معتبرا

أن التحدي الحقيقي هو الحفاظ على المساحة الحيوية اللازمة بين المنهج والنص مستشهدا بمقولة (دامسو ألونسو) الناقد الأسلوبي الإسباني عن الشعر الذي شبهه بعصفور وديع إن شددت عليه قبضتك الدراسية أزهقت روحه ، وحولته إلى جثة لا يغنيك تشريحها في معرفة سر رشاقتها وهي ترف من حولك ، علينا إذن أن نمسك هذا العصفور بحنو شديد ، أن نسمح له بالتفلت من أصابعنا ، وإذا كان لنا أن نحبسه في منهج فليكن قفصا واسعا يتركه يتنفس ويتحرك .(24)، وقد حاول الناقد أن يأخذ بهذه المقولة في دراسته للقصائد المختارة ، وأن يجمع في الخطافة واحدة –كما يقول – بين ضبط المنهج وتحرر التطبيق.

إن الجهاز المفاهيمي المبسط الذي قدمه أراد منه أن يكون صالحا لتنظيم المقولات التوليدية للأساليب الشعرية المختلفة، وأن يتسم بالمرونة والاستيعاب وقابلية التطبيق ، والتدرج من الجزء إلى الكل ، ومن السطح إلى العمق ، وسهولة الارتباط بالمستويات اللغوية ، ويتمثل في خمسة مستويات متراكبة : الإيقاع الذي يرى أنه أول المظاهر المادية المحسوسة للنسيج الشعري الصوتي وتعالقاته الدلالية ، والانزياح الإيقاعي في القصيدة الحديثة متعدد الأشكال ابتداء من قصيدة التفعيلة إلى قصيدة النثر ومايأتي في سياق هذا المدى من تشاكلات صوتية متفاوتة المستوى والتأثير ؛ أما المستوى الثاني فهو درجة النحوية ، وأراد بها الانحرافات الناجمة عن كسر قواعد الاختيار المتعلقة بخصائص المعجم ، وترتبط بنسبة التعقيد في النسيج اللغوي ودرجة الصعوبة في تأويله ، وبكسر النظم والقواعد النحوية . وأما المستوى الثالث فيتمثل في درجة الكثافة وترتبط بحركة الفواعل ونسبة المجاز وعمليات الحذف والفضاء غير اللغوي للنص وطريقة توزيعه، والتوقع العرفي الذي يجعل اللغة الشعرية مشدودة لأهداف ووظائف مختلفة عن اللغة العادية ؛ أما المستوى الرابع فيتمثل في "درجة التشتت " أو التماسك النصي ' ويرتبط بالخواص الجمالية الشاملة للنص ، ويتأتى ذلك من خلال الثنائية الضدية والانتقال من التضاد إلى عنصر ثالث والعنصر المهيمن والنهايات المتجاوزة والبنية الدلالية العميقة ، وترتبط درجة التشتت بكسر منطقية العلاقة ومنطقية الزمن ومنطقية الطبوغرافيا ومنطقية الكيفية ، والمستوى الخامس يتصل بدرجة التجريد والحسية وترتبط بالمستويات الأخرى بشكل أو بآخر.

ومن الواضح أن هذه التقسيمات الحدية تتداخل فيما بينها ، إذ لا يمكن ضبط حدود كل منها إلا بالتجوز والتوسع في المفاهيم ، كما أن إمكانات القياس التي توخاها ليست على ذلك النحو من المعيارية الضابطة لوسائلها ، وسيتضح ذلك من خلال التطبيق.

ويبدأ الناقد تطبيقاته بنزار قباني تحت عنوان " اللمس بالشعر وشعرية الحس " ، وفي هذه الدراسة ينشغل الناقد بأطروحته الرئيسة ممثلة بالتيار الأول من أساليب الشعر التي صنفها على النحو الذي ذكرناه سابقا ،فأراد أن ينقب عن جذور الحسية في المخيلة الجماعية العربية مشيرا إلى أن ثمة صورتين متقابلتين ، الأولى تتمثل في الوعي بالفعل وعلاقته بالكلمة ،إذ لم تظفر أي كلمة في المعجم العربي بما ظفرت به كلمة (المجد) من حيث الحياة والديمومة ، فالمجد في الأعالي حيث يسكن الشعر والملك وأحلام الإنسان بالخلود على حد تعبيره ، وهذا ما أعلى من شأنه الشعر العربي القديم منذ العصر الجاهلي ؛ أما الصورة الثانية العصرية فقد عبر عنها نزار قباني ، فهي تكتفي صراحة بالحس الذي جعل الشعر مجرد لمس بالكلمات مستشهدا بأقواله، غير أنه يرى أن هذه الحسية كانت يقظة موازية ليقظة الوجدان الرومانسي وهي امتداد لحسية أمريء القيس وعمر ابن أبي ربيعة وسلالة الحسيين العرب ، ويرى أنه من ناحية الشعرية الأسلوبية لابد من أخذ مظهرين أساسيين لهذه الحسية بعين الاعتبار : الأولى تتمثل في القدرة على التعبير عن روح العصر ، وتحديث الحساسية الجمالية مقاومة للحس الخلقي المزدوج بين السر والعلانية، والثانية المظهر التقني لهذه التجربة ممثلا بمدى ما ينطوي عليه الأسلوب من درجات السلم الشعري التعبيري.

ومن الواضح أن الكاتب يعول في أسلوبيته على الجانب الفلسفي التاريخي ، وإن لامس حدود التناقض حين أفتى بمحورية القيمة المعنوية للكلمة في التراث الشعري النقدي ، وجعل العصرية منوطة بالحسية، ثم عاد فوصل حبل الحسية بالتراث نفسه ، وحين جعل من هذه الحسية يقظة موازية للوجدان الرومانسي ، علما بأن التيار الرومانسي ذاته يشمل العنصرين معا في الشعر العربي الحديث، وفي السرد العربي كذلك ، والدليل شمول الرومانسية فلسفيا لجموح العاطفة وجموح الحس على حد سواء، فالقباني ، وهو موضوع الدراسة يصنف في إطار المدرسة الرومانسية كما يصنف إحسان عبد القدوس في موازاة محمد عبد الحليم عبدا الله ، لكن المسألة – فيما يبدو – لها بعدها الآخر، فالحسية النزارية ترتبط بالبنية الاجتماعية ، وبتلك الطبقة التي ينتمي إليها نزار قباني الدمشقي بترفها ونعومتها وأناقتها وهو ما ألمح إليه الناقد ، لكن الواضح أن فضل يتمسك بالخيط الواصل بين الرؤية التي يطرحها وجوهر الأسلوبية حين يركز على الجانب التقني المتعلق باللغة الشعرية، ويرى أنه الطريق للوصول إلى معالجة الجانب الوظيفي الذي يحترز من تحول التحليل الأسلوبي إلى وسيلة للبرهنة على الرؤية الاجتماعية.

وينتقل بعد أن يحدد هذه الاستراتيجية إلى تقصي الانحرافات على وفق السلم الذي وضعه بادئا بدرجة النحوية ، فيقارب النعوت التي تنحرف عن المناسبة للموصوف بإسنادها إلى غير جنسها ، والذي يعتبره البلاغيون المدرج الأول للتخييل الشعري، حيث تنعتق هذه النعوت من علاقة المجاورة المكرورة لما تنعت به ، ويضرب مثالا لذلك مقطوعة لنزار تحت عنوان " كم الدانتيل" التي يتم تحريك التخييل فيها عبر مجموعة من الصفات المتوالية غير المتجانسة مع موصوفها كما تبدو للوهلة الأولى، فتكسر ألفة الصيغ اللغوية المتداولة وتستوعب أدوات الإنسان اليومية معبرة عن المسكوت عنه ، فالكم الثرثار والمشتل والسؤال الذي بعد لم يسأل ، والزنبق الأسود ....إلخ حيث نقل نزار الصفة من الحياة إلى اللغة كما يقول الناقد ، ووائم بين فائض النسيج الذي يمثله كم الدانتيل إلى شكل جمالي يتمثل في فائض الكلام ، ويمضي في تتبع هذه الظاهرة ، وهنا يقارب الرؤية السيمولوجية التي تنظر إلى العلامة في كنف الموقع الاجتماعي على النحو الذي طرحه في كتابه (شفرات النص) (25)، ثم مستفيدا من المفهوم البنيوي مشيرا إلى اختراق على مستوى السياق الأكبر ، وهو لغة الغزل العربي حيث يأخذ موقفا متضادا للتذوق الجمالي في لغة الغزل فيقف في منطقة الحواس البعيدة في قوله:

والزنبق الأسود من شوقه يقول كل .. فزهرنا يؤكل

ويبنى على ذلك حكما مهما يتمثل في اعتباره مؤشرا دقيقا لتغيير الحساسية والذوق في العصر الحديث ، غير أن اللافت في تحليله استعارته لمصطلح نقدي في مجال الفنون التشكيلية وهو " التلقيم الحسي " حيث يتم تلقى المعطيات الحسية البصرية دون تدخل الخبرات المكتسبة ، وذلك عن طريق اللغة المباشرة بشكل أحادي الدلالة ، فيبدو التلقيم مثيرا للمخيلة الدنيا ، وقد أفاد نزار – من وجهة نظر فضل – من السينما ، ويضرب مثالا على ذلك استفادته – في قصيدته التي كتبها عام 1953 تحت عنوان " خبز وحشيش وقمر " – من فيلم فرنسي بعنوان "خبز وحب وفانتازيا"، ويستعرض بعد ذلك أنماطا من الانحرافات اللغوية والتصويرية مستشهدا بمقطوعة أخرى بعنوان " مشبوهة الشفتين " حيث تتفرد هذه الجزئية بمقطوعة كاملة فجرى تكبيرها لتفترش هذه المساحة لتفجر طاقات شهوية عبر التوالي النعتي : شفتان للتدمير ، شفتان مقبرتان ، شفة كآبار النبيذ فتغلب واقع الحس المباشر . وربما كان من المهم أن نعود إلى مسألة إمكان القياس الذي اشترطه الناقد حين وضع سلمه لدرجة الشعرية ، حيث نجد أنه في هذا الجانب من التحليل قد تجاوز ما أسماه درجة النحوية إلى ظواهر أخرى تتعلق بالسياق الكلي للفن الشعري ،حين تحدث عن تقاليد الذوق الغزلي ، وعالج مسألة التخييل في بعدها الفلسفي مما يتصل بأصول البلاغة ، وتكلم عن انحرافات دلالية ، وحتى في معالجته لمسألة نحوية

كالنعت قفز عن البعد النحوي إلى البعد الدلالي ، فناقش انحراف العلاقة الدلالية بين الصفة والموصوف ، وحين تحدث عن غلبة التشبيهات وغياب الاستعاري وأحادية الدلالة ، فقد توسع في الحديث عن درجة النحوية توسعا خرج بها عن الدائرة الاصطلاحية المتعارف عليها إلى الدائرة الأشمل التي تتعلق بجماليات تنتمي إلى حقول معرفية أخرى ، الأمر الذي بدا معه إمكان القياس أمرا مشكوكا فيه .

أما فيما يتعلق بالمعجم فإن الناقد يقدم لمبحثه عنه بالحديث عن الإشكالات التي تثيرها دراسة المعجم الشعري مؤكدا أن البنية اللغوية في الشعر لا تتحدد بالكلمات ، بل بالصيغ ، وأن المنزع الإحصائي في المعالجة فيه تجاهل لمنظومة التراكيب ، وأن ثمة مواقع مفقودة للكلمات التي يتم إحصاؤها ، وأن شبكة العلاقات المجازية والرمزية تتركز وظائفها الجمالية في تعقيد نسيجها الدلالي ، وأن مفردات المعجم تضيء مساحة ضيقة من المجهول المعرفي ، ومع هذا يعتد بمعجم نزار قباني الشعري، ويقدم قراءة نقدية له ولعله يبرر ذلك بما قاله نزار من أن أبجديته الدمشقية ظلت متمسكة بأصابعه وحنجرته وثيابه ،حيث ظل ذاك الطفل الذي يحمل في حقائبه كل ما في أحواض دمشق. وأن" وظيفة الفن –منذ رجل المغارة حتى عصر الإلكترون – هي الملامسة ، فلكي يكون اللون لونا لابد أن يلامس العيون ، ولكي يكون اللحن لحنا لابد أن يلامس الأذن "(26)

لقد تعامل الناقد مع أربعة مجالات في دراسته لمعجم القباني فأشار إلى أن 35% من كلماته تتصل بجسد المرأة وملابسها وزينتها ،وأن 40%تتعلق بالعالم الحسي الطبيعي وأشيائه ، وأن 20% تشير إلى أفعال حسية ، وأن 5% فقط تشير إلى أشياء غير حسية ، ثم صنفها إلى مفردات شهوية ، وأخرى أقل شهوية ، وأخرى ، وعلى الرغم من مآخذه على هذه الإجراءات التجريبية يقر بدلالة هذه الإحصاءات على طبيعة المادة اللغوية التي يتكون منها نسيج شعر نزار قباني ، ويربط بين نتائج التحليل الأسلوبي للمعجم حيث الوعي بالجسد عبر اللغة وبين المكونات الثقافية لبروز الفردية في العصر الحديث ، معتبرا أن حداثة شعر نزار قباني من الوجهة الاجتماعية ترتبط بتنمية هذا الوعي الفردي الحاد بالجسد ، ويحيلنا تلقائيا إلى التفسير السيميولوجي ، ويعتبر أن قابلية المجتمع الشامي في جملته لهذا التحول في مفهوم الجسد ووظيفته قد أتاحت للشاعر تبئير هذا الموضوع .

ومن الواضح أن الكاتب استثمر النتائج التي أسفرت عنها دراسة المعجم في التفسير الاجتماعي ، والوصول إلى أحكام تتعلق بالرؤية الفكرية ذات البعد الحضاري ، متجاوزا بذلك ما يفضي به النص الشعري على مستوى التجربة الإبداعية الذاتية، وما تنبئ به السياقات الأسلوبية من اتكاء مسرف على ما أسماه بالمخيال الجسدي ، الأمر الذي أدى – من وجهة نظره – إلى التطابق بين حدود الفرد وحدود الجسد ، وهو ما اعتبره استلابا وتشييئا ، نظرا لإغفال بقية المظاهر الإنسانية للشخصية . وهذا التفسير يطرح أسئلة متعددة تتعلق بالتجربة الذاتية للشاعر وللعوامل الأخرى المؤثرة في إبداعه ، وتوحي بمقاربات أخرى حول ظاهرة الغزل الحسي في فترات أخرى من تاريخنا الأدبي ، وحديثه عن تثبيت المجال في الفضاء الشعري على امتداد التجربة الإبداعية الكلية للشاعر ، ولطائفة أخرى من الشعراء يعطي مبررا لتنميط الأسلوب بوصفه أسلوبا حسيا ،.ويستجمع الناقد ظواهر أسلوبية أخرى ، عبر التركيز على الشم في الصورة التي يرسمها الشاعر وبروز الصورة البصرية ، والإيقاع الخارجي .

وينتقل لمعالجة الدرجة التالية في سلم الشعرية ممثلة في التماسك والتشتت فيلاحظ ارتكاز السرد عنده على عدد من الآليات التي تضمن انتظامه في مستوى واحد من الكثافة المخففة، مما يسمح بنسبة عالية من التماسك الظاهري دون بروز أي عامل من عوامل التفكك . وتبنيه –كذلك – لضمير المتكلم المباشر في الغالب وحضور المخاطب على نحو جلي ، وتنقله بين المفرد المذكر وتقمص

الأنثى إذ ينحصر طرفا العلاقة في ثنائية(الذكر/ الأنثى) ، ويشير إلى أسلوبه في تشعير نثار الحياة في مقطوعته (مع جريدة)التي يقول فيها :

" أخرج من معطفه الجريدة

وعلبة الثقاب

ودون أن يلاحظ اضطرابي

ودونما اهتمام

تناول السكر من أمامي" (27)

رصد الشاعر في المقطوعة خمسة أفعال مركبة وعدة أدوات استثناء ، على لسان الفتاة ، ولكنها تشف عن رؤيته هو كما يقول فضل ، وتمضي الأفعال في نسق مسرف في تواليه ،كما يسرف في اعتماده على الموسيقى الخارجية ، ويمضي الناقد في تحليله للأساليب مستحضرا نماذج من شعر نزار ، فيختار قصيدة طويلة نسبيا هي قصيدة الوصية ، مشيرا إلى أن أسلوب الشاعر في هذه القصيدة ينتهي إلى التوارد الدلالي موهما بالتعدد مفضيا إلى الوحدة ،،ويرصد البنى النحوية المتوازية والبنى الإيقاعية المتقابلة ، وتكرار الصيغ النحوية والإيقاعية في المقاطع المختلفة ، وينتهي إلى القول بأن الظاهرة الشعرية اللافتة في القصيدة أنها تقوم على حكاية بسيطة مكررة سبع مرات ، الأبنية النحوية نفسها والروابط السردية التي تستقطر الإيقاعات وتفرغ اللغة من كثافتها التخييلية .

ومن الجلي أن منطلقات الناقد في تحليله لنص نزار تنهض على فكرة مسبقة تتمثل في نزعته الحسية، وهو أمر بدهي معروف ، وسبق أن درس مرارا ، وحتى الإحصاءات المتعلقة بمفرداته وحقولها الدلالية سبق أن قام بها أكثر من باحث، لقد اعتمد الناقد في إحصائياته للظواهر اللغوية ونسب التكرار فيها على ناقدين رئيسين هما منير العكش(28) وشاكر النابلسي(29).

ولعل فيما أثبته منير العكش في كتابه (أسئلة الشعر) من جداول وإحصاءات حول مفردات الشاعر، ومن استبيانات حول تلقيه من فئات اجتماعية أخرى أفاد منها الناقد بلا ريب ، ولكن تمركز المعالجة حول البعد الحسي قيد الناقد في مقاربته ، وجعله يحصر معالجته في هذا الجانب ، وليس بدعا أن يلتمس الناقد مدخلا أو مداخل يرى أنها السبيل إلى الإلمام ببقية الجوانب الأسلوبية ، ولكن دون أن يظل ذلك رهنا بالمنطلق الرئيس الذي حدده الكاتب

.أما الأسلوب الحيوي كما يتبدى عند السياب ، فيقدم الكاتب بين يدي دراسته باقتباسات من أقوال للشاعر الألماني (هولدرلين) ، والفيلسوف (هايدجر) التي تؤكد ارتباط الخطاب الشعري بالحياة وامتلاكه للواقع دون الوقوف عند المعطيات الحسية ، ويصل مابين التحليل السوسيولوجي والإبداع الذي ينطوي على طاقة مكبوتة ، وهذا المنهج(الاستشهاد بمقولات تؤيد وجهة نظره) ارتآه الكاتب في مجمل دراساته لأساليب الشعرية المعاصرة ، يقدم به لدراسة كل اتجاه ، فهو إما أن يستحضر شهادات الشعراء أنفسهم كما فعل مع نزار قباني ، أو يورد أقوالا لنقاد وفلاسفة يمهدون له سبيل المعالجة من وجهة النظر التي يراها (30) ، فالحيوية هي الطابع الاستراتيجي لحركة الشعر الحديث فهو الذي ينتج جمالياته ، ويبرز أهمية الدراسات التاريخية التي تناولت شعر السياب ، فخطاب السياب الشعري يغري بتتبع كيفية نمو الوعي التاريخي فيه إلى درجة اعتباره وثيقة لوقائع حياته الشعرية والسياسية والإنسانية، ولكنه يعول في ذلك كله على التحليل الأسلوبي الذي تتجلى ظواهره في تنويع المادة الشعرية في مكوناتها حيث المفارقات والغنى اللغوي والموسيقي ، وتوظيف العناصر السردية واستثمار الترجيع والتناص والتنظيم المقطعي ، ثم أسطرة الخطاب بعفوية وبساطة ، ويبدأ باختبار فرضياته متناولا المستوى المعجمي الدلالي ، مستعينا بجداول وإحصاءات أعدها باحثون آخرون ،ومستعرضا دلالاتها

الإحصائية من مثل حديثه عن الجذور اللغوية في شعر السياب مقارنا بينه وبين نزار من حيث الثراء المعجمي ، ويؤكد أن قانون الوحدة والتنوع هو المهيمن على أسلوب السياب ، ويقوم بالرصد الإحصائي للمظاهر الإيقاعية ، ويخلص إلى النتيجة ذاتها من حيث الثراء والتنوع الإيقاعي .وفي دراسته للسياب يتكئ على مقولات وإحصاءات لعبد الكريم حسن وسماح العجاوي ، وعيسى بلاطة وإحسان عباس.

ويبدأ بتناول قصيدة (غريب على الخليج) باعتبارها باكورة شعره الناضج الذي تمثلت فيه خصائصه الأسلوبية ، ويسجل انتظام القصيدة في خيط سردي مباشر للوقائع الحسية ، ويستدل على حرارته الغنائية ببروز ظاهرة الالتفات من الغياب إلى التكلم ، وهي ظاهرة بلاغية، وعلى الرغم من اصطناعه المادة اللغوية الرومانسية فإنه لا يقع في أسر الغنائية التقليدية بل يبرز وعيه بالآخر ، ويلاحظ ظاهرة التفاعل الزاخر بين الإيقاع النفسي والصوتي ، واصطناعه للمفارقة بين البعد عن الوطن والقرب منه ، لافتا إلى الحادثة الحسية التي يرويها عن مروره بالمقهى واستثماره لتيار الوعي وما يزخر به من حركة، وربما التبس موضوع الحسية هنا بما سبق أن أشار إليه الناقد عند نزار ، وهو ما سماه محمود أمين العالم بتيار التجسيد الواقعي مبينا أنهم هم أولئك الشعراء الذين نستشعر عندهم نبض الواقع الآني بأبعاده الدرامية ، ويشير (العالم)إلى ثلاثة عناصر متداخلة متشابكة :التاريخ الذي يعبر عن نفسه تعبيرا أفقيا فيش شكل قصة حدوتة ، حكاية صغيرة ، تفاصيل لحظة آنية ،وهو زاخر في التفاصيل ، تفاصيل ماموسة متحركة ، ثم الدراما التي تتساقط عموديا على سطح تلك الرقعة الأفقية ، ثم الغنائية التي تستشعرها عبر الإيقاع ، ويصف هذا اللون من الشعر بأنه شعر التجربة الحسية الحية، وهي في ذات الوقت تجربة ذاتية وموضوعية معا، وهولا يستشهد بنموذج شعري محدد كما فعل فضل بل يستعرض نماذج متعددة تمثل عند صلاح فضل عدة أنماط أسلوبية ، وفقا لتقسيماته التي ذكرها في مدخل الكتاب ، إذ يستحضر درويش وأحمد عبد المعطي حجازي وأمل دنقل وسعدي يوسف (31) في حديثه عن البنية الإيقاعية يقرن بين إيقاع الزمن والإيقاع الصائت في البنية الموسيقية مركزا علي التطابق بين دورة الاسطوانة في المقهى ودورة العمر :

بالأمس حين مررت بالمقهى سمعتك يا عراق
وكنت دورت إسطوانة
هي دورة الأفلاك في عمري ، تكور لي زمانه
في لحظتين من الزمان
وإن تكن فقدت مكانه.

و في توضيحة لحيوية الخطاب الشعري عند السياب يؤكد أن التخييل يقتصر في نسجه واقعية المشهد دون ملامسة الأبعاد الكونية أو الترميز ، فهو ذو نهج تعبيري مباشر تتعدد فيه العناصر دون أن تتمدد ، مشيرا إلى التماسك حول الدلالة الواحدة ، وأن عناصر القص والسرد لاتفلح في إخراجه عن ذاتيته ، لكن السرد نجح في جمع العناصر الشتيتة من صور الحاضر وذكريات الماضي ونسجحا في اتساق وعفوية بقدر من الشفاقية والتماسك ، وهوإذ ينفي هيمنة السمة الملحمية عن شعر السياب يقر بأن طريقته المنظمة في هيكلة القصيدة وتنضيد مقاطعها وترقيمها واستجابته للنزوع السردي ربطة شعره بالروح الملحمية ، ولاحظ أن حركية القصيدة عنده تتمثل في الترجيع والإنشاء والتناص ، وأن الترجيع لايقتصر على الجانب الصوتي ، بل في توزيعه للطاقةالموسيقية وتنميتها وتمثيل تلاشيها وتآكلها ليفجر مكنوناتها السحرية ،ويستشهد لذلك بأنشودة المطر وجيكور ومراثيه العديدة ، كما يشير إلى الترجيع في الأبنية الصرفية التي تدل على المحاكاة ، واستعان بنتائج بعض للبحوث الإحصائية في إثبات ذلك ، وادلت عليه هذه

النتائج من من تعبير عن الاحتدام السياسي والاجتماعي في الشطر الأول من عمره ، ويرى أن التفسير الملائم ينبغي أن يتعلق بطبيعة النسيج اللغوي والاتجاهات الأسلوبية الغالبة بدلا من الربط بين ظواهر غير متجانسة مثل وقائع الحياة وصيغ الكلمات ، ويشير إلى دور النماذج النحوية المتداخلة مع الترنيمات الصوتية المؤلفة لها ممثلا لذلك بقصيدة (النهر والموت) ، ويتنبه الناقد إلى دور الأقواس ولعبة التناص في مزج خطابه الشعري بعناصر سردجية وشعبية ورمزية وأسطورية ، وتلعب الأقواس دورا في تمايز أجزاء الخطاب الشعري وتفاعلها ، ويعلج الأسطرة والترميز ، ويعتبر ذلك بديلا للتعبير المباشر الذي فقد رونقه ، فتحويل العناصر العادية إلى أسطورة تعيد الشعر إلى قلب الحياة كما يقول، ويستشهد بجداول إحصائية لباحثين آخرين حول هذه الظاهرة ,

ويتناول بالدراسة بعض القصائد مثل (وفيقة) كنموذج لمنهج الترميز عند السياب ، ويقدم بالحديث عن وفيقة بوصفها شخصيةواقعية في حياة السياب ، وأورد بعض البيانات التفصيلية التي قال :إنها تفيد في تفسير الطابع المثالي والميثولوجي الذي يضفيه الشاعر على هذه الشخصية ، وتحديد طريقة انبثاقها المتأخر في شعره ، والاهتمام بسرد الوقائع المتعلقة بحياة الشاعر على هذا النحو يقودنا إلى خروج الكاتب على منهج الدراسة الأسلوبية التي تهتم بالأساليب وتستنتج منها بدلا من أن تفسرها بالرجوع إلى مرجعيات خارج النص ، ويعمد الناقد إلى الإشارة للتلاقي ملحمة المعراج الإسلامي مع ملحمة الأوديسة اليونانية ، وينتهي إلى أن حركة النص مجموعة من الدوائر المتداخلة ، عبر عدد من التقنيات التعبيرية المتضافرة ، يقوم فيها الترجيع والإنشاء والتناص والأسطرة والترميز بالدور الأساسي في تكوين بنية النص طبقا لاستراتيجية حيوية فعالة تحقق درجة عالية من شفافية التوازن والكثافة النسبية.

أما صلاح عبد الصبور فاعتبره الكاتب شعره نموذجا للشعر الدرامي الذي شكل اختراقا للغة الشعرية المألوفة بأسلبته لها، أي بإدخال الأصوات المتعددة فيها ، واستخدام الأجناس النثرية كالرسالة وتشعيرها ، فعمد إلى كسر عمود الشعر من رقبته التعبيرية كما يقول، وذلك بإضفائه الصبغة الفورية على الكلام ، وباستحواذه على بنية أدب الترسل وتشعيره متوقفا عند قصيدته (رسالة إلى صديقة) حيث استخدم لغة الرسالة ولغة المصطلح الصوفي ولغة الحوار ، وقد أشار الناقد إلى تجارب من سبقه أيضا في ملاحظتهم لبعض الصيغ التي سادت في شعر عبد الصبور ، وإن انتقدها لإغفالها الوظيفة الدلالية الجامعة لتلك الظواهر في سياق واحد ، ولأنها لم تؤسس على قاعدة بيانات صلبة. ويشير إلى المراوحة بين الوصف السردي والفلذات الغنائية الشجية ، ويعرج على ذكر تقنية الأحجية، ويتوقف عند ما أسماه بمفارقة الأمثولة ، ويأخذ مثالا على ذلك قصيدة (مذكرات الصوفي بشر الحافي) فيتحدث عن المفارقة في العنوان ممثلة في التوتر الكوميدي بين الصوفي والحافي ، والقصيدة تخضع لتقنية السيناريو المرتب ،فقد أتاح نموذج المذكرات للنص أن يتراوح بين الطول والقصر والسلب والإيجاب ، والرقص والمشي ، والتوافق والمخالفة ، وإدخال شخصية ثالثة بين الوجه والقناع ،منتهيا إلى ما أسماه من الوجهة الأسلوبية بتأمل عاطفي يلتحم بجماليات التعبير، ويتجلى عبر تقنيات تتولى تحويل الخواص الأسلوبية للدراما إلى أدوات شعرية تتمثل في : تجسيد أضواء المنشور اللغوي وتشعير السرد ومفارقة الأمثولة .

وفي حديثه عن الدرجة الرابعة في منظومة الأساليب التعبيرية في الشعر العربي يتحدث عن البياتي مقدما لمقاربته باستشهادات من أقوال بعض النقاد الغربيين ، ويميز بين الرؤية والرؤية ، مشيرا إلى أن الرؤيا وسط بين الأسلوب الحيوي والتجريد ، إذ يتوحد عمل الباصرة في الصورة الحسية المتشكلة لغويا مع فعل المخيلة الحلمي في دلالة تعبيرية خاصة، تنزع إلى درجة محدودة من التجريد الغقلي، وتقتضي تحطيم أبنية الزمان والمكان من خلال السرد، ويلخص منهج البياتي في الرؤيا مستفيدا من محمود أمين العالم في العطف النحوي بين مجموعة من من العناصر الحسية المتباعدة في حقولها الدلالية ،حيث يتولد مستوى تجريدي يصل إلى البنية العميقة للجملة

الشعرية مما يشف عن جدلية تحل تناقضات العالم الحسي دون صراع درامي، واختيار مجموعة العناصر الحسية يخضع لتقنية ترميز كثيفة، ويعمد إلى محاورة العالم آخذا عليه وعلى النقاد الأيديولوجيين اقتطاعهم شذرات لتأييد أفكارهم

ويشير فضل إلى تقنية التراثي ،أو التبادل في الضمائر بين الأنا والهو، إذ يعتمد على المفارقة الحادة والتوتر اللغوي ، ويشبه الشخصية المغايرة بالشاشة البيضاء التي يعرض عليها المتحدث صوته وصورته ، فهي مجرد سطح حساس لاقط للضوء المنبعث من منظور الشاعر، ويأخذ الناقد على بعض النقاد تتبع تكرار المفردات في شعر البياتي دون معرفة منهجية بأصول هذا التتبع وكيفية إقامة الأبنية الدلالية المتعالقة فيه .

وفيما يتعلق بدراسته لمحمود درويش فإنه يرى أن للشاعر خصوصية تعبيرية تتساوق مع وضعه الخاص فلا يجوز الرصد الآلي للخصائص الأسلوبيةعلى نحو مطلق ، وأن الظرف التاريخي يشكل شرطا جماليا بذاته يحتم اختيار لون التعبيرالذي يستق مع الموقف ، ويستشهد على استجابة حساسية درويش لتقنيات التعبير الحسي بقوله " لقد خرجت من معطف نزار قباني " (32)، ويتحدث عن جديلة الكلمات مع الواقع الحي في شعره ، وفي دراسته لقصيدة (سجل أنا عربي) يتوقف كثيرا عند المناسبة وعند الخلفية التاريخية ، ويشير إلى توليده للمفارقة من الصيغ الجاهزة "سادة نجب " و"حسب ونسب" في معرض الإشارة إ لى تواضع الحال، وإلى أن هذه القصيدة تتسلح بمنطق إيقاظ الحلم وتشعير الموقف في أقصى درجات ثوريته وفي خلق السياقات الملائمة، ويصفه الكاتب بأنه شاعر التحولات الكبيرة، ومن الواضح أن ملاحظاته تنأى به عن مداخله الأسلوبية ، وتقترب به من النقد التاريخي الاجتماعي الذي يلامس تخوم النقد الواقعي في أبرز تجلياته لدى لوكاش ، ومن آمن بنظرية الانعكاس ، وتزج به في حقل نقدي آخر يتوسل بمرجعيات خارج النص فيرى أن الشاعر انتقل من غنائيته الأولى ذات الطابع الحسي إلى الأسلوب الحيوي بخصائصه التي تحدث عنها لدى السياب، إلى الأسلوب الدرامي ومن ثم التحول إلى المطولات التي وظف فيها تقنيات سردية مركبة ،تجمع خواص الشعر الحيوي والدرامي بكثافة عالية ، وقد اختار الناقد نصا من ديوانه" حبيبتي تنهض من نومها " وهوبعنوان " كتابة على ضوء بندقية " ، وقدم للحديث عنه ببسط الخلفية التاريخية لتلك المرحلة من تطورات القضية الفلسطينية ، ثم انتقل إلى المشهد الآخر مستعيرا تقنية المشهد من السينما ، وذلك قبل أن تتحرك عين الكاميرا ، ويستثمر أسلوب القص المعتاد بضمير الغائب، فقد استقالت القصيدة من ضمير الغائب كما يقول ، فأعاد الرسم التخطيطي للأسطورة وقد تحولت إلى مشهد عياني راسخ على أرض الواقع وعبرنا بنا إلى الزمن اليهودي بكل معطياته ، ويستخدم الناقد أسلوب تعبير تهجير الكلمات من علاقاتها السابقة في شعر درويش ، وواضح من تحليله أن ثمة تعبير آخر يمكن أن يبرز هو (تهجير الثقافة) دون مغادرة حقل المفردات، إذ تستخدم المفردات ذاتها في الدلالة على ثقافة جديدة هي الثقافة اليهودية ، حيث يتم التحويل الدلالي للكلمات بما يناسب هذه الدلالة مازجا بين الأنثى التي تماهت في الوطن في قصائده في مرحلة سابقة ، لتهجر موقعها الدلالي المألوف إلى ثقافة العدو الذي تتماهى فيه بلحظة النشوة والانتصار :

شولوميت انكسرت في ساعة الحائط خمسين دقيقة
وقفت وانتظرت صاحبها
شولوميت استنشقت رائحة الخروب من بدلته
كان يأتي آخر الأسبوع كالطفل إليها
يتباهى بمدى الشوق الذي يحمله

قال لها : صحراء سيناء أضافت سببا

يجعله كالبلور يسقط بين بلور نهديها (33)

ومن الملاحظ أإن صلاح فضل في تحليله الأسلوبي لشعر درويش ينثر الكثير من الشذرات المرجعية المقتبسة من أقواله النثرية لأنه يعتبر نثر درويش مكملا لشعره ، إذ يصوغان معا بنية تخييلية متماسكة ، وهي بنية ولدت في رحم الشعر العربي ، ويستخدم درويش الطريقة الصوفية في إسقاط مفردات الغزل ، فهويسقط مفردات الجنس كغلاف خارجي لحالات الوجد والعشق ، ثم استثمر ثقافته التوراتية عبر مخياله النشط في المحاورة والمجاوزة ، والانشطار الذي يتحدث عنه الناقد في شخصية اليهودي بين الجمال الأنثوي والقتل لايتدثر بأي دثار رمزي ، بل يأتي فارعا دارعا ، غير أن الناقد يمضي في حديثه عن دينامية المواقف المعروضة وتجسيد لحظات الصراع، والصراع هنا كما يبدو ليس محتدما ولا معقدا بل هو ذو دلالات شديدة القرب ، وهو ما ذكره الناقد عندما أشار إلى شولوميت التي استدعت صديقها الأقدم محمود ليعزز تلقائية الموقف وصدقه ، وهنا يعود إلى الاستشهاد بأقوال درويش النثرية " لم أعد أعبر عن اللحظة السياسية الفلسطينية ، بل عن إنسانية الفلسطينيين ، وانتقلت بالتالي من صياغتي الخطاب السياسي البطولي ، وأتعمق في تراجيديا الشرط الإنساني الفلسطيني وفي جمالية هذه التراجيديا "(34)

ويرصد الناقد تحولات الرؤية الشعرية لدرويش من نصاعة الرؤية الحسية والحيوية إلى انبهام الرؤيا الشعرية ، وتبدى بكثير من الوضوح أن شعر درويش قد اختزل أهم التحولات الأسلوبية في التجربة الشعرية العربية المعاصرة ، ويتوقف الناقد متأملا لتحقق الرؤيا الشعرية بكل تعقيداتها في ديوانه (أرى ماأريد) ،حيث تداخل الحواس وتجاذب معطياتها على النمط السريالي ، وتهيئة المتلقي بتحضيره عبر وضوح التاريخ الرمزي للكلمات في سياق النص ، بحيث تختمر في وعيه الدلالات المزدوجة لهذه المفردات ، عبر التراكم ،يتم أسطرة اللغة بتحميلها فائض الدلالة كما يقول ،وتصل لامعقولية التركيب إلى ذروتها معبرة عن شذرات من مرايا مهشمة ومبعثرة في ماض غابر في الذاكرة ،ويتم تجاوز الحس إلى التجريد ويتم ترتيب المفردات أو الجمع بينها بشكل يكسر السياق الواقعي لصالح سياق حلمي يظل معلقا بزمن غائم مكبل بذلك الحلمي المطلق نفسه نفسه كما تقول الناقدة اعتدال عثمان على وفق ما يستشهد به الناقد .

ويصل صلاح فضل إلى المحطة الأخيرة في تحولات التعبير في الشعر العربي المعاصر ، حيث يقارب شعر (أدو نيس) بوصفه معبرا عن الاتجاه التجريدي ، فيرى أنه بعد طول تفاعل بين الأساليب التعبيرية الشعرية مع الحياة والفكر واللغة أفضت هذه التجربة إلى طريق الرؤيا ، إذ تنبهم معالم الأشياء الحسية ، ويخف وزن التجارب العينية ، وتصبح الكلمات رموزا لعوالم ضاربة في الخفاء ،فكان ماأسماه الناقد بالمنهج السديمي ، وعلى الرغم من أنه لايريد أن ينشغل بالبحث التاريخي في العوامل التي أدت إلى هذا التحول فإنه يحاول أن يبينها قبل أن يشرع في تحليلاته الأسلوبية ، فالانحرافات والإبهام والتضاد أبرز ارتفاع نسبة الكثافة في التخييل ، والتشتت في النسيج يخلق درجة عالية من التوتر البارز بين البنية الإيقاعية والبنية الدلالية كما يقول .

ويختار الناقد قصيدة "رؤيا " من ديوانه "أغاني مهيار الدمشقي : لاستجلاء بدايات التجريد عند الشاعر تتبعا حركة الفواعل في القصيدة ، ويلاحظ التضاد بين بنية التعبير الجزل والاستدارة المقطعية والقافية الصلدة وماتفضي إليه من من فضاء مضاد للحضور الحسي ، وقد لاحظ في ابنيته اللغوية أمرين :آلية تغييب الدلالة بكسر النمط المنطقي ،والجمع بين الأضداد عند تشكيل الصورة ، ثم تكوين مجموعة من المتواليات الصوتية بتحقيق درجة قصوى من الغنائية ، ويومىء إلى خاصية زمنية تتسم بالدورية أو لولبية ، ويتحدث عن خاصية الإضمار المضادة للذاكرة ، والمشكلة تتجسد –كما يرى = في تراكم الإضمار ، ويقرر

الناقد بعد تحليله للنص المذكور أن تقنية التغييب للدلالات الواضحة في شعر أدونيس تعتبر ملمحا رئيسا في شعر الحداثة ، إذ ترتكز على فلسفة جوهرها أن الموجود المطلق يتحقق في الإنسان باعتباره عقلا أي باعتباره لغة أو كائنا لغويا قبل كل شيء ، ويشير إلى تميز أدونيس عن غيره في استخدام الأقنعة، إذ يتفرد برفع بيارق الصوفية كما يقول ، ومنهجه في توظيف القناع يقوم على إسقاط ملامحها التاريخية والأسطورية ويحيلها إلى أصداء بعيدة تضيع منها السمات الدالة ، ولا يبقى منها سوى الخطوط التجريدية المبعثرة، ويضرب مثالالذلك قناع مهيار الديلمي وصقر قريش .

ويناقش صلاح فضل قضية مهمة تتعلق بالتعبير والتجريد من خلال مناقشته لتقنية القناع عند أدونيس ، فقناع الصقر- من وجهة نظره – أقرب نقطة اتخذها من الشعر التعبيري ، فالتاريخ يمثل أقوى مظهر من مظاهر الأدلجة، فباستخدامه لفظة (الشجرة) مكررة بعد أن يفقدها وظيفتها في التسمية الفارقة يكسبها أكبر قدر من التفريغ والتجريد في اللحظة التي يستخدم فيها مفردة بالغة التجسيد والتحديد ،فتتحول إلى إشارة شعرية رمزية تخضع للتأويل ، ويلاحظ أن المسمى هنا القصيدة وليس شجرة ولا معنى آخر مما يجعل المسافة بين الدال والمدلول شاسعة ، ويلفت إلى ظاهرة تعبيرية تتمثل في بنية التوالد المتكاثر ، فالمقطع يتكون من جملة واحدة مطولة تتداخل حلقاتها المتشابكة بشكل يفضي إلى التضخم والتعقيد وما ينجم عنهما من ارتباك ، ويضرب مثلا على ذلك (غابة الرجاء) وهي صورة طريفة –كما يقول – منجنة الأتقياء في الوجدان الديني تخترقها عناصر غريبة " إذ تغص بالبكاء ، والبكاء يصير شجرا ، والشجر له غصون ، والأغصان تصير وطنا ، والوطن للنساء الحبالى ، والحبالى يلدن أجنة والأجنة موزعة على الأغصان ، ،كما يحدث في السرد الشعبي في حكايات البيضة والدجاجة والقمحة والفأس والحداد ، فالجذر التوليدي للصياغة واحد ، ومن العبث – طبقا لمنظور الناقد البحث عن بنى منطقية في شعر أدونيس ، فالخاصية الدلالية الرئيسة هي التناقض غير المرفوع في الحس العام ، وهي خاصية مقصودة تترتب عليها نتائجها الوظيفية في فاعلي التركيب الجماعية (35)

ويتتبع الناقد الظواهر التعبيرية المفرغة من مضمونها التاريخي ، وكيف يعمد الشاعر إلى جعلها متسقة مع ما أسماه (التلعثم الدلالي) الذي يطبع إنتاج الشاعر ، ثم ينتقل إلى استخلاص ظاهرتين مهمتين في لغة الشاعر تعبيرا عن استخدامه الجديد للغة ، وهاتان الظاهرتان تسيران في اتجاهين متعاضدين ، وهما : تفجير الجملة الشعرية بتضخيم مكوناتها ، إذ لايكون الفاعل أو المفعول أو الصفة أو الحال كلمة واحدة ، بل يتكون كل منها من كلمات متعددة ، والخاصية الثانية ' تتمثل في التقاء مكونات لا تلتقي مع بعضها في لغة العرف ، مثل زهرة الكيمياء وغابة الرماد ، ، وهنا يتبدى الانتقال من الإدراك الحسي إلى الإدراك المفهومي.(36)

والناقد يحرص على تعميم هذه الاستنتاجات في إطار رؤيته الكلية للشعرية العربية ، فشعرية التجريد عند أدو نيس –كما يقول- تعتبر نموذجا جليا لهذا النوع من الجماليات في الأدب العربي المعاصر .

ويشير – في مقاربته لقصيدة النثر – إلى أن هذه القصيدة تصنف في التيار الثالث بين التعبير والتجريد ؛ فهي تركز على تعطيل المعامل الأساسي في التعبير الشعري ، وهو الأوزان العروضية

دون أن تشل بقية الإمكانات التعبيرية الأخرى في أبنيتها التخييلية والرمزية ، ولهذا فهو يرى أن كفاءتها في تشغيل بقية درجات السلم تعوض عن تعطيل الدرجة الإيقاعية العروضية ، وتجعلها باقية في نطاق الشعر، ويقدم الشاعر لحديثه عن قصيدة النثر بالرجوع إلى جذر هذه القصيدة المبكر، ويعتبرها واحدة من التنويعات المهمة البارزة في الحداثة الشعرية، ويعمد إلى تقديم رؤية لاستراتيجية قصيدة النثر التي تجمع بين ثلاثة عوامل متزامنة ، وفي قيامها على أفكار راسخة ، فهي تعتمد على فكرة التضاد ،و على قانون التعويض ؛ أما العوامل المتزامنة فهي : تعطيل الأوزان العروضية المتداولة ، وتفعيل أقصى الطاقات الشعرية ، وإبراز الاختلاف الدلالي الحاد ، وأنه

لكي تكون القصيدة النثرية مستحقة للمكانة الفنية لابد لها من وحدة عضوية مستقلة , وأن تكون بنيتها اعتباطية ، او مجانبة ، و أن تتميز بالتكثيف والتركيز,

وقد حاول أن يتتبع هذه البخصائص الأسلوبية لدى الماغوط ،فيقارب العشوائية وقابلية التبنين ، وقد استشهد بأولى قصائده من مجموعته الثالثة :

الآن

والمطر الحزين

يغمر وجهي الحزين

أحلم بسلم من الغبار

من الظهور المحدودبة

والراحات المضغوطة على الركب(37)

إذ يتلمس المقومات التي تحدث عنها ،فيرى أنها تنطلق من لحظة آنية ويرسم صورا عديدة تنطلق من لحظات موغلة في القدم ، تختزن آلاف السنين من الخبرات والمشاعر ؛ وأما المقوم الثاني فيتمثل في انتظام النسق التصويري المتجاور، فالحركة الدلالية للقصيدة تتأرجح بين الأعلى والأسفل من سلم الغبار إلى السماء ليصبح الغبار غيما ؛ وأما المقوم الثالث فيكمن في النبرة الأليفة للبوح الودود (آه ياحبيبتي)

أما المقوم (أوالعصب كمايسميه) الرابع فهو الذي يضمن كثافة النص ، فالشعر يقول بالصوت ، وهو أيضا يقول بالصمت ، حيث يعتبر البيا الحيوي الموزع ة بين أنحاء النص ولونا من التشعير للغة ، وهولا يفصل ذلك عن الحس التاريخي للشاعر،فقدعبر الماغوط كما يقول الناقد عن ثورة في القلب وتمرد في ثنايا الروح .

ومن الجلي أن هذه المقومات التي سماها عصب النص في قصيدة النثر لايمكن الركون إليها كمعايير يمكن قياس شعرية النص من خلالها ، فهي ذات طابع ذوقي انطباعي ، لاتتكيء على درجات سلم الشعرية الذي اقترحه ، وإن قاربت بعضها أولامسته ملامسة رقيقة.

وفي دراسته لشعر عفيفي مطر الذي يعتبره محمد أمين العالم نموذجا للتجريد، يصنفه ممن يقفون على الأعراف مابين النافذة والمرآة ، فلاهو بالتعبيري ، ولاهو بالتجريدي ، فشعره من وجهة نظره أقرب إلى فن الأرابيسك الذي يعتمد على تكرارالوحدات في أنساق طباقية ، ويقرنه إلى الشاعر حسن طلب في بنفسجياته ، فهو لايقدم مجالا حيويا ينتمي إلى الواقع معبرا عنه ، ولايلغي الخطوط الهندسية المنتظمة ، فيقترح حله الخاص القائم على تكرار عدد من الوحدات المتجانسة والمتطابقة لتكوين نماذج كلية تشير إلى ذاتها وتسعى إلى جمالياتها في قلب للحياة الخارجية ، وهويرى أن نموذج الأرابيسك الذي يمثل بنية النص يبقى ماثلا في مستويات اللغة الشعرية وهندسة تكوينها ، ولعله يقترب في رؤيته هذه مما كتبه أحمد عبد المعطي حجازي عن حسن طلب حين عاد به إلى عصور سابقة ليشرح كيفية تثميره للتلاعب بالألفاظ على النحو الذي شاع في عصر المماليك.

ولعل ممايثير اهتمام الدارس أن منهج حسن طلب يغاير طريقة عفيفي مطر في التعامل مع اللغة، فالزخرفة أشد وضوحا لدى طلب والتجريد غالب على شعر مطر الذي يبدو أقرب إلى أدونيس في أسلوبه الذي ينزع إلى التعقيد والإغراب أكثر من الميل نحو الزخرفة والتنضيد المألوفين في فن الأرابيسك ، وهذا ما حدا بالعالم إلى اعتبار شعره نموذجا للتجريد والتعقيد .(38)

وخلاصة القول تتمثل في أن صلاح فضل الذي تجاوز عتبة النقد الواقعي إلى النقد الأسلوبي ، ظل معنيا بالجانب الاجتماعي والتاريخي ، كما بقي على مقربة من الأسلوبية التعبيرية كما سبقت الإشارة ، ولكنه لم يساير بالي في تنحيته للزمن التاريخي ،بل استمر الحس التاريخي يسيطر على استنتاجاته ، فكثيرا ما كان يستشهد بأقوال الشاعر المدروس ويعتد بها كما أن مسألة الحراك والتطور قد شغلته في دراساته لمختلف القصائد التي قاربها في كتابه موضع الدرس ' فمن المعروف أن الأسلوبية نحت منحيين رئيسين : أحدهما يعتد بالظواهر الأسلوبية فحس ، ويظل داخل النص ، وثانيهما - بالإضافة إلي عنايته بالأسلوب - يحتكم إلى مرجعيات خارج النص ، وهذا الاتجاه يحكم الكثير من معالجات فضل الأسلوبية,

أما فيما يتعلق بالمرتكزات التي قدمها في مقدمته النظرية للكتاب ، وتقوم على نوعين من التصنيف :الأول يأخذ بعين الاعتبار التشكيل الفني في كليته وشموله عبر تقسيمه الأساليب إلى قسمين رئيسين : التعبير والتجريد وقسم ثالث بين هذا وذاك ، وقد التزم به الناقد - إلى حد كبير- في دراسته ، فلم يخل مبحث من مباحثه من الحديث عن التيارين الأسلوبيين الرئيسين .

أما النوع الثاني من التصنيف فيتعلق بالجانب الإجرائي ، وهو المتصل بدرجات سلم الشعرية :درجة النحوية والبنية الإيقاعية ...إلخ ولم يلتزم به التزاما تاما في التحليل ، بل كان انتقائيا إلى حد كبير ، وخالف سنة بعض الأسلوبيين من ناحية احتفائهم بالإحصاء كوسيلة لضبط المسائل الأسلوبية وقابليتها للقياس حينا ، وسير بعض النقاد في التزامهم بهذا الإجراء حينا آخر ، وفي الوقت الذي كان ينتقد فيه من اعتمدوا على بنية المعجم الشعري استعان بالإحصاءات المتعلقة به في بعض الأحيان ، بل إن استدعاء نتائج الإحصاء التي تمخضت عنها بعض الدراسات كانت معينا للناقد في استنتاجاته ، ولكنه -في مختلف الحالات -كان ناقدا أسلوبيا لايتكيء على معطيات عينية فحسب ، بل كان ينفذ إلى جوهر الأبنية اللغوية والتصويرية والإيقاعية ، ولايتعامل مع المظهر الإحصائي الشكلي المحض بل يغوص بعيدا خلف ذلك المظهر ، ويمتلك جهازا مفهوميا نابعا من فكر نقدي، يدخل إلى النص باستراتيجية نقدية تستند إلى رؤية مسبقة في كلياتها ومجموعها ، وليس في تفاصيلها محاولا التماس الشواهد عليها عبر منهج إجرائي مرن.

الهوامش :

(1) د. شكري عياد ، مدخل إلى علم الأسلوب ، دار العلوم للطباعة والنشر ،الرياض ، 1982
(2) د.طه وادي ، جماليات القصيدة المعاصرة ، دار المعارف،ط2 1989
(3) محمد الهادي الطرابلسي ، خصائص الأسلوب في الشوقيات ، دار المعارف ، 1982
(4) د. محمد عبد المطلب ، قراءات أسلوبية في الشعر العربي الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ،1995
(5) د. ناصر علي ،بنية القصيدة في شعر محمود درويش ، وزارة الثقافة ، عمان، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، ودار الفارس للنشر والتوزيع عمان 2002
(6) د. صلاح فضل ، أساليب الشعرية المعاصرة ، دار الآداب ، بيروت ،1995
(7) صلاح فضل ، علم الأسلوب – مبادئه وإجراءاته، النادي الأدبي الثقافي ،جدة ط2 1988
(8) المرجع السابق ص48
(9) د. محيي الدين محسب ، الأسلوبية التعبيرية عند شارل بالي (أسسها ونقدها) دار حراء (10) شارل بالي :علم الأسلوب وعلم اللغة العام ، ترجمة الدكتور شكري عياد ، دار العلوم للطباعة والنشر الرياض 1985 ص36 نشر والتوزيع بالمنيا 1997 ص28
(11)) شكري عياد ، اتجاهات البحث الأسلوبي ، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض ، 1985ص 80
(12) صلاح فضل ، علم الأسلوب (مرجع سابق) ص98
(13) د. شكري عياد ، اتجاهات البحث الأسلوبي ، دار العلوم ، الرياض،1985 ص109
(14) المرجع السابق ،ص 110
(15) صلاح فضل ، علم الأسلوب (مرجع سابق)
(16) المرجع السابق ص 280
(17) المرجع نفسه ص 283
(18)المرجع نفسه ص 287
(19) المرجع نفسه ص 318
(20) د. سعد مصلوح ،الأسلوب (دراسة لغوية إحصائية) ، دار الفكر العربي ط2 1984
(21) علم الأسلوب (مرجع سابق) ص 400
(22) د. صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص ، عالم المعرفة ، الكويت ، أغسطس ، 1992
(23) أساليب الشعرية المعاصرة (مرجع سابق) ص 7
(24) المرجع السابق ص7
(25) صلاح فضل ، شفرات النص – دراسة سيميولوجية في شعرية القص والقصيد ،عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة 1995
(26) نزار قباني ، قصتي مع الشعر ،بيرون 1986 ص163
(27) أساليب الشعرية المعاصرة (مرجع سابق) ص 53
(28) شاكر النابلسي ، الضوء واللعبة – استكناه نقدي لنزار قباني ، بيروت ، 1986
(29) منير العكش ، أسئلة الشعر ، بيروت ، 1979
(30) مثل عبد الكريم حسن في كتابه الموضوعية البنيوية دراسة في شعر السياي ، بيروت 1982 ص387 وص33 وص325 وسماح عجاوي المظاهر الإيقاعية لتجربة السياب ، مخطوط ، جامعة البحرين وإحسان عباس ، بدر شاكر السياب ، بيروت 1972 ص393 ومحمد العبد ، اللغة والإبداع الأدبي ، القاهرة ،1989 ص95 ، عبد الرحمن فهمي ، الرؤية القصصية في شعر صلاح عبد الصبور ، مجلة فصول ؟أكتوبر 1981
(31) . محمود أمين العالم ، لغة الشعر العربي الحديث وقدرته على التوصيل ،في قضايا الشعر العربي المعاصر (دراسات و شهادات) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1988، ص34 وما بعدها
(32) حيدر توفيق بيضون ،محمود درويش ، شاعر الأرض المحتلة، بيروت ، 1991 ص48
(33) أساليب الشعرية المعاصرة (مرجع سابق) ص 153
(34) محمود درويش ، الآداب ، بيروت ، 1974

(35) أساليب الشعرية المعاصرة(مرجع سابق) ص185
(36) نفسه ص 207 و مابعدها
(37) نفسه ص 217 ومابعدها
(38) نفسه 229 وما بعدها

ترجمة البعد الاجتماعيّ الثّقافيّ في رواية نجل الفقير

الأستاذ: د.محمد بسناسي
جامعة ليون الثّانية
mohammedbesnaci69@hotmail.fr

الملخّص بالعربيّة:

يحفل النّص السّرديّ بزخم من المكوّنات الجماليّة التي تجذب القارئ، ويمكن القول في هكذا سياق إنّ البعد الاجتماعيّ/ الثّقافيّ يحتلّ حيّزا حيويّا في الرّواية؛ لأنّه يعكس مرجعيّة حضاريّة إنسانيّة، ويصوّر بيئة ما بكلّ خلفيّاتها، وممارساتها المتوارثة، ولما كانت التّرجمة بمثابة مركز عبور للنّصوص من نظام لغويّ لآخر، وجب التّساؤل حول تعاطي المترجم للبعد الاجتماعيّ/الثّقافيّ، ولقد اخترنا لتدارس الموضوع نموذج الأدب الجزائريّ المكتوب بالفرنسية مُمثّلا في رواية "نجل الفقير" لمولود فرعون

كلمات أساسيّة:

ترجمة، البعد الاجتماعيّ/الثّقافيّ، أدب جزائريّ مكتوب بالفرنسيّة، كلمات ذات بعد اجتماعيّ/ثقافيّ، مترجم، نصّ سرديّ.

Résumé :

Le texte narratif se nourrit de composants esthétiques qui intriguent le lecteur et captent son attention. Dans ce contexte, on peut dire que le composant socioculturel occupe une place vitale dans le roman car il reflète une référence civilisationnelle humaine et révèle un environnement avec toutes ses coutumes et ses pratiques ancestrales. Ainsi, il y a lieu de s'interroger sur la manière dont le traducteur traite le paramètre socioculturel étant donné que l'activité de traduction représente un point de passage des textes entre les systèmes linguistiques. Afin de bien aborder notre thème, nous avons opté pour la littérature algérienne francophone représentée par « Le Fils du Pauvre » de Mouloud Feraoun.

Mots clés : traduction, le paramètre socioculturel, littérature algérienne d'expression française, mots à caractère socioculturel, traducteur, texte narratif.

تمهيد:

سنسعى في هذا البحث، لفحص وتبيّن مدى اضطلاع المترجم بتتبّع ونقل مكوّنات البعد الاجتماعيّ/الثقافيّ أو ما يُصطلح نعته بالجانب السّوسيوثقافيّ، وقد شاعت استعمالا في العربيّة التّسمية الثّانية على ما هي عليه من تركيب هجين بين سابقة فرنسيّة ولاحقة عربيّة. وعلى كلّ حال، فالشّق الثّقافيّ يعكس الجوانب الاجتماعية والعكس صحيح أيضا؛ و سمة ذلك أنّ النّتاج الثّقافيّ يؤثّر في الجماعة اللّسانية، وهذه الأخيرة تُوسّع دائرة الثقافة وتُنمّيها بمكتسبات مستجدة، و قد ورد في قاموس لاروس أنّ "الثّقافة هي جملة العادات والتقاليد والتّجليّات الفنيّة والدّينيّة والفكريّة التي تُعرِّف وتُميِّز جماعة أو مجتمع ما"[1]. وألحق المصدر نفسه تعريفا آخراً للفظة ثقافة قائلا إنّها : "مجموعة المعتقدات المشتركة، و طرائق التصرف والنّظر إلى الأشياء التي تقود سلوك فرد أو جماعة بصورة واعية نوعا ما"[2]. و لبلوغ مرادنا اصطفينا مؤلّفا ذاع صيته في الأدب الفرنكفونيّ بصفة خاصّة، وهو الموسوم ب: (**نجل الفقير**) لمولود فرعون[3]. وسنعكف على تباحث بعض الإشكالات التي تطرحها عادة التّرجمة الأدبيّة من الفرنسيّة إلى العربيّة، مُتتبّعين في ذلك منهجيّة المقارنة بين النّصين الأصليّ والمترجَم، بالوصف والتّحليل، انتهاء باتّخاذ مواقف وحلول، أو بالأحرى اقتراحات لبعض المسائل التُرجميّة، مُردفين مواقفنا ببعض الأمثلة التّحليليّة والتّعليليّة.

1- طبيعة الأدب الجزائريّ النّاطق بالفرنسيّة بين اللّغة والمتن

قبل بدء أي حديث عن ترجمة النّصوص الإبداعيّة الجزائريّة ذات اللّسان الفرنسيّ، يليق أوّلا بالدّارس أن يتمعّن طبيعة هذا النّوع من الأدب، من حيث الانتماء والماهية. فهذا الأدب الذي خاض فيه روائيّون جزائريّون غير قليل، يعود إلى هيمنة اللّغة الفرنسيّة في المجتمع الجزائريّ بفعل السيطرة العسكريّة والإداريّة (1830-1962)، وكانت فوق ذلك (أي الفرنسيّة) نصيبا متاحا لنزر قليل لمن أُطلق الفرنسيّون عليهم حينذاك لقب الأهالي (Indigènes)، فعلى سبيل المثال، و بعد قرن من الاحتلال الفرنسيّ لم يكن سوى "5,4% من الفئة المسلمة تتمدرس"[4]، ففي هذا السيّاق الخاص حوصر لسان الجزائريين؛ ولم تكن العربيّة بالنّسبة لهم إذاك اللّغة التي ينثرون بها أو تلك التي يخطّون بها دواوين الشّعر.

---

[1] Voir *Le Petit Larousse Illustré*, p. 321. Culture : « ensemble des usages, des coutumes, de manifestations artistiques, religieuses, intellectuelles qui définissent et distinguent un groupe, une société».

[2] *Ibid.* « ensemble de convictions partagées, de manières de voir et de faire qui orientent plus ou moins consciemment le comportement d'un individu, d'un groupe ».

[3] مولود فرعون روائيّ جزائريّ مشهور، ولد في الثّامن من مارس من عام ثلاثة عشر تسعمائة وألف في منطقة تيزي هيبل التي تقع في القبائل الكبرى. اغتالته منظّمة الجيش السرّي (O.A.S) في الخامس عشر مارس سنة اثنين وستّين وتسعمائة وألف في الأبيار بالعاصمة رفقة خمسة من رفقائه.

[4] Abderrahmane Bouzida, *l'Idéologie de l'instituteur*, p. 10. «... soit 5,4 % de la population musulmane scolarisable.. ».

إنّ الظّروف التّاريخيّة القاهرة، تشرح سبب إقبال غالبية الرّوائيّين الجزائريّين على الكتابة بالفرنسيّة، فقد سعوا مخاطبة القارئ الفرنسيّ باللّغة التي يفهمها لإيصال حيثيات واقع مرير تكبده شعب مغلوب على أمره. ثمّ واصل كتابُ الإبداعَ باللّغة الفرنسيّة بعد الاستقلال؛ لأنّ التّعريب في الجزائر لم يكن قد دخل مراحله الأولى بعد، و قد دافع نفر غير قليل عن خيار الكتابة باللّغة الفرنسيّة بحجّة أنّها "غنيمة حرب "[1].

وعلى كلٍّ، يمكن وصف الأدب الجزائريّ المكتوب بالفرنسيّة، أنّه يقع في منزلة بين المنزلتين؛ فهو من جهة ينتمي إلى الأدب الفرنكفونيّ من حيث كونه فرنسيّ اللّسان، ومن جهة أخرى هو ذو شحنة ثقافيّة وخلفيّة مرجعيّة جزائريّة؛ فلقد أرّخ لمراحل من تاريخ الجزائر المعاصر، و غاص بامتداد عميق في محاكاة هموم الجزائريّ المختلفة، أضف إلى متنه الزّاخر بتجلّيات اجتماعيّة وثقافيّة تخصّ الفرد الجزائريّ على وجه التّحديد، من هذه التجليّات نسوق مظاهر الاحتفال والحزن وفيما جرت عليه العادة من طقوس وممارسات أفراد المجتمع المتنوّعة. ومن ثمّة يحقّ لنا أن نُصنِّفه في خانة الأدب الجزائريّ من حيث الانتماء، والهويّة والمضمون، وما اللّغة الفرنسيّة إلاّ وسيلة تعبير وإبلاغ لا أكثر ولا أقل. فلغوياً، يُصادف القارئ الفرنكفونيّ البعيد عن الواقع المغاربيّ في المتن السّردي ألفاظا لا تمتّ بصلة إلى المعجم الفرنسيّ، وسياقيّا، يلفي موضوعات بعيدة عن ما عهده من قبلُ، وفي هذا الشّأن تؤكّد الدّكتورة (سعاد محمد خضر) ذلك بقولها: "و أرى أنّه ليس من الصّواب أن نقول إنّ الأدب الجزائريّ أنّه أدب عربيّ أو بربريّ أو فرنسيّ فقط، وإنّما هو أدب جزائريّ مضمونه يعكس تقاليد، وثقافة وحياة فئات الشّعب الجزائريّ المختلفة، ولكنّه مكتوب باللّغة الفرنسيّة "[2].

2-اغتراب النّص في منفى لغويّ وعودته إلى وسطه الأصليّ

تُحسب رواية **نجل الفقير**[3] من الرّوايات التي صوّرت بصدق بالغ، وبوصف دقيق معاناة الجزائريّ أيام الاحتلال الفرنسيّ، وحياة الهامش التي كانت نصيبه المحتوم، فلن نبالغ البتّة إن قلنا إنّ النّص يحوي مادّة مسح اثنوغرافيّ لوضع بلاد القبائل على و جه التّحديد. ذلك أنّ الروائيّ أرخى العنان لقلمه وراح يسرد تمظهرات اجتماعيّة إنماز بها مجتمعه وطقوسا، وعادات تخلّلت تعاملاته اليوميّة أو المناسباتيّة. ولكأنّه يصرخ في و جه المستعمر ويشير له بوجود الذّات الجزائريّة، و بأصالتها، فتوارث التّقاليد والمحافظة عليها هو في حدّ ذاته شكل من أشكال المقاومة. من هذا المنظور، نصل بلا عناء إلى أنّ الشّخصيّة الجزائريّة تتبوّأ في طيّات المتن السّرديّ مكانة محوريّة تَعمُر المكان، وتتحدّى صروف الزّمان بكلّ أنواع التّحدّي.

يكتنف المتن الرّوائيّ الكثير من الجديد بين فصوله بالنسبة للمتلقي الفرنكفونيّ، لا سيّما فيما يتعلّق ببعض الموضوعات التي لا تخلو من غرائبيّة؛ ذلك أنّها تنتمي إلى واقع خاصّ بها، وعليه فإذا كان هناك تفاوت ثقافيّ بين مخيال المتلقيّ الأجنبيّ، وبعض مضامين المتن السّرديّ، فمن المنتظر أن يعود هذا الأخير أثناء نقله إلى العربيّة بيُسر نسبيّ؛ لأنّ اللّغة الفرنسيّة لم تكن سوى ناقل لإرث ثقافيّ متجذر في ذاكرة المجتمع الجزائريّ، ولعلّ (سعاد خضر) كانت على يقين حينما قالت: "لقد استطاع الجزائريّون أن يجعلوا منها – اللّغة الفرنسيّة– لغة تساعدهم على التّعبير عن قيمهم وأفكارهم، وتقاليدهم وبدلا من أن تكون أداة لتشويه تلك القيم والتّقاليد

[1] – مقولة مشهورة لكاتب ياسين صاحب رواية نجمة. وتجدر الإشارة إلى نظرة أخرى للفرنسيّة، بوصفها لغة إبداع بعد الاستقلال ونعني بها موقف مالك حداد الذي كان يكتب الشّعر والرّواية بالفرنسيّة، ثمّ التزم صمتا مطبقا وتوقف عن الكتابة بالفرنسية بعد الإستقلال قائلا : "اللّغة الفرنسيّة هي منفاي و سجني".

[2] – سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر– دراسة أدبيّة نقديّة، ص .4

[3] – نشرت للمرّة الأولى في سنة 1950 ثمّ أعادت دار دي سوي نشرها عام 1954.

أصبحت لهم لغة قادرة على التعبير عن تلك الشّخصيّة الجزائريّة وعن تلك القيم الجزائريّة والتّقاليد الجزائريّة نفسها"[1]. وكنّا نقصد بما أومأنا إليه سالفا، أنّه من المفروض أنْ تثير العمليّة التُرجميّة مشاكلا أقلّ حدّة من مختلف المناحي المتعلّقة بمستويات اللّغة والتّعابير التي تُحيل إلى واقع حضاريّ وثقافيّ غير فرنسيّ، كما لو أنّ هذه الأبعاد كانت مغتربة قسرا في نظام لسانيّ دخيل، وهي بفعل التّرجمة ستعود إلى موطنها الأصليّ الطّبيعيّ. و من المعلوم أنّه كلّما كانت دراية المترجم متّسعة و كافية بثقافة اللّغتين، كلّما أصبحت عمليّة نقل النّص ميسورة، وبذلك تذلّلت صعاب عدّة كانت قد تعتري أداء المترجم، هذا وإن كانت أيّ محاولة نقل نص لا تخلو في الواقع من عوائق سياقيّة ونسقيّة. لذلك لزم توافر مبادئ، و شروط لكي تنجح التّرجمة الأدبيّة، أو كي تُحرز عل الأقلّ شيئا من النّجاح منها :

* إتقان لغتي الانطلاق والوصول، والتّحكّم في مفاتيح جماليتهما.

* معرفة مُلمّة بحضارة وتاريخ وثقافة المجتمع الذي يُنقل منه وإليه. وفي هذا الصدد يقول (أسعد مظفر الدين حكيم): " ولترجمة نصّ مكتوب في لغة أجنبيّة هناك شرطان اثنان أساسيّان، الواحد منهما لا يكفي: معرفة اللّغة والحضارة التي تتكلّم عنها هذه اللّغة (وهذا معناه الحياة، الثّقافة، الأجناس البشريّة الكاملة للشّعب باعتبار أنّ هذه اللّغة هي وسيلة التّعبير"[2]. وممّا سبق نستشف أنّ ترجمة رواية (**نجل الفقير**) ليست بالعمليّة الرّوتينيّة من منطلق الخصوصيّة التي تميّز الأدب الجزائريّ المنطوق بالفرنسيّة؛ ذلك أنّ ظروفا تاريخيّة قاهرة أدّت بالمؤلّف إلى معاقرة اللّغة الفرنسيّة. وبالتّالي فنقل النّص هو أشبه بما يكون بسفريته من منفى لسانيّ إجباريّ وأوبته إلى وسطه الأمازيغيّ والعربيّ.

3. ترجمة البعد الاجتماعيّ/الثّقافيّ لنصّ الرّواية

غالبا ما يستلهمّ الأديب نتاجه الإبداعيّ من خلال ملاحظاته للوسط الذي ينتمي إليه؛ فالأدب بصفة عامّة وليد بيئته؛ ذلك أنّ المبدع يعايش أبناء جلدته، ويتفاعل معهم، يحلّل سلوكهم الحياتيّ، وعاداتهم التي دأبوا ممارستها. "فمن غير الممكن العيش في مجتمع دون التّأثّر بثقافته، بعقليته وبسلوك درج عليه أفراده، و إنّه لمن المحال البقاء بمعزل عن مضي الحياة دون الشّعور بأننا معنيين بما يدور حولنا"[3]، كما أنّ المبدع، هو ناقل للخلفيّة الثّقافيّة لمجتمعه، وبكل ما تزخر به من عطاء ومن ثراء، وعليه فالوسط الاجتماعيّ والزّخم الثّقافيّ يُعدّان إكسير إلهام المبدع.

وفي التّرجمة الأدبيّة، لا يمكن للمترجم إيصال نصّ إبداعيّ لبر الأمان إن لم يكن هو في حدّ ذاته مبدعا، وشاعرا بالأدب وبجماله. فالحِسُّ المرهف والوعي العميق بتلابيب النّصّ الأسلوبيّة والجماليّة وبحمولته الثّقافيّة وبرموزه الاجتماعيّة، كلّ ذلك يُمكّنُ ناقل النّص من بوتقته في حُلّة تتناغم وطبيعة اللّغة المنقول إليها – لغة الوصول- وبعبارة أخرى إنّ الكفاءة الأدبيّة ضروريّة حتّى لا يشذّ البعد الاجتماعيّ/الثّقافيّ عن أسلوب اللّغة الهدف.

---

[1] – سعاد محمد خضر، المصدر السابق، ص 86.

[2] – أسعد مظفر الدين حكيم ، علم التّرجمة النّظريّ، ص 47.

[3] Svetlana Pouchkova, *Vers un dictionnaire des mots à charge culturelle partagée comme voie d'accès à une culture étrangère (FLE)*, p 10 : « il est impossible de vivre dans une société et ne pas être influencé par sa culture, par la mentalité et le comportement de ses membres. On ne peut pas rester en dehors du déroulement de la vie et ne pas se sentir concerné par ce qui se passe autour de nous ».

وإذا كانت العناصر التي تُحيل إلى المجتمع والثّقافة تُشكّل جزءا هامّا من الخطاب الأدبيّ، أيْ جملة العناصر المتّصلة اتّصالا وثيقا بعادات وتقاليد وطبوع وطقوس تُراثيّة لوسط إنسانيّ ما، فكيف كان تعامل المترجم معها؟ وكيف كان صوغها للمتلقي العربي؟ سنحاول الإجابة على هذين التّساؤلين من خلال طرق العناصر التي ستلي.

1.3. ملاحظات حول النّص المترجَم

إنّه ومن خلال تتبّعنا للمتن السّرديّ الأصليّ ونظيره المترجَم، أمكننا تسجيل ملاحظات عديدة تدور حول طرائق انتهجها المترجِم لنقل النّص من لغة الانطلاق إلى لغة الوصول، نلخصها فيما سيأتي:

لقد أولى المترجم منذ بداية النّص إلى خاتمته احتراما ظاهرا لتوالي الفقرات، وتسلسل الجمل، ومن الطّبيعيّ أن يعمد – فيما يخص تركيب الجملة الواحدة – إلى كلّ الإجراءات اللّسانيّة التي تقتضيها بنية الجملة العربيّة الواحدة من تقديم و تأخير...الخ. كما لاحظنا أنّ المترجم في أحايين كثيرة يلتجئ إلى التأويل والإضافات، ولابأس أن نأخذ للتّدليل على هذا الكلام ببعض من الأمثلة:

"و ها أنتم الآن في ساحة القرية الكبرى، ساحة الموسيقيين، **أو كما نسميها الجماعة**" (ص **8**)	« Vous êtes sur la grande place du village, la place aux musiciens ; **notre djemaa** » (**p**.**13**)
"لكلّ حيٍّ جدّه **الخاص**" (ص **10**)	« Chaque quartier a son aïeul »(**p**.**15**)

تعقيب على مكوّنات الجدول:

من خلال نظرة سريعة إلى الأمثلة الموضّحة في الجدول السّابق، يتبيّن لنا بصورة لا تدع مجالا للشكّ أنّ الاستعانة بالإضافة أمر لا غنى عنه ؛ لكي تؤدّي التّعابير في لغة الانطلاق مبتغاها الخطابيّ على أكمل وجه في لغة الوصول. وغير خافٍ أنّ الإضافات ساعدت في توطيد الأسلوب للمتلقّي، وذلك بإضفاء صوغ ينساب بسلاسة حتى يتواصل نسق القراءة دون استعصاء، وفي هذا السّمت يؤكّد (محمّد عناني) بقوله: " إنّنا لا نحاكي أبنية لغويّة بعينها في التّرجمة الأدبيّة، لكنّنا نطمح في نقل روح الأسلوب"[1]. فلو لم يضف المترجم عبارة "أو كما نسميها" لأصاب الجملة بعض الخلل. وما يشدّ الانتباه أكثر، هو أنّ بعض العبارات العادية في اللّغة الفرنسيّة غالبا ما تؤول أثنا نقلها إلى عبارات اصطلاحيّة كثيرة التّداول في الثّقافة العربيّة؛ ربّما لأنّ المترجم كان يروم في مناسبات عدّ استمالة القارئ العربيّ في مسعى غير خافٍ لبثّ نوع من التّأثير البالغ في نفسه، ولعلّنا قد نكتفي بالمثال التّالي :

فكان بالإمكان أن تترجم عبارة « de venir à son aide » على النّحو التّالي : "أن يأتيَ لمساعدته"، بيد أنّه لو قارنا بين هذه التّرجمة والتّرجمة الواردة في النّص لاتّضح أنّ "و أنْ يأخذ بيده" تستهوي أكثر المتلقي العربيّ.

[1] – محمد عناني، التّرجمة الأدبيّة بين النّظريّة والتّطبيق، ص.80

وقد سجّلنا كذلك، أنّ المترجم كان يميل ميلا بائنا لتوظيف أسلوب التّرادف، فغالبا ما يأتي بمقابلين متواليين للكلمة الفرنسيّة الواحدة من مثل :

"يقسم لهم بجميع **الأولياء والصالحين**" (ص**31**)	«… qui jurait par tous **les saints** » (**p. 34**)

لم يكتف المترجم بمقابل واحد للفظة (saint) بل باثنين مترادفين وهما (الأولياء والصّالحين) وعادة ما يُستعملان بدون حرف عطف أي بصورة اسم ونعت (الأولياء الصّالحين) وهذا ما يقوّي ملاحظة توظيف التّرادف في النّص المترجَم.

لم يتوان المترجم أيضا في ترجمة كلّ الإحالات التي حفل بها النّص الفرنسيّ؛ بل وإنّه زاد عليها بأخرٍ من عندياته، لم يَرِد لها أثر في النّص الأصليّ، ولا يخفى لما لهذه الشّروحات الفرعيّة من الأهمّية بمكان؛ إذ إنّها تستجلي في غالب الأحايين العديد من الغوامض التي قد تقف حجر عثرة أثناء تلقي النّص، ونخص بالذّكر تلك الخصوصيّات المرتبطة ارتباطا وثيقا بالثّقافتين الفرنسيّة والأمازيغيّة، ومن ضمن ما أضاف المترجم من إحالات تعليقا حول عبارة وردت في النّص الأصليّ فحواها: "قال جيرونت ل سكابان : قد عفوت عنك بشرط أن تموت". فجاء تعليق المترجم كما يلي : " من مسرحيّة لموليار شهيرة (مخادعات سكابان)"[1]. و من ثمّة فإنّ الإحالة لها دور هامّ في تبديّد ما يمكنه أن يخلق إبهاما ما، أو في إعطاء السّياق الثّقافيّ لشاهد مدرج في النّصّ الأدبيّ، وذلك حتّى لا يتيه المتلقّي وسط كمّ من المعلومات المختلفة.

لقد استوقفتنا ملاحظة أخرى، وهي تلك المتعلّقة بشخص المترجم[2] فبما أنّه تونسيّ الأصل، فلقد وظّف كلمات ذات بعد اجتماعيّ/ثقافيّ تنحدر من التُراث الشّعبيّ التّونسيّ، ونحسب هذا النّوع من التّوظيف بمثابة "إقحام حقيقيّ" لمفردات لم تَرد في النّص الأصليّ، وخشية عسرها على قارئ عربيّ غير تونسيّ، راح المترجم يذيّل إحالات لإزالة غموض قد يشوب تلقيها ونورد ههنا مثالين ونصّ أحالتيهما:

"**الزهومة**"[1]: لفظ يُطلق في الدّارجة التّونسيّة على ما يُصاحب الطّعام من لحم أو شحم.

"**المحاريث**"[2]: من لغة التّلاميذ، والطّلبة بتونس تستعمل لمن يجتهدون كثيرا.

من خلال هذه الملاحظة، نستشف أنّ التّرجمة هي أيضا محطّة لتوليد التّراكم المعرفيّ ولتفاعل المحليّات الثقافية المتقاربة بين النّص الأصليّ ونص الوصول؛ فالمترجم هو أولا قارئ نابه، وفاعل ايجابي يساهم في صوغ وفي تشكيل نصّ وصول يتواءم وأفق انتظار المتلقّي المترجَم إليه. وفي هذا السياق يشد انتباه القارئ ترويض المترجم للنّص العربيّ ليترك فيه انطباعا على أنّه نص غير وافد من لغة أخرى؛ لذا توكّأ المترجم على مرجعيّات لها وزنها في التّراث العربيّ من قول مأثور ذي وقع حسن في النّفس وطريف، حتى يغدوَ الأسلوب رقيقا ومليحا، و لم يتردّد ناقل النّص في تعزيز النّص المترجم بعبارات مستوحاة من القرآن الكريم، وهي عديدة وتتكرّر، مثل:

---

[1] – مولود فرعون، نجل الفقير، تر، محمد عجينة، ص.60

[2] – محمد عجينة مترجم تونسي لم يرد ذكر اسمه على غلاف الطّبعة التي اشتغلنا عليها، وهي طبعة صادرة عن دار الغرب للنّشر والتّوزيع 2002/2001 .

[1] مولود فرعون، نجل الفقير، ترجمة محمد عجينة، ص 62.

[2] المصدر السّابق، ص 128.

« rien ne lui échappe » (**p.49**)	"فلا تعزب عنه صغيرة و لا كبيرة" (ص **48**)

يمكن للعبارة السّالفة الذّكر، أن تكون مستوحاة من إحدى الآيتين الكريمتين التّاليتين في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾"[1] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾"[2]. وبعد أن أتينا على استعراض ما استرعى انتباهنا من ملاحظات متنوّعة تخص بعض النّزعات الأساسيّة التي ميّزت نصّ التّرجمة، سننتقل الآن إلى فحص أساليب ترجمةِ مفردات تحمل بعدا اجتماعيا/ثقافيا جزائريا.

2.3. مفردات ذات بعد اجتماعيّ/ثقافيّ

نشيرُ إلى أنّ الرّوائيّ استعمل في النّص الفرنسيّ مفردات متأتيّة أصلا من المعجم اللّغويّ الجزائريّ برافديه العربيّ والأمازيغيّ، وبخاصّة لما يهُمُّ بوصف سياقات ثقافيّة وفلكلوريّة نابعة من الموروث العريق لمنطقته. وقد يُثير هذا التّوظيف المعجميّ بين ثنايا المتن السّرديّ فضول القارئ الفرنكفونيّ؛ لأنّ منظومة بعض المفردات الدّخيلة لا تنتمي إلى واقعه الحسّي أو المعنويّ، وبهذا الوصف فإنّ الفرنسيّة، لم يكن بوسعها تغطية مدلولات ومراجع ماديّة تنفرد بها البيئة الجزائريّة ممُثلة في منطقة القبائل، ممّا قاد الرّوائي إلى الاستعانة بالاقتراض حتى يُغطيَ العجز المعجميّ للّغة الفرنسيّة، ونورد منها"[1]:

الألفاظ ذات البعد الاجتماعي/الثقافي بالفرنسية	المقابل في نص الترجمة
Khalti	خالتي
Chouari	شواري
Fatiha	فاتحة
Ikoufan	إيكوفان
L'amin	الأمين

جدول رقم 1 : ألفظ لم يُثبتها قاموس لاروس

[1]– سورة يونس، الآية رقم 61.

[2]– سورة سبأ، الآية رقم 03.

[1] الرّقم الأوّل يشير إلى صفحة النّص الفرنسيّ، والرّقم الثّاني إلى رقم الصفحة في النّص العربي. خالتي (76/78)، شواري (36/38)، فاتحة (38/40)، إيكوفان (12/16)، الأمين (32/35).

تكفي نظرة عجلى للجدول السّابق؛ لنتبيّن أنّ كلا من لغة الانطلاق ولغة الوصول نقلتا ألفاظا ذات مدلولات لصيقة بواقع جزائري، وبألفاظ لها شيوع اجتماعي. ونلفت الانتباه إلى أنّ بعض الألفاظ الثّقافيّة ذات الامتداد المغاربيّ تبنّتها اللّغة الفرنسيّة في معجمها وفَرْنَسَتْهَا؛ لتُوَظَّف بصورة عادية في الخطاب، ومنها نسوق عيّنة تمثيليّة وردت في المتن السّرديّ[2]:

المقابل في نصّ التّرجمة	الألفاظ ذات البعد الاجتماعيّ/الثّقافيّ بالفرنسيّة
البركة	La baraka
كسكسي	Couscous
درويش	Derviche
جماعة	Djemaa
قبة	Kouba

جدول رقم 2 : ألفظ أثبتها قاموس لاروس

تجدر الإشارة ههنا إلى أنّ كلّ الألفاظ ذات البعد الاجتماعيّ/الثّقافيّ الواردة في الجدول الثّاني، هي كلمات مثبتة في قاموس لاروس الفرنسيّ. و كما نرى بوضوح؛ فقد حافظ عليها المترجم لما نقلها إلى العربيّة، ولكأنّ في هذه الحالة لغة الوصول استرجعت بعض مفرداتها بيسر بالغ.

3.3. بعض الهفوات في التّرجمة الأدبيّة للبعد الاجتماعيّ/الثّقافيّ

يجب أن نشير إلى أنّ أيُّ ترجمة لا تخلو من صعاب، سواء كانت أدبية أم غير ذلك، وأنّ هناك عدة مستويات ينبغي للمترجم أن يأخذ بزمامها لَمّا يهُمُّ بنقل نص من لغة لأخرى، "حتّى تغدوَ التّرجمة المنجزة ضربا من الإبداع في لغة الوصول"[1]. فالمستوى اللّغويّ يطرح مشاكلا أقل من المستوى الثّقافيّ؛ إذ إنّ بعض النّصوص الإبداعيّة غارقة في سيّاق محلّي بجغرافيته وبخصوصيّاته الثّقافيّة والاجتماعيّة، وبأبعاده الإنسانيّة كذلك. فبعض الألفاظ ذات البعد الاجتماعيّ/الثّقافيّ لم يُحافظ عليها المترجم كما هو عليه الحال بالنّسبة لكلمة (gandoura) التي ترجمها مرّة (بالجبّة)، ومرّة أخرى (بالجلباب) الذي هو لباس خاصّ بالمرأة، يستر كافة أنحاء جسمها، بخلاف القندورة المخصّصة في العادة للذّكور، ولئن كان المرادف الآخر، ونعني به (الجبّة) أكثر دقة من (الجلباب) إلاّ أنّنا نجنح إلى المحافظة على الكلمة الأصل أي (قندورة)؛ لأنّ هذا المقابل كفيل بالإحالة مباشرة إلى البعد الاجتماعيّ/الثّقافيّ الذي يبقى

---

[2] – البركة (17/20)، كسكسي (19/23)، درويش (61/62)، جماعة (8/13)، قبة (135/129).

[1] Besnaci Mohammed, *La contextualisation dans la lexicographie bilingue*, p. 393. « … Afin que la traduction réalisée soit comme une sorte de création dans la langue d'arrivée ».

هدفا يصبو أيّ مترجم إلى بلوغه، و بخاصة لما يتعلّق الأمر بالتّرجمة الأدبيّة. وعليه فكان من الأفضل أن يحافظ على لفظة (قندورة) في نصّ التّرجمة على غرار لائحتي المفردات المثبتة في الجدولين الأخيرين. ولنرى كيف ترجم عبارة تحتوي على كلمة (قندورة):

"و أراني هكذا، و قد لبست **جلبابا أبيض صغيرا ذا طربوش** ..." (ص 23/22)	« je me revois ainsi, portant une petite **gandoura blanche à capuchon** … » (p.26)

وتُعرف (القندورة) بأنّها لباس واحد متّصل ببعضه، فيه قطعة يمكنها أن تغطّي الرّأس وهي القلنسوة، والتي حسبها المترجم طربوشا. و من ههنا، نلحظ أنّ الألفاظ ذات البعد الاجتماعيّ/الثّقافيّ يمكنها أن تخلط أوراق المترجم، حتى وإن كان قريبا من الثّقافة التي يترجم منها، أو إليها، أو من كلتيهما.

الشّيئ نفسه ينطبق على لفظة (marabout) التي ترجمها ب: (شيخ) في نصّ التّرجمة. المقابل الذي اقترحه المترجم ليس دقيقا، ففي النّص الأصليّ نفسه يستعمل الكاتب لفظة (cheikh) صراحة مما يعني أنّه يفرّق بين الشّيخ والمرابط، وتبعا لذلك ينبغي أن تقابل لفظة (marabout) كلمة (مرابط).

نختم حديثنا عن ترجمة البعد الاجتماعيّ/الثّقافيّ بالتّطرّق لهنّات أخرى وقع فيها المترجم، و هي تتركّز في سياقات وصفِ صناعة الأواني الفخاريّة، و لنأخذ هذا المثال :

"كومة ضخمة من الحطب تستخدم **للشي**"(ص 44)	« un gros tas de bois qui servira à **la cuisson** » (p. 45)

نعلم أنّه من مراحل صناعة الأواني الفخاريّة – بعد إعطائها شكلها النّهائي – هو تجميعها في "محمى"، ليُوضع فوقها الحطب، ثمّ تُضرم النّار، لكي تَسخن الأواني المصنوعة و يشتدّ تماسكها شيئا فشيئا، إلى أنْ تصبح بعد ذلك صلبة تماما و متينة. ومن المعلوم أنّ لفظة (cuisson) يقابلها لغويا (الشي)، بيد أنّ سياق الحال ههنا، لا ينمّ البتّة عن شيٍّ ما أو شواء، فالطّين لا يُشوى بأيّ حال من الأحوال، ومن ثمّة كان من الأليق إيجاد مقابل أدّق يلائم السّياق أكثر. يبدو لنا أنّ لفظة "إحماء" تفي بالغرض. و في موضوع الصّناعة الخزفيّة دائما، ألفينا العبارة التّالية :

"و حالما **تنضج** الأواني" (ص 48)	« Une fois les ustensiles **cuits** » (p.49)

إنّه وبعد الانتهاء من عمليّة إحماء الأواني الخزفيّة، تشتدّ صلابة و تماسكا؛ لكن لا تنضج، فالنّضج خاصّ بالفواكه وبالخضر وبما شاكلهما. ويتّضح مرّة أخرى أنّ المترجم انقاد وراء التّرجمة الحرفية، التي لم تؤتِ لا بآنيّة حسنة و لا بأُكل مأمول. و علاوة على ذلك، فحال السيّاق لا يقبل في العربيّة أواني تنضج، ومقترحنا يكون أحد البديلين:

1 - إمّا: حالما تشتد الأواني صلابة،

2 -أو: حالما تستوي الأواني و تشتدّ.

الخاتمة :

تعجُّ رواية (**نجل الفقير**) بصورٍ حياتية تعكس جوانب من عادات وتقاليد أهل القبائل؛ فالممارسات الفلكلوريّة والطّقوس المناسباتيّة تندرج في موروث شعبيّ متجذّر، وراسخ بين أبناء مجتمع حافظ على دعائم بقائه الوجوديّة على مرِّ الزّمن وامتداده. كما أنّ البعد الاجتماعيّ/الثّقافيّ يُشكِّلُ خلفيّة حيّة للمتن السّرديّ، ويُلوّنه بخصوصيّة متفرّدة، تُعطي للقارئ نظرة شاملة عن طبوع تراثيّة خلال فترة صعبة من الاحتلال الفرنسيّ للجزائر.

وعرفنا أنّ الأدب الجزائريّ المكتوب بالفرنسيّة، ما هو إلاّ اغتراب نصيّ جزائريّ في نظام لسانيّ فرنسيّ، تبعا لظروف تاريخيّة قاهرة، وأنّه كان وسيلة مباشرة لمخاطبة الآلة الإحتلالية ولتذكيرها بأنّ هناك شخصية جزائرية لها قوائمها الحضاريّة وامتدادها اللّغويّ بشّقيه الأمازيغيّ والعربيّ.

من خلال عديد الأمثلة التي سُقناها، اتّضح جليّا أنّ إنجاز التّرجمة الأدبيّة ليس أمرا هيّنا، حتى ولو كان نوع انتماء النّص ومحتواه قريبان من ثقافة المترجم؛ ذلك أنّ هناك محليّات خاصّة بكلّ قطر ينتمي إلى فضاء لسانيّ واحد؛ فالقطر المغاربيّ شاسع، يمكننا أن نجد فيه تباينات في المسميَّات والتّعابير تتغيّر من بلدٍ لآخر؛ لذلك فترجمة المتن السّرديّ قد تكون ضربا من الإبداع؛ لكن في حدود ما حلّق فيه النّصّ الأصليّ. ولقد رأينا أنّ التّركيز على المستوى اللّغويّ وحده، قد يجعل النّصّ ينفلت من قبضة المترجم، الذي من المفروض أن يُعطيَ البعد الاجتماعيّ/الثّقافيّ حقّه من النّظر والتّفكير؛ فلمّا يكون النّص حاكياً لمحلية قطريّة، وجب البحث عن المقابلات التي يقصدها المبدع، حتى تحرز التّرجمة نجاحا ملموساً.

المراجع و المصادر:

القرآن الكريم

بالعربيّة :

1 -أسعد مظفّر الدّين حكيم، علم التّرجمة النّظريّ، دار طلاس، دمشق، 1989م.
2 -خضر سعاد محمد، الأدب الجزائريّ المعاصر: دراسة أدبيّة نقديّة، المكتبة العصريّة، بيروت، 1967م.
3 -عناني محمد، التّرجمة الأدبيّة بين النّظريّة والتّطبيق، الشّركة العالميّة للطّباعة والنّشر، لونجمان، مصر، 1997م.
4 -فرعون مولود، نجل الفقير، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، تر: محمد عجينة، وهران، 2002/2001م.

بالفرنسيّة :

1- BESNACI Mohammed (2012), *La contextualisation dans la lexicographie bilingue : le cas du dictionnaire français-arabe*, Université Lumière Lyon II, Thèse de doctorat en L.T.M.T soutenue le 20 mars 2012.
2- BOUZIDA Abderrahmane (1976), *L'idéologie de l'instituteur,* Alger, SNED.
3-FERAOUN Mouloud (1954), *Le Fils du Pauvre*, Paris, Editions du Seuil. Collection Méditerranée.
4-Le Petit Larousse Illustré (2004), Paris, Larousse, 100 eme édition 2005.
5-POUCHKOVA Svetlana (2010), *Vers un dictionnaire des mots à charge culturelle partagée comme voie d'accès à une culture étrangère (FLE) : le cas des apprenants immigrés adultes multiculturels*, Université de Strasbourg, Thèse de doctorat en Sciences du langage, soutenue en 2010.

البنية العاملية في رواية : البطاقة السحرية ل "محمد ساري"

الأستاذة: ليلى قاسحي
- جامعة الجزائر2 -

تعتبر الشخصية أساسا مهما من أسس العمل الأدبي، والروائي على وجه التخصيص، إذ يصعب علينا تصوّر أحداث قصة أو رواية دون شخصيات تقوم بتلك الأحداث، وهذا ما يؤكده الناقد الفرنسي رولان بارث Roland Barthes، حيث يقول :"لا يمكننا أن نقول أن ثمة قصة واحدة في العالم دون شخصيات".[1]

وانطلاقا مما سبق يمكننا فهم حرص النقد الأدبي، واهتمامه البالغ لمكون الشخصية الروائية لما تحتله من موقع مهم في كل الأعمال الإبداعية حيث يعتبرها "فليب هامون" "Phillipe Hamon" من نقاط الارتكاز التقليدية للنقد قديمه وحديثه، وللنظريات الأدبية.[2]

ومن هنا تباينت البحوث التطبيقية التي عالجت الشخصية الروائية، وتنوعت نظريات الباحثين والنقاد، وعرفت الحركة النقدية في هذا المجال تطورا ملموسا خاصة بعد ظهور حركة الشكلانيين الروس (1915م – 1930م) دون أن ننسى المجهودات الجبارة التي قدّمها لفيف من النقاد لصقل مختلف النظريات أمثال :رولان بارث، يوري لوتمان، فيليب هامون... ولكل واحد منهم رأيه الخاص، وطريقة تعامل مميزة مع هذا المكوّن الفعّال.

ويعتبر حسن بحراوي أن الشخصية هي "العنصر الوحيد الذي تتقاطع عنده كافة العناصر الشكلية الأخرى بما فيها الإحداثيات الزمانية والمكانية الضرورية لنمو الخطاب الروائي".[3]

وتعتبر نظرية "فيليب هامون" في عنصر الشخصية الروائية من النظريات المهمة التي اكتسحت البحوث النقدية عموما، والدراسات العربية على وجه التحديد، التي لا تزال في حاجة ماسة إلى مصادر جوهرية لتطوير الخطابات الأدبية، فقد ركز "هامون" في دراسته للشخصية على الناحية الوظيفية على مدار المتن الروائي حيث يقول :"تشمل الشخصية على المستوى الحكائي وظيفة البناء، يقوم النص بتشييده، أكثر ممّا هي معيار مفروض من خارج النص".[4]

ومن خلال هذا القول نستنتج أن الشخصية علامة مهمة في خضّم أحداث النص الروائي، حيث تتحقق معاينتها من خلال علاقتها بجميع المكونات السردية الأخرى، ولا يتأكد حضورها إلاّ بعد قراءتها وإدراك أدوارها المسندة إليها، والوظائف التي تقوم بها، وعلاقة التأثر والتأثير بين الشخصيات الأخرى داخل النسيج الروائي. وكان لـ"فلاديمير بروب" "Vladimir propp" دور كبير في وضع نموذج أولي وقاعدي لتكوين نظرية سميائية سردية، من خلال كتابة "مورفو لوجيا الحكاية"، فقد حدد فيه العناصر الأساسية المكونة للحكاية : Histoire، وهي ما اصطلح على تسميته "الفعل : Action". وأطلق عليه بروب مصطلح "وظيفة" "Fonction"، فقد اهتم بوظائف الشخصيات، وأهمل جميع تفاصيل مظاهرها وصفاتها، فقد ركّز على ما تفعله الشخصية، وقد حصرت هذه الوظائف في 31 وظيفة.

وقد أفاد غريماس "Grimas" من أبحاث "بروب" "propp" فحاولا معا تحديد هوية الشخصية في الحكي بشكل عام خلال مجموع أفعالها دون غض النظر عن العلاقة القائمة بينها وبين الشخصيات الأخرى.

ويعتبر النموذج العاملي "Modèle actantiel" الذي وضعه غريماس من القواعد الأساسية والضرورية لوصف الشخصيات وترتيبها في الحكاية، وقد ميّز بين قطبين أساسين هما :

1. **العوامل Actants** : فواعل تقوم بإنجاز أفعالها، حيث تتخذ فيه الشخصية مفهوما شموليا مجردا تهتم بالأدوار، ولا تهتم بالذوات المنجزة لها.
2. **الممثلون Acteurs** : شخصيات تقوم بدورها في الحكي تشارك مع غيرها في تحديد دور عاملي واحد، أو عدة ادوار عاملية.[5]

ويرتكز النموذج العاملي على أفعال الشخصيات، وينتظم داخل المسار السردي وفق نسق قائم على الثنائيات أو الأزواج:

الفاعل ________ الموضوع (محور الرغبة) axe de désir

المساعد________ المعارض (محور القدرة) Axe de pouvoir

المرسل_________المرسل إليه (محور الاتصال) Axe de communication

ويمكن تمثيل هذه البنية العاملية بالترسيمة السردية : "Schéma narratif" التالية :

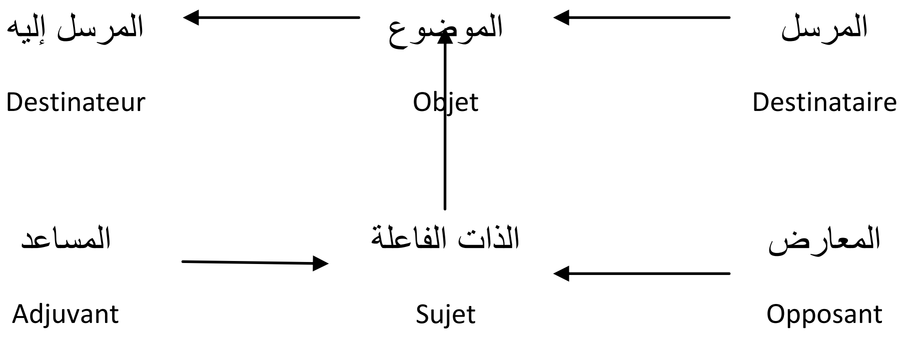

ومن خلال هذه الترسيمة السردية نجد أن الذات الفاعله ترغب في الاتصال بموضوع القيمة objet de valeur، الذي يشكل قاعديا الصراع بين ذات الفعل (الفاعل)، والذات المضادة (المعارض)، المتموقعتين داخل الحكي حيث يهيمن أحدهما في بداية السرد، بينما يهيمن الثاني في نهايته لكنهما يلتقيان في لحظة ما، أين تتم المواجهة بين الذوات في شكل سجالي أو تصالحي".[6]

كما تجدر الإشارة إلى أن الذات الفاعلة لغرض معين واتصالها بموضوع القيمة ينبغي أن يمر بأربعة مراحل أساسية :

1. مرحلة التحفيز (motivation)
2. توفر الكفاءة (compétence)
3. مرحلة الإنجاز(performance)
4. الحكم على الإنجاز (sanction)

وبعد هذه الوقفة النظرية البسيطة سنسعى إلى الاقتراب من المسار السردي Parcours Narratif واستنباط النية العاملية في رواية البطاقة السحرية[7] لمحمد ساري. واستخراج البرامج السردية Programme Narratifs، باعتبارها مقطع منظم، مكوّن من تعاقب الحالات والتحولات، ينشأ عنه تحوّل رئيسي من الاتصال Conjonction إلى الانفصال Diconjonction [8]، والبرنامج السردي مرتبط حدوثه بتحقيق مرحلة الإنجاز التي يتم فيها التحول [9]، لكن قبل ذلك سنسعى إلى تقديم ملخص وجيز عن الرواية.

ملخص رواية البطاقة السحرية لمحمد ساري :

تناقش الرواية قضية وطنية مهمة، وقد تناولها الروائي بطريقة روائية جريئة، وعبّر عن الطابع العام لهواجس الرواية الجزائرية المتمثل في الثورة التحريرية، وعمّد فيها إلى كتابة تاريخ الجزائر المعاصر من خلال العودة إلى فترات تاريخية عرفتها الجزائر إبان الثورة التحريرية، تجري أحداث الرواية في قرية "عين الفكرون"، بطلها "مصطفى عمروش"، الذي يتصف بمجموعة من الصفات الكريمة: كالشرف والنبل والإخلاص للوطن، والتفاني في العمل، والوفاء للثورة والثوار، يشغل منصب رئيس قسمة المجاهدين والشهداء، وفي المقابل نجد شخصية "أحمد تكوش" الملقب بالسارجان، انتهازي وصولي، يتميز بصفات الجشع والاستغلال، والعمل لحساب العدو، وضد مصالح الثورة، يملك من المال الكثير، ومن الجاه والسلطان ما يجعله أثرى وأشهر شخص في القرية، يمثل السارجان قطب خونة الثورة، وعملاء فرنسا، حيث كان مكلّف بالوشاية بالمجاهدين، وكشف مخططاتهم، وكان يرفض بيع المواد الغذائية للمقاومين، ولكن بعد الاستقلال يسعى إلى تحريف هذه الحقائق وتزييفها حيث أصبح يقرّ بأنه خدم الثورة، وساعد الثوار لكن مصطفى عمروش، كان يعرف حقيقة هذا المراوغ جيدا.

أراد أحمد تكوش أو "السرجان" الحصول على بطاقة المجاهد (بطاقة الانخراط في الثورة التحريرية)، هذه البطاقة السحرية التي ستمنحه الكثير من الامتيازات، كالمجد والشرف حتى يصبح أكثر قدرا وشأنا، حيث يسعى على مدار النص كلّه جاهدا للحصول عليها، متبعا في ذلك كل الوسائل والوسائط، لكن العقبة الوحيدة لتحقيق الغاية هي "مصطفى عمروش" الذي يرفض رفضا قاطعا هذه المهزلة –كما يسميها- خائن ببطاقة مجاهد، هذا ما لم يقبل به رغم كل المحاولات الترغيبية والترهيبية، لكن يظل مصطفى عمروش متمسكا بموقفه، ويبقى الصراع قائما بين الطرفين إلى أن تنتهي الرواية نهاية مأساوية، حيث يقوم مصطفى بقتل السارجان أمام مرأى من الناس ومسمعهم، ومع سابق الإصرار والترصد ويزج مصطفى في السجن.

تحديد البنية العاملية في الرواية :

يتأسس التركيب العاملي في البطاقة السحرية على عنصر الصراع القائم بين الأطراف الفاعلة في الأحداث، ولا يتسنى لنا فهم هذا الصراع إلا من خلال الأفعال التي تنجزها الشخصيات، والتي بدورها تمكننا من تحديد أوضاع القوى الفاعلة في النص وإدراك نمطية العلاقة الموجودة بين مختلف الأطراف المتفاعلة فيه من خلال استنباط البرامج السردية Programmes narratifs التي تقوم بها الشخصيات رغبة منها في التحول من وضع إلى آخر.

فبموجب هذا التحول تدرك استراتيجيات القوى المتصارعة المجسدة عن طريق البرامج السردية الرئيسية والملحقة، حيث تقودنا هذه العملية التحليلية إلى فهم الرهانات السميائية في الرواية، وضبط أدوارها الدلالية.

يقوم الفصل الأول: في رواية "البطاقة السحرية" على برنامج سردي للذات الفاعلة Sujet فيه السرجان، الذي يسعى إلى تحقيق مشروع الاتصال بموضوع القيمة Objet de valeur. المتمثل في الحصول على بطاقة الانخراط في جيش التحرير

الوطني، وللسرجان مجموعة أغراض thèmes تخوله للاتصال بموضوع القيمة (المال، المكانة الاجتماعية، الأصدقاء، الوساطة) فالرغبة موجودة، ومعرفة الفعل قائمة، لكن الدخول في وصلة "Conjonction". مع الموضوع يولد صراعا مع الذات الفاعلة الضديد" (Anti sujet) متمثلة في "مصطفى عمروش"، الذي يرفض توقيع البطاقة ومنحها له. ويمكن فهم هذه البنية العاملية، من خلال الترسيمة السردية التالية:

المرسل : الشرف والمجد ← الموضوع: الحصول على البطاقة السحرية ← المرسل إليه: المجتمع

↑

المعارض : مصطفى عمروش ← الفاعل (أحمد تكوش أو السارجان) ← المساعد : - المال
- الجاه
- الأصدقاء

رفض المعارض (مصطفى عمروش) تحقيق رغبة الفاعل، يؤدي إلى فشل البرنامج وتأجيل تحقيقه وانجازه، مما يؤدي بالفاعل (السارجان) إلى إنجاز برنامج سردي ملحق programme narratif annexe أين يصبح المعارض أو الذات الفاعلة الضديد (مصطفى عمروش) موضوعا للقيمة، حيث يسعى "السارجان" إلى استمالته ومحاولة إقناعه بأنه جدير بالحصول على البطاقة، حيث يسعى في ملفوظ الفعل Enoncé du faire إلى الانتقال إلى مرحلة الإنجاز، فيأخذ المسار السردي طريقه نحو التحول Transformation ووضع المخطط التالي :

1. **اليوم الأول**: استمالة مصطفى عمروش بالرفق واللين:"ولم يتفطن (مصطفى) إلى كلاصون سيارة متوقفة قرب الرصيف المقابل للشارع ... فتح الباب، وقف السارجان متكئا على سقف السيارة المغبر ونادى بأعلى صوته الجهوري 'يا سي مطصفى، يا سي مصطفى) ... فبادره بالتحية مصطنعا ابتسامة مهادنة، ودعاه إلى جولة قصيرة في سيارته الفخمة، فإنقاد مصطفى عمروش عن غير رغبة ... وطاف حول ذكريات الماضي البعيد، أيام الحر والجوع والتشرّد الجماعي"[10].
2. **اليوم الثاني**: محاولة استبعاده من منصبه، وإقناعه بالتقاعد، والتحول إلى التجارة:"اسمع يا سي مصطفى، لقد تقدمت في العمر، فلماذا لا تفكر في مستقبلك ومستقبل أولادك، فتطلب التقاعد، وتفتح لنفسك محلا تجاريا، يوفر عنك المتاعب وتعيش بقية حياتك سعيدا مستريحا"[11].
3. **اليوم الثالث**: التصريح المباشر بالرغبة في الحصول على البطاقة، وعرض الرشوة:"أحتاج إلى إمضائك كي أحصل على شهادة المشاركة في الثورة"[12] "لا يكلفك الإمضاء شيئا، بل سنربح الكثير معي، فخيري كالبحر ...أنا

مستعد للدفع، أطلب ما تريد وسأحضرها لك في الحين"[13] وكانت ردة فعل مصطفى" قوية حيث "صعق مصطفى عمروش، وكاد يختنق غيظا"[14]. ويمكننا فهم هذه البنية العاملية من خلال الترسيمة السردية التالية :

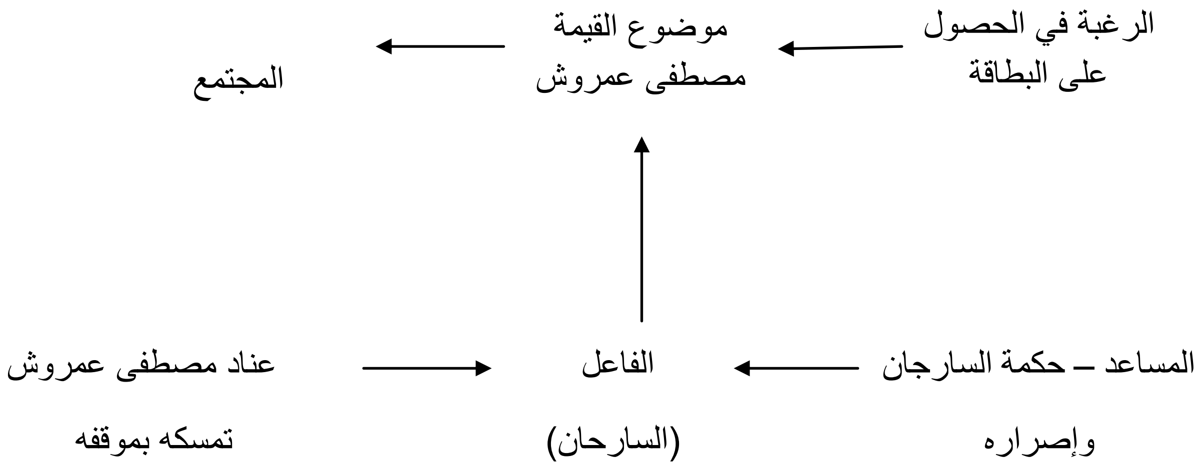

نستنتج ممّا سبق أن البرنامج السردي الملحق فشل هو الآخر مما يؤدي إلى دخول الفاعل في حالة انفصال مع موضوع القيمة، وتقهقر المسار السردي، والعودة إلى نقطة البداية، وانتقال الفاعل من ملفوظ الفعل إلى ملفوظ الحالة، مما يؤدي إلى فشل البرنامج، وشعور الفاعل بالإحباط واليأس وخيبة الأمل. مما يؤدي بالسرجان إلى استعمال وسائل أخرى للتعويض عن نفسه، واسترداد جزءا من عزته ويتضح ذلك من خلال هذا المقطع السردي: "سآخذ البطاقة بالمليح أو القبيح سآخذها رغم أنف مصطفى عمروش، الذي يحسب نفسه المجاهد الوحيد في هذه القرية ... كلنا ساعدنا الثورة، ماذا كان مصطفى هذا؟ حارسا للمغاور ولم يشارك في أية معركة، بل كان يعجن الخبز مع زوجته ويحضران الأكل للمجاهدين الحقيقيين،كان مثل المرأة تماما، واليوم ينصب نفسه وصيا على الثورة"[15].

نستنتج من خلال هذا الملفوظ السردي أن السارجان وبعد فشل برنامجيه الرئيسي والملحق، لا يجد إلا الانتقام من مصطفى عمروش محاولا تشويه سمعته، وتلطيخ تاريخه الثوري، والتقليل من قيمته بأسلوب ساخر (حارسا للمغاور، يعجن الخبز، كان مثل المرأة تماما".

وعلى الرغم مما سبق يبدو أن السارجان لم يشف غليله بعد، بل يواصل في إلحاق الضرر بمن ساهم في تحطيم حلمه، وإفشال برنامجه فعمد إلى تشويه صورة الشهيدة حورية (زوجة مصطفى عمروش، التي التحقت بصفوف الثورة، وعملت كممرضة). ربما تكون قد فقدت عذريتها معه قبل صعوده إلى الجبال ... وهل كانت زوجته وحده فقط..."[16].

يعبر هذا المقطع السردي عن تحول مهم في مسار الأحداث، ويحدث خلخلة واضحة في السيرورة الحدثية.

حيث يصبح ها الكلام القبيح محفزا قويا للتخطيط لبرنامج آخر، حيث يقرر مصطفى عمروش الدخول إلى اتصال بموضوع القيمة (المتمثل في قتل السارجان)، فالدافع المحفز متوفر، ومعرفة الفعل حاضرة عنده باعتباره رجل سلاح وثورة، والقدرة والرغبة في الفعل حاصلتان بشكل بديهي دون اللجوء إلى برامج سردية ملحقة، بالنظر إلى الحالة النفسية السيئة التي اعترته بعدما سمع ذلك الكلام ونلمس ذلك من خلال هذا الملفوظ السردي : "في هذه اللحظة نزل الصمت على القاعة الواسعة كالصاعقة، وجمّد الزبائن في أماكنهم لا يحركون ساكنا، ولا ينطقون حرفا، ثم بعد التحقق من هوية القادم نحو المقهى، انتفض الجميع في

صخب فوضوي بإزاحة الطاولات وإطاحة الكراسي على البلاط قاصدين جميعا الباب الخارجي قبل وصول الزائر الخطير، كان مصطفى عمروش يتقدم في الشارع الرئيسي بخطى ثابتة وقسمات صارمة معولة على فعل رهيب، مصوبا بصره الحاقد على ماسورة البندقية اللامعة."[17]

المتمعن في هذا المقطع السردي يجد نفسه أمام تنقلات سردية مهمة وكأننا بصدد مشاهدة صورة سينمائية حية تنم عن الجرأة والجدّية في الحدث حيث نجد:

1) نزل الصمت على القاعة الواسعة كالصاعقة
2) جمد الزبائن في أماكنهم لا يحركون ساكنا
3) انتفض الجميع في صخب فوضوي (بعد التأكد من شخصية مصطفى).
4) قاصدين جميعا الباب الخارجي

نلاحظ جيدا أن هذه الوصلات السردية تدل على حدة الموقف وهيبته، وتمهد لوقوع حدث مهم وجليل.

وهنا يكتسب الفاعل كل الشروط التي تجعل منه منجزا حقيقيا، حيث ينتقل من ملفوظ حالة إلى ملفوظ فعل بامتياز، وخاصة بعدما نسبت إليه صفات (الزائر الخطير، خطى ثابتة، قسمات صارمة معوّلة، البصر الحاقد) التي تصعّد وتيرة الحدث، وتستفز الفعل وتحفزه إلى أن يصل إلى مرحلة الإنجاز والدخول في وصلة مع موضوع القيمة (المتمثل في قتل السارجان) وتحقيق البرنامج السردي، "تحركت سبابة اليد اليمنى لمصطفى ضاغطة على الزناد دون شفقة، فانطلقت الرصاصة الأولى مدوية، واستقرت في صدر السارجان الذي أطلق صيحة حادة، فأضاف له المنتقم رصاصة ثانية في الرقبة، حيث انفجر الدم المتوقف فوق البلاط...جثة تتخبط وسط الدم، أصدرت شخيرا بطيئا ثم فجأة همدت وانقطعت عن الحركة".[18]

ويمكننا توضيح ما سبق بالترسيمة السردية التالية :

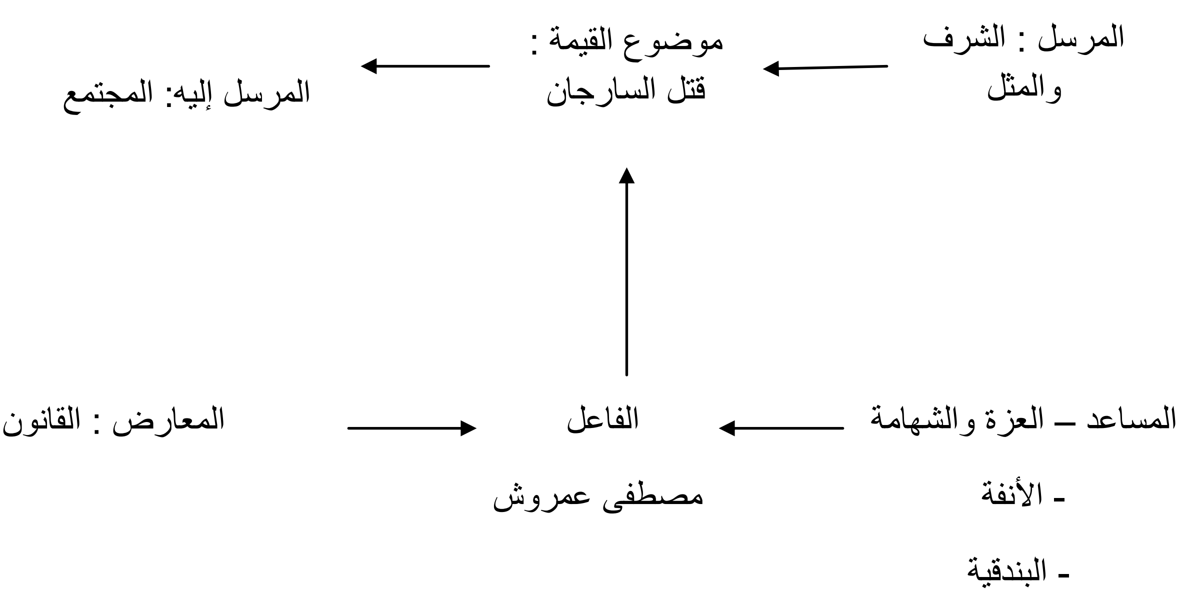

ومن خلال هذه الدارسة المتواضعة للبنية العاملية في رواية البطاقة السحرية نستنتج موقف الروائي من خونة الثورة، والرواية تأكيد على أن مقاومة الطفيليين الوصوليين والعملاء الذين يحاولون تشويه التاريخ وتحريفه لصالحهم لم تنته بعد، فالثورة لا تزال مستمرة وقائمة إلى زمن ما بعد الاستقلال لشرذمة المستعمرين الجدد المستفيدين من عدة امتيازات رغم خيانتهم قبل الاستقلال، وأن الحرب التحريرية الكبرى لم تكن سوى مشروع لم يكتمل إنجازه، وأنّ الطرف المهمش بعد الاستقلال هو المؤهل لاستكمال المشروع المستقبلي، وهذا ما نستشفه من خلال مقدمة الرواية المعنونة بـ "مفتتح الحلم"، حيث يؤكد الروائي "لسنوات طويلة ونحن نركض اتجاه أبواب مشعة حالمين باليوم الذي ستنفتح فيه الأنوار والورود، خالدين فيها أبد الدّهر، ويوم انفتحت، تحوّل الأفق المشّع إلى عاصفة هوجاء جرفتنا بوحشية جنونية، أعادتنا إلى حيث كنّا رفقة الوباء والجهل والظلمة الحالكة"[19].

فالرواية مشروع سردي واضح يسعى فيه الروائي إلى تحقيق برنامجه السردي المتمثل في محاربة الخونة.

ويمكن تلخيص ما سبق من خلال الترسيمة السردية التالية:

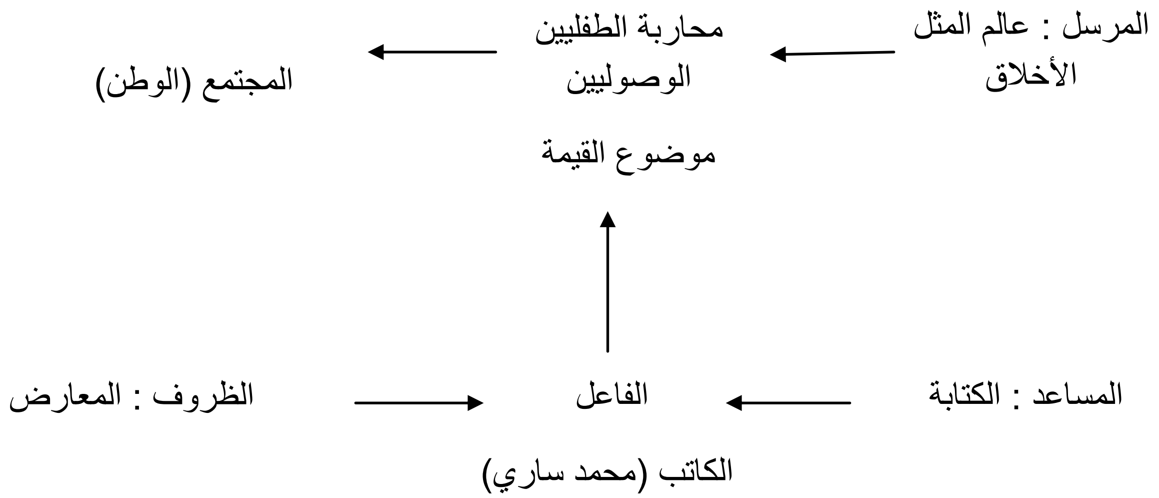

الهوامش:

1. Barthes (Roland) : poétique du récit, Editions du Seuil, 1977, P :33
2. Hamon (Phillipe) : pour un statut sémiologique du personnage, in poétique du récit, Editions, du seuil, Paris 1977, P :15.
3. بحراوي (حسن): بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ص:20.
4. Hamon (Phillipe) : pour statut sémiologique du personnage, P :98
5. لحمداني (حميد) : بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3 -2000، ص: 52.
6. روابنية (طاهر): سرديات الخطاب الروائي المغاربي الجديد، مقاربة نصائية، نظرية تطبيقية، في آليات المحكي الروائي. رسالة دكتوراه دولة، قسم اللغة العربية وآدابها 2000/1999، ص: 33.
7. ساري (محمد) : البطاقة السحرية (رواية)، منشورات التبيين الجاحظية سلسلة الإبداع الأدبي، الجزائر: 2000.
8. القاضي (محمد) في البنية القصصية ودلالتها، تطبيق نظريات علم القص على رواية الزلزال، الحياة الثقافية (تونس) ع41، سنة 1985، ص: 18.
9. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
10. الرواية، ص: 06
11. الرواية، ص: 09
12. الرواية، ص: 14
13. الرواية، ص: 14
14. الرواية، ص: 12
15. الرواية، ص: 19
16. الرواية، ص: 131
17. الرواية، ص: 134
18. الرواية، ص: 135.
19. الرواية، ص: 03.

شعريّة اللّغة الروائية
رواية (تراب الغريب) لهزاع البراري أنموذجاً

الأستاذ: د. عماد عبدالوهاب الضمور
جامعة البلقاء التطبيقية (الأردن)
الأستاذ: د. حسن مطلب المجالي
جامعة البلقاء التطبيقية (الأردن)

ملخص :

تحاول هذه الدراسة الكشف عن اللغة الشعريّة، وتجلياتها في رواية تراب الغريب للروائي الأردني هزاع البراري، وذلك بالوقوف عند بعض عناصر الشعريّة التي تقترب بلغة الرواية من لغة الشعر، وتكسبها أبعاداً فنية محمّلة بدلالات مجازية، تمنح المتلقي فرصة التأويل، والقراءة المتعددة.

لقد تجلّت الشعريّة في رواية (تراب الغريب) من خلال العناصر التالية: العنوان، والانزياح اللغوي، وأسلوبي التساؤل، والتكرار، فضلاً عن استخدام الجمل الاسمية لما تمتلكه من قدرة على التجسيد، والإيحاء بالمعنى.

Novelistic and Poetic Language
(Torab Al Greeb) Novel for Hazza Al Barrari

DR. Imad Al Dmoor DR. Hassan Al Majali

This study tries to reveal on the poetic language and its dimension in the (Torab Al Gareeb) novel for the Jordanian novelist Hazza Al Barari. And that could be by concentration on some poetic elements which are very close to the novel language from poetry language and gave it artistic aspects which full of metaphorical, gives the receiver a chance for interpretation and multi reading. The poetic appears in the (Torab Al Gareeb) novel through the following elements : title, linguistic metaphor and the style of query and repetition , aside from using the nominal sentences because it have the ability of typification and Suggestiveness of the mean.

المقدمة:

تظهر علاقة الشعر بالسرد قديمة، إذ يحتفظ الموروث السردي العربي بنماذج دالة، تواتر توظيف الشعر في نصوصها على غرار رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، والحكايات الخرافية في ألف ليلة وليلة، وغيرها من المؤلفات النثرية القديمة التي لم يكن توظيف الشعر فيها زينة لفظية، أو عنصراً شكليّاً، بل جاء دافعاً للسرد، وجزءاً من بنيته القصصيّة.

لعلّ الرواية هي أكثر الأنواع الأدبية في العصر الحديث انفتاحاً على الأجناس الأخرى، ممّا يجعلها تبدو عصيّة على التجنيس، لأنّها مادة" سيميائية معقدة، وغير متجانسة، تقاوم كلّ محاولة تعريفية"[1].

لقد بدأ الحديث عن شعريّة الخطاب الروائي عند الشكلانيين الروس، إذ أخذ الخطاب الروائي يأخذ بعداً منهجيّاً، فنجد(جان كوهن) يُعرّف الشعريّة بأنها" علم موضوعه الشعر"[2]. أمّا(رومان ياكوبسن) فقد شكّل حديثه عن أدبية الخطاب مدخلاً للشعريّة بشكل عام، إذ يرى أن الشعريّة تهتم

" بالمعنى الواسع للكلمة، وبالوظيفة الشعريّة، لا في الشعر فحسب، حيث تهيمن هذه الوظيفة على الوظائف الأخرى للغة، وإنما تهتم بها أيضاً خارج الشعر، حيث تُعطى الأولوية لهذه الوظيفة، أو تلك على حساب الوظيفة الشعريّة"[3].

يسمي (تزفيتان تودروف) الشعريّة " بالقوانين العامة التي تنظّم ولادة كلّ عمل"[4]. إذ يقدّم تمييزاً بين اللغة النثرية، واللغة الشعريّة، فيرى بأن الأولى مبررها الخارجي هو نقل الفكر للاتصال بين البشر، فهي وسيلة لا غاية، بينما الثانية، تبريرها في ذاتها، فهي غاية مستقلة، وقد تبنّى الشكلانيون الروس هذا المفهوم في كتاباتهم[5].

وفي إطار الشعريّة، والاتّجاهات الأدبية، تطورت أسلوبية الرواية، وكان(ميخائيل باختين) من الروّاد الأوائل، فيرى أن الرواية " ظاهرة متعددة الأسلوب، واللسان، والصوت"[6].

إنّ انفتاح النصوص الأدبية على بعضها البعض، لا يعني زوال الحدود الفاصلة بينها، لأن أدبية الخطاب أصبحت متاحة للمبدع بشكل عام دون النظر إلى الفن الأدبي الذي يكتبه، " فسمة الأدبية في النص لم تعدّ محصورة في بعض أجزائه دون أخرى، ولا فيما يتولّد عن بعضها من صورة أو انزياحات، وإنما هي ثمرة لكلّ بناء النص، حتى ولو تجلّت ظاهريّاً في شكل مقطع محدد منه"[7].

فالرواية حين تستثمر أدوات الشعر، "لا تغدو شعراً، وتتخلّى عن خصائصها السردية بقدر ما تختلس من الشعر ظلاله"[8].

وهي في الوقت نفسه لا تستطيع الوقوف بمنأى عن تأثيرات الفنون الأدبية الأخرى؛ لما تمتاز به من مرونة، وتنوع، سمح للفنون الأخرى التسلل من خلالها، كما تسللت هي إلى الفنون الأخرى، ومرجع ذلك هو" تمرد الشكل الروائي المستمر على ذاته استجابة لظروف البيئة المحلية، وطواعيته، وقدرته على استلهام أدوات، وتقنيات فنية متنوعة من الشعر، والدراما، والسينما، .. وتمثله السريع لمنجزات العلوم الإنسانية، والطبيعية، وتفاعله مع تطورات الفكر الأدبي المحلي، والعالمي"[9].

إنّ الجنس السردي يتساوى في درجته الأدبية مع الشعر، ذلك أنهما" يتواليان، ويترابطان دون تعارض بحيث يُهّيئ الأول الثاني، ويشمله، كما يحدث أن تُحضّر الحركات الإصلاحية أرضية الثورات"[10].

لكن تبقى اللغة المحدد الواضح لشعريّة النص السردي، إذ يوجه الباحث في النسيج السردي اهتمامه نحو الألفاظ المفردة قبل دخولها في نظام الجملة؛ ليستقي منها ما يعين في بيان شعريّة النص.

تحاول هذه الدراسة الوقوف على شعريّة اللغة الروائية في رواية" تراب الغريب" للروائي الأردني هزاع البراري (المولود عام 1971م)، الذي كتب في القصة، والرواية، والمسرح، والدراما. أصدر رواية(الجبل الخالد) عام 1993م، ورواية(حواء مرة أخرى) عام 1995م، ورواية(الغربان) عام 2000م، ورواية (تراب الغريب) عام 2007م، التي حقق فيها الكاتب نضجاً فكرياً، وفنياً،" فاستطاع توظيف الميثولوجيا، والمدلولات الفلسفية، والعبثية، والمدخلاتِ الغرائبية، كما جعلتْ الرواية تبتعد عن السرد الحدثي الواقعي؛ لتحاول إيهامنا العكسي باللاواقعية الحكائية، وأن هذا الإيهام قائم على الميثولوجيا الشعبية، والدينية"(11).

تشكّل رواية(تراب الغريب) تجربة سرديّة واعية، تهدف إلى امتلاك الفن الروائي بإسلوب فني من خلال امتلاك الواقع الجمالي المختزل للوجود الإنساني، والرصيد المعرفي التاريخي المنبعث من الأسطورة، فضلاً عن طبيعة الرواية القائمة على قضية الموت، ممّا أظهر نزوع اللغة الروائية نحو الشعريّة التي تتناسب مع طبيعة الموت، وكيفية تصويره.

إنّ الرابط بين شخوص الرواية" هو انتماؤها إلى الموت، أو قربها منه، وتحديقها فيه، وهذا الرابط هو أكثر ما يُلفت الراوي، وأكثر ما ينقله لنا في انتقاءاته من مراجع كتابته، أو مصادرها المتنوعة. معظم تلك الشخصيات تغرف من بلاغة الموت، والحبّ، وتحدق في نهايات، ومصائر مفجعة"(12).

لقد تجلّت شعريّة اللغة الروائية في رواية(تراب الغريب) من خلال مايلي:

1 . شعريّة العنوان

يقع العنوان ضمن شعريّة اللغة الروائية، فهو . في أبسط صوره . إيجاز لغوي مكثف، ومكوّن بنائي ذو طبيعة انتشاريّة في النص، إنّه إفشاء للقوة العاطفية الحقيقية التي يحملها النص.   جاء عنوان الرواية (تراب الغريب) على المستوى التركيبي جملة اسمية، تحتوي مكوّناً مكانيّاً، يتضمن فضاءً مكانيّاً مفتوحاً، مكتفياً بالصفة(الغريب)، ممّا جعله يحقق وظيفة تعينية، تبين هوية النص، وانتمائه الفكري، إذ تعدّ العنونة الاسمية خاصية مميّزة لبنية العنوان، وجملته "حيث الاسم يتعالى على الزمن،وتحولاته، وتوسُّلُ العنونة بالاسمية يضمن لها الثبات، وتختفي مسافة الاختلاف بين الاسم، والعنوان بذلك في الوظيفة"(13).

لعلّ امتلاك العنوان لخاصية التسجيع، جعله يحقق شعريّة واضحة،" لا بدّ للكاتب من تملكها لخلق انسجام موسيقي، وتآلف ثقافي"(14).

لقد جاء العنوان جملة اسمية إخبارية، تحمل أفقاً حدسيّاً، يتجلّى فيه الرمز ببعده التكويني، وهو عنوان مطلق غير مقيد، يمتدّ؛ ليفضي إلى الرهبة، والخوف، ويعكس حالة الضياع التي يحياها البطل.

إنّ شعريّة العنوان تتضح بانفتاحه" على التأويلات، وكثرة الدلالات، وقدرته على طرح الأسئلة حول العمل الروائي بجملته"(15).

ينبئ العنوان بشعريّة واضحة، تنبع من إضافة الغريب إلى التراب، ممّا قدّم حمولة دلاليّة، تضجّ بالألم، والحزن؛ لأن الغربة تحمل معاني الضياع، والابتعاد، والقسوة، فضلاً عن الهروب من وطن إلى آخر .

إنّ النسيج الشعري للعنوان واضح، وشفاف، ذو طبيعة تأثيريّة في المتلقي، بل يعمد إلى بناء الحدث بلغة شعريّة مكثفة، تمنحه دلالة تراجيدية مبكرة، ممّا كشف عن بعض المقاصد التي كان يرمي إليها الراوي، وأسهم في تشكيل سرد خاص بالرواية مشبع بلغة شعريّة واضحة.

لا ينفصل عنوان الرواية عن مضمونها؛ إذ تخط الرواية طريقها نحو الشعريّة، فالغريب هو البطل، وهو المؤلف نفسه، أو جابر الثعالبي، كما في الرواية،" أمّا التربة، فقد أوحت لي بأنّها المكان الذي فيه هذا الغريب مادياً، أو معنوياً، جسدياً، أو حسيّاً"(16).

يرتفع هزاع البراري بعنوانه(تراب الغريب) إلى درجة تضاهي العنوان الشعري بوعورة مراميه، وإغوائه للمتلقي، إذ تغدو" مقاربة العنوان أمرًا حيوياً للإمساك بمكائد السرد، ومراوغاته، فالكشف عن أسرار عنونته يعني كشفاً لطرائقه في البينه، والأسلوب، وكيفيات التدليل لعلاقاته"(17).

لعلّ تمظهرات العنوان واضحة في نصوص رواية (تراب الغريب)، ممّا ساعد على التقاط فكرة الرواية التي تستند إلى المكان المرتبط بعالم الموت، وتشظي البطل فيه، كما يكشف الراوي في مفتتحه السردي على لسان البطل، حيث يقول:

" القسوة ليست في الموت... الموت شهوة لا بدّ أن تأخذنا ... القسوة أن تسجن روحك في مدفن قصي موحش، لا تسامر غير البرودة، وظلمة الليالي التي لا تستفيق، تعيش موتك هكذا غريباً كريهاً، بعيداً حتى عن الذاكرة، إنّي ممحية تماماً... رداء قبري مثل خرقة منسية ... مطلسمة منذ نسجوا خيوط منفاي، وحبكوا نهايتهم على أيامي الأخيرة... ما عشت من حياة سابقة ما هي إلا صورة من وجودي أسفل هذه الحجارة المستحمة بالشتاء، والمكحلة بالأعشاب البريّة، والسحالي، ورعب العابرين سهواً"(18).

إنّ اقتران العنوان بالنص، يجعل منه رمزاً يتحكم في مجموع الرموز المتولدة عنه، والمكونة لشبكة الترميز داخل النص، إذ "إنّ الغريب يسمح للروائي التلاعب بالمكان للكشف عن حالات سيكولوجية غامضة، تعيشها الشخصية الروائية، وترسيخ الوظيفة التخيلية للكتابة الروائية"(19).

يؤدي المكان في رواية (تراب الغريب) وظائف حيوية داخل النص السردي، من إيهام بالواقع إلى تفسير سلوك الشخوص ، فضلاً عن بيان القيم، والثقافات المتصلة بتلك الشخوص. كما يظهر في حوار البطل مع أيوب:" . القبر مثل العنوان... وكلّ شيء يتغيّر ... الفرق بين الواقع، والأسطورة، هو كالفرق بين القراءة الصحيحة، والقراءة الخاطئة، ما هو متروك على هذه الصخرة الآن أسطورة، إذا فككت رموزها بشكل صحيح ستكون واقعاً ... أبي حدثّني عن الرجل الأبيض، كان مثل معجزة إذا امتطى حصانه الأبيض كغيمة ربيعية، لم يعثروا عليه في الجب، وليس له إخوة، ولم يكن يرتدي قميصاً على الإطلاق، بل جاء به رجل مغربي، يجول بين المنازل؛ ليقرأ البخت، ويكتب قراءته في أوراق شربت من زيت البخور، فتتزوّج العانس، وتنجب العاقر..."(20).

تكشق القراءة المتأنية للرواية عن انحياز الكاتب إلى مفردات الموت، والقبر، والتراب، والغربة، التي يشعر بها الإنسان في حياته، وهي تشظيات واضحة للعنوان، انفجرت في لغة النص؛ لتشكّل جانباً مهماً في شعريته، ممّا ارتقى بلغة السرد إلى مستوى الإيحاء، وأسهم في تحقيق الوظيفة الشعريّة للغة، وبيان رؤية الكاتب في البحث عن الخلاص، وإبراز تجربته المأزومة بالوجود، ولوعة الغياب.

2 . الانزياح اللغوي

إنّ نزوع النص الروائي إلى تكثيف لغته، ومحاولة خرق الترابط الدلالي، والنحوي، فضلاً عن العدول عن الاستعمال العادي للغة في سبيل تحقيق انزياح شعري، يتجاوز معيارية اللغة، أسهم في إبراز شعريّة النص الروائي.

تكشف قراءة رواية(تراب الغريب) عن شيفرات الخطاب الشعري، إذ يُحمّل الكاتب الكلمات شحنات دلالية، تحيل إلى رموز ذات بعد تأويلي واضح، فالتكثيف الاستعاري للكلمات واضح في الرواية، وبخاصة عندما يجنح الكاتب إلى الوصف، كما في قوله على لسان الراوي:" يشتعل النهار تماماً ساعة الظهيرة، مقود السيارة خارج من فرن الصيف، السيارة تقف ذليلة على الرصيف، المارة يتهالكون مقاومين الانصهار، والدخان يتصاعد من أدمغتهم التي أنهكها العمل، والأشجار التي أعلنت عن حدائق منزلية ضيّقة، نكّست رؤوسها في الهجير مستجدية نسمة هواء لا تأتي، صيف عمّان مزعج كشتائها، شعرت بحلقي يتشقّق مثل صحراء

عطشى، وعينين ذابلتين، أقفلت الراديو منزعجاً، وتململت في الكرسي محاذراً ملامسة المقود، عندما أطلّت مبتسمة، غمرتني هبّة هواء ناعمة"[21].

لقد استعانت الرواية من الشعر طاقته التعبيرية الكامنة في الانزياح اللغوي الذي سيطر بكثافة على بنية الصور الفنية ذات البنى التعبيرية الكاشفة للمعنى، ممّا ضاعف من درجة الإيحاء، وفعّل عملية التلقي، لذلك فإن الشعر يعمد إلى تكثيف اللغة من خلال" استخدام الصور التي تتكون في داخل سياق النص، ممّا يصرف نظر المتلقي بعيداً عن الدلالات المرجعية للكلمات، ويحوله إلى ما في لغة النص من خصائص فنية"[22].

إنّ اعتماد اللغة الشعريّة على اللاتجانس، أدخل النص الروائي إلى عوالم غير مكتشفة في الشخصية، وذلك بصياغة الراوي لعبارات مترابطة، تحمل الفجوة، وتعتمد التكثيف، والخيال، كما في قوله: "أتذكّر ... تنهمر أشلاء الحكاية حولي، عبثاً أحاول لملمة الصور التي تكاد أن لا تنتمي لبعضها البعض، لكنّه الموت المثلج ككأس تعشق شاربها، وحده القادر على لظم كلّ شيء، والبرهنة الماجنة على لا جدوى الحياة، فلا معنى إذاً لأي موت متأخّر "[23].

فقد ظهر النمو الاستعاري الشعري من خلال الصور، والتشبيهات التي ظهرت عوضاً عن الحركة الروائية[24].

إنّ كلمة(التراب) ببعدها الفكري شكّلت بؤرة مركزيّة في الرواية، بل جنحت معظم صورالكاتب، وانزياحاته اللغوية إلى محاولة اكتناه السرّ الكامن في هذه الكلمة، وانعكاساته الوجودية؛ لارتباطه بأصل الإنسان، والقبر، وقضية الموت التي تجلّت في الرواية بشكل واضح، كما في قول الراوي:" كلما جلست على قمّة التل الحسباني خشيت أن أمدّ إصبعي حتّى لا أخدش السماء، الجهات الأربع تتجمّع على إصبعي، الكهوف أفواه متّسعة بلا صراخ، والجروف الغريبة تتحرّك وكأنّ الأرض تتنفّس من هنا، لا رعاة اليوم، فقط أصواتهم المبهمة تختبئ في الأودية الذاهبة صوب البحر الميّت، الذي بدأ يواري أطرافه بالتراب؛ إكراماً لنفسه من مهانة العطش"[25].

فالكاتب يحاول تكثيف معانيه، جاعلاً لغته مشابهة، أو قريبة للغة الشعر، ممّا جعله يخرج من إطار الأساليب التقليدية في السرد، ويمنح المتلقي أفقاً واسعاً في تلقي الأحداث، بل ويجعله منتجاً للنص.

إنّ لغة الرواية مشحونة بشكل واضح بشظايا الموت، وانعكاساته المدوية في بنية النص، ممّا ألجأ الكاتب إلى اللغة المجازية ذات الطابع الشعري، التي تختزل التفاصيل، وتمدّ المتلقي بفضاء تعبيري، مشحون بدلالات نفسية، ذات طابع تأثيري، يُصعّد من شعريّة اللغة، وقدرتها على التخييل، كما في حديث الراوي مع سعدي بعدما صعقهما كلام الأم المفجوعة بأبنائها، ممّا جعل اللغة الروائية تتشكّل في أسلوب استعاري، استند إليه الراوي عند حديثه عن المقبرة بعوالمها الخفية:" في المساء، فتت رتابة الغرفة بذهابه، وإيابه، وهو يصرخ بإشفاق: . أنت تفوح منك رائحة الموت... معك أنا في مقبرة توشك أن تبتلعني... كيف أنام الآن، وأترك أفكرك تتسلل إلى رأسي... منذ الصباح سأجتاز العبدلي إلى الصحراء الغربية باتجاه عمّان..."[26].

لعلّ هذا النزوع إلى الشعريّة لا يفقد النص السردي طابعه النثري، وإنما يدفع بفعل السرد نحو الدهشة، وتمتين دعائمه الحكائية، وذلك بملامسة وهج الشعر الذي تشتعل معه الكلمات،؛ لتبوح بمكنونات النفس، ورغبتها في اكتناه أسرار الوجود.

وهو نزوع أسهم في بث الحركة في النص الروائي، وخلق فضاء تصويري، يتأسس وفق لغة مجازية، تجنح إلى شحذ المفردة اللغوية بطاقة دلالية قادرة على تقديم الشخصية الروائية للمتلقي بكلّ ما تعكس من أحزان، وتختزن من انفعالات، إذ يستعين النثر بقدرات اللغة الشعريّة التخييلية، وجنوحها إلى الانزياح اللغوي بدلالاته المتعددة، وحيويته الكاشفة للمعنى، كما في وصف الراوي

لمشهد المرأة المكلومة بأبنائها:" رأيتها تجلس في خلوتها، يشع منها نور يشبه تلويحة الفجر، الدير يطفح بالسكينة، والفراغ، والحجارة القديمة اعتادت الانتظار، والكتمان بصبر أزلي"(27).

فاللغة الروائية أثناء العملية الإبداعية، تعتريها خروقات مجازية، تتجه بها إلى الإفادة من بعض خصائص اللغة الشعريّة دون أن "تفعل ذلك بطريقة حرفية تفضي بها إلى التماثل، أو المطابقة، بل تحاول أن تتحرك بهاجس داخلي شعري رؤيوي، يكسر الكثير من عادات النثر، وثوابته"(28).

وإذا كانت اللغة الشعريّة لغة تصويرية في الأساس، فإنّ هذا ما يحتاجه الروائي عندما يعمد إلى بيان رؤاه الفكريّة، كما في قوله:" الخليج رمادي ساعة الفجر كما في أي وقت من النهار، والمدينة النائمة لا تصحو بسهولة مثل المدن المتوسطية، السماء ليست زرقاء بل صحراوية مغبرة، تشي بعاصفة من تراب ورمال، السيارة ملتجئة عن الشارع المبتعد عن آخر المباني، مستقبلة مياه البحر التي خرّبتها قوافل ناقلات النفط لروما الجديدة"(29).

إنّ تأسس الخطاب النثري على أساس شعري، ينتقل بالرواية من مجال النثر إلى مجال الشعر، إذ تتّسع اللغة؛ لتتجلّى في مختلف مستويات التعبير في الرواية، كالسرد، والحوار، والوصف، استناداً إلى مفهوم الفجوة، أو مسافة التوتر التي تطغى على بنية النص اللغويّة مكونة شعريته، كما يكشف حوار أيوب مع البطل مودّعاً له:" . انتبه لنفسك... لم أحس بانقباض ملامحي، تصنّعت ضحكة صغيرة لا مبرر لها: . النفس أمارة بالسوء يا صديقي... لا أعرف بأي اتجاه حرّكت رأسي، صافحته، وخرجت، وأنا ممسك بالكلمات، كان بيته كشامة على جبين جبل يُقال له(حواجب السعدان) تمشيت قليلاً، كان الغروب يلملم أشعته الحمراء من على أكتاف الغيمات التي شابهت بقايا الغابات في بلادنا المتصحرة، التل يتدثر بالعتمة، ومنازل ريفية تتباهى بأطباق لاقطة، تبدو مقفرة من الحياة، باستثناء أنوار كهربائية، منحها وهج المغيب متّسعاً لتكمل نضوجها"(30).

لقد تولّدت شعريّة النص من توالي انزياحاته اللغوية، وكثافة صوره الكاشفة لنفسية البطل القلقلة، فما أن لامست أذنيه عبارة (أيوب) :" انتبه لنفسك" حتى استعاد فكرة الموت القابعة في أعماقه، فانبعثت في مفرداته استعارات لغوية، تبرز جانباً مهماً من الشخصية، وتكشف معاناتها، التي تتجه نحو فعل الانتهاء؛ فالغروب يلملم أشعته الحمراء، والتل يتدثر بالعتمة، والأطباق اللاقطة مقفرة من الحياة، وهكذا تأسس الوصف المشهدي للحدث ضمن رؤية الموت، التي لازمت البطل منذ بداية الرواية.

3 . التساؤل:

يعكس أسلوب التساؤل في اللغة الروائية طابعاً شعريّاً متفجراً؛ فالبناء اللغوي القائم على الاستفهام ذو طبيعة تعبيرية كامنة في جوهر الحدث، وذلك بخروج اللغة من سياقها الواقعي إلى عا لم افتراضي، يجعل من السمة الفنية علامة مميزة تظهر داخل سياق الخطاب، فتخرجه من المباشرة إلى فضاءات المعنى، إذ تتقاطع الدوال بالمدلولات؛ لتكوّن نسيجاً واضحاً من الأفكار يتبدّى من خلال عملية التلقي.

لعلّ هذه الأدبية التي ينطلق منها الخطاب الروائي بتعالقه مع المنجز الفكري للنص، ينطلق من رؤيا ضابطة للمعنى، إذ " يرتبط المكون الوظيفي لشعريّة ما على نحو وثيق وواضح بالمؤثرات الإيديولوجية القادمة من خارج نطاق الشعرية بمعناها الضيق، وهو متولد عن قوى أيديولوجية في بيئة النظام الأدبي"(31).

لقد أستند هزاع البراري على الأسلوب الاستفهامي في مواضع حوار الشخوص، وبيان صدامها الفكري، وكأنّه جعل من تسأولاته وسيلة للغوص في معنى الحياة، والكشف عن جوهرها، كما في حوار الراوي مع النادل في المطعم بوجود صفاء:" صمت،

نظرت في عينيّ، فهربت بهما إلى تأمل أصابع يدي المتروكة بارتباك على أطراف الطاولة، النادل وضع عصير الليمون أمامنا بعد أن رمقنا بابتسامة صفراء، راقبت خطواته المتراجعة حتّى انزوى خلف الجدار المقابل: ـ لماذا تهرب..؟ ـ صفاء ... الكتابة نوع من الحياة... لكنك تخلط الأسماء والحكايات ... أنت...أنت تخلط الموت بالحياة... ما بأعرف بشو بتفكّر..."(32).

إنّ ثنائية الموت والحياة هاجس الكاتب في روايته، ممّا جعله يعمد إلى نوع من التحايل على الواقع، والنزوع إلى إيقاع السؤال المقلق، والباحث عن الحقيقة، إذ لم تعد الرواية الحديثة تسجيلية، تحاكي الواقع ، إنما تلغي الواقع، أو بنوع خاص تلغي الفكرة القائلة بأن الواقع هو الحقيقة(33).

وهذا ما يعكسه حديث صفاء عن الموت، وتصويرها لعوالمه المخيفة، إذ تبدو إفادة الكاتب من الخطاب الشعري واضحة بما يحويه من إمكانات، توحّد صوت النص؛ لينهض على تشكيل فني يقترب من المحاكاة الساحرة:" ـ أنت لا تصدقني لأنك تخاف ذلك... لم يسبق لك أن جربت الموت ... إدراكي للحياة بدأ من هنا، من هذا القبر المتسع ... عندما تدفن وأنت ترى كلّ شيء، وتصرخ مستجدياً، فيعجلون بوضع الألواح والتراب كي لا يتراجعوا، ما معنى العمر؟ ... كيف لي وأنا بذاك العمر أن أدرك موتي المتعمد وبعثي المتعمد؟ ... موتي هو وهبني الحياة.. أبي قال لي ذلك بعد سنوات.. قال: (وهبك الحياة لكنه تمسك بطفولتك...) انظر إليّ ... أقف على الحافة الأولى للأربعين، لكني بحجم طفلة في السابعة أو الثامنة من عمرها... الموت ليلة واحدة دفع عقلي للنمو بسرعة، أما جسدي فتجمد على حجمه، ماذا يصنع بنا موت لا ينتهي إذاً؟ عندما أموت ميتتي الأخيرة سأكون بحجم ميتتي الأولى.. هل يقودك ذلك إلى أسئلة ما... ؟ ربما ... أمّا أنا فقد عبث بحياتي... لم يبقني في الموت ولم يتركني لحياة كاملة، كالنساء يفردن أنوثتهن بأجساد طبيعية وبضة"(34).

لعلّ هذا الإحساس الحاد بالزمن دفع الكاتب إلى التساؤل حول سرّ الوجود، يقترب فيها الإحساس بالزمن من الإحساس بالفناء، لأن الوجود الزماني يرتبط بجدل الإنسان مع الكون، ممّا سبّب له الخوف والشقاء والقلق.

ولجوء الروائي إلى أسلوب التساؤل يعكس جنوحاً نحو االشعريّة التي تفعّل وظائف السرد التعبيرية، والانفعالية، والإفهامية، وتتطلب تكاثف عناصر إدراكية، وأخرى معرفية وجمالية؛ لبلوغ مرامي النص.

إنّ الشعريّة هي إحدى السمات المكونة للخطاب الإبداعي المعبّر عن صدمة الموت، حيث الإيحاء، والانحراف باللغة عن سياقاتها المألوفة، فضلاً عن تتابع الأسئلة القلقة والمقلقة معاً.

تعد وظيفة التساؤل الأساسية التعبير عن ثراء الفكر، وقبوله بتعدد الوجود، وقابليته للتشكّل وفق نسق معرفي يختلف من شخص لآخر باختلاف المنحى الفكري المتبع.

لقد بقي الموت هاجس الأسئلة في رواية " تراب الغريب" ومنطلقها؛ ولا عجب فالرواية محاولة للإجابة عن كنه هذه القضية، وتصويرها في جانب قالب إبداعي، كما في تجسيد الراوي لتباين أفكاره مع جابر الثعالبي الذي يرى في الحرب طريقاً للموت:" كنا نجلس في حديقة البيت الأزرق في دارة الفنون، النافورة الصغيرة تجاهد من أجل صمود لا قيمة له، والأشجار المرتوية بالأيام الغابرة تنحني فوق المقاعد المعدنية غير المريحة، والمنازل القديمة في جبل عمّان تتلصص علينا من بين الأغصان المتراقصة، وتهجس بالذكريات الممحية، تأملت خربشات وجمل لكتّاب وفنانين جلسوا هنا وطاردوا الملل بتشويه الطاولة الرخامية السطح. ـ لماذا لم تمت... أحسّ بأنني أهاجمه دون سبب، غير أنني كنت أتجادل مع هذا السؤال في داخلي حتى هرب مني، حدقني وكأنّه يصوب بندقيته إلى السراب: ـ لم أمت لأنني أردت أن أموت ... السجن والخيانة ونقض العهد .. كلها جعلتني أحبّ الموت حتى تمنيته...."(35).

إنّ إمعان الكاتب في الحديث عن الموت، وطقوسه الغرائبية أذكى الجانب التأملي في الرواية، وهو جانب ينزع إلى الشعريّة بما يثيره من أسئلة تبحث عن إجابات، ذلك أن " صناعة الأسئلة من أهم أدوات الشعر الصافية تبعده عن التقرير، وتمكنه من توليد الصور، وتحفيز عملية التخيّل، وتنشيط الطاقة الخلاقة ومن ثمّ تفتح أمام الشاعر سُبلاً متعددة في تلوين الاستفسارات الحقيقية، والمجازية عن الذات والآخر"(36).

على أن سؤال الموت بقي شامخاً في الرواية، يوحّد شخوصها، ويصيغ رؤاها الحياتية، ويكشف نوازعها الفكرية، التي تثير الانتباه نحو موقف درامي، أو مشهد وصفي يخلق الشخصيات الروائية، ويعمّق موقفها الحائر من الموت.

وهو من ناحية أخرى، يُصعّد من إمكانات اللغة الجمالية، وبخاصة أن " الاستفهام يُجسّد غموض التجربة الإنسانية وتناقضاتها وغرابتها، وهو يمتح من عمقها الفلسفي، ويقف بالقارئ على حافة الذهول والانبهار، لا سيما وهو يتوجه إليه بأسئلة لا تتطلب إجابة معينة، وإنما تتطلب مشاركته الوجدانية في تجربة عليه أن يعيشها، ويتفاعل معها، فيغدو جزءاً منها"(37).

لقد اختزل الكاتب الفكرة الأساسية في الرواية بسؤال الموت الذي بقي مطروحاً؛ ليحطم نمطية التفكير، ويقود إلى صياغة الهواجس البشرية في قالب فني واسع الدلالة، يقيم في نفس المتلقي إيقاعاً يتناغم مع رؤيا الكاتب، التي بدت أكثر استعداداً لانتظار الموت:" الأبيض خاف على التباسه، أبو النور رحل بما يشبه الموت، غاب فجأة، تلاشى مثل ريح تقاسمتها الأمكنة الواسعة، ربما ركض كالمجنون نحو الجروف الغريبة المنزلقة اتجاه البحر الميت، فتنازعته الضباع، أو ابتلعته الكهوف المعتمة والمرعبة، تصورته عاد لبيع الانتيكات والنقود الرومانية قرب المدرج الروماني، ذهبت إلى هناك وتسكعت بين أروقة الشارع الذي كان معمداً ذات زمن لن يعود، كلّ شيء كما هو، الحجارة والمتسولون وخيبات العراقيين الذين ينتظرون قدوم المعجزة من خارج نصوص الكتب المقدسة، كلّ شيء حاضر إلا هو، اختفى بشكل غامض، كأنها روح الأبيض تغري بالرحيل غير المفهوم، المغربي، أبو النور، حتى فتنة، إنّها صورةُ الباقية تُطمسْ بشكل غريب، وماذا عني؟ هل عليّ أن أستعد لرحيل من هذا النوع؟!"(38).

إنّ شعرية اللغة في النص منبعها سؤال مهيمن في بنية النص، ومقيم في فكر شخوص الرواية، يقلق وجودها، ويبعث أحزانها، فالأبيض، وأبو النور، والراوي، وفتنة جمعهم هاجس الموت، الذي ما لبثت أن انتقلت عدواه إلى المتلقي؛ لتبقى جذوة الصراع مع الموت متّقدة حتى نهاية الوجود.

4 . التكرار :

يعد التكرار أحد منابع اللغة الشعريّة في النص السردي، ممّا يُسهم في جعل اللغة الروائية أقرب إلى الشعر؛ لما يوفره تكرار الملفوظ من تعدد في المعنى، وينتجه من إيقاع يعكس درجة واضحة من الشعريّة يحتاج إليها السارد؛ لإبطاء فعل السرد، فضلاً عمّا يعكسه التكرار من جو نفسي للذات الساردة، وإحداث للمزيد من التأثير في المتلقي.

وهنا لا نتحدث عن تكرار بعض الشخوص، أو الأحداث المسرودة، بل نتحدث عن شعريّة التركيب اللغوي، التي تنجم عن تكرار ألفاظ أو جمل بعينها، كما في تكرار المقطع الافتتاحي للرواي:" هذا قبري..."(39) الذي وفّر إيقاعاً نغميّاً وفكريّاً يرتبط بسياقات مختلفة: نفسية، واجتماعية ووجدانية.

لقد اندرجت تحت عبارة" هذا قبري" مضامين فكرية، تحمل حالة ألم مضاعفة، وتصوير لواقع مأزوم، ممّا يكشف عن إمكانيات تعبيريّة، وطاقات فنية، أسهمت في إخصاب النص برؤى متجددة، ورفده بالقدرة على محاورة المتلقي، ودعوته إلى التعمّق في النص؛ ليمارس بعد ذلك الراوي فعل السرد بكلّ حرية.

لقد انبنى على هذا التركيب اللغوي تكرار كلمة الموت في معظم صفحات الرواية حتى غدت البؤرة التي تنطلق منها الأفكار والحورات بين الشخوص، فهي تؤدي وظيفة سياقية مهمة تربط أجزاء الرواية، وتشحنها بايحاءات دلالية، تجعل النص أكثر تماسكاً.كما في قوله:" الشيخ صادق ارتدى ثوب امرأة أسود، وصبغ وجهه برماد النار التي بردت في المواقد بعد فاجعة الخبر، ملوحاً بالبندقية من على صهوة حصانه الذي ينزف عرقاً وتوثباً، ويصرخ بصوت مبحوح: . الموت ولا الردية ... الموت ولا الردية..."[40].

إنّ إلحاح فكرة الموت على الكاتب دفعه إلى الاستعانة بتقنية التكرار؛ لتجسيد أفكاره، ومنح لغته مزيداً من الشعريّة التي جعلت من ثنائية الموت والحياة سؤالاً فكريّاً مشرعاً:" إن يكن الثعالي ميتاً وكذلك كلّ الباقين من حولي، فلماذا أكون أنا الحي الوحيد؟ما الفارق بين الموت والحياة لوعي الشخص؟ كيف أتأكد من حياتي وكيف أعي موتي إن كنت حقاً ميتاً؟"[41].

وتبدو مسايرة التكرار للغة السردية واضحة الدلالة في إضفاء صبغة شعريّة على الكلام المسرود، ممّا يسهم في إيجاد حالة توحّد وجداني مع المتلقي؛ ليتحوّل اللفظ المكرر إلى صرخة مدوية، يطلقها الكاتب فتستقر في الأعماق ثائرة على الواقع، كما في حديث ثريا لجبران بعدما استيقظت من موتها:" . وأنت دخلت... ما كان عليك أن تفعل ... كنت أخرج منسلة من مدفني أسفل تلك الحجارة لأتجول في العتمة ... أجوب الطرقات، أقف غريبة بنوافذ المنازل، أرى كلّ شيء وأتعذب، أرى ولا يراني أحد... كيف دخلت موتي؟ عبثاً تدخلني حياتك ... أخشى من ملاحقتك لي... عشت حياة لم يعرفها أحد، ومت موتاً لم يعلم بسره أحد، ودُفنت بأرض لم يدركها أحد... كيف لي أن أعود الآن بعد أن استعذبتَ نبش مواجعي... إنك تفتح باباً من جهنم لا يقفل من بعدك أبداً..."[42].

فتكرار كلمة(أحد) يعكس إيقاعات نفسية، وفكرية عميقة، تكشف عن وعي الكاتب لقيمة الكلمة المكررة، وتوظيفها ضمن سياق سردي خاص، يتّسق مع تجربة الشخصية الروائية، وانفعالاتها النفسية، ورؤاها الفكرية، فضلاً عن دورها الوظيفي في إضفاء المزيد من الغموض على حياة الشخصية، ممّا أوجد فاعلية إيقاعيّة ذات تأثير واضح في المتلقي؛ لأن الكلمة المكررة تستحضر " ذلك الخطاب الموجود في الذاكرة الجمعية للمجموعة الاجتماعية التي يخاطبها السارد. وانسيابية المعنى من خلال ملاحقة الموت المستمر للسارد"[43].

وقد يقع التكرار ضمن مقطع شعري يورده الكاتب على لسان عماد الجنابي الذي أراد إقناع الآخرين بقدرة الشعر على حمل المعنى رغم الألم القابع في النفس:" لقد كتبت شيئاً عن أبي الذي أتت عليه النار ... ولا تقل لي الأبيض .. ولا الثعالبي .. ولا غيرهم.. اسمع..

أبي نار تشق ظلمة السماء

فيبتهل العشاق

أبي نار يوقدها الأولاد ليلة العيد

الأطفال فرحون

أبي الآن طعام لقطار لا يحمل مسافرين

أبي الآن فحمة لامرأة مدخنة

أبي الآن تدخنه النساء

أبي الآن دخان

أبي الآن دخان"[44].

لقد عكس توظيف الكاتب للشعر تحولاً مهماً في تفكير الشخصية الروائية، وبعثها من موتها؛ لتعيش حياة جديدة، إذ جاءت كلمة(أبي) لازمة يبث الكاتب من خلالها أفكاره، وما انتهاء المقطع الشعري بجملة" أبي الآن دخان" إلا دليل واضح على انبعاث الأب من جديد، ورغبة الكاتب في معانقة فعل الحياة بتشظياتها المختلفة. حيث إنّ النثر لم يعنه على التعبير عن حالة الانتقال من الموت إلى الحياة، أو من زمن إلى آخر، وهذا ما استطاع الأسلوب الشعري تحقيقه، بعدما أوقف السارد لغة النثر؛ ليتحوّل إلى الشعر، الذي لم يبدو مقحماً في النص، أو دخيلاً عليه، ممّا أمدّ الرواية بطاقات جمالية واضحة.

5 . الجملة الاسمية:

تمتاز الجملة الاسمية بإيقاعها السريع، واكتنازها بالعناصر الصوتية والدلالية، فضلاً عن تكثيفها الشديد، وهي في رواية "تراب الغريب" غالباً ما تنتهي بنقطة، أو بعلامة الحذف التي يعمد من خلالها الكاتب لإبراز موقفه الفكري، أو النزوع نحو تصوير الموت بطقوسه المختلفة.

في مفتتح الرواية، يعمد هزاع البراري إلى جمل اسمية ذات منزع وصفي، تعين في بيان طبيعة المكان، والكشف عن جزئياته، حيث يقول:" حجارة متكوّمة ترك السحاب عليها بقايا بكائه الطويل، القطرات ترتج منزلقة الواحدة تلو الأخرى، والأعشاب الشتائية تطلّ من بين الشقوق والحواف، أشواك من الصيف البائد ألانَ حرباتها كانون المتعاقي"[45].

فالجملة الشعريّة القائمة على المجاز واختزال المعنى في أقل عدد ممكن من الملفوظات، تفعل ما لا تفعله الجملة النثرية في المتلقي، ذلك أن مرجعيتها الإيحائية تمنحها طاقة تعبيرية تضاعف من فاعلية التأثير، وكثافة المعنى. وهذا حاضر في الجملة الاسمية التي" تمتلك القدرة على تمثيل الحسيّ بأقرب الطرق تجسيداً للمتخيّل، أو إيحاءً بالمشخص، ومن أوّل وهلة"[46].

تحتمي الجملة الاسمية بالإيحاء الشعري، محمّلة بطاقة واضحة من التأويل، والدلالات والرموز، وهذا شأن اللغة الشعريّة ذات الخلق المجازي، والتوسّع الدلالي، ممّا يعين الكاتب في التعبير عن أفكاره، وانفعالاته، كما في قول الراوي:"السور القصير شبه متهالك، والبوابة الصدئة التي مزقتها رصاصات طائشة تنبئ بمعركة عابرة، بدت لي معاتبة بلوم شديد..، نسرين وقفت بجانبي كرجل دين لا يجادل في المصائر"[47].

فهيمنة الاسمية على التراكيب اللغوية جعلها أكثر ثباتاً والتصاقاً بالنفس، تختزل فكرة الرواية، وتكسب السرد درجة واضحة من الشعريّة التي تتجه إلى الصور البلاغية، والمجاز، ممّا يقترب بلغة الرواية من الشعر.

إنّ اللجوء إلى الجمل الاسمية في النص النثري يعكس منزع الكاتب العاطفي، وهواجسه التي تمعن في تصوير الموت، وطقوسه، فضلاً عن دور هذه الجمل في الكشف عن رؤيا الكاتب، وبيان واقع الشخصية الروائية، كما في وصف الراوي لشخصية(أبو النور) حيث يقول:" أفرغ ما في الكأس المعدني في جوفه، وتجشأ بقرف ثم مسح سيلان فمه بكم قميصه، وصار يهذي بكلام يبدو هلوسة: الحلم لا يطارد الفرد طوال عمره... الأحلام تموت أيضاً... لم أسكن هذا الجبل وأحرسه بسبب حلم.. أبداً.. كلما نبشت قبراً تأتيني في الليل.. تقف فوق رأسي .. ثوب عرسها الأبيض يلفها بإجلال غيمة قطنية اللون..."[48].

إذ أسهم توظيف الروائي للجمل الاسمية في المزج بين الواقع، والحلم بما يتناسب مع إيقاع السرد "وهنا يمكننا الحديث عن الصورة السردية التي تتلاحق فيها الأفعال والجملة القصيرة بسرعة محدثة تواتراً حاداً لا ينتهي إلا بانتهاء الحدث"[49].

وقد يوظف الكاتب الجمل الاسمية للإيحاء بالتغريب المكاني، وانعكاسه على الشخصية الروائية، إذ يهيمن الصمت، ويستحيل المكان إلى مجرد فراغ يحاصر ساكنيه، كما في حديث البطل واصفاً نظرات صفاء له:" تأملتني طويلاً، تصنعتُ بأني شارد الذهن، أتعبها البحث عن جملة بديلة فلم تجد، شمس البحر الميت مغبرة دائماً، الجبال العارية تغرق في ضباب رمادي، الفالق ينفث الدخان والذباب، وذاكرة ملحية عن أحداث وغزاة، ونهر تجف قداسته بعد أن تقرصنوا على مياهه الشمالية، كنا نتكئ على مقدمة السيارة في مواجهة البحر الذي ينكمش كاشفاً الملح والحصى المشذب"[50].

لعلّ هيمنة الأسماء والصفات على الأفعال في النص أسهم في تحقيق وظيفة اللغة الشعريّة بما تبعثه من صور تفيض بمعاني الموت، والزوال، وتجعل الشخوص الروائية أكثر تفاعلاً مع فضاء الرواية، وفاعلية في معمارها الفني.

الخاتمة:

شكلّت شعريّة اللغة في رواية" تراب الغريب" عصباً مهماً في بنية النص، تمثل ذلك بكثافة هذه اللغة، وطاقتها الإيحائية، فضلاً عن انحرافاتها اللغوية التي أغنت النص بدلالات خصبة، تدعم فكرة الموت المسيطرة على الرواية.

إنّ التكرار، والتساؤل، واستخدام الجمل الاسمية أساليب ذات منبع شعري واضح في الرواية، تدعم شعريتها، وتعمّق من تأثيرها في المتلقي. إذ أسهمت شعريّة اللغة الروائية في توجيه الرواية إلى وظائف مخصوصة تثري النص، وتعمّق أدبيته، ولعلّ من أبرز هذه الوظائف المراوحة بين الرؤية العقلية التي يعكسها القص، والتدفق العاطفي الذي تحمله اللغة الشعريّة من خلال الرسالة التي يريد السارد إيصالها إلى المتلقي، الأمر الذي أسهم في تفجير طاقات اللغة، وإكسابها درجة أعلى من الكثافة التعبيرية التي كشفت عن محددات الخطاب الروائي، وأغنت اتجاهاته الفكرية.

الهوامش:

1 . فاليط ، برنار، 1999م، النص الروائي(مناهج وتقنيات)، ص29.
2 . كوهن، جان،1986م، بنية اللغة الشعريّة،ص9.
3 . ياكوبسن، رومان، 1988م، قضايا الشعريّة، ص35.
4 . تودروف، تزفيتان، 1987م، الشعريّة، ص23.
5 . يُنظر، تودروف، تزفيتان، 1986م، نقد النقد ، ص24.
6 . باختين، ميخائيل، 1987م، الخطاب الروائي، ص 38.
7 . المسدّي، عبدالسلام، 1983م، النقد والحداثة(مع دليل بيليوغرافي) ، ص 38.
8 . حسين، خالد، 2007م، في نظرية العنوان(مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية)، ص 302.
9 . الماضي، شكري، 2008م، أنماط الرواية العربية الجديدة، ص153.
10 . جنيت، جيرار، د . ت، مدخل لجامع النص، ص 40.
11 . الطراونة، إبهارة، 2012م، هزّاع البراري روائيّاً، ص ص 27 . 28.
12 . عبيدالله، محمد، 2008م، مجلة أفكار(تصدر عن وزارة الثقافة الأردنية)، العدد231، تراب الغريب(عودة الرواية إلى مشكلة الحبّ والموت)، ص19.
13 . حسين، خالد، 2007م، في نظرية العنوان(مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية)، ص 313.
14 . حليفي، شعيب، 2004م، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل، ص13.
15 . البطوش، حمدان، 2001م، ملامح شعريّة الرواية(جبرا إبراهيم جبرا إنموذجاً)، دراسة فنية تحليلية، ص37.
16 . سمحان، محمد، 2011م، مجلة أفكار(تصدر عن وزارة الثقافة الأردنية)، العدد 272، قراءة في رواية " تراب الغريب"، ص 118.
17 . حسين، خالد، 2007م، في نظرية العنوان(مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية)، ص 303.
18 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب ، ص 14.
19. حسين، خالد، 1421هـ ،شعريّة المكان في الرواية الجديدة(الخطاب الروائي لإدوار الخراط نموذجاً)، ص399.
20 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص22.
21 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص 16.
22 . الغذّامي، عبدالله1985م، الخطيئة والتكفير(من البنيوية إلى التشريحية قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر)، ص24.
23 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص 19.
24 . يُنظر، الماضي، شكري، 2008م، أنماط الرواية العربية الجديدة، ص59.
25 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص 23.
26 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص ص 63 .64.
27 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص 64.
28 . العلاق، علي جعفر،1997م،الشعر والتلقي(دراسات نقديّة) ، ص 179.
29 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص 28.
30 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص 92.
31 . رحيم، فلاح، 1997م، مجلة علامات في النقد، المجلد السابع، الجزء الخامس والعشرون، سبتمبر، شعريّة الأنظمة الأدبية، ص115.
32 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص ص 18 . 19.
33 . يُنظر: قرييه، آلان روب، 1985م، مجموعة لقطات القصصية، ترجمة عبدالحميد إبراهيم(مع دراسة مطولة عن الرواية الجديدة)، ص ص 17 . 18.
34 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص ص 51 . 52.
35 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص 77.
36 . نمر، هادي، 2013م، المضامين الإنسانية والتشكيلات اللغوية في شعر نادر هدى، ص 291.
37 . عوينة، رحمة خليل، 2001م، شعريّة السرد الروائي في نماذج من الرواية الجزائرية الحديثة، رسالة ماجستير(مخطوط)، ص 266.
38 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص 183.
39 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص13.
40 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص66.
41 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص 80.

42 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص 111.
43 . يعقوب، ناصر، 2004م، اللغة الشعريّة وتجلياتها في الرواية العربية(1970 . 2000م)، ص 218.
44 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص201.
45 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص 13.
46 . نمر، هادي، 2013م، المضامين الإنسانية والتشكيلات اللغوية في شعر نادر هدى، ص280.
47 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص 143.
48 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص ص 72 . 73.
49 . يقطين، سعيد، 1997م، تحليل الخطاب الروائي، ص 215.
50 . البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ص 69.

المصادر والمراجع :

باختين، ميخائيل، 1987م، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة.

البراري، هزاع، 2009م، تراب الغريب، ط2، دار ورد للنشر، والتوزيع، عمّان.

البطوش، حمدان، 2001م، ملامح شعريّة الرواية(جبرا إبراهيم جبرا إنموذجاً)، دراسة فنية تحليلية، رسالة ماجستير(مخطوطة)، إشراف الدكتور محمد الشوابكة، جامعة مؤتة، الأردن.

تودروف، تزفيتان، 1986م، نقد النقد، ط2، ترجمة سامي سويدان، بغداد.

جنيت، جيرار، د . ت، مدخل لجامع النص، ترجمة عبدالرحمن أيوب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

حسين، خالد، 1421هـ ،شعريّة المكان في الرواية الجديدة(الخطاب الروائي لإدوار الخراط نموذجاً)، ط1، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض.

حسين، خالد، 2007م، في نظرية العنوان(مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية)، ط1، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق.

حليفي، شعيب، 2004م، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل،ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

رحيم، فلاح، 1997م، مجلة علامات في النقد، المجلد السابع، الجزء الخامس والعشرون، سبتمبر، شعريّة الأنظمة الأدبية.

سمحان، محمد، 2011م، مجلة أفكار(تصدر عن وزارة الثقافة الأردنية)، العدد 272، قراءة في رواية " تراب الغريب".

الطراونة، إبهارة، 2012م، هزّاع البراري روائيّاً،ط1، دار أزمنة للنشر والتوزيع، عمّان.

عبيدالله، محمد، 2008م، مجلة أفكار(تصدر عن وزارة الثقافة الأردنية)، العدد231، تراب الغريب(عودة الرواية إلى مشكلة الحبّ والموت).

العلاق، علي جعفر،1997م،الشعر والتلقي(دراسات نقديّة)، ط1، دار الشروق، عمّان.

عوينة، رحمة خليل، 2001م، شعريّة السرد الروائي في نماذج من الرواية الجزائرية الحديثة، رسالة ماجستير(مخطوط)، إشراف الدكتور إبراهيم خليل، الجامعة الأردنية.

الغذّامي، عبدالله1985م، الخطيئة والتكفير(من البنيوية إلى التشريحية قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر)، ط1، النادي الأدبي الثقافي، جدة.

فاليط ، برنار، 1999م، النص الروائي(مناهج وتقنيات)، ترجمة رشيد بنحدو، الدار البيضاء.

قرييه، آلان روب، 1985م، مجموعة لقطات القصصية، ترجمة عبدالحميد إبراهيم(مع دراسة مطولة عن الرواية الجديدة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

كوهن، جان،1986م، بنية اللغة الشعريّة، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري،ط1، دار توبقال، الدار البيضاء.

الماضي، شكري، 2008م، أنماط الرواية العربية الجديدة، سلسلة عالم المعرفة(355)، الكويت.

المسدّي، عبدالسلام، 1983م، النقد والحداثة(مع دليل بيليوغرافي)، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.

نمر، هادي، 2013م، المضامين الإنسانية والتشكيلات اللغوية في شعر نادر هدى، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد .

ياكوبسن، رومان، 1988م، قضايا الشعريّة، ترجمة محمد الولي، ومبارك حنون، ط1، دار توبقال.

يعقوب، ناصر، 2004م، اللغة الشعريّة وتجلياتها في الرواية العربية(1970 . 2000م)، ط1، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمّان.

يقطين، سعيد، 1997م، تحليل الخطاب الروائي، ط3، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الدار البيضاء.

الميزان النقدي في كتاب "فحولة الشعراء" للأصمعي

Critical Balance in Al-asma'i's Book "Poets' Gloriousness"

الأستاذ: د.فيصل حسين غوادرة
جامعة القدس المفتوحة – جنين – فلسطين

ملخص البحث:

لقد هدف هذا البحث إلى التعرف إلى كتاب "فحولة الشعراء" للأصمعي، حيث ورد في طياته موروث نقدي قيّم، حمّله الأصمعي آراءه النقدية، وهي آراء على بساطتها وبدائيتها، فقد كانت مقاييس انطلق منها النقاد؛ ليطوروها ويحسنوها، حتى وصلت إلى مراحلها المتقدمة. وقد كشف لنا هذا البحث الطريقة التي تعامل معها الأصمعي مع شعراء الجاهلية والإسلام، وبين لنا الأحكام النقدية التي بثها لهم في كتابه، فقد أظهر لنا أن الأصمعي لم يقتصر على مقياس الفحولة لوحده، بل تعداه إلى مقاييس نقدية أخرى، وأن كل هذه الأحكام ظلت في إطار المقاييس النقدية الذوقية الشخصية غير المعللة، وأن عدد الشعراء الذين تطرق إليهم وصل إلى مئة شاعر وشاعرة، توزعوا على عدد من المقاييس النقدية التي أثبتها الأصمعي في ميزانه النقدي، في كتابه "فحولة الشعراء".

Abstract:

This research aims at identifying Al-asma'i's "Poets' Gloriousness" book, as it includes a valuable critical inheritance to which Al-asma'i added his critical views. Despite their simplicity and primitivity, critics regarded such views as standards which they developed and improved until reaching the advanced stage. The current research has revealed the method which Al-asma'i used to deal with both the pre-Islamic and Islamic poets and it showed the critical provisions he cast to them in his book. It also revealed that Al-asma'i did not only depend on the standard of virility, but he extended to other standards, and that all of these provisions remained in the personal unaccounted critical standards. Furthermore, he dealt with a hundred poets divided on a number of critical standards which Al-asma'i proved in the critical balance in his book "Poets' Gloriousness"

المبحث الأول

الدراسة النظرية

- المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، وبعد:

الشعر ديوان العرب، وسجل موروثهم وتاريخهم، بل وحياتهم، وما وصل إلينا إلا أقله، والنقد حارسه وموجهه، يتابعه ويسهر عليه، ابتداء من الأصمعي•، ومروراً بابن سلام، وابن قتيبة، والجرجاني، والآمدي، والقيرواني، وغيرهم كثير.

ولعل الشرارة الأولى للأصمعي في كتابه "فحولة الشعراء"، هي التي أشعلت التأليف النقدي من بعده، وحتى أيامنا هذه... ولذلك جاء بحثي هذا ليكشف عن مكنون هذه الشرارة، وعن السر النقدي الذي وضعه فيه الأصمعي، حتى كانت هي البداية الأولى في تأليف الكم الكبير من التراث النقدي الذي ورثناه عن نقادنا العلماء الأجلاء-رحمهم الله-.

ولعل الإشكالية الجديدة التي تم التعرض لها خلال البحث تبدو في عدة أمور منها: عدم التطرق من قبل –فيما أعلم- لكتاب "فحولة الشعراء للأصمعي" فيما يختص بالزوايا النقدية التي تحدثت عنها، وحاولت الإبانة عن مكوناتها، وربما يتضح ذلك بطرح أسئلة حول هذا البحث أظهرها: ما الطريقة التي اتبعها الأصمعي في تصنيفه للشعراء؟ وهل سبق لذلك أم لا؟، وما رأي النقاد فيما طرحه من آراء، أو بالصفات النقدية التي خلعها على الشعراء في كتابه؟، وهل شمل بآرائه جميع الشعراء الذين سبقوه أو عاصروه؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي حاولت الإجابة عليها في بحثي هذا.

وقد كشف بحثي هذا عن الميزان النقدي الذي اتبعه الأصمعي؛ ليظهر من خلاله المقاييس النقدية المختلفة، والأحكام المنوعة التي أصدرها بحق الشعراء الذين تطرق إليهم، مستخدماً في ذلك المنهجية التحليلية بثوبها التاريخي والنقدي والإحصائي، وإني لأزعم بأنني أول من تناول هذا الموروث النقدي في كتاب الأصمعي هذا بالتحليل والدراسة بهذه الطريقة والكيفية، وإن كان أغلب من تطرق إليه تناولوه من جانب صفة الفحولة فقط، دون الولوج إلى الصفات النقدية الأخرى، والتي كونت جزءاً مهماً من هذا الكتاب.

وقد تكون هذا البحث من مبحثين، أولاهما: تحدثت فيه عن الجانب النظري، الذي اشتمل على ترجمة للأصمعي، والشعر عند العرب، ونظرة في النقد العربي حتى زمن الأصمعي، والميزان النقدي عند الأصمعي في كتابه "فحولة الشعراء"، وجاء المبحث الثاني ليشكل الدراسة التطبيقية في كتاب "فحولة الشعراء"، والتي من خلالها أظهرت توزيع الشعراء على المقاييس النقدية، ضمن إطار الميزان النقدي عند الأصمعي، ثم أتبعته بنتائج للبحث شكلت ختام البحث ونهايته.

- الشعر عند العرب:

للشعر مكانة عظيمة عند العرب؛ ولذا قال عمر بن الخطاب: "كان الشعر على قوم لم يكن لهم علم أصح منه"(1)، وما وصل إلينا منه إلا القليل، قال أبو عمرو بن العلاء: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلّه، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم

• هو أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْب بن عبد الملك بن علي بن أصمع، ابن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، المعروف بالأصمعي الباهلي، ولد في البصرة سنة (123هـ). كان صاحب لغة ونحو، وإماماً في الأخبار والنوادر والملح والغرائب، سمع شعبة بن الحجاج والحمادين وغيرهم، وروى عنه أبو عبيد القاسم، وأبو حاتم السجستاني، وأبو الفضل الرياشي وغيرهم، وهو من أهل البصرة، وقدم بغداد في أيام هارون الرشيد.

- ابن خلّكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر، (1994)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، (د.ط)، دار صادر،بيروت، المجلد الثالث، ص:170-171.

(1) السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، (د.ت)، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ط3، دار التراث، القاهرة، ج3، ص:404.

وشعر كثير"[1] ، وكان الشعر ديوان العرب، وهنا يقول ابن سلام: "وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم، ومنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون"[2]، ويؤيد ابن خلدون ذلك فيقول: "أعلم أن الشعر كان ديوان للعرب، فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم، وكان رؤساء العرب منافسين فيه، وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده، وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر لتمييز حوله"[3]، وقيل أيضاً: "الشعر ديوان العرب، وبه حفظت الأنساب وعرفت المآثر"[4]. وهذا يظهر لنا المكانة التي كانت للشعر عند العرب، فهو ديوانهم، وعليه يجتمعون، وفيه يحفظون علومهم وأخبارهم، فهو السجل التاريخي لهم وللأحداث التي يمرون بها في حياتهم، وهو رمزهم وسرهم وعنوانهم ورسالتهم وإعلامهم، فالشاعر هو رسول القبيلة ورجل إعلامها الأول، ولهذا قال أبو عمرو بن العلاء: "كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب؛ لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيّد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم من غزاهم، ويهيب من فرسانهم، ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم، فيراقب شاعرهم، فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة، ورحلوا إلى السّوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر[5].

إن الشعر صناعة وثقافة، فهمها الجمحي عندما قال: "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات"[6]، ولعل الحطيئة أدرك صعوبة الصعود على سُلَّم الشعر، فقال: [7]

الشـــــعر صـــــعب وطويـــــل ســـــلّمه	**والشـــعر لا يســـتطيعه مـــن يظلمـــه**
إذا ارتقـــــى فيـــــه الـــــذي لا يعلمـــــه	**زلـــت بـــه إلـــى الحضـــيض قدمـــه**

يريـد أن يعربه فيعجمه

وحدّ الشعر اللفظ والوزن والمعنى والقافية، فهو "كل قول موزون مقفى يدل على معنى"[8]، وأركانه: المدح، والهجاء، والنسيب، والرثاء، وقواعده: الرغبة، والرهبة، والطرب، والغضب، وأغراضه: النسيب، والمدح، والفخر، والوصف[9]، والشعر هو "كلام مفصل قطعاً قطعاً، متساوية الوزن الواحد[10]. وقد تحدث شوقي ضيف عن منزعين في الشعر: منزع المحافظين الذين يعنون

---

(1) نفسه .

(2) الجمحي، محمد بن سلام، (1997)، **طبقات الشعراء**، ط1، حققه: عمر فاروق الطباع، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص:51.

(3) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (2006)، **مقدمة ابن خلدون**، (د.ط)، حققه وشرحه وضبطه: علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ج3، ص:1176.

(4) السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ج3، ص:470.

(5) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (د.ت)، **البيان والتبيين**،(د.ط)، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الجليل، بيروت، ص:241.

(6) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:43.

– القيرواني، الحسن بن رشيق، (2006)، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ط1، تحقيق:محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع للنشر والتوزيع، القاهرة، ص:102.

(7) السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ج2، ص:490.

(8) ابن جعفر، قدامة، (1978)، **نقد الشعر**، ط3، تحقيق: كمال مصطفى، ص:17.

(9) القيرواني، الحسن بن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ج1، ص:103.

(10) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **مقدمة ابن خلدون**، ج3، ص:1157-1158.

بالتراث القديم في الموضوع والأسلوب، ومنزع المجددين الذين يحاولون أن يجددوا في كل شيء، حتى يتفقوا مع ذوق العصر، وحتى يهيئوا للشعر تطوراً في موضوعاته وأساليبه[1].

والمطبوع من الشعراء هو من سمح بالشعر واقتدر على القوافي، وأراك في صدر البيت عجزه، وفي فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتذجر(يتكهن)"[2]، والشعراء بالطبع مختلفون، منهم من يسهل عليه المديح، ويتعذر عليه الهجاء، ومنهم من يسهل عليه المراثي، ويتعذر عليه الغزل"[3].

- نظرة في النقد العربي حتى زمن الأصمعي:

كثر الشعراء، وتعددت قبائلهم، وتنوعت مشاربهم، وتلونت أشعارهم، فلم يتركوا مجالاً إلى ونظموا فيه شعراً، قلّ أو كثر، أجادوا، أو قلّت الجودة فيه، وقد كان لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً، أولها الحفظ من جنسه، أي من جنس شعر العرب، حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها، ويتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب، وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفي فيه شعر شاعر من الفحول الإسلاميين، والمختار من شعر الجاهلية[4]. وقد كشفت لنا المصادر التراثية عن وجود كمّ هائل من النصوص النقدية العفوية، التي كانت ترافق ظهور القصائد والأشعار في العصر الجاهلي، وهي بالتالي كانت تعج بالآراء النقدية التي كانت تقوّم العمل الشعري، حيث شكلت هذه الآراء كماً هائلاً من النقد العفوي الذي لازم الشعر في الأسواق والمجالس، وكونت مادة نقدية ضخمة مهدت لظهور المدارس النقدية فيما بعد[5].

والنقد في أدبنا العربي قديم قدم هذا الأدب، بل قدم الفن والإبداع والشعر، ففي الجاهلية مثلاً نجد حكومة زوجة امرئ القيس عندما حكمت لعلقمة الفحل وفضلته على زوجها في جانب من شعريهما، وكذلك في قضاء النابغة بأفضلية الخنساء على حسان بن ثابت[6]. وفي العصر العباسي نجد أيضاً الموازنة للآمدي بين أبي تمام والبحتري، ووساطة القاضي الجرجاني بين المتنبي وخصومه[7]، وقد يكون الناقد شاعراً كالنابغة، ومن نقده قوله للبيد بن ربيعة بعد أن سمع شعره: اذهب فأنت أشعر العرب، وقد يكون الناقد قبيلة، إذ كانت العرب تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه كان مقبولاً، وما ردوه منها كان مردوداً[8]، ولهذا فإننا نجد أنه كان "لبعض القبائل نوع من السيادة الفنية، أهلّها لأن تكون مسموعة الكلمة في شؤون الشعر، كما عرف ذلك عن قريش بخاصة، ويلحظ المرء هنا ترابطاً بين السيادة الدينية والسيادة الفنية، والصحيح أن الحساسية الدينية غير بعيدة عن الحساسية الفنية"[9].

---

(1) ضيف، شوقي، (د.ت)، **في النقد الأدبي**، ط2، دار المعارف، ص:11.
(2) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، (1984)، **الشعر والشعراء**، ط3، عالم الكتب، بيروت، ص:12.
(3) نفسه، ص:14 .
(4) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **مقدمة ابن خلدون**، ج3، ص:1163.
(5) الحسين، قصي، 2008، **النقد الأدبي ومدارسه عند العرب**، (د.ط)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ص:6-7.
(6) الأصفهاني، علي بن الحسين، (1997)، **كتاب الأغاني**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، ج11، ص:7.
(7) انظر: عباس، إحسان، (1993)، **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، ط2، دار الشروق، عمان، ص:304-340.
- الرباعي، عبد القادر، (2007)، **تحولات النقد الثقافي**، ط1، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص:122.
(8) العاكوب، عيسى علي، 1997، **التفكير النقدي عند العرب**، ط1، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، ص:28-29.
(9) نفسه، ص:43 .

ويعرض طه حسين لمدرسة شعرية غلب على معظم أعضائها صناعة الشعر، وتثقيفه وحوليته، وكان أوس بن حجر أستاذها الأول، ثم زهير بن أبي سلمي، وكعب بن زهير والحطيئة، وقد جعل طه حسين هذه المدرسة الشعرية بأنها تتصف بمزايا متشابهة، وجعل لها مقياساً يجمع بين اللفظ والمعنى والخصائص الفنية المشتركة(1).

إن تأثير النقاد وعلماء الشعر في العصر الجاهلي على شعراء الطبع، أو الشعراء المطبوعين كان قليلاً؛ لأن أهل هذه المدرسة يؤمنون بالعفوية والطبعية في قول الشعر، أما تأثير النقاد الجاهليين على أصحاب مدرسة الصنعة والتكلف فقد كان قوياً، فأنشئت المدرسة الأوسية، الذين صنعوا قصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات، حتى يصير قائلها فحلاً خنذيذياً، أو شاعراً مفلقاً، وكانت الجودة التي فرضها النقاد على أصحاب هذه المدرسة تقوم على التصفية والتزويق، والتأمل في ألطاف القصيدة، حتى أن شاعر الصنعة وقع تحت وطأة النقد، يصفي الأبيات من شوائبها، ويخلص القوافي من أوزانها تخليصاً تاماً(2)؛ ولذا فإن فكرة تنقيح الشعر تمثل "تصوراً خاصاً للعملية الإبداعية عند نفر من الشعراء، فالشعر عند بعض الشعراء ليس تدفقاً تلقائياً يستسلم فيه الشاعر لقريحته، بل هو ضرب من المعاناة والمكابدة والطلب الملح، ولا يكتفي الشاعر بما أتاه لأول وهلة، بل يتأمله بعين البصيرة.."(3). وقد كان هدف الشاعر زهير وغيره من تنقيح الشعر هو "تخليص الشعر العربي مما كان لا يزال عالقاً به من آثار عدم النضج، مثل التعبيرات غير المصقولة، والأسلوب غير المنقح، وعيوب الوزن والقافية"(4). وهنا أقول إن الناقد والشاعر في الجاهلية كانا شخصاً واحداً، وهذا ما كان يعوض عن وجود النقد الكثير من خلال وجود الشعر الجيد الكثير، فالنقد "كان عبارة عن عملية فنية ذات معايير تطبيقية، عمل الشاعر على تطبيقها في شعره، دون أن ينشغل بتسجيلها في مدونات نقدية"(5)، وكان النقد في هذه الفترة يصدر بناء على ملحوظات على أبيات من الشعر، أو على بعض القصائد، أو على تصنيف تصنيف الشعراء، وفقاً للقيمة الجمالية لقصائدهم، وكان بالإمكان أن يكون هذا الحكم جديراً بالتقدير، "لو أنه اعتمد على دراسة النتاج الشعري للشاعر بكامله، ولكن معظم تلك التصنيفات جاء ثمرة لأحكام معدة سلفاً تصدر دون تبرير حقيقي(6).

فإذا ما جئنا إلى طبيعة النقد العربي قبل الإسلام، نجده "كان ذوقاً فطرياً عاماً يخلو في أغلب الأحيان من التعليل والتفسير، وأن النقد العربي بعد انتهاء مرحلة الرواية والتدوين بدأ يبرز ويعلل على وفق منهج"(7)، ولكن الأحكام النقدية في العصر العصر الجاهلي هي انطباعية بالمطلق، وتصدر في الغالب بصورة عفوية، من منبع عاطفي، ولا يضطر الناقد للتعليل أو التفسير في نقده، وإن اضطر لذلك فهو كثير الإيجاز وفي غاية البساطة والوضوح، ولهذا فإن معظم الآراء النقدية "عفوية وبسيطة، وذات شأن تأثيري في الشاعر، مما جعل الشعراء يهابون الأحكام النقدية، ويثورون على أصحابها، ويتصدون لهم بكل قسوة، كما فعل حسان بن ثابت بالنابغة الذبياني الذي آثر الخنساء عليه في سوق عكاظ"(8).

---

(1) حسين، طه، (1991)، **من تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي والعصر الإسلامي**، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ج1، ص:270.
(2) الحسين، قصي، **النقد الأدبي ومدارسه عند العرب**، ص:35.
(3) العاكوب، عيسى علي، **التفكير النقدي عند العرب**، ص:35.
(4) القط، عبد القادر، (1982)، **مفهوم الشعر عند العرب**، (د.ط)، ترجمة عبد الحميد القط، دار المعارف، القاهرة، ص:58.
(5) الحسين، قصي، **النقد الأدبي ومدارسه عند العرب**، ص:26.
(6) القط، عبد القادر، **مفهوم الشعر عند العرب**، ص:23.
(7) الصفار، ابتسام مرهون(وزميلها)، (2006)، **محاضرات في تاريخ النقد عند العرب**، (د.ط)، جهينة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص:20.
(8) الحسين، قصي، **النقد الأدبي ومدارسه عند العرب**، ص:26-27.

ويظهر لنا أن الشاعر الذي "يهذب ويشذب وينقح ويعدل يمارس النقد للنص الذي يبدعه... وهو نقد ملازم للعملية الإبداعية ومتمم لها، والمستمع –أو القارئ– الذي يصوب ويميز ويوازن ويقوّم، إنما يمارس نقداً (تالياً) للعملية الإبداعية، ويظهر أن هذين النوعين وجدا في عصر ما قبل الإسلام"(1).

لقد انبثق مع النقد الذاتي التأثري الانطباعي النقد الموضوعي، بحيث أننا نجد أن النقد الذاتي يعتمد على الشعور الذي قد يكون مبهماً، بينما النقد الموضوعي يعتمد على الموضوعية التي تعتمد على عناصر وقواعد محددة في تقويم العمل الأدبي، ولذا فالشكل الذاتي يتلون بالعواطف، ويعبر عن مصالحه ورغباته، وفي الشكل الموضوعي يتجلى فيه أحكام واستنتاجات منطقية، ويستند إلى معايير في نظام من المعاني الموضوعية، ويقف خارج المصالح الشخصية للفرد ولرغباته وطموحاته، وبذلك تكون الذاتية المعتمدة على الذوق والمزاج الشخصي قد تقود إلى أحكام غير منطقية أو أحكام غير معللة، ولا تقوى على إقناع الآخرين مما جعل بعض النقاد يحذر من الاعتماد على التأثرية في النقد التي تعتمد على الذاتية الخالصة(2).

ويرى فريق من الباحثين "أنه من المستحيل نظرياً أن يكون الشعر قد حقق هذا التفوق الفني في العصر الجاهلي، دون أن يكون وراءه فعالية نقدية، أو قوة نقدية استمرت تتابعه وتوجهه على نحو من الأنحاء، حتى استطاع هذا الشعر أن يبلغ مثل هذه المنزلة"(3)، كما أن أكثر الروايات النقدية تدل على وجود نقد، لكنه نقد ليس وراءه فكر نقدي منظم، ولا قاعدة يستند إليها، وإنما هي أحكام جزئية ومختصرة، موزعة ومبعثرة، وتتصف بأنها أحكام انفعالية آنية، تخضع لأهواء الناقد، وليس إلى مذهب نقدي(4).

يعد الأصمعي من أوائل النقاد النحويين الذين يمثلون اتجاه النقد الموضوعي في عصره، وقد استطاع أن يثبت الصلة بين شعر حسان وبين الحياة الاجتماعية دون أن يعمد إلى تحليل شعره فنياً، ودون أن يقيم من ذوقه الفني مقياساً لقياس جودة الشعر، "والحق أن الرواة واللغويين في العصر الأموي كانوا قد بذلوا جهوداً مضنية في نقد الشعر، وتبيان مقدار جودته الفنية وتعليلها بناء لمقاييس وشروط وقواعد ومناهج قاسوا بها فنية الشعر، وعبقرية الشاعر في العصرين الجاهلي والإسلامي، فنشأ على أيديهم النقد الموضوعي والنقد التاريخي للشعر العربي"(5).

إن التصاق الأصمعي بالرواية واللغة لم يسمح له أن يحس بوضوح بالتغيير والتطور في الذوق العام، أو في طبيعة الفن الشعري، أو في المقاييس الأخلاقية، أو في المستوى الثقافي أو غيرها، ولكن مع ذلك، يعد نقد الأصمعي بداية النقد المنظم؛ لأنه أحس ببعض المفارقة التي أخذت تبدو في أفق الحياة الشعرية، غير أنه بدلاً من أن ينظر إلى المشكلة في ضوء تطوري، نظر إليها من خلال موقف ثابت، نظر إلى الشاعر فوجده أحد اثنين، إما فحل، أو غير فحل، ونظر إلى منبع الشعر فوجده إما في الخير أو في الشر، وليس بسبب تدينه قرن الشعر بالشر، ولكن لأن الشر عنده هو صورة النشاط الدنيوي جملة، والشعر ينبع من ذلك النشاط(6).

---

(1) الصفار، ابتسام مرهون(وزميلها)، **محاضرات في تاريخ النقد عند العرب**، ص:20.
(2) السعافين، إبراهيم(وزميله)، (1994)، **مناهج تحليل النص الأدبي**، ط1، جامعة القدس المفتوحة، عمان، الأردن،ص:45-46.
(3) الحسين، قصي، **النقد الأدبي ومدارسه عند العرب**، ص:20.
(4) نفسه، ص:29 .
(5) الحسين، قصي، **النقد الأدبي ومدارسه عند العرب**، ص:77.
(6) عباس، إحسان، **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، ص:647.

وإذا ما نظرنا إلى النقد اللغوي نجده يعالج دلالات الألفاظ وصحة التراكيب وضعفها، ويلفت النظر إلى بعض المآخذ اللغوية، التي يجدها الناقد عند الشعراء، أما النقد الفني فهو النقد الذي يقصد تقويم الشعر بصفته شعراً، فتكون معاييره ذات صلة بالشعر معنى وصياغة، وصورة وغرضاً، وإحساساً وتجربة، ومذهباً في القول(1)، كما ترتبط بالنقد اللغوي ظاهرة الاحتجاج أو الاستشهاد(2).

وعندما نصل إلى ابن سلام نجده يقسم الشعراء في كل عصر إلى طبقات، بحيث يوحي هذا التقسيم أن التفاوت بين الشعراء كان بسبب المنزلة الأدبية، أو بسبب سيرورة الشعر، أو كثرة النتاج الأدبي، أو جودته، أو بسبب القدرة على التصرف في فنون الشعر المختلفة، ولهذا جاء تصنيفه للشعراء "بحسب بيئاتهم: مثل: شعراء القرى، وشعراء المدينة...، إنما كان لتوضيح أثر البيئة في الإبداع الشعري، والإقرار بأن البيئات الجاهلية لم تكن جميعها سواء في إنتاج الشعر وإبداعه(3).

ولا نجد عند ابن قتيبة غير مقياس الشهرة الذي اعتمده الآخرون من قبله، فهو قد أهمل المقاييس التي نجدها عند ابن سلام، من مثل الزمان والمكان، أو الكم وتعدد الأغراض عند الشاعر(4). لقد ظهرت بعض القضايا النقدية في كتب الطبقات والاختيارات من خلال الأحكام النقدية الانطباعية التي كانت تدور على ألسنة النقاد، ثم أخذت تظهر بوضوح مع بواكير مرحلة التأليف في النقد، وأول ما نلحظها عند ناقد كالأصمعي في القرن الهجري الثاني في كتابه "فحول الشعراء"، الذي اتكأ عليه من ألفوا بعده في النقد، وتوسعوا في كل ما عرض له الأصمعي، ولعلنا نفيد كثيراً مما مهّد له مؤلفو كتب طبقات الشعراء بمقدمات نقدية تكشف مذاهبهم، والأسس التي اعتمدوا عليها في الاختيار والتصنيف، كمقدمة ابن سلام في كتابه "طبقات الشعراء"، ومقدمة ابن قتيبة في كتابه "الشعر والشعراء"، ومقدمة ابن المعتز في كتابه "طبقات الشعراء"، ومقدمة "جمهرة أشعار العرب" لأبي زيد القرشي وغيرهم(5).

ويقول ابن سلام في طبقاته: "فاقتصرنا في هذه على فحول الشعراء الإسلاميين؛ للاستغناء عن فحول الشعراء الجاهليين بطبقاتي المؤلفة في ذلك، ورتبت هذا المؤلف على عشر طبقات، كل طبقة تجمع أربعة من فحول شعراء الإسلام"(6)، ولئن كان الذوق بما يحمله من انطباعية وميول هو المتحكم في تقييم النتاج الأدبي، فإن ابن سلام نجح في أن يجعل من النقد علماً مستقلاً، وأن يضع اللبنات الأساسية لبناء نقد منهجي سليم، فاستطاع أن يميز بين الرواة الموثوقين، والرواة الوضاعين، وله الفضل في حفظ الآراء والنظرات النقدية من الضياع(7)، وقد كان ابن سلام أشد صلة بالنقد المدروس من الأصمعي، ولكنه يشبهه في أنه حصر رؤيته ضمن ذلك "الثبوت" الذي يمثله الشعر الجاهلي والإسلامي، وهو كالأصمعي يرى الشاعر فحلاً أو غير فحل، لكنه يزيد عليه في أن الفحولة درجات، ومن ثم كانت نظريته في الطبقات(8)، حيث قسم ابن سلام الشعراء حسب أزمانهم إلى جاهليين

---

(1) الصفار، ابتسام مرهون(وزميلها)، **محاضرات في تاريخ النقد عند العرب**، ص:90.
(2) نفسه، ص:98 .
(3) الحسين، قصي، **النقد الأدبي ومدارسه عند العرب**، ص:87.
(4) المحالي، جهاد شاهر، (1985)، **مفهوم الطبقات في النقد العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، الجامعة الأردنية، رسالة ماجستير، ص:59.
(5) نفسه، ص:122.
(6) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:51..
(7) المحالي، جهاد شاهر، **مفهوم الطبقات في النقد العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، ص:77.
(8) عباس، إحسان، **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، ص:647.

ومخضرمين وإسلاميين، وهذا يوحي بأنه يفضل المنهج التاريخي[1]. ويربط البعض بين فحول الجاهلية والإسلام، ويورد السيوطي في مزهره قولاً يرده إلى الحذاق، فيقول: "وكان الحذاق يقولون: الفحولة في الجاهلية ثلاثة، وفي الإسلام ثلاثة متشابهون: زهير والفرزدق، والنابغة والأخطل، والأعشى وجرير"، وحكى الأصمعي عن ابن أبي طرفة: كفاك من الشعراء أربعة: زهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وعنترة إذا كَلِب(غضب)، وزاد قوم: وجرير إذا غضب"[2].

وأجد بأن النقاد قد ميزوا بين الذاتية في تقدير العمل الأدبي والموضوعية، فالذاتية تعتمد على الشعور الذي قد يكون غير واضح، بينما الموضوعية تعتمد على عناصر وقواعد محددة في تقويم العمل الأدبي وتقديره، والذاتية في تقويم العمل الأدبي هي أساس الموضوعية فيه، ويصعب علينا أن نجرد الناقد من ذوقه الخاص وميوله النفسية، ومشاعره الذاتية نحو هذا العمل، أو تجاربه الشعورية نحو نص أدبي ما، مما يجعل عملية التقويم هي عملية تفاعل بين النص(العمل) والناقد.

كما ألاحظ تفاوتاً في المقاييس النقدية في تصنيف الشعراء، فابن سلام يتعصب للقديم، وابن المعتز للحديث، والجاحظ وابن قتيبة كانا توفيقيين، بعد ذلك جاء نقاد كالقاضي الجرجاني، وابن رشيق، فاعترضوا على أن يكون الزمن هو الفيصل في الحكم على الشعراء، ورأوا أن الجودة هي المعيار الأسلم[3].

– الميزان النقدي عند الأصمعي في كتابه "فحولة الشعراء":

من أوائل الرواة، إن لم يكن أولهم، ومن أوائل النقاد، إن لم يكن رائدهم، إنه "الأصمعي"، "صناجة الرواة والنقلة، وإليه محط الأعباء والثقلة، ومنه تجنى الفِقَر والمِلَح، وهو ريحانة كل مغتَبِقٍ وَمُصْطَبِحٍ، كانت مشيخة القراء وأماثلهم تحضره وهو حدث لأخذ قراءة نافع عنه، ومعلوم قدر ما حذف من اللغة فلم يثبته؛ لأنه لم يقو عنده إذ لم يسمعه"[4].

إن كتاب "فحولة الشعراء" للأصمعي اهتم بقضية طبقات الشعراء، وهو أقدم من كتاب ابن سلام، وقد نظر الأصمعي لهذه القضية من خلال موقف ثابت، فاعتبر الشعراء طبقتين، طبقة فحول الشعراء وطبقة غير الفحول، وقد أفاد ابن سلام من نظرات الأصمعي النقدية، وحذا حذوه في تخير طبقة الفحول من الشعراء[5]، "فبعد أن كان الأصمعي ينظر للفحولة من منظار ثابت، حصره في درجتين، يأتي ابن سلام ليجعل منها درجات متعددة، أوصلها إلى عشر في كل من العصرين الجاهلي والإسلامي"[6].

وأجد الاصمعي في كتابه "فحولة الشعراء" يضع ميزاناً نقدياً ربما لم يسبق إليه، وسار على نهجه كثير من النقاد ممن جاءوا بعده، وكان من أهم المقاييس النقدية التي اعتمدها في ميزانه النقدي في كتابه هذا، هي "الفحولة"، وقد ورد هذا المصطلح في لسان العرب: "فحول الشعراء هم الذين غلبوا بالهجاء من هاجاهم، مثل جرير، والفرزدق، وأشباههما، وكذلك كل من عارض شاعراً فغلب عليه... والفحول: الرواة، الواحد فحل"[7]، وجاء في الوسيط، "فحول الشعر أو العلم: الفائقون فيه"[8].

---

(1) الحسين، قصي، **النقد الأدبي ومدارسه عند العرب**، ص:87.

(2) السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ج2، ص:479.

(3) المجالي، جهاد شاهر، **مفهوم الطبقات في النقد العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، ص:94.

(4) السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ج2، ص:415.

(5) المجالي، جهاد شاهر، **مفهوم الطبقات في النقد العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، ص:415.

(6) نفسه، ص:73.

(7) ابن منظور، محمد بن مكرم، (1994)، **لسان العرب**، ط3، دار صادر، بيروت، لبنان.مادة: فَحَل.

(8) مصطفى، إبراهيم(وزملاؤه)، (د.ت)، **المعجم الوسيط**، (د.ط)، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، إستانبول، تركيا، مادة: فَحَل.

واستخدمت العرب كلمة (فحل) في كل ما يوحي بالغلبة والقوة، وهي في الشعر لا تغادر هذه الدلالة، وفحول الشعراء هم المبرزون منهم والمثقفون(1)، وفي كتاب "فحولة الشعراء" للأصمعي: سأل أبو حاتم أستاذه الأصمعي عن معنى "الفحل" فقال: "من كان له مزية على غيره، كمزية الفحل على الحقاق. (جمع حق، من الإبل الداخلة في السنة الرابعة)" (2).

ولعل "فحولة الشعراء" الأصمعية، وآراءه النقدية في مضمار هذه الفحولة، تجعل من فحولة الشعراء عنده، غيرها الرجولة من المنظور الجمالي التقليدي، التي تعني القوة في الجسم والنفس، والسمو في المطامح، والنبل في المقاصد، والرجاحة في العقل، والمبالغة في الكرم(3). أما فحولة الأصمعي، فهي مختصة في الشعر والقدرة الشعرية في إبداع الشاعر لشعره. ويتجلى في نص الفحولة عند الأصمعي: "أن الفحولة صفة عزيزة، تعني التفرد الذي يتطلب غلبة صفة الشعر على كل الصفات الأخرى في المرء، كما أن غلبة صفة الشعر تستدعي عدداً معيناً من القصائد التي تكفل لصاحبها التفرد"(4)، ونقل عن الأصمعي نصاً يقول فيه: "لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلاً حتى يروي أشعار العرب، ويسمع الأخبار، ويعرف المعاني، وتدور في مسامعه الألفاظ، وأول ذلك أن يعلم العروض؛ ليكون ميزاناً له على قوله، والنحو ليصلح به لسانه، وليقيم إعرابه، والنسب وأيام الناس ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب وذكرها بمدح أو ذم"، ولهذا تعني الفحولة "طرازاً رفيعاً في السبك، وطاقة كبيرة في الشاعرية، وسيطرة واثقة على المعاني"(5).

وقد لقبت العرب الشعراء ألقاباً تشي بحظ الواحد منهم من قوة النظم، فأعلى منازل الشعراء عند العرب (الخنذيذ) وهو التام والفحل، ودونه الشاعر، ورابعهم الشعرور(6)، وتأكيداً لهذه الألقاب وصحة ورودها، فقد ذكر السيوطي وابن رشيق أن الشعراء أربعة: شاعر خنذيذ، وهو الذي يجمع إلى جودة شعره الجيد من شعر غيره، وسئل رؤبة عن الفحول فقال: هم الرواة، وشاعر مفلق، وهو الذي لا رواية له إلا أنه مجوِّد كالخنذيذ في شعره، وشاعر فقط، وهو فوق الرديء بدرجة، وشعرور وهو لا شيء، وقيل: بل هم: شاعر مفلق، وشاعر مطبق، وشويعر، وشعرور، والمفلق الذي يأتي في شعره بالفلْق، وهو العجب، وقيل: هو الداهية(7)، وفي كلا الروايتين نجد تقارباً في استخدام كلمة (فحل)، فهي للشاعر الخنذيذ الشجاع، وهي للرواة المتصفين بجودة الشعر.

---

(1) العاكوب، عيسى علي، **التفكير النقدي عند العرب**، ص:**107**.
(2) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، (د.ت)، **كتاب فحولة الشعراء**، تحقيق المستشرق: ش. تورّي، قدم له: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ص:9.
(3) خليل، أحمد محمود، (1996)، **في النقد الجمالي، رؤية في الشعر الجاهلي**، ط1، دار الفكر، دمشق، سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ص:84.
(4) عباس، إحسان، **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**.ص:40.
(5) نفسه، ص:40-41 .
(6) العاكوب، عيسى علي، **التفكير النقدي عند العرب**، ص:**25-26**.
-الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، ج**2**، ص:**9**
(7) السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ج2، ص:489-490.
-القيرواني، الحسن بن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ج1، ص:99.

المبحث الثاني

الدراسة التطبيقية

وقد وجدت الأصمعي في كتابه "فحولة الشعراء" قد اتجه في آرائه النقدية اتجاهات متعددة، ولكنها في أغلبها تبقى في إطار مبدأ الذاتية النقدية، والتأثرية الشخصية، والانطباعية الفردية، دون الرجوع إلى النقد المنهجي المعلل، إلا ما كان منها في بعض الأحيان من آراء نقدية حول بعض الشعراء، ولكنها في جلّها لا تكاد تصل إلى النقد المعلل الواضح، والذي له قواعده وقوانينه، وإذا كان الأصمعي اعتمد مبدأ الفحولة، فإننا نجد ابن سلام قد جعله أحد الأسس في التدريج الطبقي، كقوله مثلاً: "وهم أربعة رهط فحول شعراء، وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة"(1). وقد أخذ ابن سلام ينتقي شعراءه بعناية فائقة معتمداً على حجج العلماء الثقات فيهم، وهو حينما وجد الشعراء كثيرين، فقد اختار الفحول منهم، ولما كان الفحول أيضاً لا يستقصون، فإنه اختار فحول الفحول منهم(2)، ومع ذلك فإننا نجد ابن سلام أهمل بعض فحول الشعراء، وكذلك أهمل ابن قتيبة فحولاً كأبي تمام والبحتري وابن الرومي(3).

بلغت مجموعة الشعراء الفحول هذه(أربعة عشر) شاعراً، أطلق عليهم الأصمعي لقب (فحل)، دون أن يضيف لأي منهم إضافة أو تعليقاً، وكأن الأصمعي وجد فيهم ميزة الفحولة المتمثلة بإتقان الشعر بطريقة لا يتميز بها أحد مثلهم. ولعل مصطلح الفحولة جاء به الأصمعي ليتناسب مع طبيعة البداوة التي عاشها في البادية، فهذا المصطلح هو من البيئة التي عاشها الشاعر، حيث كانت كلمة (فحل) تطلق على (فحل) أو ذكر الإبل، والغنم، والماعز، وغيرها، وهو مصطلح نقدي قديم أولي، أطلقه الأصمعي على الشعراء المميزين، وهذا المصطلح يعود بنا أيضاً إلى "طريقة الخليل بن أحمد في انتخاب الألفاظ الدالة على الشعر من طبيعة الحياة البدوية، فالفحل جملاً كان أو فرساً يتميز بما يناقض صفة اللين التي يكرهها الأصمعي في الشاعر، وبالفحولة يتفوق على ما عداه"(4).

وقد قسمت آراء الأصمعي النقدية التي اعتمدها كميزان نقدي يحكم بها على الشعراء في كتابه هذا إلى مجموعة من الآراء أبنتها كما يلي:

أولاً: مقاييس لها علاقة بالفحولة:

1. **شعراء أطلق عليهم الأصمعي لقب "فحل" دون تعليق منه أو إضافة**، وشعراء هذه المجموعة هم:

1.1 **علقمة بن عبدة**: "فحل" (5): ونجد الشخصية الأولى من المجموعة الأولى التي أطلق عليها الأصمعي لقب (فحل) هو علقمة الفحل، أو علقمة بن عبدة، وقد جعله ابن سلام الشخصية الثانية بعد (طرفة بن العبد)، من الطبقة الرابعة الذين وصفهم "وهم أربعة رهط فحول شعراء، موضعهم الأوائل، وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة"(6)، وكل المصادر القديمة تحدثت ما حكمت به زوجة امرئ القيس لصالح علقمة بعد المباراة الشعرية بينهما(7)، ومن ذلك نجد ابن

---

(1) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:78.
(2) نفسه. المحالي، جهاد شاهر، **مفهوم الطبقات في النقد العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، ص:55.
(3) نفسه، ص:60 .
(4) عباس، إحسان، **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**.ص:39.
(5) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:11.
(6) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:78.
(7) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:31.

سلام يعد علقمة الفحل من الفحول، والأوائل، وإن كان قد أخل بمكانتهم قلة شعرهم بأيدي الرواة، فلو كانوا ممن كثر شعرهم لوجدنا شعرهم ومكانتهم أسمى من ذلك، ثم يقول ابن سلام: "ولابن عبدة ثلاث روائع جياد لا يفوقهن شعر"، الأولى: "ذهبت من الهجران كل مذهب"، والثانية: "طحا بك في الحسان قلب طروب"، والثالثة: "هل ما علمت وما استودعت مكتوم"[1]. وبهذا نجد التشابه في الحكم النقدي بين الأصمعي وابن سلام.

2.1 **الحارث بن حلزة**: "فحل": [2] ويقول عنه بأنه ارتجل قصيدته "آذنتنا ببينها أسماء" بين يدي عمرو بن هند، وكان ينشده من وراء سبعة ستور، فأمر برفع الستور عنه استحساناً لها"[3]، وقال المرزباني في موشحه: "فلما سمعها عمرو دعاه فأكرمه وأدناه"[4]، ووصفه ابن شرف القيرواني بأنه يخطب بالموزون، "وهو من شعراء وائل، وأحد أسنة هاتيك القبائل"[5]. وهذا يؤكد حكم الأصمعي.

3.1 **المسيب بن علس**: "فحل": [6] أما المسيب بن علس، الذي وصفه الأصمعي بأنه "فحل"، نجد له ذكراً في كتب النقد القديمة، فقد عده ابن سلام من شعراء الطبقة السابعة، وهو من شعراء الجاهلية في ربيعة[7]، ووصفه ابن قتيبة بأنه من الشعراء المعدودين[8].

4.1 **حسان بن ثابت**: "فحل"[9]: وهو رابع الفحول عند الأصمعي، وهو شاعر مخضرم، صنع له مجداً تليداً كونه شاعر الرسولﷺ، وعدّه ابن سلام أول فحول المدينة من طبقة شعراء المدن، ونعته ابن سلام بأنه أشعر شعراء المدن، وقال عنه: "وهو كثير الشعر جيده"[10]، ويروي المرزباني عن الأصمعي أنه قال: "طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره باب الخير– من مراثي النبيﷺ، وحمزة، وجعفر– رضوان الله عليهما– وغيرهم، لان شعره، وطريق الشعر هو طريق الفحول، مثل امرئ القيس، وزهير، والنابغة، من صفات الديار والرَّحْل، والهجاء، والمديح...فإذا ما أدخلته في باب الخير لان"[11]. وهو فحل من فحول الشعراء، وأشعر أهل المدَر، وأحد المعمَّرين المخضرمين[12]، وكل ما أوردته يؤكد على تقدم حسان وسبقه الشعري، ورفعة مكانته، وأنه أهل لحكم الأصمعي النقدي عليه بأنه فحل.

-المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، (1995)، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ط1، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ص:39.

(1) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:79.
(2) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:11..
(3) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:29.
القيرواني، ابن شرف، **رسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء**، ج1، ص:37،
(4) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**. ص:96.
(5) القيرواني، ابن شرف، **رسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء**، ج1، ص:25.
(6) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:11.
(7) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:89، 55.
(8) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:32.
(9) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:11.
(10) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:111.
(11) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**. ص:78.
(12) (الأصفهاني، ج4، 1997، ص:352) .

5.1 **قيس بن الخطيم**: "فحل":[1]: ويؤكد الأصمعي على فحولة قيس بن الخطيم، ويؤيد ذلك ابن سلام، ويجعله من من فحول المدينة، لكنه يقول في موضع آخر: "وقيس بن الخطيم شاعر، فمن الناس من يفضله على حسان، ولا أقول ذلك"[2]، أي أنه يرى فيه منزلة أقل من منزلة حسان، رغم أنه في البداية عده من طبقته، وإن أخره في الترتيب. وجعله النابغة النابغة "أشعر الناس عندما قال له: أنت أشعر الناس يابن أخي"[3] ، وهذا يؤيد ما ذهب إليه الأصمعي وغيره حول مكانة قيس الشعرية.

6.1 **المرقشان**: "فحلان":[4]: وصنع الأصمعي من المرقشين فحلين، ولم أجد غيره من النقاد القدامى فعل ذلك، أو حتى من رفع من مكانتهما، "والمرقشان" هما المرقش الأكبر، وهو "ربيعة بن سعد بن مالك"، من قيس، والمرقش الأصغر هو "عمرو بن حرملة"، وقيل هو ربيعة بن سفيان بن مالك"، وأحد عشاق العرب المشهورين[5]. قال الأصفهاني بأن اسم المرقش الأكبر هو عوف، وقيل: عمرو بن مالك بن ضبيعة، وكان المرقش الأصغر وهو ابن أخ المرقش الأكبر واسمه ربيعة بن سفيان بن مالك، وقيل: عمرو بن حرملة بن مالك، كان لهما موقع في بكر وحروبها مع بني تغلب، والأصغر عم طرفة بن العبد، والمرقش الأصغر أشعر المرقشين وأطولهما عمراً[6]ولا تأكيد من الأصفهاني على علو مكانتهما الشعرية بين الشعراء.

7.1 **ابن قميئة**: "فحل":[7] و"ابن قميئة" شاعر فحل عند الأصمعي، وعده ابن سلام أول الطبقة الثامنة[8]، وهو من من "رهط طرفة بن العبد، وهو قديم جاهلي، كان مع حجر أبي امرئ القيس"[9].

8.1 **الشماخ**: "فحل":[10] و"الشماخ" كذلك شاعر فحل عند الأصمعي، وذكر ابن قتيبة بأن اسمه "معقل بن ضرار"، وهو أوصف الشعراء للقوس والحمر، وهو جاهلي إسلامي، قال الحطيئة: أبلغوا الشماخ أنه أشعر غطفان[11]، ويقول ابن سلام بعد أن جعله في الطبقة الثالثة بأنه "شديد متون الشعر، أشد أسر الكلام من لبيد، وكان للشماخ أخوة، وهو أفحلهم[12].

9.1 **مالك بن حريم الهمذاني**: "فحل":[13] وبعد الشماخ قال الأصمعي عن "مالك بن حريم الهمذاني"، بأنه من الفحول.

---

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:11-12.
(2) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:115، 120.
(3) (الأصفهاني، ج3، 1997، ص:9) .
(4) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:12.
(5) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:29-30.
(6) (الأصفهاني، ج6، ص:376، 381) .
(7) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:12.
(8) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:90.
(9) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:84.
(10) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:12.
(11) نفسه، ص:61 .
(12) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:76.
(13) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:12.

10.1 **أبو ذؤيب الهذلي**: "فحل":[1] وكما أقر الأصمعي بفحولة أبي ذؤيب الهذلي، يقر له ابن سلام بالفحولة أيضاً، أيضاً، فيقول: "وكان أبو ذؤيب شاعراً فحلاً لا غميزة فيه ولا وهن...سئل حسان: من أشعر الناس؟ قال: وأشعر هذيل غير مدافع أبو ذؤيب"[2]. وقال فيه ابن شرف القيرواني:"أمير الشعر حكيمه، شغله فيه التجريب حديثه وقديمه، وله المرثية النقية السبك، المتينة الحبك، فيها بنية السبعة"[3].

11.1 **ساعدة بن جؤية**: "فحل":[4]: وساعدة بن جؤية فحل، كما أشار الأصمعي في ميزانه.

12.1 **أبو خراش الهذلي**: "فحل":[5]: وهو شاعر فحل من الشعراء المذكورين الفصحاء، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام فأسلم، وهو من بين مجموعة من الشعراء، قال الأصمعي وأبو عبيد وأبو عمرو وابن الأعرابي عنهم: بأنهم شعراء دهاة سراعاً لا يُدْرَكون عدواً[6] وما ذكره الأصفهاني يؤيد ما ذهب إليه الأصمعي في فحولته بأنه فحل.

13.1 **خداش بن زهير العامري**: "فحل":[7] وخداش بن زهير العامري كسابقيه في الفحولة، وقال عنه ابن قتيبة، "وهو من قيس المجيدين في الجاهلية"[8]، ونقل ابن سلام عن أبي عمرو بن العلاء قوله عن خداش: "هو أشعر في قريحة الشعر الشعر من لبيد، وأبى الناس إلا تقدمة لبيد"[9].

2. **شعراء أطلق عليهم الأصمعي لقب "فحل" أو "من الفحول"، أو "أول الفحول" وغير ذلك، مع تعليق له أضافه بعد اللقب**، وهم:

1.2 **النابغة الذبياني**: "أول الفحول"، "وهو أشعر الناس"، "ولا يصلح زهير إلا أن يكون أجيراً عنده"، وقال: "النابغة وأوس وزهير لا يحسنون وصف الخيل"، "وهو أشعر الناس طرّاً، ولم يتقدم عليه أحد، ولا أدركت العلماء بالشعر يفضلون عليه أحداً"[10]. وجاءت هذه المجموعة من أحكام الأصمعي النقدية في ميزانه النقدي من كتابه "فحولة الشعراء"، وقد أظهر في أولها "النابغة الذبياني"، في المرتبة الأولى للشعراء، إن لم يكن أولهم، فهو أول الشعراء، وهو أشعر الناس طراً، ولم يتقدم عليه أحد، وعلماء الشعر لا يفضلون عليه أحداً، كل هذه الصفات والميزات جعلت النابغة الذبياني في عين الأصمعي، وضمن مقياسه النقدي أول الفحول، وأشعر الناس، مما رفع من قيمة النابغة الشعرية، وجعلت له مرتبة لم يصل إليها غيره.

ويروي ابن قتيبة أن "النابغة أحسن الناس ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتاً، كأن شعره كلاماً ليس فيه تكلف، ونبغ بالشعر بعد ما احتنك"[11]. وورد عند ابن سلام بلفظ مقارب[12]، وذكر صاحب العمدة بأن أبا بكر –رضي

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:14.
(2) نفسه، ص:76 .
(3) القيرواني، ابن شرف، **رسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء**، ص:28.
(4) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:14.
(5) نفسه .
(6) (الأصفهاني، ج21، 1997، ص:142) .
(7) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:15.
(8) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:151.
(9) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:81.
(10) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:9.
(11) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:20.
(12) انظر: الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:61.

الله عنه– قدم النابغة وقال عنه: "هو أحسنهم شعراً، وأعذبهم بحراً، وأبعدهم قعراً"[(1)]، كما روي عن أبي عمرو قوله: "أشعر الناس أربعة: امرؤ القيس، والنابغة، وطرفة، ومهلهل"[(2)]، ويورد المرزباني غير عيب في شعر النابغة، والتي منها الإقواء الذي قال قال بعد أن عرفه: "دخلت يثرب وفي شعري شيء، وخرجت وأنا أشعر الناس"[(3)] وقال ابن شرف القيرواني عن شعره: "فشعره وسائط سلوك، وتيجان ملوك"[(4)].

من خلال ما تقدم في هذه اللوحة النقدية الذبيانية التي بدأها الأصمعي بـ "أول الفحول"، وأنهاها ابن شرف بـ"تيجان الملوك"، ذكر النقاد فيها معايير نقدية غير معللة، جعلت من ذائقة الأصمعي النقدية الفحولية تتميز على غيرها من ذائقات النقاد، بل وجاء غيرها داعماً لها، إلى أن جاء وصف "طه حسين" له من المحدثين بأنه "قوي الشعر، عظيم الحظ بين الشدة والصلابة"[(5)]؛ ليؤكد على هذه المعيارية التي اختطها الآخرون.

2.2 **أعشى همدان**: "من الفحول": "وهو إسلامي كثير الشعر"[(6)]، والأصمعي هنا يؤكد على أن أعشى همدان من الفحول، وهو شاعر إسلامي، وكثير الشعر، ولعل هذه الإضافة من الأصمعي تعطي إضاءة على شخصية الشاعر بأنه ليس جاهلياً، وبأنه كثير الشعر، ولعل كثرة شعره ساهمت في أن يصبح من الشعراء الفحول، وهو عبد الرحمن بن عبد الله ابن همدان، شاعر فصيح كوفي من شعراء الدولة الأموية[(7)] (، وربما هذه الإضافة تثري حكم الأصمعي بفحولة أعشى همدان.

3.2 **المتلمس**: "رأس فحول ربيعة":[(8)] وقد جعله ابن سلام أحد أربعة رهط مُحْكِمين، في أشعارهم قلة[(9)]، ولعل فحولة المتلمس جعلها الأصمعي مقيدة في قبيلة ربيعة فقط، ومحصورة فيها، فهو رأس فحولهم.

4.2 **أعشى باهلة**: "فحل"، وله مرثية ليس في الدنيا مثلها[(10)]: وعده ابن سلام من طبقة أصحاب المراثي، رثى المنتشر بن وهب الباهلي[(11)]. ولعل الذي رفع مقام هذا الشاعر مرثيته في المنتشر، فقد عدها الأصمعي "ليس في الدنيا مثلها"، وجعلها سبباً إضافياً في رفع مكانته وجعله فحلاً.

5.2 **دريد بن الصمة**: "من فحول الفرسان"، ودريد في بعض شعره أشعر من الذبياني، وكاد يغلب الذبياني، وقال عنه مرة "دريد وخفاف أشعر الفرسان"[(12)]، وقال فيه ابن شرف القيرواني: هو "أول من تغزل في رثاء، وهزل في حزن وبكاء، فقال في معبد أخيه قصيدته المشهورة يرثيه: **أرث جديد الحبل من أم معبد**، "وهي من شاجيات النوائح، وباقيات

---

(1) القيرواني، الحسن بن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، 82.
(2) نفسه، ص:84 .
(3) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**. ص:52 .
(4) القيرواني، ابن شرف، **رسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء**، ص:26.
(5) حسين، طه، **من تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، ج1**، ص:203.
(6) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:14.
المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**. ص:226.
(7) الأصفهاني، ج6، 1997، ص:313).
(8) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:15.
(9) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:88.
(10) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:15.
(11) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:15، 18
(12) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:15،18.

المدائح"[1] (القيرواني، 1983، ص:27)، وإن شرف بهذه الشهادة الفنية لدريد بن الصمة يزيد من مقامه بين الشعراء، ويعطيه مكانة مرموقة في الرثاء، والمديح، مع التفنن فيهما، وهو فارس شجاع، شاعر فحل، أطول الفرسان الشعراء غزواً، وأبعدهم أثراً، وأكثرهم ظفراً[2]. أما الأصمعي فقوله فيه يجعل له قيمة تكاد تعلو على قيمة النابغة الذبياني، فهو يحاول أن يجعله يتفوق عليه في بعض شعره كما ذكر، رغم إنه ضيق هذه الفحولة، بأن حصرها في الفرسان، ولكن تأكيده عليه بأنه أشعر الفرسان، يعطي هذا المصطلح النقدي حيوية وفاعلية جديدة.

6.2 **طفيل الغنوي**: "فحل"، "محبر: يسمى في الجاهلية محبراً لحسن شعره، وطفيل عندي في بعض شعره أشعر من امرئ القيس، وقد أخذ طفيل من امرئ القيس شيئاً"، "وكان معاوية بن أبي سفيان يقول: دعوا لي طفيلاً فإن شعره أشبه بشعر الأولين من زهير، وهو فحل"[3]، ويضيف ابن قتيبة: "وكان من أوصف العرب للخيل، فقال عبد الملك: من أراد ركوب ركوب الخيل، فليرو شعر طفيل، وقال معاوية: دعوا لي طفيلاً، وسائر الشعراء لكم"[4]. لقد أضاف الأصمعي صفة أخرى لفحولة طفيل الغنوي، وأكدها عندما قال: "يسمى في الجاهلية محبراً لحسن شعره"، والأصمعي يبين سبب تأكيده لتحبير الغنوي لشعره؛ لأن شعره حسن، ثم يبين الأصمعي ميزة أخرى للغنوي بأنه في بعض شعره أشعر من امرئ القيس، ولكن إضافته الأخيرة، "وقد أخذ طفيل من امرئ القيس شيئاً"، جعلها منكرة دون توضيح، يجعل الناقد يتوقع احتمالات مختلفة، قد تكون فنية، وقد تكون في الموضوعات الشعرية، أو في غير ذلك، وما جاء على لسان معاوية حول طفيل الغنوي يزيد من مصداقية رأي الأصمعي حوله. وما أضافه ابن قتيبة عن جودة شعر طفيل في الخيل يتصل بنقد الأصمعي الذوقي، ولا يخرجه عن هذه الدائرة إلى دائرة المعلل والممنهج.

7.2 **بشر بن أبي خازم**: "قصيدته التي على الراء ألحقته بالفحول":[5] وجعل اسمه ابن قتيبة "بشر بن أبي حازم"، وروى وروى قولاً عن أبي عمرو بن العلاء: "فحلان من فحول الجاهلية كانا يقويان بشر بن أبي حازم، والنابغة الذبياني.." [6]. وهنا وهنا يرى الأصمعي أن قصيدة بشر الرائية هي التي ألحقته بالفحول، وكأنه أراد أن يقول أنه لولا هذه القصيدة لم يعد من الفحول، وما رواه ابن قتيبة عن أبي عمرو يؤكد مقياس الأصمعي في فحولة بشر أكثر من الأصمعي نفسه؛ لأن الأصمعي قيد فحولة بشر بقصيدة بشر التي على الراء، بينما رواية ابن قتيبة جعلت فحولته مفتوحة دون قيد. ومما يؤكد قوة شاعرية بشر، ما قاله عنه الفرزدق بأنه أشعر العرب[7]، وهذا القول يصب في فحولته التي ارتآها الأصمعي آنفاً.

ويظهر لنا من خلال عرض المجموعة الثانية بأن الأصمعي قد جعل مقياسه النقدي محصوراً في الفحولة، ومتبوعاً بتعليقات، أو إضافات، تفسر سبب الفحولة، أو تظهر شرطاً معيناً ألحق الشاعر بالفحولة، وكلها في نهاية الأمر هي مقياس ذوقية ذاتية لا تظهر تعليلاً، ولا تقعد قاعدة نقدية.

(1) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:107.
(2) (الأصفهاني، ج10، 1997، ص:243) .
(3) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:10.
(4) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:104.
(5) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:14.
(6) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:49.
(7) القيرواني، الحسن بن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ص:83.

3. **شعراء ليسوا بالفحول**: نفى الأصمعي عن هذه المجموعة صفة الفحولة عن أصحابها، واكتفى بقوله **"ليس بفحل"، دون أن يضيف أي كلمة أو تعليق**، أو ذكر السبب الذي جعله يطلق عليهم هذه الصفة، وينفي عنهم صفة الفحولة، وهؤلاء الشعراء هم:

1.3 **عمرو بن كلثوم**: "ليس بفحل":(1): وقال الكميت عنه: "عمرو بن كلثوم أشعر الناس"(2)، أما ابن شرف القيرواني فقال عن قصيدته بأنها من القصائد المحقّقات، وإحدى المعلقات، وجعلتها تغلب قبلتها التي تصلي إليها، ولم يتخلوا عنها إلا بعد قول القائل: (3)

ألهـــى بنـــي تغلـــب عـــن كـــل مكرمـــة قصـــيدة قالهـــا عمـــرو بـــن كلثـــوم

2.3 **أبو زبيد** "ليس بفحل"(4) : وقد جعله ابن سلام الجمحي رأس الطبقة الخامسة من الشعراء الإسلاميين، وروى قوله: كان أبو زبيد الطائي من زوّار الملوك"(5)، ويعجب المحقق كيف جعله ابن سلام في طبقات الإسلاميين، مع أنه جاهلي(6)، ونلحظ هنا أن الأصمعي أطلق عليه في ميزان الفحولة النقدي عنده أنه "ليس بفحل"، واكتفى بذلك دون تعليق تعليق أو إضافة.

3.3 **ابن مقبل** "ليس بفحل"(7): هو تميم بن أبي مقبل، من بني العجلان، جاهلي إسلامي، وله قصيدة هي من أجود ما قال، منها: (8)

كـــان الشـــباب لحاجـــات وكـــن لـــه فقـــد فزعـــت إلـــى حاجـــاتي الآخـــر

وما أضافه ابن قتيبة هنا لا يغير من رأي الأصمعي النقدي في ابن مقبل.

4.3 **كعب بن زهير بن أبي سلمى** "ليس بفحل"(9): لكن ابن قتيبة جعله فحلاً مجيداً عندما قال: "وكان كعب فحلاً فحلاً مجيداً""(10)، ويروي ابن سلام قول الحطيئة لكعب: "قد علمت روايتي شعر أهل البيت وانقطاعي، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك، وتضعني موضعاً، فإن الناس لأشعاركم أروى، وإليها أسرع، فقال كعب: (11)

فمـــن للقـــوافي شـــأنها مـــن يحوكهـــا إذا مـــا ثـــوى كعـــب وفـــوّز جـــرول

---

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:10.
(2) القيرواني، الحسن بن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ص:84.
(3) القيرواني، ابن شرف، **رسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء**، ص:25.
(4) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:12.
(5) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:218.
(6) نفسه، ص:41 .
(7) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:12.
(8) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:106.
(9) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:15.
(10) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:33.
(11) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:67.

ولعل روايتي ابن قتيبة وابن سلام تتعاضدان في أن كعب بن زهير فحلاً مجيداً، وإن خلع عنه الأصمعي هذه الصفة، وأكد أنه ليس فحلاً، ولكن رغم هذا التأكيد في مقياس الأصمعي، فإنه لا ينفي الفحولة والجودة عن كعب في منظار الآخرين النقدي.

4. شعراء ليسوا بفحول مع إضافة أو تعليق:

يحاول الأصمعي في المجموعة الرابعة من ميزانه النقدي، أن يسجل مجموعة من الشعراء، قال عن كل واحد منهم "ليس بفحل"، ثم أتبع هذا المقياس النقدي الذاتي إضافة أو تعليقاً، أضاءت شيئاً حول هذا المصطلح النقدي الذوقي، الذي أطلقه الأصمعي نحو كل شاعر من شعراء هذه المجموعة. وتمثلت هذه المجموعة في ستة عشر شاعراً، كما يلي:

1.4 **الأعشى (أعشى بني قيس بن ثعلبة)** "ليس بفحل"، ثم أضاف الأصمعي: "أهل الكوفة لا يقدمون على الأعشى أحداً، وكان خلف لا يقدم عليه أحداً، قال أبو حاتم: لأنه قد قال في كل عروض، وركب كل قافية"[(1)]، وروى ابن قتيبة عن أبي عبيدة قوله: "الأعشى هو رابع الشعراء المعدودين، وهو يقدم على طرفة، وكان أكثر عدد طوال جياد، وأوصف للخمر والحمر، وأمدح وأهجى"[(2)]، وهو "شاعر المدح والهجاء، واليأس والرخاء، والتصرف في الفنون... وأبكى هجوه علقمة"(علقمة بن علاثة)[(3)]. وروى الجمحي: "وقال أصحاب الأعشى هو أكثرهم عروضاً، وأذهبهم في فنون الشعر، وأكثرهم طويلة جيدة، وأكثرهم مدحاً وهجاءً وفخراً وصفة... وكان أول من سأل بشعره"[(4)]. وهو الذي "جعل الشعر متجراً يتجر به نحو البلدان، وقصد ملك العجم فأثابه وأجزل عطيته"[(5)]، وفيه قالت امرأة المحلق: "إن الأعشى قدم، وهو رجل مفوه، مجدود في الشعر، ما مدح مدح أحداً إلا رفعه، ولا هجا أحداً إلا وضعه"، فقال شعراً في المحلق وبناته كان سبباً في تزويج جميع بناته قبل أن يمسي ذلك اليوم[(6)].

وذكر المرزباني بأنه " لم يكن للأعشى بيت نادر على أفواه الناس مع كثرة شعره كأبيات أصحابه، ثم روى قول أحدهم: "أدركت الناس وهم يزعمون أن أكذب بيت قالته العرب في الجاهلية قول أعشى بني قيس بن ثعلبة: [(7)]

لـــو أســـندت ميتـــاً إلـــى نحرهـــا عـــاش ولـــم ينقـــل إلـــى قـــابر

ولعل الشهادات النقدية التي وردت آنفاً، تعطي الأعشى قدراً كبيراً عند أهل الأدب والنقد، وإن رأى الأصمعي بعدم فحولته، رغم قوله فيه "قال في كل عروض، وركب كل قافية"، وهو دلالة على توسعه في نظم الشعر، وتمكنه منه، وإن الفحول المجيدين من الشعراء القدماء والمحدثين يتوخون أن تكون القافية عذبة الحرف، سلسة المخرج وغير ذلك، وهو يدل على اقتدار الشاعر وسعة بحره[(8)]. ولكن ما أثبته الآخرون له يدل على رفعة مكانته الشعرية، فهو صاحب القصائد الطوال، والأكثر والأجود مدحاً وهجاءً ووصفاً للخمر والحمر، والتصرف في الفنون، وما وجد من روايات سردها المرزباني حاول فيها التقليل من شأنه، مثل

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:11-12.
(2) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:46.
(3) القيرواني، ابن شرف، **رسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء**، ص:26-27.
(4) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:63.
(5) القيرواني، الحسن بن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ص:70.
(6) نفسه، ص:41 .
(7) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**. ص:63، 66.
(8) ابن جعفر، قدامة، **نقد الشعر**، ص:51.

ذكره أكذب بيت قالته العرب للأعشى، فإني لا أجد فيه من الناحية الفنية –وجل ما ذكره المرزباني– ما يدلل على ضعف أو تدنٍّ في المكانة الشعرية للأعشى. وإني أرى أن معظم الروايات النقدية، هي في مصلحة الأعشى، وتعطيه قيمة بين الشعراء يكاد من خلالها أن يكون أولهم.

2.4 **عدي بن زيد** "ليس بفحل، ولا أنثى"(1): أجد الأصمعي في حكمه النقدي هذا قد طعن بفحولة الشاعر الشعرية، فهو ليس فحلاً، وطعن برجولته، عندما جعل الرجولة مشاكلة ومشابهة للفحولة، ومعادلاً موضوعياً لها، ذلك عندما أضاف "ولا أنثى"، فهو طعن في رجولته وشخصيته، وإن كنت أرى كذلك، أنه ربما أضافها من قبيل السخرية والاستهزاء. ويرى ابن قتيبة بأن "علماءنا لا يرون شعره حجة، وله أربع قصائد غرر"(2). وقال ابن سلام "وله أربع قصائد غرر روائع مبرزات، وله بعدهن شعر حسن"(3)، ونسب المرزباني قولاً لأبي عمرو بن العلاء ذكر فيه: "عدي بن زيد في الشعراء، مثل سهيل في الكواكب، الكواكب، يعارضها ولا يجري مجراها"(4)، ويبدو أن الآراء النقدية في "عدي بن زيد" متقاربة، من قبل معظم النقاد العرب القدامى، فلا أحد منهم يسم شعره بالجودة والفحولة، أو أنه أشعر الناس أو العرب، أو غير ذلك.

3.4 **عروة بن الورد** "هو شاعر كريم وليس بفحل"(5)، ولم يضف ابن قتيبة على شاعرية عروة شيئاً، وإنما ركز على سخائه عندما قال: "وكان يلقب عروة الصعاليك لسخائه"(6)، وقال صاحب الأغاني عنه بأنه "شاعر من شعراء الجاهلية، وفارس من فرسانها، وصعلوك من صعاليكها المعدودين المقدمين الأجواد"(7). وبذلك أجمع الأصمعي وابن قتيبة والأصفهاني، على كرم عروة وجوده، وليس على شعره وجودته.

4.4 **المهلهل** "ليس بفحل، ولو..." (8)

5.4 **الراعي** "ليس بفحل، أشبه شعراً بالقديم وبالأُوَل"(9)، وهو حصين بن معاوية من بني نمير، سمي الراعي؛ لأنه يكثر يكثر وصف الرعاء في شعره، هجاه جرير، فأتاه الراعي فاستكفه فكف عنه، ويستحسن قوله في الاعتذار(10)، وروي بأنه هو عبيد بن حصين، من وجوه قومه، وإن كان بذياً هجاء لعشيرته، وكان يعد هجاء جرير له مُغَلَّباً، قيل: كان فحل مضر حتى ضغمه الليث، يعني جريراً(11). وذكر المرزباني عن "عمارة بن عقيل: قال عمّ عبيد الراعي: أينا أشعر أنا أم أنت؟ قال: بل أنا يا عم. فغضب وقال: بمَ ذاك؟ قال: بأنك تقول البيت وابن أخيه، وأقول البيت وأخاه"(12). وقال ابن شرف القيرواني: "وأما الراعي

---

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:11.
(2) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:34.
(3) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:80.
(4) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**. ص:90.
(5) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:12.
(6) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:159.
(7) (الأصفهاني، ج3، 1997، ص:52) .
(8) (انظر المجموعة الخامسة).
(9) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:12.
(10) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:94.
(11) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:197.
(12) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**. ص:191.

عبيد، فجبل على وصف الإبل، فصار بالرعي يعرف، ونسي ماله من الشرف"[1]. ومن ذلك نلحظ أن كل تلك الملحوظات النقدية الذوقية تجمع على ما تحدث به الأصمعي، فهو ليس فحلاً، وقوله: شعره أشبه بالقديم، ربما جاءت من باب وصفه للإبل والرعي على نمط القدماء.

6.4 **ابن أحمر الباهلي**: "ليس بفحل، لكن دون هؤلاء وفوق طبقته"، ولعل الأصمعي قصد من قوله "ولكن دون هؤلاء" بابن مقبل والراعي، بحسب سياق الكلام في كتاب الفحولة[2]، وقال ابن قتيبة فيه: "وأتى ابن أحمر بأربعة ألفاظ لا تعرفها العرب"، وقال فيه أبو عمرو: "وكان ابن أحمر في أفصح بقعة في الأرض أهلاً بين يذبل والقعاقع، يعني مولده قبل أن ينزل الجزيرة"[3]. قيل: هو عمرو بن أحمر بن عامر الباهلي، شاعر مخضرم، قال البغدادي: كان يتقدم شعراء زمانه، وكان يكثر من الغريب في شعره[4]، وجعله ابن سلام في الطبقة الثالثة من الشعراء الإسلاميين، وقال عنه بأنه "صحيح الكلام، كثير الغريب[5]. ولعل في أقوال هؤلاء النقاد ما يجعلنا نأنس بحكم الأصمعي عليه، وربما ما ذكره البغدادي بأنه يتقدم شعراء زمانه، وما ذكره الجمحي بأنه صحيح الكلام يجعلنا نرفع من مكانة ابن أحمر الشعرية قليلاً.

7.4 **الأغلب**: "ليس بفحل، ولا مفلح، وقد أعياني شعره"[6]، وهو الأغلب بن جشم بن سعد من عجل، وهو جاهلي إسلامي قتل بنهاوند، وهو أول من أطال الرجز، وكان الرجل قبله يقول البيت والبيتين إذا فاخر أو شاتم[7]، ويرى ابن سلام بأنه "كان مقدماً أول من رجز"[8] من ذلك يظهر أن ميدان الأغلب على الأغلب هو الرجز، وقول الأصمعي وغيره: "ولا مفلح" أي أنه لم يصل في شعره إلى درجة الفلاح والجودة في الشعر، أما قوله: "وقد أعياني شعره"، ربما قصد من ذلك كثرة ما أضافه أولاده والرواة إلى شعره، مما أفسده كما ذكر المرزباني[9]، وإن حاول الجمحي أن يمتدح رجزه ويجعله مقدماً والأول فيه.

8.4 **كعب بن سعد الغنوي**: "ليس من الفحول، إلا في المرثية، فإنه ليس في الدنيا مثلها.. وكان يقال له كعب الأمثال"[10]، ولعل المرثية التي ذكرها الأصمعي في رثاء أخيه أبي المغوار، حيث قال فيها[11]:

وخبّرتمـــــاني إنمـــا المـــوت بـــالقُرى وكيـــف وهاتـــا روضـــة وكثيـــب

والأصمعي يحكم على كعب بأنه ليس من الفحول، ثم يستثني ذلك، بأن مرثية كعب جعلته من الفحول؛ لأنه ليس في الدنيا مثلها. ولعل هذا الاستثناء يجعلنا نجرؤ على وضعه ضمن قائمة الفحول.

---

(1) القيرواني، ابن شرف، **رسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء**، ص:28.
(2) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:12.
(3) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:77، 78.
(4) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**. ص:99-الهامش.
(5) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:212-213.
(6) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:12.
(7) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:144.
(8) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:239.
-انظر:المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**. ص:250.
(9) نفسه .
(10) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:14.
(11) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:110-111.

9.4 **عمر بن شاس الأسدي:** "ليس بفحل، هو دون هؤلاء". ربما قصد بشر بن أبي خازم والأسود بن يعفر[1]. ولم يذكر ابن قتيبة وابن سلام وغيرهما رأياً نقدياً حول شعر عمرو بن شاس؛ ولذا يبقى الرأي على ما جاء به الأصمعي حول هذا الشاعر، ولعل في إضافة الأصمعي إلى حكمه النقدي عليه بأنه ليس بفحل، قوله: "هو دون هؤلاء"، هو تقليل لمكانة عمرو الشعرية ومنزلته بين الشعراء.

10.4 **لبيد بن ربيعة:** "ليس بفحل"، وقال مرة: كان رجلاً صالحاً، كأنه ينفي عنه جودة الشعر، وقال أيضاً: شعر لبيد كأنه طيلسان طبري"، يعني: "إنه جيد الصنعة وليس له حلاوة"[2]. وقال عنه ابن قتيبة: هو من شعراء الجاهلية وفرسانهم، أسلم ولم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً:

الحمـــــد لله إذ لــــم يـــــأتني أجلــــي حتــى كســـاني مـــن الإســـلام ســـربالا

وقال له عمر بن الخطاب: أنشدني من شعرك، فقرأ سورة البقرة، وقال ما كنت لأقول شعراً بعد إذا علمني الله سورة البقرة، فزاد عمر في عطائه[3]. أما ابن سلام فقد قال عنه: وكان لبيد فارساً شاعراً شجاعاً، عذب المنطق، رقيق حواشي الكلام، وكان في الجاهلية خير شاعر لقومه، يمدحهم ويرثيهم، ويعد أيامهم ووقائعهم وفرسانهم[4]. وهو "أحد شعراء الجاهلية المعدودين فيها،والمخضرمين ممن أدرك الإسلام، وهو من أشرف الشعراء المجيدين الفرسان القراء المعمَّرين"[5]. بعد أن أطلق الأصمعي حكمه على لبيد بأنه ليس بفحل، أضاف توضيحات أخرى لهذا الحكم، فقال عنه: كان رجلاً صالحاً، وربما فسرها الراوي بقوله: كأنه ينفي عنه جودة الشعر، ومن المعلوم أن الأصمعي قد كررها أكثر من مرة، فنجده يقول عن أبي دؤاد: "قال صالح، لم يقل إنه فحل"[6]، وقوله عن أبي دلامة "وهو صالح الفصاحة"[7]، ولا أعرف كيف فسرها الراوي بأنه ينفي عنه جودة الشعر، مع العلم أن أن معنى كلمة "صالح" وتكرارها في ميزانه النقدي، كقوله صالح الفصاحة، وقول الأصمعي عن شعره بأنه طيلسان طبري، يعني أنه جيد الصنعة، وذِكْرُ الجمحي عنه بأنه خير شاعر لقومه، وانه عذب المنطق، ورقيق حواشي الكلام، وبأنه أشرف الشعراء المجيدين الفرسان، كل ذلك، يجعلنا نرجح جودة شعر لبيد عند النقاد القدامى، وإن لم يصل إلى الفحولة الأصمعية.

11.4 **سليك بن السلكة:** "ليس من الفحول، ولا من الفرسان، ولكنه من الذين كانوا يغزون فيعدون على أرجلهم فيختلسون"[8]. وهو أحد أغربة العرب وهجنائهم، وكان أدل الناس بالأرض، وأشدهم عدواً على رجليه، وهو صعلوك[9]، حكم حكم عليه الأصمعي بأنه ليس فحلاً ولا فارساً، ولكنه صعلوك يتحلى بخصالهم كسرعة العدو.

---

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:14.
(2) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:15.
(3) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:50-51.
(4) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:77.
(5) (الأصفهاني، ج15، 1997، ص:241). .
(6) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:12.
(7) نفسه، ص:16 .
(8) نفسه، ص:15 .
(9) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:80-81.

12.4 **ثم أضاف مجموعة من الشعراء يشبهون سليك بن السلكة**، حيث قال الأصمعي: ومثله **ابن براقة الهمذاني**، ومثله **حاجز الثمالي** من السرويين، **وتأبط شرّاً**، **والشنفري الأزدي**، السروي، و**الأعلم الهذلي**)، والمنتشر ليس منهم. ونجد الأصمعي هنا قد جعل هؤلاء –ما عدا المنتشر- بأنهم يشبهون الشاعر سليك بن السلكة، في تقويمه النقدي له. وقال الأصمعي: قال أبو عمرو بن العلاء: أفصح الشعراء ألسناً وأعربهم أهل السَّرَوات، وهن ثلاث، وهي الجبال المطلة على تهامة ما يلي اليمن، فأولها هذيل، وهي تلي الرمل من تهامة. ثم علية السراة الوسطى، وقد شركتهم ثقيف في ناحية منها، ثم سراة الأزد، أزد شنوءة، وهم بنو الحارث بن كعب بن الحارث بن نصر بن الأزد"[(1)].

5. **الميزان الشرطي: آراء نقدية تتصل بالفحول على سبيل الشرط:** والأصمعي في هذه المجموعة جعل أسلوب الشرط هو الحكم في ميزانه النقدي على هؤلاء، وهذه المجموعة تشكلت من مجموعتين:

1.5 الشرط لتحقق الفحولة (المعيار الشرطي الأول):

1.1.5 **المهلهل**: "ليس بفحل"، ولو قال مثل قوله: "**أليلتنا بذي جُشَم أنيري**"؛ لكان أفحلهم"[(2)]. هو عدي بن ربيعة، أخو كليب وائل، سمي مهلهلاً؛ لأنه هلهل الشعر، أي: أرقَّه، وهو خال امرئ القيس..[(3)]. وقال ابن سلام: "سمي مهلهلاً لهلهلة شعره كهلهلة الثوب، وهو اضطرابه واختلافه"[(4)] فبعد أن حكم الأصمعي على المهلهل بأنه ليس فحلاً، أضاف شرطاً للفحولة بأنه لو قال مثل قوله: أليلتنا.. لكان أفحلهم، أي لاستحق مقياس الفحولة، بل وأفحل من غيره، ولا أدري من يعني بالضمير المتصل بـ (أفحلهم)، فلعله قصد عروة بن الورد والحويدرة اللذين ذكرا قبل المهلهل، ولا أعتقد أنه قصد عامة الشعراء؛ لأن السياق والمنطق النقدي عند الأصمعي لا يؤيدان ذلك.

2.1.5 **ثعلبة بن صُعيْر المازني**: "لو قال مثل قصيدته خمساً كان فحلاً"[(5)]، نجد الأصمعي في ميزانه الشرطي هذا، يضع مقياساً لفحولة "ثعلبة" بأنه لو قال مثل قصيدته، ولا نعرف ما هي هذه القصيدة، وهل قصد بها قصيدة مالك بن حريم، الشاعر الفحل الذي ذكر قبله؟ أم غير ذلك؟ فلو قال خمس قصائد مثلها لكان ثعلبة فحلاً في ميزان الأصمعي النقدي، فالأمر هنا مشروط بتحقق القصائد الخمس، فيما لو قالها.

3.1.5 **الحويدرة**: "لو قال مثل قصيدته خمس قصائد كان فحلاً"[(6)]، هو الحويدرة الذبياني، واسمه "قطبة بن أوس بن جرول، وهو من شعراء الطبقة التاسعة من طبقات شعراء الجاهلية[(7)]. والأصمعي هنا حكم على الحويدرة بالطريقة ذاتها التي حكم بها على ثعلبة، وهي الطريقة الشرطية.

4.1.5 **معقر البارقي(حليف بني نمير)**: "لو أتم خمساً أو ستاً لكان فحلاً"[(8)]، الأصمعي هنا لم يوضح في مقياسه الشرطي ماذا قصد من قوله: لو أتم خمساً أو ستاً، فهل هي قصائد أم أبيات شعر، أم ماذا؟ وإن كانت قصائد فما نوعها؟ وما

---

(1) السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ج2،ص:483.
(2) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:12.
(3) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:58.
(4) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:55.
(5) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:12.
(6) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:12.
(7) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:95.
(8) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:14.

غرضها؟ وما مقياس الجودة فيها؟ ومع ذلك نجده يقرر أن الشاعر لو أكمل هذا العدد لكان فحلاً، ولانطبق عليه مقياس الفحولة.

5.1.5 **أوس بن غلفاء الهجيمي**: "لو قال عشرين قصيدة لحق بالفحول، ولكنه قُطِع به"[1]. لم يبن الأصمعي نوع القصائد التي لو قال مثلها أوس بن غلفاء عشرين قصيدة للحق بالفحول، وقوله: "ولكنه قُطِع به"، فيها إشارة إلى أنه لم يقلها، وبالتالي لم يلحق بالفحول التي هي ضمن ميزان الأصمعي.

6.1.5 **سلامة بن جندل**: "لو كان زاد شيئاً كان فحلاً"[2]، هو جاهلي قديم من فرسان تميم المعدودين، وأحد نعات الخيل، وأجود شعره قصيدته التي أولها[3]:

أودى الشـــــباب حميـــــداً ذو التعاجيـــــب — أودى وذلــك شـأوٌ غيــر مطلــوب

ومنهــــا: **تقـــول ابنتـــي إن انطلاقـــك واحـــداً — إلـى الــروع يومـاً تـاركي لا أباليـا**

وجعله الجمحي الأول في الطبقة السابعة من الشعراء الجاهليين، وقال عنهم: "أربعة رهط محكِمون، في أشعارهم قلة"[4]. إن شرط الأصمعي بأن "سلامة بن جندل" لو زاد شيئاً في شعره لكان فحلاً، يجد له تأييداً عند ابن سلام، من حيث قلة شعره، وهو مع ذلك، فالدلائل تشير إلى جودة شعره، خاصة ما كان في نعت الخيل.

2.5 لو كانوا في الجاهلية (المعيار الشرطي الثاني):

1.2.5 **جرير**: قال الأصمعي عنه وعن زميليه (الفرزدق والأخطل): "ولو كانوا في الجاهلية كان لهم شأن، ولا أقول فيهم شيئاً؛ لأنهم إسلاميون"[5]. وذكر ابن قتيبة بأنه هو "جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي"، من بني كليب بن يربوع، ويكنى بأبي حزرة، عاش نيفاً على ثمانين سنة، له عشرة من الولد، من فحول شعراء الإسلام، يشبه من شعراء الجاهلية بالأعشى، من أشد الناس هجاء، أعطاه عبد الملك مئة من الإبل مع الرعاء، عن قصيدته:[6]

ألســـتم خيـــر مـــن ركـــب المطايـــا — وأنـــدى العـــالمين بطـــون راح

وروى ابن سلام عن بشار العقيلي قوله: "كان جرير يحسن ضروباً من الشعر لا يحسنها الفرزدق، وفضل جريراً عليه"، وروي قول للفرزدق: "إني وإياه لنغترف من بحر واحد، وتضطرب دلاؤه عند طول النهر". وقال الأسيدي: "بيوت الشعر أربعة: فخر ومديح ونسيب وهجاء، وفي كلها غلب جرير"، وقيل: "جرير يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر، فقال الأخطل:

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:15.
(2) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:15.
(3) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:50.
(4) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:88.
(5) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:13-14.
(6) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:108-111.

فجرير أشعرهما"(1)، وقال مروان بن أبي حفصة: "من نظر في نقائض جرير والفرزدق، علم أن جريراً لم يقم على الفرزدق"(2)، وفي محاورة بين نوح بن جرير ووالده، كشفت عن اعتراف جرير بفضل الفرزدق والأخطل، وعندما سأله ابنه عن نفسه قال: "أنا مدينة العلم"(3)، ويذكر ابن رشيق في عمدته بيت جرير من قصيدة له منها:

فغــض الطــرف إنــك مــن نميــر فــلا كعبــاً بلغــت ولا كلابــا

وأثر هذا البيت على قبيلة نمير، وكيف أخزاهم الله به إلى آخر الدهر، ولم يرفعوا بعده رؤوسهم، وقد سميت هذه القصيدة "الفاضحة"، وسماها جرير "الدمّاغة"، حتى أن بني نمير انتسبت بالبصرة إلى عامر بن صعصعة، وتخلت عن نمير(4). وضمن هذا المقياس الشرطي في ميزان الأصمعي النقدي، أجد تفضيل القديم على الحديث، وبأن كل من ليس بجاهلي لا قيمة لشعره ولو أجاد، وأما الآخرون فأجد ابن قتيبة يعده من فحول شعراء الإسلام، وغيره يثني عليه ويرفع من مرتبته، وإن كان ابن قتيبة أكثرهم جرأة –وربما وصدقاً– في حكمه النقدي.

2.2.5 **الفرزدق**: كان الأصمعي يفضل جريراً على الفرزدق(5). ويقول: تسعة أعشار شعر الفرزدق سرقة، أما جرير فله ثلاثون قصيدة، ما علمته سرق شيئاً قط إلا نصف بيت(6)، وهو همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال، جده صعصعة عظيم القدر في الجاهلية(7)، جعله ابن سلام مع صاحبيه جرير والأخطل في طبقة واحدة، هي الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين، وروي فيه أقوال منها: "نبعة الشعر الفرزدق"، "الفرزدق أشعر عامة، وجرير أشعر خاصة"، "وكان الفرزدق أكثرهم بيتاً مُقَلَّداً، والمقلد البيت المستغني بنفسه المشهور الذي يضرب به المثل"(8). وروى المرزباني عن أحمد بن عمار قوله: كان الفرزدق وهو وهو فحل شعراء الإسلام يأتي بالإحالة، وينظم في شعره أهجن كلام، وقالت النوار زوجة الفرزدق: هو والله أشعر منك، غلبك على حلوه، وَشَرِكَك في مره، وذكر المرزباني أيضاً عن اتهام الأصمعي للفرزدق بالسرقة: "وهذا تحامل شديد من الأصمعي، وتقوّل على الفرزدق بهجائه باهلة، أما أن نطلق أن تسعة أعشار شعره سرقة، فهذا محال"(9). وقيل: الفرزدق أشعر من جرير؛ لأنه أقواهما أسْر كلام، وأجراهما في أساليب الشعر، وأقدرهما على تطويل وأحسنهما قطعاً"(10). من ذلك، أجد أن الأصمعي حكم بالتفوق لجرير على الفرزدق، متهماً الفرزدق بالسرقة، ومحاولة تبرئة جرير منها، وأما النقاد الآخرون فحاولوا أن يوازنوا بين الاثنين، وإن رفع الجمحي من مكانة الفرزدق أحياناً، وكذلك فعل المرزباني مضيفاً تبرئة الفرزدق من اتهام الأصمعي له بالسرقة، وكذلك فعل صاحب العمدة، كما فعل الآخرون من جعل الفرزدق يتفوق على جرير في بعض المواقف.

(1) انظر: الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:158-184.
(2) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص:153.
(3) نفسه، ص:162 .
(4) القيرواني، الحسن بن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ج1، ص:43.
(5) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:13.
(6) نفسه، ص:19 .
(7) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:111.
(8) انظر: الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:147-156.
(9) انظر: المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص:133-136.
(10) القيرواني، الحسن بن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ج1، ص:156.

3.2.5 **الأخطل**: "لو أدرك الأخطل من الجاهلية يوماً واحداً ما قدمت عليه جاهلياً ولا إسلامياً"[1]، هو أبو مالك غياث بن غوث من بني تغلب، والأخطل فإنه يجيء أبداً سابقاً، وأما الفرزدق فإنه يجيء مرة سابقاً ومرة ثانياً، وأما جرير فإنه يجيء مرة سابقاً، ومرة ثانياً، ومرة سكيتاً، (أي عاشراً آخر الخيل في السباق)، وكان الأخطل يشبه من شعراء الجاهلية بالنابغة الذبياني[2]، وجعله الجمحي الثالث في شعراء الطبقة الأولى من الإسلاميين، والأخطل يجيد نعت الملوك، ويصيب صفة الخمر، وله وله من المقلدات كقوله: [3]

وإذا افتقـرت إلـى الـذخائر لـم تجـد ذخـراً يكـون كصـالح الأعمـال

وروى المرزباني قول بشار بن برد: "والله ما كان الأخطل مثل جرير والفرزدق"، وروى عن جرير قوله: "إنه والله ما يهجوني الأخطل وحده، وإنه ليهجوني معه خمسون شاعراً كلهم غزير ليس بدون الأخطل، وذلك أنه إذا أراد هجائي جمعهم على شراب، فيقول هذا بيتاً وهذا بيتاً، حتى يتموا القصيدة، وينتحلها الأخطل"[4]، وقال ابن رشيق القيرواني عنه: "ومن الفحول المتأخرين الأخطل"[5]. وروى ابن شرف القيرواني عنه بأنه: "سعد من سعود بني مروان، صفت لهم مرآة فكره، وظفروا بالبديع من شعره، وكان باقعة(أي: داهية) من حاجاه، وصاعقة من هاجاه"[6]. وبعد هذا العرض أجد أن الأصمعي قد حكم عليه وفق مقولة القدم والحداثة، وتفضيل القديم على الحديث؛ لأنه كان لا يعترف بأي أفضلية للشعراء المحدثين، ولو أجادوا، ولذا اشترط أنه لو أدرك من الجاهلية يوماً واحداً ما قدم عليه أحداً، وهو هنا يعترف ضمناً بأفضليته وتقدمه وجودة شعره، ولكن معيار الأقدمية هو الفيصل عنده، أما النقاد الآخرون، فأجد ابن قتيبة يفضله على الفرزدق وجرير، وهو عند الجمحي يجيد نعت الملوك والخمر، والمرزباني لا يقدمه عليهما، وابن رشيق يجعله من الفحول المتأخرين، وابن شرف القيرواني يمدحه مدحاً عاماً، وبذلك يتفاوت النقاد في درجة تفضيل الأخطل، ولا يعطوه حكماً نقدياً يجمعون عليه، وربما هذا التفاوت وجد عند سابقيه الفرزدق والأخطل، وإن كان الأصمعي –كما رأينا- يصدر حكماً عاماً عليهم بأنه لا يقول فيهم شيئاً؛ لأنه إسلاميون، وحكماً خاصاً على كل منهم مفضلاً جريراً على الفرزدق، ومثنياً على الأخطل دون أن يظهر تقدمه على أحد، ولعل هذا الحكم النقدي الخاص بالقدم والحداثة، والذي أقره الأصمعي في ميزانه النقدي في كتابه فحولة الشعراء لا أجد أحداً من النقاد الذين تعرضت لهم من يأخذ به أو يعلن عنه. مع العلم، بأن شعراء القرن الأول الهجري المشهورين (الفرزدق وجريراً والأخطل)، واصلوا اتباع التقاليد الفنية التي كان شعراء الجاهلية يتبعونها، واستخدموا أساليبهم الفنية المعتادة، وتناولوا الموضوعات التي كانوا يتناولونها في أشعارهم وبصياغة أفضل[7].

6. **قد يكون من الفحول**: كشف الأصمعي في ميزان فحولته النقدي عن مجموعة لم يقطع بأنها من الفحول، أو ليسوا من الفحول، بل تركتهم في دائرة الشك والظن، دون أن يضع لهم مقياساً نقدياً يأخذ بهم نحو ناحية نقدية واضحة، وهم:

---

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:13.
(2) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:114-115.
(3) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:147، 192، 194.
(4) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص:171، 174.
(5) القيرواني، الحسن بن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ج1، ص:37.
(6) القيرواني، ابن شرف، **رسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء**، ص:28.
(7) القط، عبد القادر، **مفهوم الشعر عند العرب**، ص:65.

1.6 **كعب بن جعيل**: "أظنه من الفحول ولا أستيقنه"(1)، وهو رأس الطبقة الثالثة من الشعراء الإسلاميين عند الجمحي، وهو "شاعر مفلق قديم في أول الإسلام"(2). لقد جعله الأصمعي في زاوية الظن وعدم التيقن، من أن يدخله في الفحولة ويكون فحلاً، ولعل قول ابن سلام فيه يرفع من قيمته وشاعريته، ويرجح دخوله دائرة الفحولة التي أبقاها الأصمعي في دائرة الظن والشك.

2.6 **الأسود بن يُعْفَر النهشلي**: "يشبه الفحول"(3). جعله الجمحي في المرتبة الثانية من الطبقة الجاهلية،وقال عنه: "كان الأسود شاعراً فحلاً... وله واحدة طويلة رائعة لاحقة بأول الشعر، لو كان شفعها بمثلها قدمناه على أهل مرتبته، وهي:

نـــام الخلـــيّ فمـــا أحـــس رقـــادي والهـــمّ محتضـــر لـــديّ وســـادي

وله شعر كثير جيد كهذه"(4). ويجيء كلام الجمحي داعماً لمقياس الفحولة الذي وضعه الأصمعي، وإن لم يكن متأكداً من فحولة فحولة شاعرنا الأسود بن يعفر. ولكن الجمحي يصرح بفحولته، ويزيد بأن له شعراً كثيراً كقصيدته التي ذكرت، وأضاف وصفاً بجودة هذا الشعر، ولربما لو سمع الأصمعي رأي ابن سلام فيه لما تردد في أن يصرح بفحولة الأسود بن يعفر، وما ذكره ابن الأشرف القيرواني يدعم هذا الرأي ويرجحه، وذلك أنه قال عنه بأنه: "أَشعر الناس إذا ندب دولة زالت، أو بكى حالة حالت، أو وصف ربعاً خلا بعد عمران، أو داراً درست بعد سكان"(5).

3.6 **جرادة بن عُمَيْلة العَنَزي**: "له أشعار تشبه أشعار الفحول، وهي قصار"(6)، يبدو أن الأصمعي كذلك لم يحسم أمر هذا الشاعر بالتصريح له بالدخول إلى صف الشعراء الفحول، فمقياسه يقول بأن أشعاره تشبه أشعار الفحول، ثم يضيف بأن هذه الأشعار هي من القصار.

وإذا ما تصفحنا كتاب "فحولة الشعراء" للأصمعي، فإننا نعثر على مقاييس نقدية أخرى أثبتها الأصمعي في ميزانه النقدي، الذي حاول أن يزن الشعراء به، وهي مقاييس لا علاقة لها بالفحول، بل هي أحكام نقدية أخرى. وقد قسمتها إلى مجموعات ينضوي كل منها تحت مقياس نقدي واحد أو متشابه، ومنها:

ثانياً: مقاييس لا علاقة لها بالفحولة:

1. **الشعر والفروسية**: الأصمعي في ميزانه النقدي لهذه المجموعة حصره في الفرسان، حيث قال: "فرسان قيس وشعراؤهم الفرسان"(7)، وهذا هو مقياسه لهذه المجموعة:

1.1 **خفاف بن ندبة**: "أشعر الفرسان"، ولم يقل إنه من الفحول(8)، وهو خفاف بن عمير بن الشريد، ابن عم الخنساء، وأحد أغربة العرب(1)، وما ذكره ابن قتيبة لا أثر له في حكم الأصمعي على الشعر خفاف، ومقياس الأصمعي النقدي

---

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:12.
(2) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:212.
(3) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:14.
(4) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:81، 83.
(5) القيرواني، ابن شرف، **رسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء**، ص:27.
(6) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:15.
(7) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:18.
(8) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:14، 18.

هنا يظهر أن خفافاً من الفرسان، وبأنه أشعرهم؛ ولذا فالمقارنة هنا حصرها الأصمعي في الفروسية والشعر، أما قول "ولم يقل إنه من الفحول"، لعلها من إضافات الرواة، وخاصة الراوي أبو حاتم السجستاني، أو ابن دريد.

2.1 **عنترة**: "أشعر الفرسان"، ولم يقل إنه من الفحول[2]، هو عنترة بن شداد العبسي، أحد أغربة القوم، وأشد أهل زمانه وأجودهم، وأجود شعره قوله: **(هل غادر الشعراء من متردم)**، وكانت العرب تسميها الذهبية[3]، وهو ثالث الطبقة السادسة من شعراء الجاهلية عند ابن سلام، وله قصيدته:

يـــا دار عبلـــة بـــالجواء تكلمـــي وعمـــي صـــباحاً دار عبلـــة واســـلمي

وله شعر كثير، إلا أن هذه نادرة فألحقوها مع أصحاب الواحدة[4]. وقال ابن شرف القيرواني عنه بأنه: "مجيد في أشعاره، ولا كمعلقته فقد انفرد بها انفراد سهيل، وغبر في وجوه الخيل، وجمع بين الحلاوة والجزالة، ورقة الغزل وغلظة البسالة"[5]. شهر عنترة بالفروسية، وبذهبيته(يا دار عبلة)، ومدحها ابن قتيبة وابن سلام، وابن شرف، وأضاف ابن شرف في ثنائه، بأنه مجيد في أشعاره، ولعل كل ذلك يصدق فيه قول الأصمعي بأنه أشعر الفرسان، كحكم نقدي، جعله الأصمعي ضمن ميزانه ومقاييسه النقدية التي حكم بها على عنترة ومن هم في مثله.

3.1 **الزبرقان بن بدر**: "أشعر الفرسان"، "الزبرقان فارس شاعر غير مطيل"، ولم يقل إنه من الفحول[6]، وهو حصين بن بدر بن امرئ القيس، سمي بالزبرقان لجماله، والزبرقان هو البدر، سئل ربيعة بن حُذار الأسدي عن شعره فقال للزبرقان: "أما أنت فشعرك كلحم أسخن، لا هو أُنضج فأُكل، ولا ترك نيئاً فَيُنْتفع به"[7]، وزاد ابن رشيق بأنه من المغلبين، غلبه عمرو بن الأهتم والمخبل السعدي والحطيئة، فأجاب الاثنين، ولم يجب الحطيئة؛ لأنه لم يره مكانا للجواب[8]، وما ذكره المرزباني والقيرواني عن شعر الزبرقان لا يرفع من مكانته الشعرية، ويبقى حكم الأصمعي النقدي عليه أفضل من غيره، فهو فارس وشاعر، بل وأشعر الفرسان، وإن كان غير مطيل في قصائده.

4.1 **عباس بن مرداس السلمي**: "أشعر الفرسان"، ولم يقل إنه من الفحول[9]، وذكر في حاشية الموشح بأنه شاعر فارس من سادات قومه، أمه الخنساء الشاعرة، توفي نحو 18هـ[10]. لم يكد يزد المرزباني شيئاً على ما ذكره الأصمعي يغير من حكمه النقدي على الشاعر.

5.1 **دريد بن الصِّمَّة**: "أشعر الفرسان"[11].

---

(1) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:72.
(2) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:14، 18.
(3) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:42.
(4) القيرواني، ابن شرف، **رسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء**، ص:24.
(5) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:85، 86.
(6) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:14، 18.
(7) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص:93.
(8) القيرواني، الحسن بن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ص:93.
(9) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:18.
(10) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص:101.
(11) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:18.

6.1 **عميرة بن طارق اليربوعي**: "هو من رؤوس الفرسان، هو الذي أسر قابوس بن المنذر"[1]، والأصمعي في حكمه هنا تطرق إلى فروسيته دون أن ينظر إلى شعره وشاعريته، ولذا بقي الحكم في هذه الدائرة فقط.

7.1 **زيد الخيل الطائي**: "من الفرسان"[2]، هو زيد الخيل بن مهلهل من طيء، أدرك الإسلام وسماه النبيﷺ زيد الخير[3]، وأجد كلا الناقدين لم يتحدث عن شاعرية زيد الخيل بشيء، ولم يحكم عليه بحكم نقدي، أو أي تصنيف نقدي غير قول الأصمعي"من الفرسان" وكفى.

8.1 **مالك بن نويرة**: "شاعر فارس مطيل"[4] هي ثلاث صفات ذكرها الأصمعي لمالك بن نويرة، فهو شاعر، وفارس، ومطيل، وكلها صفات إيجابية تعد لصالح مالك، ضمن معيار الأصمعي النقدي، الذي حصره بالفروسية والشعر.

2. **الجودة**: إن "الحكم بالجودة والرداءة هو صياغة المعنى أو صورته"[5]، "فجودة الشعر "لا تتحدد بما يقال، بل بالكيفية التي يقال فيها، وإذن فالشاعر لا يحاسب على اعتقاده، وإنما يحاسب الشاعر على الصورة التي أبرز بها هذا الاعتقاد"، وإن "معيار الحكم على الشاعر بالجودة يتحدد بالكيفية التي عبر بها الشاعر عن وجده، لا يصدقه في نقل ذلك الوجد"[6]. وأضيف هنا قول ابن قدامة، إذا "اجتمعت في الشعر الأوصاف المحمودة كلها، وخلا من الخلال المذمومة بأسرها، يسمى شعراً في غاية الجودة، وما يوجد بضد هذا الحال يسمى شعراً في غاية الرداءة، وما يجتمع فيه من الحالين أسباب يُنزل له اسم بحسب قربه من الجيد، أو من الرديء، أو فوقه في الوسط الذي يقال له لما كان فيه: صالح، أو متوسط، أو لا جيد ولا رديء[7]. ونذكر هنا ابن سلام الذي نظر "للكم كمقياس صنف شعراءه وفقه، بتأثير من الجو العام الذي كان يفضل الشاعر المكثر على المقل، وهو متأثر في هذه الناحية بالأصمعي، الذي استثنى كثيراً من الشعراء من طبقة الفحول؛ لأن الفحولة تعني عنده الكثرة مع الجودة"[8]. وأجد هنا أن الأصمعي يلجأ إلى معيار جديد في ميزانه النقدي، فيجعل الجودة "هي معياره الذي يقيس عليه الشعراء، وإن كنت أجده قد حصره في شاعر واحد هو:

1.2 **امرؤ القيس**: "أولهم كلهم في الجودة، له الحظوة والسبق، كلهم أخذوا من قوله، واتبعوا مذهبه، وما أرى في الدنيا لأحد مثل قول امرئ القيس: [9]

وقـــاهم جـــدّهم ببنـــي أبـــيهم ... وبالأشقين ما كان العِقـــاب

انظر 5.2.1 في هذا البحث

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:15.
(2) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:15.
(3) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:55.
(4) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:19.
(5) عصفور، جابر، (1978)، **مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي**، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ص:126.
(6) نفسه، ص:127 .
(7) ابن جعفر، قدامة، (1978)، **نقد الشعر**، ص:19.
(8) المحالي، جهاد شاهر، **مفهوم الطبقات في النقد العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، ص:101.
(9) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:9.

وقوله: "إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه"[1]، وقوله: "وهو أول من بكى الديار وسيّر الظعن، وقوله: فإنما تعلموا تعلموا من رأس الشعراء امرئ القيس"[2] هو رأس الطبقة الأولى في الشعر الجاهلي، وعلماء البصرة كانوا يقدمونه، وجعله لبيد أشعر أشعر الناس، وقد سبق العرب في استيقاف صحبه، والبكاء في الديار، ورقة النسيب، وقيّد الأوابد، وأحسن طبقته تشبيهاً[3]. وهو وهو رأس شعراء كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة، قال عندما علم بمقتل أبيه: "ضيعني صغيراً، وحملني دمه كبيراً... اليوم خمر وغداً أمر[4]، وللمرزباني في موشحه كلام طويل عن امرئ القيس[5]. وهو من أصحاب المعلقات، ومن أشعر العرب، وأشعر شعراء الجاهلية[6]، وهو الصليل مؤسس الأساس، وحامل لواء شعراء الجاهلية[7].

من خلال هذه الأحكام النقدية الذوقية أجد امرأ القيس أكثر شاعر تحدث عنه الأصمعي في كتابه فحولة الشعراء، وأكثر شاعر نال عنده من الصفات النقدية والشعرية، كما أنه أكثر شاعر تحدث عنه النقاد وأطلقوا عليه الأحكام النقدية، وتحدثوا عن شعره وشاعريته ومكانته الشعرية، ومع كل ذلك لم نجد الأصمعي يخلع عليه ثوب الفحولة في ميزانه النقدي في كتابه"فحولة الشعراء"، فهل قوله: "أولهم كلهم في الجودة"، و"له الحظوة والسبق"؟ وغير ذلك هو عنده أعلى من درجة الفحولة؟ فأنا لا أرى ذلك، فلو أرادها لصرح بها، خاصة وأنه كان يتكلم عنه في معرض حديثه عن النابغة الذبياني، الذي عده أول الفحول، وعن طفيل وهو فحل، ولكن ما نسب السيوطي للأصمعي قوله: "كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس، فهو عن حماد الراوية، إلا شيئاً سمعناه من أبي عمرو بن العلاء"[8]، حيث حاول الأصمعي في قوله هذا أن يدني من مكانة شعر امرئ القيس، وذلك لما عرف عن حماد الراوية بنحله للشعر، ولعل قول الأصمعي: "ويقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه"[9]، يظهر أن رواة الأعراب كانت لهم الخبرة والدراية في كشف السرقات، ولقد ساهموا إلى حد كبير في تعديل نسبة كثير من الشعر، سواء أكان منها منسوباً لشعراء مشهورين، أم مغمورين، ولولا هؤلاء الأعراب لما درى الأصمعي أن شعر امرئ القيس ليس كله خالصاً له، بل لصعاليك كانوا معه[10].

3. **الحسن والتحبير**: التحبير هو التحسين، يقال: حبّر خطه أو شعره، أي حسنه وجوده، وقد لوحظ هذا التحسين في الشعر عند بعض شعراء الجاهلية[11]، والتحبير في الشعر يعني قدرته على إبهاج حسّ السمع بما ينطوي عليه من جَرْس وتساوق وتناغم، وإن كان يخلو من كبير معنى[12]، وهذا المقياس النقدي هو مقياس مركب من الحسن والتحبير في ميزان الأصمعي النقدي، والأصمعي لم يجعله إلا لشاعر واحد في كتابه "فحولة الشعراء"، وهو:

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:10.
(2) نفسه، ص:18 .
(3) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:59-61.
(4) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:16.
(5) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص:153.
(6) انظر: القيرواني، الحسن بن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ج1، ص:37-51.
(7) القيرواني، ابن شرف، (1983)، **رسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء**، ط1، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ص:23.
(8) السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ص:406.
(9) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:10.
(10) المحالي، جهاد شاهر، **مفهوم الطبقات في النقد العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، ص:138.
(11) العاكوب، عيسى علي، **التفكير النقدي عند العرب**، ص:34.
(12) نفسه، ص:34-35 .

1.3 **طفيل الغنوي**: يسمى في الجاهلية محبراً لحسن شعره، في بعض شعره أشعر من امرئ القيس، طفيل يحسن صفة الخيل، غاية في النعت، وهو جيد الصفة للخيل جداً[1] (انظر: 6.2) في هذا البحث. وأضيف أن الأصمعي جعل لهذا الشاعر مقياساً مركباً من حسن الشعر وتحبيره مع الفحولة الشعرية التي خلعها عليه سابقاً، وجعلها وساماً له.

4. **ثَبْتٌ وفصيح** (أو إحداهما):

1.4 **ابن هرمة**: "ثَبْتٌ فصيح"[2]، "وكان ابن هرمة ساقة الشعراء"[3]، وورد في هامش الموشح بأنه: إبراهيم بن علي ابن ابن هرمة القرشي، شاعر غزل من سكان المدينة، مخضرم الدولتين الأموية والعباسية، وهو آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم، قال الأصمعي: ختم الشعر بابن هرمة، توفي سنة 176هـ[4]، ويصدر الأصمعي في ميزانه النقدي في كتابه "فحولة الشعراء" مقياساً نقدياً ذوقياً جديداً، وهو "ثبت فصيح" والثبت في اللغة هو الحجة[5]. وقد جمع الأصمعي في مقياسه النقدي هذا بين (الثبت والفصاحة)، وجعل ابن هرمة أول من اتصف بهما، ولا نجد من النقاد من يقدم ابن هرمة، أو يجعل له مقياساً نقدياً غير الأصمعي.

2.4 **طفيل الكناني**: "مثل ابن هرمة"[6]، وقد اكتفى الأصمعي بقوله: مثل ابن هرمة، أي يأخذ المقياس النقدي نفسه.

3.4 **ابن أذينة**: "ثبت في طبقة ابن هرمة، وهو دونه في الشعر"[7]، وهو عروة بن أذينة من بني ليث، وكان شريفاً ثبتاً يحمل عنه الحديث[8]، وقد اكتفى الأصمعي بذكر حكمه (ثبت)، وأضاف عليها، في طبقة ابن هرمة، وهو دونه في الشعر، ودون ودون أن يصفه بأنه فصيح، وإن جعله في طبقة ابن هرمة، وإن كنا نجد عند ابن قتيبة بأنه شريف ثبت يحمل عنه الحديث، وليس الشعر.

4.4 **عبد بني الحسحاس**: "هو فصيح، وهو زنجي أسود"[9]، "هو سحيم، وكان عبداً حبشياً"[10]. وهو في الطبقة التاسعة من الشعراء الجاهليين، و"هو حلو الشعر، رقيق حواشي الكلام"[11]. وأجد هنا أن مقياس الأصمعي قد ركز على صفة واحدة، وهي أنه فصيح، وأضاف أخرى لا علاقة لها بالشعر، فقال: بأنه زنجي أسود، وهي خاصة باللون، فلماذا جمع الأصمعي بين الفصاحة واللون الأسود؟ وربما تكرر ذكر اللون الأسود أو الإشارة إليه بالزنجي، أو الحبشي، أو غيرهما، وكأنهما من العيوب التي يعاب عليها الشاعر عند الأصمعي، وكذلك فعل ابن قتيبة، ولعل الجمحي حاول أن يرفع من مكانته الشعرية دون أن يتطرق إلى الصفة اللونية.

---

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:10.
(2) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:16.
(3) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:175.
(4) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص:261.
(5) (إبراهيم(وزملاؤه)، (د.ت)، مادة: ثبت). .
(6) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:17.
(7) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:16.
(8) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:138.
(9) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:16 .
(10) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:92.
(11) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:99.

5.4 **أبو دلامة**: "عبد، رأيته، مولد حبشي، وهو صالح الفصاحة"(1)، وذكر ابن قتيبة بأن السفاح كان يستحسن شعره(2)، وهو كوفي أسود، مولى لبني أسد، نبغ في أيام بني العباس، ولم يصل إلى أحد من الشعراء ما وصل إلى أبي دلامة من المنصور خاصة، فقد أعطاه على قصيدة عشرة آلاف درهم(3)، وأجد هنا أن الأصمعي قد قدم على حكمه النقدي حديثه عن أبي دلامة بأنه عبد، وأنه قد رآه بنفسه، وأنه مولد حبشي، أي أنه عبد، ومولد، وحبشي، ثم بعد ذلك نطق بحكمه النقدي الذوقي العام بأنه صالح الفصاحة، دون أن يفسر ذلك.

6.4 **أبو عطاء السندي**: "عبد أخرب مشقوق الأذن، لم يكن في الأعراب، لكنه فصيح"(4)، واسمه مرزوق، "وكان جيد الشعر، وكانت به لكنة"(5). الأخرب في اللغة هو مشقوق الأذن(6). لقد قدم الأصمعي لحكمه النقدي بحديثه عن صفاته الجسمية، بأنه عبد أخرب، مشوق الأذن، لم يكن في الأعراب، ثم استدرك بأنه فصيح، دون أن يبين نوع الفصاحة وعلاقتها بالشعر، ومع ذلك أجد ابن قتيبة قد حاول أن يرفع من مكانته الشعرية عند قوله بأنه جيد الشعر، وإن أضاف صفة خَلْقية نطقية بأن به لكنة. ومما تقدم أجد الأصمعي قد ركز في ميزانه النقدي لهذه المجموعة على طبقة العبيد السود، وبأنه يكاد يكون قد جمعهم في هذه المجموعة أو الطبقة، وصرح عن صفاتهم الجسمية على سبيل التقليل من مكانتهم الشعرية، وقيمتهم بين الشعراء. ودون أن يصرح بأحكام نقدية واضحة عنهم، وإن كانت ذوقية غير معللة.

5. حجّة: والحجة في اللغة تعادل كلمة الثَّبَت(7):

1.5 **زياد الأعجم**: "حجة، لم يتعلق عليه بلحن"(8)، هو زياد بن سلمى ابن عبد القيس، فيه لكنة(9)قال للفرزدق عندما أراد هجاء عبد القيس:

فإنـــا ومـــا تهـــدى لنـــا إن هجوتنـــا لكـالبحر مهما تُلق فـي البحـر يغـرق

فلما بلغت الأبيات الفرزدق كف عما أراد، وقال: لا سبيل إلى هجاء هؤلاء ما عاش العبد(10)، وجعله ابن سلام في الطبقة السابعة من الشعراء الإسلاميين(11)، ومقياس الأصمعي النقدي في زياد الأعجم بأنه حجة، وكلمة حجة تشابه ثبت، وفي كليهما يبين الأصمعي عن مكانة الشاعر الشعرية، ولكنه لا يصل إلى درجة الفحولة حسب مقياسه.

2.5 **عمر بن أبي ربيعة**: "مولد، وهو حجة، سمعت أبا عمرو بن العلاء يحتج في النحو بشعره، ويقول هو حجة(1)، كان فاسقاً يتعرض للنساء الحواج ويتشبب بهن(2)، وقد "أسقط ابن سلام من حسابه –لسبب لا نعرفه– الكثير من الغزليين وعلى

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:17.
(2) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:180.
(3)(الأصفهاني، ج10، 1997، ص:407).
(4) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:16.
(5) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:179.
(6) (إبراهيم(وزملاؤه)، (د.ت)، مادة:خرب) .
(7)(إبراهيم،(وزملاؤه)، (د.ت)، مادة: حجج).
(8) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:16.
(9) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:99.
(10) القيرواني، الحسن بن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ج1، ص:56.
(11) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:231.

وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة الذي لم يذكره أصلاً[3]، "وقد أخذ صلة الرشيد وغيره على حسن التغزل ولطف المقاصد في التشبيب بالنساء"[4]، قال أبو عمرو بن العلاء كان حجة في العربية[5]. من ذلك أجد أن الأصمعي أطلق عليه صفة المولد قبل أن يقول عنه بأنه حجة، والمولد في المعجم: الشعراء المحدثون، أو العربي غير المحض[6]. ولعلنا لا نستغرب إذا وجدنا أن الجاحظ قد تعصب للعرب على المولدين، فعنده إن عامة العرب في مجموعهم أشعر من عامة الشعراء المولدين في مجموعهم[7].

يبدو أن ذكر الأصمعي لمثل هذه الصفات عند إصدار حكمه النقدي، يريد منها أن يظهر الشاعر على حقيقته، أو ربما لا يريد أن يعطيه أكثر من حقه، أو لعله يريد أن يقلل من قيمته الشعرية كونه مولداً، ولكن إضافة الأصمعي لما سمعه من أبي عمرو بن العلاء بأنه يحتج بشعره في النحو، ويقول هو حجة، وما أكده الآخرون بأنه حجة في العربية، يظهر أن ابن أبي ربيعة كان له القيمة الشعرية العالية، والمكانة المرموقة بين الشعراء، وإن خص شعره بالغزل، ويؤكد ذلك ما أورده الأصفهاني قال: "كانت العرب تقر لقريش بالتقدم في كل شيء عليها إلا في الشعر، فإنها كانت لا تقر لها به، حتى كان عمر بن أبي ربيعة، فأقرت لها الشعراء بالشعر أيضاً ولم تنازعها بشيء"[8].

3.5 فضالة بن شريك الأسدي و عبد الله بن الزبير الأسدي، وابن الرقيات، "هؤلاء مولدون، وشعرهم حجة".

الشاعر ابن الرقيات هو عبد الله بن قيس بن الرقيات، وسمي بالرقيات؛ لأنه كان يشبب بثلاث نسوة يقال لهن كلهن رقية[9]، وجعله ابن سلام رأس الطبقة السادسة من الشعراء الإسلاميين، وذكره مرة بعبيد الله، وأخرى بعبد الله، وعزا تسميته بالرقيات؛ لأن جدّات له توالَيْن يسمين رقية، وكان أشد قريش أسر شعر في الإسلام بعد ابن الزبعرى، وكان غزلاً، يشبب ولا يصرح[10]، وروى المرزباني عن المازني قال: سمعت الأصمعي يقول: ابن قيس الرقيات ليس بحجة[11]. وذكره الأصفهاني باسم عبيد الله(وهو الأشهر) وقال عنه يونس: "ليس بفصيح ولا ثقة"، شغل نفسه بالشرب[12]. إن الحكم الذي أصدره الأصمعي على هؤلاء الثلاثة هو الذي نعتمده في ميزان الأصمعي النقدي؛ لأننا لا نكاد نعثر على رأي غيره يجمعهم الثلاثة في كتب النقد الأخرى؛ ولأنه صدر عنه مباشرة دون أن يروى أو يذكر عن آخرين، فالأصمعي هنا اعتمدهم بأنهم مولدون، وشعرهم حجة يحتج به، وإن رأى غيره فيما يتعلق بابن الرقيات بأنه ليس فصيحاً ولا ثقة.

---

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ،**كتاب فحولة الشعراء**، ص:16.
(2) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:132.
(3) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:26.
(4) القيرواني، الحسن بن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ج1، ص:73.
(5) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص:237.
(6) (إبراهيم(وزملاؤه)، (د.ت)، مادة:ولد) .
(7) الحسين، قصي، 2008، **النقد الأدبي ومدارسه عند العرب**، ص:95.
(8) (الأصفهاني، ج1، 1997، ص:86).
(9) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:130.
(10) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:224.
(11) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص:221.
(12) (الأصفهاني، ج5، 1997، ص:61) .

4.5 **ذو الرمة**: "حجة؛ لأنه بدوي، ليس يشبه شعره شعر العرب، ثم قال إلا واحدة التي تشبه العرب، وهي التي يقول فيها: (**والباب دون أبي غسان مسدود**) [1]، وهو غيلان بن عقبة من بني صعب، قال للفرزدق: ما لي لا أذكر مع الفحول؟ قال: قصّر بك عن غاياتهم بكاؤك في الدمن ووصفك الأبعار والعطن[2]، وكان ذو الرمة"أحسن الناس تشبيهاً، وأجودهم تشبيهاً، تشبيهاً، وأوصفهم الرحل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية، فإذا صار إلى المديح والهجاء، خانه الطبع، وذلك الذي أخره عن الفحول، فقالوا في شعره: أبعار غزلان ونقط عروس"[3]. وهو من شعراء الطبقة الثانية من الشعراء الإسلاميين،ويقال إن ذا الرمة راوية راعي الإبل، ولم يكن له حظ في الهجاء، وكان مغلباً[4]. وسئل جرير عن شعر ذي الرمة فقال: نقط عروس وأبعار ظباء[5]. ظباء[5]. وقال أبو عمرو بن العلاء: ختم الشعر بذي الرمة[6]. من ذلك أجد أن الأصمعي حكم على ذي الرمة بأنه حجة،وعلل حجة،وعلل ذلك؛ لأنه بدوي، ثم أضاف بأن شعره لا يشبه شعر العرب إلا في واحدة، وقد تفاوتت آراء النقاد القدامى في ذي الرمة، فوضعه الجمحي في الطبقة الثانية من الشعراء الإسلاميين، وقال عنه أبو عمرو بن العلاء بأن الشعر ختم به، إلى غير ذلك، وكلها لا ترفع من مكانته فوق المكانة التي وضعه فيها الأصمعي.

6. ليس بفصيح ولا حجة:

1.6 **القحيف العامري**: "ليس بفصيح ولا حجة"[7]، وهو آخر شاعر تحدث عنه الجمحي في طبقاته، وجعله آخر شعراء الطبقة العاشرة من الشعراء الإسلاميين، وسماه القحيف بن سليمة العقيلي[8]، وسماه محقق الموشح بالقحيف بن خمير بن سلم[9] وبذلك يكون مقياس الأصمعي النقدي لقحيف العامري بأنه ليس بفصيح ولا حجة، هو المقياس النقدي الوحيد في جلّ كتب النقد، وإن حاول الجمحي أن يعلي من مكانته.

2.6 **الكميت بن زيد**: "ليس بحجة؛ لأنه مولد"[10] هو الكميت بن زيد الأسدي، قال خلف الأحمر: رأيت الكميت في مسجد الكوفة يعلم الصبيان، وكان شديد التكلف للشعر، كثير السرقة[11]، وكان ذو الرمة أحسن حالاً عند الأصمعي من الكميت، وقال المفضل: لا يعتد بالكميت في الشعر[12]، وهذا العرض يبقي الكميت في إطار حكم الأصمعي النقدي، ولا يرفع مكانته أو يعليها، ولعل ما ذكره الأصفهاني يرفع من مكانته، حيث قال عنه بأنه شاعر مقدم عالم بلغات العرب، خبير بأيامها، من شعراء مضر وألسنتها، وقصائده الهاشميات من جيد شعره ومختاره[13]، ولعل هذا الرأي جاء به الأصفهاني لكونه متشيعاً مثله.

---

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:20.
(2) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:126.
(3) نفسه، ص:14 .
(4) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:202، 207.
(5) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص:205.
(6) القيرواني، الحسن بن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ج1، ص:78.
(7) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:20.
(8) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:242.
(9) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص:258.
(10) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:20.
(11) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:139.
(12) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص:228.
(13) (الأصفهاني، ج17، 1997، ص:5) .

3.6 **الطرماح**: "وكذلك الطرماح(يشبه الكميت)" [1]وهو الطرماح بن حكيم من طيء، وكان يرى رأي الخوارج[2]، قال قال عن محقق الموشح: شاعر إسلامي فحل، اعتنق مذهب الشراة من الأزارقة، كان هجاء، توفي نحو 125هـ [3]، ولم أعثر على أحد من النقاد القدامى سجل حكماً نقدياً للطرماح يستحق أن يذكر، خلاف ما ذكره الأصمعي، بأن جعله يشبه الكميت بأنه ليس بحجة.

7. مُفْلِق:

1.7 **فسحم**: شاعر جاهلي مفلق[4]، وهذا هو الشاعر الوحيد في فحولة الأصمعي الذي حكم عليه هذا الحكم، والشاعر المفلق هو الذي يأتي بما يعجب في شعره[5] وسبق كلمة مفلق، بأنه شاعر جاهلي، ولعل هذه الإضافة التي سبقت مفلق أعطت لحكم الأصمعي شيئاً من القوة والتأكيد.

8. يتصف بصفات أخرى، ولم يقل إنه فحل: في هذه المجموعة يذكر الأصمعي صفات أخرى للشعراء، دون أن يقول عن أي منهم بأنه فحل، وهؤلاء هم:

1.8 **حاتم الطائي**: "يعد بكرم، ولم يقل أنه فحل[6]، يذكر الأصمعي كرم حاتم الطائي، ولم يذكر شعره، أو يزنه بميزانه النقدي الشعري، واكتفى بذكر كرمه فقط.

2.8 **أبو دؤاد**: قال صالح، لم يقل إنه فحل[7]، هو أبو دؤاد الرؤاسي من بني كلاب بن ربيعة بن صعصعة، من شعراء الطبقة العاشرة من الشعراء الإسلاميين[8]، وذكر محقق الموشح بأنه من وصاف الخيل المجيدين[9]، وادعت إياد لأبي دؤاد بأنه شاعرها، وهو الأول بين القبائل[10]. ولعل ما عثرت عليه من أقوال النقاد القدامى لا يعلي من شأن أبي دؤاد، ويجعله في مرتبة أفضل مما وضعه فيها الأصمعي.

9. أشعر من:

1.9 **أوس بن حجر**: "أشعر من زهير"، "ولم يكن النابغة وأوس وزهير يحسنون صفة الخيل"[11]. يقارنه الأصمعي هنا بزهير بن أبي سلمى، ويجعله أفضل من زهير، رغم إنه لم يكن يحسن وصف الخيل كزميليه.

10. اختلف فيه:

1.10 **زهير بن أبي سلمى**: "فقد اختلف فيه، وقوله: ما يصلح زهير أن يكون أجيراً للنابغة[1]، وقوله: دعوا لي طفيلاً، فإن شعره شعره أشبه بشعر الأولين من زهير"،وقوله: "ولم يكن النابغة وأوس وزهير يحسنون صفة الخيل"[2]. وهنا أجد الأصمعي يتردد في

---

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:20.
(2) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:140-141.
(3) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص:244.
(4) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:17.
(5) (إبراهيم (وزملاؤه)، (د.ت)، مادة:فلق .
(6) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:14.
(7) نفسه، ص:12 .
(8) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:242.
(9) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص:91.
(10) السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ج2، ص:477.
(11) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:9-10.

إصدار حكم نقدي في شعر زهير، وإن كان يميل إلى أن يجعله في مرتبة شعرية أقل من غيره، رغم إنه من أصحاب المعلقات، ومن شعراء الحوليات.

– **ثالثاً: أحكام عامة:**

آراء متفرقة للأصمعي(أحكام عامة): أصدر الأصمعي أحكاماً عامة لمجموعة من الشعراء، وقد جاءت على شكل آراء نقدية متفرقة، خاصة لكل شاعر، بحيث أن كل شاعر كان للأصمعي فيه رأيه النقدي وحكمه الخالص فيه، وذلك كما يلي:

1. **النابغة الجعدي**: أفحم ثلاثين سنة بعدما قال الشعر، ثم نبغ[3]، وهو عبد الله بن قيس ابن كعب بن ربيعة، وهو جاهلي، وعمّر حتى أدرك الأخطل، وتنازعا الشعر فغلبه الأخطل، وما بأصفهان وهو ابن عشرين ومئة[4]، وكان شاعراً قديماً مُفْلِقاً (أي مبدعاً) في الجاهلية والإسلام، وكان أكبر من النابغة، وجعله الجمحي رأس الطبقة الثالثة من الشعراء الجاهليين. قال يونس: كان الجعدي أوصف الناس لفرس، وكان علوي الرأي[5]. وكان الجعدي مختلف الشعر مُغَلَّباً(أي مغلوباً) [6]، وينسبه الأصمعي إلى قلة التكلف[7]. وقال ابن شرف القيرواني عنه بأنه نقي الكلام، شاعر الجاهلية والإسلام، واستحسن شعره أفصح الناطقين، وكان شاعراً في الافتخار والثناء، قصير الباع عن تناول الهجاء، وكان مغلوباً فيه في الجاهلية، وطريد ليلى الأخيلية[8]. ولعل حديث الأصمعي عن الجعدي يفيد نبوغه بعد قصور في الشعر لثلاثين سنة، والنقاد فيه مختلفون كاختلاف النابغة الجعدي في شعره، ذلك بأن منهم من أدنى من منزلته كابن قتيبة والمرزباني، ومنهم من حاول أن يعلي منها كالجمحي وابن شرف القيرواني، وبشكل عام يبقى حكم الأصمعي حكماً عاماً حتى إنه لا يكاد يعد من الأحكام النقدية.
2. **مُزرِّد أخو الشماخ**: ليس بدون الشماخ، ولكنه أفسد شعره بما يهجو الناس[9]. يجعله الأصمعي بمرتبة توازي مرتبة أخيه الشماخ، ولكن الذي أفسد شعره، وقلل من قيمته، هو ميل مزرد إلى هجاء الناس، كما يقول الأصمعي.
3. **العجاج**: ولد في الجاهلية[10]، هو أبو عبد الله بن رؤبة، من بني مالك بن سعد بن زيد مناة من تميم، وسمي العجاج بقوله: **(حتى يعج عندها من عجعجا)** [11]، وجعله الجمحي في طبقاته في الطبقة التاسعة من الشعراء الإسلاميين[12]، وأضاف محقق الموشح بأنه هو أول من رفع الرجز وشبهه بالقصيد، وكان لا يهجو، وهو والد رؤبة الراجز المشهور، توفي نحو

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:18.
(2) نفسه، ص:10 .
(3) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:19.
(4) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:55-56.
(5) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:73-76.
(6) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص:81.
(7) القيرواني، الحسن بن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ج1، ص:92.
(8) القيرواني، ابن شرف، **رسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء**، 26.
(9) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:18.
(10) نفسه، ص:16 .
(11) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:141.
(12) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:239.

90هـ[1]. لقد اكتفى الأصمعي بقوله "ولد في الجاهلية"، ولم يزد على ذلك مدحاً أو قدحاً، وإن كنت أميل إلى أن الأصمعي الأصمعي ربما قصد منها المدح كونه جاهلياً يحتج بشعره، وما عثرت عليه عند غيره لا يرفعه كثيراً، وإن جعله الجمحي من أبناء الطبقة التاسعة من الشعراء الإسلاميين.

4. **حميد الأرقط**: "يشذب الرجز وينقحه وينقيه[2]، تحدث الأصمعي عن حميد الأرقط بأن له مقدرة تنقيح الرجز، وتنقيته من الشوائب. وهذا الرأي لا يعطي قيمة شعرية ترفع من مكانة حميد الأرقط، بل هو حديث عادي لا يوجد فيه قيمة نقدية لصالح حميد.

5. **أبو النجم**: قال ورأيته (أي الأصمعي) يستجيد بعض رجز أبي النجم، ويضعف بعضه؛ لأن له رديئاً كثيراً، وقال مرة: "لا يعجبني شاعراً اسمه الفضل بن قدامة، يعني أبا النجم"[3]، هو أبو النجم العجلي، أنشد أبو النجم هشام بن عبد الملك (الحمد لله الوهوب المجزل)، وهي أجود أرجوزة للعرب[4]، وجعله الجمحي في الطبقة التاسعة من الشعراء الإسلاميين، وهم رجاز، وكان أبو النجم ربما قصّد فأجاد، ولم يكن كغيره من الرجاز،وهو الذي فاز بجائزة سليمان بن عبد الملك عندما نظم قصيدة يذكر فيها مآثر قومه ولا يكذب، كما طلب سليمان بن عبد الملك[5]، ذكره محقق الموشح بأنه من أكابر الرجاز، ومن أحسن الناس إنشاداً للشعر، نبغ في العصر الأموي، توفي سنة 130هـ[6]. أجد الأصمعي هنا راوح في ذكره لأبي النجم النجم بين محاولة المدح في استجادته لبعض رجزه، وبين الذم لشخص الشاعر، حيث قال عنه: بأنه "لا يعجبني"، ولا أعرف سرّ عدم الإعجاب هذا، هل ينصرف إلى الشخصي الجسمي، أم إلى الشخصي الشعري، فإن قلنا الشخصي الجسمي، فإن ذلك يحملنا إلى أن الأصمعي كثيراً ما تعرض إلى ألوان بشرة الشعراء، فكثيراً ما قال عن بعضهم "وكان أسود" أو "عبد أخرب مشقوق الأذن[7]، أما الشخصي الشعري فهو معرض حديثه العام عن الشعراء، وتقييمه لهم، ولعل ما ذكره النقاد الآخرون بحق أبي النجم يعلي من شأنه بدرجة أفضل من درجة الأصمعي.

6. **نصيب**: "أشعر أهل جلدته وكان أسود[8]، وهو في الطبقة السادسة من الشعراء الإسلاميين عند الجمحي، وقيل مرّ جرير بنصيب وهو ينشد، فقال له: اذهب فأنت أشعر أهل جلدتك[9]، وذكره ابن شرف القيرواني بأنه أمدح القوم[10]. إن وصف وصف الأصمعي له بأنه أشعر أهل جلدته، ثم تعقيبه على لونه بقوله (وكان أسود)، ولعله بهذه الإضافة أراد أن يحصر تفوق نصيب بأنه في الشعراء السود فقط وليس في غيرهم. وما ذكره غيره من النقاد لا يغير من واقع الحال شيئاً.

---

(1) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص:252.
(2) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:18.
(3) نفسه، ص:16 .
(4) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:242.
(5) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:241.
(6) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص:250.
(7) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:1.
(8) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:18.
(9) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:224-229.
(10) القيرواني، ابن شرف، **رسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء**، ص:30.

7. **الأقيشر**: "ورأيته طعن فيه، ولم يلتفت إلى شعره، ولا يقال إلا رجل شُرَطي، وقال ذاك مولد"(1). هو المغيرة بن الأسود بن وهب من بني أسد بن خزيمة، كان يغضب إذا قيل له أقيشر(2)، وصفه محقق المرزباني بأنه شاعر هجاء عالي الطبقة، من أهل أهل بادية الكوفة، ولد في الجاهلية ونشأ في أول الإسلام، لقب بالأقيشر لأنه كان أحمر الوجه أقشر، صاحب شراب توفي نحو سنة 80هـ(3). وأجد الأصمعي قد نال من الأقيشر كثيراً حين طعن في شعره، ولم يلتفت إليه، وقال هو مولد ولعل هذه الصفات التي نحلها الأصمعي للأقيشر تدني من مكانته الشعرية، بل قد لا أجد له مكانة أصلاً عند الكثير من النقاد، أو حتى ذكراً.

8. **يزيد بن ضبة**: "قال ألف قصيدة فاقتسمها العرب فذهبت"(4)، ما قاله الأصمعي عن يزيد بن ضبة يظهر الكم الشعري الكبير الذي أنتجه الشاعر من القصائد، ولكنه يضيف أن العرب قد اقتسمتها، ولعله يعني انتحلتها لنفسها فذهبت لها، ولم يبق منها شيء لقائلها.

9. **حميد الراعي، وابن مقبل**: "قال أشعر الناس مُغلّبوا مضر: فأما الراعي فغلبه جرير، وغلبه خنزر، والجعدي غلبته ليلى الأخيلية، وسوّار ابن الحيا، وابن مقبل غلبه النجاشي من بني الحارث بن كعب، وحميد كل من هاجاه غلبه"(5)، وقد أبان الأصمعي في قوله هذا عن المغلبّين من الشعراء، وغالباً ما يكون المغلَّب أضعف ممن غلبه، وهكذا ذكر هؤلاء الثلاثة بأنهم مغلّبون مهزومون، وهذا يضعف من مكانتهم الشعرية، مع العلم أن الأصمعي نعتهم بأنهم أشعر الناس، وفي ذلك مدحاً لهم ورفعاً لقيمتهم الشعرية.

10. **النمر بن تولب**: "وهو جاهلي أدرك الإسلام"(6)، هو من عكل، وكان شاعراً جواداً، ويسمى الكيس لحسن شعره، وهو جاهلي أدرك الإسلام(7)، وجعله ابن سلام في الطبقة الثامنة من الشعراء الجاهليين، وعمِّر عُمراً طويلاً(8). أدرك الإسلام فأسلم، كان من ذوي النعمة والوجاهة، ولم يمدح أحداً ولا هجا، سماه أبو عمرو بن العلاء (الكيس) لحسن شعره، توفي نحو 14هـ، هذا ما أورده محقق المرزباني في الهامش(9). وقال عنه الأصفهاني بأنه شاعر مقل مخضرم، وكان شاعراً فصيحاً جريئاً على المنطق(10). وأجد الأصمعي وصفه بأنه جاهلي إسلامي، ولم يزد مَدحاً أو ذمّاً، مع أن الآخرين أثبتوا له حسن شعره، ولقبوه بالكيس.

11. **أبو ذؤيب**: "قال الأصمعي: كان أبو ذؤيب راوية شاعرة، وشذ عليه في أشياء كثيرة، فذكر في قافية، وألح في شعرهم، قال: واستجاد هذه الجيمية لأبي ذؤيب، وقال: إن أبا ذؤيب أجاد في جيميته حداً لا يقوم له أحد، قال: هي التي قال فيها: (**برك**

---

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:18.
(2) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:134.
(3) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص:158.
(4) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:18.
(5) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:17.
(6) نفسه، ص:20.
(7) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:62.
(8) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:90-91.
(9) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ص:97.
(10) الأصفهاني، ج22، 1997، ص:455.

من جذام لبيج)"[1]. والأصمعي هنا يمدح أبا ذؤيب، ويستجيد له جيميته استجادة كبيرة، ولو أضفنا ما قاله الأصمعي هنا إلى ما قال آنفاً[2]. لم يزد أبا ذؤيب إلا مكانة، وإجادة، وفحولة في شعره.

1.12 التركيز على موضوع معين:

1.1.12 **أمية بن أبي الصلت**: "ذهب أمية بن أبي الصلت في الشعر بعامة ذكر الآخرة"[3]، وجعله الجمحي أشعر أهل الطائف، وكان كثير العجائب، يذكر في شعره خلق السموات والأرض، ويذكر الملائكة، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء[4]، ويكاد غير الأصمعي يؤكد ما ذهب إليه الأصمعي بصدد أمية بن أبي الصلت، وإن كان رأيه لا يؤدي إلى نتيجة نقدية نقدية حول شعره، وجلّ ذكره كان حول تركيز شعره حول الآخرة.

2.1.12 **عنترة**: "وذهب عنترة بعامة ذكر الحرب"[5]، ثم انظر إلى عنترة في مجموعة الشعراء الفرسان في كتابه الفحولة(ص:18)، وما دوناه لغيره من النقاد، ولعل الأصمعي اطلع على معظم شعر عنترة، فوجد أغلبه في الحرب، فلذلك قال ما قاله في عنترة، وهو وصف لا يؤثر على مكانته الشعرية، أو يعطي حكماً نقدياً، كما قال من قبل بأنه أشعر الفرسان[6].

3.1.12 **عمر بن أبي ربيعة**: "وذهب عمر بن أبي ربيعة بعامة ذكر النساء"[7]،وجعله الأصمعي في موقع آخر من فحولته بأنه حجة[8]، وأجد الأصمعي قد وضعه ضمن مجموعة خاصة من الشعراء الذين يركزون في شعرهم على موضوع معين، فحصر شعر عمر بن أبي ربيعة بذكر النساء، وفعلاً هذا ما كان من عمر في شعره، فقد قيل: "لعمر بن أبي ربيعة أوصفنا لربات الحجال"[9]. وحديث الأصمعي هنا نعت عام لا يصدر حكماً نقدياً.

2.12 المركوب والمحلوب:

1.2.12 **عيينة بن مرداس**: "أنعت الناس لمركوب من الإبل عيينة بن مرداس"[10]، والأصمعي هنا يجعل عيينة بأنه أنعت الناس أو أكثر وصفاً لما يركب من الإبل، وهي صفة خاصة بهذا الشاعر لم يجعلها الأصمعي لغيره.

2.2.12 **الراعي**: "أنعت الناس لمحلوب في القصيد الراعي"[11]. والأصمعي هنا يركز في وصفه له بأنه أنعت الناس لمحلوب، وفي القصيد فقط.

---

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:20.
(2) (انظر: 10.1.1 المجموعة الأولى في الشعراء الفحول في هذا البحث). .
(3) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:18.
(4) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:131-132.
(5) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:18.
(6) انظر: ثانياً 2.1 في هذا البحث.
(7) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:18.
(8) انظر:2.6 من هذا البحث.
(9) (الأصفهاني، ج1، 1997، ص:86) .
(10) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:18.
(11) نفسه. وانظر: في مجموعة شعراء ليسوا بفحول 5.4 من هذا البحث.

3.2.12 **ابن لجأ التميمي**: "وأنعتهم لمحلوب في الرجز ابن لجأ التميمي، واسمه عمر"[1]، ونجد الجمحي جعل هذا الشاعر في الطبقة الرابعة من الشعراء الإسلاميين[2]، وهنا أيضاً قصر الأصمعي نعته لهذا الشاعر، بأنه أنعت الناس لكل محلوب ولكن في الرجز فقط.

4.2.12 **ابن أحمر**: "ابن أحمر لم يهاج أحداً"[3]، ولعل هذا القول إذا فصلناه عن توصيفه السابق لابن[4]، فهو حديث عام عن ابن الأحمر لا يكون رأياً نقدياً بهذا الشكل المنفصل.

رابعاً: شعر القبائل: (أشعر قبيلة)

1. أي الناس أشعر قبيلة. فقيل: النجل العيون في ظلال الفسيل، يعني الأنصار، ويقال الزرق العيون في أصول العضاة، يعني بني قيس بن ثعلبة، وذكر منهم المرقش، والأعشى، والمسيب بن علس[5].
2. ليس في الدنيا قبيلة على كثرتها أقل شعراً من بني شيبان، وكلب، وليس لكلب شاعر في الجاهلية قديم، قال: وكلب مثل شيبان أربع مرار[6].
3. قال الأصمعي: قيل لحسان: من أشعر الناس؟ قال: أشعر رجلاً أم قبيلة؟ قال: بل قبيلة. قال: هذيل، قال الأصمعي: فيهم أربعون شاعراً مفلقاً، وكلهم يعدو على رجله ليس فيهم فارس، قال الأصمعي: أشعرهم رجلاً واحداً: النابغة الذبياني[7].

ويأتي الأصمعي بمعيار نقدي جديد ضمن ميزانه النقدي، الذي نحن بصدده، وهو ما يختص بشعر القبائل، وهذا يذكرنا بما كانت تفعله قبائل العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج"[8]. أما حكم الأصمعي النقدي في قوله: "أي الناس أشعر قبيلة"، ويجيب هو فيقول: قيل: النجل العيون... ويقال: الزرق العيون... فبدأ الجملة الأولى بقوله: قيل على صيغة الماضي المبني للمجهول، والثانية بـ(يقال) على صيغة المضارع المبني للمجهول، وفي كلا الحالتين يظهر أن القول ليس له، بل لغيره، وفي كليهما يتحدث واصفاً مادحاً، لقبيلة بني قيس بن ثعلبة، بأنهم أصحاب العيون النجل الواسعة، والزرقاء، ثم ذكر منهم ثلاثة شعراء: "المرقش، والأعشى، المسيب"، وهنا أتساءل: ما علاقة جمال عيون الشعراء أو عيون القبيلة بالشعر؟ وما أثر ذلك على قوة الشاعر وجودة شعره من عدمها؟ بعد ذلك يتحدث عن قلة شعر بني شيبان وكلب، رغم كثرة عددهم، ثم يأتي الأصمعي على لسان حسان عندما سئل: من أشعر الناس؟ قال: هذيل، فأكمل الأصمعي: فيهم أربعون شاعراً مفلقاً، وأضاف: كلهم يعدو على رجله ليس فيهم فارس، وهنا أتساءل أيضاً: ما علاقة العدو على الرجلين بالشعر وجودته؟ ويضيف بعدها الأصمعي خاصاً بالذكر النابغة الذبياني بأنه أشعرهم. مما تقدم أجد أن الحكم النقدي الذي أطلقه الأصمعي هو (من أشعر الناس قبيلة؟) والإجابة عليه بتحديد القبيلة، لكن ما أضافه لمتعلقات الجواب، لا يعني الجواب بشيء، من حيث قيمة الحكم النقدي، وصحته، أو تدعيمه بآراء جديرة بالاهتمام.

---

(1) نفسه .
(2) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، ص:216.
(3) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:17.
(4) نفسه، ص:12 .
(5) الأصمعي، عبد الملك بن قريب، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:19.
(6) نفسه .
(7) نفسه .
(8) القيرواني، الحسن بن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ص:65.

خامساً: آراء متفرقة لغير الأصمعي:

هذه مجموعة آراء أوردها الأصمعي في كتابه "فحولة الشعراء"، وهي لغير الأصمعي:

1. قال حسان في شعر عمرو بن العاص: ما هو شاعر ولكن عاقل.
2. سئل الأخطل عن شعر كثير، فقال: حجازي يكد البرد[1].
3. قال الفرزدق للنوار امرأته: كيف شعري من شعر جرير؟ فقالت: شرَكك في حلوه، وغلبك على مرّه.
4. قال الأصمعي:سمعت أبا سفيان بن العلاء يقول: قلت لرؤبة: كيف رجز أبي النجم عندك؟ فقال كلمته تلك عليها لعنة الله لأنه استجادها: الحمد لله الوهوب المجزل[2].
5. أروى الناس للرجز الأصمعي[3].
6. قال معاوية بن أبي سفيان: دعوا لي طفيلاً فإن شعره أشبه بشعر الأولين[4].
7. قال أبو عمرو (ولعله ابن العلاء): عندما سأل رجل: النابغة أشعر أم زهير؟ فقال: ما يصلح زهير أن يكون أجيراً عند النابغة، وكان الأصمعي قال عنه: قد اختلف فيه.

يورد الأصمعي في هذه المجموعة من معياره النقدي الخامس آراء لغيره، وأحكاماً لآخرين، ولكنه يقرها ويعتمدها، فمثلاً يورد لحسان قولاً في شعر عمرو بن العاص: "ما هو شاعر، ولكن عاقل"، فالإضافة التي تلت كلمة ما هو شاعر، وهي كلمة "عاقل" لا تؤثر ولا تدعم حكم حسان في شعر عمرو بن العاص، والأصمعي أقره على ذلك، وكذلك قول الأخطل عن شعر "كثير" فأجاب: حجازي يكد البرد، ثم ذكر قول النوار للفرزدق عندما سألها عن شعره وشعر جرير، فقالت: شرَكك في حلوه، وغلبك على مره، أي التناوب في القوة والجودة، ثم ذكر ما يروى بأن أروى الناس للرجز الأصمعي، ثم أخيراً أورد قولاً لمعاوية بن أبي سفيان عن طفيل، عندما قال: دعوا لي طفيلاً فإن شعره أشبه بشعر الأولين، وفي هذا الحكم النقدي بأن شعر طفيل يشبه شعر الأولين من حيث الجودة والفحولة والقوة، ثم نسب الأصمعي قولاً لأبي عمرو بن العلاء في زهير بن أبي سلمى بأنه لا يصلح أن يكون أجيراً عند النابغة، وفيه دلالة على عدم جودة شعره قياساً بشعر النابغة.

سادساً: ذكرهم الأصمعي ذكراً فقط:

1. الحطيئة: ذكر بيتاً من الشعر وقال: "وهذا للحطيئة"[5]، وكان الأصمعي يقول: "زهير والحطيئة وأمثالهما من الشعراء عبيد الشعر؛ لأنهم نقحوه، ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين، وكان الحطيئة يقول: خير الشعر الحولي المنقح المحكك، وكان زهير يسمي كبير قصائده الحوليات"[6]، وكان الحطيئة هجاء دنيء النفس فاسد الدين، متين الشعر شرود القافية، هجا نفسه بقوله:[7]

أرى لـــــي وجهـــــاً شـــــوه الله خلقـــه فقُــبِّح مـــن وجـــهٍ وقُـــبِّح حاملـــه

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:19.
(2) نفسه، ص:20 .
(3) نفسه، ص:14 .
(4) نفسه، ص:10 .
(5) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:18.
(6) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الشعر والشعراء**، ص:8.
(7) الأصفهاني، ج2، 1997، ص:435-436.

2. المنتشر: قال الأصمعي "وليس المنتشر منهم"(1)، وذلك عندما قال: "ومثله ابن برّاقة الهمداني ومثله حاجز الثُّمالى من السرْويين وتأبط شرا واسمه ثابت بن جابر والشنفرى الأزدي السرْوي وليس المنتشر منهم"(2)، دون أن يضيف للمنتشر أي إضافة أو تعليق أو حكم نقدي.

سابعاً : النساء الشاعرات:

1. **ليلى**: "إن ليلى أشعر من الخنساء"(3)، ولم يبن لنا الأصمعي من هي ليلى؟ هل هي ليلى بنت طريف الخارجية؟ أم ليلى الأخيلية؟ أم غيرهما؟ والأصمعي هنا جعلها أشعر من الخنساء، وإن كنا لا نجد للخنساء ذكراً في فحولته هذه، غير هذه العبارة.
2. **الخنساء**: عند قوله: "إن ليلى أشعر من الخنساء"(4) (نفسه)، فالأصمعي لم يتحدث عنها أو حول شعرها، رغم مكانتها الشعرية.

– الخاتمة:

لقد خلصت في نهاية بحثي إلى مجموعة من النتائج أسجل منها:

- بلغ عدد الشعراء الذين تطرق إليهم الأصمعي في كتابه "فحولة الشعراء" مئة شاعر وشاعرة.
- تحدث الأصمعي في مقياس الفحولة ضمن ميزانه النقدي عن ثلاثة وخمسين شاعراً، وممن تبقى من الشعراء وضعهم تحت مقاييس أخرى غير الفحولة.
- جاء ميزان الأصمعي النقدي في كتابه الفحولة وفق المقاييس التالية:

أولاً: مقاييس لها علاقة بالفحول:

1. فحل: وصل عدد من أطلق عليهم بأنهم فحول أربعة عشر شاعراً.
2. فحل: مع إضافة أو تعليق، وصل عددهم سبعة شعراء.
3. ليس بفحل: وضم أربعة شعراء.
4. ليس بفحل مع إضافة أو تعليق: وضم ستة عشر شاعراً.
5. 1. المعيار الشرطي الأول لتحقيق الفحولة: وضم ستة شعراء.
5.2 المعيار الشرطي الثاني لتحقيق الفحولة:وضم ثلاثة شعراء.
6. قد يكون من الفحول: وضم ثلاثة شعراء.

وقد كانت هذه المجموعة تمثل 54% من شعراء الكتاب، وهم أطلق الأصمعي على كتابه فحولة الشعراء، وما تبقى من الشعراء الذين تطرق إليهم الأصمعي، فقد تحدث عنهم ضمن مقاييس نقدية تختلف عن مقياس الفحولة.

---

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:15.
(2) نفسه .
(3) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:19.
(4) نفسه .

ثانياً: مقاييس ليس لها علاقة بالفحول:

1. الشعر والفروسية: وتحدث هنا عن ثمانية شعراء.
2. الجودة: تحدث عن شاعر واحد.
3. الحسن والتحبير: تحدث عن شاعر واحد.
4. ثبت وفصيح: ضم ستة شعراء.
5. حجة: ضم ستة شعراء.
6. ليس بفصيح ولا حجة: تحدث عن ثلاثة شعراء.
7. مُفْلق: تحدث عن شاعر واحد.
8. يتصف بصفات أخرى: تحدث عن شاعرين.
9. أشعر من: شاعر واحد.

ثالثاً: أحكام عامة: تحدث فيه عن ثمانية عشر شاعراً.

رابعاً: شعر القبائل(أشعر قبيلة): وتحدث فيه الأصمعي عن أشعر القبائل، وذكر منها: الأنصار، وقيس بن ثعلبة، وهذيل.

خامساً: آراء متفرقة لغير الأصمعي: وقد وردت في كتاب الفحولة آراء لغير الأصمعي، مثل: حسان في شعر عمرو بن العاص، والأخطل في شعر كثير، ورؤبة في رجز أبي النجم.

سادساً: ذكرهم الأصمعي ذكراً فقط: ذكر شاعرين فقط.

سابعاً: النساء الشاعرات: تطرق الأصمعي لشاعرتين فقط، هما: ليلى والخنساء.

وقد بلغت نسبة الشعراء الذين لم تشملهم صفة الفحولة أو عدمها، بل تحدث عنهم الأصمعي ضمن مقاييس نقدية أخرى نحو 46% من المجموع الكلي.

- ربما اختار الأصمعي كلمة "الفحولة" أو "فحل" أو "الفحول" متأثراً بالبيئة البدوية التي عاش فيها فترة من الزمن، فالأصمعي لا يريد اللين للشاعر، بل القوة الشعرية، التي يجابه من خلالها كل من يعترضه، وكأني بالأصمعي أراد الرجولة الشعرية مرادفاً للفحولة الشعرية، والتي تصل إلى جودة السبك وحسن التحبير، وقوة اللفظ وملاءمته للمعنى، ورواية الأشعار والأخبار، ومعرفة العروض والنحو والأنساب، إنه يريد لصفة الفحولة أن تبقى صفة عزيزة، تعني التفرد الذي يتطلب غلبة صفة الشعر على الصفات الأخرى، وهذه الصفة قد تستدعي كماً معيناً من القصائد(1).
- لعل مقياس الفحولة النقدي الذي اعتمده الأصمعي، قد اعتمده غيره من النقاد من بعده، فابن سلام جعله الأساس الأول في التمييز بين الشعراء، "وقد وسع من حدود فكرة الأصمعي وأعاد صياغتها"(2). وبذلك أستطيع أن أجرؤ لأقول: بأن كتاب الأصمعي هذا هو أول كتاب نقدي مؤلف، وإن كان تناوله لموضوع النقد بطريقة أولية، وطريقة عرض أحكامه ومقاييسه هي طريقة بدائية، تعرض الأحكام بطريقة ذوقية شخصية غير معللة، وأن ما جاء بعده من المؤلفات قد ارتكزت عليه، وأخذت تطوره كما حصل مع ابن سلام وابن قتيبة والمرزباني، وابن رشيق وغيرهم، وبذلك

---

(1) أنظر: عباس، إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب.ص:38-41.
(2) نفسه، ص:68 .

يكون الأصمعي في كتابه "فحولة الشعراء" واضع اللبنة الأولى في بناء الصرح النقدي الشامخ الذي بني –وما يزال– حتى الآن يرتفع بنيانه سامقاً في عنان السماء النقدي.

- لقد أسميت بحثي هذا "الميزان النقدي في كتاب فحولة الشعراء للأصمعي"؛ لأنني وجدت الأصمعي قد جعله كالميزان من عدة زوايا، منها:

– قد ذكر الأصمعي مجموعة من المقاييس النقدية وزن من خلالها الشعراء الذين ذكرهم بميزانه النقدي، وأطلق عليهم أحكامه النقدية التي تناسبهم في رأيه.

– إن الأصمعي في معرض تصنيفه للشعراء نقدياً، أجده –على الأغلب– قد وازن بين كل صفة أو مقياس نقدي وآخر، وكأنه يضع الصفة الأولى في كفة ميزانه، ويضع الأخرى المقابلة لها في الكفة الأخرى، فمثلاً:

فحل	يقابلها:	ليس بفحل
فحل مع إضافة	يقابلها:	ليس بفحل مع إضافة.
المعيار الشرطي الأول	يقابلها:	المعيار الشرطي الثاني.
الجودة	يقابلها:	الحسن والتحبير.
ثبت وفصيح	يقابلها:	ليس بفصيح ولا حجة.
حجة	يقابلها:	ليس بفصيح ولا حجة.
حجة	يقابلها:	مفلق.
القدم	يقابلها	الحداثة.
أشعر الفرسان	يقابلها:	أشعر القبائل... وهكذا

– لقد كانت الأحكام النقدية التي ذكرها الأصمعي هي أحكام ذوقية شخصية في عدة مناسبات، ودون أن يربط بينها، على عكس من جاء بعده من النقاد.

– قد أكون تحدثت عن الشاعر الواحد في أكثر من موقع، وذلك بسبب أن الأصمعي يكون قد ذكره في أكثر من موقع، أو يكون قد أصدر عليه حكماً نقدياً يختلف عن حكم نقدي سابق، مما جعلني أضعه تحت المقياس الآخر مرة أخرى.

– إن المقاييس النقدية التي وضعتها في هذا البحث، والتي تم على أساسها تصنيف الشعراء، ما هي إلا محاولة لتجميع الشعراء ذوي الصفات النقدية المشتركة مع بعض، وذلك حتى يسهل التعرف عليهم، ودراستهم ضمن هذا المقياس النقدي أو ذاك.

– أهمل الأصمعي النساء الشاعرات، ولم يصدر أي حكم نقدي حولهن، مع العلم أن كثيراً من الشاعرات كان لهن حضور شعري قوي، كالخنساء وغيرها.

- أجد الأصمعي قد استخدم في ميزانه ما يسمى بالقدم والحداثة، وفضل الشعراء كالجاهليين مثلاً، وترك الحديث عن الإسلاميين، كما فعل مع شعراء النقائض عندما قال: "لو كانوا في الجاهلية كان لهم شأن، ولا أقول فيهم شيئاً؛ لأنهم إسلاميون"، وقال عن الأخطل: "لو أدرك الأخطل من الجاهلية يوماً واحداً ما قدمت عليه جاهلياً ولا إسلامياً"(1).
- أجد الأصمعي في بعض أحكامه النقدية قد تركها مبهمة دون توضيح، وذبك مثل حديثه عن شعراء المجموعة الثالثة من مقياسه الأول، أو عندما تحدث عن الشعراء السود في المقياس الرابع، أو غير ذلك.
- حاولت أن أعقد مقارنة بين ما قاله الأصمعي عن شعرائه، وما قاله الآخرون كأبي سلام وابن قتيبة وابن رشيق والمرزباني وابن شرف القيرواني والأصفهاني وغيرهم، حتى أتبين مدى صواب رأي الأصمعي وصدقه.
- من أكثر النقاد القدامى الذي كان الأصمعي يأنس لرأيهم هو أبو عمرو بن العلاء، حيث نجد مثل ذلك في صفحة (9، 13) في كتابه.
- أجد الأصمعي قد ترك لنا في كتابه هذا ثروة نقدية عظيمة، وقيمة كبرى من تاريخ تراثنا النقدي القديم.
- إن كتاب "فحولة الشعراء" للأصمعي، هو كتاب صغير مكون من اثنتي عشرة صفحة، ومع ذلك فإنه يحوي معلومات نقدية قيمة، مثلت أولية النقد الأدبي، وطفولة التأليف النقدي عند العرب.

المصادر والمراجع :

1. الأصفهاني، علي بن الحسين، (1997)، **كتاب الأغاني**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، ج11.
2. الأصمعي، عبد الملك بن قريب، (د.ت)، **كتاب فحولة الشعراء**، تحقيق المستشرق: ش. تورّي، قدم له: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان.
3. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك، (2000)، **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، ط1، شرح وتحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
4. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (د.ت)، **البيان والتبيين**،(د.ط)، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الجليل، بيروت..
5. ابن جعفر، قدامة، (1978)، **نقد الشعر**، ط3، تحقيق: كمال مصطفى.
6. الجمحي، محمد بن سلام، (1997)، **طبقات الشعراء**، ط1، حققه: عمر فاروق الطباع، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
7. حسين، طه، (1991)، **من تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي والعصر الإسلامي**، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ج1.
8. الحسين، قصي، 2008، **النقد الأدبي ومدارسه عند العرب**، (د.ط)، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
9. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (2006)، **مقدمة ابن خلدون**، (د.ط)، حققه وشرحه وضبطه: علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

(1) الأصمعي، عبد الملك بن قريب ، **كتاب فحولة الشعراء**، ص:13-12.

10. ابن خلّكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر، (1994)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، (د.ط)، دار صادر،بيروت، المجلد الثالث.
11. خليل، أحمد محمود، (1996)، **في النقد الجمالي، رؤية في الشعر الجاهلي**، ط1، دار الفكر، دمشق، سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.
12. الرباعي، عبد القادر، (2007)، **تحولات النقد الثقافي**، ط1، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
13. الزركلي، خير الدين، (1999)، **الأعلام**، ط14، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
14. السعافين، إبراهيم(وزميله)، (1994)، **مناهج تحليل النص الأدبي**، ط1، جامعة القدس المفتوحة، عمان، الأردن.
15. السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، (د.ت)، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ط3، دار التراث، القاهرة.
16. الصفار، ابتسام مرهون(وزميلها)، (2006)، **محاضرات في تاريخ النقد عند العرب**، (د.ط)، جهينة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
17. ضيف، شوقي، (د.ت)، **في النقد الأدبي**، ط2، دار المعارف.
18. العاكوب، عيسى علي، 1997، **التفكير النقدي عند العرب**، ط1، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت.
19. عباس، إحسان، (1993)، **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، ط2، دار الشروق، عمان.
20. عصفور، جابر، (1978)، **مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي**، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة.
21. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، (1984)، **الشعر والشعراء**، ط3، عالم الكتب، بيروت.
22. القط، عبد القادر، (1982)، **مفهوم الشعر عند العرب**، (د.ط)، ترجمة عبد الحميد القط، دار المعارف، القاهرة.
23. القيرواني، ابن شرف، (1983)، **رسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء**، ط1، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان.
24. القيرواني، الحسن بن رشيق، (2006)، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ط1، تحقيق:محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع للنشر والتوزيع، القاهرة.
25. المجالي، جهاد شاهر، (1985)، **مفهوم الطبقات في النقد العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، الجامعة الأردنية، رسالة ماجستير.
26. المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، (1995)، **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، ط1، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
27. مصطفى، إبراهيم(وزملاؤه)، (د.ت)، **المعجم الوسيط**، (د.ط)، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، إستانبول، تركيا.
28. ابن منظور، محمد بن مكرم، (1994)، **لسان العرب**، ط3، دار صادر، بيروت، لبنان.
29. ابن النديم، محمد بن أبي يعقوب إسحاق، (2002)، **الفهرست**، ط2، ضبطه وشرحه يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الهرمنيوطيقا (Herméneutique): من أحضان اللا هوت إلى فضاء التأويل
(مقاربة ابيستيمولوجية، تاريخية للمفهوم)

الأستاذ: مجاهد بوسكين
قسم اللّغة العربية وآدابها
جامعة معسكر

✓ **تقديم:**

لا يختلف اثنان أن الخلل الذي تعيشه الثقافة العربية بعامة ،والدرس النقدي بخاصة منذ اعتماد مفاهيم الحداثة الرنانة التي تمخضت عن الانفتاح الشامل على الآخر ، يتمثل في إشكال الزوبعة المعرفية التي تثيرها المصطلحات الأجنبية في ثقافتنا واشتغالاتنا النقدية ، حيث نجد تارة مدلولات متنوعة للمصطلح الأجنبي الواحد ،وتارة ترجمة حرفية للمصطلح ، وتارة أخرى استخدام نفس المصطلح في أغراض شتى ،ولقد تفاقم الأمر مع استمرار وتزايد وتيرة استيراد المصطلحات والانعطاف إلى توظيفها بشكل ملفت للانتباه في المقالات والمجلات والكتب وسوى ذلك. وهكذا اغتدت أزمة المصطلح في تصعيد مستمر في الساحة الثقافية العربية ، مكرسة فوضى اصطلاحية من جهة ، ومنتجة واقعا مرضيا من جهة ثانية ، باعتبار أن هذا الواقع أمسى ظاهرة تكرس التهجين الخطابي والخلط المعرفي على مستوى الدرس النقدي العربي وكذا على مستوى القراء، ونخص بالذكر هنا (القراء) الذين لا يستنكفون في ممارساتهم القراءاتية عن ترديد المصطلحات ترديدا آليا خاليا من الوعي، الذي يستكنه أغوار المنبت ويستقرأ الأبعاد والمرامي وما إلى ذلك.

ومن المفاهيم – على سبيل المثال لا الحصر– التي تطرح العديد من الأسئلة في هذا المضمار"مصطلح الهرمنيوطيقا"، نلفى جانبا منها يتعلق بالمصطلح في حد ذاته في ثقافته المصدر، وجانبا أخر يتعلق بتوظيفه الذي يأخذ مفاهيم متنوعة من حقل معرفي إلى أخر ، حيث يوظفه البعض مقابل التأويل،ويموضعه البعض مقابل التفسير، ويرى آخرون بأنه مجموع قواعد التأويل أو التفسير وليس المدلولان بعينهما، كما نجد كذلك من يعتبره نظرية الفهم أوالإدراك ...الخ، وهذا الزخم المفاهيمي لا يثير الغرابة فقط بل كثير التساؤلات ، لعل أهمها وأبرزها السؤال المحوري التالي:

"كيف لمصطلح واحد أن يستخدم في استعمالات واشتغالات شتى"؟ ؟

من هنا، أي بناءا على هذا التساؤل المشروع ارتأينا أن نخصص ورقة نتناول فيها بالدراسة والتحليل "الاصطلاح الهيرمنيوطيقي"في حيز دائرته المعرفية، ونفرد له–ولو في عجالة– هامشا عن الأصل والإرهاصات الأولى ، ورقة لاتروم الإحاطة بالأسئلة الجوهرية التي يطرحها المفهوم الهرمنيوطيقي بين القديم و الحديث، ولا التفصيل في المخاضات النظرية التي اعترته، بقدر ما تهدف إلى محاولة رصد المصطلح في كنف الأرضية التي انطلق منها أول الأمر ، وكذا المناخان الفلسفي والفكري اللذان ترعرع في

أحضانهما ، بغية الوقوف في البداية على ماهيته في الأصل مع المستخدمين الأوائل،ثم معرفة لاحقا كيف اكتسب هذا المصطلح حق المواطنة في الحقل الأدبي من زاوية؟ وأهم الأطر المرجعية التي جعلت منه مفهوما رنانا يوظف في المجال النقدي بترجمته الحرفية من زاوية أخرى؟؟

إن مصطلح الهرمنيوطيقا الذي شاع وذاع في بحوث ودراسات المهتمين بمجالات التلقي بصفة عامة، والباحثين في نظرية التلقي والتأويل المفتوح بصفة خاصة، هو مصطلح قديم ،تمت ترجمته كغيره من كثير المصطلحات الأجنبية ترجمة حرفية ،أو بالأحرى هو مصطلح معرب ،يعني في مفهومه –الذي تبلور منذ العام 1654- علم التأويل أو فن التأويل ، ويرى الكثير من الباحثين أن له جذوره ضاربة في الأعماق تمتد إلى التأويلات الرمزية (allégorie) التي خضعت لها أشعار هومر في القرن السادس قبل الميلاد ، ولكن مع ذلك يظل الثابت أن المصطلح استعمل أول ما استعمل في البيت اللاهوتي ، من طرف المهتمين بتأويل النصوص الدينية –الكتب المقدسة– الإنجيل والتوراة ، للإشارة إلى الآليات والطرائق القراءاتية المشروعة في دراسة النص المقدس ،التي ينبغي أن يلتزم بها كل مؤول في هذا النطاق. وبمعنى من المعاني انطلاقا من الوسط اللاهوتي تأسس اصطلاح الهرمنيوطيقا ، بنية الاضطلاع "بتكوين القواعد التي تحكم القراءة المشروعة للنص المقدس ،وكذلك حواشي و تفسيرات المعاني(exégèses) ، أي شروحات وتفسيرات المعاني الموجودة في النص وتحديد وجوه تطبيقها عمليا في الحياة"[(1)] من حيث الجانبين الواقعي والروحي.

وعند العودة إلى مباحث النقاد والمفكرين الغربيين الذين تدارسوا المفهوم الهرمنيوطيقي، نكاد لا نجد اختلاف بينهم حول منبت ومنشأ المصطلح ، حيث يتفق جميعهم على المشار إليه ، بيد أن ما لا اتفاق حوله يكمن في توظيف المصطلح من حيث الماهية ،ويكمن أيضا في زخم وتباين الرؤى النظرية التي تناولته.

فعلى المستوى الأول – بتقدير حامد أبو زيد– الهرمنيوطيقا انطلاقا من مدلول المنشأ "تختلف عن التفسير الذي يشير إليه المصطلح(exégèses)،على اعتبار أن هذا الأخير يشير إلى التفسير نفسه في تفاصيله التطبيقية ، بينما يشير المصطلح الأول إلى نظرية التفسير"[(2)]، ويعد هذا من الإشكالات التي تطرح على صعيد الإجراء في النقدين الغربي والعربي لمفردة الهرمنيوطيقا.

أما على المستوى الثاني ، فإننا نلفى زخم من الرؤى والتنظيرات المتباينة حول مسألة الهرمنيوطيقا .

- فلقد عرفها شيلر ماخر بأنها:"فن امتلاك الشروط الضرورية للفهم"[(3)]
- وذهب جورج غوسدروف إلى اعتبارها:"ذات أصول دينية أملتها الحاجة إلى تأويل النصوص الدينية"
- وبرؤية أخرى قدم فيلهيلم ديلتاي الهرمنيوطيقا:"على أنها منحى معرفي ينهض بتحليل وتأويل أشكال الكتابة في العلوم الإنسانية"،معتبرا أن "الهرمنيوطيقا تهدف إلى تأسيس نظرية عامة للإدراك والفهم"[(4)]
- بينما اعتبرها "هانز جورج غادمير":(وإن طور مفهومه لاحقا) بأنها "تنهض بعملية الكشف وبتقنيات خاصة عن المعنى الأصلي في كلا التقليدين: الأدب الإنساني والتوراة"[(5)]

وإذا كان هذا الفريق من الباحثين ربط الهرمنيوطيقا بالتفسير أو التأويل أو الفهم ، فإننا نعثر على فريق أخر حاول وصلها بجوانب أخرى ، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر ،أننا نلفى "مارتن هيدغر""يقيم الهرمنيوطيقا على أساس فلسفي ، أو يقيم الفلسفة على أساس هرمنيوطيقي"[(6)] وحسب حامد أبو زيد كلا العبارتين صحيح طالما أن الفلسفة هي فهم الوجود وأن الفهم هو أساس الفلسفة وجوهر الوجود في نفس الوقت.

وعموما ليست هذه المفاهيم التي رصدناها إلا غيض من فيض الأوجه والآراء المتشعبة، التي تدارست سؤال الهرمنيوطيقا،وطبعا لا المقام ولا حيز الورقة يسعانا للحديث عن جميعهم ، ولذلك سنكتفي بتسليط الضوء على أبرز الأعلام الأوائل الذين تجاذبوا المفهوم على مراحل متلاحقة، لنتعرف في آخر المطاف على أطوار المخاض الهرمنيوطيقي وما انتهى إليه.

-الهرمنيوطيقا"مقاربة إيبستيمولوجية":

يذهب الغالب الأعم من المترجمين والنقاد إلى أن الهرمنيوطيقا هي "علم التأويل "أو التأويلية، أو نظرية التأويل، وأن المنبت الأول للمصطلح يوناني خالص،كان يعبر عنه بـ (Hermeneuein) الذي معناه الترجمة، أو نقل دلالة أو تفسير شيء من لغة إلى أخرى في سياق تشفيري معين، بغاية الفهم والاستيضاح والاستبيان .

ومن هذا المنطلق أصبح – فيما بعد- اصطلاح (Herméneutique) وبصفة شاملة "يشير إلى تفسير الإشارات النصية، باعتبارها عناصر رمزية معبرة عن النص وعن الحضارة التي نشأ أو ظهر فيها "[7]، وشاع بهذا المفهوم في مباحث ودراسات الفلاسفة ورواد النقد، الذين اشتغلوا في حقل القراءة والتلقي الأدبي.

ولدى الارتداد إلى أصل المفردة (الهرمنيوطيقا) ، نلفى الأساطير اليونانية تكشف أن(Hermes) أي (الإله) هو إله تفسير رسائل الآلهة للبشر، ويجري الاعتقاد أنه نظير هذه العلاقة، ارتبط المنشأ الأول للهرمنيوطيقا كحقل معرفي بتأويل الكتب المقدسة، ومن ثم تخندق في مضمار فقه اللغة. وتشير الدراسات الغربية في هذا المضمار ، أن الصورة الأولى التي تمظهرت عليها الهرمنيوطيقا كنشاط يضطلع بتفسير النصوص وشرحها كان مع الرواقية ، وكان ينهض بما يعرف بالقراءة المجازية التي وجهت اهتماماتها في هذه المرحلة المتقدمة من التاريخ إلى فهم المعنى المستتير في الأساطير الهوميرسية (جهود اليونانين في فهم الملاحم الهوميرية) ، متقصدة البحث عن النية المبيتة للمؤلفين والمقاصد التي يضمرونها في ثنايا ابداعاتهم غير مكترثة بالجانبين القواعدي والبلاغي في النصوص.[8]

ومن ثم ،فإن المصطلح وإن ظهر أول الأمر باليونان فإنه تلقى الرعاية والاحتضان بالكنيسة، ذلك أن الجدل الذي احتدم بين الكاثوليك والبروتستانت حول تفسير الكتاب المقدس، وما نتج عنه من نقاش مستفيض خلص بكل طرف إلى وضع معايير وطرائق نظرية إجرائية بغية ضبط إواليات الفهم والتأويل، وشكل هذا العمل في حقيقة الأمر اللبنات الأولى التي انطلقت منها الهرمنيوطيقا. [9]، وباتساع رقعة البحث عن تأويل ناجع للكتب المقدسة، انبرى أنموذجان اثنان للقيام بهذا الأمر هما (الهرمنيوطيقا اللاهوتية لآباء الكنيسة) و(هرمنيوطيقا عهد الإصلاح)، اللذان أفضى تعاطيهما مع الكتاب المقدس في تاريخ الثقافة الأوربية إلى بلورة رؤيا للتأويل -**الهرمنيوطيقا**- ولكن ظلت مرتبطة بفكرة الكتاب،التي تفترض مفهوما لاهوتيا ،مؤداه أن العمل تسيطر عليه سلطة مبدعه ، الذي يتضمن وحده معناه ، ولقد كان لهذا المفهوم طابع نفسي للتأويل عنى أيما عناية (بواقعة الكلمة)، التي تحضى لديها الواقعة بشرف الواقعة الكلامية بامتياز ،وهذه الواقعة الكلامية –باعتقاد اللاهوتيين–هي الرسالة المبلغة، التي هي بشارة الرسل ،ويتحقق معنى الواقعة الأصيلة أمام ذاته في الواقعة الحاضرة التي نمارسها على أنفسنا في فعل الإيمان.[10]

غير أن هذه الجهود –حسب غادامير-" لم تكن لتفضي إلى نتيجة، لأنها لم تعد أسلوبا يرشد ممارسة الناقد أو اللاهوتي، ومن ثم كان لابد من نقل المصطلح من دائرة الاستخدام اللاهوتي ليكون "علما" أو فنا لعملية الفهم وشروطها في تحليل النصوص، ويعود إلى فريدريش شيلر ماخر (friedrich Schleiermacher) الأولوية في هذا".[11]

وعلى هذا النحو من نافل القول أن الهرمنيوطيقا لم تتضح معالمها من زوايا الماهية والخصوصية، إلا بعد خروجها من فضاء اللاهوت إلى فضاء التأويل، وبالضبط في الفترة التي تجاذبها من حيث المفهوم، فلاسفة ومفكرين، أدلى كلا منهم بدلوه وساهم كل واحد بقسطه في بلورة مجال اشتغالها برؤيته الخاصة، ويمكن تصنيف هؤلاء على النحو التالي.

1- فريديريش شيلرماخر(f, Schleiermacher) (1768-1834) :

يصنف هذا المفكر من ضمن الأوائل الذين سعوا إلى تأسيس ميدان معرفي للتأويل، يشتغل خارج نطاق النصوص الدينية وغير محتكر من طرف الكنيسة، ولأنه كان يدرك أن تحقيق هذا يعني تقديم الإضافة اصطنع اصطلاحا جديدا، سماه "الدائرة الهرمنيوطيقية"(hermeneutique circle)، وقصد بها أن البعض فيما ينتمي إليه، لا يدرك على حقيقته المفهومية بوعي تام، إلا في إطار الكل، والشأن إياه ينطبق على هذا الأخير (أي الكل) في شكل علاقة ديالكيتيكية.

ومن ذلك: أن معنى المفردة يتشكل تبعا للتركيب الجملي الذي تنتمي إليه، والتي هي منه جزء من كل، وبعلاقة جدلية الأمر ذاته ينطلي على الجملة، التي لا يكمن استيعابها بأي حال من الأحوال إلا في دائرة ما يؤثثها من كلمات.

بناءا على هذا أقام (فريديريش شيلرماخر) تصورا مؤداه بأن الفهم هو نتاج التعالق العضوي، -أو دينامية هذا التعالق- الكامن مابين (البعض والكل) ،أي بداخل (الدائرة الهرمنيوطيقية) ، التي على منوالها فقط يتحدد إدراك الأشياء واستلهامها.

ولقد تركت هذه الرؤية انطباعا حسنا ووجدت لها صدى في أوساط الحقول المعرفية التي كانت بحاجة إلى قيم إجرائية بخصوص التأويل أثناء القرن التاسع عشر، فسادت كنظرية تأويل جديدة في محيط المفكرين، وكان هذا حافزا آخر لفريديريش شيلر ماخر دفعه إلى الارتقاء بمباحثة وتوسيع دائرتها، وذلك بالانتقال من الاضطلاع بالأعمال الأدبية واستنطاق مضامينها، إلى الاضطلاع بتدارس الفعل الذي يمثل بؤرة تفتق التأويلات أو مركز إشعاعها، وبعبارة أوفى، التحول من إيلاء العناية والاحتفال بعنصر (الموضوع) الذي يسقط عليه التطبيق إلى التركيز على مركز النشاط التأويلي نفسه، أي المركز الذي يشرف على بث المعارف التأويلية، وانتهى به هذا إلى اعتبار أن الفهم على علاقة عضوية وظيفية مع التأويل لا حدود لها[12]، بناءً عليه انتقل شلير ماخر إلى مرحلة جديدة ، قام فيها بتفعيل حيز اشتغال نظريته ، فأصبحت تشتمل على شكلين من الهرمنيوطيقا:

- **الشكل الأول**: هوتأويل نحوي صرف(هرمنيوطيقا نحوية) يختص باستقراء الدلالة الأساسية للكلمات (مستوى سيمنطيقي).
- **الشكل الثاني**: تأويل جمالي (هرمنيوطيقا جمالية)، يتخطى حدود اللغة إلى استكناه ذاتية المؤلف، وهذا الشكل ذو طابع تكهني، ويأتي في صميم الفعل الهرمنيوطيقي عند شيلرماخر.

ولكن ما عيب على هذا الطرح، هو الكيفية التي يستقيم بها على مستوى الاشتغال، أو بمعنى آخرإذا كان الإجراء الأول معقولا فان الثاني يحمل في طياته مبالغة ما بعدها مبالغة، ففي زعم هذا المفكر أنه بوسع الهرمنيوطيقا بهذا التصور، أن تحقق إدراكا شاملا عن أي كاتب ينتمي إلى الماضي العميق أكثر من وعي هذا الكاتب لذاته، والسبب في ذلك حسبه، هو أنه يمكن موضعة هذا الكاتب تحت مجهر سياق تاريخي أنصع وأظهر من الذي كان متوافرا في العهد الخالي،ونتيجة لهذه المغالاة بقدر ما استقطبت هذه النظرية الأنظار أول الأمر بقدر ما جعلت الكثيرين ينفضون من حولها فيما بعد.

2- فيلهيلم ديلتاي(wilhelmdilthey 1833-1911) :

منذ البدء سعى ديلتاي إلى موضعة الهرمنيوطيقا في الدائرة الفلسفية، ولكي يصيب الهدف على أكمل وجه، ذهب مستثمرا أفكار شيلر ماخر الهرمنيوطيقية إلى تحديد الميادين المعرفية، فصنف حقل العلوم الإنسانية على حدى، وحقل العلوم الطبيعية على حدى[13]، وألحق في هذا المضمار الفهم بالحقل الأول والتفسير بالثاني، معتبرا أن العلوم الإنسانية بمختلف صنوفها تعتمد على الفعل الهرمنيوطيقي لأن دينامية اشتغالها تدور في فلك (التأويل)، الذي يمثل طريق العبور لديها إلى إدراك أشكال التعبير الإنسانية، حيث يقتضي فهم الإنسان فهم مجمل الحركات والصيغ المعبر عنها ثقافيا، ومن ذلك أساليب التعامل والتواصل وكذا الطرائق الفنية، وسوى ذلك، أي كل ما يدخل تحت مظلة الثقافة التاريخية الإنسانية، لا فقط ما يقع على كاهل النصوص، أو ما تضمره في ثناياها.

وبتقديره ،الباحث في العلوم الإنسانية يعد جزء لا يتجزأ من بحثه فما ينجزه عن الآخرين من الدراسات، يعنيه كغيره، في حين يقتضي فهم الإنسان في البحث العلمي في الميدان الطبيعي التواجد الإنساني بالضرورة .

على هذا الأساس اعتبر ديلتاي، أن إواليات الفهم تنبني في ضوء ولوج الذات الباحثة إلى أغوار الذات المبدعة، عبر فعل إسقاط الأولى في وعي الثانية المبدعة أو المنتجة، ويتسنى ذلك باستقبال واستقراء ما أصطلح عليه بـ"العقل الموضوعي ".والذي يعني استقبال أشكال وصيغ التعبيرات الإنسانية الثقافية بطريقة، يعتمد أسلوب التلقي فيها، الانطلاق من هذه الحقائق كمعطيات تفسيرية ، لينتهي عند "الخبرات المعاشة" لصاحب الإنتاج (المؤلف) [14]، وبهذه العملية يتقمص الفعل الهرمنيوطيقي النمط القراءاتي الذي يضطلع به علم النفس التأملي، الذي لا يكتفي بما يقدمه الإبداع الأدبي، وينصرف إلى الظاهرة الخبراتية للمنتج ذاته.

ولكن لكون الافتراض دائما شيء والإجراء شيء آخر ،خصوصا إذا تعلق الأمر بتطبيق صعب المنال، يتمثل في تجسيد "التجربة الذاتية " لشخص المبدع بصفة خاصة وتجربة العقل الموضوعي بصفة عامة على شكل موضوع حتى يتاح إدراكه، أو العكس إدراك ذواتنا من خلاله،كشف ديلتاي، بأن فكرة الصيغ التعبيرية بما تنطوي عليه من أساليب فنية، وممارسات اجتماعية وسلوكات وأعمال أدبية وسوى ذلك، هي الكفيل بتحقيق الغرض، ففي افتراضاته أن هذه الصيغ المعبر بها – على ما ذكرناه – هي التي تسم التجربة الموضوعية، وهي التي تفسح أمامها منافذ الخروج من عالم الذاتية أي "التجربة الجوانية المعاشة" إلى العالم البراني الموضوعي، الذي يتيح سبل المساهمة والانخراط فيه.

وفي هذا الشأن أكد ديلتاي أيما تأكيد، أن جملة ما تسفر عنه "التجارب الجوانية " للمبدعين أو (المنتجين ككل) من تعابير ليس بالمرة نتاجا عفويا، أو مجرد استرسال عابر أو عاطفي أو شيء من هذا القبيل، وإنما تجسيم موضوعي (objectification) للخطوط والأبعاد المتشرذية، والمتباينة للتجارب إياها، في صور ملتئمة الأجزاء.

ومنطق هذا التجسيم أو التمثيل الموضوعي للتجربة هو الذي يمنح العلوم الإنسانية والاجتماعية غطاء الموضوعية وينأى بها عن الذاتية، على اعتبار أن "التعبير الموضوعي" في حقيقته لا يحمل في ثناياه فقط الجانب الذاتي الجواني للمبدع، أو يكتفي ببث هذا، بل على النقيض من ذلك كله، فطبيعة تشاكل الذات الموضوعي – على ما سبقت الإشارة إليه –، تنزاح بهذا الجانب عن الخانة الذاتية،كونها تتبلور في كنف قناة موضوعية هي اللغة في مواضع التعبير الأدبي (الكتابة الأدبية)، وهو ما معناه تجسيد تعبيري لانشغالات عامة أو تجربة حياة أو ما شابه ذلك[15].

إن الفكرة التي أراد أن يسوق لها ديلتاي، ويبحث لها عن أجرأة ناجعة في خضم مشروعه، هي أن هناك تعالقا عضويا واتحادا وطيدا مابين "الفهم والتأويل"، وعليه بنظره فإن استيعاب "الإنسان المبدع" بصورة واضحة يقتضي القيام بفعلين متتابعين ومتوازيين في إطار نشاط متناسق

- أحدهما: تأويل الأفعال

- والأخر: تأويل الكتابة الإبداعية

لأن المسعى المتوخى من الهرمنيوطيقا- يقول ديلتاي مكررا عبارة شيلر ماخر الشهيرة – هو: "الفهم الجيد للمؤلف أكثر مما يفهم نفسه "[16]ومنطق ذلك -يضيف- أنها تنطوي على عنصر لا يقاس بقاعدة هو التكهن (Divination) [17]، استنادا عليه وعلى المعطيات النصية، تستطيع الهرمنيوطيقا أن تحقق طفرة نوعية، وإحداث فضاء إيبستيمولوجي ونظري عام لإواليات الفهم ومقتضياتها ومتطلباتها، وذلك من خلال وعي جزئيات وعناصر "التجربة الجوانية"، الذي يتحقق عبر مضمار تأويل الكتابات الإبداعية، هذه الأخيرة التي تنام على نماذج فريدة، وحية لأشكال تجارب وحيواة داخلية، ويكون بهذا المفهوم، المراد أسمى من بلوغ تأويل نصوصي إلى استلهام، حيثيات حيواة، واستنطاق تجارب موجودة بها، تم رصدها والتقاطها وتمثلها في نسخة أخرى، أخرجتها من الدائرة الذاتية إلى الدائرة الخارجية الموضوعية، قناة مشتركة هي اللّغة.[18]

3-الهرمنيو طيقا وتنظيرات هانس جورج جادامير(**hans Gorg Gadamer**) (1900-2002) :

يعد المفكر والناقد الأدبي "هانز جورج جادامير" (hansgorggadamer)، من أبرز أعلام الاتجاه الهرمنيوطيقي الذي عنى أفراده بقضايا التأويل، والفهم، وتدارس الكيفيات التي تتعامل بها النصوص، وطرائق إعادة إنتاج المعنى وبناءه . وتفرد "جادامير " عمن سواه، لأنه سعى منذ البدء إلى تدارك نقائص سابقيه من خلال مراجعة الفجوات التي تركوها، فقدم أعمالا مثيرة فتحت نافذة على عوالم التأويل لم تغلق إلى يومنا هذا، أفاد منها الكثير وعلى الأخص منهم رواد جمالية التلقي. ولقد ساعده على ذلك استفادته من قطبين هامين من أقطاب الفكر القراءاتي، الذي انصبت اهتماماته على الظاهرة الأدبية.

أحدهما يحسب على الاتجاه الهرمنيوطيقي هو ديلتاي والآخر يحسب على الاتجاه الفينومينولوجي وهو أستاذه هيدجر، فالأول شكل أحد مصادر فلسفته، الذي استلهم منه الكثير، ولذا نعثر عليه يتقاطع معه في نظريته المركزية، وبالتحديد في مسألة "معرفة الأنا في الأنت" التي تنص، على أن فهم الآخر يتعين تبعا لفهمنا[19]، أي بإسقاط الإنسان لذاته داخل وعي الآخر المبدع، ومن ثم الشعور بانعكاس التجربة.

والثاني تتلمذ على يده "جادامير"، فتأثر بطروحاته بالغ الأثر، وخاصة فيما يتعلق بالتعديلات التي كان أجراها (هيدجر) على أفكار أستاذه "هوسرل"، تلك التعديلات التي طرحت مسألة القارئ والتأويل، على طاولة النقاش الفلسفي، وتجسدت في فكرتين أساسيتين، وجد فيهما "جادامير " ضالته ومبتغاة فقام بأجرأتهما على العمل الأدبي.

تتمثل الفكرة الأولى في إشكالية الموضوعية التي كانت تعني مع "هوسرل"، أن المنوط بموضوع البحث الفلسفي هو الإحاطة بما يوجد بداخل الوعي لا المحسوسات الخارجية المادية، كون دلالة الموضوع تتشكل حال ما تصبح الظاهرة دلالة خالصة في الوعي، أي أن ما يتراءى أمام الوعي هو الحقيقة بعينها. وهذا المفهوم تجاوزه هيدجر بعد أن وجده لا يستقيم إجرائيا، وأسس مكانه قاعدة بديلة مؤداها، أن التفكير الإنساني لا يخلو البتة من موقف لأنه "تفكير تاريخي داخلي – أي بالمعنى الشخصي – لا التاريخ الخارجي ".[20]

أما الفكرة الثانية التي وجدت لها صدى عند جادامير، "فترتبط بتحليل الطبيعة التاريخية لعمليات الفهم الأدبي، حيث يرى هيدجر أن الفهم هو الطابع الأصيل لوجود الحياة الإنسانية ذاتها، وأن الإنسان في إطار إعادته التفكير في مسألة الوجود استطاع أن ينتقد احتكار العلم لمعرفة الحقيقة ".[21]

وشكلت هذه الأفكار والمعارف، حجر الأساس الذي انطلق منه جادامير، باعثا نفسا جديدا في الهرمنيوطيقا الفلسفية (philosophies hermeneutique)، إذ زيادة على إواليتي التأويل والفهم، أضاف عامل الحوار، لتصبح العملية الهرمنيوطيقية تعتمد على ثلاثة عناصر أساسية، تتعالق مع بعضها البعض تعالقا جدليا وثيقا هي : (التفسير والفهم والحوار).

وكشف في هذا المقام، بأن كل عنصر من المجموعة، يستلزم الآخر دياليكتيكيا كيف ما كانت الأحوال، فإذا مثلت الهرمنيوطيقا منهجا يتوخى التأويل، فإن هذا الأخير أيضا لا سبيل له إلى المبتغى إلا عن طريق الفهم والحوار. ذلك أن التفسير "هو محاولة من الاغتراب نستشعرها إزاء موضوع ما لكونه غير مفهوم بالنسبة لنا، وبالتالي لا نشعر بنوع من الألفة والتواصل معه...وهذا يعني أن التفسير يتطلب دائما الفهم وينطوي عليه بالضرورة، ولكن الفهم بدوره لا يمكن أن يكون فهما حقا إلا من خلال حوار، فالفهم لا يمكن أن يتحقق من خلال نزعة منهجية تحاول فيها الذات الاستحواذ على الموضوع وإخضاعه لقواعد منهجية"[22]، وإنما عبر مساءلة الموضوع أو الأنا من قبل الذات، بدينامية حوارية تتوسم الوصول إلى اتفاق، أي إلى شيء مشترك نشعر معه بالألفة[23].

وتطالعنا هذه المرامي بأن جادامير لم يخرج عن التصورات المعرفية لأستاذه هيدجر، وعلى الأقل في المبدأ الهرمنيوطيقي الذي يرجح كفة العمل الأدبي على القصدية المنوطة بمنتجه في باب الاهتمامات التفسيرية، ودليل ذلك أن النظرية التي يعتمدها تنطلق من مواطن اغتراب شعورية لتنتهي عند مواطن تواءم أو توافق شعورية .

أما عن الكيفية الإجرائية، أو السبيل إلى تأويل عمل تراثي ينتمي إلى سياق سوسيو ثقافي معين وآخر تاريخي، بمنطق حداثي يتيح أطر لتلقيه والتواصل بمعيته – وينسحب هذا على باقي الموروثات الفنية، وأشكال التثاقف– فيجيب مهندس التأويل الأول: بأن بحث الفعل الهرمنيوطيقي، ليس من اهتماماته، تصيد معنى (عن عمل ما) لجمهوره الأول، الذي عايش فترة خروجه أو لمنتجه، بل ينصب على كشف مضامينه وملابساته للجمهور المعاصر، وهذا لأن طبيعة الفهم الذي تتبناه الهرمنيوطيقا هو في حقيقته ثمرة حوار فعال يتم بين طرفين أساسيين هما الراهن الآني، والعهد الماضي لحظة انصهار الآفاق (fusion des horizons) بينهما.[24]، أي أنه يستحيل أن يحدث "تحقق (للفهم) وبالتالي (التأويل) خارج زمانية الكائن التي تسمح باندماج الأفق الحاضر بالأفق الماضي، فتعطي للحاضر بعدا يتجاوز المباشرة الآنية ويصلها بالماضي، وتمنح الماضي قيمة حضورية راهنة تجعلها قابلة للفهم".[25]

وبالتالي فنتاج انصهار الآفاق هو الفهم الهرمنيوطيقي المتوخى ،الذي يجسد "فعل فهم الذات"، باعتباره يقدم خلاصة عن تاريخنا المعاصر، وفي نفس الوقت خلاصة عن ما يستلهمه من الماضي العتيق.

إنّ "العمل الأدبي لا يخرج إلى العالم بوصفه حزمة منجزة مكتملة التصنيف بمعنى، فالمعنى يعتمد على الموقف التاريخي لمن يقوم بتفسير هذا العمل ...كما أن كل تفسير لأدب الماضي ينبع من حوار بين الماضي والحاضر، وأن محاولاتنا لفهم عمل من الأعمال الأدبية، إنما تعتمد على الأسئلة التي يسمح لنا مناخنا الثقافي الخاص بتوجيهها"[26]، وعلى ما يمكن بطريقة عكسية أن تستنطقه من أسئلة أخرى كان النص إياه يريد الإجابة عنها في حواره المميز بمعية التاريخ.

وإذا فإن الواجب أمام هذه القضايا التي يثيرها فعل التأويل –بمنطق جادامر–، هو إخضاع الزمن الغابر لمعايير الفهم الخاصة بالذات، مادامت هذه الذات وراهنها لا يقطعان حبل الصلة بالماضي، ومادام أيضا فهم الماضي هو الآخر لا يتحقق إلا في ضوء الحقائق الجزئية الموجودة في الحاضر الآني .

وبمنظور جادامير، فإن الرهان معقود على النظرية الهرمنيوطيقة في هذا الصدد، حتى وإن بدت إشكالية إدراك الماضي أو إحراز فكرة ذات صلة بالتاريخ من الناحية الإجرائية على درجة من التعقيد والصعوبة بما كان. ومرد ذلك – بتقديره – أنّ الهرمنيوطيقا تطرح مسألة الفهم، في نقطة تقاطع اندماج الأفق الحاضر بالأفق الماضي، وهو الاندماج أو الانصهار الذي يمنح للحاضر مساحة للتحرك، تتخطى القصدية الراهنية وتربط التواصل مع الماضي، فاسحة لهذا الأخير مكانة للتواجد في الحاضر يتلقفها الفهم للتو ويمسك بها.(27)

– جادامير "وفرضية الأفق التاريخي":

توج جادامير فرضياته حول أبجديات التأويل بصفة عامة، وتفسير الأعمال الأدبية بصفة خاصة في كتابه "الحقيقة والمنهج"، (vérité et Méthode) بطرح اصطلاح إجرائي تمثل في "الأفق التاريخي"، واعترف في هذا الشأن، بأن لهذا الاصطلاح جذور في الفلسفة الألمانية وبالذات عند كل من "هوسلر"و"هيدجر"، ولكن بمعيته أصبح له مفهوما آخر فحواه، "مساحة الرؤية التي تتضمن كل ما يمكن النظر إليه من موقع ما"(28)، وبرنامج اشتغاله تفسير التاريخ بغية تحقيق الفهم، عن طريق تجسير الهوة بين الزمن الغابر والعهد الآني، وكذا مقاربة المعاني و وجهات النظر، عملا بالقاعدة الثابتة، من أن القارئ يستحيل أن ينتزع ذاته من المعارف الجاهزة والحقائق المستقرة في محيطه الثقافي.

ولقد فتح جادامر بهذا المصطلح النظري – القديم الجديد – نافذة التأويل على سجّلات التاريخ، بما تنطوي عليه من أفكار سابقة، وإدراكات وخبرات، التي برأيه لامناص من الأخذ بها إذا ما توخينا فهما شاملا وكاملا. وذلك لأنه لا يمكن أن تقرأ النصوص القديمة إلا في سياق الأفق الذي تتكون فيه رؤيتنا، وأيضا الأفق الموازي التاريخي الذي أنتجت في حقبه الزمنية هذه الأعمال وأحتضن قراءتها.

وهكذا اقتفى جادامير خطى أستاذه هيدجر، بتوجهه عكس المنهجية العلمية، وربطه فعل الفهم بالمواقف المنصرمة والمنجز التاريخي(29)، والتمايزات المستقرة في الحقل الثقافي وما إلى ذلك، وهي القيم التي تلغي إجرائيا ثبات التفسيرات الأولى للنصوص أو كمالها أو نهائيتها، باعتبار أن هذه النصوص، أثناء عمليات التداول التأويلية المختلفة التي تطرقها على مر العصور، تكتسب تاريخا من المعاني، مما يجعل إمكانات الفهم – باعتقاد جادامير– تلتصق التصاقا وثيقا "بالتراث ذاته الذي يتجسد بشكل أساسي في الأعمال الفنية والمؤسسات واللغة على نحو خاص"(30)، و وفق هذا فإنه في حال تجاوز النص الذي نتقصد تأويله التراث الذي يؤسس أعمالنا وخبراتنا، "فإن مشاكل خطيرة تبرز فيما يتعلق بفهم العمل على نحو أصيل إذ يبقى غريبا عنا، ويقترن هذا الفهم الأصيل شرطيا بتمثلنا للتراث والثقافة اللذين يكتنفاننا (واللذين نتمثل) الكثير منهما على نحو سلبي".(31)

وعلى هذا الأساس، فإن الفعل الذي ينبغي أن تنهض به القراءة في ظل الهرمنيوطيقا هو مهمة تجسير الفجوة بين الأصالة والمعاصرة، ووصل التراث بالحداثة، حتى يتسنى الوقوف على معاني الأعمال الأدبية وكيفيات تحولها عبر التاريخ، وبالمقابل الإمساك بالمعايير التأويلية وطرائق اشتغالها، ومن ثم موضعة قابلية للفهم.

ولما كان هذا الفعل، فعلا إجرائيا بالدرجة الأولى، يخضع في افتراضات جادامر الأساسية لثلاث وحدات متلازمة هي "الفهم والتفسير والتطبيق"، أقر بهذا الخصوص بأن العلامة وفي معظم الأحوال تظل منعزلة، لا تستطيع أن تفي بغرض المعنى، ولذلك يتطلب الأمر فعالية الذات المدركة أو العقل الواعي بإيحاءات وإحالات العلامة، لأن هذه الأخيرة في تفاصيلها الدقيقة مجرد أداة تحيل على مرجعية معينة يشتغل عليها العقل، بمسعى إدراكها واستلهامها .

وتأسيا بهذا، وكون اللغة تحتل مرتبة الريادة في تمثل التراث، وكونها كذلك تحيل على الكينونة، فإنها –بمنطقه- تعد الخيط المؤثث لنسيج الفهم، والميكانيزم الموجه لعمليات الإدراك.

وبشكل عام فإنه وبالرغم من الأشواط الجبارة ،التي قطعتها أطروحات جادامر في صياغة أبعاد نظرية للعملية التأويلية ،إلا أنها اعتبرت من قبل البعض ناقصة ، نظرا لاقتصارها على الإعادة والإثراء وعدم إتيانها بالجديد ،ولقد لخص ذلك روبرت هولب في قوله:

بأنها إفتراضات "طرحت الهرمنيوطيقا لا من أجل تقديم منهج جديد أفضل، بل من أجل المنهجية وعلاقتها بالحقيقة"(32)، أي انبرت كاتجاه معرفي تقويمي، يضطلع بترقيع المسائل النظرية، أو بعبارة أشمل يدخل في نطاق نقد النقد ويعمل على خرق الحدود المنهجية التي تصطنعها النظريات التي تدعي القطعية والنهائية، والحقيقة الموضوعية واحتكار المعرفة، وهذا الاتجاه بوصف هولب : "محاولة للوصل بين الفلسفة والعلم عن طريق [تجاوز] أفق الاهتمام المحدود للمنهجية العلمية النظرية".(33)

ولكن مع هذا وذاك لا يسعنا إلا القول بأن جادامير هو من رسم وحدد – وبما لا يختلف عليه اثنان- المعالم الأرضية للفكر الهرمنيوطيقي، التي انطلقت منها فيما بعد مدرسة (كونستانس) الألمانية وعلى الأخص "هانس روبيرت ياوس".

الخاتمة:

لعل أهم تصور يطالعنا به مفهوم الهرمنيوطيقا في شكله العام،أنه مفهوم زئبقي – إن استقام التعبير- يتمدد ويتقلص حسب التوظيف والاستخدام ،ويعود هذا في الأساس للتجاذبات التي طالته على مراحل متتابعة من طرف عديد الفلاسفة والمفكرين،والتي كان نتاجها حقيقة جوهرية،هي**"واحدية المصطلح وتعدد المفاهيم"** ،وبأكثر توضيح يمكن إيجاز مخاضات المفهوم الهرمنيوطيقي في النقاط الأساسية التالية:

أولا:إن الهرمنيوطيقا نبتت في أحضان اللاهوت وسط دائرة مغلقة ،ولقد كان اهتمامها مقتصرا على تفسير النص المقدس، ولكن انتقلت بعد ذلك إلى فضاءات أرحب وأكثر اتساعا شملت مختلف الحقول المعرفية للعلوم الإنسانية كالتاريخ ، وعلم الاجتماع ، والأنتربولوجيا، وفلسفة الجمال، والنقد الأدبي، والفلكلور... وما إلى ذلك.

ثانيا: إن غاية الهرمنيوطيقا وفق الرؤى الغربية الحديثة ،تتجه صوب إحراز إمكانية لفهم الذات لذاتها بماهي عليه في الوجود، ولذلك اعتبر بول ريكور تأويل الرمزية بأنه لايستقيم هرمنيوطيقيا إلابموضعته كجزء لايتجزأ من فهم الذات لذاتها،ومن فهم الوجود ،أي أنه لايعني شيئا بعيدا عن العمل الذي يتوخى امتلاك المعنى.

ثالثا: إذا كان مصطلح الهرمنيوطيقا هو باختصار نظرية التأويل وممارسته ،فانه لاحدود تؤطر هذا المصطلح سوى البحث عن المعنى والحاجة إلى توضيحه وتفسيره ،كما لا تقتصر الهرمنيوطيقا على التأويل الأدبي ،ولا توجد مدرسة هرمنيوطيقية معينة ، ولا يوجد ما يمكن أن يطلق عليه صفة الهرمنيوطيقية،ولاهي كذلك منهج تأويلي له صفاته وقواعده الخاصة ، أو نظرية منضمة.

رابعا: تأتي الهرمنيوطيقا في المخاضات الفلسفية الاجتماعية مرادفة للتخصص ،"الذي يعنى بتقصي السلوك والأقوال والمؤسسات الإنسانية وتأويلها على أنها أمور غائبة بالضرورة ،ومن هنا أخذت الهرمنيوطيقا منحى البحث عن غاية الوجود الإنساني في الفلسفة الوجودية (الانطولوجية/هيدغر).

ومن الملاحظات كذلك التي تواجهنا بها، محطات تشكل المفهوم الهرمنيوطيقي، هي ذلك الاحتفال البالغ بفعل الفهم وميكانيزمات هذا الأخير، والبحث المستمر عن أفق من شأنه أن يتشاكل كفرع علمي ليحتضن الفكر والإبداعات بنفس الطريقة التي تحتضن بها المعارف العلمية الأخرى الإنسان، وأن يتحرى هذا الفرع قدر الإمكان الموضوعية في استقراءاته وتفسيراته.

ولهذا نلفى أنه وبالرغم من أن الهدف المنشود كان نفسه، تعددت الرؤى وتفرعت بين الباحثين والرواد الأوائل .

– فذهب شيلرماخر إلى اعتبار ماهية الهرمنيوطيقا،بأنها "فن تفادي السقوط في متاهات الفهم "، ولتجاوز هذه المتاهات ألح على ضرورة نقل الاهتمام إلى القطب المركزي المعرفي لعملية التأويل نفسه، وأقر أيضا بأن الفهم وظيفة لا متناهية للتأويل .

– بينما ديلتاي وإن لم يبتعد كثيرا عن سابقه، فقدر أن الفهم (comprehension) تقنية منهجية، ينبغي أن تستثمر في حقول العلوم الإنسانية برمتها كآلية تواصل بين الذات والآخر، وهذا بمقصدية إطلاع كل طرف على فحوى الآخر .

– في حين نجد مفكر آخر هو "فيلهم فون همبولت " لم يتوان كثيرا في أطروحاته، وتوجه مباشرة، إلى بيت القصيد بإقحام اللغة وإشكالاتها المتعددة في عوالم الفكر الهرمنيوطيقي، وأكد في السياق إياه، بأن للغة دور أساسي وفعال في رسم وبلورة رؤيا الإنسان للعالم إزاء ما يحوطه.

وبين هذا وذاك، ولدى الوقوف وقفة تمعن على ما جاشت به قريحة هؤلاء، بخصوص القضايا الجدلية للفهم والتفسير، نجد أن الهرمنيوطيقا في نهاية القرن التاسع عشر، وباعتراف عديد النقاد، وعلى رأسهم "أنتوني كيربي"، حازت على مكانه هامة، في ألمانيا كنظرية فلسفية تضطلع بالأعمال الأدبية التراثية، وكذا العلوم الإنسانية برمتها، واستمر الوضع على هذه الحال لفترة طويلة، ولكن في مطلع القرن العشرين بدأ التململ يتسرب إلى المشروع، بسبب جملة من الشوائب، يأتي في مقدمتها مقالات ديلتاي بشأن مزاعم اكتشاف ذات المؤلف، والتي أدرجها بعض المنظرين في خانة النزعة السيكولوجية، أو الرومنسية المفرطة، إذ عقدت هذه المزاعم بشكل ما مساعي المشروع ودفعت اللاحقين فيما بعد ممن جنحوا إلى مواصلة البحث في مسار النهج الهرمنيوطيقي إلى تركيز مباحثهم على النص وفعالية القراءة، وتحجيم سلطة المؤلف وإشكالية المقصدية المتوخاة من قبله، وذلك بإفساح الحيز الأوفر لخبرات القارئ الذاتية بدلا من ذاتية المؤلف، ولكن هم الآخرين سقطوا في مبالغة ما بعدها مبالغة، زاعمين أن إمكانية تلقي الإبداع الأدبي وتأويله، تتأتى حتى في حالات جهل صاحبه.

ومن الإشكاليات الأخرى أيضا التي أوخذ عليها رواد هرمنيوطيقا القرن التاسع عشر، إشكالية النزوع التاريخي المفرط ،وإشكالية تبني القواعد الذاتية.

فأما الأولى(Historicism) فمفادها أن القارئ في اشتغالاته التأويلية يفتقر إلى الموضوعية، نتيجة خضوعه للمواقف التاريخية.

وأما الثانية فهي عمله تحت وطأة القواعد العلمية الخاصة والتوجيهات الذاتية،وهذه الأشياء وأخرى، من النقاط التي شكلت مطبات عثور للمشروع الفلسفي أول الأمر، وجعلت البعض يرى في الفكر الفينومينولوجي المنهج الأقرب إلى التأويل، وعلى الأخص في مسألة الموضوعية، حيث تتركز مساعي هذا المنهج على المعطى ووعي الظاهرة مباشرة.

قائمة المراجع:

1. – ميجان الرويلي ، سعد البازغي ،دليل الناقد الأدبي ،المركز الثقافي العربي ،الدارالبيضاء،المغرب،ط3،2002، ص89-90.
2. – نصر حامدأبوزيد ، إشكاليات القراءة و آليات التأويل ،الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة كتابات نقدية ،القاهرة،1991، ص13.
3. –f , Shleiermacher, d.e :the hermeneutics, outline ofthe.1819.lecturess, trans by j. wojeik in the hermeneutic tradition from ast. to ricour , ed by goyle, lormiston and Alan a. Shrift,new York, 1990, p, 92.
4. –Dilthey.w, meaning in history,ed truss and intro, by Rickman, h.p .london,1961, p67
5. – روبيرت سي هولب،نظرية الاستقبال تر رعد عبد الجليل جواد ،دار الحوار ،اللادقية.1992،ص55.
6. – نصر حامدأبوزيد ، إشكاليات القراءة و آليات التأويل ،الهيئة العامة لقصور الثقافة ،ص30.
7. – سمير حجازي ،المتقن :معجم المصطلحات اللغوية و الأدبية الحديثة ، (فرنسي عربي،عربي فرنسي) دار الراتب الجامعية ،بيروت لبنان،1993،ط1، ص96.
8. –فيرناند هالين ، فرانك شوير فيجن ، ميشال أوتان ، بحوث في القراءة و التلقي ،تر محمد خير البقاعي ،مركز النماء الحضاري، حلب ط1998،1 ص13.
9. – أنطوني كيربي ،الهرمنيوطيقا،تر،سامح فكري،مراجعة صلاح قنصوه ،مجلة الفن المعاصر ،أكادمية الفنون ، ع1،القاهرة ،2000، ص227.
10. –بول ريكور ، نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط2، 2006، المغرب، ص 129.
11. – سامي إسماعيل ،جمالية التلقي ، (دراسة في نظرية التلقي عند هانز روبيرت ياوس و فولفغانغ ايزر) ،المجلس الأعلى للثقافة،القاهرة،ط2002،1ص 76.
12. –فوزي فهمي ،التأويل والتلقي،مقدمة كتاب جمهور المسرح،تأليف سوزان بنيت،تر سامح فكري، مركز اللغات والترجمة ،أكادمية الفنون،القاهرة،ط1995،2،ص11-12.
13. – فوزي فهمي ،التأويل والتلقي،مقدمة كتاب جمهور المسرح،ص13.
14. – نصر حامدأبوزيد ، إشكاليات القراءة و آليات التأويل ،الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة كتابات نقدية ،القاهرة،1991، ص25-26.
15. – نصر حامدأبوزيد ، إشكاليات القراءة و آليات التأويل،ص26.
16. – بول ريكور: النص والتأويل ،تر:منصف عبدالحق ،مجلة العرب و الفكر العالمي ، ع 3، مركز الإنماء القومي بيروت 1988، ص42.
17. – محمود سيد أحمد ، ديلتاي و فلسفة الحياة ، دار الثقافة للنشر و التوزيع ،القاهرة ،1991، ص47.
18. – نصر حامدأبوزيد ، إشكاليات القراءة و آليات التأويل،ص27.
19. – روبيرت هولب ، نظرية التلقي ،تر.دعز الدين إسماعيل ،كتاب النادي الثقافي الأدبي ،جدة، ط1994،1، ص 113.
20. – أنطوني كيربي ،الهرمنيوطيقا،ص231.
21. – عبد الناصر حسن محمد ، نظرية التوصيل و قراءة النص الأدبي ،ص45.
22. – أنطوني كيربي ،الهرمنيوطيقا،ص231.
23. – حيث كان جادامير يشكك في ماهية سيطرة العلم على مجمل المعرفة والحقيقة.

24. -hansgorgGadamer ,verite et Methode ,(les Grondes lignes duneHermeneutique philosophique), trad :pierre fruchon / jean Grondin/ Gilbert Merlioedit : seuil , paris,1996.P32

25. – بونير،الفلسفة الألمانية الحديثة ، تر، فؤاد كامل ،دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد 1986، ص85-86.

26. – سامي إسماعيل ،جمالية التلقي ،ص85.

27. – عبد الناصر حسن محمد ، نظرية التوصيل و قراءة النص الأدبي ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات القاهرة ،ط1999،1، ص84.

28. – بونير،الفلسفة الألمانية الحديثة ،**ص86**.

29. – هانز جورج جادامير ، تجلي الجميل، تحرير روبرت برنا سكوبي، تر سعيد توفيق، المشروع القومي للترجمة، العدد 1997،23، ص11.

30. – هانز جورج جادامير ، تجلي الجميل، ص11.

31. – عبد الناصر حسن محمد ، نظرية التوصيل و قراءة النص الأدبي ،ص83.

32. – عبد الناصر حسن محمد ، نظرية التوصيل و قراءة النص الأدبي ،ص84.

33. – محمود سيد أحمد ، ديلتاي و فلسفة الحياة ،ص33-34.

المنطلقات التربوية لتحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية من وجهة نظر مدراء المدارس الثانوية بمحافظات صبيا التعليمية

الأستاذ: عبد الله بن محمد نهاري
إدارة التربية والتعليم بمحافظات صبيا
جازان ، المملكة العربية السعودية

الملخص:

هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على أسباب ودوافع تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية وكذلك الكشف عن المعوقات التي تحول دون تحقيق الجودة وأخيراً التحقق من وجود فروق ذات دلالة إحصائية حول المنطلقات التربوية لتحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية تعزى لمتغيرات الدراسة. ومن أجل تحقيق أهداف الدراسة ؛ قام الباحث باستخدام المنهج الوصفي التحليلي وقد تم تطبيق استبانة على 41 (واحد وأربعين فرداً) من مدراء المدارس الثانوية في محافظات صبيا التعليمية بالمملكة العربية السعودية.

ولقد توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

1. جاءت أبرز أسباب ودوافع تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية أن تطبيق الجودة يتيح الفرصة للنقاش والحوار المثمر البناء ويسهم في التغلب على الخوف والتردد، وتزايد اهتمام واضعي السياسات والقيادات التعليمية العليا نحو التبني بقوة لنشر ثقافة الجودة. وأقل درجاته كانت الإطلاع على خبرات وبرامج بعض الدول المتقدمة في مجال تطبيق الجودة.
2. جاءت أبرز معوقات تحقيق الجودة في التعليم قبل لجامعي في المملكة العربية السعودية عدم توفر تدريب شامل وملائم للمعلمين لتطبيق معايير إدارة الجودة داخل المدارس، وقلة توافر حوافز كافية للمعلمين. وأقل درجاته كانت ضعف العلاقات الإنسانية بين الطلاب والمعلمين.
3. عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية في استجابات أفراد عينة البحث طبقاً لاختلاف متغيرات الدراسة (المؤهل- الخبرة- الدورات التدريبية) حول محاور الدراسة.

وأوصت الدراسة بضرورة تعزيز التوجه نحو لتحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية.

الكلمات المفتاحية: المنطلقات التربوية – الجودة- التعليم قبل الجامعي.

Abstract

Educational bases to achieve quality in pre-university education in the Kingdom of Saudi Arabia from the perspectives of high school principals in educational Sabia Province

Abdullah Bin Mohamed Nahary

The present study aimed to identify the causes and motives of achieving quality in pre-university education in the Kingdom of Saudi Arabia, as well as the obstacles that hinder the achievement of quality and finally, investigating the existence of statistically significant differences about the educational bases to achieve quality in pre-university education in Saudi Arabia due to the variables of the study. In order to achieve the objectives of the study; the researcher used a descriptive analytical method, and implemented a questionnaire on (41) secondary schools principals in educational Sabia Province, the Kingdom of Saudi Arabia.

The most important results of the study were as follows:

1. The most prominent reasons and motivations for achieving quality in pre university education in Kingdom of Saudi Arabia were: Application of quality enhanced the opportunity for constructive discussion and dialogue and contributed to overcoming fear and hesitation, increasing interest from policy makers in adopting the idea of quality culture spreading. The least degrees were in the dimensions related to awareness of experiences and programs of some developed countries in the field of quality application.
2. The most prominent obstacles that challenged the application of pre university education were: Unavailability of comprehensive training programs suitable for teachers that could help them in implementing quality standards in schools and lack of enough motivation for teachers. The least degrees were in the dimensions related to weakness of human relations between teachers and students.
3. There weren't any statistically significant differences in the responses of the study sample related to the study variables (qualification – experience – training courses) regarding the dimensions of the study.

The study recommended the necessity of enhancing the orientation towards achieving quality in pre university education in the Kingdom of Saudi Arabia.

Key words: educational bases - quality - pre-university education.

مقدمة:

شهد التعليم في السنوات الأخيرة طفرة كبيرة في استخدام أحدث الأساليب الحديثة، وتبنِّيهِ لأساليب ونظريات تربوية نقلت التعليم خطوة هائلة نحو الاهتمام بالبناء المتكامل للطالب باعتباره المستفيد الأساسي من العملية التعليمية، واعتماد أسس ومعايير الجودة في التعليم العام.

وعند الحديث عن تطوير التعليم ما قبل الجامعي فإنه ينبغي الأخذ في الاعتبار أن ذلك الأمر مرتبط بشكل أو بأخر بضمان إدارة وتحقيق الجودة في كافة المؤسسات ما قبل الجامعية بما يضمن مستوى من الجاهزية والاستعداد من جانب الأفراد على مواجهة متطلبات سوق العمل التنافسية ومتطلبات المجتمع الحديث عن طريق إتقان كافة المهارات المرتبطة بذلك الأمر.([1]).

وتعبر الجودة الشاملة عن جميع الأنشطة للإدارات وأقسامها المختلفة التي تديرها سياسة الجودة والتي تشمل الأهداف والمسئوليات التي يتم تنفيذها بواسطة التخطيط للجودة والمراقبة وتوكيد الجودة والتحسين ، وهي عناصر نظام إدارة الجودة".[2]

وقد أدت النتائج الايجابية التي حققتها نظم إدارة الجودة الشاملة في المنشآت الصناعية في كل من اليابان والولايات المتحدة وأوربا الغربية إلى تشجيع مؤسسات تقديم الخدمة على الأخذ بها كوسيلة لإدارة وتحسين جودة الخدمات التي يتم تقديمها.[3]

ومع ظهور العديد من المشكلات في الأنظمة التعليمية على المستوى التعليمي بدأت العديد من الدول على مستوى العالم تتجه إلى تفعيل بعض الآليات في السياق التعليمي من بينها الاعتماد على نظم ضمان الجودة والاعتماد الأكاديمي, وبدأ وضع عدد من المعايير لتحديد مستوى الجودة التي ينبغي أن يسير عليها العمل سواء أن كان ذلك داخل مؤسسات التعليم ما قبل الجامعي أم على مستوى البيئات الجامعية.[4]

والتعليم منظومة لا تعمل بمعزل عن باقي المنظومات المجتمعية وبالتالي فإن مدارس التعليم العام لم يعد دورها الاقتصار على العملية التعليمية، بل تعدى ذلك حيث أصبحت مجتمعاً صغيراً لها من المقومات ما يجعلها تسهم في تربية التلاميذ وإمدادهم بالخبرات والمهارات لتحقيق النمو المتكامل للشخصية الناضجة الواعية والمتميزة ، خاصة وأننا نعيش عصر التميز والإبداع ، وبالتالي فهي "مطالبة بإعداد التلاميذ للحياة في المجتمع من خلال التعرف على مجالات العمل والإنتاج في بيئتهم والمهن والحرف السائدة ومتطلبات الإعداد لممارسة العمل في هذه الأعمال سواء من ناحية المهارات أو الاستعدادات الشخصية والطبيعية أو من ناحية الإعداد العلمي والتدريبات العلمية[5].

---

[1] - ISSA, Cristina Floreta. (2012). Modern approaches in the pre-university educational institutions. Proceedings of the 6th international management conferencek "approaches in organisational management" 15-16 November 2012, Bucharest, Romania: 419

[2] – الراشد،محمد بن عبد العزيز (2011) **إدارة الجودة الشاملة دراسة نظرية ونموذج مقترح لها في مكتبة الملك فهد الوطنية**، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية 17(2) 1-30

[3] – ابن عيشاوي، أحمد (2011) , **إدارة الجودة الشاملة (TQM) في المؤسسات الخدمية**، مجلة الباحث، جامعة قاصدي مرباح، الجزائر ع (4) 7- 16

[4] - Eid, Mahmoud Omar Ahmed. (2013). Using the Cost- Effectiveness Analysis to Analyze Quality of Education and Accreditation for Some Basic Education Schools. PhD. Thesis. Fayoum University.

[5] – محمود، نصر محمد (2007)، **دور مجالس الأمناء والآباء والمعلمين في تحقيق بعض متطلبات الجودة بمدارس التعليم الأساسي** "دراسة تحليلية- ميدانية"، المجلة العلمية، كلية التربية ، جامعة أسيوط، 23 (2) ص334- 429

وقد حظيت الجودة بجانبٍ كبيرٍ من اهتمام العالم اليوم إلى الحد الذي جعل المفكرين يطلقون على هذا العصر (عصر الجودة) ، فقد أصبحت الجودة أهم الأساليب لتحسين نوعية التعليم في العصر الحالي، فهي لم تعد ترفاً ترنو إليه المؤسسات التربوية ، بل أصبحت ضرورة ملحة ودليلاً على بقاء المؤسسة التعليمية.[1]

فالجودة تعد إحدى الركائز الأساسية لنموذج الإدارة الجديدة الذي تولد لمسايرة المتغيرات الدولية والمحلية، ومحاولة التكيف معها، فأصبح المجتمع العالمي ينظر إلى الجودة الشاملة والإصلاح التربوي باعتبارهما وجهين لعملة واحدة، بحيث يمكن القول إن الجودة الشاملة هي التحدي الحقيقي الذي ستواجهه الأمم في العقود القادمة.[2]

إشكالية البحث وأسئلتها:

تمثل الجودة هدف تربوياً مهمّاً لجميع الأنظمة التربوية، وذلك أن الجودة كنظام أثبت جدارته للتطبيق في المجال التعليمي، بهدف الوصول بمخرجات التعليم إلى أعلى مستوياتها إلا أن تحقيق الجودة يقتضي توفير عدد من المتطلبات المهمة والتي تنطلق من أسس ومبادئ تربوية تدفع الدول إلى العمل على تحقيق الجودة في التعليم.

إلا أن تحقيق الجودة يواجه العديد من المشكلات والصعوبات التي أظهرتها العديد من الدراسات، فقد أكدت دراسة العصيمي (54،2007) إلى وجود بعض أوجه القصور في تطبيق إدارة الجودة في التعليم بالمملكة وأكدت على أن وثيقة سياسة التعليم في المملكة العربية السعودية إلى وضع تنبؤات ورؤى تربوية مستقبلية سواء عن الظروف أم السلوكيات، وعلى تحديد معايير لقياس أداء العاملين في التعليم ووضع معايير لقياس الجودة أثناء العمليات ، ووضع آليات لجمع المعلومات عن التعليم وتحليلها باستمرار بغرض تجنب الأخطاء قبل حدوثها".

وكذلك يؤكد العنزي (2007، 172) على ضرورة وضع معايير واضحة ومعروفة للجميع لنتائج التعليم الذي نطمح له في كل مرحلة من المراحل التعليمية ومقارنتها بالمعايير العالمية ووضع معايير لقياس الأداء الوظيفي للمعلم".

ومن خلال ما تقدم تتضح مشكلة الدراسة في السؤال الرئيسي التالي: **ما هي المنطلقات التربوية لتحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية ؟** ويتفرع منه الأسئلة التالية:

1 -ما هي أسباب ودوافع تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية؟
2 -ما هي المعوقات التي تحول دون تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية
3 -هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية حول المنطلقات التربوية لتحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية تعزى لمتغيرات الدراسة؟.

أهداف الدراسة:

1 -التعرف على أسباب ودوافع تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية
2 -الكشف عن المعوقات التي تحول دون تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية

---

[1] – منصور، نعمة عبد الرءوف عبد الهادي (2005). **تصور مقترح لتوظيف مبادئ إدارة الجودة الشاملة في المدارس الثانوية بمحافظات غزة**، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية، غزة , ص24

[2] – العساف ، ليلى؛ والصرايرة ، خالد (2011) **أنموذج مقترح لتطوير إدارة المؤسسة التعليمية في الأردن في ضوء فلسفة إدارة الجودة الشاملة**. مجلة جامعة دمشق ع:27 ص590

3 -التحقق من وجود فروق ذات دلالة إحصائية حول المنطلقات التربوية لتحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية تعزى لمتغيرات الدراسة.

أهمية الدراسة :

تعد الجودة الشاملة من المداخل المهمة للحصول على مستوى عالٍ من التعليم يوفي بطموحات الوطن والمواطن في نفس الوقت، وتستمد الدراسة الحالية أهميتها في الجانبين التاليين:

أولا الجانب النظري:

- حيث تتناول الدراسة منطلقات تحقيق الجودة كهدف من الأهداف المهمة للتعليم قبل الجامعي موضحة أسسها النظرية.
- قد تساعد هذه الدراسة في أن تكون قاعدة ينطلق منها باحثون آخرون للكشف عن المزيد من الحقائق المعرفية التي تهتم بهذا المجال في ظل ندرة الدراسات عن الموضوع الحالي على حد علم الباحث.
- تستعرض الدراسة بعض الدراسات الحديثة التي تمثل الأساس النظري لموضوع الدراسة.

الجانب التطبيقي:

- تتناول الدراسة الجودة كهدف تربوي موضحةً منطلقاته التربوية التي تُحتِّم على المسئولين اتخاذ خطوات جادة في سبيل تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي.
- تضع الدراسة الطرق والوسائل العلمية التي يمكن من خلالها تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي.

حدود الدراسة:

تتم هذه الدراسة في إطار الحدود التالية:

- الحدود الموضوعية: تقتصر الدراسة الحالية على التعرف على المنطلقات التربوية لتحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية من وجهة نظر مدراء المدارس الثانوية محافظات صبيا التعليمية.
- الحدود المكانية: يقتصر تطبيق الدراسة الميدانية على عدة محافظات (صبيا , بيش , الدرب , الريث , العيدابي , الدائر , فيفاء) بالمملكة العربية السعودية.
- الحدود البشرية: يقتصر تطبيق الدراسة الميدانية على مدراء المدارس الثانوية الحكومية النهارية العامة للبنين التابعة لمحافظات صبيا التعليمية بالمملكة العربية السعودية.
- الحدود الزمنية: 1434هـ-1435هـ.

مصطلحات الدراسة:

المنطلقات التربوية: يعرف الباحث المنطلقات التربوية بأنها "الأسس والأسباب والطرق التربوية لتحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي.

الجودة: اندماج ومساهمة كل فرد يعمل بالمنظمة في المراقبة والتطوير والتحسين المستمر لكيفية أداء العمل من أجل الوفاء بتوقعات العميل لمستوى الجودة".[1]

[1] - الراشد، محمد بن عبد العزيز (2011) **إدارة الجودة الشاملة دراسة نظرية ونموذج مقترح لها في مكتبة الملك فهد الوطنية** (مرجع سابق),ص2

ويقصد بها في الدراسة الحالية التحسين المستمر في أداء العمل داخل مدارس التعليم قبل الجامعي وفقا لمعايير محددة محلية وعالمية.

التعليم قبل الجامعي: هو التعليم النظامي الذي يغطي الفترة العمرية للطلاب من (7 سنوات) إلى (18 سنة) ويشمل المرحلة الابتدائية والمتوسطة والثانوية ، وتشير إليه منظمة اليونسكو على أنه يمثل المستويين الأول والثاني من النظام التعليمي وفي المملكة العربية السعودية يتكون التعليم قبل الجامعي من ثلاث مراحل دراسية تمثل في مجموعها سلم التعليم العام وهي المرحلة الابتدائية والمرحلة المتوسطة والمرحلة الثانوية.[1]

الدراسات السابقة:

قد قام الباحث بمراجعة عامة للدراسات السابقة، وانتقاء مجموعة من الدراسات ذات العلاقة بموضوع الدراسة، لهذا سوف يتم عرض الدراسات السابقة التي ارتبطت بموضوع الدراسة الحالية بصورة مباشرة.

أولا: الدراسات العربية

هدفت دراسة أبو عبده (2011) "درجة تطبيق معايير إدارة الجودة الشاملة في مدارس محافظة نابلس من وجهة نظر المديرين فيها" إلى التعرف على درجة تطبيق إدارة الجودة الشاملة في مدارس محافظة نابلس التعليمية من وجهة نظر المديرين فيها، والتعرف على أثر متغيرات (الجنس، والمؤهل الدراسي، والتخصص، وسنوات الخبرة في الإدارة، والسلطة المشرفة) في تطبيق معايير إدارة الجودة الشاملة في مدارس محافظة نابلس، وقد اشتملت عينة الدراسة على 132(مائة واثنين وثلاثين فرداً) من المديرين والمديرات في محافظة نابلس، وتم اختيارهم بطريقة عشوائية، وقد اعتمدت الباحثة على المنهج الوصفي التحليلي كمنهج للدراسة، واستخدمت الاستبانة كأداة للدراسة، وقد توصلت الدراسة إلى العديد من النتائج أهمها وجود درجة تطبيق متوسطة لمعايير إدارة الجودة الشاملة في مدارس محافظة نابلس من وجهة نظر المديرين والمديرات في جميع المجالات، وعدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة (0.05) في درجة تطبيق معايير إدارة الجودة الشاملة في مدارس محافظة نابلس من وجهة نظر المديرين والمديرات فيها تعزى لمتغير الجنس، وعدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة (0.05) في درجة تطبيق معايير إدارة الجودة الشاملة في مدارس محافظة نابلس من وجهة نظر المديرين والمديرات فيها تعزى لمتغير المؤهل العلمي، وعدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة (0.05) في درجة تطبيق معايير إدارة الجودة الشاملة في مدارس محافظة نابلس من وجهة نظر المديرين والمديرات فيها تعزى لمتغير سنوات الخبرة، ولصالح فئة الخبرة أقل من 5 سنوات.

وقام الطاهر (2008) بعمل دراسة بعنوان "أثر تطبيق نظام ضمان الجودة التعليمية في تنمية قدرات التفكير الابتكاري وزيادة التحصيل الدراسي لدى طلاب الصف الأول المتوسط بمدينة سيهات بالمنطقة الشرقية" تهدف إلى معرفة أثر تطبيقات آليات برنامج الجودة التعليمية المعتمد من إديكسل (الأنشطة – المشاريع التعليمية الصغيرة – الاختبارات القصيرة) في تنمية قدرات التفكير الابتكاري وزيادة التحصيل الدراسي، وقد اشتملت عينة الدراسة على 50(خمسين طالباً) من طلاب الصف الأول من إحدى المدارس المتوسطة التابعة لإدارة التربية والتعليم في المنطقة الشرقية (بنين) تم تقسيمهم إلى مجموعتين إحداهما تجريبية والأخرى ضابطة، وقد استخدم الباحث المنهج التجريبي كمنهج للدراسة واعتمد على 18(ثمانية عشر نشاطا

[1] – العتيبي، فهد بن عباس (1425هـ) **إسهام القطاع الخاص في تمويل التعليم العام بالمملكة العربية السعودية، رسالة ماجستير غير منشورة**،كلية التربية ، جامعة الملك سعود، الرياض, ص8

تعليميا)، و2(مشروعين تعليميين صغيرين)، و5(خمسة اختبارات قصيرة)كأدوات للدارسة، وقد توصلت الدراسة للعديد من النتائج أهمها وجود فروق ذات دلالة عند مستوى (0.01) في درجات اختبار التفكير الابتكاري للمجموعتين التجريبية والضابطة في التطبيق البعدي لصالح المجموعة التجريبية، ووجود فروق ذات دلالة عند مستوى (0.01) بين درجات طلاب المجموعتين التجريبية والضابطة في التحصيل الدراسي في أعمال الفصل الدراسي الثاني، ووجود فروق ذات دلالة عند مستوى (0.01) في درجات اختبار التفكير الابتكاري للمجموعة التجريبية للتطبيق القبلي والبعدي لصالح التطبيق البعدي.

أما دراسة الورثان (2007) "مدى تقبل المعلمين لمعايير الجودة الشاملة في التعليم دراسة ميدانية بمحافظة الإحساء" فقد هدفت إلى التعرف على مدى تقبل المعلمين لمعايير الجودة الشاملة في التعليم بمحافظة الإحساء، والعوامل التي تشجعهم على تقبل معايير الجودة الشاملة في التعليم، والتعرف على المعوقات التي تحد من تقبلهم لهذه المعايير، والمقترحات التي تفعل تقبلهم للمعايير، وقد اشتملت عينة الدراسة على 886(ثمانمائة وستة وثمانين معلماً) على اختلاف المراحل الدراسية والتخصصات العلمية واختلاف سنوات الخبرة ونوعية المؤهلات تربوية وغير تربوية واختلاف الجنسية سعودي وغير سعودي بمدارس التربية والتعليم بمحافظة الإحساء، وقد استخدم الباحث المنهج الوصفي المسحي كمنهج للدراسة، واعتمد على الاستبانة كأداة للدراسة وقد توصلت الدراسة للعديد من النتائج أهمها حظيت جميع معايير الجودة الشاملة في التعليم بالمعلم على تقبل بدرجة كبيرة من قبل المعلمين بإدارة التربية والتعليم بمحافظة الإحساء، وقد حصل معيار توفير المناخ التعليمي الملائم والتقيد به والحفاظ عليه على أعلى درجات التقبل بالنسبة لبقية معايير الجودة الشاملة في التعليم، وعدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين تقبل المعلمين لمعايير الجودة الشاملة في التعليم في جميع متغيرات الدراسة، ما عدا متغير الجنسية فقد وجدت فروق ذات دلالة إحصائية لصالح المعلمين غير السعوديين.

وقدمت آل مداوي (2007) دراسة بعنوان "متطلبات تطبيق الجودة الشاملة في الإدارة المدرسية بمرحلة التعليم الثانوي العام للمملكة العربية السعودية في ضوء الفكر الإداري المعاصر" تهدف إلى التعرف على متطلبات تطبيق الجودة الشاملة في الإدارة المدرسية بمرحلة التعليم الثانوي العام بالمملكة العربية السعودية في ضوء الفكر الإداري المعاصر، وقد اشتملت عينة الدراسة على 30(ثلاثين مديراً ومديرة مدرسة)، و 82(واثنين وثمانين وكيل ووكيلة مدرسة) للمرحلة الثانوية بمدينة أبها في منطقة عسير التابعة لوزارة التربية والتعليم، وقد استخدمت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي كمنهج للدراسة، واعتمدت على الاستبانة كأداة للدراسة، وقد توصلت الدراسة إلى العديد من النتائج أهمها: أنه من أهم المتطلبات الأساسية التي تساعد الإدارة المدرسية بمرحلة التعليم الثانوي العام بالمملكة العربية السعودية على تطبيق الجودة الشاملة هي نشر ثقافة الجودة الشاملة، ومراقبة تطبيق الجودة الشاملة، والقيادة الفعالة، والتطوير التنظيمي، وتشكيل فرق العمل، والتدريب المستمر، تقويم أداء المعلمين، والاتصال الفعال، وتخطيط الجودة، ومن المعوقات التي تعيق تطبيق متطلبات الجودة الشاملة في الإدارة المدرسية عدم وضوح رسالة الجودة الشاملة لدى القيادات العليا، والافتقار إلى وجود فرق عمل تسعى لتحقيق أهداف الجودة، وعدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين استجابات أفراد العينة حول معوقات تطبيق الجودة الشاملة في الإدارة المدرسية للمرحلة الثانوية وفقاً لمتغيرات الدراسة، وتقديم آلية لتطبيق متطلبات الجودة الشاملة في الإدارة المدرسية بمرحلة التعليم الثانوي العام بالمملكة العربية السعودية.

كذلك هدفت دراسة منصور (2005) "تصور مقترح لتوظيف مبادئ إدارة الجودة الشاملة في المدارس الثانوية بمحافظات غزة" إلى إلقاء الضوء على فلسفة إدارة الجودة الشاملة،وتحديد مبادئ إدارة الجودة الشاملة التي يمكن تطبيقها

والاستفادة منها في تطوير النظام الإداري، ومعرفة مدى تبني مديري المدارس لفلسفة إدارة الجودة الشاملة، ومعرفة الاتجاهات العالمية في إدارة الجودة الشاملة في المجال التربوي، والتوصل إلى وضع تصور مستقبلي لتوظيف مبادئ إدارة الجودة الشاملة للارتقاء بالإدارة المدرسية، وقد اشتملت عينة الدراسة على مائة واثنين (102) مدير ومديرة للمدارس الثانوية الحكومية التابعة لوزارة التربية والتعليم بمحافظات غزة للعام الدراسي (2003 – 2004)، وقد استخدمت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي كمنهج للدراسة، واعتمدت على الاستبانة كأداة للدراسة، وقد توصلت الدراسة للعديد من النتائج أهمها أن الإدارة المدرسية لا تسعى إلى توظيف الأدوات الإحصائية بشكل مستمر في عملية اتخاذ القرارات، وأن هناك مشكلة إدارية ضخمة تتمثل في الإدارة، والنتيجة الأساسية تتناسب مع قاعدة JURAN، و أن المشكلة تكمن في نقص الجودة الإدارية والتي تشمل المعرفة الإدارية، والمهارات الإدارية، والسلوك الإداري.

ثانياً: الدراسات الأجنبية

أجرى باندیل وأجايي (Bandele & Ajayi, 2013) دراسة بعنوان:"تطور مقياس الاعتمادية لجودة التعليم في المدارس الثانوية النيجيرية" تهدف هذه الدراسة إلى قياس كل من مؤشرات الاعتمادية لجودة التعليم في المرحلة الثانوية بنيجيريا، قياس ومعرفة من هو المسئول عن جودة التعليم في المراحل وما هي العوامل المسئولة عن ذلك، بالإضافة إلى قياس الخصائص المتعلقة بالمقاييس النفسية لهذا المقياس، وذلك من خلال تطور مقياس الاعتمادية والمسائلة الخاص بجودة التعليم في المدارس الثانوية النيجيرية، وهذا البحث يتألف من جزئيين فقد تم إجراء الدراسة الوصفية على مرحلتين، وتكونت عينة المرحلة الأولى وهي المرحلة الوصفية من 1000 (ألف فرد) من المشاركين، بينما تألفت عينة الدراسة الرئيسية من 1500 (ألف وخمسمائة فرد) من المشاركين، واعتمد الباحثان على المنهج الوصفي، حيث قام الباحث بتطبيق المقياس الذي يتألف من 300 عنصر على المشاركين عينة الدراسة، وقد توصلت هذه الدراسة إلى عدد من النتائج من أهمها أن السمات الخاصة بالنسخة النهائية المعدة من مقاس الاعتمادية والمسائلة كانت ضمن حدود الدقة والمصداقية المقبولة، وقد بلغ معامل ارتباط الدقة الخاص بالمقياس 0.420 ، بينما بلغت معاملات المصداقية على مقياس كرونباخ ألفا حيث بلغ 0.874 و 0.933، وأن المقياس جيد ومعتمد ودقيق وأنه متوافق مع مؤشرات قياس المسائلة والاعتمادية في المدارس الثانوية النيجيرية، ولا يميل هذا المقياس إلى الانحياز للجنس والنوع ما بين المشاركين من مختلف الفئات، ويمكن تطبيق هذا المقياس بشكل فعال في المدارس الريفية والحضرية على حدٍ سواء من أجل الحصول على مقاييس المسائلة المطلوبة.

وقدم شادريك (Shadreck, 2012) دراسة بعنوان:"جودة تعليم المدارس الثانوية الريفية في زيمبابوي: التحديات والإصلاحات" تهدف إلى استقصاء بعض التحديات التي يواجهها المعلمون والعملية التعليمية في المناطق الريفية بزيمبابوي بالإضافة إلى تحديد الاستراتيجيات التي يمكن تطبيقها لتحسين ظروف العمل بالنسبة للمعلمين بالإضافة إلى ظروف التدريس في المناطق الريفية، وقد تكونت عينة الدراسة من 100 من المشاركين يتألفون من 80 معلماً و20 من مديري المدارس في إحدى المدارس الثانوية الريفية بزيمبابوي. واعتمد الباحث على المنهج الوصفي، حيث قام باستخدام الاستبيانات والمقابلات الشخصية مع المجموعة المحورية، وطبق استبانة على المعلمين وأُخرى على مديري المدارس، بالإضافة إلى إعداد مجموعة محورية من المعلمين وأخرى من مديري المدارس حيث كان الهدف من هذه المجموعات هو الاستفسار عن الموضوعات والتوجهات الأساسية في بيانات الاستبيانات، وتوصلت هذه الدراسة إلى عدد من النتائج من أهمها أن تأثر جودة التعليم بشكل سلبي بسبب فقر البيئة

التعليمية التي يعمل خلالها المعلمون، وأنه من الصعب بالنسبة للعديد من المدارس الريفية العمل على توظيف وتعيين معلمين ذوي خبرة مهنية وكفاءة، وتعاني المدارس الريفية من نقص التمويل والدعم المالي الذي يهدف إلى تقديم حوافز للمعلمين مقارنة مع نظرائهم في المناطق الحضرية مما يؤدي إلى فشلهم في جذب المعلمين للتدريس في المدارس الريفية، وعادة ما تكون فرص التطوير والتنمية المهنية المتاحة للمعلمين في المناطق الريفية محدودة، وأن هناك عوامل أخرى أثرت سلبيا على جودة التعليم في المناطق الريفية مثل أجور المعلمين الضعيفة ونقص الموارد المناسبة وسوء المباني والمرافق التعليمية.

كما قام أوجيدوكن (Ojedokun, 2012) بعمل دراسة بعنوان: "المعايير المسئولة عن انحدار جودة التعليم الثانوي في نيجيريا" تهدف هذه الدراسة إلى الإجابة عن التساؤلات المتعلقة بالعوامل التي تعمل على زيادة معايير جودة التعليم الثانوي، ومعرفة ماهية مؤشرات جودة التعليم الثانوي، وجودة نتائج التعليم الثانوي في نيجيريا في الوقت الحالي، تحديد المسئولين عن انحدار جودة التعليم الثانوي في نيجيريا، واعتمد الباحث على المنهج الوثائقي، حيث قام بعرض موضوعات البحث بأسلوب وثائقي، وقد توصلت هذه الدراسة إلى عدد من النتائج من أهمها أن من العوامل التي تزيد من معايير جودة التعليم هي المخططات الدراسية التي يتفاعل معها الطالب تحت رعاية المعلم، حيث أن هذه المناهج توفر صياغة وتطبيق المقترحات التعليمية على المستوى المنطقي ومستوى التطبيق الفعلي ومستوى النتائج، وضرورة توفير التمويل الحكومي والمنح المتاحة للتعليم الثانوي لتلبية متطلباته، وتوفير المعلمين المؤهلين للتعامل مع طلاب المراحل الثانوية، وضرورة الاهتمام بالبنية التحتية المادية لدعم المناهج التعليمية والنشاطات المنهجية، والاهتمام بتقديم وتطوير القياسات الوظيفية الخاصة بضبط جودة التعليم لضمان أفضل عمل لنظام التعليم، وأنه من المؤشرات التي تعمل على تحديد نجاح جودة النظام التعليمي هي نتائج المرحلة النهائية من التعليم المدرسي أو تقييم البرامج والدورات، حيث أن هذه النتائج هي ما يساهم في اتخاذ القرارات والتقييمات العامة المتعلقة بمدى نجاح النظام التعليمي الثانوي، وأنه من العوامل التي حددها الباحث باعتبارها مسئولة عن تحديد نجاح أو فشل التعليم الثانوي هي كل من المناهج الأكاديمية والموظفين والموارد وخدمات التخطيط والتنفيذ، وبعض العوامل الأخرى المتمثلة في تغيرات السياسة التعليمية وسوء إدارة خدمات الموارد والمواقف السلبية للطلاب تجاه التعليم.

وكذلك أجرى أيني (Ayeni, 2011) دراسة بعنوان:" تقييم الأدوار الإشرافية لمديري المدارس لتأكيد الجودة في المدارس الثانوية بولاية أوندو في نيجيريا" وتهدف هذه الدراسة إلى تحديد طبيعة الأدوار الإشرافية لمديري المدارس والفاعلية المتوقعة من إشراف المديرين على المهمات التعليمية للمعلمين، كما قامت هذه الدراسة بتقصي العوائق التي يواجهها المدراء من حيث أداء الواجبات الإشرافية المتضمنة في عملية التعليم والتعلم، كما تطرقت الدراسة إلى استغلال أدوار مديري المدارس في تعزيز جودة التعليم في المدارس الثانوية، وتكونت عينة الدراسة من 60 (ستين فرداً) من مديري المدارس و540 (وخمسمائة وأربعين فرداً) من المعلمين ممن تم انتقائهم من 60 (مدرسة) من المدارس الثانوية في ولاية أوندو بنيجيريا، واعتمد الباحث المنهج الوصفي لجمع بيانات ومعلومات البحث، حيث قد قام الباحث بتطبيق ثلاثة من أدوات البحث وهي: مقياس التصنيف الإشرافي للمديرين (PSRS)، ودليل المقابلات للمديرين (IGP) ودليل مناقشة المجموعة المحورية للمعلمين (PSRS)، وقد توصلت هذه الدراسة إلى عدد من النتائج من أهمها أن معظم المديرين يعملون على منح الاهتمام اللازم لمراقبة حضور المعلمين وإعدادهم للملاحظات التعليمية وملائمة يوميات التدريس المتعلقة بالمهمات التعليمية مثل توفير المواد التعليمية والمراجع والتقييمات ومراجعة النشاطات مع المساهمين، وأن هناك عدداً من المعوقات التي تواجه المديرين في مهمات الحكم

المؤسسي مثل تلك المتعلقة بمدخلات الموارد وتوصيل المناهج وتعلم الطلاب للتعاون الفعال المطلوب والعلاقات المتبادلة الداعمة الموجهة الهدف ما بين المدرسة والمساهمين المعنيين المرتبطين بالبيئة التعليمية.

كما قدم ميشايلوا (Michaelowa, 2007) دراسة بعنوان:"تأثير التعليم الابتدائي والثانوي على جودة التعليم العالي" تهدف هذه الدراسة إلى توفير لمحة عامة عن العلاقة ما بين المستويات المختلفة للتعليم، بالإضافة إلى تقديم تحليل مبدئي عن الروابط ما بين التعليم الابتدائي والثانوي من جانب والتعليم العالي من الجانب الآخر، كما قامت الدراسة بفحص الأدلة التجريبية المتاحة لمثل هذه الروابط من خلال الرسوم البيانية الموضحة للعلاقات ذات المتغيرين بالإضافة إلى تحليل الانحدار متعدد المتغيرات، واعتمد الباحث منهج المقارنات ما بين التحليلات المتعددة التغيرات والتحليلات ثنائية المتغيرات، ومقارنة الأوضاع داخل الدولة بالأوضاع العالمية، مع استخدام العديد من الرسومات البيانية التوضيحية، وذلك بهدف مقارنة النتائج التعليمية في المراحل الثانوية ومراحل التعليم العالي من حيث نسب الالتحاق والجودة التعليمية المتمثلة في مستوى إنجاز الطلاب والتصنيفات الجامعية وبراءات الاختراع والباحثين، وتحليل تأثير هذا التباين على التعليم الثانوي ونتائج التعليم العالي، وقد توصلت هذه الدراسة إلى محاولة تقديم مؤلف تعليم يهدف إلى توفير الأدلة التجريبية على المجادلات النظرية المتعلقة بأن جودة التعليم العالي تتطلب كون الطلاب على أساس سليم في المراحل السابقة للتعليم العالي، كما أثبت البحث أنه من أجل التوصل لتحسين نتائج التعليم العالي فإن السياسة التعليمية يجب أن تشتمل على التركيز على قطاع التعليم العالي بالإضافة إلى تحسين أوجه القصور في المستويات التعليمية السابقة للتعليم العالي.

وهدفت دراسة غايليني وخان (Ghailani & Khan, 2004): "جودة التعليم الثانوي ومتطلبات سوق العمل" إلى تقييم التحديات التي يواجهها نظام التعليم الثانوي، كما أنها تهدف إلى محاولة الكشف عن أفضل البُنى المرغوب بها والأنظمة والمناهج للوصول إلى تعليم أفضل وزيادة للمعرفة من أجل تلبية متطلبات القطاع الخاص من العمالة، وقد استخدم الباحثان المنهج الوثائقي، حيث عرض الباحثان مقترحا لنموذج يعمل على تعزيز فاعلية برامج التعليم الثانوي ويحدد الدور الذي يقوم به مختلف المساهمين في العملية التعليمية من حيث تحديد الفجوة في المهارات والمعارف، كما أنه يفترض تقييم البنية الحالية للمدارس الثانوية ويؤكد على تعزيز مجالات محددة ودعمها من أجل الوصول للنتائج المرغوب بها، كما أن هذا النموذج يتطرق إلى مشاركة المعلومات والمنهجيات التربوية والخبرات ما بين الأطراف المعنية لتحسين جودة التعليم الثانوية، وقد توصلت هذه الدراسة إلى عدد من النتائج من أهمها يواجه نظام التعليم الثانوي ثلاث معضلات رئيسية وهي: التعليم الشامل أو الانتقائي، ونوعية التعليم العام أو الانتقائي، والنتائج التعليمية السلوكية أو الإدراكية، وينبغي أن يقدم التعلم الثانوي المعارف المتعلقة بتوفير المهارات والكفاءات بالإضافة إلى المعارف التعليمية مما يمكن الخريجين من امتلاك القدرة على العمل.

التعليق على الدراسات السابقة

من خلال استعراض الدراسات السابقة خرج الباحث بالنقاط التالية:

1- لم يتح للباحث الحصول على دراسات تستهدف بشكل رئيسي المنطلقات التربوية لتحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية من وجهة نظر مدراء المدارس الثانوية بمحافظات صبيا التعليمية، وهو ما يميز الدراسة الحالية ويؤكد الحاجة إلى إجراء مزيد من الدراسات السابقة في الموضوع الحالي.

2-تنوّع تلك الدراسات من حيث الشكل والمضمون وأسلوب المعالجة يعطي إشارة قوية بأهمية المنطلقات التربوية لتحقيق الجودة في التعليم ما قبل الجامعي.

3-معظم الدراسات السابقة التي استعرضها الباحث تتناول منطلقات تحقيق الجودة في التعليم ما قبل الجامعي، مثل: دراسة آل مداوي (2007)، ودراسة أبو عبده (2011)، ودراسة الورثان (2007)، ودراسة منصور (2005)، ودراسة بانديل وأجايي (Bandele & Ajayi, 2013)، ودراسة شادريك (Shadreck, 2012)، ودراسة غايليني وخان (Ghailani & Khan, 2004.

4-اهتمت بعض الدراسات بتناول أثر تطبيق نظام الجودة على المخرجات التعليمية، والأدوار المتطلبة لتوظيف نظم الجودة بصورة فعالة، مثل: دراسة الطاهر (2008)، ودراسة أوجيدوكن (Ojedokun, 2012)، أيني (Ayeni, 2011)، ودراسة ميشايلوا (Michaelowa, 2007).

5-تتنوع تلك الدراسات في أهدافها إلا أن مجملها يتناول موضوع المنطلقات التربوية اللازمة لتحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي بشكل عام وهو ما يتفق مع الدراسة الحالية.

6-معظم تلك الدراسات تختلف في المجال المكاني ومجتمع البحث للتطبيق كما تختلف في المجال الزمني.

7-تشابهت معظم الدراسات الحالية في عينتها من حيث تناولها لفئة المدراء بشكل عام، مثل: دراسة أبو عبده (2011)، ودراسة آل مداوي (2007)، ودراسة منصور (2005)، ودراسة شادريك (Shadreck, 2012)، ودراسة أيني (Ayeni, 2011).

8-اختلفت بعض الدراسات السابقة في عينتها، مثل: دراسة الطاهر (2008) التي تحددت عينتها في الفئة الطلابية، ودراسة الورثان (2007) التي تحددت عينتها في فئة المعلمين.

9-اتفقت الدراسات السابقة في استخدامها للمنهج الوصفي، وغلب عليها الاعتماد على الاستبانة، كأداة من أدوات البحث.

10-وقد استفادت الدراسة الحالية من الدراسات السابقة في إثراء الإطار النظري للدراسة الحالية من خلال الاستفادة من الأُطُر النظرية وأدبيات هذه الدراسات، والإفادة من بعض المراجع التي استندت إليها هذه الدراسات , وبناء أداة الدراسة وتحديد إجراءاتها المنهجية.

منهج الدراسة:

من أجل تحقيق أهداف الدراسة؛ سوف يقوم الباحث باستخدام المنهج الوصفي التحليلي: "ويختص المنهج الوصفي بجمع البيانات والحقائق وتصنيفها وتبويبها؛ بالإضافة إلى تحليلها التحليل الكافي الدقيق المتعمق؛ بل يتضمن أيضا قدراً من التفسير لهذه النتائج؛ لذلك يتم استخدام أساليب القياس والتصنيف والتفسير؛ بهدف استخراج الاستنتاجات ذات الدلالة، ثم الوصول إلى تعميمات بشأن الظاهرة موضوع الدراسة"[1].

---

[1] – صابر , فاطمة عوض وميرفت علي خفاجة (2002) , **أسس ومبادئ البحث العلمي** , – ط 1 مكتبة الإشعاع , الإسكندرية.ص87

مجتمع الدراسة وعينتها:

يتكون مجتمع الدراسة من جميع مدراء المدارس الثانوية الحكومية النهارية العامة للبنين التابعة لمحافظات صبيا التعليمية بالمملكة العربية السعودية، للعام الدراسي 1435/1434هـ، والبالغ عددها 51(إحدى وخمسين مدرسة) حين التوزيع , وقد تم تطبيق أداة الدراسة على جميع مدراء تلك المدارس, حيث وزع الباحث الاستبانة على جميع أفراد المجتمع إلا أنه استعاد فقط 41(إحدى وأربعين استبانة) من 51(إحدى وخمسين استبانة) أي بمعدل يفوق (80%) من إجمالي عدد الاستبانات الموزعة

أداة الدراسة:

بعد الإطلاع على الأدبيات والدراسات السابقة ذات الصلة بموضوع الدراسة؛ قام الباحث بتصميم استبانة موجهة لمدراء المدارس الثانوية التابعة لمحافظات صبيا التعليمية بالمملكة العربية السعودية. واستخدم الباحث مقياس ليكرت المتدرج ذا النقاط الخامس لقياس (البنود) المختلفة ويأخذ هذا المقياس الشكل التالي: (1) صغيرة جدا ، (2) صغيرة ، (3) متوسطة، (4) كبيرة، (5) كبيرة جدا، وقد تكونت الاستبانة في صورتها النهائية على النحو التالي:

القسم الأول: معلومات عامة عن المستجيبين والتي تمثلت في (المؤهل الدراسي، سنوات الخبرة، عدد الدورات التدريبية).

القسم الثاني: وتمثل في محاور وعبارات الاستبانة حيث تكونت الاستبانة في صورتها النهائية من 59 (تسع وخمسين عبارة) موزعة على محورين:

- المحور الأول: أسباب ودوافع تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية وهو مكون من 28(ثمان وعشرين عبارة).
- المحور الثاني: معوقات تحقيق الجودة في التعليم الجامعي في المملكة العربية السعودية وهو مكون من 31 (إحدى وثلاثين عبارة).

صدق أداة الدراسة وثباتها:

تم عرض أداة البحث من أجل التحقق من صدقها على مجموعة من المحكمين، كما تم استخدام معامل ارتباط بيرسون (Person Correlation Coefficient)؛ لمعرفة الصدق الداخلي للأداة، كذلك سيتم حساب الثبات باستخدام معامل ألفا كرونباخ (Alpha Coronpach).

صدق المحكمين:

في سبيل البحث لحساب صدق الاستبانة قام الباحث بتحكيمها لدى مجموعة من الأساتذة المختصين والخبراء.

وقد طلب الباحث من السادة المحكمين إبداء آرائهم حول الأداة بالنسبة لعباراتها، ومدى انتمائها للمحاور التي أدرجت تحتها والتأكد من سلامتها اللغوية، ودرجة وضوح صياغتها، ومدى ملائمتها لقياس ما وضعت من أجله، وإمكان تعديل أو حذف أو إضافة بعض العبارات.

وبناء على ذلك فقد حصل الباحث على مجموعة قيّمة من الملاحظات، والتي على ضوئها قام بتعديل بعض عبارات الاستبانة، واستبعاد العبارات غير المناسبة، وذلك من خلال قيام الباحث بإجراء مقارنة بين آراء المحكمين حول الفقرات التي أثيرت حولها بعض الملاحظات، وتم الأخذ بالآراء الأكثر اتفاقاً نحو المفردات، سواء من حيث الحذف، أو التعديل.

صدق الاتساق الداخلي:

يقصد بصدق الاتساق الداخلي مدى اتساق كل فقرة من فقرات الاستبانة مع المجال الذي تنتمي إليه هذه الفقرة، وقد قام الباحث بحساب الاتساق الداخلي للاستبانة، وذلك من خلال حساب معاملات الارتباط بين كل فقرة من فقرات مجالات الاستبانة والدرجة الكلية للمجال نفسه، وذلك على النحو الذي يوضحه الجدول التالي:

الجدول رقم (1)

معامل الارتباط بين درجة كل محور من محاور الاستبانة والدرجة الكلية للاستبانة.

		المحور الأول	المحور الثاني	الدرجة الكلية
المحور الأول	Correlation	1.000	-.115	.616
	Sig. (2-tailed)	.	.476	.000
	N	41	41	41
المحور الثاني	Correlation	-.115	1.000	.712
	Sig. (2-tailed)	.476	.	.000
	N	41	41	41
الدرجة الكلية	Correlation	.616	.712	1.000
	Sig. (2-tailed)	.000	.000	.
	N	41	41	41

الارتباط دال عند مستوى معنوية 0.01

يتضح من الجدول رقم (2) أن قيم معامل الارتباط لكل عبارة من عبارات المحور الأول موجبة ودالة إحصائيًا عند مستوى الدلالة 0.01 فأقل مما يشير أن عبارات الاستبانة تتمتع بدرجة صدق جيدة يمكن الاعتماد عليها في إجراء الدراسة.

ثبات الاستبانة:

تحقق الباحث من ثبات استبانه الدراسة من خلال طريقة معامل ألفا كرونباخ Cranach's Alpha Coefficient كما هو مبين في الجدول رقم (2)

جدول رقم (2)

حساب ثبات الاستبانة باستخدام معامل ألفا كرونباخ

المحور	عدد الفقرات	معامل ألفا كرونباخ
المحور الأول	28	.7919
المحور الثاني	31	.7264
المجموع	59	.9100

من خلال الجدول السابق يتضح تمتع الاستبانة بمعامل ثبات عالي حيث بلغ معامل ألفا كرومباخ لجميع المحاور(.9100)، وهي نسبة مرتفعة ومناسبة مما يطمئن الباحث لاستخدام أداة الدراسة، كأداة لجمع المعلومات للإجابة عن أسئلة الدراسة، والوثوق بنتائج تطبيقها.

وبذلك يكون الباحث قد تأكد من صدق وثبات استبانة الدراسة في صورتها النهائية، وأنها صالحة للتطبيق على عينة الدراسة الأساسية، مما يجعله على ثقة تامة بصحة الاستبانة وصلاحيتها لجمع البيانات اللازمة للإجابة عن أسئلة الدراسة.

الأساليب الإحصائية:

للوصول إلى إجابة على تساؤلات الدراسة وتحليل البيانات التي تم تجميعها، تم ترميز وإدخال البيانات بواسطة الحاسب الآلي باستخدام برنامج الحزمة الإحصائية للعلوم الاجتماعية (SPSS)، تم استخدام الأساليب الإحصائية الوصفية والاستدلالية المناسبة وذلك على النحو التالي:

1. معامل الارتباط لمعرفة الصدق الداخلي لفقرات الاستبانة.
2. طريقة (ألفا كرومباخ) لقياس ثبات الاستبانة.
3. حساب التكرارات والنسب المئوية لإجابات أفراد العينة.
4. حساب المتوسط الحسابي لإجابات أفراد العينة.
5. الانحراف المعياري ، لقياس مدى انحراف استجابات أفراد الدراسة لكل عبارة من عبارات متغيرات الدراسة ولكل محور من المحاور الرئيسة عن متوسطها الحسابي .
6. اختبار أنوفا (One-away-Anova) للتحقق من الفروق الإحصائية.

إجراءات تصحيح أداة الدراسة

أُعتمدت الخطوات الآتية في تصحيح أداة الدراسة:

تكونت هذه الأداة بصورتها النهائية من (59) فقرة موزعة على ثلاثة محاور وللإجابة عن تساؤلات الدراسة فقد اعتمدت المتوسطات الحسابية لإجابات أفراد العينة لتكون مؤشراً على درجة الموافقة (التوافر) وجرى تقسيم الدرجة إلى ثلاث فئات (صغيرة جدا، صغيرة، متوسطة، كبيرة، كبيرة جدا) واعتماداً على المعادلة أدناه، تم حساب الفئة على النحو التالي:

$$\frac{\text{الحد الأعلى للبدائل – الحد الأدنى}}{\text{عدد الدرجات}} = \frac{1-5}{3} = 1.33$$

وبذلك تكون الدرجات الثلاث على النحو التالي:

- المتوسط الحسابي الذي يقع بين (1) وأقل من (2.33) يعد مؤشراً على درجة منخفضة.
- المتوسط الحسابي الذي يقع بين (2.34) وأقل من (3.67) يعد مؤشراً على درجة متوسطة.
- المتوسط الحسابي الذي يقع بين (3.68) و(5) يعد مؤشراً على درجة مرتفعة.

نتائج الدراسة ومناقشتها:

أولاً: النتائج المتعلقة بالإجابة عن السؤال الأول ومناقشتها وينص على ما أسباب ودوافع تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية ؟ وللإجابة عن هذا السؤال تناول الباحث الجدول رقم (3) والخاص بالتكرارات، والمتوسطات الحسابية، والانحرافات المعيارية التكرارات، والمتوسطات الحسابية، والنسب المئوية لاستجابات أفراد العيّنة لعبارات المحور الأول في الدراسة ينص على: " أسباب ودوافع تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية "

جدول رقم (3) والخاص بالتكرارات، والمتوسطات الحسابية، و الانحرافات المعيارية والنسب المئوية لاستجابات أفراد العيّنة لعبارات أسباب ودوافع تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية

	العبارات	الاستجابة										المتوسط	الانحراف المعياري	الترتيب
		أرفض بشدة		أرفض		أوافق إلى حد ما		أوافق		أوافق بشدة				
		تكرار	%	تكرار	%	تكرار	%	تكرار	%	تكرار	%			
1	تزايد اهتمام واضعي السياسات والقيادات التعليمية العليا نحو التبني بقوة لنشر ثقافة الجودة	1	2.4	0.0	0.0	10	24.4	21	51.2	9	22.0	3.90	.83	الثانية
2	تنمية القدرات للعاملين بمجال التعليم قبل الجامعي بصورة تمكنهم من إدارة التغيير	3	7.3	4	9.8	18	43.9	11	26.8	5	12.2	3.27	1.05	الحادية وعشرون
3	إيجاد تخصصات علمية ومعرفية جديدة ودقيقة على الساحة التعليمية	5	12.2	6	14.6	17	41.5	11	26.8	2	4.9	2.98	1.06	السابعة وعشرون
4	تحقيق أهداف التحسين والتطوير المستقبلي في التعليم قبل الجامعي	2	4.9	3	7.3	27	65.9	6	14.6	3	7.3	3.12	.84	الرابعة وعشرون
5	تقييم الأداء المستمر للمعلمين والقيادات المدرسية وتفعيل مهاراتهم وذلك باستخدام التكنولوجيا الحديثة	2	4.9	5	12.2	19	46.3	10	24.4	5	12.2	3.27	1.00	العشرون
6	وضع خطط وإستراتيجيات على المدى الطويل والقصير	2	4.9	5	12.2	18	43.9	9	22.0	7	17.1	3.34	1.06	الخامسة عشر
7	التحول من التعليم التقليدي إلى التعلم الخلاق والإبداعي	2	4.9	3	7.3	18	43.9	14	34.1	4	9.8	3.37	.94	الثانية عشر
8	الإطلاع على خبرات وبرامج بعض الدول المتقدمة في مجال تطبيق الجودة	8	19.5	2	4.9	16	39.0	13	31.7	2	4.9	2.98	1.17	
9	ظهور مفاهيم جديدة للعملية التربوية مثل التنافسية	0.0	0.0	7	17.1	17	41.5	15	36.6	2	4.9	3.29	.81	السادسة عشر
10	التغيرات التي أحدثتها الثورة والتكنولوجية وتداعيات ذلك على النظم التعليمية	0.0	0.0	1	2.4	13	31.7	18	43.9	9	22.0	3.85	.79	الثالثة
11	تحقيق النتائج المتوقعة بأقل تكلفة وأقل جهد وفي أقصر وقت ممكن	3	7.3	3	7.3	20	48.8	9	22.0	6	14.6	3.29	1.05	التاسعة عشر
12	تحقيق حاجات ورغبات الطالب وتضافر الجهود الأكاديمية والإدارية لتحقيق النمو المتكامل	2	4.9	8	19.5	16	39.0	13	31.7	2	4.9	3.12	.95	الخامسة وعشرون
13	التركيز على مبدأ الوقاية خير من العلاج في العملية التربوية من خلال تجنب الأخطاء والانحرافات بدلا من معالجتها	0.0	0.0	4	9.8	24	58.5	7	17.1	6	14.6	3.37	.86	العاشرة
14	كون الجودة تعني جودة المدخلات والعمليات والمخرجات	2	4.9	4	9.8	12	29.3	18	43.9	5	12.2	3.49	1.00	السادسة

15	تطبيق الجودة يتيح الفرصة للنقاش والحوار المثمر البناء ويسهم في التغلب على الخوف والتردد	1	2.4	2	4.9	5	12.2	22	53.7	11	26.8	3.98	.91	الأولى
16	شمولية إدارة الجودة الشاملة لجميع أطراف العملية التربوية	3	7.3	2	4.9	14	34.1	14	34.1	8	19.5	3.54	1.10	الخامسة
17	التقييم المستمر للجهود المبذولة والتعرف على جوانب القصور ومعالجتها	2	4.9	3	7.3	20	48.8	7	17.1	9	22.0	3.44	1.07	السابعة
18	إيجاد تكامل الجهود المالية والبشرية المتاحة في المدرسة نحو تحقيق الهدف الأساسي لها	1	2.4	6	14.6	14	34.1	16	39.0	4	9.8	3.39	.95	التاسعة
19	تطوير النظام الإداري في المؤسسات التعليمية بمعايير روح العصور ومتطلباته	1	2.4	6	14.6	16	39.0	16	39.0	2	4.9	3.29	.87	السابعة عشر
20	الحد من البيروقراطية الإدارية	4	9.8	4	9.8	15	36.6	13	31.7	5	12.2	3.27	1.12	الثانية وعشرون
21	تطوير كفاءة المدرسين من النواحي العملية والإنسانية	0.0	0.0	4	9.8	16	39.0	15	36.6	6	14.6	3.56	.87	الرابعة
22	توفير مناخ تنظيمي يرضى عنه جميع العاملين	2	4.9	3	7.3	21	51.2	11	26.8	4	9.8	3.29	.93	الثامنة عشر
23	الوفاء بمتطلبات الطلبة وأولياء أمورهم والمجتمع المحلي	1	2.4	4	9.8	19	46.3	13	31.7	4	9.8	3.37	.89	الحادية عشر
24	ضمان المشاركة الفعالة من قبل جميع العاملين في المؤسسة التعليمية	2	4.9	2	4.9	17	41.5	17	41.5	3	7.3	3.41	.89	الثامنة
25	ضمان جودة الخدمات التعليمية	2	4.9	3	7.3	19	46.3	13	31.7	4	9.8	3.34	.94	الرابعة عشر
26	المساعدة إلى إيجاد نظام موثق لضمان الأداء في حالة تغيب أحد الأفراد العاملين	3	7.3	6	14.6	18	43.9	10	24.4	4	9.8	3.15	1.04	الثالثة وعشرون
27	تحسين صورة المؤسسة التعليمية لدى الجميع بالتزامها بنظام الجودة في خدماتها	3	7.3	3	7.3	14	34.1	18	43.9	3	7.3	3.37	.99	الثالثة عشر
28	المسا عدة على تخفيض الهدر في موارد المؤسسة التعليمية وإمكانياتها	4	9.8	7	17.1	13	31.7	15	36.6	2	4.9	3.10	1.07	السادسة وعشرون
المتوسط العام للمحور												3.36	.62	

يتضح من الجدول رقم (3) أن المتوسطات الحسابية لاستجابات أفراد العيّنة تجاه العبارات الخاصة بـ " أسباب ودوافع تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية "، تراوحت بين (3.98) و(2.98) لجميع استجابات أفراد العيّنة، وهذا يعني أن توفر مفردات هذا المحور متحققة بنسب متفاوتة، ويمكن تصنيف هذا الجزء من عبارات الاستبانة تنازلياً على النحو التالي:

- جاءت العبارة رقم (15) تطبيق الجودة يتيح الفرصة للنقاش والحوار المثمر البناء ويسهم في التغلب على الخوف والتردد، في المرتبة (الأولى) بمتوسط حسابي بلغ (3.98)، وبانحراف معياري بلغ (.91).
- جاءت العبارة رقم (1) تزايد اهتمام واضعي السياسات والقيادات التعليمية العليا نحو التبني بقوة لنشر ثقافة الجودة، في المرتبة (الثانية) بمتوسط حسابي بلغ (3.90)، وبانحراف معياري بلغ (.83).
- جاءت العبارة رقم (10) التغيرات التي أحدثتها الثورة والتكنولوجية وتداعيات ذلك على النظم التعليمية، في المرتبة (الثالثة) بمتوسط حسابي بلغ (3.85)، وبانحراف معياري بلغ (.79).
- جاءت العبارة رقم (21) تطوير كفاءة المدرسين من النواحي العملية والإنسانية، في المرتبة (الرابعة) بمتوسط حسابي بلغ (3.56)، وبانحراف معياري بلغ (.87).
- جاءت العبارة رقم (16) شمولية إدارة الجودة الشاملة لجميع أطراف العملية التربوية، في المرتبة (الخامسة) بمتوسط حسابي بلغ (3.54)، وبانحراف معياري بلغ (1.10).
- جاءت العبارة رقم (14) كون الجودة تعني جودة المدخلات والعمليات والمخرجات، في المرتبة (السادسة) بمتوسط حسابي بلغ (3.49)، وبانحراف معياري بلغ (1.00).
- جاءت العبارة رقم (17) التقييم المستمر للجهود المبذولة والتعرف على جوانب القصور ومعالجتها، في المرتبة (السابعة) بمتوسط حسابي بلغ (3.44)، وبانحراف معياري بلغ (1.07).
- جاءت العبارة رقم (24) ضمان المشاركة الفعالة من قبل جميع العاملين في المؤسسة التعليمية، في المرتبة (الثامنة) بمتوسط حسابي بلغ (3.41)، وبانحراف معياري بلغ (.89).
- جاءت العبارة رقم (18) إيجاد تكامل الجهود المالية والبشرية المتاحة في المدرسة نحو تحقيق الهدف الأساسي لها، في المرتبة (التاسعة) بمتوسط حسابي بلغ (3.39)، وبانحراف معياري بلغ (.95).
- جاءت العبارة رقم (13) التركيز على مبدأ الوقاية خير من العلاج في العملية التربوية من خلال تجنب الأخطاء والانحرافات بدلا من معالجتها، في المرتبة (العاشرة) بمتوسط حسابي بلغ (3.37)، وبانحراف معياري بلغ (.86).
- جاءت العبارة رقم (23) الوفاء بمتطلبات الطلبة وأولياء أمورهم والمجتمع المحلي، في المرتبة (الحادية عشر) بمتوسط حسابي بلغ (3.37)، وبانحراف معياري بلغ (.89).
- جاءت العبارة رقم (7) التحول من التعليم التقليدي إلى التعلم الخلاق والإبداعي، في المرتبة (الثانية عشر) بمتوسط حسابي بلغ (3.37)، وبانحراف معياري بلغ (.94).
- جاءت العبارة رقم (27) تحسين صورة المؤسسة التعليمية لدى الجميع بالتزامها بنظام الجودة في خدماتها، في المرتبة (الثالثة عشر) بمتوسط حسابي بلغ (3.37)، وبانحراف معياري بلغ (.99).
- جاءت العبارة رقم (25) ضمان جودة الخدمات التعليمية، في المرتبة (الرابعة عشر) بمتوسط حسابي بلغ (3.34)، وبانحراف معياري بلغ (.94).
- جاءت العبارة رقم (6) يقوم وضع خطط وإستراتيجيات على المدى الطويل والقصير، في المرتبة (الخامسة عشر) بمتوسط حسابي بلغ (3.34)، وبانحراف معياري بلغ (1.06).

- جاءت العبارة رقم (9) ظهور مفاهيم جديدة للعملية التربوية مثل التنافسية، في المرتبة (السادسة عشر) بمتوسط حسابي بلغ (3.29)، وبانحراف معياري بلغ (.81).
- جاءت العبارة رقم (19) تطوير النظام الإداري في المؤسسات التعليمية بمعايير روح العصر ومتطلباته، في المرتبة (السابعة عشر) بمتوسط حسابي بلغ (3.29)، وبانحراف معياري بلغ (.87).
- جاءت العبارة رقم (22) توفير مناخ تنظيمي يرضى عنه جميع العاملين، في المرتبة (الثامنة عشر) بمتوسط حسابي بلغ (3.29)، وبانحراف معياري بلغ (.93).
- جاءت العبارة رقم (11) تحقيق النتائج المتوقعة بأقل تكلفة وأقل جهد وفي أقصر وقت ممكن، في المرتبة (التاسعة عشر) بمتوسط حسابي بلغ (3.29)، وبانحراف معياري بلغ (1.05).
- جاءت العبارة رقم (5) تقييم الأداء المستمر للمعلمين والقيادات المدرسية وتفعيل مهاراتهم وذلك باستخدام التكنولوجيا الحديثة، في المرتبة (العشرون) بمتوسط حسابي بلغ (3.27)، وبانحراف معياري بلغ (1.00).
- جاءت العبارة رقم (2) تنمية القدرات للعاملين بمجال التعليم قبل الجامعي بصورة تمكنهم من إدارة التغيير، في المرتبة (الحادية وعشرون) بمتوسط حسابي بلغ (3.27)، وبانحراف معياري بلغ (1.05).
- جاءت العبارة رقم (20) الحد من البيروقراطية الإدارية، في المرتبة (الثانية وعشرون) بمتوسط حسابي بلغ (3.27)، وبانحراف معياري بلغ (1.12).
- جاءت العبارة رقم (26) المساعدة إلى إيجاد نظام موثق لضمان الأداء في حالة تغيب أحد الأفراد العاملين، في المرتبة (الثالثة وعشرون) بمتوسط حسابي بلغ (3.15)، وبانحراف معياري بلغ (1.04).
- جاءت العبارة رقم (4) تحقيق أهداف التحسين والتطوير المستقبلي في التعليم قبل الجامعي، في المرتبة (الرابعة وعشرون) بمتوسط حسابي بلغ (3.12)، وبانحراف معياري بلغ (.84).
- جاءت العبارة رقم (12) تحقيق حاجات ورغبات الطالب وتضافر الجهود الأكاديمية والإدارية لتحقيق النمو المتكامل، في المرتبة (الخامسة وعشرون) بمتوسط حسابي بلغ (3.12)، وبانحراف معياري بلغ (.95).
- جاءت العبارة رقم (28) المسا عدة على تخفيض الهدر في موارد المؤسسة التعليمية وإمكانياتها، في المرتبة (السادسة وعشرون) بمتوسط حسابي بلغ (3.10)، وبانحراف معياري بلغ (1.07).
- جاءت العبارة رقم (3) إيجاد تخصصات علمية ومعرفية جديدة ودقيقة على الساحة التعليمية، في المرتبة (السابعة وعشرون) بمتوسط حسابي بلغ (2.98)، وبانحراف معياري بلغ (1.06).
- جاءت العبارة رقم (8) الإطلاع على خبرات وبرامج بعض الدول المتقدمة في مجال تطبيق الجودة، في المرتبة (الثامنة وعشرون) بمتوسط حسابي بلغ (2.98)، وبانحراف معياري بلغ (1.17).

حصل المحور الأول " أسباب ودوافع تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية " على درجة استجابة "متوسطة" حيث بلغ المتوسط العام للمحور (3.36) مما يدل على حرص مدارس التعليم قبل الجامعي بالمملكة إلى حد ما على تحقيق جودة التعليم لإيمان أغلب العاملين بالمدارس بفائدة جودة التعليم في حياة الطالب خاصة، وفائدتها للمجتمع بصفة عامة حيث أن جودة التعليم تمد الطلاب بخبرات ومهارات تنمي من قدراتهم الشخصية وتمكنهم من تكوين مجتمع واعٍ، متكامل

يستطيع تغيير الوضع الاجتماعي العام إلى الأفضل؛ وهذا يتفق مع ما قد أشارت إليه دراسة(محمود،2007) حيث ذكرت أن مدارس التعليم العام لم يعد دورها الاقتصار على العملية التعليمية، بل تعدى ذلك حيث أصبحت مجتمعا صغيرا لها من المقومات ما يجعلها تسهم في تربية التلاميذ، وإمدادهم بالخبرات، والمهارات لتحقيق النمو المتكامل للشخصية الناضجة الواعية، والمتميزة.

وتمثلت أعلى المتوسطات في فقرات تطبيق الجودة يتيح الفرصة للنقاش والحوار المثمر البناء ويسهم في التغلب على الخوف والتردد، وتزايد اهتمام واضعي السياسات، والقيادات التعليمية العليا نحو التبني بقوة لنشر ثقافة الجودة حيث حصلت على درجة استجابة (مرتفعة) بين أفراد العينة؛ ويرجع ذلك إلى إيمان كل من الإدارة المدرسية وكافة القائمين على العملية التربوية، والتعليمية بأهمية تحقيق أعلى مستوى ممكن من الجودة في التعليم، والوصول بمخرجات التعليم إلى أعلى مستوياتها؛ ذلك أن تحقيق الجودة أصبح ضرورة هامة للحد من الكثير من المشكلات التي تواجه العملية التربوية، من خلال وضع المعايير اللازمة لتحديد مستوى الجودة التي ينبغي أن يسير عليها العمل داخل مؤسسات التعليم ما قبل الجامعي، وذلك ما أشارت إليه العديد من الدراسات منها دراسة (Ghailani & Khan, 2004) حيث ذكرت أنه يجب أن يعمل مسئولو إدارة التعليم على تبني وتطبيق نمط المشاركة عند العمل على نظام التعليم الثانوي من أجل إدراك أفضل للأهداف، وأن يتسم نظام التعليم بالمرونة، ودراسة (Eid, 2013) التي ذكرت أن العديد من الدول على مستوى العالم تتجه إلى تفعيل الاعتماد على نظم ضمان الجودة والاعتماد الأكاديمي مع ظهور العديد من المشكلات في الأنظمة التعليمية على المستوى التعليمي.

بينما حصلت فقرات إيجاد تخصصات علمية ومعرفية جديدة ودقيقة على الساحة التعليمية، والإطلاع على خبرات وبرامج بعض الدول المتقدمة في مجال تطبيق الجودة على درجة استجابة (متوسطة) بين أفراد العينة ويعزى ذلك إلى عدم معرفة القائمين على إدارة العملية التعليمية بشكل عام في مدارس التعليم قبل الجامعي في المملكة إلى حد ما لأسباب ودوافع تحقيق الجودة، ومدى أهميتها على مستوى الطالب الفردي، والمجتمع بصورة عامة، ويرى الباحث ضرورة قيام الإدارة بوضع معايير لقياس الأداء الوظيفي للمعلم واختيار المعلم المناسب لكافة التخصصات وعمل دورات توعوية للمعلمين تزيد من معرفتهم بأهمية تحقيق الجودة في التعليم وإطلاعهم على المزيد من التجارب العالمية الناجحة التي تطبق معايير الجودة بشكل سليم، وهذا يتفق مع ما قد أشارت إليه دراسة (Ojedokun, 2012) حيث ذكرت ضرورة توفير المعلمين المؤهلين للتعامل مع طلاب المرحلة الثانوية، كما يرى الباحث ضرورة القيام بوضع عدد من المعايير التي تراها الإدارة في صالح العملية التربوية، وهذا يتفق مع ما أشارت إليه دراسة (العنزي،2007) التي أكدت على ضرورة وضع معايير واضحة، ومعروفة للجميع لنتائج التعليم الذي نطمح له في كل مرحلة من المراحل التعليمية، ومقارنتها بالمعايير العالمية ووضع معايير لقياس الأداء الوظيفي للمعلم.

ثانياً: النتائج المتعلقة بالإجابة عن السؤال الثاني ومناقشتها وينص السؤال الثاني على: " ما معوقات تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية؟، وللإجابة عن هذا السؤال تناول الباحث الجدول رقم (4) والخاص بالتكرارات، والمتوسطات الحسابية، والانحرافات المعيارية التكرارات، والمتوسطات الحسابية، والنسب المئوية لاستجابات أفراد العيّنة لعبارات المحور الثاني في الدراسة ينص على: " معوقات تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية "

جدول رقم (4) والخاص بالتكرارات، والمتوسطات الحسابية، والانحرافات المعيارية والنسب المئوية لاستجابات أفراد العيّنة لعبارات معوقات تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية

	العبارات	الاستجابة										المتوسط	الانحراف المعياري	الترتيب
		أرفض بشدة		أرفض		أوافق إلى حد ما		أوافق		أوافق بشدة				
		تكرار	%	تكرار	%	تكرار	%	تكرار	%	تكرار	%			
1	عدم ملائمة جودة الخدمة التعليمية المقدمة للطلاب ومستوى الخدمة التي تتفق مع رغباتهم وتوقعاتهم	1	2.4	1	2.4	16	39.0	12	29.3	11	26.8	3.76	.97	العاشرة
2	عدم انتظام الطلاب في الحضور	3	7.3	10	24.4	14	34.1	11	26.8	3	7.3	3.02	1.06	التاسعة وعشرون
3	ضعف العلاقات الإنسانية بين الطلاب والمعلمين	4	9.8	11	26.8	11	26.8	11	26.8	4	9.8	3.00	1.16	الحادية وثلاثون
4	قلة كفاءة وفعالية نظام تقديم الخدمات ورعاية الطلاب	1	2.4	3	7.3	15	36.6	15	36.6	7	17.1	3.59	.95	السادسة عشر
5	انخفاض دافعية الطلاب نحو التعليم قبل الجامعي	1	2.4	7	17.1	8	19.5	13	31.7	12	29.3	3.68	1.15	الثالثة عشر
6	افتقار الطلاب للمهارات التي تمكنهم من التعامل مع الأجهزة الحديثة والمختبرات العلمية	2	4.9	4	9.8	17	41.5	14	34.1	4	9.8	3.34	.96	الثالثة وعشرون
7	عدم ملائمة أعداد لمعلمين بالنسبة لعدد الطلاب	1	2.4	4	9.8	14	34.1	13	31.7	9	22.0	3.61	1.02	الخامسة عشر
8	ضعف الكفاءة الأكاديمية لدى المعلمين	5	12.2	4	9.8	19	46.3	11	26.8	2	4.9	3.02	1.04	الثامنة وعشرون
9	افتقار المعلمين للخبرات التربوية الكافية	2	4.9	7	17.1	14	34.1	14	34.1	4	9.8	3.27	1.03	السادسة وعشرون
10	استخدام المعلمين للوسائل التقليدية في التدريس	2	4.9	5	12.2	11	26.8	13	31.7	10	24.4	3.59	1.14	السابعة عشر
11	قلة توافر حوافز كافية للمعلمين	2	4.9	3	7.3	4	9.8	12	29.3	20	48.8	4.10	1.16	الثانية
12	قلة توافر التخصصات المطلوبة لدى المعلمين	3	7.3	3	7.3	18	43.9	13	31.7	4	9.8	3.29	1.01	الخامسة وعشرون
13	افتقار المعلمين للمعرفة الكافية بمبادئ إدارة الجودة الشاملة	0.0	0.0	2	4.9	15	36.6	7	17.1	17	41.5	3.95	1.00	الرابعة
14	عدم إتباع المعلمين لإجراءات عملية واضحة ومحددة من أجل تحقيق معايير الجودة	0.0	0.0	3	7.3	13	31.7	16	39.0	9	22.0	3.76	.89	التاسعة
15	عدم توفر تدريب شامل وملائم للمعلمين لتطبيق معايير إدارة الجودة داخل الكليات	0.0	0.0	1	2.4	12	29.3	7	17.1	21	51.2	4.17	.95	الأولى

16	مقاومة المعلمين لأي تغيير جديد	4	9.8	5	12.2	9	22.0	18	43.9	5	12.2	3.37	1.16	الثانية وعشرون
17	وجود المدرسة في بيئة تعج بالضوضاء	6	14.6	5	12.2	17	41.5	8	19.5	5	12.2	3.02	1.19	الثلاثون
18	غياب عوامل الأمن والسلامة في المباني	3	7.3	8	19.5	8	19.5	14	34.1	8	19.5	3.39	1.22	الحادية وعشرون
19	قلة مراعاة شروط السلامة والإجراءات المتبعة في حالة الطوارئ	3	7.3	6	14.6	13	31.7	10	24.4	9	22.0	3.39	1.20	العشرون
20	افتقار المبنى إلى مساحات كافية للطلاب	4	9.8	5	12.2	9	22.0	11	26.8	12	29.3	3.54	1.31	الثامنة عشر
21	ازدحام القاعات الدراسية بالطلاب	2	4.9	2	4.9	10	24.4	13	31.7	14	34.1	3.85	1.11	السابعة
22	ضعف الصيانة الدورية لمرافق المدرسة	1	2.4	4	9.8	8	19.5	13	31.7	15	36.6	3.90	1.09	السادسة
23	ضيق أماكن المطالعة لمرتادي المكتبة من الطلبة والعاملين	1	2.4	4	9.8	12	29.3	11	26.8	13	31.7	3.76	1.09	الثانية عشر
24	ضعف توفر التهوية المناسبة في الصف الدراسي	3	7.3	8	19.5	17	41.5	10	24.4	3	7.3	3.05	1.02	السابعة وعشرون
25	ضعف كفاية المختبرات العلمية لممارسة التجارب العملية	2	4.9	6	14.6	12	29.3	11	26.8	10	24.4	3.51	1.16	التاسعة عشر
26	عدم كفاية مباني الكليات لأعداد الطلبة المتزايدة	0.0	0.0	4	9.8	14	34.1	11	26.8	12	29.3	3.76	.99	الحادية عشر
27	قدم بعض الأجهزة والمعدات المستخدمة في العملية التدريسية	0.0	0.0	1	2.4	10	24.4	19	46.3	11	26.8	3.98	.79	الثالثة
28	غياب الخدمات عن المنطقة التي توجد بها المدرسة سواء أكانت طبية، اجتماعية، ثقافية، ترفيهية	0.0	0.0	5	12.2	10	24.4	14	34.1	12	29.3	3.80	1.01	الثامنة
29	الطرق المؤدية إلى المدرسة غير مهيأة	4	9.8	4	9.8	15	36.6	10	24.4	8	19.5	3.34	1.20	الرابعة وعشرون
30	دورات المياه غير ملائمة	2	4.9	5	12.2	11	26.8	10	24.4	13	31.7	3.66	1.20	الرابعة عشر
31	قلة الغرف المخصصة للمعلمين	1	2.4	4	9.8	9	22.0	10	24.4	17	41.5	3.93	1.13	الخامسة
	المتوسط العام للمحور											3.56	.62	

يتضح من الجدول رقم (4) أن المتوسطات الحسابية لاستجابات أفراد العيّنة تجاه العبارات الخاصة بـ " معوقات تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية "، تراوحت بين (4.17) و(3.00) لجميع استجابات أفراد العيّنة، وهذا يعني أن توفر مفردات هذا المحور متحققة بنسب متفاوتة، ويمكن تصنيف هذا الجزء من عبارات الاستبانة تنازلياً على النحو التالي:

- جاءت العبارة رقم (15) عدم توفر تدريب شامل وملائم للمعلمين لتطبيق معايير إدارة الجودة داخل الكليات، في المرتبة (الأولى) بمتوسط حسابي بلغ (4.17)، وبانحراف معياري بلغ (.95).
- جاءت العبارة رقم (11) قلة توافر حوافز كافية للمعلمين، في المرتبة (الثانية) بمتوسط حسابي بلغ (4.10)، وبانحراف معياري بلغ (1.16).
- جاءت العبارة رقم (27) قِدم بعض الأجهزة والمعدات المستخدمة في العملية التدريسية، في المرتبة (الثالثة) بمتوسط حسابي بلغ (3.98)، وبانحراف معياري بلغ (.79).
- جاءت العبارة رقم (13) افتقار المعلمين للمعرفة الكافية بمبادئ إدارة الجودة الشاملة، في المرتبة (الرابعة) بمتوسط حسابي بلغ (3.95)، وبانحراف معياري بلغ (1.00).
- جاءت العبارة رقم (31) قلة الغرف المخصصة للمعلمين، في المرتبة (الخامسة) بمتوسط حسابي بلغ (3.93)، وبانحراف معياري بلغ (1.13).
- جاءت العبارة رقم (22) ضعف الصيانة الدورية لمرافق المدرسة، في المرتبة (السادسة) بمتوسط حسابي بلغ (3.90)، وبانحراف معياري بلغ (1.09).
- جاءت العبارة رقم (21) ازدحام القاعات الدراسية بالطلاب، في المرتبة (السابعة) بمتوسط حسابي بلغ (3.85)، وبانحراف معياري بلغ (1.11).
- جاءت العبارة رقم (28) غياب الخدمات عن المنطقة التي توجد بها المدرسة سواء أكانت طبية، اجتماعية، ثقافية، ترفيهية، في المرتبة (الثامنة) بمتوسط حسابي بلغ (3.80)، وبانحراف معياري بلغ (1.01).
- جاءت العبارة رقم (14) عدم إتباع المعلمين لإجراءات عملية واضحة ومحددة من أجل تحقيق معايير الجودة، في المرتبة (التاسعة) بمتوسط حسابي بلغ (3.76)، وبانحراف معياري بلغ (.89).
- جاءت العبارة رقم (1) عدم ملائمة جودة الخدمة التعليمية المقدمة للطلاب ومستوى الخدمة التي تتفق مع رغباتهم وتوقعاتهم، في المرتبة (العاشرة) بمتوسط حسابي بلغ (3.76)، وبانحراف معياري بلغ (.97).
- جاءت العبارة رقم (26) عدم كفاية مباني الكليات لأعداد الطلبة المتزايدة، في المرتبة (الحادية عشر) بمتوسط حسابي بلغ (3.76)، وبانحراف معياري بلغ (.99).
- جاءت العبارة رقم (23) ضيق أماكن المطالعة لمرتادي المكتبة من الطلبة والعاملين، في المرتبة (الثانية عشر) بمتوسط حسابي بلغ (3.76)، وبانحراف معياري بلغ (1.09).
- جاءت العبارة رقم (5) انخفاض دافعية الطلاب نحو التعليم قبل الجامعي، في المرتبة (الثالثة عشر) بمتوسط حسابي بلغ (3.68)، وبانحراف معياري بلغ (1.15).
- جاءت العبارة رقم (30) دورات المياه غير ملائمة، في المرتبة (الرابعة عشر) بمتوسط حسابي بلغ (3.66)، وبانحراف معياري بلغ (1.20).
- جاءت العبارة رقم (7) عدم ملائمة أعداد المعلمين بالنسبة لعدد الطلاب، في المرتبة (الخامسة عشر) بمتوسط حسابي بلغ (3.61)، وبانحراف معياري بلغ (1.02).

- جاءت العبارة رقم (4) قلة كفاءة وفعالية نظام تقديم الخدمات ورعاية الطلاب، في المرتبة (السادسة عشر) بمتوسط حسابي بلغ (3.59)، وبانحراف معياري بلغ (.95).
- جاءت العبارة رقم (10) استخدام المعلمين للوسائل التقليدية في التدريس، في المرتبة (السابعة عشر) بمتوسط حسابي بلغ (3.59)، وبانحراف معياري بلغ (1.14).
- جاءت العبارة رقم (20) افتقار المبنى إلى مساحات كافية للطلاب، في المرتبة (الثامنة عشر) بمتوسط حسابي بلغ (3.54)، وبانحراف معياري بلغ (1.31).
- جاءت العبارة رقم (25) ضعف كفاية المختبرات العلمية لممارسة التجارب العملية، في المرتبة (التاسعة عشر) بمتوسط حسابي بلغ (3.51)، وبانحراف معياري بلغ (1.16).
- جاءت العبارة رقم (19) قلة مراعاة شروط السلامة والإجراءات المتبعة في حالة الطوارئ، في المرتبة (العشرون) بمتوسط حسابي بلغ (3.39)، وبانحراف معياري بلغ (1.20).
- جاءت العبارة رقم (18) غياب عوامل الأمن والسلامة في المباني، في المرتبة (الحادية وعشرون) بمتوسط حسابي بلغ (3.39)، وبانحراف معياري بلغ (1.22).
- جاءت العبارة رقم (16) مقاومة المعلمين لأي تغيير جديد، في المرتبة (الثانية وعشرون) بمتوسط حسابي بلغ (3.37)، وبانحراف معياري بلغ (1.16).
- جاءت العبارة رقم (6) افتقار الطلاب للمهارات التي تمكنهم من التعامل مع الأجهزة الحديثة والمختبرات العلمية، في المرتبة (الثالثة وعشرون) بمتوسط حسابي بلغ (3.34)، وبانحراف معياري بلغ (.96).
- جاءت العبارة رقم (29) الطرق المؤدية إلى المدرسة غير مهيأة، في المرتبة (الرابعة وعشرون) بمتوسط حسابي بلغ (3.34)، وبانحراف معياري بلغ (1.20).
- جاءت العبارة رقم (12) قلة توافر التخصصات المطلوبة لدى المعلمين، في المرتبة (الخامسة وعشرون) بمتوسط حسابي بلغ (3.29)، وبانحراف معياري بلغ (1.01).
- جاءت العبارة رقم (9) افتقار المعلمين للخبرات التربوية الكافية، في المرتبة (السادسة وعشرون) بمتوسط حسابي بلغ (3.27)، وبانحراف معياري بلغ (1.03).
- جاءت العبارة رقم (24) ضعف توفر التهوية المناسبة في الصف الدراسي، في المرتبة (السابعة وعشرون) بمتوسط حسابي بلغ (3.05)، وبانحراف معياري بلغ (1.02).
- جاءت العبارة رقم (8) ضعف الكفاءة الأكاديمية لدى المعلمين، في المرتبة (الثامنة وعشرون) بمتوسط حسابي بلغ (3.02)، وبانحراف معياري بلغ (1.04).
- جاءت العبارة رقم (2) عدم انتظام الطلاب في الحضور، في المرتبة (التاسعة وعشرون) بمتوسط حسابي بلغ (3.02)، وبانحراف معياري بلغ (1.06).
- جاءت العبارة رقم (17) وجود المدرسة في بيئة تعج بالضوضاء، في المرتبة (الثلاثون) بمتوسط حسابي بلغ (3.02)، وبانحراف معياري بلغ (1.19).

- جاءت العبارة رقم (3) ضعف العلاقات الإنسانية بين الطلاب والمعلمين، في المرتبة (الحادية وثلاثون) بمتوسط حسابي بلغ (3.00)، وبانحراف معياري بلغ (1.16).

حصل المحور الثاني "معوقات تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية" على درجة استجابة "مرتفعة" حيث بلغ المتوسط العام للمحور (3.56) مما يدل على كثرة المعوقات التي تحول دون تحقيق مدارس التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية الجودة في التعليم؛ ويرجع ذلك إلى وجود بعض أوجه القصور في تطبيق إدارة الجودة في التعليم بالمملكة، وعدم اهتمام الإدارات المعنية بوضع آليات شأنها أن تجمع المعلومات عن التعليم والعمل عليها باستمرار لضمان عدم الوقوع في الأخطاء، وهذا يتفق مع ما قد أشارت إليه دراسة (العصيمي 2007) حيث ذكرت أن تحقيق الجودة يواجه العديد من المشاكل والصعوبات من أهمها وجود قصور في تطبيق إدارة الجودة، و عدم تحديد معايير لقياس أداء العاملين في التعليم، وعدم وضع معايير لقياس الجودة أثناء العمليات.

وتمثلت أعلى المتوسطات في فقرات عدم توفر تدريب شامل وملائم للمعلمين لتطبيق معايير إدارة الجودة داخل الكليات، وقلة توافر حوافز كافية للمعلمين، وقِدم بعض الأجهزة والمعدات المستخدمة في العملية التدريسية حيث حصلت على درجة استجابة (مرتفعة) بين أفراد العينة ويرجع ذلك إلى عدم اهتمام الإدارات المعنية، والمنوطين بالعملية التربوية والتعليمية بتحقيق نظام الجودة ربما لعدم رغبتهم في التجديد المستمر، وتطوير مستويات كفاءاتهم المهنية، أو لعدم قدرتهم على تحفيز المعلمين مادياً ومعنوياً لإخراج كافة قدراتهم العلمية والتدريسية التي تؤدي إلى الاتجاه صوب الجودة التعليمية، مما يزيد من العقبات التي تحول بينهم وبين تحقيق الجودة في التعليم، وهذا يتفق مع ما قد أشارت إليه دراسة (Shadreck, 2012) حيث ذكرت أن من أكثر العوامل سلبية على جودة التعليم ضعف الأجور للمعلمين، ونقص الموارد المناسبة، وسوء المباني، والمرافق التعليمية، وأوصت بدفع علاوات شهرية للمعلمين، وتوفير المنح للمعلمين الراغبين في تحصيل المزيد من التعليم وتقديم المزيد من برامج التنمية المهنية للمعلمين.

بينما حصلت فقرات وجود المدرسة في بيئة تعج بالضوضاء، وضعف العلاقات الإنسانية بين الطلاب والمعلمين على درجة استجابة (متوسطة) بين أفراد العينة وربما يعزى ذلك إلى عدم قدرة الإدارة المدرسية إلى حد ما بتوفير كافة متطلبات تحقيق الجودة التعليمية، وعدم اهتمامها بشكل نسبي بتوفير بيئة صفية مناسبة لتحقيق أكبر قدر ممكن من التحصيل الدراسي بالنسبة للطلاب، وعدم قدرة المعلمين إلى حد ما في كسب ثقة الطلاب، وتمثيل القدوة الحسنة بالنسبة يعمل على زيادة الفجوة بينهم على المستوى الإنساني، والاجتماعي، وبالتالي يؤثر سلباً على سير العملية التعليمية؛ ويحول دون تحقيق الجودة، ويرى الباحث ضرورة اهتمام الإدارات المعنية بشكل أكبر بالعمل على الحد من القصور في العملية التعليمية في التعليم قبل الجامعي بالمملكة، من خلال توفير كافة متطلبات الجودة خاصة أن معظم الدول المتقدمة ترى في جودة التعليم الأمل في تحسين الوضع المجتمعي، وأنها أولى خطوات الإصلاح على كافة المستويات، التعليمية، والأخلاقية، والاجتماعية، والإنسانية، وهذا يتفق مع ما أشارت إليه العديد من الدراسات منها دراسة (Ayeni, 2011) التي ذكرت أن السياسة التعليمية يجب أن تعمل على تحسين أوجه القصور في المستويات التعليمية السابقة للتعليم العالي، ودراسة (العساف والصرايرة،2011) حيث ذكرت أن الجودة الشاملة هي التحدي الحقيقي الذي ستواجهه الأمم في العقود القادمة، لأن المجتمع العالمي ينظر إلى الجودة الشاملة والإصلاح التربوي باعتبارهما وجهين لعملة واحدة.

ثالثاً: النتائج المتعلقة بالإجابة عن السؤال الثالث ومناقشتها وينص السؤال الثالث على: "هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية حول المنطلقات التربوية لتحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية تعزى لمتغيرات الدراسة (المؤهل –الخبرة- الدورات التدريبية) ؟ وللإجابة عن هذا السؤال تم حساب اختبار "تحليل التباين الأحادي"(One Way ANOVA) لتوضيح دلالة الفروق في إجابات مفردات عينة الدراسة طبقاً لمتغيرات الدراسة (المؤهل، وسنوات الخبرة, وعدد الدورات التدريبية) وكانت نتائج التحليل حول ما يتضمنه محاور الدراسة كما هو موضح بالجداول التالية:

أ- الفروق باختلاف متغير المؤهل :

الجدول رقم (5)

نتائج " تحليل التباين الأحادي " (One Way ANOVA) للفروق في إجابات مفردات عينة الدراسة حول محاور الدراسة طبقاً لمتغير المؤهل

المحور	مصدر التباين	مجموع مربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات	قيمة ف	الدلالة الإحصائية
المحور الأول: أسباب ودوافع تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية	بين المجموعات	.295	1	.295	.771	.385
	داخل المجموعات	14.922	39	.383		
	المجموع	15.217	40			
المحور الثاني: معوقات تحقيق الجودة في التعليم الجامعي في المملكة العربية السعودية	بين المجموعات	.195	1	.195	.494	.486
	داخل المجموعات	15.403	39	.395		
	المجموع	15.598	40			
الدرجة الكلية	بين المجموعات	.001	1	.001	.004	.951
	داخل المجموعات	6.853	39	.176		
	المجموع	6.853	40			

يتضح من خلال النتائج الموضحة أعلاه عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى 0.05 فأقل في استجابات أفراد عينة البحث طبقاً لاختلاف متغير المؤهل حول المنطلقات التربوية لتحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية من وجهة نظر مدراء المدارس الثانوية بمحافظات صبيا التعليمية.

ب- الفروق باختلاف متغير سنوات الخبرة :

الجدول رقم (6)

نتائج " تحليل التباين الأحادي " (One Way ANOVA) للفروق في إجابات مفردات عينة الدراسة حول محاور الدراسة طبقاً لمتغير سنوات الخبرة

المحور	مصدر التباين	مجموع مربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات	قيمة ف	الدلالة الإحصائية
المحور الأول: أسباب ودوافع تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية	بين المجموعات	.427	3	.142	.356	.785
	داخل المجموعات	14.791	37	.400		

المحور	مصدر التباين	مجموع مربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات	قيمة ف	الدلالة الإحصائية
	المجموع	15.217	40			
المحور الثاني: معوقات تحقيق الجودة في التعليم الجامعي في المملكة العربية السعودية	بين المجموعات	.074	3	.025	.058	.981
	داخل المجموعات	15.524	37	.420		
	المجموع	15.598	40			
الدرجة الكلية	بين المجموعات	.164	3	.055	.302	.824
	داخل المجموعات	6.690	37	.181		
	المجموع	6.853	40			

يتضح من خلال النتائج الموضحة أعلاه عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى 0.05 فأقل في استجابات أفراد عينة البحث طبقاً لاختلاف متغير سنوات الخبرة حول المنطلقات التربوية لتحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية من وجهة نظر مدراء المدارس الثانوية بمحافظات صبيا التعليمية.

ج- الفروق باختلاف متغير الدورات التدريبية :

الجدول رقم (7)

نتائج " تحليل التباين الأحادي " (One Way ANOVA) للفروق في إجابات مفردات عينة الدراسة حول محاور الدراسة طبقاً لمتغير **الدورات التدريبية**

المحور	مصدر التباين	مجموع مربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات	قيمة ف	الدلالة الإحصائية
المحور الأول: أسباب ودوافع تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية	بين المجموعات	.670	2	.335	.874	.425
	داخل المجموعات	14.548	38	.383		
	المجموع	15.217	40			
المحور الثاني: معوقات تحقيق الجودة في التعليم الجامعي في المملكة العربية السعودية	بين المجموعات	.825	2	.413	1.061	.356
	داخل المجموعات	14.773	38	.389		
	المجموع	15.598	40			
الدرجة الكلية	بين المجموعات	.163	2	.081	.462	.633
	داخل المجموعات	6.690	38	.176		
	المجموع	6.853	40			

يتضح من خلال النتائج الموضحة أعلاه عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى 0.05 فأقل في استجابات أفراد عينة البحث طبقاً لاختلاف متغير الدورات التدريبية حول المنطلقات التربوية لتحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية من وجهة نظر مدراء المدارس الثانوية بمحافظات صبيا التعليمية.

ملخص النتائج و التوصيات و المقترحات

أولاً: ملخص نتائج الدراسة .

1. حصل المحور الأول أسباب ودوافع تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية على درجة مرتفعة حيث بلغ المتوسط العام (3.36) وكانت أبرز فقراته تطبيق الجودة يتيح الفرصة للنقاش والحوار المثمر البناء ويسهم في التغلب على الخوف والتردد، وتزايد اهتمام واضعي السياسات والقيادات التعليمية العليا نحو التبني بقوة لنشر ثقافة الجودة. وأقل درجاته كانت الإطلاع على خبرات وبرامج بعض الدول المتقدمة في مجال تطبيق الجودة.
2. حصل المحور الثاني معوقات تحقيق الجودة في التعليم الجامعي في المملكة العربية السعودية على درجة مرتفعة حيث بلغ المتوسط العام (3.56) وكانت أبرز فقراته عدم توفر تدريب شامل وملائم للمعلمين لتطبيق معايير إدارة الجودة داخل الكليات، وقلة توافر حوافز كافية للمعلمين. وأقل درجاته كانت ضعف العلاقات الإنسانية بين الطلاب والمعلمين.
3. عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى 0.05 فأقل في استجابات أفراد عينة البحث طبقاً لاختلاف متغير المؤهل حول المنطلقات التربوية لتحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية من وجهة نظر مدراء المدارس الثانوية بمحافظات صبيا التعليمية.
4. عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى 0.05 فأقل في استجابات أفراد عينة البحث طبقاً لاختلاف متغير سنوات الخبرة حول المنطلقات التربوية لتحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية من وجهة نظر مدراء المدارس الثانوية بمحافظات صبيا التعليمية.
5. عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى 0.05 فأقل في استجابات أفراد عينة البحث طبقاً لاختلاف متغير الدورات التدريبية حول المنطلقات التربوية لتحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية من وجهة نظر مدراء المدارس الثانوية بمحافظات صبيا التعليمية.

ثانياً: التوصيات:

- تعزيز التوجه نحو تحقيق الجودة في التعليم قبل الجامعي في المملكة العربية السعودية.
- تغيير سياسة التعيينات من خلال أساليب ومعايير تضمن اختيار الشخص المناسب للتعليم.
- التأكيد علي الاستفادة من البحوث والمشروعات التي تتعلق بسبل تطبيق الجودة في مدارس التعليم قبل الجامعي.
- تخصيص ميزانية بمدارس التعليم قبل الجامعي خاصة بتطوير العمل وتطبيق معايير الجودة.
- ضرورة العمل على بناء هيكل إداري بأهداف محددة يدعم مسيرة العمل في مدارس التعليم قبل الجامعي في ضوء معايير الجودة.
- التأكيد على أهمية العدل والمساواة في تعامل القيادات مع العاملين في مدارس التعليم قبل الجامعي.
- التأكيد على أهمية توفير بيئة العمل المناسبة ليتمكن العاملون من تطوير أدائهم.
- اقتراح تدريب شمولي وبشكل متدرج مع الزمن لجميع القيادات والعاملين في مدارس التعليم قبل الجامعي.

- وضع نظام حوافز يمكن من خلاله تشجيع المبادرات الفردية والجماعية التي تسهم في تطوير العمل (التقدم الوظيفي- زيادة الدخل- الاعتراف والتقدير الرسمي.. الخ)
- رصد مكافأة / جائزة للتطور المهني والتعلم المستمر لدى العاملين (كمكافأة الحصول على مؤهل أعلى .. الخ)
- إعطاء أهمية كبيرة للحوافز المادية والمعنوية، لما لها من تأثير في زيادة فعالية أداء العاملين.
- تشجيع قنوات الاتصال والعلاقات الاجتماعية بين والقيادات والعاملين أنفسهم
- مراجعة القوانين والأنظمة والتعليمات التي تحد أو تقيد من تطبيق معايير الجودة في المدارس.

ثالثاً: المقترحات:

- إجراء مزيد من الدراسات حول الموضوع الحالي في محافظات أخرى من المملكة العربية السعودية في مدارس المرحلة قبل الجامعية.
- إجراء المزيد من الدراسات المستقبلية التي تعمل على التعريف بنظام الجودة في التعليم الثانوي وكيفية تطبيق وتحديد متطلباتها.
- تقديم تصور مقترح من قبل الباحثين والخبراء التربويين للتغلب على المعوقات التي تحول دون تحقيق الجودة في التعليم.

المراجع

أولا: المراجع العربية

آل مداوي، عبير محفوظ محمد (2007). متطلبات تطبيق الجودة الشاملة في الإدارة المدرسية بمرحلة التعليم الثانوي العام للمملكة العربية السعودية في ضوء الفكر الإداري المعاصر، رسالة دكتوراه، كلية التربية، جامعة الملك خالد، المملكة العربية السعودية.

الطاهر، مهدي بن أحمد (2008). أثر تطبيق نظام ضمان الجودة التعليمية في تنمية قدرات التفكير الابتكاري وزيادة التحصيل الدراسي لدى طلاب الصف الأول المتوسط بمدينة سيهات بالمنطقة الشرقية، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية

الورثان، عدنان بن أحمد بن راشد (2007). مدى تقبل المعلمين لمعايير الجودة الشاملة في التعليم دراسة ميدانية بمحافظة الإحساء، بحث في مؤتمر اللقاء السنوية الرابع عشر للجمعية السعودية للعلوم التربوية والنفسية.

ابن عيشاوي، أحمد (2011) إدارة الجودة الشاملة (TQM) في المؤسسات الخدمية، مجلة الباحث، ع (4) , جامعة قاصدي مرباح، الجزائر.

أبو عبده، فاطمة عيسى (2011). درجة تطبيق معايير إدارة الجودة الشاملة في مدارس محافظة نابلس من وجهة نظر المديرين فيها، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين.

الراشد، محمد بن عبد العزيز (2011) إدارة الجودة الشاملة دراسة نظرية ونموذج مقترح لها في مكتبة الملك فهد الوطنية، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية ع 17 (2) 1- 30

عبد العزيز ، وفاء محمد حسين; البهواشي ، (2011) تطوير الهيكل التنظيمي لمدرسة الحلقة الأولى من التعليم الأساسي الخاص بشمال سيناء باستخدام مدخل إدارة الجودة الشاملة. مجلة القراءة والمعرفة -مصر , ع (111), ص ص 190 – 210

العتيبي، فهد بن عباس (1425هـ) إسهام القطاع الخاص في تمويل التعليم العام بالمملكة العربية السعودية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية ، جامعة الملك سعود، الرياض.

العساف ، ليلى؛ والصرايرة ، خالد (2011) أنموذج مقترح لتطوير إدارة المؤسسة التعليمية في الأردن في ضوء فلسفة إدارة الجودة الشاملة. مجلة جامعة دمشق ع: 27

العصيمي ، خالد بن محمد حمدان (2007) أسس ومتطلبات إدارة الجودة الشاملة في سياسة التعليم بالمملكة العربية السعودية، اللقاء السنوي الرابع عشر بعنوان "الجودة في التعليم العام" ، الجمعية السعودية للعلوم التربوية والنفسية "جستن" ، القصيم (28- 29 ربيع الآخر 1428هـ.

العنزي، بشرى بنت خلف (2007) تطوير كفايات المعلم في ضوء معايير الجودة في التعليم العام، اللقاء السنوي الرابع عشر بعنوان "الجودة في التعليم العام" ، الجمعية السعودية للعلوم التربوية والنفسية "جستن" ، القصيم (28- 29 ربيع الآخر 1428هـ).

صابر , فاطمة عوض وميرفت علي خفاجة (2002) , **أسس ومبادئ البحث العلمي** , – ط 1 مكتبة الإشعاع , الإسكندرية.

محمود، نصر محمد (2007)، دور مجالس الأمناء والآباء والمعلمين في تحقيق بعض متطلبات الجودة بمدارس التعليم الأساسي "دراسة تحليلية- ميدانية"، المجلة العلمية ،كلية التربية ، جامعة أسيوط، 23 (2) 334- 429

منصور ، نعمة عبد الرؤوف عبد الهادي (2005) تصور مقترح لتوظيف مبادئ إدارة الجودة الشاملة في المدارس الثانوية بمحافظات غزة، رسالة ماجستير غير منشورة،كلية التربية ، الجامعة الإسلامية، غزة.

ثانياً: المراجع الأجنبية

Ayeni, Adeolu Joshua. (2012). Assessment of Principals' Supervisory Roles for Quality Assurance In Secondary Schools in Ondo State, Nigeria. World Journal of Education, Vol. 2, No. 1, P.62-69.

Bandele, S.O; & Ajayi, S. A.(2013). Development of Accountability Scale for Quality Education in Nigerian Secondary Schools. Mediterranean Journal of Social Sciences, Vol. 4, No. 3, p. 695-699.

Eid, Mahmoud Omar Ahmed. (2013). Using the Cost- Effectiveness Analysis to Analyze Quality of Education and Accreditation for Some Basic Education Schools. PhD. Thesis. Fayoum University.

Ghailani, Juma S; & Khan, Sami A. (2004). Quality Of Secondary Education And Labour Market Requirement. Journal of Services Research, Vol. 4,

ISSA, Cristina Floreta. (2012). Modern approaches in the pre-university educational institutions. Proceedings of the 6th international management conferencek "approaches in organisational management" 15-16 November 2012, Bucharest, Romania

Michaelowa, Katharina. (2007). The impact of primary and secondary education on higher education quality. Quality Assurance in Education, Vol. 15, No. 2, P. 215-236.

Ojedokun, O. E. (2012). Standards Responsible for the Decline in Quality Of Secondary Education in Nigeria. World Journal of Education, Vol. 2, No.2. P. 76-84.

Shadreck, Madina. (2012). Quality Rural Secondary School Education in Zimbabwe: Challenges and Remedies. Journal of Emerging Trends in Educational Research and Policy Studies, Vol. 3, No. 5, P. 768- 774.

استراتجيات تعليم التربية البيئية في المدارس الابتدائية الجزائرية ودورها في نشر الوعي البيئي لدى التلاميذ

(عرض لنماذج من الدراسات الأكاديمية حول التربية البيئية في المدرسة الجزائرية)

الأستاذة: رباحي فضيلة
قسم علم الاجتماع و الديموغرافيا
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
جامعة البليدة 2- علي لونيسي

ملخص:

لم تقف الدراسات النفسية والاجتماعية عند حد تأكيد أهمية السنوات المبكرة وتأثيرها على النمو العقلي والمعرفي، بل أكدت أهمية تحديات المدرسة في هذا النمو ، باعتبارها مؤسسة نظامية لها تأثير واسع على الأطفال في تنشئة سلوكياتهم وأفكارهم وممارستهم وطبائعهم على القيم الفاضلة التي يريدها المجتمع لهم ومنها القيم البيئية ... لما لها من دور هام في تنمية الوعي البيئي بما تبثه في الأطفال من قيم بيئية واجتماعية خصوصا في مجال النظافة الشخصية والمكانية والتشجير وحماية البيئة وما تزرع فيهم من إقناع بالسلوكيات البيئية، من خلال القدوة البيئية ومناهجها الدراسية المتعددة وأنشطتها المتنوعة باعتبار ذلك أسلوبا وقائيا وسبيلا للخفض من السلوكيات البيئية الضارة وما ينجم عنها من أضرار ومشاكل التلوث بمختلف أنواعها والكوارث الصحية التي تنتج عن التلوث البيئي .

وقد دلت العديد من الدراسات على أن الجزائر من بين الدول التي أعطت أهمية للتربية البيئية في التعليم الابتدائي ويتضح هذا من التعديلات والإصلاحات التي قامت بها في المنظومة التربوية حيث تم دمج مواضيع متعلقة بالبيئة في المواد الدراسية وإدراج بعض الأنشطة المدرسية اللاصفية لتدعيم هذه المواد ، فخصصت الحقيبة البيئية للتلاميذ وبرامج إنشاء النادي الأخضر الموجه لجميع الفئات المتواجدين داخل المدرسة كل ذلك في إطار التربية البيئية التي أقرتها كل من وزارتي التربية الوطنية وتهيئة الإقليم والبيئة بمشاركة مربين ومختصين.

وفي هذا السياق نجد أنفسنا أمام تساؤلات نحاول الإجابة عليها في إطار هذا المقال باستعراض بعض الدراسات الأكاديمية المحلية لما توصلت إليه من نتائج حول التربية البيئة في الجزائر مفادها:

- ماذا نقصد بكل من مفهوم التربية البيئة، التلوث البيئي، الوعي البيئي، المدرسة الابتدائية، الوسائل التعليمية، الأنشطة اللاصفية ؟
- هل الاستخدام المدرسة الابتدائية للمواد البيئية له علاقة بتنمية الوعي البيئي لدى الطفل الجزائري ؟
- ما هو التصور الاستراتيجي للارتقاء بمستوى التربية البيئية لطفل في المدرسة الجزائرية على المستويين الكمي و الكيفي للخفض من السلوكيات الضارة بالبيئية ؟

مقدمة :

لم تقف الدراسات النفسية والاجتماعية عند حد تأكيد أهمية السنوات المبكرة وتأثيرها على النمو العقلي والمعرفي، بل أكدت أهمية تحديات المدرسة في هذا النمو ، باعتبارها مؤسسة نظامية لها تأثير واسع على الأطفال في تنشئة سلوكياتهم وأفكارهم وممارستهم وطبائعهم على القيم الفاضلة التي يريدها المجتمع لهم ومنها القيم البيئية ... لما لها من دور هام في تنمية الوعي البيئي بما تبثه في الأطفال من قيم بيئية واجتماعية خصوصا في مجال النظافة الشخصية والمكانية والتشجير وحماية البيئة وما تزرع فيهم من إقناع بالسلوكيات البيئية، من خلال القدوة البيئية ومناهجها الدراسية المتعددة وأنشطتها المتنوعة باعتبار ذلك أسلوبا وقائيا وسبيلا للخفض من السلوكيات الضارة بالبيئية وما ينجم عنها من أضرار ومشاكل التلوث بمختلف أنواعها والكوارث الصحية التي تنتج عن التلوث البيئي .

وقد دلت العديد من الدراسات على أن الجزائر من بين الدول التي أعطت أهمية للتربية البيئية في التعليم الابتدائي ويتضح هذا من التعديلات والإصلاحات التي قامت بها في المنظومة التربوية حيث تم دمج مواضيع متعلقة بالبيئة في المواد الدراسية وإدراج بعض الأنشطة المدرسية اللاصفية لتدعيم هذه المواد ، فخصصت الحقيبة البيئية للتلاميذ وبرامج إنشاء النادي الأخضر الموجه لجميع الفئات المتواجدين داخل المدرسة كل ذلك في إطار التربية البيئية التي أقرتها كل من وزارتي التربية الوطنية وتهيئة الإقليم والبيئة بمشاركة مربين ومختصين.

وعلى هذا الأساس جاء هذا المقال لمعرفة دور إستراتجية تعليم التربية البيئية في المدارس لنشر الوعي البيئي لدى التلاميذ ؟ وهل الإستراتجية الموضوعة من طرف الدولة لتدريس مادة التربية البيئية كافية لتحقيق الوعي البيئي لدى التلاميذ ؟ وماهو التصور الاستراتجي للارتقاء بمستوى تعليم التربية البيئية لطفل في المدرسة الجزائرية على المستويين الكمي والكيفي للخفض من السلوكيات الضارة بالبيئة ؟

أولا : تحديد بعض المفاهيم :

1- مفهوم الإستراتجية التعليمية : هي مجموعة من المهارات والأساليب الهامة والضرورية لعمل المعلم في حقل التدريس ، أو هو كل ما يتعلق بأسلوب توصيل المادة للتلاميذ من قبل المعلم لتحقيق هدف ما وذلك يشمل الطرق والأساليب وكل الوسائل الإيضاح التعليمية التي يتخذها المعلم لضبط الصف ولتقريب التلاميذ من الأفكار والمفاهيم المبتغاة مما تعمل على إثارة تفاعلهم و دافعيتهم لاستقبال المعلومات .

1- التربية البيئية :

يعتبر مفهوم التربية البيئية مفهوما جديدا لم يتبلور إلا بعد مؤتمر ستوكهولم في السويد عام 1972، غير أن جذورها الفكرية قديمة. ويمكن أن نعرفها على أنها عملية تربوية موجهة لكافة شرائح المجتمع لتعديل سلوكهم نحو البيئة وتساعدهم على اكتساب معلومات وقيم حولها لفهم العلاقات المعقدة بين الإنسان وبيئيته ومحاولة إيجاد حلول لمشاكلها ، وبالتالي سنركز في ه على التربية البيئية الموجهة للمدرسة الابتدائية والتي تدخل في إطار التعليم النظامي .[(1)]

[(1)] اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي ، الطفولة والمستقبل، (دراسات في اعلام وثقافة وأدب وحقوق الطفل)، الاسكندرية، مركز الاسكندرية للكتاب ، 2005، ص14-15

2- التلوث البيئي :

هو أي تغير يطرأ على أي من مكونات البيئة والموارد الطبيعية مثل الماء أو الهواء أو التربة مما يجعلها غير صالحة للاستخدامات المحددة لها، وخصوصا إذا كان هذا التلوث من جراء أفعال الإنسان وتصرفاته مثل إلقاء المخلفات دون أي معالجة في المجاري المائية أو على التربة أو في الهواء مما يؤدي لتغيير الصفات الطبيعية لهذه العناصر البيئية .(1)

3- التوعية البيئية :

ما هي إلا نشر الوعي عند الأطفال لإقناعهم بفكرة معينة أو رأي ما واتخاذ منهج سلوكي معين لتحقيق نتائج تهدف إليها حملة التوعية، من تزويد الطفل بالمعلومات البيئية الصحيحة أو في تشكيل الاتجاهات والمواقف تجاه قضايا البيئية. فالتوعية البيئية تتضمن إدراك وجود مشكلة بيئية وتجنب أثارها الضارة وكذلك إدراك الأطفال بأهمية الحفاظ على البيئة ، وإدراك الواقع المجتمعي وترجمة هذا الإدراك إلى واقع من السلوك الفعلي مما يدفع الأطفال إلى التعاون مع الغير والمشاركة في تحمل المسؤولية لتحقيق تنمية بيئية متواصلة والمساهمة في علاج المشاكل البيئية.(2)

4- الوسائل التعليمية :

والمقصود بها أدوات للتعلم التي يستخدمها المعلم لتحسين عملية التعليم لتوضيح المعاني والأفكار أو التدريب على المهارات أو تعويد التلاميذ على السلوكيات الصحيحة التي تنمي اتجاهاتهم وغرس القيم الثقافة البيئية المرغوب فيها ، والتي تعمل على نشر الوعي البيئي مثل الكتب المدرسية وهي تمثل المواد الدراسية وهذا حتى يتم معرفة محتوى ومواضيع التربية البيئية في الكتب، وما إذا كانت هذه المواضيع مترابطة في جميع المواد وتعمل على توضيح علاقة الإنسان بالبيئة والمشاكل البيئية في الجزائر بالإضافة إلى دورها في تحقيق أهداف التربية البيئية.(3)

5- الأنشطة اللاصفية:

وهي أنشطة المتعلقة بالبيئة التي أقرتها وزارة التربية الوطنية بمشاركة وزارة تهيئة الإقليم والبيئة وهي ضرورية في العملية التعليمية تساند ما جاء في المقررات الدراسية وتساعد التلاميذ على اكتشاف قدراتهم وميولهم وتعمل على تنميتها وتحسينها وتتيح لهم الفرصة للاتصال بالبيئة والتعامل معها لتحقيق مزيد من التفاعل والاندماج.(4)

ثانيا : المدرسة الجزائرية والتربية البيئية

1 -المدرسة مؤسسة تربوية تثقيفية :

تأتي أهمية المدرسة من كونها الحلقة المتوسطة التي يمر فيها الطفل في دور يقع عادة بين مرحلة الطفولة الأولى التي يقضيها الطفل في منزله ، ومرحلة اكتمال نموه ، التي يضطلع فيها بمسئولياته في المجتمع، ولهذا وجب أن يكون هناك اتصال وثيق جدا بين الحلقات الثلاث وهي المنزل والمدرسة والمجتمع، بحيث يكون هذا الانتقال متدرجا تدرجا طبيعيا. كما تعد من أهم المؤسسات التي

(1) اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي ، تلوث البيئة مشكلة العصر ، القاهرة ، دار المعارف ، 1984 ، ص 9-10

(2) جمال الدين السيد علي صالح ، الاعلام البيئي بين النظرية والتطبيق ، الاسكندرية ، مركز الاسكندرية للكتاب ، 2003 ، ص 24.

(3) أحمد خيري كاظم وجابر عبد الحميد جابر، الوسائل التعليمية والمنهج، دار الفجر،عمان ،"1، 2007ً ،ص 32

(4) ابراهيم بسيوني عميرة ،الأنشطة العلمية غير الصفية ونوادي العلوم ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، 1998 ، ص 55

يعهد إليها المجتمع بمهمة رعاية أبنائه وتنشئتهم وإكسابهم القيم والاتجاهات وأنماط السلوك البناءة إلى جانب إكسابهم المعارف والمهارات(1)

وتقوم المدرسة في كل مجتمع بوظيفة هامة تتأثر بها دون غيرها من الأوساط التربوية الأخرى ، ألا وهي تعليم الصغار لتمكين التربية من القيام بعملية النقل الثقافي للمحافظة على التراث البشري والعمل على استمرار نموه . وترجع أهمية التعليم إلى أنها تمثل الوسيلة الأساسية للتحصيل المعرفي للطفل وللتثقيف الذاتي وتنمية إحساسه بمشكلات مجتمعه ،والمساهمة في حل تلك المشكلات بشكل ايجابي وصادق ، وذلك باستخدام الأساليب العلمية المتطورة ، ولا سيما بعد انشغال الوالدين عن القيام بمهمة تثقيف الطفل لازدياد وتعقد أعباء الحياة في مجتمعنا الحديث ، مما يساعد على إكساب الطفل الثقة بنفسه والاستقلال عن الكبار في التحصيل.(2)

ونظرا لما يتعرض له من أزمات بيئية عديدة كالتلوث والتصحر والفيضانات وازدحام المدن والفقر ... ، تتراكم فيه المشاكل البيئية بشكل يتطلب سرعة ملاحقتها ، ولذلك صادقت الجزائر بالمؤتمرات الدولية على ضرورة تطبيق التربية البيئية في المدارس الابتدائية لنشر الوعي البيئي بين أفراد المجتمع ، حيث باشرت كل من وزارتي التربية الوطنية ووزارة تهيئة الإقليم والبيئة إلى تجسيد برنامج بيئي مدرسي من أجل حماية البيئة في الجزائر وتحقيق التنمية المستدامة، والمساهمة في حماية البيئة العالمية فكان من أولويات هذا البرنامج الاعتناء بالمعلم وإعداده ليكون قدوة ومثلا في مجال الممارسات البيئية السليمة ، والتأكيد على دوره الفعال في نجاح التربية البيئية وتحقيق أهدافها وخصصت أدوات ووسائل تعليمية وكذا الأنشطة اللاصفية تساعد في انجاز هذه العملية. هذا ما سنعرضه في العنصر الموالي بعد توضيح أهداف التربية البيئية في المدارس الابتدائية الجزائرية.(3)

- مساعدة المتعلمين على تكوين الوعي شامل بالبيئة وبالمشكلات التي تهددها .
- تساهم في إكساب المتعلمين خبرات متنوعة حول البيئة ومشكلاتها ، وتحقيق فهم أساسي لها أي أن يكتسب معارف متنوعة عن بيئته ، ويحدد المشكلات والأخطار التي تتعرض لها البيئة .
- مساعدتهم على تطوير قيم وأحاسيس إيجابية نحو بيئتهم وتحفيزهم على ا

يتشكل لدى المتعلم وعي بيئي يسمح له بترشيد استغلال بيئته بقدر الجهود المبذولة حمايتها.

- مساعدة المتعلمين على اكتساب الكفاءات اللازمة للتعرف على المشكلات البيئية التي تؤهلهم لاتخاذ القرارات المناسبة للحد من التعدي على البيئة واقتراح حلول للمشكلات الراهنة في حدود إمكاناتهم .
- تزويدهم بالإمكانات التي تسمح لهم بالمساهمة الفعالة على جميع المستويات في حل المشكلات البيئية

2 - مجالات تأثير المدرسة في ممارسة التربية البيئية للأطفال (الجزائر نموذج):

2-1- إعداد المعلم وتكوينه في مجال التربية البيئية :

لقد تعددت الدراسات التي أكدت على أهمية و ضرورة إعداد المعلم باعتباره حجر الزاوية والعامل الأساسي في نجاح العملية التعليمية إذا ما تم إعداده وتدريبه طبقا للأساليب التربوية المعاصرة ، ليس فقط في الجانب العلمي والمعرفي ، وإنما في جانب المهارات المهنية والفنية المتصلة بالعمل التربوي وفي ظل الاتجاهات التربوية المعاصرة يحتاج المعلم إلى أن يتزود بقدر معين من الثقافة

(1) فوزية زخروفة، التربية البيئية في الوسط المدرسي، مجلة البيئة، مديرية البيئة لأم البواقي، الجزائر، ص5.
(2) أحمد عبد الله العلى، الطفل والتربية الثقافية ، رؤية مستقبلية للقرن الحادي والعشرين)، القاهرة ،دار الكتاب الحديث، 2002 ، ص 56- 58
(3) وزارة التربية الوطنية ووزارة تهيئة الاقليم والبيئة : النادي الأخضر المدرسي ، الجزائر ، ط2، 2004 . ، ص 6-7

العامة لكي يتمكن من تثقيف تلاميذه ،لذا نجد أن المعلم لا يحتاج إلى استيعاب المادة التثقيفية بقدر ما يحتاج إلى اكتساب المهارة والقدرة على إثارة ميل الطفل نحو إكساب الرغبة في التزود المعرفي وإتقان ممارسة أفضل الطرق لتوصيل مادته وكيفية تكيفها لكي تتناسب مع عقلية الطفل ومرحلة نموه.[1]

ولعل من أهم العوامل التي تقرر مستوى كفاءة المعلم هو التأهيل المهني الذي توفره مؤسسات تعليمية في إعداد المعلمين من خلال دورات تكوينية ،لذا ينبغي أن يعد المعلم إعدادا علميا ومهنيا خاصا يمكنه من ممارسة مهنته بطريقة تجعله قادرا على نقل المعرفة إلى تلاميذه متمكنا من تنمية مواهبهم وصقلها وتشجيعهم على البحث.

وعليه فالمعلم إذا يعد من العوامل الأساسية في نجاح التربية البيئية وتحقيقها لأهدافها ، وهذا يتطلب منه أن تتيح له الفرص الكافية لدراسة التربية البيئية ، وأن لا تكون هذه الدراسة سطحية بل تكون قائمة على الفهم والوعي والاقتناع الكافي حتى يستطيع أن يكون قدوة ومثلا في مجال الممارسات البيئية السليمة ، لذا تعتبر الحاجة إلى المعلمين الأكفاء وإلى برامج فعالة لتدريبهم والارتفاع بمستواهم موضع اهتمام ورعاية كل الباحثين والمهتمين بحماية البيئة والمشتركين في المؤتمرات الوطنية والعالمية. ولكن هل يتم إعداد وتأطير المعلمين بالتعليم الابتدائي في مدارسنا في مجال التربية البيئية .

استنادا على دراسة ميدانية تمت بمدينة قسنطينة على عينة ضمت فئة معلمي السنة الرابعة ابتدائي موزعين على 135 مدرسة ابتدائية في إطار تخصص علم الاجتماع بعنوان " التربية البيئية في المدارس الابتدائية من وجهة نظر المعلمين لسنة الجامعية 2008- 2009 كشفت نتائجها أن أغلبية أفراد العينة لم يتلقوا تكوينا حول التربية البيئية في البرامج الدراسية وكانت نسبتهم 94% مما انعكس سلبا على أداء المعلم وتحكمه في هذه المواضيع والوسائل المخصصة لها كما توصلت نفس الدراسة أن نسبة 55.5 %، من أفراد العينة أقروا أن ليست لديهم فكرة حول أهداف التربية البيئية وليسوا على دراية بمختلف استراتجيات التربية البيئية بنسبة على التوالي 57.75%، و89.5%، مما يجدون صعوبة في تدريس المواضيع المتعلقة بالتربية البيئية وهذا بنسبة 74.75% من المعلمين حسب ما توصلت إليه هذه الدراسة. وقد أرجعوا السبب في ذلك إلى نقص التكوين بنسبة 54% و39% إلى نقص الوسائل التعليمية زد على ذلك أن المؤسسة التعليمية لم تعوض غياب التكوين بعقد اجتماعات لمناقشة مواضيع البيئة وتدعيم المعلمين حسب ما أكدته الدراسة بنسبة 80%.[2]

وهذه نتيجة تتفق مع ما توصلت إليه دراسة أخرى لصالح فالح تمت على عينة من مجموعة تلاميذ المرحلة الابتدائية بمدارس ولاية الوادي وكذا معلمي نفس المرحلة في سنة2000- 2007 والتي أكدت نتائجها على ضعف تكوين المعلمين مما يشكل عائق لتقييم الكفاءة، كما أنهم لا يبادرون بأنشطة خارج المقرر كما وأن أقدمية المعلم وجنسه لا تحدد مدى مبادراته.[3]

2-2- المواد الدراسية والوسائل التعليمية في تحقيق أهداف التربية البيئية :

2-2-1- الكتاب المدرسي وتحقيق أهداف التربية البيئية :

[1] أحمد عبد الله العلي، مرجع سابق، ص 62-63

[2] غربي عبلة، التربية البيئية في المدارس الابتدائية من وجهة نظر المعلمين – مدارس مدينة قسنطينة نموذجا مذكرة لنيل شهادة الماجستير بقسم علم الاجتماع بجامعة منتوري قسنطينة ،سنة 2009 ، ص 151

[3] س المرجع ، ص33

يعتبر الكتاب المدرسي من الوسائل الهامة في العملية التربوية فهو الوعاء الذي يحتوي المادة التعليمية التي هي الأداة التي تمكن المتعلمين من بلوغ أهداف المنهاج المحددة وكمرجع يستقي منه المتعلم معارفه أكثر من غيره من المصادر فضلا عن أنه من المصادر التي يمكن أن يستأنس بها المعلم في إعداد مادة التعلم قبل عرضها على المتعلمين في القسم.[1]

وقد تضمنت بعض الكتب المدرسية في مختلف مراحل التعليم الابتدائي مواضيع بيئية التي تدل على إدراج التربية البيئية في المنظومة التربوية الجزائرية والتي رافقت الإصلاحات الأخيرة ، مثل كتب المدنية، والتربية العلمية، والتكنولوجيا والجغرافيا واللغة العربية.

غير أن المواد الدراسية المقررة لا تأخذ بعين الاعتبار الوضع البيئي بالجزائر في المدارس الابتدائية ، فحسب ما جاءت به نتائج الدراسة السابقة فيما يخص المواضيع التي احتوت الكتب المدرسية (المواد الدراسية) في مجال التربية البيئية فقد تبين أنها مترابطة وتعمل على توضيح علاقة الإنسان بالبيئة ونشر الوعي البيئي بين المتعلمين بالنسب التالية 87.50 % ، و93.25 % ، 79.25 % لكن من حيث التوقيت المخصص لهذه المواضيع غير كاف وأن الأنشطة التي تضمنتها لا تطبق بنسبة 66.75 % كما أن تركيزها الأكبر كان حول مشكلة التلوث ولم تراعي المشكلات البيئية الأخرى في الجزائر.[2]

وهذه نتيجة بدورها تتوافق مع ما توصلت إليه نتائج دراسة صالح فالح حيث أكدت على أن مقرر البيئة غير كاف في المرحلة الابتدائية لتقييم كفاءة التلميذ في نظر معلمهم ، وأن البرنامج لا علاقة له بالواقع المحلي البيئي للتلاميذ.[3]

2-2-2- الوسائل التعليمية وتحقيق أهداف التربية البيئية:

أما عن الوسائل التعليمية الخاصة بالتربية البيئية في المدارس الابتدائية فهي متنوعة حسب ما ذكره **جورج هزو** عن الوسائل التربوية التي تساهم في توصيل وتسهيل موضوعات البيئة للمتعلم وهي:[4]

1 -استحداث الأفلام المتحركة والتلفزيون حيث تعد السينما والتلفزيون من أحدث الوسائل التي تصور البيئة بمختلف مكوناتها

2 -التعلم عن طريق العلم مثل إجراء التجارب الزراعية وممارسة الأعمال والحرف السائدة في البيئة وتربية الحيوانات والطيور والأسماك .

3 -الصور التعليمية الثابتة وتشمل الصور الفوتوغرافية والأفلام الثابتة والصور التعليمية ذات المحتوى التعليمي الشامل لعناصر الموضوع المراد نقله إلى المتعلم .

4 -الرسومات التعليمية وتتكون من الخرائط التاريخية والجغرافية واللوحات التعليمية والرسومات والملصقات .

5 -العينات والنماذج والمجسمات وتعتبر أكثر الوسائل التعليمية ارتباطا بحقائق الأشياء والبديلة لها حيث تشمل واقع الأشياء.

---

[1] أحمد عبد الله العلي، مرجع سابق، ص 62-63

[2] غربي عبلة ، المرجع السابق ، ص 152

[3] صالح الدين شروخ ، البيئة والانسان والتلوث في التعليم الأساسي في الجزائر ، مشروع برنامج اجتماعي تربوي ، دراسة ميدانية في عنابة ، دكتوراه دولة في علم الاجتماع التربوي ، جامعة باجي مختار ، عنابة ، 2000 ، ص33

[4] جورج هزو وأخرون : التربية البيئية والتلوث البيئي ، مجلة التربية ، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم ، قطر ،ع 102 ، 1992 . ص 63

ونظرا لأهميتها المساندة للكتب المدرسية والضرورية لدراسة البيئة وسعيها لتحقيق أهداف التربية البيئية هذا ما يجعلنا نبحث من خلال الدراسات التي اعتمدنا عليها لتأكد من توفرها في المدارس الابتدائية لتحقيق الأهداف المرجوة منها في المجتمع الجزائري. فقد أكدت نتائج الدراسة الميدانية لعبلة غربي على أنها غير موفرة في المدارس الابتدائية حسب ما أثبتته بياناتها الإحصائية وما يؤكد ذلك نسبة 96.15% ما يعادل 130 مدرسة ابتدائية من مجموع 135 وهذا كمؤشر يدل على دور الوسائل معدوم نظرا لعدم توفرها وهذا ما يؤثر على تطبيق التربية البيئية.(1)

3- الأنشطة اللاصفية وتطبيقها في مجال التربية البيئية :

لقد ثبت علميا أن حوالي 80 % مما يتعلمه التلميذ يكون من خارج الفصل المدرسي، بل خارج المدرسة ذاتها وهذا أمر يتفق مع الفكرة التربوية الأساسية التي تؤكد على أن عملية التربية هي تربية من اجل الحياة ومن تم وجب ان تكون في الحياة وممارسة لمواقف حياتية. (2)

ومنه فإن أمر نشاط في مجال التربية البيئية شأنه شأن النشاط الذي يطالب التربويون بممارسة داخل المدرسة وخارجها سواء كجزء من المنهاج المدرسي ، أو كأنشطة مصاحبة للمنهاج .

ويشكل هذا الجانب من الأنشطة خاصة اللاصفية العلامة المميزة في المدارس من خلال إنشاء نوادي بيئية وتمكين هذه النوادي من الوسائل التنشيطية لاستقطاب التلاميذ خارج الوقت المدرسي ، ويتمثل دور المدرسة في توفير الظروف والوسائل للتلاميذ المتطوعين ضمن نشاط هذه الأندية للقيام بأنشطة فكرية ويدوية فردية وجماعية تتكامل مع المفاهيم والمضامين البيئية التي تلقاها عبر المواد أو المناهج الدراسية.(3)

ومن النوادي التي برمج إنشاؤها في المدارس الابتدائية على المستوى الوطني النادي الأخضر والذي يعتبر فضاء بيئي تتجلى فيه قيم التربية البيئية ، إذ يجمع بين أفراد لهم استعدادات ودوافع تسير العملية التربوية البيئية ، فهو بمثابة الدعامة للأنشطة اللاصفية.(4)

وقد كان الاهتمام بالأنشطة اللاصفية المتعلقة بالتربية البيئية في المدارس الابتدائية بالجزائر من خلال المشروع البيئي الذي أشرفت عليه كل من وزارتي التربية الوطنية ووزارة التهيئة الإقليم والبيئة والمتمثل في التربية البيئية من أجل التنمية المستدامة ، بمشاركة مجموعة من الخبراء في هذا المجال وبعض المعلمين ، وخصص فيه حقيبة بيئية الموجهة لكل الأطوار في التعليم العام ، واحتوت هذه الحقيبة على كراسات للتربية البيئية للصفين الأول والرابع من التعليم الابتدائي وكراسة للأولى متوسط وأخر لتعليم الثانوي ، وترافقها أدلة للمربي ودفاتر للنادي الأخضر مرفقة بدليل لمنشط النادي ، وكذلك احتوت الحقيبة على الميثاق المدرسي البيئي وجاء باللغتين العربية والفرنسية .ولكن هل يتم تطبيقها على مستوى المدارس الابتدائية بالجزائر.بالاعتماد على الدراسة السابقة نفسها أي لطالبة عبلة غربي قد كشفت لنا أن الأنشطة المتعلقة بالتربية البيئية لانطبق في المدارس الابتدائية الجزائرية حيث أشارت نسبة 92.25 % من المعلمين ليست لديهم فكرة عن الحقيبة البيئية كما كشفت بياناتها الإحصائية أن نسبة كبيرة من المدارس التي خضعت للدراسة الميدانية لم تطبق محتوى الكراريس البيئية وهذا بنسبة 89.75 % ، وكذلك نسبة 96.25 % التي تنفي

---

(1) عبلة غربي ، المرجع السابق ، ص 152

(2) الأحمد حسين اللقاني وفارعة حسين محمد ، التربية البيئية واجب ومسؤولية عالم الكتب،مصر ،ط1، 1999، ص220.

(3) محمد عادل الهنتاتي، التجارب العربية في نشر الثقافة البيئية في المؤسسات التربوية والإعلامية ،مجلة الإذاعة ، د بلد ،ع 2 ، 2008، ص59

(4) لخضر العابد، مكانة النادي الأخضر في المدرسة، الملتقى الثالث للتربية البيئية في المسار الدراسي، جيجل، 2004، ص 33.

حصول المعلم على دليل المربي الخاص به وهذا ما يبرز لنا أن المؤسسات التربوية لم تتوفر على النادي الأخضر بنسبة 96.25 % بالإضافة إلى توصلها إلى عدم استعمال دفاتر النادي الأخضر التي احتوت على أنشطة مهمة تساهم على الحفاظ على البيئة وهذا ما عبرت عنه نسبة 96.25 % من أفراد عينة الدراسة كما أن معظم المدارس الابتدائية لم تنظم خرجات ميدانية أو عملا بيئيا مع جمعيات بيئية بنسبة 94.75%.[1]

على ضوء النتائج التي توصلت إليها الدراسات الأكاديمية في مجال تطبيق التربية البيئية على مستوى المدارس الابتدائية بالجزائر اتضح بان التربية البيئية لازالت مهملة ولا تكتسي أهمية بالغة ، ولم تحتل بعد مكانتها التي يفترض أن تكون عليها، إذ أن المدارس الابتدائية لا تتوفر على الوسائل التعليمية اللازمة ، والمعلم لا يتم إعداده وتكوينه حسب أهداف وإستراتيجيات التربية البيئية، الأمر الذي يحول دون تطبيق الأنشطة المدرسية وتحقيق أهداف التربية البيئية. فواقع التربية في المدارس الابتدائية يتسم بعدم الانسجام بين النظري والتطبيقي ، وهذا ما يؤكد على أن المشروع البيئي المشترك بين وزارة التربية ووزارة تهيئة الإقليم والبيئة المتعلق بالتربية البيئية من أجل التنمية المستديمة والذي خصص الحقيبة البيئية والنادي الأخضر لم يطبق ، كما أن الأنشطة المدرسية لا تمارس خاصة اللاصفية منها كحملات التنظيف التطوعية داخل المدرسة وخارجها ولا حملات التشجير أو رحلات تعليمية وغيرها من الأعمال المحافظة على البيئة ، وهذا راجع لغياب تكوين المعلمين وعدم توفير الوسائل التعليمية اللازمة...نتيجة عدم وفاء المدرسة الأساسية لمطلب التربية البيئية الحاملة للبيئة والمكافحة للتلوث لكونها لا تقدم تربية وظيفية في هذا المجال، أي بها خلل وظيفي كما تمت البرهنة على أنه لابد من مشروع جديد للتربية البيئية .وهذا ما يعبر عن النتيجة التي تم توصل إليها من بين نتائج دراسة صلاح الدين شروخ تحت عنوان " البيئة والإنسان والتلوث في التعليم الأساسي في الجزائر ، مشروع برنامج اجتماعي تربوي ، دراسة ميدانية تمت بمنطقة عنابة لنيل شهادة دكتوراه دولة في علم الاجتماع التربوي سنة 2000 .[2]

وبهذا يمكن القول أن الاهتمام بالتربية البيئية في المدارس التعليمية بالجزائر أخذ شكلا نظريا أكثر منه عمليا. بل بقية مجرد أفكار نظرية لم تعريف طريقها لممارسات العملية .

ثالثا – التصور الاستراتيجي للارتقاء بمستوى التربية البيئية لطفل في المدرسة الجزائرية على المستويين الكمي والكيفي للخفض من السلوكيات البيئية الضارة :[*]

باعتمادنا على الدراسات العلمية الأكاديمية في مجال البيئة وصحة المجتمع من خلال المدرسة و التربية البيئية لتلميذ في الجزائر نقترح ما يلي:

- الدعوة لعقد مؤتمر علمي دولي عن مجالات تنمية القيم البيئية عند الأطفال ودور كل مؤسسات التنشئة في ذلك.
- ضرورة تضافر كل الجهود الإعلامية في الدولة مع المؤسسات التعليمية من أجل تنشئة الأطفال على القيم البيئية والجمالية التي تطمح إليها وخصوصا في مرحلة التحول الاجتماعي الذي نعيشه في الجزائر بالتواكب مع العالم المعاصر وعصر العولمة .

---

[1] عبلة غربي ، مرجع سابق ، ص 152.
[2] نفس المرجع، ص 32
[*] ملاحظة : تم بناء هذا التصور انطلاقا من المراجع المعتمد عليها في كتابة المقال .

- العمل على نشر الإصدارات البيئية والجمالية والتي تتسم بالعمومية على مختلف أرجاء الوطن ، لتوسيع قاعدة الاستفادة بها وبما تتضمنه من قيم بيئية وجمالية ، من أجل توحيد الجهود لنشر الوعي البيئي في مجتمعانا الجزائري .
- قيام وزارة التربية والتعليم بإصدار طبعات خاصة من هذه الإصدارات والكتب لمكتباتها المدرسية بتكلفة ضئيلة للغاية .
- إعطاء أولوية هامة لكتب والمطبوعات البيئية في مهرجان القراءة للجميع بسعر رمزي من خلال مكتبة الأسرة .
- دعم مجلات الأطفال الموجودة حاليا (رغم قلتها وندرتها وعدم كفايتها) حتى تصدر بصورة أكثر جمالا وتتضمن قيما بيئية أكثر ، بحيث تصل للطفل بسعر رخيص ومناسب .
- تشجيع وتحفيز الهيئات والجهات المهتمة بالبيئة والأطفال في الجزائر لإصدار مجلات جديدة ومتنوعة للطفل الجزائري تهتم بتنمية القيم الجمالية والبيئية للطفل تعبر بذلك عن شخصية الجزائرية واهتماماتها المختلفة وبيئتها المتنوعة.
- اهتمام المدرسة بتربية البيئية لطفل ، بصفتها المدخل الرئيسي لتنمية الاهتمام البيئي عند الأطفال وإكسابهم القيم البيئية والجمالية في الجزائر وفي العالم المعاصر ، وبصفتها المنبر الرئيسي لتنمية الوعي البيئي والمعرفة البيئية للأطفال ، وذلك عن طريق :
- إنشاء جماعة بيئية في كل مدرسة تعمل على تنمية وتجميل بيئة المدرسة أولا والبيئة التي تعيش فيها المدرسة (المجتمع المحلي) ثانيا. والحرص على تأكيد مظهري النظام والثقافة في نفوس التلاميذ والقيام برحلات جمالية لمناقشة مظاهر الطبيعة الجمالية وخصوصا في فصل الربيع ...
- إنشاء جماعات مدرسية الصحية التي تهدف إلى التوعية بالأمراض وممارسة النظافة في الملبس والجسم والمكان ، ومن خلالها يمكن تأكيد على نظافة المدرسة يوميا ...
- العمل الجماعي لتجميل البيئة بدءا بالمدرسة كزرع الأشجار والتشجير في حدائق المدرسة أو التوعية بالنظافة العامة بتحفيز أولياء التلاميذ على مشاركة أبنائهم في تجميل البيئة ، أو القيام بمبادرات للنظافة والتجميل من خلال المعسكرات العمل الجماعية
- الاشتراك الفردي والجماعي في التخطيط العلمي لتحقيق البيئة الجميلة من خلال التنظيم الجمالي لمكونات البيئة المحلية والاستغلال الأمثل لما تضمه البيئة المحلية من مكونات جمالية .
- الاهتمام بقصص الأطفال بحيث تعد من أهم الوسائل التي تساعد على تنمية الاتجاهات الايجابية لدى الأطفال نحو البيئة خصوصا إذا حملت تلك القصص عناوين واضحة موجزة جاذبة يحبها الأطفال وأن تكون مصحوبة بالصور أو رسومات تشد انتباه الأطفال .تعمل على ترسيخ السلوكيات البناءة تجاه البيئة والمحافظة عليها خالية من أي أشكال التلوث البيئي والتطلع إلى تدعيم البيئة بالجهود الفردية والجماعية من خلال غرس القيم المرتبطة بالبيئة والجمال البيئي.
- الاهتمام بشعر الأطفال وأناشيد هم : نظرا لما تحمله كلماتهم من قوة ومعبرة في نفس الوقت عن عناصر البيئية المعروفة مثل النهر والوادي وجمال ولون مياه البحر وصفاؤها والشواطئ الجميلة وجمال البيئة الزراعية بأشجارها وحدائقها وجمال الصحراء برمالها الذهبية ونخيلها. فهي تلقين بذلك الأطفال المعلومات البيئية بشكل جذاب وبسيط ، كونهم يتناقلون الشعر والأناشيد بسهولة ويحفظونها بسهولة أكبر لذا ينبغي أن تحمل القيم التي تدعو للجمال والقيم البيئية المختلفة.

- تدعيم وتحفيز الأطفال على المشاركة في المسابقات المدرسية باعتبارها وسيلة فعالة لتنمية الإدراك والوعي البيئي في نفوس الأطفال للتعبير عن المشكلات البيئية أو مواطن الجمال في بيئتهم المحلية أو عناصر التلوث الموجودة في تلك البيئة مثل مسابقات الرسم أو كتابة قصة أو شعر أو مقال أو بحث أو موضوع التي يعبر من خلالها الأطفال عما يجيش في وجدانهم من تصورات وأفكار وقيم ومعاني وقدرات مختلفة يتم نشرها لتدعيم التفاعل بين المجلات وقرائها من الأطفال وحث الأطفال على الإبداع في المجالات البيئية المختلفة .
- تخصيص دورات تكوينية للمعلمين في مجال التربية البيئية.
- تخصيص مادة مستقلة بذاتها تحت اسم البيئة في المرحلة الابتدائية
- تزويد المؤسسة بالوسائل الإيضاحية الحديثة والأنشطة المدرسية خاصة اللاصفية منها لتمكين المعلم والتلميذ من تنمية قدراتهم وثقافتهم البيئية.

ويمكن تجسيد هذه الاقتراحات في الشكل التالي:

شكل رقم (1) يوضح : التصور المقترح للارتقاء بالتربية البيئية لطفل الجزائري من خلال استراتجيات وأساليب تطبيقها

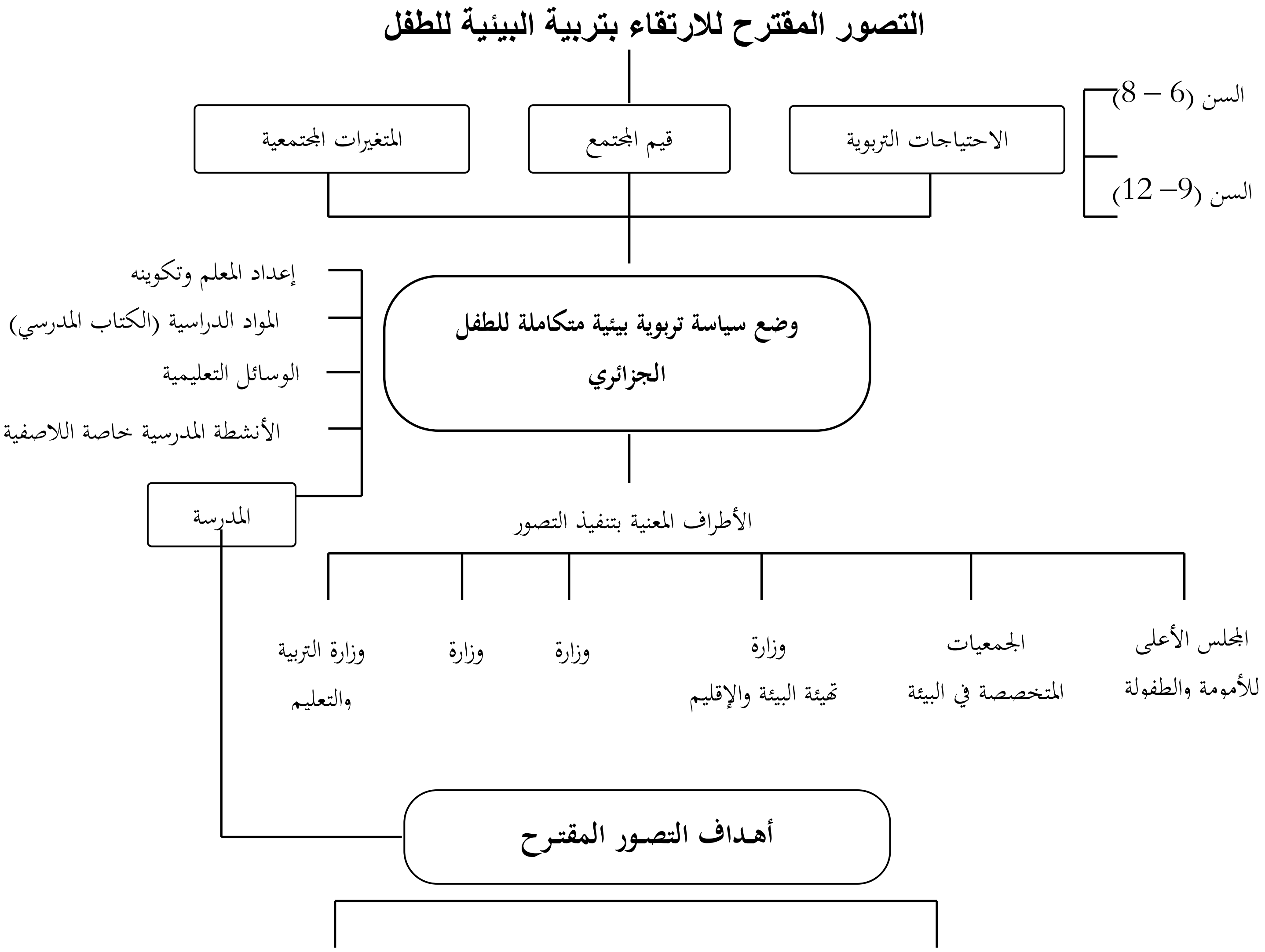

أهداف عامة

- وضع سياسة عامة لتنمية وبث القيم المجتمعية وتعميق التربية البيئية في نفوس أطفالنا في مختلف المراحل العمرية يتم من خلالها:

أ- تحقيق التوازن بين القيم الروحية والقيم المادية التي بدأت تسود في العصر الحديث.

ب- تعريف الطفل بقيم مجتمعه مع التأكيد على القيم البيئية اللازمة للتعامل مع مستحدثات العصر بما يساعده على حماية بيئته والمحافظة عليها والاندماج فيها.

ج- إيجاد نوع من التكامل بين التربية البيئية لطفل وبين ما يجب توفره من أساليب في المدارس الابتدائية لتحقيق أهدافها فيما يختص بإعداد وتكوين المعلمين حسب أهداف واستراتجيات التربية البيئية ، توفير الوسائل التعليمية اللازمة مع تطبيق الأنشطة المدرسية خاصة اللاصفية منها لتحقيق أهداف التربية البيئية.

أهداف خاصة

- الارتقاء بمستوى التربية البيئية لطفل في الجزائر على مستويين الكمي والكيفي.

إن للتربية البيئية دورا أساسيا في فهم مشكلات البيئة وحلها إذ تساهم في نشر الوعي البيئي وحماية البيئة وتعمل على توضيح علاقة الإنسان بالبيئة . لذا كانت الجزائر من الدول السباقة إلى الاهتمام بمواضيع البيئة وإدراجها في جميع مراحل التعليم بعد الإصلاحات التربوية التي قامت بها وذلك من خلال مشاريع مدرسية بيئية ،إلا أن النتائج التي تم توصل إليها من خلال تناولنا لعدة دراسات أكاديمية كشفت أن هذه المشاريع أخذت شكلا نظريا أكثر من عمليا .وهذا مؤشر يدل على أن الجهود التربوية لم تصل إلى أهدافها المرجوة إذ بقيت متجاهلة لبعض العوامل الهامة كإعداد وتأطير المعلمين في مجال التربية البيئية وتطبيق الأنشطة الصفية وغير الصفية ، وتوفير الوسائل التعليمية اللازمة لتحقيق أهداف التربية البيئية .

قائمة المراجع :

1- إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي ، الطفولة والمستقبل ،(دراسات في إعلام وثقافة وأدب وحقوق الطفل ، الإسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب ، 2005 .

2- إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي ، تلوث البيئة مشكلة العصر ، القاهرة ، دار المعارف ، 1984 .

3- جمال الدين السيد علي صالح ، الإعلام البيئي بين النظرية والتطبيق ، الإسكندرية ، مركز الإسكندرية للكتاب ، 2003 .

4- إبراهيم بسيوني عميرة ،الأنشطة العلمية غير الصفية ونوادي العلوم ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، 1998 .

5- أحمد خيري كاظم وجابر عبد الحميد جابر، الوسائل التعليمية والمنهج، دار الفجر،عمان ،"1، 2007 .

6- أحمد عبد الله العلى، الطفل والتربية الثقافية ، رؤية مستقبلية للقرن الحادي والعشرين)، القاهرة ،دار الكتاب الحديث، 2002 .

7- وزارة التربية الوطنية ووزارة تهيئة الإقليم والبيئة : النادي الأخضر المدرسي ، الجزائر ، ط2، 2004 .

8- جورج هزو وأخرون : التربية البيئية والتلوث البيئي ، مجلة التربية ، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم ، قطر ، ، ع 102 ، 1992 .

9- محمد عادل الهنتاتي ، التجارب العربية في نشر الثقافة البيئية في المؤسسات التربوية والإعلامية ،مجلة الإذاعة ، د بلد ، ع 2 ، 2008.

10- الأحمد حسين اللقاني وفارعة حسين محمد ، التربية البيئية واجب ومسؤولية عالم الكتب،مصر ،ط1، 1999.

11- غربي عبلة ،التربية البيئية في المدارس الابتدائية من وجهة نظر المعلمين – مدارس مدينة قسنطينة نموذجا
مذكرة لنيل شهادة الماجستير بقسم علم الاجتماع بجامعة منتوري قسنطينة، سنة 2009 .

12- أمحمد زردومي : دور المؤسسات الاجتماعية في تعزيز الوعي بالسلوك البيئي المذعن ، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه بقسم علم النفس وعلوم التربية والأرطفونيا جامعة الجزائر ، سنة 2007 .

13- صالح الدين شروخ ، البيئة والإنسان والتلوث في التعليم الأساسي في الجزائر ، مشروع برنامج اجتماعي تربوي، دراسة ميدانية في عنابة ، دكتوراه دولة في علم الاجتماع التربوي ، جامعة باجي مختار ، عنابة ، 2000 .

15- العابد لخضر ، مكانة النادي الأخضر في المدرسة ، الملتقى الثالث للتربية البيئية في المسار الدراسي ، جيجل ، 2004 .

16- زخروفة فوزية ، التربية البيئية في الوسط المدرسي ، مجلة البيئة ، مديرية البيئة لأم البواقي ، الجزائر ، 2005 .

واقع المياه والسدود المقامة على الأنهار العربية ومشكلاتها

الأستاذ(ة): د. صباح العشاوي
أستاذة محاضرة -ب-
كلية الحقوق والعلوم السياسية
جامعة البليدة -2-

Summary

The Rivers of Tigris and Euphrates are the leading suppliers of water after the River of Nile in the Middle East, and the Euphrates River is the largest river in Mesopotamia. With the exception of these rivers which are considered as the largest rivers, the rest of the rivers of the MiddleEast in general are all small rivers confined to mountainous regions and despite the abundance of water in some of these rivers, it is not there problemsarise around only their development, and is located mostly within one country, nor located in multiple countries caused by the passage of international problems, economic and political. This encounter countries of the Mashreq and Maghreb problems resulting from the lack of water or increase its energy that could sink and destroy everything created by man of the cities and villages, and it was the primary factor in the confrontation is building dams. Where these dams turn the river turned into a facility essential for life and a factor of development and life.

And the construction of dams on rivers didn't, especially for large dams in the questioning of its negative impact on the environment and the call to stop this activity is vital and important, and intimidation of its side effects.

Also It's not fair that countries accounting for upstream river water and assess it as many projects without taking into account the interests of the riparian States.

For these reasons, the remaining dams on international rivers are a source of problems and disputes between countries that share the river.

ملخص :

يعتبر نهرا دجلة و الفرات المورد الرئيسي للمياه بعد نهر النيل في منطقة الشرق الأوسط، ويعد نهر الفرات أكبر نهر في بلاد ما بين النهرين.

وفيما عدا هذه الأنهار التي تعتبر أنهاراً كبيرة، فإن بقية أنهار منطقة الشرق الأوسط عموماً كلها أنهار صغيرة تنحصر في مناطق الأقاليم الجبلية و رغم غزارة المياه في بعض هذه الأنهار، فإنه ليست هناك مشكلات تثار حولها سوى تنميتها، و يقع معظمها داخل قطر واحد، ولا تقع في أقطار متعددة ينجم عن مرورها مشكلات دولية، اقتصادية سياسية.

لهذا واجهت دول من المشرق والمغرب المشاكل الناتجة عن نقص الماء أو زيادته زيادة طاقية تغرق كل شيئ وتدمر كل ما أنشأه الإنسان من مدن و قرى، وكان العامل الأساسي في المواجهة هو بناء السدود، حيث تحول النهر بهذه السدود إلى مرفق أساسي للحياة وعامل من عوامل التنمية والحياة و الرفاهية.

ولم ينجو إنشاء السدود على الأنهار خصوصاً السدود الكبرى من التشكيك في أثرها السلبي على البيئة و الدعوة إلى وقف هذا النشاط الحيوي الهام، والتخويف من آثاره الجانبية.

وليس من الإنصاف أن تستأثر دول المنبع بمياه النهر وتقيم عليه ما تشاء من مشاريع دون مراعاة مصالح الدول المتشاطئة.

لهذه الأسباب تبقى السدود المقامة على الأنهار الدولية تشكل مصدراً للمشاكل والنزاعات بين الدول التي تتقاسم مجرى النهر.

مقدمة :

لا شك في أن أهمية الماء كعامل استراتيجي صارت تتزايد في العالم كله، و ينطبق ذلك أيضاً على بلدان الوطن العربي، ففي حين تبذل البلدان العربية حالياً جهوداً للحد من الفجوة بين ما هو متاح من موارد مائية متناقصة وما هو مطلوب للوفاء بالاحتياجات المائية المتزايدة، فإن أمامها تحديات أخرى أشد قسوة تتمثل في التوصل إلى وضع خطط و برامج آمنة لاستمرار التنمية للأجيال القادمة مع العمل على المحافظة على البيئة المعاصرة كقاعدة أساسية للنهوض بها مستقبلاً.

ولن يكون هناك أمن غذائي أو زراعي أو صناعي عربي إلابالماء، فالماء رهان استراتيجي مستقبلي و قيمته تزداد، وهي قيمة فريدة تتميز عن قيمة النفط مثلاً، فإذ كان هناك بديل من النفط، فإنه ليس ثمة بديل من الماء، وإذا كان التكامل في المجالات السياسية و الاقتصادية يمثل هدفاً عربياً مشتركاً فإن تصافر جهود حماية البيئة و تكاملها يجب أن يكون إحدى أولويات العمل العربي لمواجهة تحديات المستقبل القريب وبشكل عام، يجب أن تفرز السياسة المائية لأي بلد عربي قدرات المستفيدين من موارد المياه في المجالات الإدارية و الفنية والمالية، وذلك لضمان مشاركتهم الفعالة في تنفيذ الخطة المائية، بالإضافة إلى ضرورة تحقيق العدالة في التوزيع، و توزيع الموارد المتاحة حصصاً، والاستخدام الرشيد للمياه مع المحافظة على الجوانب البيئية والصحية.[1]

لهذا واجهت دول من المشرق والمغرب المشاكل الناتجة عن نقص الماء أو زيادته زيادة طاقية تغرق كل شيئ وتدمر كل ما أنشأه الإنسان من مدن و قرى، وكان العامل الأساسي في المواجهة هو بناء السدود التي تفترض تدفق الماء فتحد من اندفاعه المدمر و تحفظه من التدفق في البحار.

كانت هذه السدود في كل موقع على سطح الكرة الأرضية منفذاً و مخرجاً من المآزق التي حلت بالبشر واستخدام الماء الذي احتجزه السد في الزراعة و الصناعة، وتحول النهر بهذه السدود إلى مرفق أساسي للحياة و عامل أساسي من عوامل التنمية والحياة و الرفاهية.

وبالرغم من الدور الكبير لهذه السدود و ما أسدته للبشر من خدمات جليلة تبقى على مر الزمان، فقد شعر البشر في السنوات الأخيرة بما ارتكبوه من أخطاء بالنسبة للنظام البيئي، سواء من تلويث المصادر المائية أو الهواء أو التربة وقد أدّى هذا الشعور بالذنب نحو البيئة إلى مراجعة الكثير من أنواع النشاط البشري فيما يتصل بالبيئة من بعيد أو قريب، ولم ينجو إنشاء السدود على الأنهار خصوصاً السدود الكبرى من التشكيك في أثرها على البيئة و الدعوة إلى وقف هذا النشاط الحيوي الهام على أساس أن تدخل الإنسان ليحوّر أو يغير عن نظام بيئي مستقر، قد يؤدي إلى تغيرات قد لا يمكن متابعتها و التنبؤ بآثارها قبل إنشاء مثل هذه السدود.

وكلما كانت السدود أو الأنهار كبيرة، كلما زاد الاعتراض و الخوف و التشكيك في فائدتها و التخويف من آثارها الجانبية، وهذا لم ينبع فقط من الرغبة في صيانة النظام البيئي دون تدخل الإنسان تدخلاً لا تعرف نتائجه، بل ينبع أيضاً من مصادر وتيارات فكرية وسياسية دولية، وقد وجدت تيارات معارضة لهذه الإنشاءات الكبرى من النزاع من مصدرين أساسيين أولها إنشاء السدود وما ينتج عنها من توليد الكهرباء و توصيلها إلى المساكن و المصانع و المزراع، وهذا نشاط من حق الدولة أن تمارسه ثانيها التيار الذي يعتبر هذا النشاط من حق القطاع الخاص أن ينفرد به.[2]

لهذه الأسباب تبقى السدود المقامة على الأنهار الدولية تشكل مصدراً للمشاكل والنزاعات بين الدول التي تتقاسم مجرى النهر.

وهذا ما يدفعنا لطرح الإشكالية التالية:

هل تعتبر السدود الكبرى المقامة على الأنهار العربية مواجهة مأمونة لنظام بيئي مستقر

أم أنها تثير النزاعات بين الدول النهرية ؟

للإجابة على هذه الإشكالية ارتأينا الخطة التالية:

مقدمة.

المبحث الأول: حالة الموارد المائية في حوض النيل.

المطلب الأول: حالة حوض النيل والصراع حوله.

المطلب الثاني: السدود المقامة على نهر النيل.

المطلب الثالث: الآثار الايجابية والسلبية لهذه السدود.

المبحث الثاني: حالة حوضي دجلة والفرات.

المطلب الأول: السدود المقامة على نهري دجلة والفرات.

المطلب الثاني: أبعاد مشكلة المياه في حوضي دجلة والفرات.

المطلب الثالث: الآثار الإيجابية والسلبية لهذه السدود.

الخاتمة.

المبحث الأول

حالة الموارد المائية في حوض النيل

تلعب المياه دوراً مهماً في صياغة العلاقات بين الدول في التقارب و الصراع، فالمياه موزعة جغرافياً بشكل متفاوت على الكرة الأرضية، فضلاً عن الاحتياجات المتزايدة لها، كل ذلك يؤدي إلى نشأة النزاع على الموارد المائية المتاحة.

فمنطقة الشرق الأوسط تعتبر من أهم البؤر في العالم التي تعتبر قضية المياه فيها على قدر كبير من الأهمية والحدة، و يرجع ذلك إلى عدة أسباب أهمها اتساع الفجوة بين التزايد المطرد في عدد السكان و ندرة الموارد المائية المتاحة إضافة إلى غياب القدر الكافي من التنسيق و التعاون بين الأطراف المختلفة.

ولعل ما يزيد من أهمية ذلك التعاون أن الأنهار الثلاثة الكبرى التي تجري في الشرق الأوسط (النيل دجلة- الفرات) تقع مصاب مياهها في البلدان العربية، بينما تتحكم بلدان أخرى مثل تركيا و أوغندا و أثيوبيا في منابع تلك المياه.[3]

إن عدم تدبير الكميات المطلوبة من الماء لأغراض الزراعة و الري و احتياجات الغذاء، سوف يضع ضغوطاً كبيرة لزيادة مياه الأمطار التي تستخدم لهذه الأغراض، وهذا سيرتب آثاراً بيئية وخيمة تتطلب اتساع في رقعة الأراضي الزراعية، مما سينتج عنه فقدان الكثير من الغابات والمناطق البرية والتنوع الحيوي على نطاق واسع وهذا يرافقه زيادة في الطلب على مياه الري و الصناعة والزراعة.

- كذلك بالنسبة للمياه الصالحة للشرب و التي لا توزع بشكل مناسب من ناحية المكان و الزمان، و القدرات على استخدام الإمدادات المتوافرة من المياه تعتمد جزئياً على حجم و تكرار حدوث الفيضانات و الجفاف، و ترى لجنة التغير المناخي بين الحكومات أن هناك احتمالات كبيرة في أن تصبح كل من الفيضانات و الجفاف أكثر حدة.

وللحصول على جزء أكبر من تساقط الأمطار اعتمدت العديد من الدول على إقامة السدود.

فالتمكين من إقامة السدود والاستمرار بالقيام في دور مهم في بعض البلاد النامية، إذا ما تم توجيه انتباه أكبر للاختيارات المتعلقة بالتقسيم،وكذلك كل من الآثار الاجتماعية والبيئية والمشاركة في عمليات صنع القرار، حيث يتم سنوياً إضافة حوالي 300 من السدود الكبيرة التي يبلغ ارتفاعها إلى أكثر من 15 متراً و ذلك بالاضافة إلى عدد السدود الموجودة حالياً و التي يصل عددها إلى 45000 سد.

- وتتعلق توصية المفوضية عن السدود، والتي صدرت في نوفمبر عام 2000 بالخطوط العريضة التي يجب ملاحظتها عند بناء السدود و كيفية التخطيط لها و تصميمها و بنائها و تشغيلها.[4]

المطلب الأول: حوض النيل و الصراع حوله

يعتبر نهر النيل من أطول أنهار العالم، حيث يجتاز من أقصى منابعه إلى مصبه في البحر الأبيض المتوسط عشرة دول نهرية (روندا- بورندي- الكونغو الديمقراطية - أوغندا تنزانيا- كينيا- اثيوبيا- ارتيريا- السودان ومصر) وجميع هذه الدول تعتمدعلى مياهه، و يبلغ طوله 6700 كم^2، و يشكل نهر تاجيرا المنبع الحقيقي لنهر النيل و أطول روافده فيتكون من التقاء رافديه روفوفو في بوروندي و نيافر ونحو ليصب في بحيرة فيكتوريا حيث يعرف بنيل فيكتوريا و يتجه صوب الشمال تجاه بحيرة كيوجا و يغير اتجاهه نحو الشمال فالغرب ثم يدخل بحيرة (موبوتو) آلبرت سابقاً ثم يتجه نحو الشمال و يدخل أراضي السودان حيث يعرف

باسم بحر الجبل و يرفده بحر الغزال و بحر الجبل و نهر السوبال، و يتصل بالنيل في مجراه الأوسط و الشمالي في السودان بالنيل الأزرق و نهر عطبرة و روافدهما ثم يدخل النيل أراضي مصر عند وادي حلفا ليصب في البحر الأبيض المتوسط عند مدينة رشيد المصرية.[5]

يختلف إيراد النيل من المياه العذبة بين عام و آخر، و هذا التقلب كان مصدراً للمجاعات و الكوارث المروعة في دول حوض نهر النيل من منابعه الاستوائية من اثيوبيا و حتى مصر وإن كان التخزين السنوي للمياه في الفيضان لاستخدامها في شهور الجفاف يمكن أن يجدي في مواجهة تذبذب إيراد نهر النيل من فصل لآخر على مدار العام.[6]

فإن تقلب الإيراد يمكن مواجهته بالتخزين السنوي المستمر لفائض المياه في السنوات الشحيحة الإيراد، وهذا التخزين المستمر هو ما اصطلح على تسميته بالتخزين القرني.

فطيلة ألف عام كانت الأمطار التي تهطل على الجبال و الغابات عند منابع هذا النهر تجلب المياه المرتفعة و الساقطة التي كانت تعبر الصحراء باتجاه البحر و في بعض الأحيان كانت تغيرات التدفق تسبب إما إثراء و استقرار أو مجاعة و اضطراباً.

وهذه التدفقات تؤثر أيضاً في العلاقات بين الدول، فاليوم تحصل دول أعلى النهر على المياه بكميات كبيرة، بينما دول أدنى النهر تعتمد اعتماداً كلياً على تدفقات النهر، فإذا بنت اثيوبيا سدودها المقترحة على النيل الأزرق فسيحدث خلل بالميزان المائي في مصر و سيبلغ عجزها المائي 22 مليار م^3 سنوياً .ترى اثيوبيا أن لها الحق المطلق في التصرف بمياه النيل في أراضيها بما يخدم مصالحها دون التنسيق مع الدول الأخرى المشاطئة و دون مراعاة لما لهذه الدول من حقوق مماثلة في مياهه.

لقد ساهمت العديد من العوامل في ارتفاع أصوات دول حوض النيل، خاصة اثيوبيا المطالبة بإعادة النظر باتفاقيات مياه النيل، كما بدأت السودان في السنوات الأخيرة بالتلويح بورقة المياه كأداة ضغط سياسي، كما تأزمت الأمور بينها و بين جارتها مصر، ومع أن الدول النيلية الأخرى مثل أوغندا و تنزانيا و روندا و بورندي لم تبدي معارضتها العلنية لهذه الاتفاقيات لكنها شرعت أحياناً منفردة و أحياناً أخرى مجتمعة في إقامة المشاريع الخاصة بها على النهر أو روافده،وقد أقامت بعض دول حوض نهر النيل سدود و مشاريع أخرى قد تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر على كميات المياه الواردة إلى مصر.

وقد كان للجفاف الذي وقع في المنابع الإثيوبية للنهر آثاره الواضحة لمدة ثماني سنوات متصلة على انخفاض كمية المياه التي تصل لمصر منذ عام 1979-1980 حتى 1986-1987 و تعتمد مصر على نهر النيل اعتماداً مركزياً، هذا و تؤدي المشاكل الواقعة في منبع النهر باستمرار إلى مشاكل مناظرة لها في مصبه، مما يؤثر على الحاجات الداخلية المتزايدة في سحب الماء اللازم لتوليد الكهرباء عند خزان أسوان.[7]

لهذا فإن مصر ستواجه أزمة مياه خاصة مع تزايد معدلات التلوث و الاستخدام الاستهلاكي المفرط وغير الرشيد للمياه المتوافرة، كذلك فإن السودان يواجه عجزاً شديداً في موارده المائية من النيل، ولأن مصر و السودان تعتبران المستخدمين الرئيسيين لمياه النيل فإن العلاقات بينهما لم تتعرض للاضطراب الشديد، و على الرغم من ظهور بوادر توتر بين الدولتين بشأن مشروع السد العالي الذي بدأ العمل بتنفيذه عام 1960 وانتهى عام 1969 و أنجز محطة كهرباء تعتبر من أكبر المحطات المائية في العالم بالإضافة لحجزه كميات ضخمة من مياه النيل في بحيرة ناصر.

لكن ما أثارته اثيوبيا، باعتبارها الدولة التي تتمتع بموقع متميز على النيل من المشاكل و الاضطرابات بالإعلان عن خططها بإقامة سد على النيل في أراضيها، و كان ذلك بدافع سياسي و تحريض من اسرائيل.[8]

وبالرغم من ضعف الميزانيات الإسرائيلية المخصصة لدراسة مشاريع الأنهار العملاقة فإن مراكز الأبحاث الغربية و الأمريكية بالذات غالباً ما تقوم عنها بالنيابة في هذا الدور و الأمثلة على ذلك كثيرة منها:

إبان الحرب الباردة بين مصر والولايات المتحدة عام 1958-1964 أنجزت الولايات المتحدة الأمريكية دراسة حول مياه النيل قدمت إلى النظام الاثيوبي بهدف استصلاح 400 ألف هكتار من الأراضي القائمة على الحدود السودانية- الاثيوبية وإنتاج كمية ضخمة من الكهرباء لتحقيق مستلزمات هذا المشروع الذي إن تحقق يحرم مصر و السودان على الأقل من خمسة بلايين متر مكعب من المياه، و لوحت الولايات المتحدة آنذاك لمصر باستخدام سلاح جديد و خطير، لأن منابع النيل الأساسية تأتي من مرتفعات اثيوبيا و بإمكان النظام الاثيوبي لعب دور ضده.

وهذا ما دعم أطماع إسرائيل في مياه حوض النيل،وذلك بقيامها ببناء سدود في أثيوبيا رغم طبيعة الأرض لا تسمح بقيام سدود عالية الإرتفاع، وكذلك شرائها للمياه من اثيوبيا و محاولتها المتكررة لمصر بمدها من مياه النيل، لأنها تمتلك تقنيات عالية في مجال تكنولوجيا المياه التي لا يملكها الآخرون.[9]

ومع كل هذا توجه اثيوبيا انتقاداتها إلى الخطط المصرية بمد مياه النيل إلى سيناء بدعوى أن مصر تسيء استخدام حقها في المياه بتحويل جزء منها إلى سيناء ومد اسرائيل بالمياه،في حين أن اثيوبيا تؤثر على كل من السودان ومصر و بقية دول حوض النيل.

فبالنسبة لدول الحوض فقد تمثلت ترتيباتها فيما يلي :تمت دراسة ثلاثة مشروعات في اثيوبيا بواسطة مكتب الاستصلاح الأمريكي والسوفييتي السابق وبمعونة فنية إسرائيلية من أهمها:-مشروع سد فنشا و يقام على أحد روافد النيل الأزرق - مشروع الليبرد على نهر السوباط -مشروع سينت على أحد روافد نهر عطبرة -مشروع حور الفاش - مشروع سد فينشا على أحد روافد النيل الأزرق -مشروع الليبرد على نهر السوباط -مشروع سينت على أحد روافد نهر عطبرة -مشروع سد الفاش و يقع على الحدود الإثيوبية السودانية و أعلنت اثيوبيا عام 1996 عن برنامج إنشاء خزانين للمياه على النيل الأزرق لأغراض الري و توليد الكهرباء، مخالفة بذلك أحكام الاتفاقية التي أبرمتها مع مصر عام 1993، والتي تقضي بالتعاون والإتفاق من أجل استخدام مياه النيل على أساس قواعد و مبادئ القانون الدولي والإمتناع عن أي فعل يؤدي إلى الإضرار بمصالح الطرف الآخر، و أن يلتزما بالتشاور و التعاون في المشاريع ذات الفائدة المشتركة على نهر النيل.

وتجدر الإشارة إلى أن اثيوبيا امتنعت عن التصويت على اتفاقية قانون استخدام المجاري المائية الدولية في الأغراض غير الملاحية عام 1997، لأنها من وجهة نظرها لا تحقق التوازن بين دول المصب و دول المنبع، بالرغم من أن الباب الثالث من الاتفاقية المذكورة و المتعلق بالإجراءات المزمع اتخاذها، تلق أعباء ثقيلة على الدولة التي تنوي القيام بمشروعات على المجرى المائي في إقليمها.[10]

فتلك المشروعات سوف تؤثر على مصر بمقدار 7 مليارات م^3 سنوياً أي ما يعادل 20٪ من الإيراد الكلي لمصر من النهر،وهنا نجد أن اثيوبيا تحاول التنصل من اتفاقية 1902 و عدم الاعتراف باتفاقية 1959 بين مصر و السودان بشأن الاستفادة من مياه النيل و هذه المشروعات على مجرى النيل للاستفادة من مياهه سيجعل مصر تعاني من نقص قريب في مصادر المياه مع التزايد السريع في الطلب عليها، و ذلك بسبب التزايد السكاني و الحاجات المتزايدة للزراعة و الصناعة، أما دول شرق

افريقيا و هي اثيوبيا ورونذا و بورندي و زائير فإن خططها المستقبلية لاستخدام مياه النيل غير معروفة على وجه اليقين و إن كان من المحقق أن إمكانياتها من المياه الجوفية و الأمطار تفوق كثيراً احتياجاتها المائية.

إن طبيعة نهر النيل قد حتمت على دول النهر الإشتراك في حوض نهر واحد، و نظراًلأن النهر و روافده و منابعه مجزءاً بين هذه الدول يصبح من الصعب الوصول إلى إتفاق ثنائي دون أن يثير حفيظة الدول الأخرى، فمثلاً يصعب الإتفاق مع اثيوبيا دون الإتفاق على إقامة سد في أوغندا أو مشروع في زائير دون الإتفاق مع حكومة السودان مثلاً أو غيرها، وتشكل السودان أول دولة يأتي منها نهر النيل إلى مصر، حيث يجتمع النيل الأزرق مع الأبيض في الخرطوم و يشكلان معاً نهر النيل و يتميز السودان بإمكانية عقده لاتفاقيات ثنائية دون الإخلال بحقوق دول أخرى على أساس أن ما يتم الاتفاق عليه يكون قد عبر بالفعل بالدول الأخرى مثل اثيوبيا و أوغندا، و هو ما دفع مصر إلى توقيع اتفاقية 1959 حول تقسيم مياه النيل بسبب بناء مشروع سد خزان المعروف باسم "السد العالي".[11]

إن التوتر بشأن مياه النيل بين اثيوبيا و مصريعود إلى الخمسينات من القرن العشرين ففي 1956/02/26 أعلنت اثيوبيا في جريدتها الرسمية (إثيوبيان هيرالد) أنها سوف تحتفظ لاستعمالها الخاص مستقبلاً بموارد النيل في الإقليم الإثيوبي ب 86٪ من إيراد النهركاملة و احتفاظها بحقها في استعمال موارد المياه النيلية لصالح شعب اثيوبيا بغض النظر عن درجة اعتماد الدول المستفيدة الأخرى من هذه المياه أو مدى سعيها وراءها.[12]

وهذا التوتر ينتج عنه آثار عديدة كالآثار الاقتصادية:

– من المتوقع بالنسبة لأزمة المياه أن تصبح المياه سلعة تباع و تشترى مثلها مثل النفط تماماً، خاصة أن هذا التوقع ستبقى تؤيده من خلال شراء اسرائيل (وفق اتفاقية مع تركيا) حوالي 250 مليون م^3 من المياه سنوياً.

–أن تزداد الأزمة الغذائية حدّةً و خاصة في بلدان العالم النامي التي لا تملك القدرة الشرائية للاستيراد.

– أن التكنولوجيا الحديثة سوف تسعى إلى تطوير النواحي الفنية و التقنية في مجال تحلية مياه البحر لجعلها أقل تكلفة تماماً كما حدث في مجال تطوير بدائل للطاقة لمواجهة النفط.

وهناك استراتيجية لمواجهة هذه الأزمة:

إن أبعاد الأزمة السياسية و الاقتصادية في تداخل مستمر، خاصة في ظل عدم وجود إطار قانوني واضح يتيح للأطراف المتنازعة فرصة الاحتكام لمبادئ القانون الدولي، ومن ثم ترتب على ذلك أن زادت خطورة هذه الأزمة، ومن ثم فإن التعرض لكيفية مواجهتها لا بد أن يأخذ في الاعتبار عاملين اساسيين هما:

أن استراتيجية المواجهة تتوقف على طبيعة الموقف المحتمل للأزمة والذي يمكن حصره في آخرين:لعدمهما صراعية، بمعنى أن هناك حرباً بأدواتها المختلفة حول قطرة المياه في المنطقة، والآخر ذي طبيعة تعاونية بمعنى إمكانية قيام مشروعات مشتركة لمواجهة الخطر القائم والذي ينسحب على كافة دول المنطقة بدرجات متفاوتة.

إن لهذه الاستراتيجية عناصر و ركائز أساسية سواء على المستوى الشعبي أو على مستوى التعامل الجماعي من خلال: الحرب والتعاون.[13]

ففي الآونة الأخيرة تزايدت لهجة اللجوء للحرب من كافة أطراف الأزمة وعلى فترات مختلفة وقد حذر السادات الرئيس السابق لمصر أثيوبيا في عام 1977 إذا أقدمت على أية إجراءات من شأنها التأثير على إيراد و حصة مصر من المياه بأن مصر ستستخدم ضدها القوة العسكرية.

وفي إسرائيل عبّر أحد النواب والذي كان أحد أهم الجنرالات في الجيش الإسرائيلي أن أحد أهم حروبهم ستكون من أجل المياه، ولا بد للعالم أن يتفهم بواقعية حاجات اسرائيل الاستراتيجية للمياه حسب تصريحاته.

ويتبلور اتجاه الحروب هذا بوضوح من خلال مناقشات اللجنة الفرعية لشؤون الشرق الأوسط بمجلس النواب الأمريكي لموضوع (ندرة المياه في منطقة الشرق الأوسط) حيث عبرت عن قيام حرب جديدة سببها التنافس على المياه، فمع تناقص الموارد المائية العذبة، فإن الحرب ستكون هي الأسلوب الوحيد الباقي بصورة سوف تؤدي إلى مزيد من التوتر و ستصبح الحرب هي الملجأ الوحيد للدولة التي تريد الحصول على المياه.

أما بالنسبة للتعاون،فإن هذا الاتجاه يقضي بأن تكون هناك رؤية مشتركة بالأخطار الناجمة عن أزمة المياه في المنطقة، وبالتالي يتم مواجهتها بجهود جماعي، تكون أبرز سماته المشروعات المشتركة ويدعم هذا الإتجاه وجود العديد من المشروعات المطروحة على الساحة.[14]

كذلك الأمر بالنسبة للتوتر بشأن توصيل المياه لإسرائيل، فقد أثار ما أشيع عن احتمالات توصيل مياه النيل إلى إسرائيل عن حدوث مزيد من التوتر بين مصر و دول حوض نهر النيل و في مقدمتها اثيوبيا، حيث أثارت احتجاجاً على الشائعات المنتشرة بوجود ملاحق سرية في اتفاقية كامب ديفد الموقعة بين مصر وإسرائيل، و ذلك لإمداد إسرائيل بكميات من مياه النيل إلى شبه جزيرة سيناء ونفت مصر رسمياً هذه الشائعات للاعتبارات التالية:

إن اتفاقية مياه النيل الموقعة بين دول الحوض لا تسمح لدولة من دول الحوض بأن تعطي لطرف ثالث أي كمية من المياه إلا بموافقة كل دول الحوض،وهناك اثنتا عشرة معاهدة وقعت بين كل دول الحوض، فإذا طلبت مصر أي توزيع جديد لن يكون في مصلحتها، و تقديم المياه لإسرائيل يعني أنها زائدة عن حاجتها، و من ثم يمكن أن تتجاوز هذه الدول ما تسحبه من مياه النهر.

وبالفعل فقد أبدت اثيوبيا و السودان قلقاً متزايداً من هذه الفكرة و أعلنت اثيوبيا معارضتها للفكرة و طلبت أخذ موافقة كافة دول حوض النيل قبل الإقدام على ذلك، وأعقبت ذلك برسالة في ماي 1980 إلى الدول الأعضاء في الإتحاد الإفريقي تتهم فيها مصر بمحاولة نقل مياه النيل إلى خارج حوض الصرف الدولي للنهر دون أن تستشير الدول المعينة، و من ثم فإن اثيوبيا تحتفظ لنفسها بحق استخدام مياه النيل الأزرق كما يروق لها،وبالمقابل فإنها قامت ببناء سد عملاق.[15]

المطلب الثاني: السدود المقامة على نهر النيل

هناك أطروحات لمشروعات مشتركة بين مصر و أثيوبيا والسودان حيث تمثل السودان جانباً مهماً في هذه المشروعات، لأن إمكانية التوصل إلى إقامة المشروعات لتنمية مياه النيل و نهر عطبرة إمكانيات كبيرة إلى جانب وجود أراضي شاسعة قابلة للزراعة على الحدود الأثيوبية، كما أن هناك احتمالات كبيرة لتوليد الكهرباء للدولتين.[16]

لقد أقيم على نهر النيل العديد من المنشآت والسدود التي تقوم بتخزين وتنظيم المياه كقناطر الدلتا و الصعيد و خزان أسوان ومشروع قناة جونجلي وسد جبل الأولياء الذي أنشئ على النيل الأبيض وسد ستار الذي أنشئ على النيل الأزرق، وسد أوين أنشئ عند مخرج بحيرة فيكتوريا ثم مشروع سد فينيشا أقيم على أحد روافد النيل الأزرق، ثم السد العالي.[17]

الذي يعد من أكبر مشروعات التخزين المستمرعلى نهر النيل في القرن العشرين و هو المشروع الذي أخرج مصر من دائرة التذبذب السنوي لإيراد النيل على مدار العام و من عام لآخر، إذ أنه سّد لمصر نقص المياه خلال السنوات التي كان إيراد النهر يعاني نقصاً شديداً، ويساعد مصر في إنشاء العديد من المشروعات الزراعية و الصناعية و احتياجات السكان المتعددة و المتزايدة.

وتجدر الإشارة إلى أن أي مشروع ينفذ من هذه المشروعات يجب أن يحقق مصلحة للمجتمع المحلي في منطقة المشروع حتى يكون هناك حرص على المشروع،كما ينبغي مراعاة الاعتبارات البيئية إلى أقصى درجة ممكنة و توزيع أعباء كل طرف منها قائماً على أسس عادلة و إنسانية.[18]

لقد استهدف بناء السد العالي تطبيق سياسة التخزين المستمر لأعوام متتالية لتعويض ايراد السنوات الضعيفة و القضاء على الذبذبة المفاجئة لإيراد النيل الطبيعي كله في السنة في حوالي 5 مليار م^3، و قد حقق هذا السد زيادة الإيرادات المائية بمقدار 22 مليار م^3 يخص السودان منها 14.5 مليار م^3 و مصر 7.5 مليار م^3.[19]

أما بالنسبة للدول الأقل نمواً فقد وضعت في مؤتمر الأمم المتحدة عام 1981 قائمة ب 40 مشروعاً للري يقع بعضها على حوض النيل الأزرق و الآخر على حوض السوباط ومنها ما يقع على نهر عطبرة معلنة أنه في حال عدم وجود إتفاق مع الدول الأخرى المشاطئة فإنها تحتفظ بحقها في تنفيذ مشاريعها من جانب واحد، و بالفعل تمكنت اثيوبيا و بمساعدة إسرائيلية من تنفيذ عدة مشاريع مائية أهمها:[20]

- **سد النهضة** أو **سد الألفية الكبير**: هو سد إثيوبي قيد البناء يقع على النيل الأزرق بولاية بنيشنقول- قماز بالقرب من الحدود الإثيوبية-السودانية، على مسافة تتراوح بين 20 و 40 كيلومتراً، وعند اكتمال إنشاءه المرتقب عام 2017، سوف يصبح أكبرسد كهرومائي في القارة الأفريقية، والعاشر عالمياً في قائمة أكبر السدود إنتاجاً للكهرباء وتقدر تكلفة الإنجاز ب 4.7 مليار دولار أمريكي، وهو واحد من ثلاثة سدود تُشيد لغرض توليد الطاقة الكهرمائية في إثيوبيا، ويوجد قلق لدى خبراء مصريين بخصوص تأثيره على تدفق مياه النيل وحصة مصر منها،خاصة وأن الدول المتشاطئة على نهر النيل ومن بينها مصر كانت في السابق مستعمرات لدول أجنبية ثم حصلت هذه الدول على استقلالها، وظهرت أولى الاتفاقيات لتقسيم مياه النيل عام1902 م في أديس أبابا وعقدت بين بريطانيا بصفتها ممثلة لمصر والسودان وإثيوبيا ونصَّت على عدم إقامة أي مشروعات - سواءٌ على النيل الأزرق، أو بحيرة تانا ونهر السوباط، ثم اتفاقية بين بريطانيا وفرنسا، عام1906 وظهرت عام 1929 اتفاقية أخرى.

وهذه الاتفاقية تتضمن إقرار دول الحوض بحصة مصر المكتسبة من مياه النيل، وإن لمصر الحق في الإعتراض في حالة إنشاء هذه الدول مشروعات جديدة على النهر وروافده، وهذه الإتفاقية كانت بين مصر وبريطانيا(التي كانت تمثل كينيا وتنزانيا والسودان وأوغندا لتنظيم استفادة مصر من بحيرة فيكتوريا،وتم تخصيص نسبة 7.7٪ من تدفق للسودان و92.3٪ لمصر.

فمصر (التي تقع على مصب النهر) تعارض إقامة هذا السد الذي تعتقد أنه يقلل من كمية المياه التي تحصل عليها من النيل،ويتم تمويل السد من السندات الحكومية و التبرعات الخاصة، ومن المقرر أن يكتمل بناءه في جويلية عام.[21]

المطلب الثالث: الآثار الإيجابية والسلبية لهذه السدود

بإنشاء السدود المقامة على نهر النيل تمت السيطرة على الفيضان و استخدام الماء استخداماً رشيداً، وأمكن حماية التربة من الإنجراف و انتشر استخدام الكهرباء و تحولت الأراضي البور إلى مزارع خصبة ذات قيمة إقتصادية.

فأهم سد أقيم على نهر النيل في مصر هو السد العالي، لقد أنقذ مصر من الجفاف خلال الفترة من 1979 إلى 1987 وحماها من الفيضانات العالية للأعوام 1974-1988، وأمدها بشكل ثابت بالمياه اللازمة لري الأراضي الزراعية و الوسع الكبير في الأراضي الجيدة.[22]

كما ساهم في اتساع رقعة الأراضي الزراعية في مصر و ضمن إرووائها طوال العام، و حوّل نظام الري الحوضي القديم إلى نظام الري الدائم، مما يضاعف إنتاجية هذه الأراضي من المحاصيل الزراعية المختلفة،كذلك ساهم في وقاية البلاد من أخطار الفيضانات و تحسين أحوال الملاحة النهرية في النيل و ترعه الرئيسية و توليد طاقة كهربائية تقدر ب 10 مليار كيلو واط ساعي سنوياً،بالإضافة إلى ضبط مياه النهر و التحكم في منع انسياب مياهه إلى البحر ودفع مصر لحكومة السودان تعويض عن الأضرار التي تلحق بالممتلكات السودانية الحاضرة نتيجة التخزين في السد العالي.[23]

- **أما سد النهضة الأثيوبي**: فهناك فوائد كبيرة للسد حيث يقوم بتوليد الكهرباء التي يتم إنتاجها بواسطة محطة الطاقة الكهرومائية من السد وسيتطلب بناء خطوط نقل ضخمة لبيع الكهرباء لمصر والدول المجاورة بما في ذلك السودان.

وستتكون مراكز استهلاك وفقد للطاقة مثل العاصمة الإثيوبية أديس ابابا و العاصمة السودانية الخرطوم وكلاهما يقععلى بعد أكثر من 400 كم من السد، هذه المبيعات الناتجة عن السد من شأنها أن تأتي على رأس محطات الكهرباء التي من المتوقع أن يتم بيعها عن غيرها من محطات الطاقة الكهرومائية الكبيرة التي هي أيضاً قيد الإنشاء في إثيوبيا، مثل سد جيلجل جيب 3.

بما أن النيل الأزرق هو نهر موسمي للغاية، فإن السد سيقلل من الفيضان، بما في ذلك 40 كم من داخل إثيوبيا،فمن ناحية سيقوم السد بالحد من الفيضانات وهو مفيد لأنه يحمي المستوطنات من الأضرار الناجمة عن الفيضانات، ولكن من ناحية أخرى، فإن السد يمكن أن يكون ضاراً، إذا ستقل نسبة الزراعة بسبب انحسار الفيضانات في وادي النهر للمصب، وبالتالي سيحرم الحقول من الماء،و أيضاً يمكن أن يكون بمثابة جسر عبر نهر النيل الأزرق، وليستكمل الجسر الذي كان تحت الإنشاء في عام 2009 من مجرى النهر.[24]

وهناك تقييم مستقل يقدر أن 5,110 شخصاً على الأقل سيتم إعادة توطينهم ونقلهم من منطقة الخزان ومنطقة المصب Down Stream، وإعطائهم أكثر مما كان متوقعاً في التعويض على أن يجلب المشروع شيئاً من المنافع لهم، وذلك من حيث التعليم والخدمات الصحية أو إمدادات الكهرباء، كما من المتوقع أن يؤدي السد إلى تغيير كبير في مصايد الأسماك، كما سيأخذ في الإعتبار تدبير بعض المناطق لمكافحة تآكل المنبع على الأقل من أجل الحد من النحر وترسب الطمي بالخزان.[25]

فالتأثير الدقيق للسد على دول المصب غير معروف، فمصر تخشى من انخفاض مؤقت من توافر المياه نظراً لفترة ملء الخزان و انخفاض دائم بسبب التبخر،لذا تطالب مصر بايقاف مشروع سد النهضة لأن حجم الخزان يبلغ حوالي ما يعادل التدفق السنوي

لنهر النيل على الحدود السودانية المصرية (65,5 مليار متر^2) ومن المرجح أن تنتشر هذه الخسارة إلى دول المصب على مدى عدة سنوات،وأنه خلال ملء الخزان يمكن أن يُفقد من 11 إلى 19مليار متر مكعب من المياه سنوياً، مما سيتسبب في خسارة مليوني مزارع دخلهم خلال الفترة من ملء الخزان وأيضاً ستؤثر على إمدادات الكهرباء في مصر بنسبة 25 % إلى 40 %.[26]

حتى أنه سيحدث انخفاض مؤقت بنسبة 25% من إنتاج الطاقة الكهرومائية وسُيترجم إلى انخفاض مؤقت في إنتاج الكهرباء الإجمالي المصري لما هو أقل من 3%، ويمكن أن يؤدي السد أيضاً إلى خفض دائم في منسوب المياه في بحيرة ناصر، إذا تم تخزين الفيضانات بدلاً من ذلك في إثيوبيا، وهذا من شأنه تقليل التبخر الحالي لأكثر من 10 مليارات متر مكعب سنوياً، ولكن سيكون من شأنه أيضاً أن يقلل من قدرة السد العالي في أسوان لإنتاج الطاقة الكهرومائية لتصل قيمة الخسارة لـ100 ميجاوات بسبب انخفاض مستوى المياه بالسد بمقدار 3م، في حين أن السد سيحتفظ بالطمي، وبالتالي فإنه سيتم زيادة فترة الحياة والاستفادة من السدود في السودان – مثل سد الروصيرص والسد سنار و سد مروي – و السد العالي في أسوان بمصر، إن الآثار المفيدة والضارة للسيطرة على الفيضانات ستؤثر على الجزء السوداني من النيل الأزرق، تماماً كما سيؤثر على الجزء الإثيوبي من النيل الأزرق لمصب السد.

لكن مصر لديها مخاوف جدية حول المشروع بحيث أنه طلبت الفحص والتفتيش على تصميم و دراسات السد من أجل تهدئة المخاوف، ولكن نفت إثيوبيا هذا الطلب ما لم تتنازل مصرعن حق الفيتو على توزيع المياه،وبعد لقاء بين وزراء المياه من مصر والسودان و إثيوبيا في مارس 2012، صرحت السودان بأنها تؤيد بناء السد،و تم التوقيع على معاهدة النيل من قبل الدول المتشاطئة العليا في عام 2010 ولكن اتفاق التعاون الإطاري، لم يُوقع من خلال مصر أو السودان، نظراً لأنه ينتهك معاهدة 1959 التي تعطي حقوق حصرية للسودان و مصر في مياه النيل،ولكن توفر مبادرة حوض النيل إطار للحوار بين جميع دول حوض النيل.[27]

المبحث الثاني
حالة حوضي دجلة و الفرات

إن عدد الأنهار المستدامة في الشرق الأوسط لا يتجاوز خمسين نهراً، بما في ذلك روافد النيل ودجلة والفرات وتتمثل الأنهار الرئيسية في الشرق الأوسط في نهر النيل أطول الأنهار العربية و أغزرها و الفرات الذي ينبع من تركيا ويدخل سوريا فالعراق ويصب في الخليج العربي، كما أنه يتلقى روافده من (الدول الثلاث، و نهر دجلة الذي ينبع من تركيا و يدخل إلى العراق بعد أن يمر مساحة صغيرة في سوريا ويلتقي بالفرات في العراق .

ويعتبر نهرا دجلة و الفرات المورد الرئيسي للمياه بعد نهر النيل في منطقة الشرق الأوسط، ويعد نهر الفرات أكبر نهر في بلاد ما بين النهرين و يبلغ طوله 2800 كم منها ألف كم في تركيا حيث منبعه من هضبة أرمينيا شمال شرق تركيا، حيث يتشكل من مياه الأمطار والثلوج التي تهطل فوق الجبال الشاهقة وتعتبر هضبة أرمينيا امتداداً للهضبة شرق الأناضول وتحتوي هذه الهضبة على منابع لنهري الدجلة والفرات.

ويلتقي النهران في حوض فلطية شمال مدينة كيبان بحوالي عشرات الكيلومترات ليكونا نهر الفرات الذي يتجه نحو الجنوب الغربي عند الأناضول حتى يصل إلى بلدة بيرة جيك ليدخل الأراضي السورية عند مدينة طرابلس.[28]

ثم يتابع مجراه باتجاه الشرق، فالجنوب الغربي حتى يصل مدينة الرقة ثم يصل إلى مدينة الرقة ثم يصل إلى دير الزور في الاتجاه الجنوبي الشرقي ليدخل بعدها الأراضي العراقية متجهاً للجنوب الشرقي ويمر بعدة مدن عراقية إلى أن يصل لمدينة الفلوجة حيث يقترب من نهر الدجلة عند بغداد ثم يتابع الفرات جريانه باتجاه الجنوب ليتفرع إلى فرعين شرقي وغربي.

ويتحد الفرعان عند مدينة السماوة ويتابع جريانه حتى يصل باتجاه الشرق ليلتقي بنهر الدجلة هند مدينة القرنة، حيث يشكلان شط العرب.[29]

أما نهر دجلة فينبع من المرتفعات الواقعة في جنوب شرق تركيا و يرفده من الشرق بعد أن يدخل العراق خمسة روافد رئيسية، والأجزاء الواقعة في تركيا تغذي النهر بكميات من المياه أكثر مما يتناسب مع مساحته، وذلك لارتفاع أراضيه و كثرة أمطارها و ثلوجها.[30]

وفيما عدا أنهار النيل و دجلة والفرات التي تعتبر أنهاراً كبيرة، فإن بقية أنهار منطقة الشرق الأوسط عموماً كلها أنهار صغيرة تنحصر في مناطق الأقاليم الجبلية الشمالية في تركيا و إيران و في جبال الشام و رغم غزارة المياه في بعض هذه الأنهار، فإنه ليست هناك ثمة مشكلات تثار حولها سوى تنميتها، و يقع معظمها داخل قطر واحد، (أي أنهار وطنية)، و لا تقع في أقطار متعددة (كالأنهار الدولية) ينجم عن مرورها مشكلات دولية، اقتصادية، سياسية.[31]

حيث تهتم تركيا بحكم طبيعتها العالية كثيراً بالأنهار، حيث ينبع من تركيا العديد من الأنهار من أكبرها و أشهرها نهري دجلة والفرات 31.8 مليار م^3.[32]

وتهتم تركيا بنهر الفرات نظراً لقدرتها على استخدام مياهه في تنمية سهولها الجنوبية الشرقية المحاذية لشمال سوريا، و تهدف تركيا من خلال مشاريعها الاروائية في المنطقة إلى الاستغلال الأمثل لمواردها المائية و زيادة الرقعة الزراعية لتصل إلى1,7 مليار هكتار بإتمام مشروع GAP جنوب شرق الأناضول لتوفير احتياجاتها الغذائية للسكان و لتصدير الفائض لتنمية مواردها الاقتصادية، و تمكين السدود المنفذة، أو قيد التنفيذ في حوض نهر الفرات في تركيا أن تخزن حوالي 93 مليار م^3 من المياه سنوياً، وهذا يعادل ثلاثة أضعاف إجمالي الواردات المائية للنهر.

أما حجم التخزين في سوريا فتصل قدرته إلى 16,3 مليار م^3 وفي العراق12,300 مليار م^3 فقط و ستستهلك تركيا لري أراضي مشاريعها في حوض الفرات كمية من المياه قدرها 15,7 مليار م^3 سنوياً أي ما يعادل 50 بالمئة من إيراد النهر.

يمكن للسدود المنفذة أو قيد التنفيذ في حوض نهر دجلة في تركيا أن تخزن حوالي 19 مليار م3 من المياه وهذا ما يعادل كامل إيرادات النهر المائية على الحدود السورية التركية.[33]

وبالرغم من بلاغة هذه الأرقام إلا أن كل التصريحات السورية تؤكد على وجود مشكلة مائية لديها،سببها هو التهديد التركي على مجرى نهر الفرات لكن السبب الرئيسي للمشكلة يكمن في سوء الإدارة والتخطيط والتنسيق الأمثل للموارد المائية للنهرين أكثر منها أزمة نقص المياه وعدم قدرة المسؤولين على إنشاء خطط مستقبلية لإقامة مشروعات مائية و تنموية للاستفادة من المياه

المتاحة، ومن الغريب أن أي انخفاض في مستوى نهر الفرات يؤدي إلى عطش مدينة حلب ثاني أكبر المدن السورية رغم وجود ثلاثة سدود على النهر.[34]

فنهر الفرات بالنسبة لسوريا يمثل أهمية تفوق أهميته بالنسبة لكل من العراق و تركيا بالرغم من أن نهر الفرات يجري في العراق لمسافة تفوت في طولها تلك التي يقطعها في سوريا و تركيا.[35]

لكن تركيا أدركت منذ وقت مبكر أن مستقبلها البعيد يقوم على تنمية دورها السياسي ومصالحها مع الشرق الأوسط، لذلك استعدت و بنت على سد الفرات وحده واحد و عشرين سداً أكبرها (سد أتاتورك) وهو أكبر السدود في العالم لتحكم بذلك سيطرتها على الفرات، وتتحكم في جريانه خارج أراضيها وتحقق قدر أكبر من الهيمنة الاقليمية عبر الإستخدام الواعي للأداة المائية.

المطلب الأول: السدود المقامة على نهري دجلة والفرات

أقيمت عدة سدود على نهر دجلة في سوريا أهمها:

مشروع ري دجلة الكبير و هو أهم مشروع على نهر دجلة في سوريا يتألف من محطة لضخ المياه من نهر دجلة إلى قناة عين ديوار، ثم محطة المالكية، وسد الباسل الذي يعتبر ثالث أكبر سد في سوريا و يتألف من سدين، رئيسي و ثانوي.

كما أقيمت سدود في العراق على نفس النهر أهمها:

سد بخمة أنشئ على الزاب الكبير، سد الموصل (سد صدام) أنشئ على نهر دجلة، سد دوكان أنشئ على الزاب الصغير، سد العظيم أنشئ على نهر العظيم، سد دربندي خان أنشئ على نهر ديالى أحد روافد نهر دجلة، سد دبس أنشئ على نهر ديالى، سد حمرين يقع على نهر ديالى، سد كولوس يقع على نهر جقان أحد فروع نهر ديالى، سد سامراء أنشئ على نهر دجلة، سد الكوت أنشئ على نهر دجلة في سوريا.

وكذلك أقامت تركيا العديد من السدود على نهر دجلة معظمها، تقع ضمن مشروع جنوب شرق الأناضول GAP وتشمل:

- مشروع دجلة و يضم سدي دجلة و قرالقيزي.
- مشروع سد و محطة باطمان يقع هذا المشروع على نهر باطمان أحد الروافد الرئيسية لنهر دجلة.
- مشروع سد و محطة باطمان سيلوان ثم مشروع سد و محطة جرزان.
- مشروع و محطة إيلي صو.

وتنوي تركيا إقامة العديد من السدود على نهر دجلة من بينها نهرا إيلزوغ الذي يقع على بعد 40 ميل من الحدود التركية مع سوريا و العراق، و سوف يؤدي استمرار تركيا في بناء مشاريعها المائية على نهر دجلة دون التنسيق والتشاور مع سوريا والعراق إلى الإضرار بمصالح هاتين الدولتين بسبب انخفاض منسوب مياه نهر دجلة إلى النصف تقريباً، الأمر الذي يجعل ضرورة التوصل إلى اتفاق نهائي ثلاثي لاقتسام مياه نهر دجلة بطريقة منصفة و عادلة من أجل وضع حد لتحكم تركيا بمياه هذا النهر و التي تدعي

أنه يشكل مع نهر الفرات حوضاً مائياً واحداً في حين أن نهري دجلة والفرات نهران منفصلان لكل منهما حوضه المائي المستقل و مساره المنفصل عن الآخر، وهذا ما يؤكده الواقع الفعلي و الظروف الجغرافية.

أما المشاريع المنفذة على مجرى الفرات فهي:

في العراق :

- سد الهندية - سد الرمادي - سد الحديثة - سد الفلوجة - مشروع بحيرة الحبانية.
- النواظم القاطعة الكبيرة - مشروع منخفض الثرثار.[36]

في سوريا:

- سد الثورة - سد البعث التنظيمي- سد الحسكة الشرقي و الغربي - سد تشرين
- سد حلبية و زلبية.سامر مخيمر و خالد حجازي،مرجع سابق،ص32

المشاريع المقامة في تركيا:

- سد كيبان - سد قرة قايا.
- مشروع الفرات الأسفل و يضم:
- سد قارقامن - سد أتاتورك - أنفاق أورفه وهلفان.
- مشروع الفرات الحدودي و يضم:
- سد بيرجيك - سد قرقميش- مشروع سروج يازبكي - مشروع أدميان-غوكصو- أرايان مشروع أدميان- كاهنا.
- مشروع غازي عنتاب.
- مشروع الجاب.[37]

بالإضافة إلى هذه السدود، أقيمت مشاريع أخرى على نهر دجلة والفرات معاً أضخمها:

مشروع التنمية التركي GAP: يعد هذا المشروع أحد المشاريع الإنمائية الضخمة في هضبة جنوب شرق الأناضول في تركيا أنشأته لحل مشكلة المياه، و تمكينها من أن تلعب دوراً سياسياً و اقتصادياً أكبر في منطقة الشرق الأوسط،يهدف المشروع إلى التوسع الزراعي و تحويل المنطقة إلى إقليم منتج للحبوب والخضر و الفواكه، لتلبية حاجة السكان و تصدير الفائض لتصبح تركيا بعد إتمام هذا المشروع (سلة غذاء الشرق الأوسط) إلى جانب إنتاج الطاقة الكهربائية من السدود المقامة، والتي ستقام على النهرين وقد أنفق على هذا المشروع حتى نهاية 2002 ما يقارب 32 مليار دولار أمريكي.[38]

حيث يعتبر هذا المشروع متكامل ينقسم إلى 13 مشروعاً منها سبعة في حوض الفرات و ستة في حوض دجلة، و يشمل كل مشروع من هذه المشاريع على سد أو أكثر، إلى جانب العديد من المنشآت و قنوات الري و يتضمن المشروع إقامة 32 سداً و 19 محطة لتوليد الطاقة الكهربائية على نهري دجلة و الفرات.[39]

المطلب الثاني: أبعاد مشكلة المياه في حوضي دجلة و الفرات

تبدو مشكلات المياه بالنسبة الدول الواقعة على هذين الحوضين كمشكلات نتجت عن تزايد الإحتياجات المائية نتيجة لنمو السكان و ما يتبعه من زيادة في مشروعات التنمية المائية والخدمات والتصارع على الموارد المائية المتاحة مستقبلاً، لهذا لا يمكن

تجاهل الظروف الطبيعية في المنطقة و خاصة في نواحيها المناخية و المائية، و التي تشكل أساساً التوزيع الجغرافي لموارد المياه، و ما يترتب على ذلك من وفرة أو ندرة المياه في تلك المنطقةعن غيرها، و ما يتبعه من ارتفاع في قيمة المياه في حياة دول المنطقة و خطورة تعرضها للنقص عند الحاجة، خاصة إذا كانت هذه المياه ترد إليها عبر دولة مجاورة تتحكم في منابع المياه فتتركها تمر إليها أو تحرمها منها بقدر ما تستأثر به الدولة الأخرى (دولة المنبع) لنفسها لتنمية مشروعاتها المائية حتى تستطيع التفوق على جيرانها، و حسب قوة الدولة التي تمكنها من إجراء ذلك.[40]

ومن أبرز المشاكل حول المياه،النزاع الذي قام بسبب مشروع تنمية جنوب شرق الأناضول GAP و إنشاء سد أتاتورك على نهر الفرات، حيث شكلت لجنة فنية بين الأقطار الثلاثة (تركيا-سوريا-العراق) و عقدت اللجنة 16 اجتماع دون أن يتم التوصل إلى أي إتفاق ثلاثي حول استخدام مياه نهر الفرات والسبب الرئيسي هو معارضة تركيا لعقد معاهدات متعددة الأطراف حول هذا الموضوع.

وأخيراً فإن العراق بخروجه من معادلة التوازن الاقليمي للقوى، قد أفسح المجال لتركيا للمضي في مخططاتها المائية حتى آخر مدى، و يصبح النزاع الفراتي نزاعاً تركياً سورياً، كما يفتح المجال لتركيا للمضي في استخدام نهر دجلة.[41]

أما بالنسبة للعلاقات السورية العراقية فكانت أولى الإحتكاكات، بسبب المياه بين سوريا والعراق عندما شرعت سوريا في بناء سد الطبقة عام 1974-1976 بدعم سوفييتي مالي وتكنولوجي حيث ترتب على ذلك انخفاض المياه التي اعتاد العراق على وصولها من نهر الفرات إلى 25%.[42]

فكانت الأزمة بين العراق و وسوريا، حيث قامت العراق بتهديد سوريا بتدمير هذا السد بالقنابل ولم تنتهي الأزمة إلا بقرار سوري بتدفق كميات إضافية من المياه تجاه العراق.

ويبدو أن الخلاف الرئيسي حول مشروع جنوب شرق الأناضول و سد أتاتورك في تركيا و الذي يتشعب إلى 13 مشروعاً، سبعة منها في حوض نهر الفرات و الستة الباقية في حوض نهر دجلة، وقد تم الانتهاء من تشييد سدي (قرافايا- هانجاجيد) في حوض الفرات، بينما يستمر العمل في 4 سدود أخرى في حين يتم الانتهاء من سد أتاتورك.

وهذا المشروع يهدف لتزويد المناطق الحدودية في تركيا بالطاقة و مصادر الري لجعلها نقطة تجميع للحبوب و الفواكه و الخضار لدول الشرق الأوسط.

وكذلك طرح المشروع مشاكل بعيدة المدى في منطقة خرجت من أسوأ جفاف وتعتمد بشكل كبير على نهر الفرات لأغراض الري لتخفيف فاتورة استيراد المواد الغذائية، فسوريا تخطط لري مائة ألف هكتار من الأراضي الجديدة بالإضافة إلى الطلب الزائد على مياه النهر والإستنزاف السريع للمياه الجوفية، فإن هناك حاجة لـ15 مليون م^3 من الماء تحتاجها سوريا لمواجهة النقص الحاد في المواد بدأ من عام 2000

ومما يزيد الأمر صعوبة أنها تعتمد على مياه نهر الفرات بنسبة 90 %.

- أما العراق فالوضع أسوء حالاً لأنها تقع في نهاية مجرى نهر الفرات فالفترة التي يتم فيها تعبئة بحيرة أتاتورك،فإن توليد الطاقة الكهربائية من المشاريع المقامة على النهر قد تنخفض بنسبة 40% في حين أن خمسة ملايين مزارع عراقي في الشمال الغربي سيعانون من النقص في إمدادات المياه، وسيتأثر كذلك إنتاج القمح والأرز.

فإنشاء سد أتاتورك سيكون له مضاعفات حادة على كمية المياه و نوعيتها التي تصل إلى العراق ومما يضاعف من مشاكل العراق إمكانية قيام سوريا باحتجاز معظم ما تبقى من مياه النهرخلف سد (الطبقة) مما يخفف تدفق المياه إلى العراق بشكل كبير.[43]

وتدعي تركيا بأن ما تمرره من مياه إلى سوريا و العراق هو تضحية منها و ليس واجباً عليها، وتنادي باعتبار حوضي دجلة والفرات حوضاً واحداً، و إمكانية نقل مياه نهر دجلة إلى نهر الفرات من خلال مشروع منخفض الثرثار في العراق، وإزاء الموقف التركي تذهب كل من سوريا و العراق، إنطلاقاً من الاتفاقيات المتعددة السابقة التي أبرمتها مع تركيا ومن قواعد العرف الدولي و أحكام القضاء و التحكيم الدوليين وما أقره الفقه الدولي.

وأخيراً من إتفاقية قانون إستخدام المجاري المائية الدولية في الأغراض غير الملاحية عام 1997، فإنها تتمسك بالصفة الدولية لنهر الفرات وما تقضي به الإتفاقية من قاعدة الإستخدام العادل و المنصف لمياه المجرى المائي الدولي و قاعدة عدم التسبب بضرر ذي شأن لدول المجرى الأدنى.[44]

فتركيا لم تلتزم بتطبيق أي من الإتفاقيات التي أبرمتها مع الدول المشاطئة، مدعية أن الفرات ليس نهراً دولياً لكي تطبق عليه القواعد الدولية، بل أنه مجرد نهر عابر للحدود، وأن المياه الدولية هي فقط المياه الحدودية، فلها الحق في ممارسة السيادة المطلقة على ذلك الجزء من مجرى الفرات الذي يجري في أراضيها، و بالتالي تقيم عليه ما تشاء من المشاريع المائية، بما يخدم مصالحها، دون مراعاة ما لسوريا و العراق من حقوق طبيعية مشروعة في مياهه، و دون الإكتراث بالضرر الذي يلحق مصالحها بسبب المشاريع الضخمة التي تنشئها تركيا دون التنسيق و التشاور مع هاتين الدولتين المشتركين معها في هذا المجرى المائي الدولي.[45]

المطلب الثالث: الآثار السلبية والإيجابية لهذه السدود

تهدف هذه المشاريع إلى السيطرة تماماً على مياه دجلة و الفرات من خلال سلسلة السدود والقنوات التي تمكنها من التحكم في كميات المياه التي يتم صرفها إلى الجزء الأسفل من النهرين.[46]

لتحقيق استقرار اجتماعي و نمو اقتصادي يساهم في بلوغ أهداف التنمية الوطنية لتركيا.

فالمشاريع التركية السورية المقامة على نهر الفرات لها آثار مباشرة على مشكلة المياه تتمثل في:

– تستهلك المشاريع التركية السورية حوالي 26 مليار م3 من إجمالي الموارد المائية لنهر الفرات، وتبعاً لذلك ينخفض الوارد المائي بنسبة تعادل 25 % من معدل الوارد المائي الواصل إلى العراق من ميل الفرات.

– تردي نوعية المياه و تلوثها، حيث تزداد ملوحتها بسبب نقص المورد المائي في النهر من جهة، و استعمالات المياه من دول أعلى المجرى (تركيا) من جهة أخرى، وما يصب فيه من على طول 117 كم في كل من تركيا 442كم و سوريا 675 من مخلفات الصناعة و غيرها، فالأراضي التي يمر بها النهر في سوريا ذات طبيعة جبسية.[47]

ولا شك أن زيادة ملوحة المياه و تلوثها سوف يؤثر سلباً على أغراض استخداماتها المتعددة، سواءً للشرب أو للزراعة أو الصناعة أو الكهرباء، كما سترتفع تكاليف إعداد المياه و جعلها صالحة للأغراض السابقة.[48]

كذلك انعكست العواقب السلبية لهذا المشروع على العلاقات الثنائية مع سوريا و العراق باعتبارهما دولتي المجرى الأوسط و المصب، فأدت إلى تفاقم التوترات الإقليمية و المحلية بشكل خطير، حيث تضم هذه المنطقة الأكراد وعرب لواء اسكندرون، و

تنظر تركيا لهذا المشروع كأداة لتحقيق الإستقرار السياسي لهذه المنطقة عبر تنميتها بهدف إرساء البنية التحتية للزراعة الحضرية و الريفية، وكذلك قطاعات التصنيع و التعليم و المواصلات و الصحة والإسكان و السياحة و غيرها، لرفع مستوى الدخل لسكان منطقة الأناضول الجنوبية الشرقية التي تعد من المناطق التركية المتطورة.[49]

بينما عواقب هذا المشروع على سوريا و العراق، عندما فُتح سد أتاتورك و عقب الإنتهاء من ملئ المرحلة الأولى عام 1990 تبينت على الفور عواقب ذلك على الجزء السفلي من النهرين، فبعد مرور 24 ساعة هبط منسوب النهر في سوريا بمقدار متر وبعد أسبوعين تأثرت المحاصيل الزراعية من جراء ذلك، و تحمل العراق خسارة مباشرة تقدر بحوالي 15٪ من المحصول نتيجة لانقطاع تدفق المياه،أما سوريا فقد عانت الكثير من جراء ملء هذا السد و تكبدت الكثير من الخسائر كانخفاض التصريف السنوي للفرات بنسبة 40٪ تقريباً.

وبالرغم من قيام سوريا ببناء سد (البعث) لتنظيم صرف المياه و سد تشرين الكهرومائي عام 1991، إلا أن سوريا لا تزال تواجه مصاعب جمة في التزود بالماء و الكهرباء، أما العراق فيعاني من شدة ملوحة التربة المرتفعة الذي يمكن أن يلحق الضرر بأراضي مابين النهرين الخصبة،بالإضافة لعدم التحكم بالمياه لتوفير كميات معقولة من المياه النقية وانخفاض إيراد النهر و الحاجة الماسة للري من ماء الفرات.

الأمر الذي يفاقم تعرض المحاصيل الزراعية للهلاك عند لجوء السلطات التركية إلى قطع تدفق مياه النهر لملء خزان سد أتاتورك دون أن يتوافر قدر إضافي من مياه الأمطار في فترة الصيف،و سيعود بالطبع الجزء الأكبر من المياه التي تستخدمها تركيا إلى مجرى النهر و لكنها ستكون محملة بكميات أكبر من الأملاح و مختلف المنتجات الكيماوية من مخصبات و مبيدات للحشرات و الأعشاب الطفيلية.

وبما أن سوريا ستحوّل كميات متزايدة نسبياً من مياه الفرات لسد حاجاتها فإن العراق ستواجه وضعاً أصعب لانخفاض كم مياه الفرات و دجلة و ارتفاع نسبة الملوحة فيها و رداءة نوعيتها فيصبح نصيب بلاد مابين النهرين مهد الزراعة منذ القدم ماءً شحيحاً و مزيداً من الأملاح و التلوث.[50]

ورغم الشكاوى و الإحتجاجات و التهديدات لم تتمكن سوريا و العراق من الحيلولة دون مواصلة العمل على تنفيذ مشروع الجاب التركي، بل إنهما لم يتوصلا إلى إتفاق أو معاهدة لتقاسم مياه النهرين وذلك لعدة اعتبارات:

1- غياب قانون دولي يمول تقاسم الموارد المائية المشتركة و إدارتها.

2-افتقاد التنسيق بين سوريا و العراق.

3-الحرب بين العراق و إيران التي فرضت على العراق إقامة علاقات طيبة مع تركيا، مما حال دون الرد بفاعلية ضد السياسة المائية التي تنتجها تركيا.

4- عدم قدرة سوريا الوقوف منفردة ضد تركيا إلا أن سوريا نفذت مشروعات الري التركية عن طريق التشدد في مطلوبين لها من تركيا و هما:

- استعادة لواء إسكندرون.

- تقاسم مياه الفرات، وهكذا نجدأن النزاعات حول الموارد المائية تتحول إلى وسائل ضغط لدى بعض الدول إزاء جيرانها المشتركين معها في الأنهار.[51]

الخاتمة :

إن أزمة المياه هي صراع المستقبل يدعمها تطورات على المستوى الإقليمي والإقتصادي،حيث تكون فيها قطرة الماء هي المحرك الرئيسي نظراً للتغيرات المناخية التي يشهدها العالم حالياً،والذي يتجه إلى التصحر والجفاف خاصة منطقة الشرق الأوسط،فلا بد أن يدق ناقوس الخطر ويطالب بالحرص على قطرة المياه.

فالمنطقة العربية تعيش آمالاً حقيقة في النهوض بأوضاعها واسترجاع دورها التاريخي و قد سعت ولا تزال جاهدة للترويج عن عقيدة الفكر المائي الجديد و التي ستنجم عنها عواقب وخيمة.

أما ندرة المياه في المنطقة العربية ترجع إلى أن الماء سلعة اقتصادية و موردًا جماعياً بامتياز يجب أن تستفيد منه فئات المجتمع كلها وهي كباقي الموارد الأخرى.

ومع ازدياد الحاجة للمياه فإن دول المنبع غالباً ما تستأثر بمياه النهر التي تكون ميداناً للنزاع لأنها تتداخل مع الحدود و منبعها من خارج الدول العربية.

إن تقاسم مياه الأنهار العربية يستوجب الإعتراف بحق كل دولة مشاطئة بأن تحصل على حصة منصفة ومعقولة من المياه، وأن تتوسع في الزراعة المروية لتحقق الأمن الغذائي لشعبها، وليس من الإنصاف أن تستأثردول المنبع بمياه النهروتقيم عليه ما تشاء من مشاريع دون مراعاة مصالح الدول التي تتقاسم معها مياه المجرى.

ونتيجة لذلك توصلنا إلى الإقتراحات التالية:

1- وضع برنامج عمل من أجل البيئة، و التفكير في إنشاء محكمة مائية عربية تكون مهمتها الأساسية استرداد الحقوق المائية العربية و البحث عن مدى وجود الاستراتيجيا المائية، و فض المنازعات البيئية بين الدول المتشاطئة وفق قواعد القانون الدولي.

2- الإهتمام بقطاع المياه و تسليحه بسياسة مائية رشيدة، يمكن أن يخففا الضغوط عن الموارد المائية النادرة، من خلال خفض عدد المشاريع المائية الجديدة و خاصة السدود، و أحجامها عن طريق إدارة الطلب، واتخاذ إجراءات فعالة لحفظ الماء، و استخدام الوسائل التقنية والاقتصادية الفعالة لحماية الموارد المائية المحدودة المتاحة للوطن العربي.

3- إدخال عملية التقييم البيئي و تحاليل التكاليف و الفوائد و دراسة الجدوى في مشاريع تنمية و تطوير مصادر المياه، و ترشيد استخدام المياه في الزراعة و الصناعة و الأغراض الأخرى.

4- تفعيل التعاون العربي لصد جميع المحاولات الهادفة إلى وقف تدفق المياه إلى البلدان العربية.

5- تشكيل هيئة من المختصين بالشأن المائي لعقد اجتماعات دورية تكون مهمتها الأساسية تعزيز التعاون بين العرب و الأتراك بشأن مياه نهري دجلة و الفرات.

6- حث الدول النيلية على الانضمام لمعاهدة جماعية،من أجل التغلب على مشاكل المياه وما ينجم عنها من مشاكل أخرى،بإنشاء هيئة دولية دائمة تضم في عضويتها ممثلين عن دول حوض النيل، تتمتع باختصاصات شاملة في مجال إدارة النهر وتطويره و التعاون في مجال المياه، لأنه نواة للتعاون في مجالات أخرى.

7- إعادة شحن الصخور بالمياه (خزانات الصخور) كبديل عن استعمال السدود و التقليل المفقود من الماء بالبحر من المنظور الاقتصادي، وهذا البديل يجري استخدامه في السعودية.

8- الصراع على قطرة المياه تمس المواطن العادي في ضرورات حياته، فإذا كان له أن يستغني عن النفط، فإنه لا يستطيع الإستغناء عن المياه، لأن الماء يصبح ذهباً في يد من يحسن استخدامه فلا بد من الحرص عليه و عدم تركه عرضة للعبث.

مراجع البحث

[1]- شكراني الحسين، نحو مقاربة بيئية للمياه العربية، ط6، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية 2012)، ص207،208.

[2]- د.عبد المنعم بلبع و د.السيد خليل عطا، الماء مآزق... مواجهات، (الإسكندرية: منشأة المعارف، 1997)، ص313،314.

[3]- محمود أبو زيد، المياه مصدر للتوتر في القرن 21، ط1، (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر،1998)، ص144.

[4]- اسماعيل سراج الدين، قضايا المياه في العالم، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،2010)، ص29،30.

[5]- مايا الدباس، نظام إستخدام المجاري المائية الدولية في الأغراض السلمية (رسالة دكتوراه)، جامعة دمشق، 1996، ص68-69.

[6]- وزارة الموارد المائية و الري، دراسات حول مياه نهر النيل و بؤر النزاع فيها، نعمات الزياتي، (القاهرة: 2002)، انظر أيضاً النيل يفجر صراع المحاور، الأهرام الإقتصادي، القاهرة 1992/4/4.

[7]- صلاح الدين عامر، نهر النيل النظام القانوني الذي يحكم الإنتفاع بمياهه، (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية 2001)، ص146.

[8]- مايا الدباس، مرجع سابق، ص90،91.

[9]- سامر مخيمر و خالد حجازي، أزمة المياه في المنطقة العربية، الحقائق و البدائل،(الكويت: عالم المعرفة، 1996)، ص87.

[10]- مايا الدباس، مرجع سابق، ص90،91.

[11]- ياسر علي هاشم، الأبعاد السياسية و الإقتصادية والقانونية لأزمة المياه، مجلة السياسة الدولية، العدد 104، أفريل 1991، ص150،151.

[12]- مايا الدباس، مرجع سابق، ص90،89.

[13]-عادل عبد الرزاق، بؤر التوتر والنزاع حول المياه في حوض النيل والعالم العربي والاستراتيجة المصرية للسياسة المائية في حوض النيل، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2004)، ص92،91.

[14]- د. عادل عبد الرزاق، نفس المرجع، ص93،92.

[15]- د. عادل عبد الرزاق، نفس المرجع، ص178،177.

[16]- د. عادل عبد الرزاق، مرجع سابق، ص94،93.

[17]- منصور أحمد العادلي، النظام القانوني للأنهار الدولية، نظرة تطبيقية على أهم أنهار الشرق الأوسط (رسالة دكتوراه)، كلية الحقوق، جامعة الزقازيق، 1995 ص381-384.

[18]-عبد الملك عودة، السياسة المصرية و مياه النيل في القرن العشرين، (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، 1999)، ص130-131.

[19]- منصور أحمد العادلي، مرجع سابق، ص383.

[20]- مايا الدباس، مرجع سابق، ص 91،90.

[21]- من موقع ويكيبيديا، 2007، انظر: http://ar.wikipedia.org/wiki/سد_النهضة

[22]- د. سامر مخيمر و خالد حجازي، مرجع سابق، ص103.

[23]- مايا الدباس، مرجع سابق، ص84.

[24]- Daily Ethiopia: Longest Ever Bridge In Ethiopia Under Construction, December 31, 2009, Retrieved on April 25, 2011.

[25]- Jennifer Veilleux. "another view on the Nile : an interview with Jennifer Veilleux". catherinepfeifer blog. اطلع عليه بتاريخ 19 October 2014.
[26]- "Death on the Nile". Al Jazeera. 30 May 2013. اطلع عليه بتاريخ 19 October 2014.
[27]- "Egyptian warning over Ethiopia Nile dam". *BBC News*. 10 June 2013. اطلع عليه بتاريخ 10 19 October 2014.
[28]- عز الدين علي الخيرو، الفرات في ظل قواعد القانون الدولي العام،(رسالة دكتوراه)، كلية الحقوق، جامعة القاهرة، 1995، ص316.
[29]- داليا اسماعيل محمد، المياه والعلاقات الدولية، دراسة في أقر أزمة المياه على طبيعة و نمط العلاقات العربية التركية، (ط1، القاهرة: مكتبة مدبولي، 2006) ص20،21.
[30]- محمد أبو العلا محمد، مشكلات المياه في الشرق الأوسط، (القاهرة: دار المعارف، 1994)، ص36،37.
[31]- Andrson,Ewan, White oil, (London: Geographical Magazine, Feb 1991), p12.
[32]- مجدي شندي، المياه الصراع القادم في الشرق الأوسط، (القاهرة: دار المعارف، 1996)، ص17.
[33]- لمى صادق، الثروة المائية في سوريا، وسد الفرات، العلم والتكنولوجيا، العدد17-18، عدد خاص عن الثروة المائية العربية، (القاهرة: 6 جويلية 1989) ص143-145.
[34]- داليا اسماعيل محمد، مرجع سابق، ص31.
[35]- جلال معوض، مشكلة مياه الفرات، التطورات والجوانب الإقتصادية والسياسية والقانونية، جامعة القاهرة، 1991)، ص217.
[36]- عز الدين الخيرو، مرجع سابق، ص500 -501.
[37]- بدر الكسم، القواعد القانونية للأنهار الدولية ونهر الفرات، (جنيف: 1990)، ص116.
[38]- محمد أبو العلا محمد، مرجع سابق، ص106.
[39]- منذر خدام، الأمن المائي، الواقع والتحديات، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2003)، ص30.
[40]- منذر خدام، نفس المرجع، 139.
[41]- رمزي سلامة، مشكلة المياه في الوطن العربي و احتمالات الصراع والتسوية، (الإسكندرية: منشأة المعارف،2016)، ص124.
[42]- محمود محمد محمود خليل، أزمة المياه في الشرق الأوسط، الأمن القومي العربي و المصري، (القاهرة: المكتبة الأكادمية، 1998)، ص40.
[43]- د. عادل عبد الرزاق، مرجع سابق، ص 88-89.
[44]- مايا الدباس، مرجع سابق، ص108.
[45]- طارق المجذوب، لمن مياه دجلة و الفرات، (ملف المياه وسلام الشرق الأوسط، المركز العربي للمعلومات، العدد 12، سبتمبر 1994)، ص77.
[46] -حبيب غائب، المياه في الشرق الأوسط، (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، 1996)، ص90.
[47]- نبيل فارس، حرب المياه و الصراع العربي الإسرائيلي، (القاهرة: دار الإعتصام، 1993)، ص191-194.
[48]- رمزي سلامة، مشكلة المياه في الوطن العربي و احتمالات الصراع والتسوية، (الإسكندرية: منشأة المعارف،2001)، ص110.
[49]- داليا اسماعيل محمد، مرجع سابق، ص148،145.
[50]- Beschorner Natsha, le rote d l'eau dans la politique régionale de la Turquie in Maghreb , No 138, Paris,1992, p53.
[51]- ياسر علي هاشم، مرجع سابق، ص151،150.

النزاع الجزائري الفرنسي حول أرشيف الحقبة الاستعمارية

الأستاذ: يونس معزازي
قسم علوم اجتماعية و إنسانية
جامعة البليدة 2

ملخص:

مشكل الاستعمار الفرنسي للجزائر لم ينته بانتهاء التواجد العسكري في الجزائر سنة 1962 و إنما استمرت المخلفات وعلى أكثر من صعيد حيث امتدت إلى فترة ما بعد الاستقلال ومن بين أهم هذه المشاكل تهريب فرنسا للأرشيف الجزائري الخاص بالفترة الممتدة من 1830 أي من بداية الاحتلال إلى 1962 تاريخ إعلان الاستقلال .

رغم المحاولات العديدة لاسترجاع أرشيف مرحلة الاستعمار و ما قبل ذلك، فان الدولة الفرنسية تتهرب من الاستجابة لهذا الطلب تحت حجج متعددة و بطرق ملتوية ، تارة متحججة بالدواعي القانونية و تارة أخرى بدواعي المصلحة الوطنية و الأمن القومي.

التنكر لهذا المطلب الشرعي هو ما يدفعنا إلى طرح التساؤل حول السبب الرئيسي وراء الامتناع عن تسليم الجزائر أرشيفها الخاص بالفترة الاستعمارية رغم مرور نصف قرن وهي الفترة القانونية التي تسمح بإزالة التشميع عن هذا الأرشيف حسب القوانين الدولية وهو ما تحاول هذه المقالة الإجابة عنه من خلال التطرق إلى مفهوم الأرشيف, كمية وتوعية الأرشيف المرحل و أهميته ، كما سنتعرف علي نوعية الكمية القليلة المسترجعة و مختلف الإجراءات التي اتخذتها الدولة و المؤسسات المعنية لاسترجاعه .

وفي الأخير سنركز مجهوداتنا على رصد الآثار المترتبة عن هذا التهريب بالنسبة لذاكرة الاجتماعية ، الاقتصادية ، السياسية، والثقافية.

مقدمة:

يعتبر الأرشيف هو المزاد المستقبلي في حياة الأمم والشعوب غير أن شعوب العالم الثالث والذي جزء قد تطورت بفقدها للعديد من مصادر تاريخها بسبب ما نكبت به من تسلط وتدمير من قوى أجنبية، والجزائر أحد تلكم الدول التي فقدت الكثير من " أرشيفاتها " الوثائقية، بدءا من مرحلة التوطين والتسلط واستباحة كل ما هو موجود خلال 132 سنة، وكانت أخر الأعمال التي قامت بها الإدارة الاستعمارية هو تهريب وأخذ كل ما هو أرشيف الذي يعبر عن مرحلة تواجدها (إلى فرنسا).

تمثلت هذه العملية في أخذ كل ما هو أرشيف (المتعلق بالأراضي والعقارات والبنايات، الصناعة، الفلاحة وحتى ومخططات قنوات المياه وتصريف المياه).

كما تم إتلاف وحرق الكثير منها (خاصة مرحلة ما قبل الاستغلال من طرف المنظمة العسكرية الخاصة (OAS) .

* **مثال**: حرق مخطوطات المكتبة المركزية بالجزائر بالعاصمة،

فضاعت الكثير من الملفات والوثائق من الأماكن التي يوجد فيها هذا الأرشيف المهرب..

1- تعريف كلمة الأرشيف:

كلمة أرشيف لها ثلاثة معاني:

1- الوثيقة التي تكتبها أثناء نشاط ما، حيث تحتفظ عليها للرجوع إليها يوما ما، في حالة البحث عن الحجة.

2- المصالح والمؤسسات: التي تجمع، تنظم وتحافظ على الوثائق.

3-المقرات أو المكاتب التي تحفظ فيها هذه الوثائق.

2- أنواع الأرشيف:

من الناحية القانونية يوجد نوعان: الأرشيف العام والأرشيف الخاص

1- **الأرشيف العام**: الأرشيف العمومي هي الوثائق المنتجة من طرف السلطات العمومية والمؤسسات المكلفة بمهام المصالح العامة (مؤسسات عامة، قنصليات، وزارات

2- **الأرشيف الخاص**: هي كل الوثائق التي ليس لها طابع عام، فهي الوثائق العائلية، الوثائق الشخصية أرشف الشركات، الجمعيات، تجمع وتحفظ وتبقى دائما تحت شروط أصحابها (في حالة الاطلاع عليها).

3- بداية الاهتمام بالأرشيف الجزائري

بدأت الإدارة الفرنسية بالاهتمام بالأرشيف أثناء الحاكم العام جينارjennart بإصدار الأمر المؤرخ في أفريل 1908 أسس مبادئ حفظ وتنظيم الأرشيف والذي ينص على:

- تحفظ وثائق الجزائريين أو الوثائق المتعلقة بالجزائر لدى مصالح أرشيف الحاكم العام.

3.1 بداية ترحيل الأرشيف:

يعود تاريخ ترحيل أرشيف الجزائر إلى شهر مارس 1961 بعد أن جاءت تعليمة من فرنسا، وخاصة بعد عملية ضرب وحرق أرشيف الجزائر في العاصمة وحرق مكتبة الجامعة المركزية

تمثل هذا الأمر أولا بتصوير كل الوثائق وتحويل كل الملفات خاصة ملفات: الجيش، الشرطة، العدالة، وملفات النشاطات الاقتصادية والاجتماعية. كانت هذه العملية مخططة وممنهجة بشكل جيد.

3.2 مراكز تواجد الأرشيف الجزائري المرحل

يوجد الأرشيف الجزائري المرحل بالمراكز الفرنسية التالية.

1- مركز اكس برفنس Aix- en- provence

2- الأرشيف الوطني الفرنسي.

3- أرشيف الجيش الفرنسي قصر فانسان Châteaux de vincennes

4- أرشيف قصر العدالة

4- محاولة الجزائر استرجاع أرشيفها بعد الاستقلال:

طلبت دولة الجزائر منذ سنة 1963 من فرنسا استرجاع أرشيفها، حيث أرجعت بعض الكميات في السنوات الماضية:

- 1967: مجموعة من 450 سجل.
- 1975: مجموعة من 153 سجل.
- 1981: مجموعة من 183 سجل.

ومنذ سنة 1981 توقفت العملية في المرحلة التي اعتلى فيها الرئيس فرنسوا مثيران الرئاسة بفرنسا () وذلك بتاريخ 16 جوان 1982 أين منع فيها أية مناقشة حول موضوع الأرشيف الجزائري. و مند دلك الوقت بقيت الشخصيات الوطنية والمؤرخون يطالبون باسترجاع دلك الأرشيف.

بعد زلزال منطقة بومرداس لسنة 2003 تسلمت الجزائر بعض الخرائط

2003: تسلمت الإذاعة الوطنية جزءا من الأرشيف السمعي البصري من الإذاعة الفرنسية.

في سنة 2004 قامت الإدارة الفرنسية بتسليم أرشيف (خرائط الألغام المزروعة في الحدود و بعض الأشرطة السمعية البصرية (أرشيف الإذاعة).

4.1 الأرشيف المسترجع:

الأرشيف السمعي البصري:

- 2007 سلمت فرنسا للجزائر أرشيف الإذاعة للفترة 1959-1962 وتمثل هذا في 1862 وثيقة ما يعادل 102 ساعة من البرامج تشمل هذه الوثائق صور.
- لنهائيات كأس شمال إفريقيا.
- رحلات إلى مكة المكرمة1946.
- صور زيارة الرئيس ديغول في 1958.
- صور عن عملية الإجلاء من الجزائر.

ما بقي من الأرشيف:

يوجد جزء من الأرشيف الغير مرحل الخاص بجيش وجبهة التحرير بمصالح الأرشيف الجهوية (العاصمة، قسنطينة ووهران).

5- أمثلة عن المجازر

أمثلة عن التجاوزات التي أظهرتها وثائق من هذا الأرشيف (ارجع لحوار جريدة الشروق مع الإستاد عبد الكريم بجاجة.)

* المثال1:

كان عدد السكان مدينة قسنطينة 30.000 نسمة انخفض إلى 15.000 نسمة بعد سقوطها كان هذا نتيجة المجازر التي حدثت.

* المثال 2:

حادثة إعدام السجناء بمدينة قالمة بتاريخ 24 جوان 1945، هذه الحادثة مقيدة في محضر من الأرشيف.

حيث قام مدير السجن بإخراج سجناء جزائريين اثر مظاهرات 8 ماي 1945ثم اعدموا في الشارع بسبب أنهم كانوا يرددون أناشيد وطنية. فهده المجازر موثقة في محاضر للسلطات الفرنسية أنداك.

6- نوعية الأرشيف المرحل:

- وحسب التقرير الأولي لمديريات أرشيف العاصمة، وهران، وقسنطينة ينص فيه أنه تم أخذ كل الأرشيف بدون استثناء (شؤون إدارة، سياسي، ثقافي، اقتصادي، اجتماعي)، خاصة في سلسة Z التي تظم الأرشيف التاريخي للدولة الجزائرية خلال القرن 18 و19 قبل دخول الاستعمار الفرنسي).

6.1 ترتيب الأرشيف المرحل بالمراكز الفرنسية

الوثائق حسب المجموعات:

1- الأرشيف الوطني (ARCHIVES NATIONALES)

- المجموعة
- – série A : أرشيف ما قبل 1855 .
- série B : الامتيازات في إفريقيا
- série C : الأرشيف الاسباني خلال قرن XII
- série D : مختلف الوثائق
- série E : المراسلات العامة
- série F : المراسيم و القرارات
- série G: الموظفين و الإدارة العامة
- série H : شؤون المسلمين و الصحراء
- série I.J.K : شؤون عرب العاصمة ، وهران و قسنطينة
- série M : أملاك الجزائريين
- série N : الأشغال العمومية
- série R : الشؤون العسكرية

- série T : العدالة
- série W : الخرائط و المخططات
- série X : les dons et les réceptions
- série Z : أرشيف العرب و الأتراك

هذه الوثائق كانت محفوظة لدى مصالح الأرشيف الرسمي، الحاكم العام للجزائر و مقرات الدوائر و البلديات (préfectures et mairies)

2- الأرشيف المحلي Archives locales

- série B: أرشيفات الديوان (Cabinet)
- série C : الموظفين
- série d : Médaille D'Honneur
- série E : الانتخابات
- série F : الشرطة و الأمن بصفة عامة
- série G: السكان و الحالة المدنية
- série H : الزراعة ،التجارة ، الصناعة و التموين
- série I: شؤون المسلمين
- série k : الادارة و المحاسبة في المحافظات
- série L : : الادارة و المحاسبة في البلديات
- série M : الاستعمار
- série N: أملاك الجزائريين
- série P : الأملاك
- série O : الشؤون العسكرية
- série S : التعليم العام للفنون والعلوم
- série T : العدالة
- série U : الدين
- série X : السجون و مراكز إعادة التربية

3- الأرشيف الإداري الغير مرتب و الغير مؤرخ

Archives Administratives Non Classées Ni Datées

7- النزاع حول الأرشيف

إن النزاعات بين الدول حول الأرشيف قضية معروفة في كل زمان ومكان.

وهي قضية متواترة في الساحة الدولية أكثر مما نتصوره، لا تستقطب أنظار الجميع و لكنها تهم المختصين في الأرشيف وبعض الدبلوماسيين و المؤرخين.غير إن هناك أوضاعا استثنائية تؤدي إلى ثورة شعب برمته من اجل أرشيفه الذي يشكل ذاكرته الجماعية .

ذالكم محور المحاضرة التي تطرقت إلى قضية الأرشيف بين الدول .إذ ذكر السيد محمد بجاوي إن فض النزاعات القائمة بين الدول يدوم أحيانا عقودا و عقودا إن لم يتواتر قرنا بعد قرن .وعادة ما يتم حل هذه الأزمات بمعاهدات دولية لان القضية تبرز بعد إن يصبح تراب ما أو جزء ترابي ما تحت سيادة وطنية جديد بعد إن كان تحت سيادة دولة أخرى ،حيث يشهد العا لم (ظهور دول وموت دول أخرى، كما تتعرض بعضها إلى تجزئة ترابية وقد تستفيد أحيانا من توسيع ترابي ،ويشهد أيضا حالة التوحيد والانفصال و انشقاقات عديدة) وعليه أصبح العالم اليوم يجمع مفاهيم قانونية على صعيد العلاقات الدولية ومن بين هذه المفاهيم فصل خاص (بتعاقب الدول وانعكاسه على مصير الأرشيف (قانون مؤتمر فينا) .

يتم تصنيف الأرشيف حسب الخصائص التالية:

- **النوع**: الأرشيف الدبلوماسي أو السياسي أو الإداري.
- ***الخاصية*** : سري أو عمومي.
- **المادة**: من ورق أو جلد أو من ورق ملفوف أو من ورق قماشي.

(لا يمكن تأسيس دولة بدون أرشيف، فهي إذن دولة أشباح أو سراب، ليس لها وجود حقيقي.
لذلك يتحتم على الجميع الحفاظ على الأرشيف وإحاطته بالعناية القصوى حتى تعيش ذاكرة الشعوب).

(غير إن التاريخ الإنساني تعرض إلى هزات عكرت صفوه و تمثلت في الحروب المدمرة التي أدت إلى ترحيل الأرشيف الذي يصبح ملكا للهازم أو المهزوم و يبقى الرصيد الوثائقي جزءا ومشتتا).

لذلك عكفت منظمة اليونسكو مرارا في قراراتها على تأكيد أهمية الأرشيف بالنسبة للتاريخ الثقافي و السياسي والاقتصادي للدول التي عاشت تحت السيطرة الأجنبية واقترحت إبرام اتفاقات ثنائية بين الدول المعنية بالنزاعات حول الأرشيف قصد الوصل إلى إرجاع الوثائق لبلدانها الأصلية.وقد اهتمت منظمات عالمية أخرى بنفس القضية كمنظمة الأمم المتحدة ومنظمة عدم الانحياز وقامت بإجراءات في هذا الصدد.

وقد خصص المحاضر عرضا مدققا مطولا لموضوع النزاع الوثائقي بين الجزائر وفرنسا الذي يعودا إلى تاريخ استقلال الجزائر إذ قامت الإدارة الفرنسية حينها بترحيل واسع عندما غادرت سلطاتها الجزائر . وينقسم الأرشيف المحفوظ حاليا في فرنسا إلى قسمين:

- الوثائق المنتجة قبل مرحلة الاستعمار الفرنسي.
- الوثائق المنتجة خلال الاستعمار الفرنسي .

وقد سمحت المفاوضات بين الدولتين سنة 1966 ، حسب قول المحاضر ، باسترجاع بعض السجلات الخاصة بحسابات الانكشاريين والتي تشكل جزءا من وثائق (الرصيد العثماني) بالإضافة إلى بعض الأفلام المدققة لجزء من (الرصيد الاسباني) كما تم في هذا الشأن استرجاع 450 دفتر باللغة العثمانية بعد تبادل مكاتبات بتاريخ 1966/12/23 بين السلطات الجزائرية والفرنسية و

تتعلق هذه الدفاتر بالحياة الإدارية بالجزائر قبل سنة 1830 . هذا من جهة و من جهة اخرى سمحت زيارة الرئيس الفرنسي جسكار دستان إلى الجزائر سنة 1974 ، بإجراء المفاوضات حول مشكل الأرشيف شارك فيها السيد بجاوي شخصيا و تمكن خلالها الطرف الجزائري من استرجاع 153 علبة للأرشيف التاريخي (الرصيد العربي).

- الوثائق المنتجة قبل سنة 1830 (أ- ث) (SERIE.A-D)
- الوثائق المنتجة بعد سنة 1830 (ج – ه) (SERIE.E – Y)
- الوثائق التركية والعربية (سلسلتي) (SERIE.Z)

و هناك أيضا سجلات مدنية هامة تم استرجاعها بعد عناء طويل ذلك أنها خضعت للترحيل سنة 1962 نحو فرنسا ،حينما رحل المواطنون الفرنسيون الذين ولدوا بالجزائر إلى وطنهم الأصلي ، ولهذا السبب حرم الجزائريون من السجلات المدنية التي قيدت فيها ملفاتهم مع ملفات الفرنسيين مع العلم ان منظمة الجيش السري أحرقت جزءا كبيرا منها بين سنتي 1960 و1962 حينما شنت حملة واسعة أحرقت ودمرت خلالها الفنادق والمراكز المصادرات ، والخزائن المركزية ، وقد رحلت فرنسا ما تبقى من السجلات التي نجت من الحريق غداة الاستقلال .

باقية الوثائق توجد هناك وثائق لم تسترجع بعد، ذكر من بينها سجلات إدارية وتقنية (خاصة بالمياه والمساحات).
وتم ترحيلها عند الاستقلال من طرف موظفين بالإضافة إلى ذلك ، هناك الوثائق السياسية والاستعمارية والمرتبطة بالإمبراطورية الاستعمارية .
بعد هذا العرض قام المحاضر بطرح مشكلة تفسير مفهوم (الانتماء الوثائقي والاعتبارات التي يثيرها ليصبح الأرشيف تابعا للتراب المحتل في حين قام المستعمر بجمعه وصيانته والمحافظة عليه).
علاوة على ذلك لا ينبغي تعكير العلاقات المتبادلة بين دولتين بسبب الأرشيف الذي يعرض للازمة بين الدولة المستعمرة قديما) يرى المحاضر إن مجمل هذه الاعتبارات مجرد مسائل انتهازية و سياسية.
وينقسم الأرشيف السياسي الاستعماري إلى نوعين ، يتمثل النوع الأول في سياسة القوة المستعمرة داخل البلد المحتل أما النوع الثاني خاص بالسياسة الخارجية التي تمارسها الدولة المستعمرة ، لذلك يرى إن البلدان (المستعمر والمستقل يهتمان بهذه الوثائق و خاصة البلد المستقل لا سيما إذا كانت له نزاعات حول الحدود مع بلدان أخرى فالنزاع حول الأرشيف نزاع شاق ومتعب وأحيانا عنيف يهز مسار العلاقات الدولية لذلك يعد قضية صعبة متشعبة الأطوار).
وتخفيفا لهذه الأزمة حول الأرشيف، جاءت معاهدة فينا يوم 08 ا فريل 1983، والتي شارك فيها المحاضر شخصيا لوضع قوانين دقيقة قائمة على مبادئ التشريع الدولي... ولكنها لم تحظ بأي تنفيذ لأن بلدان العالم الثالث لم تلب الشروط التي فرضتها الدول المستعمرة لها سابقا و المتمثلة في تنازلات عديدة .
في الختام ، ذكر السيد بجاوي النزاع الذي قام بين الدنمارك وايرلندا حول الأرشيف بعد فك الوحدة سنة 1944 توضيحا لقضية النزاع حول الأرشيف الذي كان ولا يزال قضية شائكة وصعبة تؤدي أحيانا لأزمات سياسية ولكنها في نفس الوقت لابد منها حتى تضمن الدول المعنية المحافظة على ذاكرتها الجماعية بعد جمع واسترجاع أرشيفها .

خاتمة :

بالرغم من أن أرشيف الحقبة الاستعمارية يمثل توثيقا شاهدا على مرحلة تاريخية مهمة إلا أن قيمة أكبر من ذلك فهي تمثل حلقات التواصل بين الماضي والحاضر والمستقبل بالنسبة للذاكرة التاريخية للمجتمع الجزائري كما انه مادة خام للبحث العلمي لإيجاد تفسير لمختلف الأحداث التي عرفتها الجزائر وهو في نفس الوقت دليل عمل لمختلف المصالح الإدارية الاقتصادية والأمنية فهذا الأرشيف يتضمن مخططات عمرانية وعقارية ومحدد للمواقع التي زرعت فيها القنابل المضادة للأشخاص التي وضعت على حدود وهي أيضا تؤرخ للأشخاص والجماعات.

ونظرا لهذه الأهمية نرى من الواجب على السلطات المعنية بذل من المزيد الجهود لإقناع فرنسا بإرجاع حق الجزائريين في تاريخهم وذلك بتوظيف كل الوسائل الممكنة للحصول على هذا الأرشيف.

قائمة المراجع:

1- اليوم الدراسي الثاني حول الأرشيف الوطني تحت عنوان " وعي كبير وعمل ظئيل "، جريدة الشعب، 20 فيفري 1990.

2- يوم دراسي بتاريخ 02-03-1990 " المنازعات بين الدول جول الأرشيف "، محاضرة الدكتور أحمد بجاوي، المركز الوطني للأرشيف، الجزائر.

الأرشيف الوطني: نشرة شهرية للإعلام.

3- المديرية العامة للأرشيف الوطني: الندوة الدولية حول الأرشيف الخاص بتاريخ الدولية حول الأرشيف الخاص بتاريخ الجزائر والمحفوظ بالخارج (من 16 إلى 19 فيفري 1988)، مطبوعات الأرشيف الوطني رقم 1998/10.

4- وقائع التاريخ الجزائري، الأرشيف الوطني الجزائري.

5--ملف أرشيف بلدان المغرب العربي خلال الحقبة الاستعمارية' إعداد نورالدين المباركي' صحيفة "الوطن" العدد 162 الصادر في 5 نوفمبر 2010

الفجر نيوزنشر في الفجر نيوز يوم 06 - 11 – 2010.

<u>Références Bibliographiques</u>

6 - Direction générale des archives nationales:" le contentieux archivistique Algero-Français", XXXI conférence internationale de la table ronde des archives, 6-9 septembre 1995, Washington, 1995.

7 -Direction générale des archives nationales: Colloque international sur les archives concernant l'histoire de l'Algérie et conservées à l'étranger (16-19 février 1998), n°8, 9 et 10, Alger; 1998.

8 -Amar mohamed Amer: Histoire de l'Algérie à la période coloniale, 1830-1962; CRASC, Oran; 2012.

9 -Jean Favier: Les Archives, Paris, Puf.

10 -BADJADJA Abdelkrim: Les archives 1954-1962 de l'armée française, DGAN, Alger, 11 pages.

11 - Archive Nationale d'outre –mer, D.H, février, 2012.

12 -Site: Echouroukonline

13-Encyclopédie: Wilkipedia, Wikimedia

ممارسة التجارة بين الإطلاق والتقييد

دراسة مقارنة بين أحكام الشريعة الإسلامية والقانون الجزائري

الأستاذ: الدكتور قاشي علال
كلية الحقوق
جامعة البليدة02

مقدمة:

إنّ التجارة تعدّ من دعائم الاقتصاد لأيّ دولة وتمثل جانبا من جوانب النشاط الإنساني باعتبارها وسيلة لكسب الأموال، ومحورا تدور عليه الأنشطة الإقتصادية إذ أنّ التجارة ترتبط بالزراعة وبالصناعة إذ بالتجارة يتم تسويق المنتجات الزراعية، ويتم تصريف المواد الصناعية بالتجارة، وبواسطة التجارة تنتظم حياة الأفراد لأنّ الفرد لا يمكنه أن يحقق كل رغباته إلاّ بدخوله عالم التجارة التي تحتم عليه شراء ما يحتاجه من المواد وبيع ما يكون في غنى عنه. ولكن المعاملات التجارية إذا تمّ ممارستها بنزاهة وشرف مع مراعاة ما تقتضيه قيود المصلحة العامة تؤدي إلى ازدهار البلد وتنميته، أما إذا لم تتم هذه المعاملات التجارية على الوجه المطلوب، وتلوثت هذه المعاملات بمختلف العيوب وأصبحت وسيلة للحصول على أكبر ربح وبأيّ طريقة كانت ، وكانت الغاية تبرر الوسيلة من غش واحتكار فإنّ ذلك السلوك ينعكس سلبا على الفرد وعلى البلد الذي يعيش فيه هذا الفرد.

وإذا كانت التجارة تحقق فائدة للفرد داخل دولته، فإنّ لها أثرا كبيرا في مجال العلاقات الدولية وتلعب التجارة وحجمها الدور الكبير في مجال السياسة العالمية إذ بها يتم ربط العلاقات وبها تقطع العلاقات مما يعني بأنّها تؤدي إلى تحقيق التنمية الإقتصادية.

وإذا كانت حاجة الناس إلى التجارة بارزة ودعا إليها الإسلام ومجال الانحراف فيها واسعا تمّ ضبطها بمختلف التوجيهات والقيود التي تحكم مسيرتها وتزيل عنها الشوائب التي تلحقها لتؤدي دورها بدون تعسف من قبل الأفراد، ولم يقف المشرع الجزائري موقفا سلبيا من ممارسة الأعمال التجارية التي قوامها السرعة والائتمان وما رتبه الواقع العملي من نتائج سلبية بل تدخل المشرع بنصوص تحدد الشروط المتعلقة بممارسة الأنشطة التجارية، ونصوص تحدد القواعد المطبقة على الممارسات التجارية، وقواعد تتعلق بالمنافسة لكي يضمن ممارسة تجارية نزيهة على الرغم من أن الواقع العملي مازال يفرز آثارا سلبية وخبمة بخصوص زيادة الأسعار التلقائية، الاحتكارات الفردية المتكررة، مزاولة التجارة بدون شروط القيد في السجل التجاري، إبرام وكالة لممارسة نشاط تجاري باسم صاحب السجل لشخص آخر، التهرب الضريبي، عدم التصريح الصحيح والدقيق للمداخيل، تهريب السلع نحو الخارج، الإتجار في المواد الممنوعة قانونا...الخ، على أمل أن تتغير ذهنية التجار وأخلاقياتهم لتحقيق النفع للبلاد والعباد خصوصا وأنّ الاستثمارات مفتوحة للجميع(داخلية وأجنبية) فينبغي إحكام الرقابة على النشاط التجاري أكثر مما مضى. أما الإشكالية المطروحة فتتمثل فيما يلي :هل تمارس التجارة بصفة مطلقة أم تخضع إلى جملة من القيود سواء ضمن أحكام الشريعة الإسلامية أو في القانون الجزائري ؟ وتتفرع عن هذه الإشكالية التساؤلات التالية :

-ما المقصود بالعمل التجاري ,و ما أنواعه , وما دليل مشروعيته في الشريعة والقانون ؟

-ما هي الضوابط التي بمقتضاها يمارس العمل التجاري في الشريعة الإسلامية و القانون الجزائري ؟

-ما هي القيود العامة التي تفرض على ممارسة العمل التجاري , وكيف تؤثر التجارة على مختلف جوانب التنمية الاقتصادية؟

ومن ثمة كانت دراستي هذه التي أردت أن تكون دراسة في الشريعة الإسلامية التي تمثل مختلف جوانب الحياة الدنيوية والأخروية بما تكفله من حقوق للجميع وبما تدفع من الأضرار عن الغير وتحقق التوازن الاجتماعي وما تفرض من إخراج للفرائض المالية من أموال التجارة والقانون الجزائري بخصوص حرية التجارة ومختلف القيود والضوابط التي ينبغي مراعاتها لما للتجارة من أهمية في تحقيق تنمية اقتصادية على الصعيد الداخلي والدولي. متبعين منهجا وصفيا و مقارنا لضبط هذه الحرية الممنوحة للأفراد، معتمدين على مراجع في الفقه الإسلامي ومراجع قانونية ومختلف النصوص التي تتعلق بالموضوع.

المبحث الأول: مدلول التجارة في الفقه الإسلامي والقانون الوضعي

إنّ التجارة كنشاط لها مفاهيم مختلفة، وبالرجوع إلى القانون الروماني الذي يعدّ المصدر الأساسي للقانون الفرنسي نجد أنّ للتجارة مدلول واسع بحيث شملت كافة النشاطات التي يقوم بها الفرد بمناسبة استعماله لأمواله. فالتجارة لها مفهوم اقتصادي ونعني به تداول الأموال أو الثروات وتوزيعها أما إنتاجها فلا يدخل ضمن مفهوم التجارة بمفهومها الاقتصادي، ولها مفهوم قانوني ونعني به تداول الثروات وتوزيعها وعمليات الإنتاج والتحويل التي يقوم بها الصناعيون وكل العمليات المالية التي تقوم بها البنوك وعمليات النقل والتأمين على البضائع باستثناء عمليات الإنتاج الفلاحي والحرفي والإنتاج الفكري والمهن الحرة التي ظلت تاريخيا واجتماعيا خارج نطاق القانون التجاري رغم تشابه الإنتاج الفلاحي تاريخيا مع الإنتاج الصناعي. ويتحتم علينا أن نسلط الضوء على التعاريف التي حظيت بها التجارة في الفقه الإسلامي وما أشارت إليه القوانين الوضعية بهذا الخصوص.

المطلب الأول : تعريف التجارة لدى فقهاء الشريعة الإسلامية

لقد عرفت التجارة من قبل كثير من العلماء وإن اختلفت هذه التعاريف إلاّ أنها ظلت متفقة في المعنى واتحدت في الأساسيات التي تجعل العمل من الأعمال التجارية فعرفها الزمخشري بأنّها:(صناعة التاجر، وهو الذي يبيع ويشتري للربح)[1].

وعرفها الشيخ الدردير بأنّها:(التصرف بالبيع والشراء لتحصيل الربح)[2]، وفي مغني المحتاج عرفت التجارة بأنّها:(تقليب المال بالمعاوضة لغرض الربح)[3]، وقد عبّر ابن خلدون في مقدمته عن التجارة بأنّها محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء....وذلك القدر النامي يسمى ربحا...ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لمن طلب الكشف عن حقيقة التجارة: أنا أعلمها لك في كلمتين:(اشتر الرخيص وبع الغالي، وقد حصلت التجارة)[4].

وقد عرف أحد المحدثين التجارة بقوله:(هي عبارة عن التصرف في رأس المال بالبيع والشراء والأخذ والعطاء، طلبا للربح والزيادة في رأس المال)[5].

---

[1]- الزمخشري، تفسير الكشاف، 191/1، 68/3.

[2]- الشيخ الدردير، الشرح الكبيرمطبوع مع حاشية الدسوقي ، الطبعة الاولى ، مطبعة السادة ، 3،517/1909

[3]- محمد الشربيني الخطيب ،مغني المحتاج الى معرفة الفاظ المنهاج،مطبعة مصطفى الحلبي ،1،397/1958

[4]- عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون،كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،1984، 915/3.

[5]- الدكتور: عبد الغني الراجحي، التجارة في ضوء القرآن والسنة، سلسلة كتب اسلامية ،يصدرها المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، العدد69، بدون تاريخ نشر ، ص15.

من خلال بعض هذه التعاريف المذكورة يتبيّن لنا أنّ هناك اتفاق على اعتبار العمل تجاريا متى توافرت فيه الشروط التالية:

- أن يكون هناك شراء من أجل البيع؛
- القصد من وراء الشراء والبيع هو تحقيق الربح؛

لكن الفقهاء المسلمين لم يشترطوا حتى يكون العمل تجاريا أن يتم التعامل على المنقول بل يكون العمل تجاريا حتى ولو تمّ على العقار متى تمّ شراء هذا العقار بقصد البيع وتحقيق الربح من وراء ذلك. بخلاف بعض القوانين الوضعية التي كانت تعتبر العمل تجاريا متى ورد على المنقول وتخرج العقارات من دائرة الأعمال التجارية متى تمّ شراؤها بقصد بيعها بتحقيق ربح ولكن المشرع الجزائري في المادة الثانية من القانون التجاري الحالي قدساير التطوّر الاقتصادي الحديث وأدخل العقارات ضمن نطاق القانون التجاري. وكذلك ما نصت عليه المادة الخامسة من المرسوم التشريعي رقم 03/93 المؤرخ في 1993/03/01 المتعلق بالنشاط العقاري إذ قضت بأنّه:(تخضع كذلك لأحكام هذا المرسوم التشريعي نشاطات الترقية العقارية التي تقوم بها الشركات المدنية العقارية إذا كانت هذه النشاطات ليس الغرض منها توفير الحاجات الخاصة لأعضاء تلك الشركات).

ما يمكن استخلاصه أنّ الفقه الإسلامي كانت له نظرة واضحة ودقيقة عند تحديده لمفهوم التجارة في الفكر الإقتصادي والقانوني الحديث.

المطلب الثاني: العمل التجاري في القانون الوضعي: إنّ التجارة نشاط اقتصادي قوامها الثقة والأمانة والإلتزام بأحكام القانون التجاري الذي يعدّ من فروع القانون الخاص إذ يشكل مجموعة من القواعد القانونية المنظمة لوجه من أوجه النشاط الإنساني- النشاط التجاري- والتي تطبق على طائفة معينة من الاشخاص هم التجار. وعلى غرار التشريعات الأخرى نصّ المشرع الجزائري على الأعمال التجارية والتي يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع:

الفرع الأول: أعمال تجارية بطبيعتها(بحسب الموضوع) ويمكن تصنيفها إلى: أعمال تجارية منفردة، وأعمال تجارية في شكل مقاولات، أعمال تجارية بحرية، فبخصوص الأعمال التجارية المنفردة هي التي تعتبر تجارية حتى ولو وقعت مرة واحدة من أشخاص يكتسبون صفة التاجر أو لا يكتسبون هذه الصفة وهذا ما جاء في المادة 02 من القانون التجاري في فقراتها(1، 2، 13، 14) وهي: الشراء لأجل البيع، العمليات المصرفية وعمليات الصرف والسمسرة أو الخاصة بالعمولة، عمليات التوسط في شراء وبيع العقارات أو المحلات التجارية أو القيم المنقولة، أما التي تتم في شكل مقاولات نصت عليها المادة 02 من القانون التجاري في الفقرة الثالثة حتى الفقرة الثانية عشر وقد استخدم المشرع الجزائري مصطلح مقاولة واعتبرها من الأعمال التجارية بطبيعتها في حين أنّ المراد هو أن تتم هذه الأعمال في شكل مقاولة أي اشتراط التكرار، والتنظيم المسبق تمييزا عن الأعمال التجارية المنفردة، أما بخصوص الأعمال التجارية البحرية فالمشرع الجزائري قد اعتبرها أعمالا تجارية بحسب موضوعها ونص عليها في المادة الثانية من القانون التجاري في الفقرات من 15 حتى 20[1].

الفرع الثاني: أعمال تجارية بحسب الشكل: فتظل هذه الأعمال التجارية بغض النظر عن صفة القائم بها وبغض النظر عن موضوعها إذ بمجرد أن تفرغ في الأشكال المحددة حسب المادة 03 من القانون التجاري وهي محددة على سبيل الحصر وتخص

---

[1]- الدكتور: فتاك علي ، مبسوط القانون التجاري الجزائري في مقدمة القانون التجاري ، نظرية الاعمال التجارية ، ابن حلدون للنشر والتوزيع ،2004،ص80

التعامل بالسفتجة(الكمبيالة) بين كل الأشخاص، الشركات التجارية، وكالات ومكاتب الأعمال مهما كان هدفها، العمليات المتعلقة بالمحل التجاري، العقود المتعلقة بالتجارة البحرية والجوية.

الفرع الثالث: الأعمال التجارية بالتبعية: التي تعتبر في حقيقة الأمر عملا مدنيا ولكن طالما أنّ القائم بها يكتسب صفة التاجر وكانت ضرورية لمهنته التجارية وحاجات محله التجاري ففي هذه الحالة يأخذ الفرع حكم الأصل فالمهنة تؤثر في هذه الأعمال وتكسبها صفتها فمثلا لو اشترى تاجر لوحة فنية لتزيين محله التجاري فنقول أنّ شراء اللوحة عمل مدني ولكن طالما يتم استعمالها لتزيين هذا المحل فنقول بأنّ العمل هو تجاري بالتبعية. ومنطقيا أن تضفى الصفة التجارية لكل عمل يقوم به التاجر لحاجات تجارية من أجل توحيد القواعد القانونية التي يخضع لها العمل الأصلي والتابع حسب المبدأ القائل بأنّ الفرع يتبع الاصل في الحكم. كما أنّ هذه الأعمال تقوم على أساس قانوني هو المادة 04 من القانون التجاري الجزائري، وهناك شروط يجب توافرها في الأعمال التجارية بالتبعية منه أن يكون القائم بالعمل تتوافر فيه صفة التاجر وأن يكون هناك ارتباط بين العمل والحرفة التجارية أي أنّ الصفة التجارية لا تثبت إلاّ لأعمال التاجر التي تتعلق بتجارته، وامتدّ نطاق هذه النظرية إلى كل الإلتزامات التعاقدية وغير التعاقدية والإلتزامات الناشئة عن شبه العقد(الدفع غير المستحق، الفضالة، الإثراء بلا سبب) [1].

الفرع الرابع: أعمال تجارية مختلطة: يضيفها الفقه ولم ينص عليها المشرع الجزائري صراحة ضمن نصوص القانون التجاري أما المشرع المصري فقد نصّ في قانون التجارة في المادة الثالثة منه على أنّه:(إذا كان العقد تجاريا بالنسبة إلى أحد طرفيه فلا تسري أحكام القانون التجاري إلاّ على التزامات هذا الطرف وحده، وتسري على التزامات الطرف الآخر أحكام القانون المدني ما لم ينص على غير ذلك)، فالحل لمثل هذه الحالة في التشريع الجزائري يمكن بحثه فقهيا في ظل غياب نص قانوني وهذا تماشيا مع قواعد الإنصاف ومقتضيات الحياة التجارية[2].

المطلب الثالث: دليل مشروعية التجارة ودعوة الإسلام إليها: تعدّ التجارة مهنة شريفة لها أهميتها في الحياة الإنسانية لذا أباحها الإسلام بل دعا إليها وحثّ المسلمين على الإكتساب عن طريق التجارة يقول الله تعالى:(فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله)[3]، قال القرطبي رحمه الله عن تفسير هذه الآية:(هذا أمر إباحة) كقوله تعالى:(وإذا حللتم فاصطادوا أي إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا في الارض للتجارة والتصرف في حوائجكم). وقد أباح الإسلام التجارة واعتبرت ليس أكلا لأموال الناس بالباطل، يقول الله تعالى:(يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلاّ أن تكون تجارة عن تراض منكم)[4]. إذ المولى عزّوجلّ ينهانا عن تعاطي الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال، لكن المتاجرة المشروعة التي قوامها التراضي بين المتعاقدين يجوز فعلها واكتساب الأموال بها. كما يستدل على إباحة التجارة من قوله تعالى:(ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم)[5]. فقد ذكر الفخر الرازي وجه الإستدلال بهذه الآية فقال قد ذكر المفسرون في تفسير الآية وجهين:

---

[1]- الدكتور : عمورة عمار ،الوجيز في القانون التجاري الجزائري الاعمال التجارية ،التاجر،الشركات التجارية ،دار المعرفة ،2003،ص30

[2]- الدكتور :فايز نعيم رضوان ،مبادئ القانون التجاري (نظرية الاعمال التجارية ،التاجر ،الملكية التجارية) دار النهضة العربية ،1999، ص194/193

[3]- سورة الجمعة، الآية 10.

[4]- سورة النساء، الآية29.

[5]- سورة البقرة، الآية198.

الأول أنّ المراد بابتغاء الفضل في الآية هو التجارة ويدلّ على صحة هذا التفسير أمران: الأول ما رواه عطاء ابن مسعود وابن الزبير أنّهما قرآ(أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج)، والثاني الروايات المذكورة في سبب النزول إذ تتفق كلها على إحتراز الناس من التجارة في موسم الحج فنزلت هذه الآية.

الثاني المراد من قوله تعالى:(أن تبتغوا فضلا من ربكم) هو ابتغاء الإنسان حال كونه حاجا أعمالا تكون موجبة لاستحقاق فضل الله. وقد ذكر الفخر الرازي أنّ الوجهين مرادان من هذه الآية. ويقول ابن كثير في تفسير الآية: روى البخاري عن ابن عباس قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا في الجاهلية فتأثموا أن يتجروا في الموسم فنزلت:(ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) في مواسم الحج. وعن مجاهد عن ابن عباس قال: كانوا يتقون البيوع والتجارة في موسم الحج ويقولون أنّها أيام ذكر فأنزل الله قوله:(ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم). فإذا كانت الآية تجيز التجارة في موسم الحج وهو وقت تؤدى فيه الفريضة فمن باب أولى أن تكون التجارة جائزة في بقية الأيام الأخرى، ونشير هنا إلى أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم تاجر في مال السيّدة خديجة رضي الله عنها قبل البعثة وذلك حينما بلغها عن الرسول صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه فبعثت إليه وعرضت عليه أن يتاجر في مالها وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار فوافق على ذلك فباع سلعته التي خرج بها واشترى ما كان يريد شراؤه ثم رجع إلى مكة فباعت خديجة ما جاء به بأضعف أو قريبا[1]. كما أنّ كثيرا من الصحابة من اشتغل بالتجارة وكانت لهم أموالا طائلة. وقد قال السرخسي مستدلا على مشروعية التجارة:(إنّ الله سبحانه وتعالى جعل المال سببا لإقامة مصالح العباد في الدنيا، وشرع طريق التجارة، لأنّ ما يحتاج إليه أحد لا يوجد مباحا في كل موضع، وفي الأخذ على سبيل التغالب فساد والله لا يحب الفساد)[2]، وقد قال الله عزّ وجلّ:(وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله)[3] أي مسافرون يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجرة. وفي آية أخرى يقول المولى عزّ وجلّ:(علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله، وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤوا ما تيسر منه)، فهذه الآية أعطت للضرب في الأرض والإبتغاء من فضل الله بالتجارة والعمل حكم الجهاد وهو أعظم العبادات وفي ذلك دعوة لمباشرة العمل والتكسب بالتجارة، وقد سئل النبيّ عليه الصلاة والسلام عن أفضل الكسب فقال:(بيع مبرور وعمل الرجل بيده)، وفي رواية:(عمل الرجل بيّده وكل بيع مبرور)[4]، بل إنّ الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى العمل بالتجارة لما لها من فضل عظيم وأنها أوسع أبواب الرزق فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم:(عليكم بالتجارة فإنّ فيها تسعة أعشار الرزق)[5]، ومما يدعوا إلى التجارة التجارة أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم جعل التاجر الصدوق في منزلة عالية حيث قال:(التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء)[6].

---

[1]- ابن هشام، السيرة النبوية تحقيق طه عبد الرؤوف سعد،نشر مكتبة الكليات الازهرية، 171/1.
[2]- شمس الائمة السرخسي، المبسوط، الطبعة الثانية، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ،بدون تاريخ نشر ، 108/12.
[3]- سورة المزمل، الآية20.
[4]- رواه أحمد والبزاز والمنذري في الترغيب والترهيب، 3/1.
[5]- رواه الإمام ابو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي،1939، 64/2.
[6]- رواه الترمذي وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب، 28/3.

المبحث الثاني: ضوابط ممارسة العمل التجاري في ظل أحكام الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي

طالما أنّ التجارة مهنة دعاً إليها الإسلام وأولتها التشريعات الوضعية بالاهتمام والتنظيم فينبغي على كل من يمارس هذه المهنة أن يلتزم ببعض الأسس والتوجيهات حتى يمكن أن تكون هذه المهنة لا تشوبها الشوائب التي علقت بالتجارة في العهود الغابرة وحتى لا تكون قاصرة على فئة دون الأخرى، إذ تمارس في غياب الجشع وعدم الإحتكار وانتفاء الغش والربا، فمثلا اليهود أبتلو بالسعار المالي والتجاري في كل زمان ومكان وكانوا أحرص الناس على التجارة والإحتراف في المسائل المالية للحصول على الذهب...والتلاعب بالأسواق والأسعار والتعامل بالربا الفاحش في كل المستويات فردية وجماعية ودولية فما كان منهم إلاّ الإفساد في كل مكان ينزلون فيه بحيلهم الشيطانية وأصابوه بالخراب والدمار وأصابوه بالهزات المالية إن لم يتخلص منهم قبل أن يتكمنوا من القضاء عليه، كما فعلت بهم ألمانيا في عهد هتلر[1].

والجدير بالذكر أنّ الإسلام جاء يحمل عدة توجيهات وضوابط في مجال المعاملات وخصوصا في المعاملات التجارية، كما أنّ التشريعات الوضعية تضمنت أحكامها العديد من الضوابط والقيود بخصوص ممارسة الأنشطة التجارية.

المطلب الأول: الضوابط الإسلامية في المعاملات التجارية: إنّ الإسلام دين متكامل لا يعتيره النقص صالح لكل زمان ومكان ما ترك تنظيم أيّ مسألة للأهواء البشرية المبالغة للأنانية بل صقل النفوس والعقول وبين كل الأحكام المتصلة بحرية التجارة حتى توجه الوجهة السليمة سواء من حيث إبرام العقود أو وقت ممارستها أو على ماذا ترد ومن حيث تعيين المبيع تعينا كافيا تنتفي معه الجهالة ولا يقع المشتري في غلط.

الفرع الأول: بخصوص إبرام الصفقة: إنّ التجارة تقوم على مبدأ التراضي الذي يسود بين البائع والمشتري، إذ الإسلام يهتم بأن يكون التعاقد بين الأفراد عن طريق إرادة حرة تنتج كافة الآثار، إذ العقد لغة هو الربط وهو جمع طرفي حبلين ونحوهما وشدّ أحدهما بالآخر حتى يتصلا ويصبحا كقطعة واحدة، والعقدة هي الموصل الذي يمسكهما ويوثقهما أما العقد في الإصطلاح فهو ارتباط إيجاب بقبول على وجه مشروع يثبت أثره في محله، وقد نصت المادة 262 من مرشد الحيران لمعرفة أحوال الإنسان في مذهب أبي حنيفة النعمان على أن:(العقد عبارة عن ارتباط الإيجاب الصادر من أحد المتعاقدين بقبول آخر على وجه يثبت أثره في المعقود عليه)، وحسب هذا التعريف فإنّ العقد ينتج عن إرادتين متطابقتين لا إرادة واحدة، والعقد من حيث أنّه يقوم على إرادة يدخل في عموم التصرف الشرعي.

والقرآن الكريم عند إباحته للتجارة ذكر فيها وصف التراضي فقال الله تعالى:(يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، إلاّ أن تكون تجارة عن تراض منكم)[2]، فالتراضي المقصود مناطه حرية الإختيار من طرف البائع والمشتري إذ يتفقان على تقدير الثمن دون أن يكون أحدهما مضطر كأن يكون البائع أو المشتري مكرها، ومن ثمة تفقد التجارة أهم عناصرها وهو حرية التبادل، ومن ثمة كان الإحتكار نقيضا للتجارة لأنّ الأول لا يعتمد الرضا والتجارة قوامها عدم الإضطرار[3].

ويتم التعبير عن الرضا بإيجاب وقبول من طرفي العقد دون تزييف للإرادة أو إكراه وقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم الذي شكا له بأنه يخدع في المعاملات بقول عند بيعه وشرائه: لا خلابة(لا خديعة)[4]. وفي هذا الخصوص ذكر العلماء بأنّ في هذا

---

[1]- الدكتور: عبد الغني الراجحي، المرجع السابق، ص8.

[2]- سورة النساء، الآية29.

[3]- الإمام: محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، دار الفكر العربي، بدون سنة نشر، ص193.

[4]- رواه الخمسة وصححه الترمذي، نيل الأوطارمنتقى الاخبار ، للشوكاني، نشر مكتبة الدعوة الاسلامية ،شباب الازهر ،بدون تاريخ نشر ،182/5.

الحديث يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد لقنه هذا القول ليتكلم به عند البيع، فيطلّع به صاحبه على أنّه ليس من ذوي البصائر في معرفة السلع ومقادير القيمة، ويرى له ما يرى لنفسه وإذا ظهر غبن ردّ الثمن واستردّ المبيع[1].

إذ الإسلام بهذا يكون قد كفل حماية لإرادة ضعيف العقل وأعطاه فرصة لكي يمضي العقد أم لا؟ فإذا أبرمه كان بموجب رضاه الكامل وكانت إرادته غير المشوبة بأيّ عيب كان، ومن جهة ثانية كفل الإسلام رعاية تامة لموضوع رضا المتعاقدين وذلك باشتراط أهلية التكليف وأفسح المجال للخيار بين المتعاقدين فكان خيار الشرط، خيار الرؤية، خيار المجلس[2].

فالإسلام يشترط تحقق الرضا في كل عملية تجارية لكي تطيب النفوس بما تأخذ وما تدفع وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:(لا يحل مال امرئ إلاّ بطيب نفس منه).

الفرع الثاني: بخصوص محل العقد: إنّ الإسلام قد حرّم بعض الأشياء التي لا يمكن التعامل فيها بمقابل أو بدونه ومنها الخمور، الخنازير، الأصنام وكل ما جاء الشرع بتحريمه، عن جابر رضي الله عنه أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(إنّ الله حرّم بيع الخمور والميتة والخنزير والاصنام، فقيل يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة فإنّه يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس؟ فقال: لا، هو حرام، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: قاتل الله اليهود، إنّ الله لما حرّم شحومها جملوه، ثم باعوه فأكلوا ثمنه)[3]، كما أنّ الشريعة نهت عن التعامل في بعض الأشياء لما تنطوي عليه من غرر مثل بيع السمك في الماء، فعن ابن مسعود أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(لا تشتروا السمك في الماء فإنّه غرر)[4]، وبيع الطير في الهواء وبيع ما لا يقدر على تسليمه وبيع اللبن في الضرع والحمل في البطن، وبيع المعدوم والمجهول فحرمت الشريعة هذه البيوع من أجل القضاء على كل طريق يفسد معاملات الناس حتى يكون المبيع معلوما.

والأبعد من ذلك أنّ الإسلام قد حرم الأشياء المباحة خصوصا إذا علم بائعها أنّ مشتريها يستعملها فيما حرمه الله فمثلا: السلاح والعنب حلال ولكن لا يجوز بيع السلاح للعدو الذي يهدّد أمن المسلمين وكذلك لا يجوز بيع العنب لمن يصنع به خمرا، فكل ما يؤدي إلى الحرام فهو حرام. فإذا كانت هذه التوجيهات قد دعت إليها الشريعة الإسلامية وحثت على اجتنابها فإنّ واقعنا المعاصر يشهد عكس ذلك تماما وهذا تبديلا لأحكام القرآن عن مواضعه إذ هناك من يدعوا إلى استيراد الخمور ويرى بأنّ عدم قبول انضمام الجزائر إلى المنظمة العالمية للتجارة هو منعها لاستيراد الخمور.

وقد نهى الإسلام عن بعض المعاملات التي تنجر عنها مفاسد لما تنطوي عليه من غرر وجهالة وبالتالي حصول منازعات بين المتعاقدين وقد نهى الإسلام عن بيوع الغرر وهي:

- بيع الحصاة: ويحتوي على عدة تأويلات

أولها: أن يقول البائع بعتك هذه الأثواب ما وقعت عليها الحصاة التي أرميها؛

ثانيها: أن يجعلا نفس الرمي بالحصاة بيعا، فيقول إذا رميت هذا الثوب بالحصاة فهو مبيع منك بكذا؛

ثالثها: أن يقول بعتك على أنّك بالخيار إلى أن أرمي بهذه الحصاة.

---

[1]- نيل الأوطار للشوكاني، نفس المرجع، 262/5.

[2]- الدكتور: أحمد السعال، الدكتور: فتحي عبد الكريم، النظام الإقتصادي في الإسلام مبادؤه واهدافه ، الطبعة الثانية ،مكتبة وهبة ،1980 ،ص157.

[3]- رواه الجماعة، نيل الأوطار، الشوكاني، المرجع السابق ، 141/5.

[4]- روا ه الإمام أحمد والشوكاني في نيل الأوطار، نفس المرجع 147/5.

فمثل هذا البيع محرم لما روي عن ابي هريرة قال: (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع الحصاة وعن بيع الغرر)[1].

- بيع الملامسة: وهو بيع شيء دون مشاهدته فمتى لمسه وقع البيع[2]، وقد نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن هذا النوع من البيع في الحديث الذي أورده أبو سعيد عن رسول الله أنّه:(نهى عن الملامسة... والملامسة: لمس الرجل ثوب الآخر بيده بالليل أو بالنهار ولا يقبله)[3].

وقد فسّر الشافعي هذا البيع بأنّ البائع يقدم ثوبا مطلوبا للمشتري فيلمسه فيقول البائع له بعتك إياه بكذا اشترط أن يحل لمسك مقام نظرك ولا خيار لك عند الرؤية.

- بيع المنابذة: هو أن ينبذ الرجل إلى الرجل بثوبه، وينبذ الآخر بثوبه ويكون ذلك بيعهما من غير نظر ولا تراضي[4]. البيع ورد النهي عنه بحديث رواه أبو سعيد أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم: نهى عن المنابذة وهي طرح الرجل ثوبه بالبيع إلى الرجل قبل أن يقبله أو ينظر إليه.

وقد ذهب البعض من الفقهاء إلى اعتبار بيع الملامسة وبيع المنابذة من أنواع القمار وعلة النهي عن هذين البيعين هو الجهالة والغرر.

الفرع الثالث: بخصوص التحايل على الحرام: إنّ مختلف الطرق التي يمكن أن يلجأ إليها الأفراد التجار للتحايل على الحرام قد نهى عنها الإسلام، فقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلك فيما رواه عنه عبد الله بن عمر، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم:(إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلطّ الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[5].

والعينة- بكسر العين وسكون الياء- هي أن يبيع التاجر سلعته بثمن إلى أجل ثم يشتريها من المشتري بأقل من ذلك الثمن.

وقد بيّن ابن قيم الجوزية عملية التحايل على الحرام في بيع العينة فقال: من المعلوم أنّ العينة عند من يستعملها يسميها بيعا، وقد اتفقا على الربا الصريح قبل العقد ثم غير اسمها إلى المعاملة وصورتها إلى التبايع وهذا حيلة وخديعة لله عزّ وجلّ. وهنا يكون للنية دخل في المعاملة. وما أكثر الحيل التي يلجأ إليها الأفراد في زماننا هذا تحايلا على الحرام كالقرض الذي يكون بين الأفراد بفائدة.

الفرع الرابع: بخصوص العلم الكافي في المبيع وإظهار عيوبه: إنّ البائع هو الذي يعلم العيوب الظاهرة والخفية في سلعته فإذا تصرف فيها فيقع عليه واجب بأن يظهر كل العيوب التي تشوب سلعته ولا يكتم منها شيئا فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم:(لا يحل لمسلم باع من أخيه بيعا فيه عيب إلاّ بيّنه له)[6]، وقد قال عقبة ابن عامر:(لا يحل لامرئ يبيع سلعة يعلم أنّ بها داء إلاّ أخبره). أما لو أخفى البائع شيئا من عيوب السلعة يكون غاشا والغش محرم وقد ترك النصح الواجب في المعاملة ولكن الواقع العملي يثبت عكس ما تقرره الشريعة.

---

[1]- أخرجه مسلم في صحيحه، 1153/3.

[2]- المدونة الكبرى للإمام مالك،رواية سحنون عن ابن القاسم عن الامام مالك ابن انس ، الطبعة الاولى ، مطبعة السعادة بالقاهرة ، بدون تاريخ نشر ، 205/4.

[3]- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ،مطبعة مصطفى الحلبي ،1959، 5 /262.

[4]- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، نفس المرجع ، 262/5.

[5]- رواه أحمد وأبو داوّد واللفظ له، راجع نيل الأوطار الشوكاني، 206/5.

[6]- رواه ابن ماجة في سننه، 755/2.

المطلب الثاني: الضوابط القانونية عند الممارسات التجارية: إنّ القانون التجاري والقواعد العامة توجب احترام بعض الشروط-التزامات- من قبل البائعين في مواجهة المشتريين أو المستهلكين استجابة لرغبة هؤلاء وحتى يكون المنتوج يطابق المواصفات القانونية وحتى يتم إعلام المشتري بالأسعار وتبرم الصفقة بناء على إرادة الطرفين وأن لا تكون هناك منافسة غير مشروعة بخصوص ممارسة الأنشطة التجارية التي تعتبر السرعة والإئتمان قوامها.

الفرع الأول: **بخصوص الإعلام بالأسعار وشروط البيع:** لقد نصت المادة4 من القانون رقم 02/04 المؤرخ في 23يونيو2004 المحدّد للقواعد المطبقة على الممارسات التجارية على أنّه:(يتولى وجوبا إعلام الزبائن بأسعار وتعريفات السلع والخدمات وبشروط البيع)، كما نصت المادة 05 من نفس القانون على أنّه:(يجب أن يكون إعلام المستهلك بأسعار وتعريفات السلع والخدمات عن طريق وضع علامات أو وسم أو معلقات أو بأية وسيلة أخرى مناسبة...)، فالمستهلك من حقه أن يعلم بالسعر أو المبلغ الإجمالي الذي يدفعه قبل أن يقتني منتوجا أو خدمة والوسيلة التي تسمح بإعلام هذه المنتوجات والخدمات بهذه الأسعار تتم عن طريق وضع علامات أو ملصقات أو أية وسيلة أخرى، ضف إلى ذلك أنّ من حق المستهلك أيضا العلم بشروط البيع أو تقديم الخدمات فلو تمّ البيع بالتقسيط فيجب على المستهلك أن يعلم بالسعر الإجمالي وقيمة كل قسط وآجال الدفع وبما يمكنه الاستفادة من التخفيض[1]. فالالتزامات الواردة هي التزامات بعمل يتم تنفيذها عينا هدفها تحقيق نتيجة وقد نصت المادتين 31 و32 من قانون 02/04 على أن عدم الإعلام بالأسعار والتعريفات مخالفة لأحكام المواد 4و 6و7 من هذا القانون يعاقب عليه بغرامة من 5000دج إلى 100000 دج، وأنّه في حالة عدم الإعلام بشروط البيع يعدّ ذلك مخالفة لأحكام المادتين 8و9 من هذا القانون ويعاقب عليه بغرامة من 10000 دج إلى 100000 دج.

الفرع الثاني: بخصوص النهي عن استغلال النفوذ للوصول إلى الربح: إنّ بعض مظاهر استغلال النفوذ حديثا هو سيطرة بعض الشركات وأصحاب رؤوس الاموال على الحكم بحيث يتم سن قوانين تخدم هذه الشركات وتقوم باستغلال الشعب، وقد نصت المادة 18 من القانون 02/04 السابق على أنّه:(يمنع على أيّ عون اقتصادي أن يمارس نفوذ على أي عون اقتصادي آخر أو يحصل منه على أسعار أو آجال دفع أو شروط بيع أو كيفيات بيع أو على شراء تمييزي لا يبرره مقابل حقيقي يتلاءم مع ما تقتضيه المعاملات التجارية النزيهة الشريفة)، وإنّ اعتبر القانون أنّ هذا الاستغلال ممنوع بقصد تملك شيء أو الحصول على ربح أو منفعة من وراء ذلك فقد سبق الإسلام وأن قرر هذا المبدأ في كل الميادين وفي مجال التجارة خصوصا إذ ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه عنه أبي حميد الساعدي فقال:(استعمل النبيّ صلى الله عليه وسلم رجلا في الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي إليّ قال: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإني استعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله، فيأتي فيقول هذا لكم وهذا أهدي إليّ ،أفلا جلس في بيت أبيه أو بيت أمه، حتى ينظر أيهدى له أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا ينال أحد منكم شيئا إلاّ جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، بعيرا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تبعر، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطه، يقول: اللهم هل بلغت)[2].

---

[1]- المواد من 4 حتى المادة 9 من قانون 02/04 ،الجريدة الرسمية،العدد 41

[2]- رواه مسلم في صحيحه،تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة الاولى ، دار احياء الكتب العربية ،1955، 1463/3.

وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته بخصوص عدم استغلال النفوذ عندما تطرق إلى تجارة السلطان وبيّن أنها مضرة بالرعايا وقال إنّ من هذه الأضرار:(مضايقة الفلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع...فإنّ الرعايا متكافئون في اليسار متقاربون... وإذا رافقهم السلطان في ذلك وماله أعظم كثيرا منهم فلا يكاد أحد منهم أن يحصل على غرضه، وقد ينتهي الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة في الأمراء والمتغلبين في البلدان أنهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلدهم ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤون ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من -الرعايا بما يفرضون من الثمن، وهذا أشدّ من الاولى وأقرب إلى فساد الرعية)[1]، ومن هنا اعتبر المشرع الجزائري- أنّ كل منتج أو تاجر أو حرفي أو مقدم خدمات أياّ كانت صفته القانونية يمارس نشاطه في الإطار المهني العادي أو بقصد تحقيق الغاية التي تأسس من أجلها يريد أن يمارس نفوذا على عون اقتصادي آخر ممارسة تجارية غير نزيهة لما تنطوي عليه من هذا النفوذ.

الفرع الثالث: بخصوص إبرام العقد: الأصل أنّ التجارة تقوم على مبدأ التراضي بين الأفراد الذين تتوافر فيهم الأهلية القانونية وهي حسب المادة 40 من القانون المدني 19 سنة واستثناء ينبغي توافر سن 18 سنة مع ترشيد مزاولي التجارة وهذا حسب المادة 5 من القانون التجاري، كما تخضع الأهلية العامة للأجنبي لقانون الدولة التي ينتمي إليها بجنسيته والملاحظة في الصدد أن المشرع الجزائري لم يأت بحكم خاص بخصوص الأهلية التجارية في مجال التنازع الدولي على الرغم من أنّ المشرع الفرنسي أضاف فقرة ثانية إلى المادة الأولى من قانون التجارة نصها:(...تخضع أهلية التاجر فرنسيا كان أو أجنبيا لقانون البلد الذي يتخذ فيه مقر نشاطه التجاري)، وينبغي أن يكون رضا الطرفين غير مشوبا بعيوب الإرادة (التدليس) الذي نعني به استخدام طرق احتيالية تحمل الطرف الآخر على التعاقد وقد نصّ عليها المشرع الجزائري في المادة 86 و87 من القانون المدني باعتبارها من عيوب الإرادة تجعل العقد قابلا للإبطال لمصلحة من وقع في تدليس.

وقد جاءت المادتين 24، 25 من قانون 02/04 آمرتين بأنّ منعت الممارسة التجارية الرامية إلى اتلاف الوثائق التجارية والمحاسبية وإخفائها أو تزويرها قصد إخفاء الشروط الحقيقية للمعاملة التجارية، أو تحرير فواتير وهمية أو مزيفة أو دفع أو استلام فوارق مخفية للقيمةأو حيازة منتوجات مستوردة أو مصنوعة بصفة غير شرعية أو حيازة مخزون من منتوجات خارج موضوع تجارتهم الشرعية أو حيازة مخزون من المنتوجات بهدف تحفيز الإرتفاع غير المبرر للأسعار(الإحتكار) وكل ممارسة تجارية تدليسية يعاقب عليها القانون بغرامة من 300000 دج إلى 10000000، ومن جهة أخرى وحماية للمستهلك فإنّ المشرع الجزائري منع الممارسات التعاقدية التعسفية، وهي كل بند أو شرط بمفرده أو مشتركا مع بند واحد أو عدة بنود أو شروط أخرى من شأنه الإخلال الظاهر بالتوازن بين حقوق وواجبات أطراف العقد ومن ثمة اعتبر هذه البنود أو الشروط تعسفية في العقود بين المستهلك والبائع خصوصا البنود[2] التي تمنح البائع: التفرد بتغيير آجال تسليم المنتوج أو آجال تنفيذ الخدمة، فرض التزامات حينية ونهائية على المستهلك في العقود في حين أنه يتعاقد بشروط يحققها متى أراد، إلزام المستهلك(كل شخص طبيعي أو معنوي يقتني سلعا قدمت للبيع أو يستفيد من خدمات عرضت ومجردة كل طابع مهني) بتنفيذ التزاماته دون أن يلزم نفسه بها، أو رفض حق المستهلك في فسخ العقد إذا أخلّ هو بالتزام في ذمته، أو تهديد المستهلك بقطع العلاقة التعاقدية عند عدم خضوع المستهلك لشروط تجارية جديدة

[1]- ابن خلدون في مقدمته، المرجع السابق، 672/2.

[2]- المادة 29 من القانون 02/04 ،الرجع السابق

غير متكافئة، أو أخذ حقوق والتزامات لا تقابلها حقوق والتزامات مماثلة معترف بها للمستهلك، فمتى تمّ إبرام العقد بطريقة الإذعان وقد تضمن شروطا تعسفية يعاقب عليها القانون بغرامة من 50000 إلى 5000000 دج.

الفرع الرابع: بخصوص المنافسة غير المشروعة: الأصل أنّ المنافسة أمر مرغوب فيه إذ تؤدي إلى تقدم المشروعات وإزدهارها وينتج عن المنافسة الإبتكار والقدرة على تحقيق نتائج أفضل، إذ لابأس في أن يتبارى التجار والمنتجون لسلعة في خدمة العملاء وهذا يؤدي إلى إجتذاب أكبر عدد من الزبائن فطالما أنّ المنافسة تمت في إطارها فلا يمكن أن تكون عملا غير مشروع ولو ترتب عليها زيادة عملاء محل كانوا تابعين لمحل آخر، أما لو انحرفت عن الوجهة السليمة فإنّها لا تصبح عملا مباحا لأنّه يعدّ خطرا على نشاط الآخرين ولذلك يكون للمضرور أن يجبر المتعدي على الكفّ عن العمل زيادة عن تعويض الضرر الحاصل عن طريق دعوى المنافسة غير المشروعة وتظهر أهمية هذه الدعوى في ظل الأنظمة التي تكرّس مبدأ حرية التجارة بصفة مطلقة إذ أنّ التاجر يهدف إلى تحقيق أكبر قدر من الكسب، أما الدول ذات الإقتصاد الموجه فإنّها تضع قيودا على حرية التجارة ينبغي الإلتزام بها.

ولكن نفرق بين المنافسة الممنوعة التي تعني حظر القيام بنشاط معين إما بمقتضى نص قانوني وإما بالإتفاق بين المتعاقدين والمنافسة غير المشروعة التي لا تمنع ممارسة النشاط إنما يتم فيها استخدام أساليب غير سليمة من أجل إجتذاب العملاء، ومن قبيل المنافسة الممنوعة أنّه لا يجوز فتح صيدلية إلاّ إذا توافرت في الشخص مؤهلات علمية، فلو حصل مباشرة هذا العمل دون الحصول على الدرجة العلمية المطلوبة يكون قد خالف القانون وعدّ عمله من قبيل المنافسة الممنوعة(المرسوم التنفيذي رقم 285/92 المؤرخ في 92/07/06 المتعلق برخصة استغلال مؤسسة لإنتاج المواد الصيدلانية وتوزيعها)، وقد نصّ الأمر رقم 03/03 المؤرخ في 19 يوليو 2003 المتعلق بالمنافسة على المنافسة الممنوعة في المواد 6، 7، 10، 11، 12، ورتب على ذلك غرامة مالية ، كما أنّ القانون 02/04 نصّ على الممارسات التجارية غير الشرعية وعلى ممارسة الأسعار غير الشرعية في المواد من 14 إلى 23 منه. كما أنّ الدولة قد تتدخل بموجب قوانين خاصة تمنع بها المنافسة حماية للمستهلكين كما هو الحال بالنسبة للنصوص التي تشترط وزنا معينا ومواصفات معينة للسلع وتشترط وضع مواد معينة بنسبة معينة في السلع والمنتجات، ولا يقتصر مجال المنافسة الممنوعة على الأحوال التي ينص عليها القانون إنّما تشمل الحظر الذي ينظمه الإتفاق كأن يتضمن عقد بيع المحل التجاري على منع البائع من إنشاء محل تجاري مماثل.

أما المنافسة غير المشروعة فهي الحالة التي نكون فيها أمام شخصين يمارسان نشاطا مماثلا أو على الأقل متشابها ومسألة تقدير المنافسة غير المشروعة متروكة للقضاء إذ المشرع لم يضع قواعد خاصة لتنظيم المسؤولية عن أعمال المنافسة غير المشروعة وقد ردّ القضاء هذه المسؤولية إلى القواعد العامة في المسؤولية التقصيرية على اعتبار أنّ العمل غير المشروع يكون خطأ يلزم من ارتكبه بالتعويض عن الضرر الناتج، لكن جانب من الفقه لم يوافق القضاء في إرجاع المنافسة غير المشروعة إلى قواعد المسؤولية التقصيرية واعتبروا أنّ المسؤولية عن المنافسة غير المشروعة الجزاء الناتج عنها من قبيل الجزاء عن التعسف في استعمال الحق فالتاجر حرّ في القيام بأعمال المنافسة طالما أنّه لم يخرج عن دائرة الحدود المشروعة أمّا في حالة انحراف التاجر عن السبيل يكون قد تعسف في استعمال حقه[1].

وذهب جانب من الفقه إلى القول زيادة على ما قيل بأنّ المسؤولية التقصيرية آثارا لا تستوعب آثار المسؤولية عن أعمال المنافسة غير المشروعة التي تهدف زيادة إلى التعويض باتخاذ إجراءات لازمة للكف عن أعمال المنافسة في المستقبل إذ لها وظيفة

[1]- الدكتور: علي حسن يونس، المحل التجاري، دار الفكر العربي، 1974، ص139.

وقائية مستقبلا، ومهما اختلفت الآراء الفقهية فإنّ القضاء المصري يؤسس دعوى المنافسة غير المشروعة على أحكام المسؤولية التقصيرية وحتى يمكن ممارسة دعوى المنافسة غير المشروعة ينبغي أن يوجد عمل من أعمال المنافسة غير المشروعة(وذلك بوجود نشاطين متماثلين موجودين بالفعل يقصد أحدهما تحقيق الربح) وهذه الأعمال قد تاخذ عدة صور كالإعتداء على الإسم التجاري باتخاذ المحل المنافس اسما تجاريا مشابها لاسم محل آخر، أو الاعتداء على سمعة التاجر المنافس ونشر بيانات كاذبة عنه كالإشاعة عنه بأنّه يريد التوقف عن نشاطه التجاري لأنّه مفلس حتى ينصرف عنه العملاء، أو تحريض العمال وتشجيعهم على الإضراب أو إغراء عمال المتجر المنافس بالعمل عنده أو إغراء أحد عمال المتجر المنافس بالمال لكي يطلع على أسرار لصالح التاجر المنافس، وأن ينتج ضرر ماديا أو أدبيا للتاجر المنافس وسواء كان الضرر حالا أو مستقبلا، ووجود علاقة سببية بين الخطأ والضرر باعتبار أنّ هذه المسؤولية لها نفس شروط المسؤولية التقصيرية ويترتب عن هذه المسؤولية الحدّ من الأعمال غير المشروعة وجبر الضرر الحاصل، فحسب القضاء الفرنسي والمصري هذه المسؤولية تؤسس وفقا لقواعد المسؤولية التقصيرية والمنصوص عليها في المادة 124 من القانون المدني الجزائري وإن كان جانب من الفقه المصري أراد أن يؤسس هذه المسؤولية على أحكام المادة 05 من القانون المدني المصري المقابلة للمادة 124 مكرر من القانون المدني الجزائري وهذا اجتهاد قضائي مكرّس في عدة قضايا.

المبحث الثالث: قيود واردة على التجارة تحقيقا للمصلحة العامة

إذا كانت الشريعة الإسلامية قد سمحت بممارسة التجارة وحددت ضوابط وتوجيهات لهذه العملية فشأنها كشأن أي حق في الإسلام يطلب لتحقيق مصلحة ويدفع إذا انطوى على مضرة إذ الشريعة وقفت موقفا تراعي حقوق الغير وعدم الإضرار بهم على اعتبار أنّ بعض التجار قد تسوّل لهم أنفسهم احتكار السلعة، أو رفع ثمنها طالما كان الناس في حاجة ماسة إليها كما أنّ هذا المال لا يخلص لصاحبه فقط إذ جعل الله حقوقا للفقراء في أموال الأغنياء ويجب آداء هذه الحقوق كما أنّ بعض القوانين الوضعية أصبحت تتدخل في تحديد أسعار بعض السلع وتحرم مختلف الإحتكارات تحقيقا لحماية المستهلك.

المطلب الأول: التسعير الجبري في الفقه الإسلامي والقانون الوضعي: إنّ فكرة التسعير ترتبط بآفة الإحتكار لأنهما يتداخلان في الكثير من الصور ويشكلان قيودا على حرية تصرف المالك في ماله. إذ يجبر المالك على البيع بالسعر المحدد لا بما تشتهيه نفسه. وتعدّ مسألة التسعير من القضايا التي نالت اهتمام الباحثين بها في مجال الدراسات الفقهية قديما وحديثا وهي بحق تستحق هذا الإهتمام لأنّها مشكلة اجتماعية متجددة لاتصالها بمختلف حاجات الناس اليومية. ولم تغفل التشريعات مثل هذه القضية التي تتعلق بمصالح المجتمع فتدخلت وحدّدت آليات بموجبها يتم فرض أسعار على سلع وخدمات، ونتج عن ذلك انتهاج سياسة التسعير لما لهذه الأخيرة من دور في حماية المستهلك.

و يقصد بالتسعير في اللغة: فقد قال فيه ابن منظور: التسعير الذي يقوم عليه الثمن وجمعه أسعار وقد سعروا ومسعروا بمعنى واحد اتفقوا على سعر... والتسعير التقدير[1]، أما في الإصطلاح فقد عرفه الشيخ الشوكاني رحمه الله:(هو أن يأمر السلطان أو نوابه أو كل من ولى من أمور المسلمين أمر أهل السوق ألا يبيعوا إلاّ بسعر كذا فيمنعون من الزيادة عليه أو النقصان لمصلحة[2]. أما

[1]- لسان العرب ،جمال الدين لابن منظور،دار صادر ، بيروت ،بدون تاريخ نشر الجزء السادس، ، ص30.
[2]- نيل الأوطار للشوكاني، الجزء الخامس، المرجع السابق ، ص248.

الدكتور فتحي الدريني فقد عرّفه بأنّه:(إجبار أرباب السلع أو المنافع الفائضة عن حاجاتهم على بيعها بثمن أو أجر معين بموجب أمر يصدره موظف عام مختص بالوجه الشرعي، عند شدة حاجة الناس أو البلاد إليها)[1].

ويمكن أن نقول بأنّ التسعير: هو تدخل من الحاكم مباشرة أو بطريقة غير مباشرة من أجل إجبار أصحاب السلع أو المنافع الزائدة عن الحاجة على بيعها بثمن أو أجر محددين عن طريق أمر صادر منه أو ممن يمثله عندما يزداد الطلب على هذه السلع أو المنافع من قبل الناس.

وقد قسّم الفقهاء هذا التسعير إلى تسعير أجور الأشخاص كأن يجبر ولي الأمر أهل الصناعة على ما يحتاج إليه الناس من صناعتهم(الفلاحة، الحياكة، البناية)، فإنّه يقدر أجرة المثل فلا يستطيع المستعمل انقاص أجرة الصانع ولا يمكن لهذا الأخير المطالبة بأكثر، وتسعير أموال ويقول فيه شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: (إذا احتاج الناس إلى سلاح للجهاد فعلى أهل السلاح أن يبيعوه بعوض المثل ولا يمكنون من أن يحبسوا السلاح حتى يتسلط العدو أو يبذل لهم من الأموال ما يختارون)[2]، وتسعير منافع العقارات يرى فقهاء الإسلام أنّ تسعيرها جائز إذا كان هذا التسعير دفعا للضرر الحاصل بالناس لأنّه إذا جاز تسعير منافع الأبدان جاز تسعير منافع الأعيان من باب أولى.

الفرع الأول: موقف فقهاء الإسلام من التسعير: تباينت آراء الفقهاء بهذا الخصوص حسب ما فهم كل منهم من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم حول التسعير عندما غلا السعر في عهده وسألوه وقالوا يا رسول الله لو سعرّت فقال: (إنّ الله هو القابض الباسط الرازق المسعّر، وإني لأرجو أن ألقى الله ولا يطلبني أحد بمظلمة ظلمتها إياه في دم ولا مال)[3]، لذلك هناك من فهم أنّه محرم، وهناك من ذهب إلى إباحته عند الضرورة.

الفريق الأول: يعتبر أنّ التسعير مظلمة ولذا يذهب إلى تحريمه وهذا ما ذهب إليه الإمام مالك ومن وافقه من أصحابه. وقد جاء في كتب أصحاب هذا الرأي(لا ينبغي للسلطان أن يسعّر على الناس) وقال الإمام النووي-رحمه الله-:(التسعير حرام في كل وقت على الصحيح) واستدل هذا الفريق بالقرآن والسنة النبوية، فمن القرآن قوله تعالى:(يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلاّ أن تكون تجارة عن تراض منكم)[4]، ووجه الدلالة من هذه الآية عدم جواز التسعير الجبري لأنّ فيه انتفاء للتراضي عند جبر البائع بسعر لا يرضاه. أما من السنة النبوية فهو الحديث السابق الذي أوردناه، وقد مال الشوكاني إلى هذا الاتجاه إذ يعتبر أنّ الناس تتسلط على أموالها وأنّ التسعير حجر عليهم وما على الإمام إلاّ رعاية مصلحة الناس دون مصلحة المشتري برخص الثمن وإهدار مصلحة البائع بل عليهما أن يجتهدا في تحقيق مصالحهما[5].

الحقيقة ما ذهب إليه الإمام الشوكاني في هذا الخصوص هو الأصل ولكن هناك قواعد تتضمنها الشريعة الإسلامية تقدم فيها المصلحة العامة على الخاصة وإزالة الضرر الأشد بالضرر الأخف وأنّ الشريعة الإسلامية ترمي إلى منع الظالم سواء وقع على التاجر أو على المستهلك، لذلك وجد فريق ثاني يذهب إلى إجازة التسعير في أحوال غير عادية.

1- الدكتور: فتحي الدريني، محاضرات في الإحتكار والتسعير الجبري لطلبة جامعة دمشق، ص171. الدكتور :البشرى الشوربجي ، التسعير في الاسلام ،دراسة تاصيلية لقضية التسعير في الفقه الاسلامي واشارات مقارنة بالقانون المصري ،1973، ص101.

2- إبن تيمية، الحسبة ومسؤولية الحكومات الإسلامية، بدون تاريخ نشر، ص35.

3- رواه أبو داود في البيوع، 272/3.

4- سورة النساء، الآية 29.

5- الشوكاني، نيل الأوطار، المرجع السابق ،248/5.

الفريق الثاني: إعتبر أنّ التسعير في أحوال غير عادية عند الحاجة وذكروا أنّ من التسعير ما هو ظلم ومنه ما هو عدل فيكون ظلما عندما يكون فيه إكراه بغير حق على البيع بثمن لا يرضونه، أو منهم مما أباح لهم ويكون عدلا عند إكراههم على ما يجب عليهم من المعاوضة بثمن المثل ومنعهم مما يحرم عليهم من أخذ الزيادة على عوض المثل، وقد تبنى هذا الاتجاه بعض الشافعية ويذهب ابن تيمية وابن قيم الجوزية إلى جواز التسعير عند الحاجة.

الرأي الراجح: من عرض أدلة الفريقين نلاحظ بأنه لا تعارض بينهما على الرغم من أنّ الفريق الثاني أضاف حالة وهي أنّ التسعير إجراء مؤقت يزول بزوال أسبابه(الحاجة) التسعير قيد على سلطة التصرف في الملكية للمصلحة العامة وهذه الاخيرة هي مناط التشريع. ويذهب معظم المحدثين إلى جواز التسعير[1].

الفرع الثاني: التسعير في القانون الجزائري: إنّ الدولة بما لها من سلطات وامتيازات تستطيع أن تحدّد ثمنا رسميا للسلع والخدمات لا يجوز للبائع أن يتعداه، ويكون هذا التسعير الجبري إما نتيجة العرض والطلب فتتدخل الدولة لمراقبة السعر وتحاول المحافظة عليه تحقيقا للمصلحة العامة، أو تتدخل بطريقة غير مباشرة بغرض حدّ معين على الأسعار حماية للمستهلكين من الغلاء حتى يكون هناك نوعا من التوازن بين حرية الأفراد ومصالح الجماعة وتقف كل التشريعات الوضعية إلى جانب الطرف الضعيف في العلاقات التعاقدية وتحقق حمايته من الشروط التعسفية كما في عقود الإذعان وهذا حسب المواد 110، 111، 112، من القانون المدني وفي بعض القوانين الخاصة أيضا.

يعتبر التسعير الجبري من أهم القيود الواردة على حرية المالك في التصرف في ملكه وذلك بالحدّ من حريته في بيع ما يملك بالسعر الذي يريده وهذا بهدف حماية المصلحة العامة. والتسعير الجبري يتخذ صورتين أولاهما تحديد ثمن البيع بطريق مباشر، وثانيهما تحديد ثمن البيع بطريق غير مباشر، ويتم التسعير الجبري بطريقتين تسعير مركزي وتسعير عن طريق أجهزة لا مركزية وقد نصّ قانون 12/89 المؤرخ في 05يوليو 1989 المتعلق بالأسعار في المادة الرابعة منه على أنّه:(تتدخل في تحديد ومراقبة قواعد تكوين الأسعار، السلطات المسؤولة في مجال التخطيط المركزي، السلطة المكلفة بتحضير النصوص التنظيمية الخاصة بالأسعار، السلطة القضائية، كل الهيئات أو الهياكل المكلفة قانونا بالسهر على مراقبة واحترام الاسعار...).

كما أنّ المرسوم التنفيذي رقم 31/96 المؤرخ في 15 يناير 1996 المتضمن كيفيات تحديد أسعار بعض السلع والخدمات الإستراتيجية نصّ في مادته الثانية على أنّه:(يمكن تحديد أسعار و/أو حدود الربح القصوى لبعض السلع والخدمات الاستراتيجية بمرسوم بعد استشارة مجلس المنافسة)، كما أنّ المادة الخامسة من الامر رقم 03/03 المتعلق بالمنافسة تنص على أنّه:(تقنين أسعار السلع والخدمات التي تعتبرها الدولة ذات طابع استراتيجي، بموجب مرسوم بعد أخذ رأي مجلس المنافسة)[2].

الآن ماهو دور التسعير الجبري في المواد الغذائية الذي يشترطه المشرع؟ الأكيد هو حماية المستهلك وضمان حسن توزيع المواد الضرورية على الأفراد لذا صدرت العديد من القوانين التي تحقق حماية للمستهلك وتمّ إشراك مصالح البلدية والولاية من أجل حفظ الصحة على نظافة المواد الإستهلاكية المعروضة للبيع، كما تمّ إنشاء المجلس الوطني لحماية المستهلك بموجب قانون 02/89

[1]- الدكتور: عبد السلام العبادي، الملكية في الشريعة الإسلامية، ص314، الدكتور: عبد الكريم زيدان، القيود الواردة على الملكية للمصلحة العامة في الشريعة الإسلامية، ص76، الدكتور: عبد الله بن عبد العزيز المصلح، قيود الملكية الخاصة، ص434، الدكتور: رمضان علي السيّد الشرنباصي، حماية المستهلك، ص74، الدكتور: لاشين محمد يونس الغاياتي، القيود الواردة على الملكية في الشريعة والقانون، ص701، الدكتور: البشرى الشوربجي، التسعير في الإسلام، المرجع السابق، ص65 .

[2]- أنظر المرسوم التنفيذي رقم 31/96 المؤرخ في 15 يناير 96 المتعلق بكيفيات تحديد أسعار بعض السلع الإستراتيجية، الجريدة الرسمية العدد4 . وكذا المرسوم التنفيذي رقم 43/96 المتعلق بتحديد الأسعار.

المتعلق بحماية المستهلك والمرسوم التنفيذي رقم 272/92 المؤرخ في 6 يوليو 1992 المتضمن تكوين المجلس واختصاصاته الذي يؤدي دورا استشاريا في المسائل المتصلة بالوقاية من المخاطر التي قد تحملها الخدمات المقدمة للمستهلك وكذا المنتجات، كما أنّ هذه الحماية قد امتدت إلى الجمعيات التي تؤدي دورا وقائيا وإعلاميا بخصوص حماية المستهلك كما أنّ لهذه الجمعيات الحق في الدعاية المضادة- النقد العام لبعض نماذج الإنتاج أو بعض الخدمات التي تهدد صحة المستهلك- إذ أنّ عمل هذه الجمعيات لا يوصف بأنّه عمل غير مشروع إذ لا وجود للمنافسة غير المشروعة[1].

إنّ مسألة إحكام الرقابة على الاسعار يحقق مصالح اقتصادية كبرى للدولة وكذا مصالح للأفراد بتوفير المواد الضرورية للأفراد ولذا يتعين على البائع احترام الأسعار وإلاّ تعرض للعقوبات المفروضة قانونا.

وقد بيّن القانون رقم 02/04 السابق ذكره بأنّ البائع يتولى وجوبا إعلام الزبائن بأسعار وتعريفات السلع والخدمات وبكل شروط البيع عن طريق وضع علامات أو وسم أو معلقات أو أية وسيلة مناسبة وتكون الأسعار والتعريفات بصورة مرئية ومقروءة. وقد توسع جانب من الفقه إلى القول بأنّ الإعلان عن الأسعار يمكن أن يتم عن طريق الصحف اليومية والإذاعات المحلية، ويعدّ الإمتناع عن بيان السعر ونوع السلعة من الجرائم السلبية التي تقع باتخاذ سلوك سلبي فلا يشترط لتمامها تحقيق النتيجة كما أنّ هذا الإلتزام- الإعلان عن الأسعار- ملقى على تجار التجزئة وعلى أصحاب محلات الوجبات والمشروبات للجمهور، وعلى أصحاب الغرف في الفنادق المعدة لإيواء الجمهور وعلى أصحاب سيارات الأجرة، ولا يهمنا في هذه الحالة من كان مسيرا للمحل -صاحبه أم شخص آخر- فيجب الإلتزام بالإعلان عن الاسعار، وقد نصت المادة 31 من قانون 02/04 على أنّه فعل معاقب عليه إذا خالف مقتضيات المواد 4، 6، 7، بغرامة من 5000 دج إلى 100000 دج.

- أهم أنواع المخالفات بخصوص التسعير: نجد في هذا الخصوص البيع المشروط الذي نصت عليه المادة 17 من القانون 02/04 ويعاقب البائع إذا ألزم المشتري بشراء سلعة أخرى إلى جانب التي يودّ شرائها ويعاقب القانون على هذا الفعل الذي يعتبر ممارسة غير شرعية بغرامة من 100000 دج إلى 300000دج، كما أنّ الصورة الثانية نجدها تتمثل في البيع بأزيد من السعر المحدّد ونجد أنّ قانون 02/04 لم يحدّد معنى عقد البيع الذي يقصد به في القواعد العامة تلاقي إرادتين وتطابقهما صراحة أو ينعقد البيع ضمنا، كما أنّ البائع إذا عرض سلعته وعليها سعرا أكثر مما يحدّده القانون وإقترن هذا القبول بإيجاب المشتري يكون العقد قد انعقد على أساس السعر المشار إليه وهنا تقوم جريمة العرض للبيع، ونجد أنّ المشرع قد سوى بين البيع والعرض للبيع إذ أنّ تشريع التسعير الجبري هو تمكين أفراد الجمهور من الحصول على سلع بأسعارها، ولا شك أنّ عرض السلعة بأكثر من سعرها المحدد يجعل الأفراد يحجمون عن شرائها، الأمر الذي ينافي مراد المشرع من التسعير الجبري وهذا ما نصت عليه المادة 15 من القانون 02/04.

تلك هي الغاية التي يهدف المشرع من ورائها عندما نصّ على نظام الأسعار المقننة التي تخضع لها السلع والخدمات من أجل ممارسة تجاريةمشروعة وتحقيق حماية للمستهلك وفتح مجال المنافسة.

المطلب الثاني: عدم الإحتكار: إنّ التسعير الجبري وعدم الإحتكار قيدان على سلطة المالك من أجل ضبط حركة التجارة وتحقيق العدل في التعامل وتوفير مختلف حاجات الأفراد وقد ربط فقهاء الشريعة الإسلامية بين التسعير والإحتكار لأنّ هذا الأخير

[1]- أنظر الدكتورة: موالك بختة، الحماية الجنائية للمستهلك في التشريع الجزائري، المجلة الجزائرية للعلوم القانونية والإقتصادية والسياسية، الجزء 37، رقم02، 1999، ص62- 63.

يمثل ظلما عندما يؤدي إلى احتباس الثروات والأشياء والمنافع والمغالاة في رفع أسعارها يعدّ ظلما[1] إذ يمنع كثير من الناس من الوصول إلى هذه الحاجات بسبب غلائها.

الفرع الأول: تعريف الإحتكار: لغة: احتباس الشيء لغلائه كالحكرة بضم الحاء فيكون اسما من الإحتكار.

أما في اصطلاح الفقهاء: نجد هناك اختلاف بين الفقهاء في تحديد هذا المعنى إذ أنّ البعض يقصر الإحتكار على الطعام واختلفوا حتى في تحديد هذا الطعام ومنهم من قرن الإحتكار المحظور لمدة وقع اختلاف بخصوصها.

فذهب أبو يوسف إلى أنّ الإحتكار:(كل ما أضر الناس حبسه فهو احتكار وإن كان ذهبا أو فضة)[2].

أما أغلب الفقهاء المحدثين إقتداء بأبي يوسف فيعرفون الإحتكار بأنّه:(حبس ما يحتاج الناس إليه بقصد ارتفاع السعر)[3].

وعرفه الدكتور فتحي الدريني في المحاضرات التي ألقاها على طلبة كلية الشريعة بجامعة دمشق بأنّه:(حبس ما يحتاج إليه من مال أو منفعة أو عمل والإمتناع عن بيعه بسبب قلته، أو انعدام وجوده مع حاجة الناس أو الحيوان إليه).

أما الإحتكار في اصطلاح الإقتصاديين فهو أن يفرد المشرع المحتكر بعرض السلعة التي لا بديل قريب لها وهو احتكار تام.

الفرع الثاني: حكم الاسلام في الإحتكار: لقد اتفق فقهاء الإسلام على أنّ الإحتكار حرام والكسب بواسطته لا يحل لصاحبه لأنّه ظلم وصاحبه مذموم، والأدلة على تحريم الإحتكار كثيرة نورد البعض منها فمن القرآن قوله تعالى:(ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم)[4]، ووجه الدلالة على تحريم ذلك أنّ الظلم منهي عنه والإحتكار ظلم فمن باب أولى أن يكون حراما.

أما السنة قوله صلى الله عليه وسلم:(لا يحتكر إلاّ خاطئ)[5]، وقوله صلى الله عليه وسلم:(من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس)[6]، وقوله صلى الله عليه وسلم أيضا:(من احتكر الطعام أربعين ليلة فقد برئ من الله وبرئ الله منه). وهناك أحاديث كثيرة دالة على تحريم الإحتكار بجميع صوره دون تفرقة بين قوت آدمي أو الحيوان.

ولئن اتفقت كلمة الأخيار ودلّ على ذلك كلام سيّد الأنبياء على أنّ الإحتكار حرام وظلم وصاحبه مذموم إلاّ أنّ واقعنا يشهد خلاف ذلك إذ يتبارى التجار في الإحتكار وكأنّه وسيلة مباحة للكسب فيرفعون الأسعار وكأن بهم حققوا ربحا أنما هو حطام الدنيا وإبتعاد عن شريعة الرحمن وسواء مارس هذا الإحتكار الخواص أو الأشخاص المعنوية العامة إذ نجدهم يتفننون في زيادة السعر وكأنّ هذا الرزق أو المال من صنعهم ولا يدرون أنهم مستخلفون في الأرض فقط ولذا عمت وطمت هذه الظاهرة ونتج عنها حرمان العديد من الأفراد من عدم سدّ رمقهم وقضاء أمورهم ونتجت أمراض إجتماعية وظواهر سلبية أدت إلى انحلال وتفكك المجتمع فلا وازع يردع ولا ضمير يؤنب همهم المال بأية وسيلة يجمع ويكدس وكأنّه غاية وليس وسيلة فقط وإن كانت التشريعات الوضعية قد حاربت الإحتكار بموجب نصوص قانونية تنظم المسائل المدنية والتجارية والجنائية والإدارية، إلاّ أننا في

---

[1]- الاستاذ: هاشم حسن يس، مدى سلطة ولي الأمر في التدخل في الملكية الخاصة، رسالة ماجستير،كلية دار العلوم، 1986، جامعة القاهرة، ص77. الدكتور :عبد الله ناصح علوان ،التكافل الاجتماعي في الاسلام ، دار السلام ،2001، ص47/46

[2]- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، علاء الدين الكسائي، بدون تاريخ نشر الجزء 129/5.

[3]- الدكتور: يوسف قاسم، التعامل التجاري في ميزان الشريعة، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، 1980، ص75.

[4]- سورة الحج، الآية25.

[5]- رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي عن معمر بن عبد الله.

[6]- رواه ابن ماجة والحاكم.

الجزائر لا نجد نصا تشريعيا حاسما يتناول موضوع الإحتكار ويحدّد مختلف الوسائل لمقاومته وتجريمه إلاّ بعض القواعد المتعلقة بحماية الطرف الضعيف من الشروط التعسفية في عقود الإذعان والتي سبق وأن أشرنا إليها في غير هذا الموضع أما قانون العقوبات فقد نصت المادتان 172، 173 منه على تجريم الإحتكار والتلاعب بالأسعار وما أشار إليه المرسوم التنفيذي رقم 31/96 المؤرخ في 96/10/15 المتضمن كيفيات تحديد أسعار بعض السلع والخدمات الإستراتيجية.

وقد حان الأوان والجزائر تنتهج نظام الإقتصاد الحر إصلاح هذه التشريعات وتطويرها إذا اقتضى الأمر لتتناسب مع هذا التوجه الجديد ولا تقتصر عملية مقاومة الإحتكار من الناحية التشريعية بل يجب الحدّ من الإحتكارات الفردية عن طريق فرض أسعار عادية للمنتجات، فرض ضرائب ورسوم إنتاج إذ أنّ نظام اقتصاد السوق لا يعني خروج الدولة من النشاط الإقتصادي بل يقع على الدولة أن تضع القيود على الاستثمارات في قطاعات الإستثمار وتراقب وتشدد في توجيه هذا الإستثمار حتى لا يحتكر الأجانب ميادين الإنتاج ومن ثمة يحكمون السيطرة في تحديد الأسعار التي تدر عليهم بالربح الفاحش بل أنّ مقتضيات المصلحة العامة هي التي تدعو إلى منع الاحتكار والقضاء عليه على اعتبار أنّ الاحتكار نشاط تجاري مفتعل غير عادي.

الفرع الثالث: الاحتكار في ظل النظام الاقتصادي الرأسمالي وآثاره السلبية: إنّ الفكر الاقتصادي يعرف نوعين من الاحتكار، احتكار كامل وبموجبه تسيطر مؤسسة واحدة على السلعة في أسواقها، واحتكار القلة وهو قيام عدد قليل من المؤسسات بذلك. وازدادت حدة الاحتكار بسبب انتشار الصناعات المتطور القائمة على التكنولوجيا الحديثة والاشتراك القائم بين أصحاب هذه الصناعات وبين المصارف المالية القائم على الربا وتنوعت صور الاحتكار، ومن صوّر المنشآت الاحتكارية في الدول الرأسمالية ما يسمى ب: الترست الذي يعني انضمام عدة مشروعات في إدارة واحدة ويقصد بالترست كل مشروع تجاري أو صناعي يستطيع بموجب قوته أن يستأثر بالسوق سواء كانت هذه القوة نتيجة اندماج عدة مشروعات في بعضها البعض أو ظهور مشروع كبير استفاد من الإنتاج وتملك السوق ومن آثار الترست أنها تقوم برفع الاسعار لأنّها تتحكم في السوق أو أنها تقوم بخفض الأسعار إلى حدّ تستطيع أن تقضي على خصومها. وقد نشأت الترست في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1880، ومما لا شك فيه أنّ ظاهرة الإحتكار تلحق أضرارا مختلفة بالمجتمع من جانبه الإقتصادي والإجتماعي فمن الجانب الإقتصادي يؤدي الإحتكار إلى قتل روح المنافسة التي تؤدي إلى الإتقان في الإنتاج، أما مصلحة المحتكر فتتعارض مع مصلحة المستهلك، كما أنه يسدّ أبواب الفرص أمام الآخرين للاسترزاق كما يفعل المحتكر الذي يعمد إلى إبقاء بعض المواد معطلة أو يقوم بإهلاك جزء من منتجاته حتى لا تؤدي الزيادة في العرض إلى انخفاض الثمن كما أنّه يهدر الحرية التجارية والصناعية...أما من الجانب الإجتماعي فإنّ الإحتكار تترسم فيه معالم الأنانية المدمرة التي لا تراعي مصلحة الجماعة وهذا المحتكر عضو فاسد في الجماعة فينبغي معالجته وإلاّ زاد الفساد تفشيا، ونظرا لخطورة هذا الإحتكار عمدت بعض الدول إلى سن قوانين كفيلة بمنعه أو بالحدّ منه كما هو وضع الولايات المتحدة الأمريكية عام 1890.

المطلب الثالث: ضرورة إخراج الفرائض المالية من أموال التجارة: إنّ الإسلام أوجب فرائض مالية في أموال التاجر -كلف التاجر بآدائها والقيام بها- لذا ذهب جمهور العلماء إلى القول بوجوب الزكاة في قيمة عروض التجارة والعشور الذي يدفعه التاجر من أمواله.

الفرع الأول: زكاة عروض التجارة: أجمع أهل العلم على أنّ في العروض التي يراد بها التجارة الزكاة متى حال الحول عليها والأصل في وجوب الزكاة في أموال التجارة قوله تعالى:(يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيّبات ما كسبتم)[1]، قال مجاهد: نزلت في التجارة بتيسيره إياها لهم[2]، وقد روى سمرة بن جندب قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نخرج الزكاة مما نعدّه للبيع[3]، كما روي عن أبي ذر رضي الله عنه أنّه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: في الإبل صدقتها وفي الغنم صدقتها، وفي البز صدقته)[4]، والبز- بفتح الباء- يقال للثياب المعدّة للبيع عن البزازين وعلى السلاح وقد ذكر فقهاء الشريعة أنّ العروض لا تصير للتجارة إلاّ بشرطين هما:

الأول: أن يكون مملوكا بالبيع وقبول الهبة والوصية، والثاني: أن ينوي عند تملكه أنّه للتجارة فإذا انتفت 1النية لم يصر للتجارة.

وتزكى أموال التجارة إذا بلغ النصاب فيها وحال الحول عليها ومقدار الزكاة الواجبة في أموال التجارة هو عشر قيمتها[5]وتعدّ من الواجبات التي يلتزم التاجر بإخراجها ولا مجال لحريته في آدائها أو عدم آدائها لأنّها واجب ديني.

الفرع الثاني العشور: يقصد به لغة الجزء من عشرة أجزاء، أما اصطلاحا الضريبة التي تفرض على أموال التجارة الصادرة من البلاد الإسلامية والواردة إليها، وهناك من يعرفها بأنّها الرسوم الجمركية المفروضة على السلع يدفعها التاجر الأجنبي.

وتمّ وضع نظام العشر في الإسلام من طرف الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ويتم أخذها(العشر) إذا لم يكن فيه تعد على الناس، وحتى يتم أخذ العشور من أموال التاجر اشترط الفقهاء عدة شروط في مال التاجر الذي يعبر الحدود الإسلامية وهذه الشروط:

- أن يكون المال معدّا للتجارة؛
- أن يبلغ المال نصابا ونصابه ليس محل اتفاق بين الفقهاء ولكن قول عمر بن الخطاب فيه تحديد لذلك؛
- ألاّ يكون المال قد أدى نفس الضريبة خلال نفس العام؛
- أن تكون العشور من المال الحلال؛

وإنّ سبيل ما أخذ من المسلمين من العشور هو الصدقة وبذلك يكون الإسلام قد وضع نظاما متكاملا لما يسمى اليوم بالرسوم الجمركية وسبق الأنظمة الوضعية في وضع مبادئ هذه الرسوم.

المطلب الرابع : تأثير التجارة على التنمية الإقتصادية: إنّ التجارة -سواء كانت الداخلية أو الخارجية- تساهم في النمو الإقتصادي إذ تعمل على تنشيط الطلب بتدفق سلع جديدة في الأسواق التي تنال إعجاب المستهلك فيعمل على مضاعفة عمله لكي يقتني هذه السلع. والتبادل التجاري يساهم في خلق أفكار جديدة وأنماط استهلاكية جديدة، لذا يذهب الفكر الإقتصادي الحديث إلى ربط التجارة الدولية خصوصا بالتنمية التي تعني إعمار الأرض وهي حق من حقوق الإنسان[6]، وقد اعتبر الإسلام التنمية من الحقوق وحث الإنسان على الإسهامات الفعالة في التنمية إذ دعاه إلى استثمار كافة عناصر الإنتاج المشروعة في العمل

---

[1]- سورة البقرة، الآية 267.
[2]- تفسير ابن كثير، 320/1.
[3]- رواه أبو داود والبيهقي، المغني 622/2.
[4]- رواه الدار قطني والحاكم بإسنادين صحيحين على شرط الشيخين، محمد الشربيني الخطيب ،المغني،المرجع السابق 622/2.
[5]-المغني ،المرجع السابق ،623/2.
[6]- الدكتور: عبد الغني محمود، ضوابط الحق في التنمية في الشريعة الإسلامية، مجلة المعاملات الإسلامية، مركز صالح كامل، العدد1، السنة الأولى، 1991، 42 وما بعدها.

ورأس المال. وقد أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة في قرارها 128/41 الصادر بتاريخ 1986/12/14 إعلان الحق في التنمية:(الحق في التنمية حقا من حقوق الإنسان غير قابل للتصرف وبموجبه يحق لكل إنسان ولجميع الشعوب المشاركة والإسهام في تحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية والتمتع بهذه التنمية التي يمكن فيها إعمال جميع حقوق الإنسان والحريات الأساسية إعمالا تاما)[1].

فالتنمية الإقتصادية هي إنتاج أكثر من السلع وبجودة أحسن فلو تحقق هذا الهدف عندئذ تتمكن الدول من تصدير هذه السلع وتحقق رأس مال نقدي أجنبي تستثمر من جديد في بناء المرافق العامة وتوسيعها وكل هذا يصب في تحقيق تنمية اقتصادية ولكن هذه التنمية ينبغي أن تحاط بضوابط من أجل رسم وتصوّر صحيح لهذه التنمية وهذه الضوابط هي:

- ينبغي أن يكون مصدر هذا المال مشروعا؛
- البعد عن الإسراف لأنّ الله ينهانا عن الإسراف؛
- عدم اكتناز المال وحبسه عن التداول؛
- الإعتراف بالملكية العامة والخاصة؛
- الإلتزام بأولويات التنمية؛

وها هو الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه يرسل كتابه إلى واليه على مصر ويقول له فيه:(استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيرا، المقيم منهم والمضطرب بماله، والمرتفق ببدنه، فإنّهم مواد المنافع، وأسباب المرافق، وجلابها من المباعد والمطارح، في برك وبحرك، وسهلك و جبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها)[2]، فالإمام في هذا الجزء من كتابه يطلب العناية بالتجار لما لهم من دور أساسي حتى لا ينحرفوا ويلحقوا أضرارا بالناس إذ يوجب من واليه مراقبتهم والضرب على أيديهم إذا ما حادو عن جادة الطريق وفي ذلك اهتمام منه بتنظيم التجارة رغبة بحصول فوائدها وتوضيحا لدورها الفعال في اقتصاد الدولة وقد حدّد الإمام علي رضي الله عنه لواليه عدة أمور في هذه الكتاب هي:

- تطبيق فكرة الثمن العادل؛
- عناية الدولة أو ولي الأمر بشؤون التجارة؛
- منع التجار من الإحتكار؛
- إرشاد الناس إلى السماحة في البيع والشراء؛
- معاقبة كل من يلحق أضرار بالناس؛

وبذلك تتحقق تنمية للمجتمع من خلال الضوابط والقيود التي يجب مراعاتها عند ممارسة التجارة التي تقف مع الصناعة والزراعة في مستوى واحد.

[1]- الدكتور: كمال الدين المرسي، دور الزكاة في تنمية المجتمع، الدار المصرية للنشر والتوزيع، 1996، ص83.
[2]- شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، دار إحياء الكتب العربية ،1964،ص99

الخاتمة:

إنّ حرية التجارة دعا إليها الإسلام وجعلها من وسائل الكسب الحلال والاسترزاق فرسم لها حدودها، وقيدها بضوابط وتوجيهات وتوصل فقهاء الإسلام إلى وضع قيود على المعاملة التجارية بفرضهم التسعير الجبري وعدم الاحتكار حتى لا يضار أفراد المجتمع من أجل تحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية.

وقد قننت مختلف الدول تشريعات بخصوص ممارسة الأعمال التجارية على اختلاف أنواعها(أعمال تجارية بطبيعتها، أعمال تجارية بحسب الشكل، أعمال تجارية بالتبعية، أعمال مختلطة) وحدّدت شروط اكتساب صفة التاجر من أهلية، قيد في السجل التجاري، ممارسة الأعمال التجارية وآثار اكتساب هذه الصفة التي لا تقتصر على الشخص الطبيعي بل تشمل الشخص المعنوي، والمشرع الجزائري قد نصّ في القانون التجاري على هذه الأعمال التجارية وصدرت قوانين في 2004 تحدّد القواعد المطبقة على ممارسة التجارة والقواعد المتعلقة بشروط ممارسة الأنشطة التجارية، وإن كان المشرع يسمح بالمنافسة المشروعة إلاّ أنه لا يبيح المنافسة غير المشروعة والمنافسة الممنوعة حتى لا يتأذى الغير من ذلك، والمشرع الجزائري أيضا يحدّد التسعير عن طريق أجهزة مركزية وأخرى محلية ويعاقب على الاحتكار ويحمي الطرف الضعيف في عقود الإذعان ويعتبر المؤسس الدستوري أنّ حرية التجارة مكفولة ومضمونة سواء كانت داخلية ودولية ولكن من جهة أخرى نقول بأنّه يجب على المشرع الجزائري أن يحكم السيطرة على التجارة بموجب نصوص قانونية حاسمة ورادعة للاحتكار خصوصا ونحن في ظل اقتصاد السوق ودخول استثمارات أجنبية وخشية من احتكارها للسلع والتحكم في الأسعار ينبغي مراقبة ذلك بإحكام من أجل تحقيق حماية كاملة للإنتاج الوطني وحماية المنتوجات الأجنبية من التقليد حتى لا يضار المستهلك ومن جهة أخرى يجب أن تكون ممارسة التجارة تتسم بقواعد الشرف والثقة والنزاهة إذ لا استغلال ولا غشّ ولا جشع ولا تدليس وأن تكون بالتراضي ويجب فرض رقابة على المواد المستوردة وإخضاعها للضرائب والتحقق من سلامتها وصلاحيتها ضمانا للأفراد الذين يشترون هذه السلع.

وبذلك تكون التجارة من جهة تتسم بالإطلاق ومن جهة أخرى تتسم بالتقييد إذ أنّ المعاملات يجب أن لا تلحق ضررا بالغير وهذا ما حرصت عليه الشريعة الإسلامية وتبنته التشريعات الوضعية لتحقيق الاستقرار لدى أفراد المجتمع الواحد ونقترح إحكام الرقابة المشدّدة على ممارسة التجارة حماية للمستهلك.

من خلال هذه الدراسة توصلنا إلى النتائج التالية:

-إن الإسلام قد اهتم بالتجارة باعتبارها من جوانب النشاط الاقتصادي ،حيث دعا الناس الى العمل بها وجعلها طريق للكسب الواسع ،ولكن قيدها بضوابط تكون نافعة للفرد و للمجتمع

-إن فقهاء الإسلام جعلواالعمل التجاري يشمل التعامل في المنقولات والعقارات وهذا بخلاف القوانين الوضعية التي كانت تجعل العمل التجاري مقتصرا على المنقولات فقط دون تقديم مبررات لذلك

-إن المعاملات التجارية ينبغي أن تتصف بالتوجيهات الإسلامية إذ أن التجارة تؤسس على التراضي والصدق والتسامح والثقة والتناصح ،لان العمل التجاري ينبغي ألا يخالف مقاصد الشريعة الإسلامية في مجال العبادة وينبغي عدم الاتجار فيما حرمه الله،أي أن يكون محل التجارة لا يخالف النظام العام والآداب العامة ومن ثمة لا خداع في سعر السلعة ولا استغلال للنفوذ للوصول إلى الربح

- إن حرية التجارة المنصوص عليها دستورا و قانونا مثلها مثل باقي الحقوق الأخرى يجب إن تحقق مصالح الفرد والجماعة،ولكن إذا ألحقت أضرارا يجب دفعها و بذلك تدخلت الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية وقررت جملة من القيود على ممارسة التجارة ،فالإسلام حرم الاحتكار والقانون منعه نظرا لما يترتب عليه من أثار اقتصادية واجتماعية وخيمة وبالتالي يجب على ولي الأمر منعه والضرب على كل من تسول له نفسه القيام بذلك

- إن من حق ولي الأمر (رئيس الدولة)أن يجعل أسعارا لبعض السلع إذا دعت الحاجة إلى ذلك كأن يعمد التجار إلى رفع أسعار سلعهم دون مبرر

- إن الإسلام فرض على مال التجارة بعض الفرائض المالية كزكاة عروض التجارة والعشور (وهو ضريبة يؤديها التاجر على أموال تجارته حين خروجه أو دخوله بها إلى ارض الدولة الإسلامية) كما إن القوانين الوضعية تفرض الضرائب على من يمارس التجارة في إطارها القانوني - إن التجارة إذا قامت على الركائز والدعائم التي ذكرتها سابقا فهذا يجعلها عنصرا هاما من عناصر تحقيق التنمية الاقتصادية

- إن القوانين الوضعية و منها الجزائري يريد أن يجعل ممارسة الأعمال التجارية تقوم على مبدأ المنافسة المشروعة وعلى النزاهة والصدق والشرف وعدم الاحتكارات وعدم استغلال النفوذ و هذا مقصد مشروع ينبغي تثمينه

أما الاقتراحات التي يمكن توجيهها أيضا فتتمثل فيما يلي :

-ضرورة إحكام الرقابة على المواد المستوردة لأنه قد تصلنا مواد متنوعة تلحق الأذى بأفراد المجتمع وتهدد كيانه

-ضرورة التصريح الحقيقي بالمواد المستوردة وان تكون هذه الأخيرة غير موجودة في الجزائر أصلا حتى لا تهدم الكيان الاقتصادي للدولة خاصة وان بعض من أرباب العمل يريدون القضاء النهائي على من ينافسهم في السوق فيعمدون إلى بيع السلع بالخسارة من اجل إغراق المنتجين والاستحواذ عليهم ثم يعمدون في الأخير إلى رفع الأسعار

-ضرورة دفع الضرائب من طرف كل تاجر وان يكون هذا الأخير مقيد في السجل التجاري من اجل القضاء على التجارة الموازية(السوق السوداء)

-ضرورة فرض تكوين وتأهيل خاص لممارسي التجارة لان هذه الأخيرة علم وفن

- ضرورة تقييد التجارة بضوابط شرعية وقانونية يجب احترامها وفي حالة الإخلال بذلك يمنع التاجر من التجارة نهائيا

-ضرورة تشديد الرقابة على الفضاءات التجارية وخاصة في المناسبات أين يلجا التجار إلى رفع الأسعار بحجج ومبررات واهية

- ضرورة تشجيع التجار الأمناء الصادقون ومنحهم جوائز تحفيزية تمييزا لهم لكي يكونوا قدوة لغيرهم من التجار

- ضرورة إحكام الرقابة على حركة رؤوس الأموال خاصة بالنسبة للتجار الأجانب

قائمة المصادر والمراجع:

1 -الزمخشري، تفسير الكشاف، 191/1، 68/3.

2 -الشيخ الدردير، الشرح الكبيرمطبوع مع حاشية الدسوقي ، الطبعة الأولى ، مطبعة السادة ، 517/1909،3

3 محمد الشربيني الخطيب ،مغني المحتاج الى معرفة ألفاظ المنهاج،مطبعة مصطفى الحلبي ،397/1958،1

4 – عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،1984، 915/3

5- الدكتور: عبد الغني الراجحي، التجارة في ضوء القرآن والسنة، سلسلة كتب إسلامية ،يصدرها المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، العدد69، بدون تاريخ نشر

6-الدكتور: فتاك علي ، مبسوط القانون التجاري الجزائري في مقدمة القانون التجاري ، نظرية الأعمال التجارية ، ابن خلدون للنشر والتوزيع ، 2004

7[1]- الدكتور : عمورة عمار ،الوجيز في القانون التجاري الجزائري الاعمال التجارية ،التاجر،الشركات التجارية ،دار المعرفة ، 2003

8-الدكتور :فايز نعيم رضوان ،مبادئ القانون التجاري (نظرية الاعمال التجارية ،التاجر ،الملكية التجارية) دار النهضة العربية،1999

9- ابن هشام، السيرة النبوية تحقيق طه عبد الرؤوف سعد،نشر مكتبة الكليات الأزهرية، 171/1.

10-شمس الأئمة السرخسي، المبسوط، الطبعة الثانية، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ،بدون تاريخ نشر ، 108/12.

11-رواه الإمام ابو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي،1939، 64/2.

12-الإمام: محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، دار الفكر العربي، بدون سنة نشر، ص193.

13-رواه الخمسة وصححه الترمذي، نيل الأوطارمنتقى الأخبار ، للشوكاني، نشر مكتبة الدعوة الإسلامية ،شباب الأزهر ،بدون تاريخ نشر ،182/5

14- الدكتور: أحمد السعال، الدكتور: فتحي عبد الكريم، النظام الاقتصادي في الإسلام مبادئه وأهدافه ، الطبعة الثانية ،مكتبة وهبة ،1980

15-المدونة الكبرى للإمام مالك،رواية سحنون عن ابن القاسم عن الإمام مالك ابن انس ، الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة بالقاهرة، بدون تاريخ نشر، 205/4.

16-ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ،مطبعة مصطفى الحلبي ،1959، 5 /262.

17- المواد من 4 حتى المادة 9 من قانون 02/04 ،الجريدة الرسمية،العدد 41

18-رواه مسلم في صحيحه،تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة الأولى ، دار إحياء الكتب العربية ،1955، 1463/3.

19- الدكتور: علي حسن يونس، المحل التجاري، دار الفكر العربي، 1974

20- لسان العرب ،جمال الدين لابن منظور،دار صادر ، بيروت ،بدون تاريخ نشر الجزء السادس

21- الدكتور: فتحي الدريني، محاضرات في الاحتكار والتسعير الجبري لطلبة جامعة دمشق، الدكتور :البشرى الشوربجي ، التسعير في الإسلام ،دراسة تاصيلية لقضية التسعير في الفقه الإسلامي وإشارات مقارنة بالقانون المصري ،1973

22- ابن تيمية، الحسبة ومسؤولية الحكومات الإسلامية، بدون تاريخ نشر

23- الدكتور: عبد السلام العبادي، الملكية في الشريعة الإسلامية الدكتور: عبد الكريم زيدان، القيود الواردة على الملكية للمصلحة العامة في الشريعة الإسلامية،الدكتور: عبد الله بن عبد العزيز المصلح، قيود الملكية الخاصة، ص434، الدكتور: رمضان علي السيّد الشرنباصي، حماية المستهلك، الدكتور: لاشين محمد يونس الغاياتي، القيود الواردة على الملكية في الشريعة والقانون,

24- المرسوم التنفيذي رقم 31/96 المؤرخ في 15 يناير 96 المتعلق بكيفيات تحديد أسعار بعض السلع الإستراتيجية، الجريدة الرسمية العدد4 . وكذا المرسوم التنفيذي رقم 43/96 المتعلق بتحديد الأسعار.

25- الدكتورة: موالك بختة، الحماية الجنائية للمستهلك في التشريع الجزائري، المجلة الجزائرية للعلوم القانونية والإقتصادية والسياسية، الجزء 37، رقم02، 1999

26- الأستاذ: هاشم حسن يس، مدى سلطة ولي الأمر في التدخل في الملكية الخاصة، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، 1986، جامعة القاهرة.
الدكتور :عبد الله ناصح علوان ،التكافل الاجتماعي في الإسلام ، دار السلام ،2001

27- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، علاء الدين الكسائي، بدون تاريخ نشر ، الجزء 129/5.

28- الدكتور: يوسف قاسم، التعامل التجاري في ميزان الشريعة، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، 1980

29- الدكتور: عبد الغني محمود، ضوابط الحق في التنمية في الشريعة الإسلامية، مجلة المعاملات الإسلامية، مركز صالح كامل، العدد1، السنة الأولى، 1991

30- الدكتور: كمال الدين المرسي، دور الزكاة في تنمية المجتمع، الدار المصرية للنشر والتوزيع، 1996

31- شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، دار إحياء الكتب العربية ،1964

مبدأ الاختصاص بالاختصاص في ظل اتفاقية واشنطن لتسوية منازعات الاستثمار الأجنبي

الأستاذة: هاجرة بومناد
جامعة مستغانم

تلخيص:

تعمل اتفاقية واشنطن لسنة 1965 الخاصة بتسوية منازعات الاستثمار الأجنبي، التي تثور بين الدول المتعاقدة و رعايا الدول الأخرى المتعاقدة في الاتفاقية، على توفير تسوية ناجعة و فعالة لهذه المنازعات، و تحقيقا لهذا الغرض نجدها قد تبنت مبدأ الاختصاص بالاختصاص، الذي يعد من أهم المبادئ القانونية و أدقها في ميدان التحكيم التجاري الدولي، حيث يمنح هيئة التحكيم سلطة الفصل في اختصاصها، دون الاكتراث بالدفوع المقدمة من قبل أطراف النزاع في هذا الخصوص.

الكلمات المفتاحية:

مبدأ الاختصاص بالاختصاص _ هيئة التحكيم _ التحكيم التجاري الدولي _ اتفاقية واشنطن لسنة 1965.

Résumé :

Fonctionne la Convention de Washington de 1965 pour le règlement des différends, les investissements étrangers, qui surgissent entre les États contractants et les ressortissants des autres pays contractants à la Convention, pour assurer un règlement efficace et efficiente de ces litiges, et à cet effet nous trouver ont adopté le principe de la compétence de la juridiction, qui est l'un des principes juridiques les plus importants et le plus précis dans le domaine de l'arbitrage commercial international, où le tribunal arbitral a accordé le pouvoir de statuer sur leur compétence, sans se soucier des défenses proposées par les parties au conflit à cet égard.

Les mots clé :

Le principe de la compétence de la juridiction _ Tribunal arbitral _ l'arbitrage commercial international _ Convention de Washington de 1965.

Summary:

Does the Washington Convention 1965 for the settlement of disputes, foreign investment, which arise between Contracting States and nationals of other Contracting States to the Convention country, to ensure effective and efficient settlement of such disputes, and to this end we find adopted the principle of jurisdiction of the court, which is one of the most important legal principles and most accurate in the field of international commercial arbitration, the arbitral tribunal has given the power to rule on its jurisdiction , regardless of the defenses offered by the parties to the conflict in this regard.

Key words:

The principle of jurisdiction to jurisdiction _ Arbitral tribunal _ the International Commercial Arbitration _ Washington Convention of 1965.

مقدمة:

مبدأ الاختصاص بالاختصاص، يعد من أهم المبادئ و أدقها في الأنظمة القانونية، سواء الوطنية أو الدولية، وأهمية هذا المبدأ تبرز أكثر إذا ما تعلق بالتحكيم التجاري الدولي، بل يمكن القول أن فعالية هذا الأخير تستمد أساسا من مبدأ الاختصاص بالاختصاص، أي اختصاص هيئة التحكيم في الفصل في مدى اختصاصها. و بما أن اتفاقية واشنطن لسنة 1965 تحرص على توفير تسوية فعالة لمنازعات الاستثمار الأجنبية جعلها تتبنى مبدأ الاختصاص بالاختصاص ضمن نظام التحكيم لديها، فهذا المبدأ يتلائم مع منازعات الاستثمار الأجنبي التي تثور بين الدول الأعضاء في اتفاقية واشنطن و مواطني الدول الأخرى الأعضاء فيها، و التي تتميز بالتعقيد لكونها تنشأ بين طرفين ذو نظامين قانونين مختلفين، الدولة من جهة و المستثمر الأجنبي و من الجهة الأخرى، إضافة لإخلاف أهداف و أغراض كل واحد منهما، فالدولة تسعى لتحقيق خططها التنموية و المستثمر يعمل على تحقيق أقصى ربح ممكن. فتبني اتفاقية واشنطن لمبدأ الاختصاص بالاختصاص، جعلها تكتسب ثقة الدول و المستثمرين الأجانب، فالعديد من اتفاقيات الاستثمار تنص على شرط التحكيم لدى المركز، فهذا الأخير أضحى منبرا يستقطب منازعات الاستثمار الأجنبي.

و الإشكال المطروح:

ما هو مبدأ الاختصاص بالاختصاص، ما هي أهميته؟ و إلى أي مدى تختص هيئة تحكيم المركز بالفصل في اختصاصها؟

سنعمل في هذه الورقة البحثية على محاولة التطرق لمبدأ الاختصاص بالاختصاص في ظل اتفاقية واشنطن، من خلال التعرف على مفهومه و مبرراته، وكذا تقيمه، هذا في المحور الأول، أما في المحور الثاني فسنتناول مبدأ الاختصاص بالاختصاص في إطار اتفاقية واشنطن مع الإشارة لبعض الأحكام الصادرة عن المركز الدولي، التي تشير لتطبيق مبدأ الاختصاص بالاختصاص.

المحور الأول:

مفهوم مبدأ الاختصاص بالاختصاص

مبدأ الاختصاص بالاختصاص له أهمية بالغة في نطاق التحكيم التجاري الدولي، الذي يعد من أفضل الوسائل المتاحة لحل المنازعات الناشئة عن العلاقات التجارية العابرة للحدود الوطنية للدول المختلفة[1]، سنعمل في هذا المحور على التعرف على معنى مبدأ الاختصاص بالاختصاص و مبرراته و أساسه، و كذلك ايجابياته و سلبياته.

أولا: معنى مبدأ الاختصاص بالاختصاص و تأكيده

يمثل مبدأ الاختصاص بالاختصاص، اختصاص محكمة التحكم بتحديد مدى اختصاصها بالفصل في النزاع، و هو أحد الآثار الايجابية التي تترتب على اتفاق التحكيم[2]، فعلى غرار الأمر بالنسبة للقضاء الوطني، فإن أول مسألة إجرائية يلزم هيئة التحكيم

---

[1] فؤاد ديب، تنفيذ أحكام التحكيم الدولي، بين البطلان و الكساء في الاتفاقيات الدولية و التشريعات العربية الحديثة، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية و القانونية، المجلد رقم 27، عدد ثالث، سنة 2011، ص57.

[2] حسين أحمد الجندي ، مرجع سابق، ص80.

البث فيها،هي التأكد من ثبوت اختصاصها بالفصل في النزاع المبرم بخصوصه اتفاق التحكيم، فهذا المبدأ يعد من أهم المبادئ القانونية و أدقها، حيث
يساعد على الاقتصاد في الوقت و الإجراءات[1].

و يميل التوجه الحديث في التحكيم إلى إعطاء هيئة التحكيم نفسها سلطة الفصل بالدفع بعدم الاختصاص، حتى و لو كان الدفع مبنيا على بطلان اتفاق التحكيم أو كان موضوع الاتفاق مخالفا للنظام العام، أو كان النزاع يتعلق بمسألة لا يجوز التحكيم بشأنها أصلا، أو غير ذلك من الدفوع. و لتوضيح أكثر نعرض المثال التالي: قام الشخص(أ) برفع دعوى تحكيمية ضد الشخص(ب) استنادا لاتفاق تحكيم مبرم بينهما، فيرد(ب) على الدعوى و يقدم في الوقت ذاته دعوى متقابلة ضد الشخص(أ) ، فيشير (أ) أمام هيئة التحكيم الدفع بعدم اختصاصها بنظر الدعوى المتقابلة، أو يرد (ب) على الدعوى بعدم وجود اتفاق تحكيم أو بطلانه و بالتالي عدم اختصاص هيئة التحكيم بنظر النزاع، في هذه الحالة تختص هيئة التحكيم بالرد على هذا الدفع سواء بالقبول أو بالرفض[2]، و هذا تطبيقا لمبدأ الاختصاص بالاختصاص. إن الفكرة الأساسية التي يقوم عليها المبدأ، هي أنه ليس هناك مبرر للتشكيك سلفا بالمحكمين بأنهم غير قادرين على التوصل إلى قرار يكون بنفس الوقت عادلا و حاميا للمجتمع. و من هذه الفلسفة أجيز التحكيم في مواضيع كانت محظورة عليه لتعلقها بالنظام العام: مثل المنافسة، ، استثمارات الملكية الفكرية... وغيرها [3].

و نشير إلى أنه إذا حدث و طرح نفس النزاع على الهيئات القضائية، فإن هيئة التحكيم لا تتوقف عن إجراءاتها، لتترك الفرصة للقضاء الوطني حتي يفصل في ثبوت اختصاصها من عدمه، لأن القضاء لا يجوز له البث في اختصاص هيئة التحكيم قبل أن تقوم هي بنفسها بالفصل في اختصاصها، هذا تطبيقا لمبدأ الاختصاص بالاختصاص، لكن هذا لا يمنع من قيام قضاء الدولة بالبحث في مسألة اختصاص هيئة التحكيم في وقت لاحق عند الطعن أمامه بطلان حكم التحكيم أو طلب رفض تنفيذه لصدوره من هيئة تحكيم غير مختصة[4].

مبدأ الاختصاص بالاختصاص معترف به في اغلب القوانين الوطنية و الدولية الخاصة بالتحكيم، فنجد اتفاقية جنيف لسنة 1961 و التي تدعى بالاتفاقية الأوربية للتحكيم التجاري الدولي تنص على : **" مع التحفظ لجهة المراقبة القضائية اللاحقة المحددة بموجب القانون القاضي، فإنه يقتضي على المحكم المطعون بصلاحياته ألا يتخلى عن القضية. و هو له الحق باتخاذ القرار المناسب بصدد تلك الصلاحية، كذلك بصدد وجود وصحة اتفاقية التحكيم أو العقد الذي تشكل الاتفاقية جزءا منه."**[5]

[1] سلامة أحمد عبد الكريم، التحكيم في المعاملات الداخلية و الدولية، الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية، القاهرة ـ سنة 2006 ـ ص292 و ما بعدها.
[2] حمزة أحمد حداد، التحكيم في القوانين العربية .، الجزء الأول ، دار الثقافة للنشر ، الأردن ، سنة 2010 ، ص 289.
[3] د/عبد الحميد الأحدب ـ موسوعة التحكيم ، التحكيم الدولي، الكتاب الثاني ـ منشورات الحلبي الحقوقية ـ بيروت ـ سنة 2008 ـ ص250.
[4] حمزة أحمد حداد، مرجع سابق، ص289، 299.
[5] المادة 3/5 من اتفاقية جنيف لسنة 1961 الخاصة بالتحكيم التجاري الدولي.

كذلك القانون النموذجي للتحكيم التجاري الدولي للجنة الأمم المتحدة لسنة 1985 نص صراحة في المادة 16 في فقرتها الأولى على: "**يجوز لهيئة التحكيم البت في اختصاصها، بما في ذلك البت في أي اعتراضات تتعلق بوجود اتفاق التحكيم أو بصحته**."[1]

أما وفقا لقواعد تحكيم غرفة التجارة الدولية ICC فإن الإدعاء ببطلان العقد الأصلي أو انعدامه لا ينفي اختصاص المحكم إذا قدر صحة اتفاق التحكيم، و يظل المحكم مختصا بنظر النزاع و الفصل في ادعاءات و طلبات الطرفين حتى في حالة انعدام أو بطلان العقد،[2] ما لم يتفق على خلاف ذلك، هذا ما نصت عليه الفقرة الرابعة من المادة السادسة من قواعدها أي قواعد غرفة التجارة الدولية.

و نشير إلى أن اتفاقية نيويورك لسنة 1958 المتعلقة بالاعتراف بقرارات التحكيم الأجنبية و تنفيذها، فنجدها لم تنص على مبدأ الاختصاص بالاختصاص.

أما المشرع الجزائري فيأخذ هو الأخر بمبدأ الاختصاص بالاختصاص حيث تنص المادة1044 في فقرتها الأولى من قانون الإجراءات المدنية و الإدارية على: " **تفصل محكمة التحكيم في الاختصاص الخاص بها. و يجب إثارة الدفع بعدم الاختصاص قبل أي دفاع في الموضوع**."[3] كذلك نجد المشرع الفرنسي في المادة 1466 من قانون الإجراءات المدنية الجديد والمشرع الأردني في المادة 21/أ من قانون التحكيم الأردني و المشرع العماني في المادة 1/22 من قانون التحكيم لسلطنة عمان[4] ينصون على الأخذ بمبدأ الاختصاص بالاختصاص.

ثانيا: تأكيد مبدأ الاختصاص بالاختصاص و تقييمه

مبدأ الاختصاص بالاختصاص له عدة مبررات، فكما نعلم أن أحد أهم أسباب اللجوء إلى التحكيم هو سرعة الإجراءات و بتالي سرعة البت في النزاع و لو مرحليا، فلو أعطينا الصلاحية في البت بالدفع بعدم الاختصاص للقضاء لأدى ذلك في كثير من الأحيان إلى سلب التحكيم هذه الميزة الأساسية فيه، مما يفقده أحد أسباب اللجوء له، ذلك أن طرفي النزاع قد يرغبون في إطالة النزاع لسبب أو لأخر، و ما عليهم في هذه الحالة إلا التقدم بطلب للمحكمة المختصة، يثار فيه الدفع بعدم اختصاص هيئة التحكيم، و ما قد يترتب على ذلك من وقف لإجراءات التحكيم من وقت لأخر و بتالي تعطيل الفصل في النزاع لوقت طويل قد لا تعرف نهايته، لذلك من الأفضل إعطاء هيئة التحكيم صلاحية الفصل بالدفع باختصاصها، و هذه القاعدة تعتبر من القواعد المقبولة في التحكيم، بل أصبحت من القواعد المسيطرة فيه و النص على غير ذلك يعتبر الشاذ في إطار التحكيم[5].

و هذا نفسه ينطبق على التوفيق، فلجنة التوفيق في إطار المركز الدولي هي المختصة إذا أثير دفع بعدم الاختصاص من قبل أحد أطراف النزاع بنظر في هذا الدفع و تقرر فيما إذا تعتبره مسألة شكلية أم يعد ضمن موضوع النزاع.

---

[1] حدادن طاهر، دور القاضي الوطني في مجال التحكيم التجاري الدولي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، فرع قانون التنمية الوطنية، جامعة ملود معمري تيزي وزو، الجزائر ، 2012، ص29.

[2] حسين أحمد الجندي، مرجع سابق، ص88 و ما بعدها.

[3] المادة 1/1044 من قانون الإجراءات المدنية و الإدارية الصادر بموجب القانون رقم 08 _09 المؤرخ في 23 فيفري 2008.

[4] حدادن طاهر، مرجع سابق، ص 30.

[5] سلامة أحمد عبد الكريم، مرجع سابق، ص 280.

قد يفهم البعض أن مبدأ الاختصاص بالاختصاص، على أنه يمنح المحكم لوحده سلطة الفصل في مدى اختصاصه بنظر النزاع وهذا أمر غير منطقي و غير مقبول، حيث لا يهدف هذا المبدأ إلى ترك الرقابة على اختصاص المحكم له فقط، و لكنه يخضعها لرقابة القضاء الوطني عند وجود دعوى لإبطال أو تنفيذ حكم التحكيم، ولتوضيح أكثر نقول أنه يحدث أحيانا أن يتقدم أحد أطراف اتفاق التحكيم إلى القضاء الوطني، بطلب للفصل في نزاع أبرم بشأنه اتفاق تحكيم، و هنا يثار التساؤل عما إذا كان يجوز للقضاء الفصل في هذا النزاع؟.[1] بالرجوع لنص المادة 1045من قانون الإجراءات المدنية و الإدارية الجزائري نجدها تنص على: " **يكون القاضي غير مختص بالفصل في موضوع النزاع إذا كانت الخصومة التحكيمية قائمة أو إذا تبين له وجود اتفاقية تحكيم على أن تثار من أحد أطراف النزاع**"[2]. و يشاطره المشرع المصري في هذا من خلال نصه على أنه يجب على المحكمة التي يرفع إليها نزاع، يوجد بشأنه اتفاق تحكيم أن تحكم بعدم قبول الدعوى إذا دفع المدعي عليه بذلك قبل إبدائه أي طلب أو دفاع في الدعوى. و لا يحول رفع الدعوى المشار إليها في الفقرة السابقة دون البدء في إجراءات التحكيم أو الاستمرار فيها أو إصدار حكم التحكيم[3]. كما ينص قانون المرافعات الفرنسي على إلزام المحكمة بالحكم بعدم الاختصاص بنظر نزاع اتصلت به محكمة التحكيم بمقتضى اتفاق تحكيم، أما إذا لم تكن المحكمة قد اتصلت بالنزاع، فلا يحكم القضاء بعدم الاختصاص إذا تبين له بوضوح بطلان اتفاق التحكيم و يلزم في جميع الأحوال تمسك أحد الأطراف باتفاق التحكيم، فالقضاء لا يحكم تلقائيا بعدم اختصاصه.

و يرى جانب من الفقه أن مبدأ الاختصاص بالاختصاص هو أثر لمبدأ استقلال اتفاق التحكيم عن العقد الأصلي. فمبدأ استقلال التحكيم عن الاتفاق الأصلي أو إنكاره، له أهميته بالغة في العلاقات الدولية الخاصة، فعند التسليم به يكون للمحكم اختصاص الفصل في اختصاصه، حتى و لو تم فسخ أو إبطال العقد الأصلي الذي نشأ عنه النزاع، أما في حالة عدم التسليم به فيبطل شرط التحكيم نتيجة لفسخ أو بطلان العقد الأصلي[4].

و نشير إلى أن مبدأ استقلال اتفاق التحكيم عن العقد الأصلي، أي العقد الذي نشأ عنه النزاع، يؤيده أغلب الفقهاء و تأخذ به أغلب التشريعات الخاصة بالتحكيم، و من جهة فهو ضرورة و سمة تتعلق بنظام التحكيم لا يمكن فصلها عنه لأنها تضمن فعاليته، و بتالي تكون للمحكم سلطة تحديد اختصاصه بنظر النزاع و ذلك علاوة على سلطة الفصل في أية دفوع تتعلق بهذا الاختصاص، بما في ذلك الدفوع المبنية على عدم وجود اتفاق التحكيم أو بطلانه أو سقوطه، و يرى جانب أخر من الفقه أن مبدأ استقلال اتفاق التحكيم عن العقد الأصلي لا يقدم أساسا كافيا لتقرير سلطة المحكم في الفصل في اختصاصه و ذلك على أساس أنه في حالة بطلان اتفاق التحكيم، فإن سلطة المحكم ستنعدم، حيث يفقد المحكم أساس وجوده و سلطاته. و يرى هذا الجانب من الفقه أن منح المحكم سلطة الفصل في اختصاصه بالنزاع، إنما هو أثر للطبيعة القضائية لمهمته وذلك على أساس أن المحكم قاض وبتالي فله سلطة التأكد من حدود اختصاصه و سلطة الفصل في الدفوع الخاصة بذلك، ووفقا لهذا الاتجاه يلتزم المحكم بتحديد اختصاصه بدايتا لأنه قد يترتب على إغفال ذلك تعريض حكمه للإبطال[5].

---

[1] حسين أحمد الجندي، مرجع سابق، ص 86.
[2] المادة 1045 من قانون الإجراءات المدنية و الإدارية الجزائري، الصادر بموجب القانون رقم 08 _09 المؤرخ في 23 فيفري سنة 2008.
[3] حسين أحمد الجندي، مرجع سابق، ص 86.
[4] سامية راشد، التحكيم في العلاقات الدولية الخاصة، اتفاق التحكيم، الكتاب الأول ، دار النهضة العربية ـ القاهرة، سنة 1984، ص 75.
[5] حسين أحمد الجندي، مرجع سابق، ص 85.

فحسب رأي الدكتور حسين الجندي في كتابه النظام القانوني لتسوية منازعات الاستثمار الأجنبية على ضوء اتفاقية واشنطن الموقعة عام 1965 و الذي نسانده الرأي، يرى أن اعتبار الطبيعة القضائية لمهمة المحكم هي أساس سلطته في الفصل في اختصاصه بنظر النزاع، حيث يلتزم بتحديد اختصاصه بداءة، و ما يقتضيه ذلك من سلطة الفصل في الدفوع المتعلقة بهذا الاختصاص، بما في ذلك الدفوع المبنية على عدم وجود اتفاق التحكيم أو سقوطه أو بطلانه أو خروج موضوع النزاع عن نطاق اتفاق التحكيم.

و نشير إلى أن مبدأ الاختصاص بالاختصاص في كثير من الأحيان يخلط بينه و بين قاعدة استقلال الشرط التحكيم بالنسبة إلى العقد الأساسي و لكن في واقع الأمر فإن القاعدتان منفصلتان فمبدأ الاختصاص بالاختصاص يجيز لمحكمة التحكيم متابعة مهمتها حتى و لو كان وجود أو صحة العقد التحكيمي موقع نزاع و موضع طعن، ليس لأسباب تتعلق ببطلان العقد الأساسي، فاستقلالية الشرط التحكيمي عن العقد الأساسي تجيز للمحكم الذي يستمد اختصاصه من الشرط التحكيمي أن يتابع مهمته ولكنه غير قادر على تبرير متابعة السير بالدعوى و اعتبار نفسه مختصا إذا كان الشرط التحكيمي ذاته هو موضع طعن، فلابد هنا من نص قانوني يعطيه هذه السلطة و هذا الاختصاص، و لابد أن يكون هذا النص التشريعي في القانون التحكيمي المطبق، أو على الأقل قانون تحكيم مكان إجراء التحكيم أو في نظام المركز التحكيمي المطبق على التحكيم[1]. فهنا تظهر أهمية مبدأ الاختصاص للنظر بالاختصاص، حيث يجيز للمحكم متابعة السير بالدعوى رغم الطعن بالشرط التحكيمي ذاته.

إن مبدأ الاختصاص بالاختصاص يجيز للمحكمين الفصل في اختصاصهم، فهو يمنع شل التحكيم بوضع الاتفاق التحكيمي موضع طعن، و بالتالي قطع الطريق على المناورات الهادفة إلى شل التحكيم، هذه هي ايجابيات مبدأ الاختصاص بالاختصاص.

أما بخصوص سلبياته فتتمثل في أنه، بموجب هذا المبدأ يكون المحكمين ملزمين بالفصل أولا و بادئ ذي بدئ باختصاصهم، الأمر الذي يمنع المحكمين من النظر في أمور تتعلق بصميم النزاع، و يكون لها أثر حاسم أحيانا على الاختصاص و يمنع على المحكمين النظر في هذه الأمور قبل البث في اختصاصهم، من هنا فإن قاعدة الاختصاص بالنظر بالاختصاص هي قاعدة أولية، فالمحكمون ملزمون بأن يتصدوا لموضوع الاختصاص أولا و قبل كل شيئ و ذلك تحت رقابة القضاء[2].

المحور الثاني:

مبدأ الاختصاص بالاختصاص و أحكام اتفاقية واشنطن

اتفاقية واشنطن تأخذ بمبدأ الاختصاص بالاختصاص، لأنه يتماشى و منازعات الاستثمار التي تتصف بتعقيدها و صعوبة خلق التوازن بين طرفيها، حيث نجدها تنص عليه سواء تعلق الأمر بالتوفيق أو التحكيم.

أولا: مبدأ الاختصاص بالاختصاص في اتفاقية واشنطن

تأخذ اتفاقية واشنطن بمبدأ الاختصاص بالاختصاص سواء تعلق الأمر بالنسبة للتوفيق، حيث نجدها تنص على" **لجنة التوفيق محكومة باختصاصها، و إذا أثير دفع بعدم الاختصاص من قبل أحد الأطراف، يقوم على الإدعاء بعدم دخول النزاع في**

[1] د/ عبد الحميد الأحدب، مرجع سابق، ص 249 و ما بعدها.

[2] عبد الحميد الأحدب، مرجع سابق، ص 250.

نطاق اختصاص المركز أو من أجل أي سبب أخر يتعلق بلجنة التوفيق، فإن اللجنة تقوم بفحصه و عليها أن تقرر ما إذا كان يجب أن يعامل باعتباره مسألة شكلية أو أن فحصه يجب أن يلحق بفحص النقاط الموضوعية"[1].

أما بخصوص التحكيم في إطار المركز، نجد كذلك اتفاقية واشنطن تأخذ بمبدأ الاختصاص بالاختصاص، حيث تنص على: " **المحكمة محكومة باختصاصها، و إذا أثير دفع بعدم الاختصاص من قبل أحد الأطراف يقوم على الإدعاء بعدم دخول النزاع في نطاق اختصاص المركز أو من أجل أي سبب أخر يتعلق بلجنة التحكيم، فإن اللجنة تقوم بفحصه و عليها أن تقرر ما إذا كان يجب أن يعامل باعتباره مسألة شكلية أو أن فحصه يجب أن يلحق بفحص النقاط الموضوعية"**[2].

يظهر لنا من خلال نص هذه المادة أن اتفاقية واشنطن قد أعطت لجنة التحكيم الخاصة بالمركز سلطة الفصل في اختصاصها بخصوص النزاعات التي تعرض عليها، فهي الحكم في هذا[3].

و نشير إلى أنه في حالة ما إذا تقدم أحد أطراف النزاع للمحكمة باعتراض على تسوية النزاع لدى المركز مستندين في ذلك على أن النزاع بين دولتين أو بين دولة و أحد مواطنيها، أو على أساس عدم وجود اتفاق بين الأطراف على تسوية النزاع لدى المركز، أو أن النزاع يخرج من نطاق اختصاص المركز نظرا لطبيعته، مثال ذلك: الادعاء بأن النزاع لا يتعلق بالاستثمار، أي لم ينشئ مباشرة عن استثمار، كذلك قد يقوم أحد الأطراف بالاعتراض على اختصاص المحكمة بالنظر في النزاع و ذلك على أساس اتفاق الأطراف على محاولة تسوية النزاع وديا قبل عرضه على تحكيم المركز، أو الاتفاق على تسويته بطرق التقاضي الوطنية، أو أي أساس أخر يعتمده الأطراف، فإن محكمة تحكيم المركز هي المختصة في الفصل في اختصاصها من عدمه، فهي التي تقرر فيما إذا كانت ستتعامل مع هذا الاعتراض كمسألة أولية أو سوف تضمه إلى موضوع النزاع.

و نشير إلى أن قبول الأمين العام للمركز لطلب التحكيم الذي تقدم به أحد الأطراف و تسجيله وفقا لنصوص اتفاقية واشنطن، لا يمثل أي التزام على محكمة التحكيم بقبول الفصل في النزاع، حيث أنها هي الحكم في اختصاصها و لا يمثل تسجيل طلب أي قيد عليها في قبول أو رفض نظر النزاع إذا تبين لها أنه يخرج عن نطاق اختصاصها وفقا لنصوص اتفاقية واشنطن[4].

ثانيا: تطبيقات مبدأ الاختصاص بالاختصاص في الأحكام الصادرة عن المركز

يعد التحكيم وسيلة شائعة في العصر الحديث لتسوية منازعات لاستثمار التي تنشأ بين الدول

و الأفراد[5]، حيث أصبح قبلة يقصدها أصحاب رؤوس الأموال و الاستثمارات الضخمة هروبا من تطبيق أنظمة قانونية غير مستساغة[6] تفضله الأطراف المتنازعة خاصة، إذا كان تحت مظلة المركز الدولي و فيما يلي سنتطرق لبعض القضايا التي فصل فيها المركز، و التي تشير لتطبيق مبدأ الاختصاص بالاختصاص.

---

[1] المادة 32 من اتفاقية واشنطن.

[2] المادة 41 من اتفاقية واشنطن.

[3] Broches (A) Arbitration in investment disputs, Oceana publication, New York, 1975 , p296

[4] حسين أحمد الجندي، مرجع سابق، ص92.

[5] مفيد شهاب، التحكيم التجاري الدولي في العالم العربي، المجلة المصرية للقانون الدولي، عدد رقم 41، سنة 1985، ص25

[6] أنور علي أحمد الطشي، مبدأ الاختصاص بالاختصاص في مجال التحكيم، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، سنة 2009، ص2.

أ/ نزاع شركة SOABI مع حكومة السنغال

قام هذا النزاع بين شركة Société Ouest Africaine des Betons Industriels (SOABI) و حكومة السنغال، و هو يتعلق باتفاق الأطراف على إنشاء و حدات سكنية بمدينة داكار بالسنغال، مع الاتفاق على اختصاص المركز الدولي لتسوية منازعات الاستثمار من أجل تسوية أية نزاعات تنشأ بينهما وفقا لنصوص اتفاقية واشنطن[1].

أثناء تنفيذ هذا الاتفاق، وقع نزاع بين الأطراف مما استدعى عرضه على المركز، لكن حكومة السنغال اعترضت على اختصاص محكمة تحكيم المركز، ذلك على أساس أن شركة SOABI لا تعتبر مواطن تابع لدولة متعاقدة أخرى، بل هي تحمل جنسية دولة بنما، و هذه الأخيرة لا تعتبر دولة متعاقدة في اتفاقية واشنطن. أما محكمة التحكيم فكان موقفها مغايرا، فلقد رفضت الاعتراض المقدم من قبل الحكومة السنغالية، و رأت أن شركة SOABI رغم أنها لا تحمل جنسية دولة متعاقدة، إلا أنها تخضع في نفس الوقت لإدارة أجنبية تابعة لدولة أخرى متعاقدة و هي دولة بلجيكا فهذا. و بتالي حكمت محكمة التحكيم باختصاصها رغم رفض الحكومة السنغالية، و هذا تطبيقا لمبدأ الاختصاص بالاختصاص. فظاهر الأمر أن محكمة تحكيم غير مختصة بالفصل في هذا النزاع، لأنه ينتفي فيه شرط حتى يمكنها الفصل فيه، و المتمثل في أن يكون المستثمر الأجنبي تابع لدولة متعاقدة أخرى. فدولة بنما كما نعلم لم تكن متعاقدة في اتفاقية واشنطن، لكن محكمة التحكيم لم تصدر حكمها بناءا على نظرة خاطفة لهذا النزاع، والظروف المحيطة به فقط. بل قامت بفحصه بشكل دقيقة مستندتا على مبدأ الاختصاص بالاختصاص. و تبين لها أن شركة SOABI رغم أنها تحمل جنسية دولة بنما، إلا أنها خاضعة لإدارة أجنبية تابعة لدولة أخرى متعاقدة و هي دولة بلجيكا، وبالتالي محكمة التحكيم
هي مختصة بنظر هذا النزاع[2].

ب/ نزاع شركة AMT حكومة زائير

نجد تطبيقا أخر لمبدأ الاختصاص بالاختصاص في حكم محكمة التحكيم في نزاع شركة American Manufacturing trading, inc (AMT) مع حكومة زائير. يتعلق هذا النزاع بمطالبة شركة AMT بالتعويض من حكومة زائير على أساس مخالفة الحكومة لالتزاماتها في اتفاقية تشجيع و حماية الاستثمار الموقعة بين الولايات المتحدة الأمريكية و زائير، من خلال قيام قواتها المسلحة بالاستيلاء على ممتلكاتها و تدمير بقيتها، فنتيجة لهذا قامت شركة AMT بتقديم طلب تحكيم إلى المركز الدولي لتسوية نزاعها مع حكومة زائير.

وقد اعترضت حكومة زائير على اختصاص محكمة تحكيم المركز، مستندة على أساس أنه إذا كانت الشركة المدعية تتمتع بالجنسية الأمريكية و يمكنها الاستفادة من حماية الاتفاقية الثنائية لتشجيع الاستثمار المبرمة بينها و بين الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أنه لا يوجد أي استثمار باسمها في زائير، و علاوة على ذلك فإن شركة AMT هي شريكا فقط في الاستثمار المقام في دولة زائير من جانب شركة SINZA و التي تحمل جنسية زائير و بتالي لا تستفيد من حماية الاتفاقيات الثنائية لتشجيع الاستثمار المشار إليها[3].

---

[1] حفيظة السيد حداد، العقود المبرمة بين الدول و الأشخاص الأجنبية، مرجع سابق، ص 143.
[2] حسين أحمد الجندي، مرجع سابق، ص 96 و ما بعدها.

[3] حسين أحمد الجندي، مرجع سابق، ص 109 و ما بعدها.

و كذلك من بين الاعتراضات التي استندت عليها حكومة زائير، هي أن النزاع المعروض هو قائم بين دولة طرف في اتفاقية واشنطن و بين شركة SINZA و هي مواطن تابع لهذه الدولة و ليست مواطن تابع لدولة أخرى متعاقدة و بالتالي فمحكمة تحكيم المركز لا تختص بالنظر في هذا النزاع، و أضافت حكومة زائير لتبرير موقفها أن الشركة المدعية قد خالفت نصوص اتفاقية تشجيع الاستثمار المبرمة بينها و بين الولايات المتحدة الأمريكية و خاصة فيما يتعلق بتسوية المنازعات بين الأطراف عن طريق المفاوضات، ثم من خلال الطرق الدبلوماسية عند فشل هذه المفاوضات و هذا طبقا لنص المادة الثامنة من هذه الاتفاقية. واستنادا لمبدأ الاختصاص بالاختصاص تفحصت محكمة تحكيم المركز النزاع المعروض أمامها و كذلك الاعتراضات المقدمة من قبل حكومة زائير، و انتهت إلى رفض هذه الاعتراضات و حكمت باختصاصها بنظر النزاع.

فبالنسبة لطبيعة النزاع فلقد تبين لمحكمة تحكيم المركز أنه نزاع قانوني و ناشئ مباشرة عن استثمار. و فيما يخص الاعتراضات التي قدمتها حكومة زائير، فلقد تبين للمحكمة أن هذا الأخيرة قد اعترفت بأن شركة AMT تعد شريكا في شركة SINZA، لكنها أغفلت أن نسبة مشاركتها في شركة SINZA تبلغ 94 بالمائة من قيمة أسهم الشركة. و نتيجة لأن شركة AMT تحمل جنسية الولايات المتحدة الأمريكية و تملك معظم أسهم شركة SINZA فإنها تملك الحق برفع دعوى باسمها ضد حكومة زائير باعتبارها مواطن تابع لدولة أخرى طرف في اتفاقية واشنطن و هذا طبقا لنص المادة 2/25 من هذه الاتفاقية. و فيما يخص موافقة حكومة زائير على اختصاص المركز بنظر النزاع، فلقد تم النص عليها في المادة 8 من اتفاقية تشجيع الاستثمار الموقعة بينها و بين الولايات المتحدة الأمريكية.أما فيما يتعلق بمخالفة الشركة لنصوص اتفاقية الاستثمار الثنائية المبرمة بين زائير و الولايات المتحدة الأمريكية، من خلال عدم محاولة تسوية النزاع عن طريق المفاوضات بين الأطراف ثم بالطرق الدبلوماسية، فلقد تبين لمحكمة تحكيم المركز أن نص المادة الثامنة هو محل المخالفة وفقا لإدعاء الحكومة، فهو يتعلق بتسوية المنازعات بين الأطراف بشأن تفسير أو تطبيق هذه الاتفاقية و ليس بشأن الحقوق محل النزاع التي تم عرضها على المحكمة[1].

خاتمة:

صفوة القول أن مبدأ الاختصاص بالاختصاص، يعد من المبادئ الهامة المتعلقة بالتحكيم التجاري الدولي، فهو يمنح هيئة التحكيم سلطة الفصل في اختصاصها، و لقد أخذت اتفاقية واشنطن بهذا المبدأ تحقيقا لتسوية فعالة لمنازعات الاستثمار الأجنبي التي تعرض على المركز الدولي، فهيئة تحكيم المركز هي من يفصل في اختصاصها من عدمه، و عملية التحكيم لا تتأثر بالاعتراضات التي يمكن أن يقدمها الأطراف بخصوص عدم اختصاصها، كما أن إعطاء فرصة الطعن في اختصاص هيئة تحكيم المركز أمام القضاء، سوف يتعارض مع الميزة التي يتمتع بها التحكيم من السرعة و الفاعلية في حسم المنازعات. فتقرير مبدأ الاختصاص بالاختصاص و الأخذ به يقطع الطريق بوجه الطرف الذي يحمل سوء النية والذي يهدف إلى تعطيل إجراءات التحكيم.

[1] حسين أحمد الجندي، مرجع سابق، ص 111 و ما بعدها.

المراجع :

أ/ المراجع باللغة العربية :

1/ الكتب:

سامية راشد، التحكيم في العلاقات الدولية الخاصة، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، مصر، 1998.

حسين أحمد الجندي، النظام القانوني لتسوية منازعات الاستثمار على ضوء اتفاقية واشنطن الموقعة عام 1965، دار النهضة العربية، القاهرة، 2005.

سلامة أحمد عبد الكريم، التحكيم في المعاملات الداخلية و الدولية، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، القاهرة، 2006.

عبد الحميد الأحدب، موسوعة التحكيم، التحكيم الدولي، الكتاب الثاني، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، 2008.

أنور علي أحمد الطشي، مبدأ الاختصاص بالاختصاص في مجال التحكيم، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، سنة 2009.

حمزة أحمد حداد، التحكيم في القوانين العربية، الجزء الأول، دار الثقافة للنشر، الأردن، 2010.

الرسائل العلمية

حدادن طاهر، دور القاضي الوطني في مجال التحكيم التجاري الدولي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، فرع قانون التنمية الوطنية، جامعة ملود معمري تيزي وزو، الجزائر ، 2012.

المقالات العلمية

أنور علي أحمد الطشي، مبدأ الاختصاص بالاختصاص في مجال التحكيم، دار النهضة العربية،
الطبعة الأولى، سنة 2009.

فؤاد ديب، تنفيذ أحكام التحكيم الدولي، بين البطلان و الكساء في الاتفاقيات الدولية و التشريعات العربية الحديثة، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية و القانونية، المجلد رقم 27، عدد ثالث، سنة 2011.

النصوص و القوانين الداخلية

قانون الإجراءات المدنية و الإدارية الجزائري رقم08 ـ 09 و المؤرخ في 23 فيفري 2008.

الاتفاقيات و المعاهدات الدولية

اتفاقية واشنطن لسنة 1965 الخاصة بتسوية منازعات الاستثمار بين الدول المتعاقدة و رعايا الدول المتعاقدة الأخرى.

اتفاقية جنيف لسنة 1961 الخاصة بالتحكيم التجاري الدولي.

BOOKS :

.Broches (A) Arbitration in investment disputs, Oceana publication, New York, 1975

Ministère de l'Enseignement Supérieur
et de la Recherche Scientifique.
Université de Blida 2 – Ali Lounici.
Faculté des Lettres et des Langues
Laboratoire Langue et Littérature Arabe

LA PHONETIQUE

Revue Annuelle Spécialisée Editée par
Laboratoire Langue et Littérature Arabe
Phonétique Arabe Contemporaine
Blida - Algérie

N° : 16 - Avril 2015
Dépôt légal : 2762-2005
1112 - 6426 : ISSN

Comprendre l'implicite du discours pour le traduire

dr. SAHRAOUI Sid ali
Dépt de Francais
Université de Blida 2

Résumé *:*

Notre réflexion est didactique, nous pensons que des équipes pluridisciplinaires, formées de traductologues et de cogniticiens, peuvent apporter un soutien non négligeable, aux apprenants et aux enseignants de traduction.

Les sciences cognitives étudient les processus mentaux caractérisant les activités humaines, elles postulent que la traduction est une forme de communication bilingue et la considèrent comme une série de processus mentaux de compréhension et de reformulation du sens entre deux langues. La connaissance des processus mentaux, mis en oeuvre durant la traduction, permet aux didacticiens de proposer des méthodes d'enseignement/apprentissage performantes, visant le développement des aptitudes cognitives des apprenants en traduction.

Nous développerons quelques résultats de recherches axées sur des processus cognitifs tels que la compréhension et la production des inférences. Ces avancées théoriques offrent aux didacticiens de la traduction des outils pour la formation d'apprenants- traducteurs plus performants.

Mots-clefs *:*

didactique, traduction, compréhension, expression, analyse du discours, inférences.

Comprendre l'implicite du discours pour le traduire

Lors du colloque de 2003, j'avais rappelé que l'acte de traduire consiste d'abord, à comprendre un texte puis, en une deuxième étape à le ré-exprimer dans une autre langue. J'avais souligné la complexité des opérations de compréhension et d'expression. Dans les limites de la communication et des contraintes de la thématique du colloque de cette année-là, je n'avais abordé que la problématique de la compréhension comme compétence de communication et

plus précisement les définitions et les modèles sémasiologique (ascendant) et onomasiologique (descendant). J'avais rappelé aussi, que cette compétence impliquait des savoirs, des savoir-faire et des stratégies. J'avais enfin, conclu sur la nécessité de faire figurer, dans tous les cursus de traduction, des modules de comprehension.

Je reviens avec le même plaisir cette fois, pour approfondir la même problématique et mettre en relief l'apport des sciences cognitives, au servive de la compréhension et de la traduction. A la suite de Carton (1995) et Bianco (2003), je rappelle que pour dépasser l'explicite, le traducteur doit s'entraîner à produire des inférences pour comprendre le discours avant de le traduire.

1. Les analyses du discours

La traductologie, ne peut pas s'intéresser à la langue en dehors des discours et l'importance des facteurs culturels, sociaux, collectifs et individuels dans la compréhension et l'expression sont importants.

Linguistes, sémioticiens, cogniticiens… analysent les discours et s'intéressent à la compréhension des textes qui est aussi, le point de départ de l'acte de traduire ; cette compréhension est différente de celle qu'on pratique pour rechercher une information, par exemple ; car l'objectif n'est pas le même. Les analyses du discours sont considérées comme des outils nécessaires à l'apprenant-traducteur ; elles sont utiles aussi, comme instruments conceptuels au service des traductologues.

2. Les approches cognitives

Les sciences cognitives s'intéressent à la traduction comme un processus mental de compréhension et d'expression. Leurs méthodes d'investigation sont nombreuses, nous citerons celle de « la réflexion à voix haute », qui contrairement aux approches béhavioristes, permet de comprendre ce qui se passe dans la « boîte noire » du traducteur. Ces sciences s'intéressent au cerveau pour étudier le processus mental et cognitif qui permet notamment, de traduire.

2.1. Compréhension écrite : modèles

Les modèles de référence de Kintsch et Van Dijk (1983) ; Kintsch, (1998) sont actuellement, les plus cités dans le domaine de la compréhension écrite. Cette dernière passe par l'élaboration d'une représentation mentale cohérente, réalisée grâce aux liens tissés entre les éléments du texte et les connaissances antérieures du traducteur. Le processus de

compréhension est décrit par Kintsch (1998), comme un « modèle de construction et d'intégration » de sens.

- Le résultat du processus de construction est un ensemble de propositions contenant les micro-propositions (dérivées du texte), des macro-propositions et les inférences associées aux différentes propositions.

- Le processus d'intégration exclut les éléments inappropriés à une représentation mentale structurée. Il est réalisé chaque fois qu'un nouveau réseau est élaboré.

Kintsch, (1998) qui s'est interrogé sur la construction de cette représentation mentale, explique que lorsqu'un mot est lu, tous les sens possibles sont construits, de manière désordonnée, répétitive, et parfois contradictoire. Par la suite, le mot subit un processus d'intégration qui va rapidement supprimer les éléments non pertinents. Ainsi, une représentation mentale conforme au contexte est élaborée.

Ces deux processus sont effectués à l'aide des différentes connaissances du traducteur (lexique, syntaxe, relations spatiales et connaissances du monde...). La représentation du discours est étudiée selon plusieurs stades : la microstructure, la macrostructure, la base de texte et le modèle de situation. Des inférences de liaison sont nécessaires lorsque la base de texte est incohérente.

2.1.1. La base de texte et le modèle de situation

La base de texte est composée des propositions directement dérivées du texte tandis que le modèle de situation englobe la base de texte et les connaissances antérieures. Plusieurs règles administrent ces processus :

- Règles de construction des propositions : Le traducteur élabore une représentation mentale du texte en intégrant les microstructures qui, une fois regroupées, donnent une macrostructure; ces deux éléments constituent la base du texte (regroupement des propositions explicites du texte). À cette base de texte sont ajoutées les connaissances antérieures du lecteur, (sur la thématique du texte, sur le domaine de référence...), constituant ainsi une représentation mentale, appelée modèle de situation.

Un réseau de propositions doté de ses propres règles d'interconnexion, se forme. Selon leur type, les liens les plus forts seront plus activés que les autres pour former la représentation mentale.

Des règles d'activation de connaissances régissent le réseau. Les éléments disponibles en mémoire de travail activent des items voisins dans la base des connaissances (en mémoire à long terme) avec une probabilité d'activation proportionnelle à la puissance de leur lien. Une fois les informations présentes en mémoire à long terme activées, elles sont récupérées plus facilement.

2.1.2. La mémoire de travail en traduction

Il est plus approprié de parler au pluriel quant il s'agit de « mémoire », et de s'interroger sur la manière de faire circuler les connaissances de la mémoire à court terme à la mémoire à long terme.

En tant que système de traitement, la mémoire, comprend trois phases :

- L'encodage est le processus par lequel l'information d'entrée est enregistrée, perçue et transformée en un format approprié pour la représentation en mémoire ;
- La consolidation est la conservation en mémoire à long terme des représentations ;
- La récupération est l'ensemble des processus de récupération qui permettent la réactualisation des connaissances mnésiques.

Alimentée par les données du texte balayé par les yeux, la mémoire de travail appréhende du sens pour palier sa faible capacité de stockage. Cette limite lui interdit, en effet, de retenir toutes les formes du texte codé par le scripteur, selon un système de signes spécifique. Le texte étant porteur d'un sens virtuel activé par la lecture, on ne peut donc parler de compréhension sans mémoire. Gremmo, (1980), attribue à cette mémoire de travail : un rôle important pendant le processus de lecture. Elle stocke pour un laps de temps assez court un volume limité d'informations neuves et permet au cerveau de décider s'il est utile ou non de l'intégrer ... Elle permet pendant la lecture la construction progressive du sens... le bon traducteur lit vite donc surcharge moins sa mémoire à court terme. La faible capacité de stockage ainsi que le caractère transitoire, ou relais, entre l'œil et la mémoire à long terme font de cette mémoire de travail un maillon fragile dans le processus de lecture des « mauvais traducteurs ». Ces derniers perdent le sens d'une phrase dès que celle-ci est un peu trop longue ; d'où retours incessants en arrière et ralentissement du rythme de lecture. Ils peuvent continuer à lire mais l'effort est si intense qu'ils ne comprennent pas le sens, au terme de leurs lectures.

Pour contourner la polysémie du signifiant, la mémoire fait appel au contexte pour choisir le signifié exact. Une suite de mots non liés a moins de chances d'être comprise qu'une autre, où

les mêmes mots seraient mis en relation. Quand deux signifiés sont représentés par un même signifiant c'est le contexte qui permet de choisir.

Selon Lieury (1996) il y'a plusieurs mémoires spécialisées :

-La mémoire sensorielle ;

-La mémoire abstraite ;

-La mémoire imagée ;

-La mémoire lexicale ;

-La mémoire sémantique ;

- La mémoire épisodique ;

- La mémoire déclarative ;

- La mémoire procédurale ;

- Les mémoires perceptives…

La mémoire de travail et ses diverses composantes sont fortement liées à l'acte traductionnel. Selon Baddeley, (1992 et 2000), l'essentiel de l'acte traductionnel a lieu dans la mémoire de travail (MDT) ou mémoire à court terme (MCT). Ce processus complexe implique l'élaboration d'une représentation mentale qui servira de base à la reformulation du sens. Le fonctionnement spécifique de la MDT, lors de l'opération traduisante, est intéressant à étudier afin d'améliorer la formation des traducteurs. Elle est définie comme :

« Un système de capacité limitée, qui permet le stockage temporaire et la manipulation des informations qui sont nécessaires pour la réalisation des tâches cognitives complexes, telles que la compréhension, l'apprentissage et le raisonnement » Baddeley (1992).

Ce « système » serait composé de quatre éléments : L'administrateur central, la boucle phonologique, le calepin visuo-spatial et le buffer épisodique.

- L'administrateur central contrôle l'attention, supervise et coordonne les fonctions de trois autres sous-systèmes ;
- La boucle phonologique, responsable du stockage et du traitement des informations provenant du langage (informations verbales et auditives) ;
- Le calepin visuo-spatial qui stocke et manipule les images mentales ;
- Le buffer épisodique, conçu comme un lieu de stockage à capacité limitée et capable de recevoir des informations provenant de sources diverses ; il permet aussi, l'interaction de la mémoire de travail avec la mémoire à long terme.

Ce système à trois sous-composantes, coordonné par l'administrateur central, serait impliqué, d'après Baddeley, dans la réalisation des tâches cognitives complexes comme la traduction.

- La lecture implique le traitement des informations visuelles et verbales, (le calepin visuo-spatial et la boucle phonologique sont en action) ;
- la compréhension nécessite l'interaction entre mémoire à court et à long terme et la formation des images mentales, (le buffer épisodique et le calepin visuo spatial interviennent) ;
- la réexpression implique le traitement des informations visuelles et verbales (grâce au calepin visuo-spatial et /ou de la boucle phonologique).

2.1.2. Compréhension et inférences

Inférer du sens c'est prélever toutes sortes d'indices du contexte et utiliser ses propres connaissances pour deviner ou compenser ce qu'on ne comprend pas Selon Bailly (1998), l'inférence est une opération mentale de haut niveau mise en œuvre dans le processus de compréhension. Il s'agit d'une opération de raisonnement logique par laquelle, à partir d'un fait, d'une proposition..., on tire une conséquence. C'est une démarche de type ascendant (de bas en haut, sémasiologique ou bottom-up). Le processus d'inférence permet de construire une information à partir d'un contexte qui ne l'offre pas. L'inférence permet aussi, de compenser le sens d'un énoncé mal compris.

Selon Fayol, (2008), « Les inférences sont des interprétations qui ne sont pas littéralement accessibles, des mises en relation qui ne sont pas explicites. C'est le lecteur qui les introduit dans l'interprétation des mises en relation qui ne sont pas immédiatement accessibles [...] la signification n'est pas donnée par le texte dont elle serait simplement extraite, elle est construite par le lecteur et varie donc autant en fonction de la base de connaissances et des stratégies du lecteur-compreneur qu'en fonction de l'information apportée. »

Les apprenants-traducteurs savent localiser les informations exprimées dans le texte de manière explicite, ils savent les relever pour réaliser les activités de compréhension. Ils éprouvent cependant de grandes difficultés lorsque les informations nécessaires à l'accès au sens son implicites; ils ne savent pas inférer.

Selon Giasson, (2000), l'inférence est une démarche logique de déduction consistant à expliciter des informations évoquées ou supposée connue, à partir d'indices linguistiques repérés dans le texte.

Exemple a : « Pour éviter la grippe il est nécessaire de ne pas boire dans le même verre que la sœur déjà grippée »

Le lecteur « expert » comprendra d'abord que cette maladie est contagieuse, même si ce terme n'a jamais été exprimé, dans l'énoncé. Il saura ensuite qu'il faudra respecter toute une liste de mesures et pas seulement le verre contaminé, pour ne pas attraper la grippe.

Exemple b : Dans l'énoncé « la grippe est une maladie contagieuse » il n'est pas dit explicitement qu'il faut porter un masque, se laver les mains à plusieurs reprises, ne pas utiliser les mêmes ustensiles de cuisine que le malade… Toutes ces informations sont présentes implicitement dans l'énoncé, mais l'apprenant doit faire l'effort de les inférer.

Pour enseigner explicitement l'inférence :

1-l'enseignant imagine des problèmes de compréhension à résoudre par cette opération logique (inférence).

2- Il en résoudra d'abord, quelques uns devant les apprenants, en raisonnant explicitement, à voix haute et en mettant en relief, localisant, relevant, les indices.

3- Dans une deuxième étape, il les aidera seulement à mettre en relief les indices et leur demandera d'inférer à leur tour.

4- Lors de la dernière étape, l'apprenant essayera de réaliser seul la mise en relief des indices, l'inférence et la justification.

Les inférences sont généralement regroupées, deux par deux, en cinq catégories :

1- Temps / Lieu (à quel instant, journée, semaine, mois, année, se passe l'action et où se passe t elle?)

Exemple c : « Lorsqu'il pleut et que la température descend, une épidémie saisonnière peut toucher 5 à 15 % de la population »

Durant quelle saison la grippe touche-t-elle le plus de personnes ? (hiver)

Exemple d : « Les salles sont propres, les draps des malades et les blouses des infirmières sont d'un blanc immaculé. »

Dans cet énoncé, où sommes-nous ? (Hôpital)

2 - Action / agent (quels sont les événements ? Qui les provoque?)

Exemple e : « La maladie se propage d'une personne malade à une personne saine. »

Dans cet énoncé quel est le phénomène décrit ? Qui est l'agent de transmission ? (Contagion – virus)

3 - Catégorie / Objet (A quoi sert tel objet ?dans quelle catégorie peut-on classer les objets inventoriés? Sous quel terme générique peut on les classer)

Exemple f : « Ces produits obtenus en laboratoire rendent la douleur plus supportable »

Dans cet énoncé, quel est l'objet dont on parle ? Dans quel catégorie peut-on le classer ? (Antalgiques – médicaments)

4 - Cause/effet (quelle est la cause de l'action, quelle conséquence aura-t-elle ?)

Exemple g : « L'enfant atteint a rapidement été mis en quarantaine »

Pourquoi l'enfant a t il été isolé ? Où a-t-il été transporté ? (maladie – hôpital)

5 - Problème / solution (quel est le problème et comment le résoudre ?)

Exemple h : « le médecin a prescrit une solution à instiller sous forme de gouttes auriculaires »

Dans cet énoncé, de quoi souffre le malade ? (otite – anti-inflammatoire).

Le recours aux connaissances dont le lecteur a besoin pour comprendre le texte est désigné par la production des inférences. Kintsch, (1998) établit une distinction entre l'inférence proprement dite et le processus de récupération des informations dans la mémoire à long terme. Le premier type est un processus de résolution de problème qui consiste à tirer des conclusions à partir de prémisses. Le deuxième type de processus sert à remplir les blancs du texte à l'aide de connaissances antérieures. Il fait aussi, la distinction entre l'inférence automatique (inconsciente) et l'inférence contrôlée (consciente). Le contexte et les connaissances encyclopédiques constituent les sources des inférences produites par les lecteurs.

Pour former un modèle de situation, le lecteur applique des règles de construction des inférences du type :

Si A implique B et

si B implique C

Alors A implique C.

Les propositions construites avec ces règles sont interconnectées en réseau. L'activation finale est formée des propositions du texte, des inférences et des connaissances antérieures du lecteur.

Pour traduire un texte ou un discours, le traducteur commence donc par le comprendre c'est à dire construire une représentation mentale (modèle mental ou modèle de situation) intégrée et cohérente de la situation décrite ou racontée dans ce texte ou dans ce discours.

F. Carton, (1995) est catégorique : « L'essentiel pour l'apprentissage de la compréhension reste de s'entraîner à inférer à partir des éléments reconnus dans le texte. »

Pour M. Bianco, (2003), « comprendre, c'est aller au-delà de l'explicite, c'est pouvoir effectuer les inférences nécessaires à la compréhension des relations (de référence, de causalité, de situations spatio-temporelles…) existant entre les phrases d'un texte». Pour cette auteure la compréhension se définit surtout par la compréhension des inférences. La compréhension implique donc la construction d'un modèle de situation intégrant les informations implicites qui ne figurent pas dans le texte et que le traducteur doit inférer car dans un texte, tout n'est pas dit, il y a de l'implicite. Les inférences sont les opérations qui permettent de rendre explicite l'implicite. « Une inférence est le recours à des connaissances non explicitement évoquées par et dans le texte, mais que le lecteur doit retrouver dans sa mémoire ou déduire pour établir la continuité dans l'interprétation de la signification du texte. » Fayol, M., & Gaonac'h, D. (2003).

Il existe plusieurs types d'inférences :

- 1) Les inférences nécessaires ;
- 2) Les inférences optionnelles ;
- 3) Les inférences logiques ;
- 4) Les inférences pragmatiques ;
- 5) Les inférences rétrogrades ;
- 6) Les inférences antérogrades ;

2.1.3. Application sur le discours médical

(Annexe 1 : Les maladies virales contagieuses ; La Grippe : Site interministériel de prévention des risques et de gestion des crises. grippeaviaire.gouv.fr

1) Les inférences nécessaires : sont indispensables pour comprendre un texte.
Exemple : comprendre que la grippe est causée par un virus. Sans virus (cause) point de grippe (conséquence)

2) Les inférences optionnelles, ne sont pas indispensables, elles viennent enrichir la compréhension.
Exemple : La grippe n'est pas grave sauf lorsqu'elle s'accompagne de complications. La connaissance des complications de la grippe enrichit la représentation mais ne la bloque pas. Chacun se fait ses propres représentations.

3) Les inférences logiques sont le fruit du raisonnement logique.
Exemple : « Une seule complication de la grippe peut la rendre dangereuse. Cela implique que l'addition des complications est encore plus dangereuse.

4) Les inférences pragmatiques permettent de faire des déductions.
Exemple : Eviter les complications pour prévenir la grippe. Cette assertion produit une inférence probable, mais non certaine. Les complications surviennent souvent après la grippe mais peuvent ne pas survenir du tout.

5) Les inférences rétrogrades / antérogrades relient la partie du texte déjà lue et analysée avec l'information en cours de traitement ou bien permettent d'anticiper la suite du texte.
Exemple : « L'asthme peut compliquer une grippe », on peut relier cette phrase à une autre du début du texte, qui vantait les mérites du vaccin antigrippal ou bien anticiper que les asthmatiques craignent les grippes et se font vacciner chaque année, à titre préventif.

a) Les notes de vocabulaire

Pour traduire le site du gouvernement français sur les dangers de la pandémie, qui menace le monde entier, l'apprenant-traducteur qui fait appel à un dictionnaire généraliste aura toujours des zones d'ombre. Si ses connaissances antérieures ne sont pas suffisantes, les définitions ou notes de vocabulaire relevées dans le « Petit Larousse illustré » ne l'aideront pas à combler les lacunes ou troués sémantiques du site Internet.

Exemples des définitions du « Petit Larousse illustré »

Grippe

Nom donné à diverses affections saisonnières contagieuses d'origine virale et s'accompagnant de fièvre ainsi que cathare nasal ou bronchique.

Contagion

Transmission d'une maladie par le contact médiat ou immédiat.

Epidémie

Atteinte simultanée d'un grand nombre d'individus d'un pays ou d'une région par une maladie particulière, comme la grippe, le choléra, la fièvre typhoïde…

Pandémie

Extension d'une maladie contagieuse sur une zone géographique très étendue.

Virus

Organisme de très petite taille, ne contenant qu'un seul acide nucléique et ne pouvant se développer qu'à l'intérieur d'une cellule vivante.

Prévention

Ensemble des mesures prises en vue d'éviter les accidents de la route (prévention routière), les accidents du travail ou les maladies professionnelles (prévention des accidents du travail, médecine du travail), le développement des épidémies ou l'aggravation des états sanitaires individuel (médecine préventive)

Aviaire

Adjectif relatif aux oiseaux.

b) Les notes inférentielles

Avec des notes inférentielles l'aide est plus conséquente pour l'apprenant-traducteur qui ne possède pas encore, de solides connaissances antérieures sur le domaine de référence des sciences médicales.

http://grippeaviaire.gouv.fr

Pendant les épidémies de grippe aviaire, le gouvernement français a mis en ligne un site interministériel de prévention des risques et de gestion des crises. (Annexe 1)

L'infection virale

La grippe est une infection d'origine virale. Le virus influenza est à l'origine des grippes, il en existe plusieurs types (A, B, C), contenant chacun de multiples sous types (en fonction de la nature de l'hémagglutinine H et de la neuraminidase N à la surface des virus), ces derniers comprenant également chacun plusieurs souches virales.

Le virus de la grippe

La grippe est une infection virale, respiratoire aiguë, contagieuse. Le virus de la grippe touche le système respiratoire et se transmet rapidement de personne à personne. Des épidémies saisonnières touchent 5 à 15 % de la population. Le délai d'incubation est de un à sept jours et les signes cliniques durent cinq à dix jours. Le malade est contagieux 24 à 48 heures avant l'apparition des signes cliniques et le demeure pendant la période symptomatique de la maladie. L'excrétion maximale du virus par le malade est contemporaine du grand frisson fébrile inaugural. Dans les cas de grippe aviaire, la contagion par le virus se transmet d'une espèce d'oiseau à un être humain. Des millions de personnes peuvent être touchés.

La pandémie grippale

Il s'agit d'une épidémie qui touche rapidement plusieurs régions, pays, continents. La pandémie frappe lorsqu'un nouveau sous-type de virus, résultant d'une modification génétique, apparait. Face à cette modification, l'immunité de la population est faible ou nulle.

Il peut en résulter un nombre important de cas graves ou de décès.

L'influenza aviaire

Cette infection touche toutes les espèces d'oiseaux Elle est provoquée par un virus de la famille des Orthomyxoviridae qui comprend plusieurs genres (ou types) dont Influenza virus A. Celui-ci est divisé en sous types parmi lesquels le sous-type H5N1, qui comprend lui-même plusieurs souches au pouvoir pathogène variable. En se modifiant une souche « normale » peut devenir "hautement pathogène", pour provoquer une maladie contagieuse et mortelle. On parle de grippe aviaire lorsqu'un humain est infecté par une souche de virus influenza aviaire hautement pathogène (A (H5N1), A (H7N7), etc.).

La grippe aviaire

La grippe aviaire à l'origine des pandémies. L'Influenza aviaire est une infection due à un virus, elle peut toucher presque toutes les espèces d'oiseaux, elle est habituellement silencieuse. En se modifiant la souche peut devenir "hautement pathogène", et fortement contagieuse et entraîner une mortalité élevée surtout chez les poulets et les dindes. De manière exceptionnelle, elle peut être à l'origine de contaminations humaines.

Allergies

Il est généralement recommandé d'éviter l'allergène responsable, ce qui est souvent difficile. Il est parfois facile d'éviter d'entrer en contact avec des oiseaux à plumes ou des animaux responsables de l'allergie, mais Il n'est pratiquement pas possible d'éviter le contact avec l'air contenant les poussières, les pollens… à l'origine de l'allergie.

L'arbre bronchique

L'ensemble des ramifications dessine l'arbre bronchique. Les bronches sont des conduits permettant le passage de l'air entre la trachée et les poumons. La trachée se divise en deux grosses bronches, vers les poumons où elles se divisent en branches de plus en plus petites. Ces petites branches, ou bronchioles, font partie du tissu pulmonaire, elles s'ouvrent sur les alvéoles (sacs microscopiques remplis d'air et tapissés de vaisseaux sanguins). Les bronchopathies chroniques obstructives (BCO) sont des maladies des bronches (diminution de leur diamètre. L'évolution de ces maladies (bronchite chronique, asthme, emphysème.) entraîne l'insuffisance respiratoire.

Les antibiotiques

Les antibiotiques sont sans effet sur de nombreuses infections. Les antibiotiques sont des

médicaments ayant la propriété d'éliminer les bactéries ou d'empêcher leur prolifération. Les antibiotiques sont donc, prescrits dans le traitement des infections provoquées par des bactéries pathogènes.

Toutes les infections parasitaires, virales ainsi que les mycoses nécessitent d'autres traitements, à base de médicaments antiparasitaires, antiviraux et antifongiques car les antibiotiques ne sont pas efficaces contre ces infections.

2.2. Le modèle de Hayes et Flower (1980)

Une fois que le texte est compris, il est traduit dans une autre langue. La psychologie cognitive peut apporter là aussi, ses connaissances car la phase de re-expression exige des stratégies rédactionnelles et communicationnelles spécifiques. Les approches cognitives, formulent l'hypothèse que les problèmes de traduction dépendent de l'élaboration de la représentation mentale et de la mobilisation de charge cognitive allouée à l'acte de traduire. Les cogniticiens Hayes et Flower (1980, 1986) ont proposé un modèle de l'expression écrite, en trois étapes :

1/ Planification : définition des objectifs, production des idées, organisation.

2/ Mise en texte : production du texte, formation des phrases, choix du lexique, liaison syntaxiques.

3/ Révision : relectures, correction.

-Lors de la première étape les scripteurs définissent leurs objectifs, planifient, préparent ce qu'ils veulent dire. Ils rassemblent leurs idées et les organisent. Ils décident de s'adresser à des étudiants ou à des sportifs, dans une revue scientifique ou bien un magazine de football, par exemple.

-Lors de la mise en Texte, les scripteurs rédigent, produisent de l'écrit. Ils sélectionnent leurs mots et les structures syntaxiques adéquates (en fonction des objectifs tracés).

-Lors de la dernière étape, celle de la révision, les scripteurs se relisent et décident ou non de changer un terme, son orthographe, une tournure syntaxique, la structure d'une phrase, d'un paragraphe… Ils évaluent enfin, leur texte final.

Pour conclure

Les sciences cognitives s'intéressent désormais à la mystérieuse « boîte noire » ; leurs hypothèses sont les suivantes : si on arrivait à connaître le fonctionnement du cerveau des traducteurs, on comprendrait le caractère cognitif de l'acte de traduction et on élaborerait des cursus spécifiques à leur formation.

L'étude des processus cognitifs constitue un défi important pour les spécialistes en didactique de la traduction ; la connaissance de ces processus peut constituer le fondement de nouvelles méthodes d'enseignement qui viseront le développement des aptitudes cognitives des traducteurs en vue d'améliorer leurs performances qualitatives et quantitatives.

Nous rappellerons que notre réflexion est didactique car nous pensons que des équipes pluridisciplinaires, formées de traductologues et de cogniticiens, peuvent apporter un soutien non négligeable, aux apprenants et aux enseignants de traduction. Nous avons proposé quelques pistes pour orienter la réflexion sur les apports des sciences cognitives à la traduction et à la traductologie. Ces sciences peuvent en effet, aider les enseignants à mieux appréhender la charge cognitive mobilisée lors de l'opération de traduction. Les spécialistes de la traduction gagneraient à étudier la psychologie cognitive pour intégrer à leurs recherches ainsi qu'à leur enseignement, la dimension cognitive. La connaissance des qualités cognitives des apprenants en traduction leur permettrait de mieux les comprendre et ainsi d'organiser un enseignement plus personnalisé, cet apport peut porter sur deux axes : celui du développement des aptitudes cognitives des apprentis traducteurs et celui de leur prise de conscience de la dimension métacognitive du processus traductionnel.

Bibliographie

- Blanc & Brouillet, 2003 et Fayol & Gaonac'h, 2003, pour des revues en français, des travaux rédigés en Anglais

-Bianco, M. (2003). Apprendre à comprendre: l'entraînement à l'utilisation des marques linguistiques. In D. Ganoac'h & M. Fayol (Eds.), *Aider les élèves à comprendre, du texte au multimédia* . Paris: Hachette éducation.

- Carton, F. (1995), « L'apprentissage différencié des quatre aptitudes » dans *Verbum* n° 1, Université de Nancy

-Crinon, J., Legros, D., (2000), « Aide à la compréhension » CODITEXTE de l'IUFM de Créteil, Paris.

-Crinon, J., (2011), « Lire à l'heure du numérique », dans *Argos,* n° 48, Comprendre ça s'apprend.

-Dancette, J. (1995) : Parcours de traduction, Lille, Presses Universitaires de Lille.

-Delisle, J., Lee-Jahnke, H. et M. C. Cormier (1999) : Terminologie de la traduction, Amsterdam/Philadelphia, John Benjamins Publishing Company.

-Delisle, J. (1984) : L'analyse du discours comme méthode de traduction, Ottawa, Éditions de l'Université d'Ottawa.

-Durieux, C. (1988) : Fondement didactique de la traduction technique, Paris, Didier Érudition.

- Fayol, M., et Gaonac'h, D. (2003). La compréhension, une approche de psychologie cognitive. In D. Gaonac'h & M. Fayol (Eds.), *Aider les élèves à comprendre.* Paris : Hachette

-Gaonac'h, D. (1991), *Théories d'apprentissage et acquisition d'une langue étrangère,* Paris : Hatier/Didier.

-Gremmo et Holec (1990 : 39), - Gremmo, M.J. et Holec, H (1990) « La compréhension orale un processus et un comportement » dans *Acquisition et utilisation d'une langue étrangère, l'approche cognitive.* Hachette – (Collection F / FDM/ Recherches et applications)

Lederer, M. (1994) : La traduction aujourd'hui, Paris, Hachette.

Le Ny, J.-F. (1989) : Science cognitive et compréhension du langage, Paris, PUF.

- Van Dijk, T. et Kintsch, W. (1983), *Strategies of discourse comprehension*, New York, Academic Press, Cité par Crinon et al, 2007.

-Rouet, J.F. (2005). « La conception de ressources multimédias pour l'apprentissage : apport des recherches en psychologie du langage » dans *Revue française de Pédagogie*, n°152.

***ANNEXE 1** :*

Grippe saisonnière

La grippe est une infection respiratoire aiguë, contagieuse, d'origine virale (virus influenza), dont il existe plusieurs types (A, B, C), contenant chacun de multiples sous types (en fonction de la nature de l'hémagglutinine H et de la neuraminidase N à la surface des virus), ces derniers comprenant également chacun plusieurs souches virales. Des épidémies saisonnières surviennent chaque année, avec une circulation d'une ou plusieurs souches contre lesquelles la population possède une certaine immunité, acquise par la vaccination ou une circulation passée récente. Une épidémie saisonnière hivernale peut toucher 5 à 15 % de la population. Le délai d'incubation est de un à sept jours et les signes cliniques durent cinq à dix jours. Le malade est contagieux 24 à 48 heures avant l'apparition des signes cliniques et le demeure pendant la période symptomatique de la maladie. L'excrétion maximale du virus par le malade est contemporaine du grand frisson fébrile inaugural.

Influenza-aviaire

Il s'agit également d'une infection due à un virus de la famille des Orthomyxoviridae qui comprend plusieurs genres (ou types) dont Influenza virus A. Celui-ci est divisé en sous types parmi lesquels le sous-type H5N1, qui comprend lui-même plusieurs souches au pouvoir pathogène variable. Cette infection peut toucher presque toutes les espèces d'oiseaux, sauvages ou domestiques. Elle est habituellement silencieuse, les oiseaux infectés ne montrant aucun symptôme ou présentant uniquement des symptômes frustes. Dans ce cas la souche du virus est dite "faiblement pathogène". Cependant les souches faiblement pathogènes peuvent se modifier et circuler plus rapidement à l'intérieur des troupeaux ou entre les troupeaux de volailles, en particulier si les barrières sanitaires entre élevages sont insuffisantes En se modifiant ainsi, une souche peut devenir "hautement pathogène", provoquer une maladie fortement contagieuse et entraîner une mortalité élevée surtout chez les poulets et les dindes. De manière exceptionnelle, elle peut être à l'origine de contaminations humaines.

Grippeaviaire

On parle de grippe aviaire lorsqu'un humain est infecté par une souche de virus influenza aviaire hautement pathogène (A (H5N1), A (H7N7), etc.).

La-pandémie-grippale

Une pandémie grippale est une épidémie caractérisée par sa diffusion rapide et géographiquement très étendue (plusieurs continents ou monde), à l'occasion de l'apparition d'un nouveau sous-type de virus résultant d'une modification génétique. Le virus possédant des caractéristiques nouvelles, l'immunité de la population est faible ou nulle. Il peut en résulter un nombre important de cas graves ou de décès. L'apparition d'une pandémie peut résulter d'échanges entre souches animales et humaines en évolution permanente ou de mutations progressives d'un virus animal.